متاهة
حـواء

AAAAAA LABYRINTH

متاهة

حـواء

وادي الـظـلـمـات

AAAAAA LABYRINTH

رواية

بُرهان شاوي

BURHAN SHAWI



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1434 هـ – 2013 م

ردمك 978-614-01-0662-8



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الإنسانُ ذاهبٌ إلى بيتِهِ الأبديِّ والنادبونَ يَطُوفونَ في السوق.

سفر الجامعة – الأصحاح الثاني عشر

إنَ حياتي إنّما هي ريحٌ وعيني لا تَعودُ ترَى خيراً. لا تراني عينُ ناظري. عيناك عليَّ ولستُ أنا. السحابُ يضمحلُ ويزولُ. هكذا الذي ينزلُ إلى الهاويةِ لا يَصْعَدُ. لا يَرْجِعُ بَعدُ إلى بيتِهِ ولا يَعْرِفُهُ مكانُهُ بَعْدُ.

سفر أيوب – الأصحاح السابع

«إني أفضّلُ الحيوان على الأحمق، وأفضّلُ الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وأفضّلُ المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضّلُ السذاجة على التصنع، وأفضّلُ القسوة على التملق، وأفضّلُ بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة. فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلى بها الجميع. فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس».

ستندال من كتاب (حياة روسيني)

1

كوابيس آدم المحروم

أفاق آدم المحروم من غفوته مرعوباً فوجد نفسه غارقا في عتمة الغرفة. لا يدري كيف ومتى نام. فجأة قفز من الصوفا وكأنه تذكر شيئا. مشى نحو الباب حيث ضغط هناك على زر الكهرباء فأضاء الغرفة مصباح شاحب. فتش عن الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات صديقه القتيل آدم البغدادي فوجد أنه قد اتكأ عليها كوسادة له. حاول استذكار ما حدث منذ دخوله إلى الغرفة. نعم، لقد دخل وضغط على الريموت كونترول فشاهد الأخبار العاجلة عن إكتشاف جثة الكاتب آدم البغدادي في مطبخ شقته وقد اخترقتها رصاصتان في الرأس من الخلف، وكيف أنه أغلق التلفزيون وجلس مفكراً بما شاهده. لا يدري بعد ذلك ما حدث، وها هو قد إستيقظ.

جلس آدم المحروم على الصوفا. كانت صورة جثة صديقه آدم البغدادي وهي منكبّة على وجهها وبقعة الدم المتجمد قرب الرأس تطغى على ذاكرته. انفجر بنوبة بكاء هستيري، بكاء حاد، بصوت عال، وبحرقة شديدة. بكاء أمتزج فيه الحزن على قتل هذا المبدع العراقي بهذه الطريقة الوحشية مع خوف على النفس أن تلاقي المصير ذاته، إذ بدا أن هؤلاء الحكام الجدد لا يختلفون كثيراً عمن سبقهم، فالسلطة هي السلطة في أي زمان ومكان.

وبطريقة دراماتيكية مفاجئة توقف عن البكاء. هيمنت عليه بشكل غريب فكرة أنه مستهدف أيضا، فهو صديقه الحميم، وربما كانت السلطة تتنصت على هاتف صديقه القتيل، وربّما عرفوا أنه اتصل به ليلة أمس واتفق معه على اللقاء؛ ماذا عليه أن يفعل؟ هل عليه أن يختفي؟ هل عليه تغيير مكان سكنه؟ هل عليه السفر إلى النجف عند أهله وأعمامه؟ أمن المعقول أن يؤذوه وهو من عائلة نجفية معروفة؟ كيف ذلك وهو من المشاركين في الانتفاضة الشعبية الشعبانية في بداية التسعينات ضد الحكم السابق؟ لا.. هؤلاء من أجل البقاء في السلطة قد زوروا التاريخ كله، بل إنهم على استعداد لإرتكاب أبشع الجرائم من أجل أن يبقوا جالسين على كراسيهم المرعبة.

أحس بقطرات عرق بارد تتجمع على جبينه، وبطريقة لا إرادية مد يده إلى الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات صديقه الكاتب القتيل آدم البغدادي. فتحها ومد يده ساحبا مغلفا كبيرا. فتحه فقرأ عنوناً كبيرا يتصدر الصفحة (متاهة حواء – وادي الظلمات). قلب الصفحة فوقعت عيناه على نص مقتبس من كتاب (حياة روسيني) للكاتب الفرنسي (ستندال) موضوع بين قوسين: « إنـي أفضّلُ الحيوان على الأحمق، وأفضّل الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وأفضّل المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضّل السذاجة على التصنع، وأفضّل القسوة على التملق، وأفضّل بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة. فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلى بها الجميع. فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس ».

بقيَ آدم المحروم عند هذه الصفحة ولم يغادرها. فكر في صديقه الكاتب آدم البغدادي وتساءل لماذا اختار هذا النص لستندال ليفتتح به روايته؟ هل لهذا الأمر علاقة بأبطال الرواية الجديدة، أو أنه يكشف عن عذابات صديقه الروحية في عالم ساد فيه الأوغاد والسفلة على كل شيء؟ عالم تم تزييف كل شيء فيه، عالم قاس لا يترك للإنسان شيئا من الأمل، فقد كان الناس يلوذون إلى الدين هرباً من قذارات هذا العالم المليء بالنفاق والغدر والأكاذيب والقسوة، لكن في بلاده سقطت كل الأشياء، وفي مقدمتها الدين، فقد لوثه الذين يتسلطون الآن باسمه حتى صار الناس لا يعرفون إلى أين يتجهون بهمومهم وخيباتهم.

وضع آدم المحروم الملف على الصوفا إلى جانبه ومد يده إلى باطن الحقيبة فأخرج ملفاً آخر، فتحه فقرأ عنوانا يتوسط الصفحة (عميان بغداد في وليمة الأوغاد) وتحته عنوان صغير (عميان الكاظم). ألقى نظرة في داخل الحقيبة فوجد دفتراً سميكاً. أخرجه من الحقيبة وأخذ يتصفحه فقرأ في صفحته الأولى عنواناً بارزاً (نساء رينوار.. نساء بغداد) وتحت هذا العنوان ثمة عنوان فرعي هو (في البحث عن الجمال المفقود والمرأة المستحيلة).

أحس برعشة خوف تسري في جسده. لقد عرف أن صاحبه كان يريد أن يكشف بشكل روائي وإبداعي عن هؤلاء السفلة الذين حولوا حياة الناس إلى دوامة من العنف والظلام والذل والرعب المستديم.

عرف أن هذه المخطوطات مهمة جدا، لكن عليه أن لا يبقى في هذا البيت، فهو

لا يعرف ماذا سيحدث. أعاد المخطوطات إلى الحقيبة، ثم مد يده وأخذ مخطوطة (متاهة حواء - وادي الظلمات) أيضا ووضعها داخل الحقيبة. وبشكل لا إرادي أخذ الريموت كونترول وضغط عليه فانطلقت شاشة التلفزيون لتكشف عن محطة اتخذت من مقتل صديقه الكاتب آدم البغدادي موضوعاً رئيساً لها، وكرست شريطها الاخباري لنقل تفاصيل مقتله، وتصريحات المسؤولين، واحتجاجات القوى السياسية التي أرادت إستخدام مقتل صديقه للنيل من الحكومة، التي هي ليست ببعيدة عن دائرة الشك والاتهام، إذا لم يكن هناك شبه يقين بأنها المتهمة الحقيقية في مقتله.

أحس آدم المحروم بأن للجدران عيوناً وآذاناً، وبشكل عفوي رفع رأسه ليتأمل جدران الغرفة. فجأة، أطفأ بث التلفزيون ثم قام من مكانه. أغلق الحقيبة الجلدية، وحملها على كتفه. ألقى نظرة سريعة إلى أرجاء شقته الصغيرة وخرج.

حين صار آدم المحروم في الشارع أحس أنه تخلص من كابوس صغير ليلقي بنفسه في كابوس أكبر. أخذ يلتفت بين فترة وأخرى إلى الوراء، كما أخذ يحدق إلى الوجوه التي تواجهه، ويفسر كل تحديقة إليه بهواجس تزيد من قلقه وارتباكه. لم يكن يدري إلى أين يذهب وأين سيستقر؟ هل يذهب إلى بعض الأصدقاء الذين قابلهم أمس في إتحاد الأدباء ليستعلم منهم بعض أمور ما جرى؟

لا إراديا وجد نفسه متجها إلى المقهى الذي كان مكانا للقائهم الإعتيادي. وما أن دلف من الباب حتى وجد المقهى شبه خالية، إلا من ثلاثة اشخاص، أحدهم من أصدقائه أما الرجلان الآخران فلم يعرفهما فهما ليسا من وجوه المقهى وروادها الإعتياديين.

وجد صديقه آدم المطيري، الذي كان يعمل مقدما لإحد البرامج التلفزيونية المشاكسة، ساكنا، شاحبا، ومليئا بالخوف أيضا، وكأنه هارب من بيته أيضا. وما أن شاهد أحدهما الآخر حتى دبت الحياة في هيكليهما الجسديين. صافح آدم المحروم صديقه بصمت وجلس قربه:

– أين البقية؟
– لا أدري، لقد اختفوا جميعا؟
– اختفوا؟ أين ذهبتم أمس بعدما خرجتم من إتحاد الأدباء؟
– جئنا إلى بيت الشهيد آدم البغدادي، فوجدنا الشرطة ورجال الحرس الوطني قد ملأوا الشارع، دخل بعضنا إلى الشقة، وبعضنا تجنب ذلك. بعد ذلك تفرقنا، وقد صار الإتفاق بألا نتواجد مجتمعين، وأن نتجنب الأحاديث التليفونية، فمن المؤكد نحن سنراقب من قبل أجهزة الحكومة.

– لكن هل هناك أخبار عن هذه الجريمة؟ هل هناك معلومات أو تسريبات؟
– ليس هناك أية معلومات. يبدو أن القاتل من معارفه، لأنه ليست هناك أية دلائل عـن عنـف أو صـراع، ودليـل ذلك أن الجريمة حدثت في المطبخ، وهناك دورق زجاجـي يبـدو كان مليئـا بعصيـر البرتقال، وأن القاتل قد جاء من الخلف فأطلق رصاصتين على رأسه.
– هـذا الوصـف صحيـح لأنـي دخلت المطبخ ورأيتـه منكبّا على وجهه، وقد ثقب الرصاص رأسه من الخلف، لكن ليس بالضرورة أن القاتل من معارفه، يبدو أنه قد دخل عليه بشـكل رسـمي كاشـفا عن هويته ومنصبه الأمني أو العسـكري أو الحكومي، وقد استقبله آدم البغدادي بشـكل طبيعي، وقام إلى المطبخ ليضيفه ويقدم له العصير، فلم يستطع هذا القاتل الصبر أكثر فدخل خلفه وأنجز مهمته بسرعة.
– لا أدري، كل شـيء جائـز.. ربمـا مـا تقولـه صحيح أيضا. لكـن ما الفائدة الآن؟ فأنت تعرف أن البغدادي كان مستقلا سياسيا ولا ينتمي إلى أية جهة، وسيضيع دمه بين القبائل كما يقال، لأن المزايدات السياسية أخذت تعلو من هذا الطرف أو ذاك.. ألم تشاهد التلفزيون؟
– بلى، لقد تابعت بعض الأخبار.. وأنت ماذا ستفعل؟
– لا أدري يا آدم، فأنا خائف جدا.. أنت تعرف أني أقدم برنامجا تلفزيونيا مشاكسا، أكشـف فيـه مكامـن الفسـاد فـي الدولـة، وأتحدث مـن خلاله بجـرأة لا تعجب المسـؤولين، ولـولا تفهـم إدارة القنـاة لمـا اسـتطعت أن أقـدم البرنامـج، وأنـت تعـرف أنـي تلقيـت تهديـدات وصلتني عبر رسـائل الهاتـف، وحينما أردنا معرفة المرسـل كانت شـركات الهاتف تجيبنا بأن هذا الرقم غير مسـجل لديها.. وأنا الآن، وأقولهـا بصراحـة، خائـف جـدا، فيبدو أن قتل آدم البغدادي هو رسـالة لنا جميعا بأننا سنلاقي نفس المصير.. أليس كذلك؟
– ربما أنت محق.. ربما هذه هي الرسالة حقاً..
– سأختفي، وسوف أتوقف عن بث البرنامج..وسوف أعتكف في البيت..

قـال ذلـك ثـم قـام بشـكل مفاجـيء خارجـا دون أن يصافـح صديقـه، تـاركا آدم المحروم وحده، مذهولا. كان الرجلان الآخران ينظران إليهما وهما يتناقشان، وحين خرج الصديق تاركا المقهى قام أحدهما ليتبعه، ففسر آدم المحروم بأن الرجل الذي

خرج هو مخبر جاء خصيصا لهذه المقهى التي تعرف الأجهزة الأمنية أنها المقهى التي يلتقي فيها المثقفون، وربما أن الرجل الآخر مخبر أيضا، ومن المؤكد ستكون مهمته متابعته.

لم يكن آدم المحروم قد شرب أي شيء بعد، بالرغم من أن صبي المقهى جاء باستكان الشاي ووضعه أمامه. كان جل اهتمامه هو كيف سيخرج من المقهى دون أن يتبعه الرجل المخبر؟.

ليس مهما إلى أين سيتوجه، فهو لا يعرف حقاً إلى أين سيتوجه، المهم الآن ألاّ يتبعه هذا المخبر. بقيَ جالسا على مقعده دون أن يمس الشاي. فجأة قام الرجل الآخر ليذهب إلى المرافق الصحية. أحس آدم المحروم وكأن هذا الأمر هبة إلهية، فما أن إختفى الرجل في المرافق الصحية حتى قام هو خارجا من المقهى وكأنه يهرول، دون أن يدفع ثمن الشاي، ولم يسأله صاحب المقهى عن أي شيء، فقد كانوا يعرفونه.

لم يكن يدري إلى أين يذهب. كل ما كان يهيمن على روحه وفكره هو أن يخرج من المقهى دون أن يمكن الرجل الذي ظنه مخبراً أن يتبعه، وكان له ما أراد، وها هو قد قطع شوطاً من الدرب. توقف فجأة، ثم التفت فلم يجد أثرا لأي شخص يتبعه. هل تخلص بذكائه من المخبر أو أنه كان يتوهم لا أكثر، فربما ذلك الشخص ليس سوى رجل عابر جلس في المقهى ليشرب الشاي أو لينتظر أحداً أو أنه هارب من كوابيسه مثله.

لا يدري إلى أين يذهب، أحس بالكآبة، وبالوحشة، والخوف وبإنقباض النفس الذي زادته تلك البيئة البشعة التي تحيط به، فتلك البيوت الآيلة للإنهيار على من فيها، وتلك الأزقة القذرة والمليئة بالأوساخ والحفر والوحل، كل ذلك زاد من شعوره بالحصار. أترى هذه هي بغداد التي يعشقها من كل أعماقه؟ أهذه هي المدينة التي تتمطى مثل نعاس لذيذ في ذاكرة التاريخ؟ أهذه هي مدينة الأحلام والأساطير وقصص ألف ليلة وليلة؟. لقد كانت بغداد مدينة خانقة في زمن الطاغية وحزبه، لكن هؤلاء رحلوا وجاء ضحاياهم، فلماذا لم تتخلص المدينة من حزنها ولم تتألق؟ أليس هؤلاء الجدد هم الذين يجوبون شوارع المدينة الكالحة بسياراتهم المصفحة ودباباتهم التي لا تكشف سوى عن رعبهم؟ لماذا تحول الضحايا بعد جلوسهم على الكراسي إلى قتلة شرسين؟ لقد كان شكسبير محقا في كشفه عن وجه السلطة البشع.

لم يستطع آدم المحروم أن يسترسل في أفكاره الحزينة وتأملاته الموجعة، إذ أعادته

إلى الواقع رؤية صديق آخر من الذين كانوا في إتحاد الأدباء لحظة نقل خبر مقتل آدم البغـدادي. كان اللقـاء مفاجئـا لكليهمـا، وقـد بـدا واضحاً لكليهما بأنهمـا لم يرغبا بهذا اللقـاء المفاجـىء، لكنهمـا لـم يسـتطيعا تجاهله، فسـلّما على بعضهمـا، وكان واضحاً، أيضـا، أن كلا منهمـا يريـد إنهـاء اللقـاء، لذلك اكتفيـا بالمصافحة الباردة. نظر كل منهما إلى الآخر وكأنه يريد أن يقرأ أفكاره. تمتم كل منهما للآخر بكلمات جوفاء، تكشـف عن تأثر كل منهما بما حدث، لكنه تأثر يشوبه الخوف والشك، وكأن كلا منهما يقول للآخر علينا الإختفاء خلال هذه الفترة، والأفضل أن يمضي كل منا لحال سبيله. صافح كل منهما الآخر بحرارة وهو يودعه، وكأن كلا منهما يشكر الآخر لتفهم الوضع وسارا في اتجاهين متعاكسين.

لم يكن آدم المحروم يعرف إلى أين يذهب بعد، فلقد كان مشتت الذهن، تتلاطم الأفـكار فـي ذهنـه أمواجـا، ولـم يكـن يركـز على فكـرة محددة، كل ما يشـعر به هو أن يكون وحده في مكان بعيد عن الأنظار. ولا يدري كيف راودته ذكريات عن هروبه أيام الانتفاضة الشعبية في بداية التسعينات، حيث كان طالبا في كلية الآداب ببغداد، وهرب منهـا إلـى النجـف، ولـم يكـن أمامه إلاّ أن يشـارك المنتفضين فيها ثورتهم ضد الطاغية، لكن بعد الهجوم على الثوار إختفى في السراديب والمقابر التي تشتهر بها تلك المدينة المقدسة لدى عموم سكان وسط وجنوب البلاد. ثم هرب بعد فترة إلى إحدى القرى القريبة التي آوته لمعرفتهم العائلية بأهله، ولم يكن هؤلاء يعرفون أنه مطارد، لكنه تركهم بعد أيام متوجها إلى بغداد حيث صادفته دورية عسكرية ألقت القبض عليه، إلا أن الذي أنقـذه هـو أنـه كان ماشـيا وحـده علـى الطريق المتجـه إلى العاصمـة، وصادفته الدورية العسـكرية، فأوقفـوه لأن معظـم المنتفضيـن هربـوا إلى القـرى والمحافظات المجاورة، لذا فأنهم شكوا بأنه واحد منهم.

يذكر أنهم حينما قدموه إلى مسؤول تلك الدوريات العسكرية، وكان ضابطا كبيرا في السـن، يبدو التعب والسـهر والغم على وجهه الوسـيم، فسـأله إن كان مسـلحا، أو أنهـم ألقـوا القبـض عليـه وهو في وضع مشـبوه، وقبـل أن ينطق أجاب العريف الذي رافقه عند مثوله أمام المسؤول العسكري بأنه كان ماشيا على قدميه، وأنهم يشتبهون به لأن الإنسان المسالم الطبيعي لا يمشي على قدميه من النجف إلى بغداد؟ وحينما سـأله المسـؤول العسـكري عن هويته، وعن سـبب سـيره ماشـيا وحده في مثل هذه الأوضـاع المضطربـة، وجـد نفسـه يخبـره بـكل صراحـة بأنه طالب فـي كلية الآداب ببغداد، قدم لزيارة إلى أهله إلا أن الفوضى عمت المدينة، فأراد الرجوع إلى بغداد،

حيث يعمل صحافيا لإحدى المجلات التابعة للحزب الحاكم. وحينما ذهب إلى كراج السيارات وجد المكان مطوقاً بالدبابات وبرجال القوات الخاصة. وما بين الشك واليقين، وربما نتيجة للتعب والإرهاق الشديد والحر، بل وربما الضجر، أمر المسؤول العسكري بحركة من يده إلى إخلاء سبيله، بل أمر العريف بتوصيله مع السيارات العسكرية إلى بغداد.

وجد نفسه قرب ساحة الطيران، فكيف وصل إلى هنا؟ من أي الأزقة مر؟ رفع رأسه متأملاً السماء بنظرة بانورامية، وحينما أعاد بصره إلى مستوى النظر واجهته لافتة أحد الفنادق الصغيرة التي تحمل اسم الفندق (الركن الهادئ). وبدون أن يأخذ وقتا للتفكير وجد نفسه يدخل إليه، حيث وجد في باحته الداخلية رجلا أربعينيا يقف وراء الطاولة التي هي بمثابة مكتب إدارة الفندق. سأل أن كانت هناك غرفة فارغة؛ فتأمله صاحب الفندق لثوان ثم أخبره بوجود غرفة فارغة، لكنه طلب منه وثائقه الرسمية فأعطاه هويته الجامعية، واستلم مفتاح الغرفة. صعد إليها على مهل وبخطوات هادئه كي لا يثير شك صاحب الفندق.

دخل آدم المحروم الغرفة دار ببصره في أنحائها. كانت هناك نافذة ضيقة تطل على حائط لفندق أو مبنى آخر، وكانت المسافة بين النافذة والحائط أقل من نصف متر. فكر لحظتها كيف ترك البناؤون هذا الفراغ بين الحائط والنافذة. نظر إلى زوايا الغرفة من الأعلى، فلربما نًصبت كاميرات مراقبة أو أجهزة تنصت؟ وحينما اطمأن إلى خلو الغرفة من أية أجهزة للتنصت أو التصوير، أخذ يتأمل موجودات الغرفة انتبه إلى السرير المهتريء الذي تغطيه بطانية قذرة. كانت الغرفة شبه عارية.

جلس على حافة السرير الذي كاد ينهار عند جلوسه عليه. ألقى بالحقيبة الجلدية إلى جانبه. فجأة، سمع طرقا خفيفا ً على الباب. انتبه متوجسا للحظات، ثم قام فاتحا إياه، فوجد فتى في الخامسة عشر يحمل بيده شرشفا نظيفا. ابتسم الفتى ودون أن يستأذن دخل الغرفة. وقبل أن يفعل شيئا أخذ آدم المحروم الحقيبة الجلدية عن السرير، فقام الفتى بتبديل شرشف السرير وأخذ القديم معه، ودونما أي كلام إبتسم لآدم المحروم مرة أخرى، وخرج.

ما أن خرج الفتى، عامل الخدمة، حتى قام آدم المحروم فأغلق الباب بالمفتاح من الداخل، ثم تمدد على السرير ساحبا ملفا ضخما من الحقيبة، وبدأ يقرأ ما فيه:

متاهة حواء

وادي الظلمات

«إني أفضّلُ الحيوان على الأحمق، وأفضّلُ-الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وأفضّلُ المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضّلُ السذاجة على التصنع، وأفضّلُ القسوة على التملق، وأفضّلُ بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة. فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلى بها الجميع. فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس».

ستندال من كتاب (حياة روسيني)

بداية ما بعد النهاية

حواء.. البداية الجديدة

سمعت حواء المؤمن صوت الباب وهو يصفق بقوة وغضب، حتى أن جدران شقة آدم اللبناني المصنوعة من الخشب المكبوس مع مواد صناعية ضاغطة قد إهتزت. كورت نفسها بعد أن اعتدلت في جلستها، ولملم آدم اللبناني نفسه، وجلس إلى جانبها حائرا، مذعورا، وفي داخله إنكسار وخجل من المشهد المشين والداعر الذي شاهده فيه جارهم الدكتور آدم التائه مع زوجته. سمعا خطوات الدكتور آدم التائه وهو يهبط السلم بخطوات أشبه بالقفز، بل تناهى إلى آذانهم صوت تدحرجه على السلم، لكن يبدو أنه تماسك، ثم ابتعدت الخطوات التي انتهت بصوت ارتطام الباب الخارجي وهو يغلق بقوة.

إنه يكن احتراما ومودة لشخص الدكتور آدم التائه، فهو كما يعرفه وسمع عنه من بعض أصدقائه العرب اللاجئين في هذه المدينة بأنه إنسان طيب ومحترم، وشخصية ثقافية معروفة في بلده، وكم كان يتحين الفرصة كي يتعرف إليه عن قرب، لكن الظروف لم تسمح له بالرغم من أنه جاره. وقد حاول أن يكتب عن سكان البيت الذي يسكنه، وعن الدكتور آدم التائه وزوجته حواء المؤمن، وعن رحلته هو من لبنان إلى ألمانيا، وما جرى معه هنا في ألمانيا، رواية، وها أنه يتقابل معه في مشهد مشين مثل هذا. أحس

بالغضب من نفسه ومن حواء المؤمن التي انجرّت معه إلى مثل هذه المغامرة المكشوفة.

نظر إلى حواء المؤمن فوجدها تبكي بصمت. الدموع تنزل من عينيها دونما صوت لبكاء. لم يكن يعرف ماذا يفعل. نظر إليها متأملاً. فجأة، أحس بدفق من الحنان تجاهها يجتاحه. فكر مع نفسه: ماذا ستفعل هذه المسكينة؟ إلى أين ستذهب؟ من المؤكد أنه لن يسمح لها بالسكن معه؟ ثم من الممكن أن يتهور الدكتور آدم التائه تحت ضغط التقاليد والأعراف والشعور بالإهانة إلى قتلها، أو في أحسن الأحوال إيذائها جسديا. أمن المعقول أنها ستبقى عنده؟ ماذا لو جاء زوجها باحثا عنها لينتقم منها؟ يمكن أن تعيش معه لكن ليس في هذا البيت أو هذه المدينة، لكن هل تُرى هو يحبها فعلا أو أنه يشتهيها فقط؟ ثم كيف يثق بها وهي التي عقلها بين فخذيها؟ أليس من المعقول أنه سيشاهدها في مثل هذا المشهد مثلما شاهدها زوجها اليوم؟ ماذا عليه أن يفعل؟ ربما ليس مهما أن يتزوجها فهما يستطيعان أن يعيشا هكذا بدون زواج، لكنها حدثته اليوم عن حملها منه؟ كيف له أن يتأكد من أن الجنين الذي في بطنها منه هو وليس من زوجها؟ وإذا اتضح بأن كلامها كان صحيحا كيف له أن يتركها وحيدة لمصيرها؟ ظل ينظر إليها بحيرة وتعاطف، ثم سأل بقلق:

– ماذا سنفعل الآن؟

فتمتمت قائلة دون أن تنظر إليه:

– لا أدري.. لكن شكرا لك..

– شكرا ؟ شكرا على ماذا؟

– شكراً لأنك قلت ماذا نفعل ولم تقل ماذا ستفعلين.

فقال بتعاطف:

– كيف تقولين هذا؟ هل أنا من النذالة بحيث أتركك في مثل هذا الموقف؟ بالرغم من أنه موقف لم أشأ أن أجد نفسي فيه أبداً، ثم هناك حكاية الحمل. لم تروي لي التفاصيل وكيف لي أن أعرف بأن الجنين مني وليس منه؟

– زوجي لا يستطيع أن يكون أبا لأنه عقيم..

فوجئ آدم اللبناني بجوابها الحاسم، بهت للحظات ثم سأل:

– هل يعرف هو أنك حامل؟

– لا

– لا؟

– لا.. طبعا لا.. وحتى لو كان يستطيع أن ينجب، فهو لم يقترب مني منذ أكثر من

ثلاثة شهور تقريبا، بل إنه فعلها قبل أيام فقط، وبعد أن ظهرت النتيجة وتأكدت الطبيبة منها. لقد مضت سنوات عدة على زواجنا ولم أحمل منه..

– ما الحل لهذه المصيبة الآن؟

– لا أدري.. علينا أن نتزوج.

– نتزوج!

– نعم نتزوج، لقد ألقى هو علي يمين الطلاق، وأنه سيسافر إلى الخليج، فلقد استلم اليوم رسالة من إحدى الجامعات هناك لإجراء المقابلة، ومن المؤكد أنه سيسافر، بل إنه قد خرج لشراء بطاقات السفر، ولا أدري كيف رجع إلى البيت؟

– لكني لا أملك أية أوراق رسمية كي أقدمها للألمان هنا؟

– أليس لديك ورقة رسمية بالبقاء في ألمانيا؟

– نعم لديّ

– أنا لدي جواز السفر الخاص باللاجئين، فقد حصلنا على الإعتراف بنا كلاجئين سياسيين، وهذا يعني أن بأمكاننا أن نتزوج، وعندها سيعطونك إقامة رسمية مرتبطة بإقامتي، وبعد سنوات سنحصل على الجنسية الألمانية..

– ياه، لم أكن أعرف أنك عملية لهذه الدرجة؛ فهل فكرت بهذا الآن أم فكرت به سابقا؟

– لا، فكرت به سابقا، بعد أن عرفت أنني حامل، فقررت أن أعيش معك، لأني لا أريد لابني أن يكون ابن حرام، فحتى لو لم يحصل الذي حصل اليوم، فأني قد فكرت بأن أطلب الطلاق؟

– عجيب أمرك! وكأنك خططت لكل هذا...

– أبدا، أقسم لك، لكني بعد أن عرفت بأني حامل وردت هذه الأفكار في ذهني، أنا كنت أحلم أن يكون لي طفل، لكني أيضا لم أكن أحلم وأفكر بأن يكون من غير زوجي وثمرة علاقة خاطئة!

– عجيب أمركن أيتها النساء! أنت ياحواء تتحدثين عن الحلال والحرام، بينما أنت تفقدين عقلك، حينما يمسك الرجل. أي رجل..

نظرت إليه بتساؤل وحنق مفاجيء وقالت:

– أنا لستُ عاهرة يا آدم. صحيح أنا قبلت هذه العلاقة معك، ورغم أنك أعجبتني من أول لحظة رأيتك فيها، لكني لم أجئك طائعة، فلقد اغتصبتني!

– أنت من دفعني للإغتصاب، بل إنك لا تحبين الرجل إلا حينما يغتصبك، لقد

لاحظت أنك تستمتعين بذلك..

– لولا حبي لك لما استمتعت معك.. ثم هل أفهم من كلامك أنك بدأت تتهرب مني، وتريد أن تلقي اللوم عليّ؟

– لا..لا.. دعينا الآن من كل هذا، علينا الآن أن نفكر بالمصيبة التي نحن فيها، هل لديك مكان تذهبين إليه؟

– أبدا ً أنا لا أعرف أحدا هنا؟

– يمكنك البقاء معي إلى أن ندبر أمرنا، لكن ألا تريدين أن تتفاهمي معه، فلربما يتراجع عن موقفه؟

– أبداً، لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة في بيته..

– لكن الوضع هكذا غير مريح، فنحن جيران، والباب مقابل الباب، وهذا يعني أننا سنتقابل بدون شك، والأفضل أن نغيب عن نظره إلى أن تتضح الأمور.

– كيف نغيب عن نظره؟

– نذهب إلى مدينة ايسن، هناك لدي بعض الأصدقاء والأقارب، يمكننا أن نبقى هناك لأيام حتى نعرف كيف نتخذ الخطوة التالية.

– الرأي رأيك..

قام آدم اللبناني متجها إلى المطبخ الذي يقع في إلى جانب إحدى زوايا الغرفة. ومن هناك جاء صوته:

– هل تشربين معي القهوة أم أعمل لك الشاي؟

– أريد شايا لأن رأسي سينفجر؟ لكن دعني أنا أقوم بذلك

فأطل بنصف جسمه الأعلى من زاوية المطبخ وقال:

– أنا اليوم في خدمتك.. لا فرق بيننا..

– طيب لنشرب كلانا القهوة.

– طيب

وأثناء سكبه الماء في الصفيحة الصغيرة التي يغلى فيها الماء عند إعداد القهوة، كان يفكر بشكل سريع جداً بالمكاسب التي سيجنيها من زواجه منها. فكر في لحظات بالإقامة الدائمة التي سيحصل عليها استنادا ً إلى اقامتها، وبالتالي إمكانية السفر إلى لبنان لزيارة الأهل والأصدقاء ولقاء حبيبته حواء بنت الجبل، ناهيك عن التحسن الذي سيطرأ على وضعه المادي، لاسيما إذا ما ولد الطفل، إذ أن المساعدات الاجتماعية ستتضاعف، إلى جانب أن بعض الكنائس تعطي منحة لمدة سنة ونصف للعائلات التي

يولد لديها طفل جديد. كل ذلك جرى بعملية حسابية خلال أقل من دقيقة من الوقت.

حينما عاد حاملا صينية صغيرة فيها فنجانان من القهوة كان في مزاج مختلف، فلقد إختفت حيرته وذهوله ومزاجه كان رائقا، وبدأ في حالة نفسية أقرب للفرح الخفي.

جلس إلى جانبها مقتربا منها جدا، أخذ يتأملها وهي ترتشف القهوة، فبدت له مثيرة جدا، وفجأة ودون أن يمد يده إلى فنجان قهوته مد يده لاحتضانها مقرباً وجهها من وجهه. نظرا لبعضهما. بقيا في هذا الوضع للحظات وكأن كلاً منهما يريد أن يعرف ماذا يدور في ذهن الآخر، لكنه أنهى الوضع بأن أطبق على شفتيها مقبلا إياها بحرارة وشبق. فوجئت للحظة، لكنه أسعدها ما قام به فاستجابت له، وأبدت له استعدادها الكامل لاستقابله في داخلها، ولم يحتج الأمر إلا لحركة بسيطة منه حيث ألقاها على ظهرها، فاتحا إياها، كاشفا عن كنزها الذي صار مشاعا له، داخلا فيها بقوة وعنف.

لحظتها كان كل منهما يحس بالفوز. فقد أحست حواء المؤمن أنها فازت به بعد أن خسرت زوجها الدكتور آدم التائه، بينما أحس هو بأنه فاز بالإقامة وبإمرأة مثيرة يمكن أن يتخلص منها عندما يرّتب كل أموره الرسمية في ألمانيا.

آدم البغدادي: هذا الفصل له علاقة مباشرة برواية (متاهة آدم)، ففي تفاصيل تلك الرواية نتعرف على نشوء العلاقة بين حواء المؤمن وآدم اللبناني. لكن هل ترى أن اسم (متاهة حواء) مناسب؟ لماذا لا أترك العنوان الرئيسي وأكتفي بالعنوان الجانبي (وادي الظلمات)؟ ولكن لماذا (وادي الظلمات)؟ هل هو تنويع على اسم (وادي الرافدين)؟ ثم ألا يتشابه هذا مع عنوان للروائي عبد الرحمن منيف الذي لديه إحدى روايات خماسيته عن الجزيرة العربية بإسم (بادية الظلمات)؟ لكن الظلام يعم العالم كله. هو تحدث عن مكان وأنا أتحدث عن مكان آخر، أنا أتحدث عن الوديان التي يسير بين جنباتها البشر، وبالتحديد أبناء (وادي الرافدين) الذي هو بحق (وادي الظلمات)، لكن كيف يسيرون؟

فكر آدم المحروم مع نفسه معلقا على هامش صديقه لا أدري لماذا ترك صديقي المغدور آدم البغدادي أبطاله يتحدثون بالفصحى، ألم يكن أفضل لو تركهم يتحدثون لهجاتهم، أي أن الدكتور آدم التائه وحواء المؤمن يتحدثان باللهجة العراقية، وآدم اللبناني باللهجة اللبنانية، الم يكن هذا أفضل؟ لكن

مــاذا عــن الشخصيــات الألمانية؟ لو ترك الحوار مــع الشخصيات الألمانية بالعربية الفصحى والشخصيات العربية بلهجاتهم لكان مقبولا أكثر.

لكــن ربمــا هــو فكر بأن ذلك سيصعب قراءة الرواية من قبل العرب، لأن اللهجة العراقية غير منتشرة كالمصرية مثلا، أو الشامية، بشكل عام. ربما هذا هو السبب؟ لا أعلم.

خطـوات نحـو الهـاوية

حينما صار الدكتور آدم التائـه في الشـارع، بعد أن كاد يسـقط على درجات السـلم الخشـبي، أحـس بحـرارة تصعـد إلـى وجهـه، وبطبقة من العرق البـارد قد غطت جبينه، بالرغم من أن السـماء بدأت بالمطر. رجع ثانية إلى الشـقة كي يأخذ المظلة لكنه واجه ذلك المشهد المرعب بين زوجته وجاره اللبناني. ومن شدة انفعاله لم يأخذ المظلة التي جاء من أجلها، وكأنما كان مقدرا له أن يرجع ليرى زوجته في وضع حيواني مع جارهم.

لم يفكر في هدفه بالذهاب إلى المكتب السـياحي الذي كان عليه أن يمشـي قبل رجوعه لأخذ المظلة، بل إنه لا يعرف إلى أين يريد التوجه الآن. قطع الشـارع متجها إلـى الجانـب المقابـل للبيـت، وأخـذ يمشـي تحـت وابـل المطر الذي أخذ يشـتد. كان بعـض السـابلة يمضـون حامليـن مظلاتهـم، إلاّ هـو فقد كان أجرد الـرأس من أي غطاء يقيه المطر، وكان قد ابتل بالفعل. بعض السـابلة الألمان، رغم هطول المطر وسـيرهم السريع إلى مقاصدهم فأنهم كانوا يلتفتون إليه وينظرون بإستغراب لهذا الأجنبي الذي يسير كالمعتوه تحت وابل المطر المدرار.

إسـترجع الدكتـور آدم التائـه وهـو فـي طريقـه أحداث أبطاله الروائييـن، ففي روايته (متاهـة آدم أو المرأة المجهولة) التي أنجزها، والتي قرأتها زوجته سـرا وأعجبت بها، حتى أنها أقامت الفاتحة على روح بطلها آدم المطرود الذي أعدم بشكل وحشي لأسباب غير معروفة، هناك شخصيات نسوية غريبة مثل حواء كوناي أو حواء اللهيبي، لكن لم يطرأ في ذهنه شـخصية مزدوجة وغريبة مثل زوجته. فهي قد تحجبت وبدأت بالصلاة وقراءة القرآن، لكنها مع ذلك بدأت علاقة زنا مع جارهم، وأية علاقة، لقد سمعها بأذنيه تصرخ متوسلة به أن يدخله كله فيها؟ لماذا؟ ألم يكن يشبعها؟ ثم كيف تستقيم صلاتها مع الزنا؟ أحس الدكتور آدم التائه بأنه لا يعرف شيئا عن النساء.

كان الدكتور آدم التائه مسـتغرقا في أفكاره، لكنه برغم ذلك انتبه إلى أنه قد وصل

إلـى سـوق المدينـة المركـزي، حيـث يوجـد أكبر مكتب للسـياحة. وبـدون أيما تفكير، وبشكل لا إرادي، وجد نفسه يدخل إلى المكتب.

كان المكتب خاليا من المراجعين، بل وحتى من الموظفين الثلاثة الذين كان يراهم مـن خـلال الواجهـة الزجاجيـة كلمـا مر من هناك، وما أن دخل حتى فتح باب في عمق المكتب وجاءته إحدى الموظفات التي بدا أنها كانت في مكان الراحة التابع للمكتب.

كانـت الموظفـة امـرأة فـي نهايـة الثلاثينات أو بداية الأربعينات من العمر، شـقراء، أنيقة، ناضجة، ذات شخصية محببة، مثيرة. اقتربت وعلى وجهها ابتسامة ودودة، وقالت بالألمانية مستفهمة:

– نهارك سعيد، هل أستطيع أن أخدمك؟

إرتبـك الدكتـور آدم التائـه، إذ فوجـئ بحضورهـا الأنثـوي البهي، فقـال بلغة ألمانية متلعثمة ومرتبكة نحويا لكنها مفهومة:

– نهارك سعيد، أريد السفر إلى إحدى دول الخليج؟

– تفضل بالجلوس.

قالت ذلك وجلست على كرسي حول طاولة تحمل اسم (إيفا بيرغمان).

– هل تسمح لي بجواز سفرك؟

أخرج آدم التائـه جوازه الألماني الذي حصل عليه مؤخرا بعد الإعتراف به وبزوجته كلاجئين سياسـيين وسـلمه لها، فأخذت تنظر فيه وتتفحصه، بينما كان هو بالرغم من حالته النفسية الصعبة يتأمل وجهها الجميل وصدرها المثير وتفاصيل جسدها الأخرى متخيلاً إياها عارية. فكر مع نفسـه: هل هي مثل زوجته سـهلة ويمكن أن تمنح نفسـها لكل من يريد؟

رفعت رأسها فجأة فانتبهت لنظرته إليها، تلك النظرة التي تملأ المرأة زهواً وكبرياءً أنثويا وتمنحها دفقات من الفرح الخفي. نظرة الرجل المليئة بالإعجاب والرغبة والتردد الممزوج بالخجل الرجولي الجميل. ارتسـمت على وجهها ابتسـامة خفيفة مع شـعور بالرضا. نظرت إليه، نظرت في وجهه مباشـرة، وكأنها تريد أن تعرف هذا الرجل الذي أبدى لها كل هذا الإعجاب، والذي أثارت فيه كل هذه الرغبة، وسألته:

– إلى أي بلد خليجي تريد السفر؟

– إلى الإمارات العربية المتحدة.

– هل لديك تأشيرة دخول؟

– لا، لكني أعتقد بأنني لا أحتاج إلى تأشيرة دخول فجواز سفري ألماني.

– لا، جواز سفرك هذا هو الجواز الذي يمنح للاجئين السياسيين في ألمانيا، أي أنك لست مواطنا ألمانيا بعد، لذا أعتقد أنك تحتاج إلى تأشيرة دخول إلى الإمارات.

كان وقع كلماتها عليه قاسيا جدا، فقد أحس بأن جميع آماله بالخلاص قد تلاشت. فكر مع نفسه: أية لعنة تلاحقه، وماذا ينتظره خلال هذا اليوم التعيس. نظرت المرأة الألمانية إليه بتعاطف، إذ أحست بعمق الخيبة التي ارتسمت على ملامحه، فقالت له وكأنما تريد مواساته:

– لأستفسر أكثر من خلال الإتصال بمركز مكتبنا الرئيس فلربما هناك حل..

نظر إليها وكأنه يتوسل أن تمنحه شيئا من الأمل. أخذت سماعة وراحت تضغط على الأرقام. كان هو يجلس أمامها كالتائه، وقبل أن تتحدث مع الطرف الآخر نهض واقفا وسألها:

– هل بإمكاني التدخين خارجا؟

– طبعا..

خرج من المكتب وهي يمد يده لجيبه، بينما سمعها تحيي الشخص على طرف الآخر من خط الإتصال.

أشعل سيجارته، وأخذ نفساً عميقا. مرت امرأة ألمانية عجوز، ربما قد تجاوزت السبعين، وهي تنحني على عكازها. وقف لبرهة. نظرت إليه، ظلت للحظات تنظر إليه حتى أنه انتبه لنظرتها، وأراد أن يفسرها، هل هي نظرات تائهة لإمرأة هرمة لا تدري لأي شيء تنظر، أو أنها نظرات امرأة عجوز لا تحب الأجانب، أو امرأة تشفق على الأجانب؟ لم يكن يفهم مغزى وقوفها ونظرتها الطويلة إليه. أحس بصوت داخلي يقول له: ألم أقل إن هذا اليوم لن يمر بسلام؟ ولكي يضع حدا لهذا الوضع، لم يكمل سيجارته وإنما ألقاها إلى الأرض وسحقها بقدمه، ثم دخل إلى مكتب السياحة، فسمع الموظفة تنطق بتحية الوداع للشخص على الطرف الآخر من التليفون. تقدم وجلس على الكرسي أمامها، وكان واضحا أنها لا تحمل اخباراً طيبة، لكنها لم تشأ أن تزيده غما فقالت له محاولة تسهيل الأمر:

– كما قلت لك، هذا الجواز يتيح لك التنقل بين دول الإتحاد الأوربي، بل حتى بعض هذه الدول تحتاج إلى تأشيرة دخول، أما البلاد البعيدة خارج الإتحاد كالدول العربية ودول الخليج فلا يمكن دخولها بهذه السهولة، وهناك حل هو أن تقدم على تأشيرة دخول من خلال سفارة الإمارات في برلين، أو إحدى قنصلياتهم.

كان الدكتور آدم التائه يحاول جاهدا أن يتابع كلامها ويفهمه، فلغته الألمانية ليست جيدة كما ينبغي، وكان يستجمع الكلمات في ذاكرته ليقول جمله بلا أخطاء:

– وهل سيعطونني تأشيرة الدخول؟

– لا أدري، لكن يمكنك أن تجرب، فلربما يقتنعون، إذا ما قدمت لهم مبررا لسفرك، دعوة أو أي شيء مماثل، لا استطيع ان أقول لك شيئا أكيدا، لكن يجب أن تحاول.

– أنا أستاذ جامعي، ولدي دعوة لإجراء مقابلة في إحدى الجامعات.

قال ذلك ومد يده إلى باطن سترته وأخرج رسالة الدعوة التي وصلته من الإمارات لإجراء المقابلة. ما أن سمعت الموظفة الألمانية بأنه أستاذ جامعي حتى صارت أكثر انتباها للموضوع، وأحست بأهمية أن يسافر إلى هناك. قدم الدكتور آدم التائه إليها بطاقة الدعوة وكانت باللغتين العربية والإنكليزية، أخذت الرسالة، ألقت نظرة على النص العربي وابتسمت، ثم نظرت للنص الإنكليزي وقرأته. أرجعت الرسالة له وقالت:

– لو كنت مكانك لما ترددت في أن أقدم طلبا للحصول على تأشيرة الدخول، لاسيما وأن لديك دعوة من إحدى جامعاتهم.

إنتبه إلى أنها قرأت النص الإنكليزي فخمن أنها تعرف الإنكليزية فسألها مباشرة وبالإنكليزية:

– هل تتحدثين الإنكليزية؟

نظرت إليه وفي عينيها ابتسامة غامضة، وكأنها تتباهى بمعرفتها هذه اللغة أو وكأن هذا الأمر سهل عليها عملية التواصل معه، فقالت:

– نعم.. طبيعي أعرف الإنكليزية..

– إذن سأحاول الإتصال بالسفارة.

وبالرغم من أنه أحس بفرح خفي كون هذه المرأة الفاتنة تتحدث الإنكليزية، وهذا يعني إمكانية التواصل معها سيكون أسهل، إلا أنه أحس، في الوقت نفسه، بأن كل شيء قد انتهى، فأخذ يلملم نفسه، وبدا وكأنه صار كالحلزون الذي ينسحب إلى أعماق قوقعته، وقبل أن يختفي كليا في قوقعته، لاسيما وقد نهض مستعدا للخروج، بادرته قائلة:

– لماذا لا تتصل بسفارة دولة الإمارات الآن وتستفسر منهم، بل وتشرح لهم وضعك بالكامل؟

أحس وكأن هناك من ألقى إليه بطوق النجاة بعد أن أخذت الدوامة تسحبه إلى الأسفل. نظر إليها نظرة بلهاء، نظرة مرتبكة، فبادرت هي قائلة:

– إجلس. سأتصل أنا بهم.

جلس هو كالمسحور، بينما مدت يدها ورفعت السماعة، وباليد الأخرى فتحت أمامها دفتراً وأخذت تتصفحة وكأنها كانت تبحث عن رقم السفارة، وبدأت بالضغط على زر الأرقام.

كان الدكتور آدم التائه ينظر إليها وكأن مصيره متعلق بين أصابعها وبما ستقوله لرجال السفارة. إلا أنه لا أحد كان يجيب على اتصال هذه المرأة التي صارت بالنسبة إليه وكأنها ملاك الخلاص. لاحظ بعض ملامح الغضب بدأت تتسرب إلى وجهها الجميل والمثير لأنها طلبت رقم السفارة لثلاث مرات دون أن يرفع احدهم السماعة في الطرف الاخر. حاولت مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، دون جدوى. ومع كل محاولة كانت معنوياته ترتفع وتنخفض. وأخيرا وضعت سماعة الهاتف وقالت له بنبرة مليئة بالخيبة والغضب من نفسها بأنها لم تستطع مساعدته:

– لا أحد يجيب على الهاتف! لا أعرف السبب.

قالت ذلك ونظرت إلى ساعتها، ثم عقبت:

– لا أدري. ربما أن دوامهم قد انتهى

لم يقل هو شيئا، كان الغضب والحنق من نفسه ومن حظه العائر قد خنقه، حتى أنه لم يستطع الكلام بسهولة فتحشرجت الكلمات في فمه وقال وهي يخرج:

– شكرا لك. لقد كنت طيبة معي جدا. شكرا لك

فقالت له بنبرة متعاطفة:

– لا شكر على الواجب. هذا هو عملي، ويؤسفني أني لم أستطع أن أساعدك، لكني أنصحك أن تتصل بالسفارة، ويمكنك أن تأتي غدا لنحاول الإتصال بهم مرة أخرى.

– شكرا لك. شكرا لك. متى يمكنني المجيء؟

– في أي وقت، بعد العاشرة صباحا، هل يلائمك هذا الوقت؟

– طبعاً.. طبعا ً..

وبدون أيما تفكير مد يده إليها مصافحا ومعبراً لها عن شكره. ترددت لثوانٍ مستغربة حركته، لكنها ابتسمت ثم مدت يدها وقالت مبتسمة:

– إلى الغد.

– إلى الغد..

قال ذلك وخرج من المكتب.

لم يكن يعرف إلى أين يذهب. أحس بأن المدينة ضيقة جداً، وأنه أشبه بالضائع في متاهة، أو كمَن أصيب بفقدان الذاكرة، فقد أحس بشلشل في التفكير. أحس أنه مثل طبل أجوف. لم يكن لديه إتجاه محدد. قبل لحظات كانت أمواج الرغبة تتلاطم على ساحل نفسه الخائبة حينما كان ينظر إلى تلك الموظفة الألمانية في مكتب السياحة. وبرغم أنه كان في حالة نفسية متعبة إلا أنه أحس بالإثارة تبعث شيئا من الحياة في نفسه، لكن كل ذلك انطفأ فجأة حينما خرج من المكتب، بالرغم من أنه اتفق معها على أن يمرغدا بعد العاشرة للإتصال بسفارة دولة الإمارات في ألمانيا. لكن لماذا تريد هذه المرأة مساعدته؟ هل أعجبها؟ على أية حال أنه ليس في حالة نفسية تسمح له أن يخوض أية مغامرة مع امرأة، فيكفي ما جرى له منهن، وردد مع نفسه: النساء آخ من النساء!

وجد نفسه يمشي باتجاه البيت. لا، أنه لا يريد الرجوع إلى البيت. لا يريد أن يرى تلك المرأة التي أهانته بشكل لم يتوقعه منها قط. فجأة بدأت الحياة تسيل من ذهنه، الذكريات، إنها مثل المطر الخفيف الذي ينهمر ليبعث الحياة في نفسه الخاوية.

أخذت الأسئلة تزدحم في ذهنه: لماذا جرى الذي جرى؟ منذ متى هي على علاقة مع جارهم آدم اللبناني؟ ولماذا؟ لماذا؟ ألم يكن طيبا معها؟ ألم يكن كريما معها؟ ألم يكن يشبع جسدها؟ إن النساء يكرهن الرجل البخيل، أترى كان بخيلاً معها؟ هل هو قبيح وأن جارهم أجمل منه؟ لا، هو رجل وسيم، إنه يعرف ذلك. ربما جارهم أكثر شبابا، لكنه ليس عجوزا في كل الأحوال.ثم، ألم تكن تصلي الفرائض يوميا، وتصوم رمضان؟ فكيف ينسجم هذا الأمر مع ذاك؟ لقد سمعها وهي تلهث وتطلب مع جارهم أن يدخله كله فيها ولا يترك منه شيئا، لقد سمعها بأذنيه! لقد كانت معه خرساء لا تنطق بأي كلمة، بل هو الذي كان يجبرها على أن تتفوه ببعض الكلمات الجنسية، وكانت ترددها على استحياء أول الأمر، فكيف جرى الذي جرى؟ هل كانت تمثل دور العفيفة والطاهرة والمتدينة معه، بينما هي تكاد تكون كعاهرة رخيصة مع جارهم اللبناني؟

أحس بأن نبضات قلبه بدأت تتضاءل، وثمة عرق بارد بدأ يغطي جبينه، وغمامة سوداء بدأت تغشي على بصره، ولم يعد يستطيع الوقوف، فجلس على جانب الطريق، لكنه أحس الآن بأنه ينهار وينهد ويغرق في اللاشيء. أحس أن قلبه بين ضلوعه بدأ ينهار، وثمة غمامة بيضاء تغطي بصره، ولم يعد يذكر شيئا.

خلال هذا الوقت نفسه كانت حواء المؤمن مع آدم اللبناني يجلسان وكأنهما في مأتم. وكان آدم اللبناني يحاول أن يقنعها بالسفر معه إلى حيث يعيش أقرباؤه ومعارفه،

إلا أن حواء المؤمن كانت كالمحمومة، تنتقل من حالة نفسية إلى أخرى كالبرق. مرة توافق على السفر لكن بعد لحظات تتراجع عن موافقتها. مرة تقرر إنهاء كل شيء مع زوجها الذي ألقى عليها يمين الطلاق، ومرة أخرى تجد نفسها مذنبة بحقه، وبالتالي عليها أن تعتذر منه وتتوسل إليه أن يعفو عنها ويغفر لها. تارة تفكر بحملها وتارة أخرى تقرر الإجهاض. تارة تستغفر ربها على ما اقترفته من ذنوب وبعدها بلحظات تهجم على آدم اللبناني لتقبله بشبق وتتوسل إليه بأن لا يتركها وحدها. ثم فجأة إلتفتت إليه وقالت:

– كيف أسافر وكل ملابسي ومكياجي هناك؟

وأشارت إلى جهة الشقة الأخرى حيث كانت تعيش مع زوجها.

فقال لها:

– يمكنك أن تذهبي الآن وتحملين ما تستطيعين من الثياب وحاجاتك الأخرى.

– لا لن أدخل بيته بعد الآن.. كيف أدخل بعد فضيحتي معه؟

– لكنه غير موجود الآن.

– وإذا ما جاء فجأة؟

صمت لحظة لكنه قال وكأنه وجد حلاً:

– طيب. أنا سأنزل وأقف عند باب البيت، وإذا ما جاء فسأضغط على الجرس من الأسفل، حينها ستعرفين بأنه قد وصل، فتخرجين من الشقة بينما يكون حينها على الدرج صاعداً.

فكرت للحظة ثم نهضت بشكل مفاجئ قائلة:

– إنزل الآن وقف عند باب الدار!

قالت ذلك وخرجت متوجهة لشقتها. بينما نزل هو ليقف عند باب الدار منتظرا وصول الدكتور آدم التائه.

إنهار الدكتور آدم التائه في الطريق، لاحظت إمرأة كانت تقود دراجة هوائية مع ابنتها الصغيرة ذلك. نزلتا عن دراجتيهما واقتربتا منه بهدوء وحذر، نظرت المرأة إليه فعرفت أنه في حالة سيئة جداً، قالت له:

– ما بك؟ هل أنت بخير؟ أأطلب لك سيارة الاسعاف؟

نظرت المرأة الألمانية إلى وجهه الشاحب جداً وشفتيه اللتين إزرقتا. فتحت حقيبتها وأخرجت هاتفها النقال طالبة سيارة الطوارئ:

لم يستمر طويلاً إذ وصلت سيارة الإسعاف ونزل منها طبيب ومعاوناه وحملوا معهم

السرير النقال. إقترب الطبيب منه، أخذ يده ووضع إصبعه على أعلى كفه ليقيس النبض، ثم مد يده ورفع جفنيه، وأخيرا وضع جهاز قياس الضغط على ذراعه وأخذ يضغط على الكـرة المطاطيـة التـي تنفـخ الهواء في الزئبـق. كانت حالة الدكتور آدم التائه حرجة كما يبدو لأن الطبيب قام مباشرة وطلب من المساعدين حمله على السرير النقال قائلا:

– بسرعة.. ضغطه منخفض جدا.. علينا الإسراع لنقله إلى العناية المركزة.

ثم التفت إلى المتجمهرين وسأل:

– هل هناك من رأى حالته؟ ومن ترى اتصل بالمستشفى؟

فتقدمت المرأة الألمانية التي اتصلت بالمستشفى وقالت:

– أنا التي اتصلت بكم، وقد كنت مع ابنتي قادمة من مركز المدينة، ومن بعيد رأيته يجلس، لكننا حينما صرنا قريبتين منه وجدناه في هذه الحال فاتصلنا بالطوارئ.

– على أية حال شـكرا لكما، فلولاكما لربما كان سـيفقد الحياة. لقد تعرض إلى ذبحة قلبية. لكن لا ضير سنعالجه حالا.

حمل المساعدان الدكتور آدم التائه على السرير النقال وأدخلاه إلى سيارة الطوارئ، ثم علقا كيسا من المواد المغذية وربطوها به من خلال زرقه بإبرة في معصمه، ثم صعد الطبيب إلى السيارة التي انطلقت بسرعة وهي تعلن هديرها المزعج.

حين دخلت حواء المؤمن إلى غرفة نومها في شقتها لم تستطع أن تمسك نفسها، إذ ألقت بنفسها على السرير منهارة وانطلقت في نوبة بكاء هستيري. ظلت تبكي بحرقة. كانت تبكي على نفسـها وعلى قدرها التعيس، وعلى يتمها، وعلى الخيبات التي مرت بهـا، علـى ضعـف مقاومتها أمام شـهوتها وتعطشـها للحب والمغامـرات العاطفية، التي دمرت حياتها بعد أن وجدت الإستقرار في زواجها الثاني من الدكتور آدم التائه. بكت نفسها على فقدانها لزوجها آدم التائه. أحست أنها تحبه، وأنه لا يستأهل منها أن تسبب لـه هـذه الفضيحـة المجلجلـة، فقـد كان يحترمهـا، وكان كريما معها، بـل إنه، في الفترة الأخيرة، إقترب منها كثيرا، لكن ماذا كان جزاؤه؟ لقد لطخت شرفه، وأهانته حينما رآها بعينيه في وضع حيواني مشين. أخذت تشتم نفسها في أعماقها وهي تردد مع ذاتها بأنها سـاقطة ولا تسـتحقه، أنها لاتسـتحق الحياة العائلية الآمنة والشـريفة التي وفرها لها، أنها تستحق أن تنتقل من يد إلى أخرى. وعليها أن تتحمل نتائج سقوطها وشهوتها الدنيئة، أنها عاهرة، نعم، أنها تحس بأعماقها بأنها عاهرة.

أحسـت حـواء المؤمـن بالتعـب، فتوقفـت عـن البـكاء. ظلت للحظـات ممدة على

السرير. فجأة وكأنما تذكرت شيئا، إذ قامت واقفة وفتحت باب خزانة الملابس وسحبت حقيبة جلدية سوداء كانت في داخلها. ألقت بالحقيبة على السرير فاتحة إياها، ثم أخذ تسـحب قطع الملابس وتضعها في الحقيبة دونما أي تدقيق في نوعية الملابس. فجأة مسـكت القرآن، والذي كانت تحفظه في الخزانة بين طيات الملابس. مسـكت الكتاب المقـدس وكأنهـا تمسـك علـى الجمـر، ألقـت به على السـرير، ثم أخذت فوطة سـوداء وغطت يديها بها وأمسكت بالكتاب المقدس لتضعه في الحقيبة أيضا. أغلقت الحقيبة الجلدية. وجلسـت عند حافة السـرير. كانت لا تدري ماذا تفعل. كانت تبدو في حالة نفسية غير طبيعية. نهضت من مكانها وخرجت من الغرفة إلى المطبخ. فتحت جاروراً وأخرجت سـكيناً كبيرةً. وبدون تردد مررتْ نصلَ السـكين على يدها، فنفر الدم بقوة، لكنها ما أن رأت الدم حتى فزعت وأحسـت بالرعب وكأنها أدركت خطورة ما فعلت بنفسها.

عند الباب كان آدم اللبناني ينتظر. مر وقت طويل نسبيا ولم يأت الدكتور آدم التائه إلى البيت. فكر مع نفسه بأن هذا الوقت كان كافيا لحواء بأن تلملم كل ما تحتاجه من ثياب وأشياء أخرى، بل ربما هي الآن في شقته، لذا أخذ يصعد الدرج متوجها إلى شقته.

حينما دخل آدم اللبناني شـقته لم يجد أي أثر لحواء المؤمن، فتوجه مباشـرة إلى شـقتها، فوجـد البـاب مفتوحـا. نـادى عليها بصوت خفيض. لم يسـمع أيـة إجابة وإنما تناهى إلى سـمعه حشـرجة وأنين يأتي من جهة المطبخ، فتجرأ بأن خطا نحو الداخل، وحينها هاله ما رأى. كانت حواء المؤمن تجلس شـاحبة شـبه مغمى عليها في إحدى زوايا المطبخ مضرجة بالدم الذي كما يبدو حاولت أن توقفه بثوبها. كان الرعب يشـع من عينيها وهي تنظر إلى كفها التي كانت قد نزفت بقوة.

ركـض آدم اللبنانـي إلـى شـقته وتنـاول ما كان أمامه من مناديل وعاد إليها مسـرعا. شـد على يدها الجريحة أحد المناديل فتلوث المنديل بالدم دون أن يسـتطيع أن يوقف النزيـف. فجـأة نـزع حزامـه الجلدي عن بنطاله وشـد على سـاعدها بقـوة مانعا الدم من التدفق. ثم أنهضها. كانت بالكاد تستطيع الوقوف. فكر أول الأمر بان يأخذها إلى شقته لكنه وخلال ثوانٍ داهمه هاجس الخوف من تبعات الأمر، وربما التحقيق الرسمي في الأمر، بل لربما تموت، لذا ألغى فكرة أخذها إلى شقته، وإنما أدخلها غرفة الاستقبال فـي شـقتها، ومددهـا علـى الصوفا هناك. ثم أخـذ الموبايل واتصل بالطوارئ مبلـغّا عن حالة الإنتحار.

لم تمض سـوى عشـر دقائق حتى سـمع صوت صافرة سـيارة الإسعاف يشق الهواء

مقتربا من البيت فعرف أن سيارة الإسعاف تتجه نحوهم. وبعد قليل سمع خطوات متداخلة تصعد السلم الخشبي. فخرج هو من شقة حواء ونزل السلم مستقبلا رجال الإسعاف. وقدم نفسه قائلا:

- أنا الذي اتصلت بكم. حاولت أن أوقف النزيف بربط يدها بالحزام..
- حسنا فعلت.. لندخل لنرى الأمر. هل هي زوجتك؟
- لا. إنها جارتي.
- هل تعرف لماذا انتحرت؟
- لا طبعا.. لكني كنت أطبخ واحتجت للملح فرأيت الباب مفتوحا، وحينما ناديت على من في البيت سمعت حشرجة في المطبخ فدخلت فرأيتها وقد قطعت شرايين يديها.

وصل الفريق الطبي. كان الطبيب ومعه إثنان. دخلوا جميعهم، بينما تجمهر بعض الجيران عند أسفل السلم متسقطين جملا من الحوار الذي دار بين الطبيب وآدم اللبناني. لكنهم انتبهوا إلى إثنين من مرافقي الطبيب نزلا بسرعة خارجين من البيت، وبعد دقائق دخلا حاملين السرير النقال.

بعد فترة ليست بالطويلة خرج رجال الإسعاف وهم يحملون حواء المؤمن على السرير النقال. هبطوا السلم الخشبي بحذر شديد يتبعهم آدم اللبناني. وحينما صاروا خارج البيت، أصعدوا حواء المؤمن إلى السيارة، بينما بقي آدم اللبناني واقفا وهو ينظر إلى وجه حواء المؤمن الشاحب. أغلق أحد المساعدين باب السيارة الخلفي على حواء، ثم صعدوا جميعهم إلى السيارة التي انطلقت ومعها تعالى صوت الصافرة.

ظل آدم اللبناني واقفا في مكانه وهو يرى السيارة تنطلق، إلى أن اختفت عن نظره. بينما أخذ الجيران يسألونه عما جرى. لا يدري آدم اللبناني لماذا أحس وكأنه تخلص من عبء ثقيل جدا، أو كأنه خرج من كابوس أفاق الآن منه فجأة، ثم بدأ يسرد للجيران نفس القصة التي رواها للطبيب مع تفاصيل أخرى.

صعد آدم اللبناني إلى شقته. لم يكن يدري ماذا يفعل. أحس أنه كاد يقع في مشكلة كبيرة من وراء جنون حواء المؤمن. جلس على تلك الصوفا التي شهدت آخر مشهد له معها. كان رأسه يضج بالأسئلة المتناقضة. سأل نفسه مستغرباً: إذا كانت هي تحب زوجها إلى هذا الحب فلماذا خانته معي؟ ثم أنها امرأة سهلة جدا، بالرغم من أن ملامحها رصينة، وتوحي بشخصية محترمة. لقد انهارت في أول لمسة لي لفرجها، بل تحولت

إلى امرأة شبقة جداً. غريب أمر هذه المرأة. كانت تأتي إليّ متحججة بطلب أي شيء، وكنت أعرف أنها تقوم بهذه الحركات لتغطي على شبقها، وأنها تريد أن أضاجعها. بل دعتني، مرة، إلى أن أضاجعها في سرير نومها لأنها تريد أن تتذكر هذا المشهد ليلياً كل ما ذهبت للنوم، لكني ترددت في الذهاب، وحسناً ما فعلت.

ربما سيكتب قصتها التي نوى أن يبدأ بها راويا أيضا قصة رحلته من بيروت إلى ألمانيا. لم يكن آدم اللبناني منتبها لمرور الوقت. أحس بتعب شديد لم يألفه من قبل. وشيئا فشيئا غرق في سبات لم يكن قادرا على دفعه عنه.

حينما أفاق من سباته مد يده ليعرف الوقت من خلال ساعته الفسفورية. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. كيف نام كل هذا الوقت. ماذا يفعل الآن؟ ظل مستيقظا للحظات.لا يدري متى، وكيف غرق في لجة النوم والظلام.

آدم البغدادي: هل علي أن أغير من أسلوبي في هذه الرواية، لكي أميزها عن رواية (متاهة آدم)؟ ولماذا علي أن أميزها عن تلك؟ أنا لا أحب الروايات الإنشائية، بحيث يقلب القاريء الصفحات تخلصا من الأوصاف والإستطراد واللغة الإنشائية، لكي يتابع أحداث الحكاية. أحب الإقتصاد في الوصف والدخول في قلب الحدث.

لكن لماذا وضعت نصا من (ستندال) كموجه للرواية في البداية؟ صحيح أنا أحب (ستندال) كثيرا، أحسه قريباً مني، بالرغم من أني لم أقرأه بلغته، فأنا ببساطة لا أقرأ بالفرنسية، وإنما تعرفت عليه من خلال اللغة العربية. وبالرغم من أني أحب روايته (الأحمر والأسود) وخلخلت كياني لفترة من الزمان، إلا أني استشهدت بنص من كتاب عن الموسيقار (روسيني). هل تُرى هذا النص الذي أخترته سيوجه الخطاب الأخلاقي لأبطال النص، أم تُرى أنها رغبتي الشخصية وإعجابي بالنص هو الذي دفعني لأخذه؟ سنرى، لا أعرف شيئا عن مصائر الأبطال، فربما ستكون لهم علاقة خفية بروح النص. لا أدري.

سأل آدم المحروم نفسه عن سبب كتابة صديقه الكاتب هامشاًعلى روايته؟ هل هو يحاول أن يمارس عملية (التطهير الإبداعي) من خلال محاولته تفكيك مصادره وإستعاراته وطبيعة شخصياته؟ ماذا يترك للنقاد إذن؟ ربما لا يهمه ذلك، وانما الكتابة هي طقسه الإبداعي والروحي، ومن خلالها يحاول أن يعرف نفسه أكثر، لذا فهو يفكك النص بعد إنجاز كل فصل.

راهبات الليل

كان ثمة ظلام كثيف يمور كأمواج غامضة أو دخان هائج أو غيوم هاربة، مع إحساس بالإنجذاب والسقوط إلى قاع هاوية بلا قرار، إلا أن هناك قوة مبهمة تحركت من الأعماق السحيقة لترتفع وتصعد إلى الأعلى مثل غريق يتم انقاذه من الغرق المؤكد ليصل سطح الماء، هكذا فجأة فتحت حواء المؤمن عينيها، فأحست أن كل شيء قد اختفى. إختفت الظلمة الجاذبة إلى القاع الذي بلا قرار. لقد تخلصت من كابوس رهيب. لكن أين هي الآن؟

ظلت للحظات ساكنة تريد أن تستوعب الوضع الذي هي فيه، وآخر لحظات وعيها قبل هذا. ثمة مصباح نيون يسطع بلون أبيض حليبي يميل إلى الزرقة يتوسط سقف الغرفة. حركت رأسها إلى الجانب فرأت نافذة عريضة مغلقة بستارة من الألمنيوم.

أدركت أنها في المستشفى. وخلال ثوان تذكرت أنها حاولت الإنتحار. إنتبهت إلى أن إحدى يديها مشدودة إلى كيس المغذي المعلق على حمالة طبية إلى جانب السرير، والأخرى مشدودة بلفاف طبي.

شيئا فشيئا حاولت أن تحرك جسدها ساحبة إياه إلى الأعلى، فاعتدلت في جلستها بالرغم من أن يدها المشدودة إلى كيس المغذي قد أعاق حركتها قليلا.

كانت الغرفة واسعة. ألقت نظرة إلى الألمنيوم الذي علقوا إليه كيس المغذي فأدركت أن الكيس قد أوشك على الإنتهاء. بهدوء شديد سحبت الإبرة المغروزة في معصمها وفكت الرابط الذي يشدها، فتحررت يدها. شيئا فشيئا جذبت نفسها إلى الأعلى ثم استوت جالسة على السرير. مدت رجليها إلى الأرض. ألقت نظرة إلى الساعة المعلقة إلى الحائط التي كانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.

بدأت حواء المؤمن تتذكر اللحظات الأخيرة قبل أن تغرق في ظلمة الإغماء البيضاء. حضر إليها وجه آدم اللبناني وهو يناديها: حواء افتحي عينيك.. حواء.. حواء. ولا تدري لماذا حضر وجه الدكتور آدم التائه وهو يبصق عليها؟

لم تتذكر سوى تلك اللحظات. حاولت أن تستوعب الأحداث. أجبرت نفسها على التذكر، فأخذت تعصر ذاكرتها كي تذهب في ذكرياتها أبعد، لكن ثمة حالة غريبة من البرود واللامبالاة كانت تهيمن على نفسها. كانت شبه خالية من المشاعر والأحاسيس. هل هذه هي حالة الانسان الذي يعود إلى الحياة بعد أن حاول عبور حاجزها إلى الجهة الأخرى؟ وهل هي الآن حية فعلا أم أنها ميتة وأن ما يجري لها هو من تفاصيل العالم الآخر؟

نهضت واقفة فأحست بدوار شديد مفاجئ فجلست على السرير خوفا من الوقوع. بقيت للحظات ساكنة، ثم حاولت الوقوف ثانية وبهدوء شديد، فلم تشعر بالدوار كما في المرة السابقة. تحركت ببطء نحو النافذة فرأت من خلال أشرطة الألمنيوم التي تشكل الستارة، الظلمة التي تلف حديقة المستشفى، بالرغم من وجود أعمدة المصابيح التي تلقي ضوءاً شاحبا يغطي دائرة صغيرة حول العمود.

إنتبهت لشبح أبيض يمر مختفيا خلف مصطبة خشبية في الطرف الآخر من الحديقة حيث بعض أشجار تنتظم هناك. فكرت ربما إحدى الممرضات مضت إلى هناك. لكنها سألت نفسها: ما الذي يدفع بممرضة أن تذهب إلى الحديقة لتختفي خلف مقعد تظلله الأشجار في مثل هذه الساعة من بعد منتصف الليل؟ فكرت مع نفسها أيضا بأن هذه المرأة ربما تواعدت مع رجل ما سيلتحق بها. ظلت لدقائق لا تفكر بأي شيء سوى حالة ترقب ظهور رجل ما سيلتحق بالمرأة التي اختفت خلف الأشجار، لكن لم يظهر أي رجل في الحديقة. فكرت مع نفسها أنها ربما قد توهمت أصلا وجود تلك المرأة.

تحركت نحو باب الغرفة. فتحتها. توقفت مطلة برأسها في الممر الفارغ. خرجت إلى الممر وأغلقت الباب بهدوء كي لا توقظ أحد. كان الممر خاليا من أي إنسان، وثمة خوف من هذا السكون الطاغي وهذا الفراغ يسري في أعماقها، لكنها صارعت خوفها من أجل المكان الذي وجدت نفسها فيه، فربما هي في حلم ما.

فجأة وعند نهاية الممر الذي يتقاطع مع ممر آخر مرت امرأة في ملابس الراهبات بسرعة خاطفة دون أن تلتفت إليها. أسرعت حواء المؤمن خطوها قليلاً لتصل إلى تقاطع الممرين وتلحق بالراهبة. حينما وصلت التقاطع وجدت نفسها في ممر طويل جدا. ممر فارغ من أي إنسان. أين ذهبت الراهبة في مثل هذه الساعة؟ لا أثر لها في الممر.

تقدمت في الممر ماشية على مهل، فرأت على جانبي الممر غرفا مكشوفة، ومعزولة بجدران زجاجية، تمكّن رؤية من في داخلها. خمنت أن هذه الغرف للحالات الحرجة والعناية الخاصة. نظرت من خلال الزجاج إلى غرفة ترقد فيها امرأة هرمة. يبدو أنها صاحية. حين صارت حواء في مواجهة الجدار الزجاجي تمتمت المرأة العجوز بكلمات ماتت على شفتيها. لم تفهم حواء شيئا. كان منظر المرأة الهرمة مخيفا وكأنها ساحرة من العالم الآخر أو تجسيدات في بعض أفلام الرعب التي تشاهدها من خلال التلفزيون.

مشت متقدمة في الممر وهي تتلفت يميناً ويسارا لترى المرضى الراقدين في تلك الغرفة وهم في البرزخ بين الحياة والموت. فجأة، توقفت مرعوبة إذ لمحت في إحدى تلك الغرف زوجها الدكتور آدم التائه وهو غارق في نومه، والأنابيب المطاطية الشفافة

في أنفه، ويده مشدودة إلى كيس المادة المغذية المعلقة على حمالة من الألمنيوم وإلى جانبها قنينة الأوكسجين الكبيرة.

إقتربت من الحاجز الزجاجي. بقيت تتأمله غير مصدقة. أحست بحزن عميق جداً يجتاح روحها وكيانها. أحست بدفقات من الحب تجاهه. شعرت بالذنب. خمنت أنها السبب في ما وصل إليه، لكنها لا تعرف ماذا حصل معه؟ وكيف هو هنا في غرفة العناية المركزة والحالات الخطرة؟.

بهدوء فتحت الباب ودخلت إليه. إقتربت منه. راودها إحساس بأن تلقي بنفسها على صدره باكية، أن تطلب عفوه ومغفرته. لا تحتاج إلا لعفوه ومغفرته. تريد أن يمنحها السلام والإطمئنان النفسي بغفرانه لها وعفوه عنها. أحست بأن لا أحد لديها في هذا العالم غيره، فهو زوجها وأبوها وأمها وأخوها. أحست أنها تنتمي إليه، لكنها دمرته. لم يكن يستحق منها ما فعلته به. كانت بحاجة إلى أن توقظه وتتحدث إليه، بحاجة إلى غفرانه، ودونما إرادة منها مدت يدها وتلمست كفه الممدة إلى جانب السرير. أخذت كفه بين يديها. تحركت كفه لتقبض بضعف واضح على كفها. فجأة، فتح الدكتور آدم التائه عينيه. نظر إليها نظرات غائمة وكأنما يعرفها ولا يعرفها. ظل ينظر إلى وجهها للحظات. ترقرقت الدموع في عينيه. صارت صورتها غائمة في نظره. لن يستطع أن ينظر إليها أكثر فأدار رأسه إلى الجهة الأخرى. أحست هي بالخذلان. جلست على الأرض ماسكة بكفه، ملقية وجهها على حافة السرير. إنفجرت ببكاء مر وشديد. إستمرت لدقائق وهي تندب نفسها وحظها، وتندب حظه معها. ها هما غريبان مدمران، في مشفى غريب، في مدينة غريبة. لا أحد لهما غير بعضهما، لكنهما مدمران. أحست فجأة بكفه تمسد شعرها مثل طفلة صغيرة وكأنه يوآسيها. لم ترفع رأسها، استمرت في البكاء. فجأة أحست بكفين تقبضان على كتفيها وترفعانها.

كانت الراهبة المسنة قد مرت في الممر، وحين رأت حواء المؤمن في غرفة الدكتور آدم التائه دخلت عليها، أمسكت بها برفق شديد، وبدون أي كلام خرجتا من الغرفة. كانت حواء المؤمن ساكنة الملامح وكانت كالسائر في النوم. كانت تبكي بصمت. الراهبة لم تنطق بأي كلمة، وإنما احتضنتها برفق وحنان وأخذتها إلى غرفتها. أرقدتها على سريرها. غطتها بالبطانية. كانت حواء تنظر كالمذهولة إلى سقف الغرفة. وقفت الراهبة قرب الباب ناظرة إليها، ثم مدت يدها إلى زر الكهرباء فأطفأت النور. خرجت غالقة الباب. غرقت حواء المؤمن في ظلامٍ تحدق إليه بعيون مفتوحة.

آدم البغدادي: ما الذي دفعني لكي أجعل الدكتور آدم التائه يسقط هكذا بذبحة صدرية وينقل إلى المستشفى، وكذا أترك حواء تقدم على الإنتحار؟ هل لأحاول أن أكشف عن طيبة حواء المؤمن وهي في جحيمها ذاك؟ أم أنا أتعاطف مع الدكتور آدم التائه وبالتالي أحاول أن أرسم له صورة البريء المخدوع، وبالتالي، بالرغم من كل ما جرى له، يغفر لتلك الخاطئة بحقه؟ وما الداعي لذلك؟ هل لأني رجل وأتعاطف معه دون إرادتي، ومن منبع الكبرياء الذكورية؟ هل هذه هي مهمتي ككاتب، لا أعتقد ذلك؟ ألم يتعاطف (غوستاف فلوبير) مع (إيما بوفاري)، بل وقد صرح ذات مرة بأن مدام بوفاري هي أنا؟ ألم يبك ليف تولستوي حينما أنهى المقطع الخاص بانتحار (آنا كارينينا)، وحينما سألته ابنته لماذا هو دامع العينين؟ أجابها (لقد انتحرت آنا كارينينا) إذن لماذا أحاول أن أقدم الدكتور آدم التائه وكأنه البريء، والضحية، أليست حواء المؤمن هي ضحية أيضا.

ثم لماذا الراهبات؟

فكر آدم المحروم مع نفسه بأن الرواية أخذت تبث الخوف والترقب فيه. هو لا تعنيه تبريرات وتعليقات صديقه الكاتب القتيل، ما يعنيه الآن هو الحكاية التي أخذت طريقا غرائبيا مشوقا.

2

إغتــيال آدم البــغــدادي

ألقـى آدم المحـروم المخطوطـة جانبـا. أحـس ببراعـة صديقه القتيـل آدم البغدادي في تتبع تحولات النفس البشـرية وإلتقاطه لتناقضاتها في أشـد المنعطفات حدة. أحس برغبة في البكاء على نفسه وعلى صديقه القتيل. أي خراب ينتظر هذه البلاد على أيدي هـؤلاء الأوغـاد؟. يبـدو أن صديقـه كان أعمق منه في فهمه لآلية هذه السـلطة الجديدة، فبعد مرور كل هذه السـنوات على سـقوط النظام السـابق تحول الضحايا إلى جلادين جدد، ويبدو أن صديقه آدم البغدادي قد استشعرما سوف يحدث، فليس عبثا أنه كتب رواية بعنوان (عميان بغداد في وليمة الأوغاد) أو (عميان الكاظم). سـيقرأها بلا شـك بعـد أن ينتهـي مـن (متاهـة حـواء أو وادي الظلمـات). وبـدون إرادة منه تدفقت الصور كالشلال في قاع مخيلته.

كان صوت سيارة الإسعاف يتصاعد بقـوة وهو يقترب من المقهى الذي كان الكاتب والصحفي آدم المحروم ينتظر صديقه الكاتب آدم البغـدادي فيه. لقد مضت نصف ساعة علـى الموعـد ولـم يـأت آدم البغــدادي، بالرغـم من أن المقهى يقع فـي الجهة المقابلة للزقاق الذي يسكن في شقة بإحدى بناياته الواطئة.

فكر آدم المحروم في سـبب تأخر صديقـه، وعلل ذلك بإنشـغاله في تنقيح رواياته ومخطوطاته العديدة، لاسيما روايته التي حدثه عنها كثيرا، حيث أسماها (متاهة حـواء – وادي الظلمـات) والتي سيضع لمساته الأخيرة عليها، والتي أخبره ليلة أمس عندما هاتفه بأنه فيها واصل مصير أبطال روايته (متاهة آدم). ربما أيضا تأخر بسبب زيارة إحدى صديقاته، إذ ليس من عادته أن يتأخر عن أي موعد، لاسيما وأن شقته قريبة من المقهى.

مـد يـده إلـى جيبـه وأخـرج هاتفه النقال كي يتصل به. لكن لا احد يجيب، فالهاتف كما يبدو كان يرن على الجانب الآخر.

طلب الفنان آدم المحروم الشـاي للمرة الثالثة لإشـغال نفسـه بشـيء ما. استمع إلى رواد المقهى الذين كانوا منشغلين بأخبار الانفجار الذي هز منطقة الصالحية في جانب

الكرخ من بغـــداد، صباح هذا اليوم. أحدهم قال بأن السفارة الايرانية التي تقع هناك هي التي كانت مسـتهدفة، وآخر قال بأن مبنى محافظة بغداد كان هدف التفجير الارهابي، وثالث قال: لا هذا ولا ذاك وإنما وزارة الخارجية هي التي كانت مسـتهدفة، رابع قال إن مجمـع الصالحيـة كان هـو المقصـود بالتفجيـر الإرهابـي، آخر قال: كل هذه لا تعني شيئا فليس مكان الانفجار هو المهم لأن الشعب العراقي هو المستهدف الأول والأخير من كل هذه التفجيرات، فالمسؤولون على اختلاف مللهم ومذاهبهم وقومياتهم يعيشون في المنطقة الخضراء المحصنة ولا يمسهم أي ضر.

ومـع أن آدم المحـروم قـد شـاهد بعـض التقاريـر عن الإنفجار من خلال شاشـات التلفزيون إلا أن جميع الأخبار كشـفت عن تخبط هائل للحكومة وتضارب في الآراء يشـي بهشاشـة مريبة للوضع العام في البلاد، وفوضى تثير المخاوف عن مسـتقبل هذه المدينة التي وكأنما كتب عليها البلاء الأبدي.

إرتاب آدم المحروم في تأخر صديقه الكاتب آدم البغدادي، فترك رواد المقهى في تحليلاتهـم لمـا يجـري فـي هـذه المدينة الحزينة، وبدأ يسـتذكر ما دار بينهما ليلة أمس، تذكر أنه حينما تحدث معه عبر الهاتف، أكد له بأنه سـيكون خلال السـاعة الرابعة في المقهى، وها هي الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف ولم يأت بعد.

شغله هدير صافرة سيارة الإسعاف التي كان واضحا أنها تقترب من المقهى جداً، بحيث قطع هديرها ذلك الحوار السياسـي بين روادها، فخرجوا ليروا ما يجري، حتى أنه وبشكل لا إرادي قام أيضا وخرج من المقهى ليتأكد كالآخرين مما حصل، فشاهد أن سيارة الإسعاف قد إنعطفت إلى الزقاق الذي يسكنه صديقه آدم البغدادي.

شعر بخفقان غريب في قلبه، وبتصاعد عرق بارد إلى جبينه، وبرعشة مست ساقيه وصعدت إلى ظهره، وانتابه شعور غامض بأن كارثة ما ستقع، لاسيما حينما رأى سيارة الإسعاف تقف عند باب البناية الواطئة التي يعيش صديقه في إحدى شققها.

تدفق الناس، يدفعهم فضولهم، إلى الزقاق حيث وقفت سـيارة الإسـعاف، وهناك سمع أحد سكان البناية يتحدث عن قتيل.

شعر آدم المحروم بقشعريرة تسري في أنحاء جسده، وحالة من الارتجاف الواضح سيطرت على ساقيه، وتخشبت عضلات وجهه. أحس أنه لا يستطيع المشي، لكن ذلك جرى خلال أقل من دقيقة فقط، إذ وجد نفسه مأخوذا بقوة مفاجئة وكأن يدا ما انتشلته من هوة بلا قرار، بل وسرى في جسده تيار من الطاقة النفسية والجسدية، فدخل البيت وصعد السلم راكضاً حيث الطابق الذي يسكن فيه صديقه الكاتب آدم البغدادي.

كان وهو يصعد درجات السلم إلى الطابق الثالث يهيمن عليه يقين بأن شيئا ما قد حدث لصديقه، وأنه ضحية جريمة القتل التي سمع الحديث عنها. حينما وصل إلى الطابق الثالث وقف لثوان أمام الباب. رأى رجال الإسعاف يدخلون وهم يحملون السرير النقال، ورأى بعض الجيران يدخلون، أو هكذا خمّن، فدخل مع الداخلين.

خطا أول خطواته في الشقة. أحس بأن دفق الطاقة الذي سرى في جسده ونفسه قد اضمحل واختفى. كان يشعر وكأنه محموم، لكن بالرغم من ذلك كان عليه أن يتصرف بسرعة، أن يرى كل شيء، بالتفاصيل المملة، وأن يحتفظ بها في ذاكرته بسرعة هائلة.

دخل مع رجال الإسعاف إلى المطبخ فرأى جثة صديقه منكبة على وجهها، وبالقرب من الرأس ثمة بقعة متجمدة من الدماء، وثمة دورق زجاجي فيه بقايا عصر برتقال قد تهمشم على الأرض.

برقت في ذهنه فكرة أن يفتش عن مخطوطات صديقه القتيل ورواياته التي لم تُنشر بعد، فانسحب بطريقة لا تثير الريبة مستغلا ذهول الواقفين في المطبخ وارتباكهم، فدخل إلى غرفة النوم بسرعة. هناك رأى السرير مغطى بلحاف صوفي، وثمة كتب متناثرة على الأرض عند جهة الرأس، ودولاب ملابس مفتوح، ورأى حقيبة جلدية متوسطة الحجم مع حزامها الرافع عند الطرف الآخر من السرير، ففتحها بسرعة فائقة ليتأكد مما في داخلها، فرأى الدفاتر والكراسات وحزم الورق المستخدم في الكتابة، فعرف أنها من مخطوطاته، ولم يكن لديه الوقت الكافي ليفتش أكثر فحملها بخفة ووضع حزامها على كتفه، وخرج من الغرفة متجها إلى المطبخ حيث رجال الإسعاف، فلم ينتبه إليه أحد.

كان رجال الإسعاف يتناقشون في ما بينهم بضرورة إنتظار الشرطة قبل أي مساس للجثة. سمع أحدهم، والذي يبدو أنه الذي انتبه للجريمة، واتصل بالشرطة ومستشفى الطوارىء، يروي كيف سمع وقوع شيء ثقيل على الأرض في شقة المرحوم آدم، وأنه جاء ليستفسر عن ذلك، فرأى باب الشقة مفتوحا بالكامل، وأنه نادى المرحوم عدة مرات فلم يجبه فتجرأ ودخل، إذ كانت بينه وبين المرحوم علاقة طيبة، وأحيانا كانا يسهران معاً، وحينما انعطف إلى المطبخ رأى المرحوم ملقى على الأرض دون حراك، فناداه ولما لم يجب خاف من تبعات الأمر، فخرج مسرعاً ليتصل بالشرطة والإسعاف.

لم ينتظر آدم المحروم طويلا لحين وصول الشرطة، فانسلّ بهدوء من الشقة، وما أن وصل الباب الخارجي لها حتى أخذ يقفز درجات السلم بسرعة، وحينما قابل بعض الجيران وهم يصعدون خفف من حركته كي تبدو طبيعية.

ما أن صار آدم المحروم في الشارع حتى أحس بهول الحدث، وأن صديقه الكاتب

قـد تمـت تصفيتـه مـن قبـل جهات في السـلطة، لأنه كثيرا مـا كان يبدي رأيه في الوضع وتوجهات البلاد بعد احتلالها من قبل الأميركان وبعد سقوط النظام الدموي السابق.

أوقف سيارة تكسي طالبا من السائق التوجه إلى إتحاد الأدباء في ساحة الأندلس. كان جسده قد تعرق بالكامل، وأحس لأول مرة بالرعب، ليس من الإرهابيين وإنما من السـلطة، لذا حينما توقف التاكسـي قرب مستشـفى الشـيخ زايد مقابل مقر إتحاد الأدباء خرج منه متلفتاً بخوفٍ وحذر، فلربما هناك من يتبعه.

دخل قاعة نادي إتحاد الأدباء. وجد بعض أصدقاء القتيل آدم البغدادي وهم يلتفون حول طاولة، يتحدثون عن واقع المسرح في العراق. وقف دون أن يلقي بالتحية، نظروا إليه. انتبهوا لشحوب وجهه والرعب في أعماق عينيه ونظراته القلقة، وقبل أن يسأله أي منهم، قال جملته التي أربكتهم:

– لقد قتلوا آدم البغدادي

لم يسمع سوى صرخات عالية:

– ماذا؟

وطغى عليهم جميعاً صمت أعمى إسـتمر لثوان ثقيلة جداً، فقال كمن يتلو رسـالة أو تبليغا رسميا:

– لقد جئت الآن من شـقته، سـيارة الإسـعاف هناك، وربما وصلت الشـرطة أيضا. أطلقوا عليه الرصاص من الخلف في مؤخرة رأسـه. رأيته مضرجا بدمه ومنكبا على وجهه في المطبخ.

لم يكمل كلامه، إذ تقافز الأصدقاء مغادرين القاعة بسرعة أشبه بالهرولة. بقيَ هو متجمدا في مكانه.

حينمـا خـرج آدم المحـروم إلـى باحـة مبنـى الإتحاد كان الجميع قـد غادر المكان، فخرج إلى الشـارع، وعند البوابة سـأله أحد رجال الحراسـة، عن الذي جرى، ولماذا خرج الجميع وهم يصرخون، ومنهم من كان يبكي، فاستوقفوا أكثر من سيارة وذهبوا. فأجابه بقلق واضح:

– لقد إغتالوا الكاتب آدم البغدادي

فتساءل الحارس ببساطة:

– ومن هو آدم البغدادي هذا؟

لـم يجـد آدم المحـروم أي جـواب، وإنمـا نظر للحظـة في وجه الحارس، ثم مضى مسـتوقفا سـيارة تاكسـي، وحينما سأله السائق عن المكان الذي يقصده إحتار للحظات،

ثم قال له أريد الذهاب إلى البيت. نظر السائق إليه مندهشا، فانتبه آدم المحروم لجوابه على سؤال السائق فقال له: إطلع للبتاوين.

خلال لحظات انتشر خبر إغتيال الكاتب آدم البغدادي في وسائل الإعلام العراقية، وتناقلته بعض القنوات العراقية التي تبث من خارج العراق بشكل عاصف.

دخل آدم المحروم إلى شقته المكونه من غرفة واحدة مع ملحقاتها كالحمام والمطبخ الصغير. بادر لتشغيل جهاز التلفزيون، الذي كشفت شاشته عن إحدى القنوات التي كانت تبث خبرا عاجلا عن جريمة قتل الكاتب آدم البغدادي. ألقى بنفسه على الصوفا وكأنه تل من الرمال انهدّ متسرباً إلى هاوية.

3

جحيم باربوس

قطع آدم المحروم سير تداعياته صوت انفتاح باب الغرفة المجاورة لغرفته. أنصت متوجساً. رفع رأسه وكتفيه عن السرير. سمع صوت أكياس توضع على الأرض. وجلوس شخص ما على السرير، لأنه سمع صوت صرير السرير. تلاشت الأصوات للحظات، بعدها سمع حركة تأتي من الممر، وصوت فتح الباب مرة أخرى، لكن صاحبها هذه المرة صوت فتى الفندق وهو يتحدث للشخص الموجود في الغرفة:

– المدير يسأل: كم يوم ستبقين في الفندق؟ إنك خرجت اليوم صباحا ولم ترجعي إلا الآن، بينما البارحة قلت إنك ستغادرين صباحا.

عرف أن الشخص الآخر في الغرفة المجاورة هي امرأة. بعد لحظات سمعها تجيب عامل الفندق قائلة:

– سأبقى لثلاثة أيام أخرى. لديّ معاملة في دائرة التقاعد ولحد الآن لم تنته. مضت أربعة أشهر وأنا أروح وأرجع من محافظتي، وكل مرة يقولون لي ستنتهي، لكن كما يبدو سأنتهي أنا قبل أن تنتهي هذه المعاملة.

– يعني ستبقين ثلاثة أيام أخرى؟

– نعم

سمع آدم المحروم صوت إغلاق الباب، فأدرك أن الصبي قد ذهب، غالقا باب الغرفة خلفه. إنتبه إلى وجود باب خشبي يفصل بين الغرفتين، لكنه باب بلا مقبض. باب يبدو تم خلع مقبضه كي لا يمكن أن يفتح على الغرفة الأخرى. وبدون إرادة منه اعتدل آدم المحروم في جلسته على السرير. ثم مد رجليه إلى الأرض. بقيَ على هذا الوضع لبعض الوقت. كان يفكر بنفسه، بالوضع الذي هو فيه. ثم، وبدون إرادة منه أخذ يفكر بالمرأة التي في الغرفة المجاورة. أشفق مع نفسه عليها، كيف لهذه المرأة التي جاءت من محافظة بعيدة أن تلهث وراء إنجاز معاملة التقاعد دون جدوى. سمع صوت دندنة لأغنية مشهورة لمطربة لبنانية يأتي من الغرفة المجاورة. قام من مكانه مقترباً

من فتحة المفتاح الموجودة في الباب الوسطي، تقرفص في جلسته ومد إحدى عينيه لينظر من خلال الفتحة إلى ما يدور في الغرفة المجاورة. تذكر لحظتها رواية (الجحيم) لهنري باربوس، والتي تتحدث عن شخص كان يراقب العالم من خلال ثقب الباب. ذلك الشخص كان يستمع لكل ما يدور في الغرفة من أحاديث وأشياء ويرى ما يدور أيضا دون أن يعرف به أحد.

لم يرَ آدم المحروم شيئاً. شعر وكأن الغرفة فارغة وأنها غير موجودة. ربما استلقت على السرير ونامت. لا، فالسرير في مواجهته وليس عليه أحد. فجأة مر ظل أمام عينيه. ارتبك، وتجمد في مكانه. فهذا يعني أنها كانت تتنصت لغرفته أيضا، لكنها لم تنظر من ثقب الباب، وإنما ربما وضعت أذنها لتتنصت على من في غرفته. ابتعد الظل. لمح قوام لفتاة ربما بدت في نهاية العشرينات، من قوامها الرشيق خمّن أنها جميلة لأنه لم يكن بإمكانه رؤية وجهها. تراجع إلى الوراء قليلاً. وقف بهدوء شديد، ثم مضى على أطراف قدميه إلى زر النور فأطفأ النور في الغرفة. رجع بنفس الحذر مقرفصاً أمام فتحة الباب ليواصل مراقبته لما يدور في الغرفة المجاورة. فكر مع نفسه في بطل رواية (الجحيم) لهنري باربوس كيف أنه كان يتساءل مع نفسه عن الحقيقة. الحقيقة؟ يا تُرى ما الذي يعنون بالحقيقة؟. وها هو الآن في هذه الغرفة الغريبة، في هذا الفندق المريب، في هذه المدينة المرعبة، هارب من أشباح مجهولة بعد مقتل صديقه الكاتب آدم البغدادي، وبالرغم من هذا كله فهو يجد متعته الآن وهدفه أن يراقب هذه المرأة من ثقب الباب.

ظل لدقائق بدت له طويلة جدا جالساً القرفصاء، واضعا عينه على فتحة الباب الفاصل بينه وبين غرفة المرأة المجهولة. سأل نفسه: أأظل هكذا جالساً منتظراً؟ وماذا أنتظر؟ ربما ستتعرى؟ ربما سيأتي شخص ما ويضاجعها كما جرى في الغرفة الأخرى في الرواية الفرنسية؟. لكن لا شيء حدث مما كان في تلك الرواية، بل سمع نشيجاً خفيفاً أول الأمر ثم تعالى النشيج حتى صار مسموعا جداً. كانت المرأة تبكي بمرارة شديدة. ظلت المرأة تبكي وهي في سريرها، وظل هو جالساً القرفصاء، متسمراً في مكانه، إلى أن توقفت المرأة، بل تعبت من البكاء والنشيج. بهدوء شديد قام هو وعاد إلى السرير مستلقيا عليه ثانية. ظل لدقائق ممداً على السرير، عاجزا عن التفكير بشيء محدد، ثم بهدوء شديد مد يده ليمسك بمخطوطة (متاهة حواء) ليواصل القراءة.

صباح الأوهـام

أفاقتْ حواء المؤمن على صوت هدير سيارة الإسعاف التي، كما يبدو، كانت قادمة إلى المشفى. فتحت عينيها بصعوبة. نظرت إلى الساعدة الجدارية التي كانت تشير إلى الثامنـة صباحـاً. إنتبهـت إلـى كيس النيلون المعلـق على حمالة من الألمنيوم إلى جانب السرير. انتبهت لكيس المادة المغذية المغروز من طرفه الأسفل بمعصمها، فكرت مع نفسها: كيف حدث هذا؟ ألم تفك ليلة أمس هذا الكيس من معصمها؟ ألم تخرج ليلة أمس إلى ممرات المشفى؟ ألم تجد زوجها في غرفة العناية المركزة؟

أثناء إنشغال حواء المؤمن بهذه التساؤلات دخلت إحدى الممرضات الغرفة وهي تبتسم وتقول لها بالألمانية:

– صباح الخير.. كيف الحال؟

– صباخ الخير. أجابت هي.

اقتربت الممرضة منها وقالت لها:

– نريد تغيير البياضات والشراشف، فهل تقدرين على الحركة قليلاً.. الجلوس على الكرسي ريثما أقوم بذلك؟

وبدون أن تجيبها جلسـت على حافة السـرير. مسـكت حامل كيس المادة المغذية ودفعته أمامها. نهضت من مكانها وأخذت تمشي ببطء إلى أن وصلت المقعد القريب من النافذة فجلست عليه. أخذت تنظر إلى المرأة التي قامت بنزع الشراشف وتبديلها. إنتبهت الممرضة لها وقالت:

– إنك ما زلت شابة وجميلة، والحياة أجمل من أن ننهيها في مثل هذا العمر؟

لم تفهم حواء المؤمن كل ما قالته الممرضة. لكنها فهمت الإشـارة إلى أنها شـابة وجميلة. اكتفت بالإبتسـام للمرضة إبتسـامة شـاحبة. لم تواصل الممرضة الحديث، إذ شعرت بأن ذلك قد يُعد تدخلا في الشؤون الشخصية.

مـا أن أنهـت الممرضـة تغييـر الأغطيـة وترتيبها بانتظام، حتى دخلت ممرضة أخرى تحمـل بيدهـا صينيـة الفطـور. ألقـت تحية الصباح. أجابت الممرضـة والمريضة رادتين التحية في الوقت نفسه. بعد لحظات خرجت الممرضة الأولى، بينما انتبهت إلى جلوس حواء المؤمن قرب النافذة فسألت:

– هل أحمله إليك أو تجلسين على سريرك؟

أشـارت حـواء المؤمـن إلى الطاولة التي أمامهـا. وضعت الممرضة الصينية أمامها.

نظـرت إليهـا وكأنهـا تـدرس هـذه المرأة الجميلـة التي أقدمت علـى الانتحار. خرجت الممرضة وبقيت حواء وحدها.

نظـرت حـواء إلـى صينيـة الفطور أمامها. أخذت كأس عصير البرتقال ورشـفت منه قليلاً. أحست بشيء من الانتعاش يسري في جسدها، وما أن بدأت بتناول الفطور حتى فُتح الباب ودخل آدم اللبناني الغرفة وهو يبتسم لها:

– صباح الخير.. لا..لا.. ما شاء الله أنت في صحة جيدة..

اندهشت حواء المؤمن أول لحظات دخول آدم اللبناني، لكنها فجأة استذكرت كل شـيء. راودها ضيق لا تعرف مصدره لكنه زال حينما واجهها آدم بإبتسـامته المشـرقة ووجهه الباسم والمثير. راح عنها الضيق بل أحست بشيء من الإرتياح.

كان آدم اللبنانـي يحمـل كيسـا مـن النايلـون. إقترب منها ووضع الكيس على طرف الطاولـة التـي أمامهـا. مـد يده وأخرج منه كيسـا آخـر كان فيه. وضعه على الطاولة ولفة من الشـاورما المغطاة بورق السـيلوفان وعلبة من اللبن التركي، وكتاب باللغة العربية، وقال مبتسماً:

– فكرت بأن أكل المشفى لن يعجبك، لذلك مررت على المطعم اللبناني وجلبت لك الشاورما والفلافل.

نظرت إليه بإمتنان قائلة:

– شكرا لك.. الفطور لا بأس به هنا

– لا بد أن تأكلي جيدا فلقد نزفت كثيرا..

– لقد علقوا أكياس المغذي فوق رأسي وربطوها بإبرة زرقوها في معصمي. ما أن ينتهي كيس حتى يضعوا كيساً آخر.

– هذا ضروري جدا..لكن ألم يقولوا لك متى تخرجين؟

– لا..

سـكتت حواء المؤمن فجأة. إنتبه آدم اللبناني إلى أنها شـردت بتفكيرها إلى مكان آخر، فسألها:

– ما بك؟ إلى أين سرح فكرك؟

صمتت للحظات ثم قالت:

– الدكتور آدم هنا أيضا.

– ماذا؟

– ليلة أمس تجولت في الممرات فوجدته في غرفة العناية المركزة..و..

– و.. و..وماذا؟
– لاشيء.. دخلت عليه في غرفة العناية لكن يبدو أنه لم يعرفني أو وكأنه لم يتوقع وجودي في المشفى.
– لكـن مـا الـذي جـرى لـه؟ ليلة أمس لم يأت إلى الشـقة. ظننت أنه عند أصحابه. لأسأل عنه الاستعلامات.
– لكن هل أنت متأكدة مما تقولين؟ ربما تخيلت ذلك، ربما كنت تحلمين.
– كيف أتخيل ذلك؟ هل لا أعرف زوجي؟ أتعتقد أني اشـتبهت بشـخص آخر أو أني حلمت؟ لدي شاهد على ما أقول.
– شاهد؟
– نعم شـاهد. كانت هناك راهبة كبيرة في السـن نوعا ما. لقد دخلت غرفة العناية المركزة وسحبتني من هناك وجاءت بي إلى غرفتي.
– في أي قسم قلت؟
– في قسم العناية المركزية.
– سأذهب لأستطلع الموضوع.. سأرجع إليك بعد قليل.

خرج آدم اللبناني من الغرفة مسـرعا. ظلت حواء سـاكنة للحظات وهي تسـترجع ما رأته ليلة أمس. وشيئا فشيئا رجعت إلى عالم الغرفة، فمدت يدها إلى لفة الشاورما وأزاحت شيئا من جوانبها وبدأت تمضغ الطعام.

مضى ما يقارب السـاعة على خروج آدم اللبناني ليستفسـر عن الدكتور آدم التائه. ظلـت حـواء فـي حالـة إنتظـار، فهـي تريد أن تعرف ما الذي جـرى لزوجها؟ ولماذا هو في غرفة العناية المركزة؟ سـألت نفسـها عن سـبب تأخره كل هذا الوقت. فكرت ربما صادف إحدى الممرضات وبدأ محاولاته للتعرف عليها.

همـت بالخـروج إلـى الممـرات بنفسـها، إذ صار غيـاب آدم اللبناني كل هذه الفترة يقلقها، وبينما هي في لجة قلقها دخل الغرفة آدم اللبناني وعلى وجهه علامات استفهام وشرود يحاول أن يخفيه. نظرت إليه وسألت:
– هل وجدت الدكتور آدم؟ ما به؟ هل عرفت لماذا جاءوا به إلى هنا؟

نظر آدم اللبناني إليها محدقا في وجهها بتركيز، وكأنه طبيب نفسـاني يدرس حالة مريضه، وقال:
– لا يوجد في كل المشـفى شـخص بأسـم آدم التائه بل لا يوجد فيها أي أجنبي

غيرك وليس في هذه المستشفى أي قسم للعناية المركزة، وإنما ينقلونهم إلى المشفى الكبير في الطرف الآخر من المدينة.

فقاطعته حواء المؤمن بقلق وهي تقول:

– أقول لك إني رأيته ليلة أمس، ودخلت غرفته!

– وأنا أقول لك بأن في كل هذه المستشفى لا يوجد قسم للعناية المركزة. وليس في هذه المستشفى أي شخص بالاسم والمواصفات التي تطابق زوجك السابق. وأنهم أكدوا لي..

فقاطعته ثانية، وهي تحتد قليلاً:

– وماذا عن الراهبة التي أخرجتني من الغرفة محتضنة إياي وجاءت بي إلى غرفتي؟

صمت آدم اللبناني للحظات. أحست هي وكأنها أحرجته بحجتها هذه، لكنه أجابها بهدوء شديد:

– من المؤسف أن أقول لك بأنه لا توجد أية راهبة في هذه المستشفى. وقد استغربوا من كلامي حينما حدثتهم عن زوجك وعن الراهبة التي أرجعتك إلى غرفتك وغطتك بالأفرشة ثم أطفأت الضوء وخرجت. لقد أكدوا لي بأن كل هذا مجرد رؤيا أو أوهام.

إرتسمت علامات الغضب على وجه حواء المؤمن، وقالت:

– هل أنا مجنونة؟ هل كنت أحلم؟ لا أبداً.. لقد رأيت كل ما رويته لك، ولا بد لي من الإستفسار عن هذا الموضوع فأنا لستُ مجنونة.

لم يشأ آدم اللبناني أن يثير غضبها، لكن كان متأكدا من أنها ليست في حالة نفسية طبيعية، وربما عقلها الباطن هيأ لها كل هذه الرؤيا، فسكت دون رغبة بالنقاش عن صحة ما روته له. غضبت هي من سكوته واعتبرت ذلك استهانة بما هو يقين لديها، فقالت بصوت عال:

– أنا لستُ مجنونة، ولم أتخيل كل ما رويته لك. كيف لي أن أثبت لك صحة ما أقول؟

فقال لها وفي نبرة صوته شيء من الزعل:

– أنا لم أقل لك إنك تتوهمين، وإنما قلت لك إني سألت في الإستعلامات ثم ذهبت لإدارة المستشفى أيضا للتيقن، وجميعهم أكدوا لي ما قلته لك، وأعيده مرة أخرى: لا توجد في هذه المستشفى أي قسم للعناية المركزة، ولا يوجد فيها مريض باسم آدم التائه، ولا يوجد فيها أي أجنبي غيرك. بل ولا يوجد في

هذه المستشفى أية راهبة.

أرادت أن تجيبه، لكن في هذه اللحظة دخلت إحدى الممرضات لرفع صينية الطعام، ما أن ألقت نظرة على وجبة الطعام حتى علقت قائلة:

– لم تأكلي شيئا! هل أرفع الصينية أم أتركك تأكلين على راحتك؟

– لا.. لا.. ارفعيها. لقد أكلت ما يكفي.

وما أن همت الممرضة برفع الصينية حتى بادرتها حواء بالسؤال، وبلغة ألمانية مرتبكة:

– رجاء، لدي سؤال.

رفعت الممرضة الصينية وابتعدت قليلا، ثم قالت:

– إسألي؟

– هل توجد في هذه المستشفى..؟

– ماذا؟

لم تكن تعرف كلمة الراهبة بالألمانية، فالتفتت إلى آدم اللبناني وسألته:

– ما هي كلمة راهبة بالألمانية؟

عرف آدم اللبناني بأن حواء تريد أن تسأل عن وجود راهبات في المستشفى لتتأكد بنفسها، فسأل هو بدلاً عنها لأنه كان يجيد الألمانية إلى حد ما:

– تريد أن تسألك، هل يوجد في هذه المستشفى راهبات؟

– لا.. لا توجد أي راهبة هنا، لماذا؟

– السيدة حواء رأت ليلة أمس راهبة في قسم العناية المركزة، وقامت هذه الراهبة بتوصيلها إلى غرفتها.

نظرت الممرضة إليه ثم انتقلت بنظرها إلى حواء وسألت:

– هل رأت هي أيضا وجود راهبة في المستشفى؟

– ماذا تقصدين؟ سأل آدم اللبناني

قالت الممرضة بهدوء وبنبرة جادة وواثقة:

– هناك من المرضى من رأى أيضا وجود راهبات يتجولن في الممرات بعد منتصف الليل.

فقال آدم اللبناني بصوت عال أشبه بالصرخة:

– ماذا؟ ماذا تقولين؟ يعني هناك أشباح؟

نظرت المرأة إليهما وقالت بهدوء وهي تنسحب من الحوار، وكأنها قالت شيئا لم

يكن مسموحا البوح به:

– لا أدري، لكن لقد سمعت ذلك عشرات المرات. هناك راهبات يتجولن في الممرات، واحدة منهن كبيرة في السن نوعا ما، وأخرى شابة في الثلاثين من عمرها وأخرى عجوز هرمة جداً. لكن لا أحد يعرف هل هن أرواح أم أشباح؟ لقد سمعت أنهن يواسين المرضى. يأتين بعد منتصف الليل لمساعدة المرضى. وقد وصل الأمر إلى أسماع الإدارة، لكنها كانت ترد بأن هذه جزء من أوهام المرضى.

قالت ذلك وخرجت. نظر آدم اللبناني إلى حواء وعلى وجهه علامات الخوف، بينما كانت حواء المؤمن تقرأ سورة الناس بصوت خافت. مرت لحظات صمت بينهما. نظرت إليه وفي صوتها نبرة المنتصر:

– ألم أقل لك بأني رأيت الراهبة وهي التي قادتني إلى هنا؟

– لكن من يصدق ذلك؟

– أنا أصدقه لأني رأيت ذلك بنفسي ولم أسمعه من أحد.

– لكن العقل لا يصدق ذلك

– ولماذا العقل لا يصدق ذلك؟

– طيب إذا قلنا إن وجود الراهبات صحيح وواقع، فماذا عن قسم العناية المركزية الذي ليس له وجود في المستشفى أصلاً؟

– لا بد من وجود هذا القسم، فإذا كانت الراهبات موجودات فالقسم موجود أيضا.

صمت هو. نظر إليها ثم قال:

– يجب أن تخرجي من هذه المستشفى بسرعة. هذه مستشفى مليئة بالأشباح أو الأرواح.

– هم يقررون متى أخرج وليس أنا.

– هذا صحيح، لكني سأتحدث مع رئيس القسم بحيث يعملون الأشياء الضرورية لتخرجي بسرعة.

قال ذلك وهو يهم بالخروج. سألته:

– متى سترجع؟

– لا أدري. ربما مساءً أو غداً. وربما سآتي غدا لآخذك من المستشفى

– هل خفت؟

– أنا؟ أنا أخاف من هذه القصص؟! لقد شاهدت العشرات مثلها في الأفلام.

– لكنها هنا ليست كما في الأفلام.

– على أية حال.. سأذهب الآن.. هل تحتاجين شيئا؟

– لا.. شكرا لك على مجيئك.

قالـت ذلـك وهـي تلقـي نظـرة على الكتاب الذي حمله معـه ولم يأخذه حينما قام، فسألت:

– هل هذا الكتاب لي؟

انتبه هو للكتاب فجأة، وأحس أنه قد نسيه، فقال:

– هذه مجموعة أشعار مترجمة لشاعر فرنسي، هل تحبين القراءة؟

– نعم أحب القراءة، لكنني نادرا ما أقرأ الشعر. أحب الشعر الذي يكتب بالعامية. لكن احيانا أقرأ لنزار قباني.

– – حسنا سأتركه عندك لتقرأيه فبودلير شاعر عظيم.

– لكني لا أحب الشعر المترجم كثيرا.

– كما تشائين. إذا لم تريدي قراءته سآخذه معي.

– لا. لا. ربما سأقرأ فيه.

نظر هو إليها وعلى وجهه ابتسـامة حزينة، مشـبوبة بخوف خفي، وقال وهو يتوجه خارجا من الغرفة:

– انتبهي لنفسك. أوكي؟

– أوكي.

قـال ذلـك وخـرج غالقـا البـاب خلفه. ظلت هي جالسـة في موضعهـا. نظرت إلى غلاف الكتاب وقرأت:

بودلير – أزهـار الشـر – قدم له جان بول سارتر– نقله إلى العربية: محمد عيتاني.

مـدت يدهـا للكتـاب. أخذتـه. بـدأت تتصفحـه. وقعـت عيناهـا علـى القصيدة 56 والمعنونـة (أغنيـة الخريـف) وقـرأت بصمـت، لكـن صوتـاً مـا مسـموعاً كان يتردد في أعماقها.

لم تكمل قراءة القصيدة. لم تفهمها بالكامل لكنها أحست أن هذا الشاعر يتحدث عـن ألـم الـروح الثقيـل. سـألت نفسـها إن كان هـذا يسـمى شـعر حقـا. أخـذت تقلب الصفحـات وتقـرأ الأسـطر الأولـى مـن القصائـد دون أن تكمل أية قصيـدة إلى النهاية. إذا أعجبها النص تسـتمر في قراءة بضعة أسـطر منه. توقفت عند القصيدة المرقمة 51

وعنوانها (الهر)، وقرأت بصوتها الصامت:

في رأسي يخطر ويطوف

كما لو أنه في بيته

هو جميل، قوي، ناعم، وفاتن

حين يموء يكاد لا يُسمع..

لم تكمل القراءة، فقلبت الصفحات من البداية إلى النهاية وبالعكس. أحست أنها لم تفهم شيئا من هذا الذي يسمى شعرا. إنتبهت لعدد من القصائد جميعها تحمل عناوين لها علاقة بالقطط، فهذه قصيدة عنوانها (القطط)،وتلك قصيدة عنوانها (القط)، وهذه عنوانها(الهر). ابتسمت في أعماقها من شاعر القطط هذا؛ فما معنى أن يكون هناك قط يموء في الرأس؟. ألقت الكتاب جانبا.

قامت من مكانها وهي تدفع حامل كيس المواد المغذية أمامها. جلست على السرير، ثم استلقت عليه وغطت نفسها بالبطانية. أحست برغبة في النوم، لكنها أخذت تفكر بكلام آدم اللبناني. ما معنى أنه لا يوجد قسم للعناية المركزة في المستشفى؟ أليس هي أيضا ضمن حالات العناية المركزة؟ وما معنى رؤيتها لزوجها بينما أكد هو لها بأنه لا يوجد مريض يحمل اسمه ولقبه، بل إنها الأجنبي الوحيد بين مرضى المستشفى؟ وكيف أكدوا لها بأنه لا يوجد راهبات في هذا المكان، بينما هي متأكدة بشكل يقيني بأنها رأت الراهبة التي قادتها من الغرفة التي كان زوجها فيها إلى غرفتها الحالية؟ وما معنى حديث الممرضة التي جاءتها بالطعام بأن بعض المرضى رووا قصصا عن رؤيتهم للراهبات في هذا المكان؟

فكرت مع نفسها بالجني الأزرق الذي ظهر لها في غرفة النوم بشقتهم التي كانت تسكن فيها مع زوجها. أين هو؟ لماذا لم يظهر لها مرة أخرى؟ لقد قال لها بأنها ملكه، لكنه اختفى. لا. إنها تريد أن ترى وتتأكد من وجود الراهبة، وإنها ستظل الليلة يقظة.

بينما كانت هي مستغرقة في أفكارها دخلت الممرضة الغرفة وهي تدفع أمامها عربة صغيرة عليها عدة التضميد كاملة فسحبت حواء نفسها من السرير وجلست متكئةً على الوسادة. إبتسمت الممرضة لها وهي تقول:

– كيف حالك اليوم؟ سنرى إلتآم الجرح، ونضمدك ثانية. لا شيء يقلق لديك. جرحك كان بسيطا ولا نحتاج لكثير من الخياطة. عقدة واحدة فقط. ربما ستخرجين غدا.

لم تجبها حواء المؤمن بشيء. لم تفهم كل الكلام لكنها فهمت من السياق مضمون ما قالته الممرضة. اقتربت الممرضة منها وهي تدفع عربتها إلى محاذاة السرير. أخذت يد حواء الجريحة وبسطتها على مسند جانبي مرتبط بالسرير. فكت الضماد وقالت وهي تنظر إلى يد حواء:

– الجرح ملتئم تقريبا..

أخذت تمسح على الجرح بالقطن الذي بللته بمادة كيماوية، ثم ربطت معصمها بقماش الشاش النظيف. بينما كانت حواء تنظر إليها وفي نفسها أن تسألها عن غرف العناية المركزة وعن الراهبة التي قابلتها، لكنها ترددت قليلا بسبب عدم مقدرتها الحديث بطلاقة بالألمانية.

وبالرغم من أن حواء المؤمن لم تتحدث مع المضمدة بشيء، فأنها لم تنزعج، إذ أدركت أنها أجنبية وربما لا تعرف الألمانية لذا لم تسترسل معها في الكلام أكثر. ولما أنجزت عملية تنظيف الجرح وتعقيمه وربطه ثانية، إبتسمت لحواء وجرت عربتها خارجة، وهي تلقي عليها كلمة الوداع الألمانية الشهيرة:

– وداعا.

– وداعا.

تمددت حواء مرة أخرى على السرير وغطت نفسها حتى الرأس بالبطانية وأغمضت عينيها لتنبتعد عن التفكير بما سمعته اليوم عمّا رأته ليلة أمس.

دخل آدم اللبناني البناية التي فيها شقته ذات الغرفة الواحدة. وما أن وصل منعطف الدرج الذي يوصل إلى شقته وشقة جارهم الدكتور آدم التائه حتى أحس بإرتباك وخوف لم يعتد عليه. إزدحمت الأسئلة في ذهنه: هل تُرى عاد زوجها إلى شقته؟ وماذا عن الشخص الذي تحدثت عنه حواء في المستشفى؟ ماذا سيحصل لو أنهما تقابلا الآن؟

نظر إلى باب شقة جاره فوجدها مغلقة. صعد الدرجات المتبقية بسرعة. فتح باب شقته ودخلها مسرعا. أقفل الباب خلفه. وقف عند الباب من الداخل وهو يتنفس بسرعة. خطا بضع خطوات ملقيا بنفسه على سريرالنوم الذي يحتل جانبا من الغرفة.

كان نصف جسده الأعلى متمدداً على السرير بينما طرفاه السفليان على الأرض. ظل يحدق إلى سقف الغرفة. ضج رأسه بالأفكار المتداخلة وغير المترابطة. كان يفكر بحواء المؤمن وأوهامها التي بثت الخوف في نفسه. أحس أنه تورط معها. ربما هي مجنونة! ما معنى أنها ترى راهبات بعد منتصف الليل؟ وتدخل إلى ممرات وغرف غير

موجودة أصلاً؟ وما معنى أن ترى زوجها في العناية المركزة؟ هل هي تشعر بالذنب؟ أو أنها تعبر عن رغبتها الدفينة في موته؟ أو أنها تحبه وتعبر عن رغبتها العميقة بالرجوع إليه من خلال تخيله مريضا وهي تذرف دموع الندم على كفه المسبلة؟ كيف له أن يتخلص من هذه الورطة؟ لكن ماذا عن الإقامة الدائمة التي سيحصل عليها بمجرد زواجه منها؟ ربما هذا الأمر سيطول لأنها لحد الآن غير مطلقة.

كان يفكر بصوت عال. استوى على السرير جالساً. تعالى صوت أناه الداخلية في ذهنه: لا..لا.. عليّ أن أعيد ترتيب أوراقي فأنا لا أعرف عنها الكثير. أنا شاعر وكاتب وأريد أن أتفرغ للكتابة. صحيح أنا أغويتها، لكنها كانت شبقة جداً واستسلمت بسهولة. لقد كنت أنوي الكتابة عنهما، هي وزوجها، لكن ماذا سأكتب الآن؟ لقد أردت أن أربط مصيرهما بمصير أبطالي، برحلتي العجيبة، بقصصي عن منطقة الفاكهاني أيام الثمانينات، بمقاهيها، بمراكزالقوى السياسية الفلسطينية والعربية التي كانت تعد منطقة الفاكهاني جمهوريتها التي تختزل الوطن العربي كله. أريد الكتابة عن تلك المرأة صاحبة المقهى الذي كان يرتاده المثقفون العرب، نعم تلك المرأة التي أسمها أم نبيل. أكتب عن ذلك الشاعر الجميل ذي الشعر الأبيض والذي أصدر مجموعته الغريبة: عواء الذئب. أكتب عن الشعراء الصعاليك. عن الشعراء الذين كانوا يسرقون الكتب من المكتبات ويبيعونها لبعض المثقفين والقراء من أجل ان يشتروا وجبة طعام وقنينة من عرق توما، أكتب عن الشعراء الأنيقين من رواد مقهى الجندول في كورنيش المزرعة. أكتب عن جارتي الأربعينية المثيرة التي كانت تغير ثيابها أمامي متعمدة أن تترك الشباك المقابل لغرفتي مفتوحا. أكتب عن الناس في مخيم برج البراجنة. أكتب عن صديقتي التي كانت تعمل في جريدة النداء. أكتب عن فقداني لإيماني بالثورات وبالتحرير. أكتب عن سقوط المقدسات الثورية في بالوعة القذارة السياسية والصفقات التجارية، عن المناضلين الذين يمولون ثوراتهم من الحشيش، عن المال العربي الذي يحرق صاحبه، عن الفتيات المراهقات اللاتي هربن من بيوتهن تحت وطأة الجوع الجسدي ليلتحقن بالثورات المغدورة منذ لحظة ولادتها، أأكتب عن أبي الذي كان يخون أمي مع صديقتها؟ عن أختي التي كانت تخون زوجها مع صديقي؟ أأكتب عن بيروت التي مزقتها الأحقاد العربية؟ عن بيروت التي حملت صليبها وحدها وسارت به إلى أقاصي الجحيم؟ أأكتب عن خيبتي ويأسي وهزيمتي الفكرية؟ أأكتب عن ذلك القائد الثوري الذي كان لا يستمتع إلا ببرامج الطبخ في التلفزيون،؟ أأكتب عن صناعة النجم الشاعر، والنجم الثوري؟ أأكتب عن الشاعرات اللاتي سطع نجمهن من خلال

إبداعـات فروجهـن؟ أأكتـب عـن أجهـزة المخابـرات العربية التي كانت تغتال الشـرفاء بمسـاعدة الأحزاب والمنظمات الثورية في بيروت،؟أأكتب عن أصدقائي الذين سـقطوا في قلعة الشقيف في الجنوب؟ أأكتب عن صديقي اليساري العراقي الذي كان يتدرب في إحد المعسكرات في الجنوب والذي كان في إجازته يسكن عندي في بيروت فيروي لـي عـن حبيبتـه اليسـارية فـي بغداد، وخوفه عليها من أجهـزة المخابرات هناك؟ أأكتب عن كل هذا؟ لكن كيف؟ كيف لي أن أكتب الآن وأنا خرجت من سجن لأجد نفسي في سجن آخر بلا جدران؟

أنا مشوش جداً.

كانت هذه التداعيات قد ملأت روحه بالحزن الكثيف. نهض من مكانه واتجه إلى طاولة الطعام التي كان يستخدمها للكتابة أيضا. كانت على الطاولة صينية فيها كؤوس فارغـة. أخـذ الصينيـة واتجـه بها إلـى الزاوية التي صارت بمثابة مطبخ. عاد إلى الطاولة وجلس حولها على كرسي بدا لا يتناسب مع قامته الفارعة والفتية.

قام من مكانه واتجه نحو السرير مرة أخرى. إنحنى ليرفع الشرشف قليلا وليسحب من تحت السرير حقيبة سفر جلدية كبيرة الحجم. فتح الحقيبة فتبين فيها كتب عديدة، وكميـة مـن الـورق الأبيـض المخصص للطباعـة، وأقلام حبر جاف. أخذ بعض الكتب، دون أن يتقصد في اختيارها، ووضعها على الطاولة، ثم عاد فأخذ كمية الورق الأبيض ومجموعة من الأقلام فوضعهما على الطاولة أيضا. وجلس حول الطاولة.

كانـت الكتـب التـي وضعهـا علـى الطاولة روايتيـن مترجمتين لدستويفسـكي هما: الأبله، ومذلون مهانون، ومجموعة شعرية لمحمود درويش، رواية ليس لدى الكولونيل من يكاتبه لماركيز، ومجموعة شـعرية بعنوان رجل بين الشـرفة والطريق لشـاعر عراقي اسمه جليل حيدر تعرف عليه في مقهى ومطعم التوليدو في الفاكهاني فكتب إهداء له عليها، رواية السـمان والخريف لنجيب محفوظ، رواية دون كيخوته لسـرفانتس، رواية ربيع أسود لهنري ميلر. وبالرغم من أنه لم يفرغ حقيبته من الكتب كلها، إلا أن الطاولة بدت وكأنها مكتبة.

أخذ قلماً وكمية من الورق الأبيض، وضعها أمامه. أراد بشكل مفاجئ وغير مخطط له أن يبدأ مشـروعه الروائي. كتب اسـمه في أعلى الصفحة: نشـيد المتاهة. لم يسـتطع أن يكتب أي شيء آخر. بقيَ لدقائق صامتا، يفكر في أن يكتب شيئا، لكنه لم يستطع. نهض من مكانه وذهب إلى زاوية المطبخ ليعد لنفسـه القهوة. لقد كان في حالة دفعته إلى أن يمسك القلم والورق ليخط شيئا، أو على الأقل أن يبدأ مشروعه الروائي.

بعد دقائق عاد إلى طاولته وبيده كوب مليء بالقهوة. جلس على الكرسي، لكنه هذه المرة أخذ ورقة منفصلة وبدأ يرسم مخططاً لروايته وأبطالها وشخصياتها. أحس بصعوبة البدء بالكتابة. من أين يبدأ؟ من أي مكان وزمان؟ وأي الشخصيات ستبدأ أحداث الرواية؟ ما هي الفترة الزمنية التي ستتحرك ضمنها الأحداث؟ هل سيكتب عن المقاومة في الجنوب؟ عن مخيمات الفلسطينين؟ عن الضاحية والجبل؟ عن جمهورية الفاكهاني؟ عن اجتياح بيروت؟ ومن هم أبطاله؟ هل سيكون آدم أبو الليل، أم آدم الغزاوي، أم آدم جيفارا هم الشخصيات الرئيسية في الرواية؟ ومن هن النساء اللاتي بطلات الرواية؟ هل سيبدأ بحواء بنت الجبل، أم حواء أم نبيل، أم حواء الروشة التي كانت تعمل في أحد الفنادق وتعمل مخبرة لأحد التنظيمات، أم حواء المخيمات التي كانت لا تظهر إلا وهي وراء الرشاش المنصوب على سيارة عائدة لتنظيمها؟

لم يستطع أن يقرر أي شيء. ألقى القلم من يده. كانت ثمة أسئلة بدأت تخب في ذهنه كما الجياد، كيف يمكن أن تُكتب الرواية؟ هل هناك قواعد محددة يجب اتباعها عند التخطيط لكتابة رواية؟ لم يجرب كتابة الرواية من قبل، فكل تجربته الكتابية تتلخص ببضع القصائد وبعض القصص القصيرة التي نشرها في بعض الصحف والمجلات المحلية. فهو لحد الآن ليس لديه أي كتاب مطبوع، لكنه كان يعد نفسه كاتبا وشاعراً مهماً، بل إن هذه الأهمية نشأت وتشكلت بشكل واضح هنا في ألمانيا، وبين مجاميع اللاجئين العرب في مدينته الذين كان معظمهم إما من المقاتلين السابقين وإما من الفارين من جحيم الجوع والبطالة.

نهض يائساً. خطا نحو السرير ملقياً بنفسه عليه بحزن. مد كامل جسده على السرير. لم يخلع ملابسه، تمدد على بطنه. أخذ الوسادة مغطيا رأسه بها، طاويا الشرشف والبطانية على بقية جسده، مفكرا بروايته التي تستعصي عليه. باحثا عن بداية لها.

آدم البغدادي: هل أنا عاقل حقا؟ إلى أين أنا أتجه يا ترُى؟ إلى أين ستقودني هذه الرواية؟ ما معنى وجود الراهبات في الليل بينما المستشفى بدون راهبات؟! بل وما معنى وجود قسم للعناية المركزة هو بالأساس موجود في الجانب الآخر من المستشفى الأخرى في المدينة؟ إلى أين سيوصلني ذلك؟ ما الذي أريد إيصاله من خلال ذلك؟ ما هذا التداخل بين الغرائبي والواقعي الذي يكاد يكون تسجيليا في تفاصيله؟ ولماذ تركت ןهذه المقطع من قصيدة بودلير داخل النص

الروائي؟ ولماذا هذه الترجمة بالذات بينما توجد ترجمات أخرى لبودلير؟ ما الذي اريد أن أقوله من خلال ذلك؟ أنا شخصيا لستُ أعرف كيف سيتم فهم ذلك وتقبله؟ لكن بالرغم من ذلك ملاحظتها عن قطط بودلير ذكية، وفيها نبرة من المرح.

ثم، هل سأتجه في هذه الرواية كما حاولت في (متاهة آدم)، أن أجعل النص مثل (الماترويشكا الروسية)، دمية تكشف عن دمية، وهنا الحكاية تقود لحكاية مشابهة لها، وتلك تقود لحكاية مشابهة لها؟ ألهذا جعلت من (آدم اللبناني) كاتبا أيضا؟ أليست هذه محاولة قسرية مني لإعادة كتابة نص آخر يكتبه هذا البطل اللبناني؟ لا أدري.

حينما انتهى آدم المحروم قال نفسه: لم أكن أعرف ان آدم البغدادي يحاسب نفسه ونصه بهذه الدقة؟ إذن فهو يرصد ما هو وليد لحظة التجلي الإبداعي، وما هو وليد فكره ومخططه الروائي المسبق. حلو.

لقاء مع راهبات الليل

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. حواء المؤمن في غرفتها جالسة على سريرها. الطبيب الخفر الذي زارها مساء بعد استلامه لخفارته قال لها بأنها ستخرج صباح اليوم التالي، لذا لم يضعوا لها كيس المادة المغذية لأنها تجاوزت الخطر، ولذلك قررت أن تتأكد من كل شيء قبل خروجها من هذا المكان.

كانت تنظر بقلق في اللامكان. كان القلق يبث أشعة لامرئية من وجهها بالرغم من أن الغرفة كانت مضاءة بمصباح منضدي شاحب الضوء موجود على الطاولة الصغيرة من جهة الرأس.

قررت أن تتأكد مما رأته ليلة أمس فقد كانت تشك في ما قاله آدم اللبناني. أرادت أن تذهب ثانية إلى الممر الذي تقع فيه غرف العناية المركزة. كانت تنتظر أن يحين الوقت الذي خرجت فيه ليلة البارحة، أي الثانية بعد منتصف الليل. نهضت ببطء شديد مقتربة من النافذة. أزاحت الستارة بيدها قليلاً، نظرت محدقة إلى العشب الذي بدا أسود. انتبهت لمرور إمرأة تلبس الأسود وعلى رأسها شال أبيض. سارت قرب المصطبات الخشبية في أقصى الحديقة، ثم اختفت خلفها. ما الذي يجري، هل هي تحلم؟

ظلت واقفة أمام النافذة لفترة طويلة، وحينما انسحبت كانت الساعة تشير إلى الثانية إلا خمس دقائق بعد منتصف الليل. إذن حان وقت الخروج، قالت لنفسها. وحين تحركت متجهة نحو باب الغرفة أحست برجفة تسري في أنحاء جسدها، لا خوفاً بل رهبة.

فتحت الباب فصارت في الممر. سارت على طول الممر بحذر شديد. أحست بهواء بارد يتغلغل بين ثيابها. وحين وصلت إلى منتصف الممر رأت إمرأة بلباس الراهبات تمر بهدوء في الممر الذي يتقاطع مع الممر الذي هي فيه. وقفت الراهبة قليلا. إلتفت نحوها، إبتسمت لها بطيبة، ثم أخذت طريقها إلى الجهة الأخرى من الممر الذي هي فيه. إنتبهت حواء المؤمن إلى أن هذه الراهبة ليست تلك التي رأتها ليلة أمس، فهذه الراهبة شابة جميلة جدا، وفتية، بينما راهبة البارحة كانت مسنة قليلا بالرغم من مسحة الجمال الهادئ الذي كان يكلل وجهها.

رفعت حواء المؤمن يدها مشيرة إلى الراهبة الشابة بأن تتوقف، إلا أن الأخرى مضت في طريقها دون أن تنتبه للإشارة. مشت بسرعة كي تلحق بها. وحين وصلت إلى الممر الذي مضت فيه الراهبة وجدت أن الممر فارغ، تضيئه مصابيح نيون بيض يميل شعاعها إلى الأزرق.

أخذت تسير قلقة ومتوترة الأعصاب. إنتبهت لوجود قسم العناية المركزة في هذا الجانب من الممر. مرت من الغرفة التي كان زوجها يرقد فيها فوجدت السرير خالياً. اقتربت من الحاجز الزجاجي الذي يفصل الغرفة عن الممر. وضعت رأسها على الزجاج كي ترى تفاصيل الغرفة، فلربما زوجها الآن في الحمام. بقيت على تلك الوقفة لدقائق. لكن أملها خاب، إذ أن الغرفة كانت خالية من أي إنسان، والسرير مفروشاً بحيث لا يوجد أي أثر لإي إنسان كان يمكن تصوره في تلك الغرفة وعلى ذلك السرير.

فجأة انتبهت لحركة إحدى الأبواب في نهاية الممر. إلتفتت بسرعة. رأت الراهبة الشابة تخرج من إحدى الغرف، لتخطو داخلة إلى الغرفة المقابلة لها. اقتربت حواء المؤمن من تلك الغرفة التي دخلتها الراهبة ونظرت من خلال الحاجز الزجاجي الذي يفصلها عن الممر. اقتربت ملتصقة بالحاجز الزجاجي لترى ما في الغرفة، فرأت أنها فارغة أيضا. إذاً، إلى أين ذهبت تلك الراهبة؟ لا أثر لأي مريض في تلك الغرفة، ولا أثر للراهبة التي دخلت قبل قليل إلى تلك الغرفة!

تناهى إلى سمعها وقع خطوات تمشي في الممر. إلتفتت بسرعة فلم ترَ شيئا. كان الممر خاليا من أي مخلوق بالرغم من أن وقع الخطوات صار يُسمع بوضوح أكثر.

أحسـت برعشـة خوف تسـري في أعماقها. خمنت مع نفسـها أن هذه الخطوات تأتي مـن الممـر الـذي فيـه غرفتهـا، لذا أسـرعت راجعة إلـى منطقة تقاطـع الممرين. نظرت إلى الممر الذي تقع فيه غرفتها فوجدته خالياً من أي أثر لمخلوق يمشي. فجأة، صار صوت وقع الخطوات يأتي من جهة الممر التي خلفها، والتي جاءت منها قبل لحظات. إلتفتت فلم تجد أحداً. سمعت أنينا يأتي من الغرفة الفارغة التي دخلتها الراهبة الشابة قبل قليل، والتي اختفت فيها. هل اختفت الراهبة الشابة حقاً، أم أنها لم تنتبه لوجودها في الغرفة جيداً؟.

بينمـا كانـت حـواء المؤمـن واقفـة، والأفكار تـدور كالدوامة المائيـة تصطخب في رأسها، خرجت الراهبة المسنة التي قابلتها ليلة أمس من إحدى الغرف القريبة. إنتبهت الراهبة لوجود حواء المؤمن وهي تقف مذهولة وسـط الممر في مثل هذه السـاعة بعد منتصف الليل. ظلتا للحظات تنظران لبعضهما بدهشة وتأمل، قطعته الإبتسامة الحنونة للراهبـة. اقتربـت مـن حـواء خطوتيـن، لكنها ظلت بالرغم من ذلك على مسـافة وقالت بصوت حنون لكنه حازم:

– لماذا تقفين هنا يا ابنتي في مثل هذه الساعة. ألا يأتيك النوم؟

لم تجبها حواء المؤمن، ظلت للحظات جامدة لا تعرف ماذا تقول. فجأة وجدت في نفسـها القدرة والشـجاعة على الحديث، فقالت بلغة ألمانية تفاجأتْ هي نفسـها من سلاستها وسلامتها لأنها أعلى من قدرتها اللغوية:

– منذ ليلة أمس لم أنم. هل لك أن تجيبي على سؤالي رجاء: أين نحن الآن؟

نظرت الراهبة إليها وأجابت بسؤال أيضا، وعلى وجهها إبتسامة خفية:

– أين نحن كما تعتقدين؟

– لا أدري

ابتسمت الراهبة وقالت بهدوء:

– ألا تدرين؟ كيف لا تدرين؟ نحن في قسم العناية المركزة.

سكتت حواء للحظات وقالت:

– لكـن صباحـا عندمـا سـألنا قالـوا لنـا بأنه لا يوجد قسـم للعنايـة المركزة في هذه المستشفى أبداً.

ابتسمت الراهبة مرة أخرى وقالت:

– من قال ذلك؟.

– الإدارة

– الإدارة؟.
– نعم.. الإدارة.. بل حتى أنهم قالوا لا وجود لراهبات أيضا!
– هم قالوا ذلك؟
– نعم
– وأنت ماذا تقولين؟
– لا أدري..
– كيف لا تدرين؟ أين أنت الآن واقفة؟
– كما يبدو في قسم العناية المركزة..
– كما يبدو؟ ألست متأكدة من ذلك؟
– لا أدري حقا. لقد قالوا صباحا أنه لا يوجد قسم عناية مركزة في هذه المستشفى، ولا توجد راهبات أيضا.
– لكن الراهبات موجودات كما ترين..!
– نعم.. بل رأيت واحدة أخرى شابة دخلت إلى تلك الغرفة..
– إذن نحن موجودات.. أليس كذلك؟
– نعم.. موجودات
– وقسم العناية المركزة أيضا موجود، أليس كذلك؟
– بلى موجود.
– إذن؟
– إذن ماذا؟
– إذن نحن موجودات رغم قولهم بأننا لسنا موجودات..
– بلى.. لكن إحدى الممرضات قالت بأنه لا يراكن أحد سوى بعض المرضى، وإنكن إما أوهام في رأس المريض وإما أرواح تائهة؟
– أوهام أم أرواح تائهة؟
– نعم..
– أنا أتحدث معك الآن فهل أنا وهم؟
– لا
– هل أنا حقيقة؟
– نعم.. كما أعتقد..
– ولو كنت أنا وهم وأنت تتحدثين معي الآن فهذا يعني أنك مجنونة، أليس كذلك؟

– نعم
– فهل أنت مجنونة؟
– لا أدري.. لا أعتقد ذلك..
– يعني أنا حقيقة بالنسبة لك؟
– نعم
– يعني نحن لسنا أوهام؟
– نعم..
– أما إذا كنا أرواح، فلماذا نحن أرواح تائهة؟
– لا أدري..
– هل يبدو عليّ أنني تائهة؟
– لا..
– هل هناك من يتيه في هذه المستشفى؟
– أنا تائهة.
– أنت لست تائهة، وإنما أنت تبحثين عن شيء ما.
– أبحث عن شيء ما؟
– نعم تبحثين..
– ربما.. أنا أبحث أولا عن زوجي الذي رأيته ليلة أمس راقدا في إحدى غرف العناية المركزة. أريد أن أعرف أين هو الآن.. ولماذا جاءوا به إلى المستشفى؟
– ليس هذا ما تبحثين عنه بالضبط
– ليس هذا ما أبحث عنه، ماذا تقصدين؟
نظرت الراهبة إليها بعد صمت أمتد للحظات، وقالت لها:
– إنك تبحثين عن نفسك.
– أبحث عن نفسي؟ ولماذا أبحث عنها، هل نفسي تائهة، أم أنا لست أنا؟
– ليس دائما نكون نحن كما نعتقد نحن عن أنفسنا.
– لا أفهم معنى كلامك..
– ربما ستفهمين ذلك في ما بعد..
– متى؟
– حينما تعرفين
– أعرف ماذا؟

– حين تعرفين السر؟

– السر؟

خلال هذه الأثناء خرجت الراهبة الشابة من الغرفة التي دخلتها واختفت فيها. توجهت نحوهما مبتسمة، وما أن وصلت إلى مقربة منهما حتى قالت لها الراهبة المسنة مشيرة إلى حواء المؤمن التي شعرت بارتياح استمدته من جمال وجه الراهبة الشابة وابتسامتها الحنون التي منحتها الأمان:

– هذه هي حواء.. قالوا لها اليوم صباحاً بأنه ليس هناك قسم للعناية المركزة ولا راهبات في هذه المستشفى.. أليس هذا مثير للشفقة والرثاء أيتها الأخت إيفا ماريا؟

ابتسمت الراهبة الشابة لهما وتوجهت بنظراتها إلى حواء المؤمن وقالت لها والإبتسامة الحنون تشع ثقة وأماناً من وجهها الجميل:

– دعيهم يقولوا ما يقولون يا أخت حواء.. ها أنت ترين نحن نزور المرضى الذين على البرزخ ما بين الحياة والموت، نساعدهم في اللحظات العاصفة، نمنحهم الأمان والسلام النفسي.. نحرص أن نسهر الليل معهم كله.. إنهم يحتاجون إلينا لذا نحن نكون عندهم خاصة في أعماق الليل والظلام.

كانت حواء المؤمن تشعر بالإفتتان نحو هذه الراهبة الشابة، حتى أنها شعرت برغبة دفينة في احتضانها بمودة لكنها أمسكت نفسها، وقالت:

– عادة أنا أتكلم الألمانية بشكل سيء، لكني لا أعرف لماذا أحس بتدفق الكلام الألماني الصحيح من لساني حينما أتحدث معكما.. أردت أن أقول إن الإدارة تروج بأنكن غير موجودات، وإنه ليس هناك قسم للعناية المركزة في هذه المستشفى..

– دعيهم يقولوا ذلك!

نظرت حواء المؤمن إلى كلتا الراهبتين وقالت سائلة:

– لماذا لا تخرجان صباحا حتى يصدق الجميع أنكما موجودتان؟

نظرت الراهبتان لبعضهما البعض ثم التفتتا إلى حواء، وبادرت الراهبة المسنة قائلة:

– هل تشكين أنت بوجودنا؟

– لا

– فلماذا نظهر صباحا؟

– حتى تعترف الإدارة أنكما موجودتان ولا تنكر وجودكما أصلاً.

– ليس مهما أن تعترف الإدارة بوجودنا وأنما المهم أن يعترف المرضى بوجودنا،

ونحن لا نخدم إلا بعد منتصف الليل لنزور المرضى الذين يعانون من حالات خطـرة، أي هـؤلاء الذيـن يكونـون في المنطقة الرماديـة بين الحياة والموت كما قالـت الأخـت إيفـا مارتـا. ثـم نحن لسـنا وحدنا فهناك أخـوات أخريات يعملن أيضاً ويتناوبن السهر معنا.

– هل هذا يعني بأن الإدارة لا تعلم بوجودكم؟

نظرت الراهبتان لبعضهما وفقالت الشابة:

– يمكـن للأخـت إيفـا مارتـا أن تشـرح لك كل هذا إذا كنت ترغبين. أسـتميحكما العـذر، علـيّ الذهـاب إلـى مريض في إحدى الغرف أحس أنه في حاجة قصوى لحضوري إلى جانبه الآن..

قالـت ذلـك وواصلـت طريقهـا في الممر ثم انعطفت إلى الممر الذي تقع فيه غرفة حـواء المؤمـن. نظـرت حـواء المؤمن إلى الراهبة الشـابة وهي تغادر إلى أن اختفت في المنعطف. شـعرت بوخزة من الشـك في كل ما تراه. شـك غامض يوسـوس لها بأن ما تراه ليس حقيقة. كانت الراهبة المسنة تحدق بإمعان في وجه حواء المؤمن وكأنها تقرأ ما يدور في ذهنها وما يساورها من شك، فقالت لها:

– بدأت تشكين فينا، أليس كذلك؟

إرتبكت حواء المؤمن من قدرة الراهبة على قراءة ما يجول في ذهنها. فتمتمت قائلة:

– لا أبـداً.. لكنـي أسـأل لمـاذا لا تعملن في الصبـاح أيضا، حتى تكف الإدارة عن نفي وجودكم؟

نظرت الراهبة المسنة إليها وابتسمت قائلة وهي تقترب منها:

– ربمـا أنـت محقـة فـي هـذا، يبـدو أنـك تعبت الليلـة، لماذا لا تذهبيـن إلى النوم ياعزيزتي؟

– غداً سأخرج من المستشفى، لقد قال لي طبيب الخفر ذلك وقد أردت أن أتحقق مـن وجودكـن ووجـود قسـم العناية المركـزة، فقد كان صديق لي هنا صباح هذا اليوم وأخبرته عن القسم وعن رؤيتي لزوجي في إحدى الغرف، فجاء يبحث عنه، ولما رجع قال لي بأنه لا يوجود أي قسـم للعناية المركزة في هذه المستشـفى، بل وليس هناك أي أجنبي بين المرضى سواي، و. و.

فقاطعتها الراهبة المسنة باسمة، وهي تقودها بحنان نحو غرفتها، قائلة:

– وثم أخبرتهم عن لقائك معي فقالوا لك إنه لا وجود لراهبات في هذه المستشفى، أليس كذلك؟

– بلى

– لا ضير.. لا ضير.. دعيهم يقولوا ما يقولون.. المرضى في حاجة دائمة لنا.. فلا يعنينا ما يقولون عنا.. أرواح المرضى القلقة أهم لدينا من كل ثرثرات البعض عنا.

كانتـا قـد اقتربتـا مـن غرفتهـا. ظلتـا تمشـيان صامتتيـن، وفي ذهن كل منهما أسـئلة وأجوبـة. وصلتـا إلـى الغرفـة فتحـت الراهبة الباب وأخذت حواء إلى السـرير وأرقدتها عليه، ثم سـحبت الغطاء حتى صدرها. كل ذلك مر بصمت ويشـكل آلي. كانت حواء تريد أن تخلد إلى نفسها لتفكر بكل ما جرى لها.

نظرت المرأة الراهبة بحنان إلى حواء وقالت لها قبل أن تغادر:

– إنك إنسـانة معذبة.. وسـتتعذبين طويلاً.. سـتمرين من بوابات العذاب جميعها. ليباركك الرب ويرشدك إلى طريق ملكوته ويمنح روحك الطمأنينة..

ما أن أنهت هذه الكلمات حتى التفتْ ناحية الباب وخرجت بسرعة، دون أن تترك لحواء فرصة للكلام أو لمواصلة الحوار. أطبقت الباب خلفها بهدوء.

ذهلتْ حواء المؤمن مما جرى لها، ومن جملة الراهبة الأخيرة، بأنها إنسانة معذبة، وأنهـا سـتتعذب كثيـرا.. وتمنـت لهـا أن يباركها الرب ويرشـدها إلـى طريق ملكوته. لم تفهم عبارة طريق ملكوته، لكنها فهمت بقية الكلام. ظلت تقلب هذه الجمل في ذهنها وتسترجع ما رأته في قسم العناية المركزة وما دار بينهم من حوار.

لم يمض على نوم حواء المؤمن إلا ساعات قليلة جداً، حينما أحست بأن هناك من يناديها أو أن هناك صوتا أليفا يوقظها من أعماق النوم. أفاقت، فتناهى لسمعها صوت آذان الفجر يأتي واضحا. ظنت أنها ما زالت في النوم وأنها تحلم في أنها أفاقت على صوت آذان الفجر. لكنها انتبهت لنفسـها بأنها ليسـت نائمة فعلاً، بل هي يقظة تماما، وأن صوت آذان الفجر يأتي واضحا، وصريحاً، وهو حقيقي.

مدت يدها في الظلمة لزر المصباح المنضدي القريب من رأسها فضغطته. توهجت الغرفة بضوء شاحب لكنه يكفي كي يرى الإنسان الأشياء حوله. رفعت نصف جسمها قليلا إلى الأعلى متكئة على الوسادة، وهي تردد مع صوت الآذان المهيب القادم إليها من جهة النافذة:

الله أكبر الله أكبر

أشـهد أن لا إله إلا الله

نهضـت مـن سـريرها وتوجهـت إلـى النافذة وفي روحها لمسـات خشـوع وإيمان.

فتحت النافذة فأصيبت بالدهشة. كانت منارة مسجد مضيئة تعلو فوق الأشجار المحيطة بالمستشفى. منارة كبيرة وعالية وبيضاء. راودها إحساس بأن ما تراه ليس حقيقيا، وأنها نائمة بلا شك. فهي لا تعرف في هذه المدينة أي مسجد بهذا الإتساع، بل إن المسجد الوحيد الذي تعرفه هو للأتراك وهو أشبه ببيت للسكن، ويقع بعيداً جدا عن المستشفى، قريباً من تلك الأحياء التي يسكنها الأتراك والعرب في أطراف المدينة.

ظلت واقفة لدقائق عند الشباك. كانت منبهرة بجمال منارة المسجد المضيئة البيضاء والتي يزينها شريط من المصابيح الخضر.

كان ثمة نسمات تسري وتلامس وجهها فتنعشه. وحين انتهى آذان الفجر أغلقت الشباك. وذهبت إلى غرفة الحمام الصغيرة والملحقة بالغرفة. فتحت حنفية الماء وبدأت تتوضأ بحذر إذ أنها لا تستطيع غسل يدها المجروحة. خرجت من الحمام متوجهة إلى السرير. أخذت البطانية وفرشتها على الأرض متجهة بها ناحية المسجد. وبدأت بصلاة الفجر بخشوع وإيمان عميق. كان قلبها يرتجف خشوعا والدموع تترقرق في عينيها وهي تردد ما حفظته من قصار السور. أحست وهي في تهدجها وعمق صلاتها بهالة من الضوء تحيط بها. ضوء فضي يميل إلى الزرقة والإخضرار يحيط بها، لكن شعاعه تجاوزها ليضيء الغرفة أيضا. أحست أنها تتطهر من كل ذنوبها، تغتسل من آثامها وخطاياها. وخلال تلك اللحظات فكرت بالراهبة التي باركتها.

حينما انتهت من الصلاة انتبهت لإختفاء هالة النور. أحست بنشوة تملأ روحها. وثمة نعاس لذيذ يسري في أوصالها مع دمها. ودون أن تعيد البطانية إلى السرير ألقت بنفسها عليه ساحبة الشرشف الأبيض. غطت في نوم هادئ وعميق تاركةَ ضوء المصباح مضاءً .

آدم البغـدادي: إلى أين سأمضي؟ لا أعرف؟ وربما لا أحد يصدق بأني لا أعرف إلى أين سامضي مع الراهبتين، وهذا الوجود غير المكاني. ما الذي أريد أن أقوله من خلال ذلك؟ هل هناك طبقات للوجود المتعدد، ربما لا نرى نحن سوى واحدة منها، السطحي والشائع، والبارز للعيان؟ ما هي المسافة بين الواقع واللاواقع، ولا أقول الخيال، لأن الراهبتين موجودتان فعلاً، وقد تحدثتا معها، وإلا فهي مجنونة، وهي ليست بمجنونة؟

كيف ظهر لها المسجد فوق الأفق، وسمعت الآذان، بينما لا يوجد هناك أي مسجد في تلك المنطقة، بالرغم من أنها عرفت ذلك صباحا؟

هل أنا آدم البغدادي أؤمن بالأرواح؟ نعم. لكن أن تتجلى بهذه الصورة؟ ممكن، لا نعرف إلا أشياء قليلة عما يدور حولنا.

حينما انتهى آدم المحروم من قراءة الفصل وتعليق صديقه الكاتب المغدور قال لنفسه: إنني أكتشف وجها جديداً لصديقي القتيل. لم أكن أعرف أنه روحاني إلى هذا الحد. يبدو أني سأكتشف صديقي المغدور من جديد. حلو.

أشـباح وأرواح

إستيقظ آدم اللبناني من نومه على رنين جرس الباب الخارجي. نظر إلى ساعته اليدوية التي كانت تشير إلى الثامنة والنصف. كان ضوء النهار يتسرب من خلال النافذة الصغيرة على سقف الغرفة المنحني، فعرف أن الوقت صباح. خمن أنه ساعي البريد فليس هناك من يأتي غيره في مثل هذه الساعة من الصباح، وعلى كل حال فأنه سيضع البريد في الصندوق المخصص له. أحس أنه نام نوماً طويلاً ومريحاً.

نهض من سريره بتكاسل. لم يكن يعرف أي شيء يفعل أولاً، هل يعد قهوته أم يذهب إلى الحمام؟. نهض من مكانه متجهاً نحو إحدى زوايا الصوفا حيث كان هناك مسجل – راديو وإلى جانبه بعض أشرطة الكاسيت الصوتية. أخذ شريطاً من تلك الأشرطة ووضع الكاسيت في موضعه المخصص، وضغط على زر التشغيل فتعالى صوت فيروز:

أديش كان في ناس

عالمفرق تنطر ناس

وتشتي الدني

ويحملو شمسيه

وأنا بأيام الصحو

ما حدا نطرني

صار لي مية سني

مشلوحة بها الدكان

ضجرتْ مني الحيطان

ومستحيي تقول

وأنا عيني عالحلى

والحلى عالطرقات

غنيلو غنيات

وهو بحالو مشغول

نطرت مواعيد الأرض

وما حدا نطرني

كان صوت فيروز يأتيه شـجيا، نديا، مترعاً بالحنين والرومانسـية. ترقرقت الدموع في مقلتيه. وسـرى إرتجاف في أعماق روحه. أحس بالأسـى على كل هذه الإنتظارات الخاسرة، وعلى هذه العاشقة التي تؤلف العناوين ولا تعرف لمن تبعث رسائلها، وتنتظر عسـى أن يتذكرهـا حبيبهـا الـذي يتذكـر كل العالـم إلاها. لا يدري لمـاذا يحس بالحنين والشـجن كلما سـمع أغاني فيروز، بالرغم من أنه اسـتمع لها مئات بل آلاف المرات؟ بل إن الدمع يترقرق في عينيه، ويضغط على نفسـه كي لا ينهمر، كلما أسـتمع لأغنيتها زهرة المدائن.

توجـه إلـى زاويـة المطبـخ. وضـع الماء في المغلاة، ولم ينتظر أن يغلي وإنما توجه إلى الحمام ليغتسل. بينما كان المسجل يبث أغاني فيروز من الكاسيت.

أفاقـت حـواء إثـر طرقـات خفيفـة علـى الباب. أرادت أن تسـأل أو تسـمح للطارق بالدخول لكنها لم تسـتطع ذلك لأن الممرضة دخلت عليها وبيدها صينية الفطور التي وضعتها على الطاولة المتحركة قرب السرير، ثم توجهت إليها باسمة وهي تقول:

– صباح الخير أيتها الجميلة.. هذا فطورك. كيف تشـعرين اليوم؟ أعتقد أن عليك أن تغادري المستشفى بعد الفطور وقبل التاسعة في كل الأحوال.

لم تقل حواء أي شـيء لأن الممرضة لم تقف لتسـمع أي شـيء وإنما ابتسـمت لها وخرجت. نهضت ببطء جالسة على السرير. سحبت الطاولة المتحركة نحوها. أخذت كـوب القهـوة. ارتشـفت منه رشـفات سـريعة. فجـأة تذكرت آذان الفجـر. نهضت على عجل كادت على أثره تسقط ومعها صينية الفطور. رأت البطانية ما زالت على الأرض.

توجهت إلى النافذة بلهفة. دفعت شرائح ستارة الألمنيوم بقوة فانكشف مشهد الحديقة الصباحي الندي أمامها. لكن هذا المشهد صدمها. ذهلت جداً حتى أحست بأن أنفاسها بدأت تضيق عليها وأحست بما يشبه الإختناق وتوقف التنفس.

لم تكن هناك أية منارة أو مسجد في الأفق الذي يعلو الأشجار. كان الأفق رصاصيا مائلاً للسواد. الغيوم الكثيفة تغطيه. والأشجار تحجب كل شيء خلف سور المستشفى.

تراجعت قليلاً حتى كادت تتعثر، فتشبثت بشرائح الستارة التي انقلعت من مكانها وتهاوت على الأرض. تراجعت وهي مليئة بالخوف من نفسها، ومرتاعة من دوي سقوط شرائح الألمنيوم، ومنذهلة مما رأت الآن في الأفق. سألت نفسها بخوف: أين المسجد؟ وأين المنارة التي كان آذان الفجر يتعالى منها شجيا، وخاشعا، منادياً الأرواح المظلمة والعطشى للإيمان، وملامساً تلك الأرواح الندية بالنور؟ أين كل هذا؟ أكان كل ذلك حلماً؟ لكن البطانية ما زالت على الأرض هذا يعني أنني فعلا سمعت آذان الفجر ورأيت منارة المسجد وأقمت صلاة الفجر..لا.. إن ما يجري معي ليس طبيعيا أبداً.

ابتعدت عن النافذة. أحست بأن ساقيها ترتجفان وأنها ستتهاوى. أسرعت إلى السرير جالسة على حافته. الحيرة تنسج خيوطها العنكبوتية على الزوايا المعتمة في أعماقها. نظرت إلى صينية الفطور لكنها لم تواصل فطورها. أحست بفقدان للشهية، وبرغبة طاغية في مغادرة المكان. أحست أن عليها الخروج من المستشفى بأقصى السرعة. همهمت مع نفسها بأنها ستجن لو بقيت في هذه المستشفى ليوم آخر.

توجهت إلى الدولاب الصغير الملتصق بالحائط. فتحته آخذة ثيابها التي جاءت فيها إلى المستشفى. دخلت غرفة الحمّام لتبدل ثيابها. نزعت ثوب المرضى الذي ألبسوها إياه وأرتدت ثيابها على عجل وكأنها سجين عليه تبديل ثيابه ومغادرة زنزانته. إلتفتت ملقية نظرة سريعة في أرجاء الغرفة. فانتبهت إلى أنها نسيت كتاب الأشعار المترجمة. رجعت. أخذت الكتاب. خرجت دون أن تلتفت مرة أخرى.

ما أن خرجت من الغرفة حتى راودها خاطر في أن تذهب إلى قسم العناية المركزة لتتأكد من وجوده حقا، فلربما كل رؤيتها بعد منتصف ليلة البارحة كانت مجرد أوهام أو أحلام.

توجهت نحو الممر المتقاطع، وما أن انعطفت إلى قسم العناية المركزية الذي زارته بعد منتصف ليلة البارحة حتى جمدت في مكانها. توقفت عن السير وكأنها تحولت فجأة إلى تمثال.

الممر الذي وجدت نفسها فيه، واعتقدت أنه قسم العناية المركزية، لم يكن إلا الممر

الذي يقود إلى البوابة الخارجي للمستشفى. ليس هناك أي قسم للعناية المركزة في هذا الممر، إنما مكتب إستعلامات المستشفى وبعده بوابة الدخول إليها والخروج منها.

وقفت للحظات جامدة في مكانها. فكرت مع نفسها، ربما هي قد أخطأت في الإتجاه، فمن غير المعقول أنها كانت عند البوابة الخارجية للمستشفى ليلة البارحة دون أن تراها أو تنتبه لها، إذ أن البوابة ومكتب الإستعلامات دائما مضاء بشكل قوي وساطع، فلا يمكن لأحد أن يخطئ بأنه عند بوابة المستشفى الخارجية، كما أنه من غير المعقول أن يكون قسم العناية المركزية الذي يفترض فيه أن يكون أكثر الأقسام عزلة وهدوءا أن يقع عند المدخل حيث الضجيج والحركة وزحمة الزائرين!.

إلتفتت إلى الجهة الأخرى المعاكسة للبوابة لتتأكد من أنها سلكت الطريق الصحيح كما في الليلة البارحة. نعم، إنها في المكان الصحيح، وهذا ما زاد من حيرتها. لم تكن تعرف ماذا تفعل الآن؟ ولمن تتوجه بالسؤال والإستيضاح؟. كانت في حالة صدمة كبيرة بثت الخوف في نفسها.

– إذهبي إلى مكتب الإستعلامات قبل الخروج ليسجلوا معلوماتك رجاء.

أفاقت من ذهولها على صوت الممرضة التي كانت تطببها يومياً، والتي انتبهت لذهولها وجمودها في مكانها. وبدون أن تنطق بكلمة توجهت ببطء إلى مكتب الإستعلامات. كانت وهي في طريقها تنظر إلى اليمين وإلى اليسار عسى أن ترى شيئا يؤكد بأن المكان هو قسم العناية المركزة، بالرغم من رؤيتها لمكتب الإستعلامات وبوابة المستشفى! لكن بدون جدوى، فهنا في هذا الممر لا توجد الكثير من الغرف أساسا. هنا زاوية واسعة نسبياً جمعوا فيها بعض الأسرة النقالة، ربما لتكون على مقربة من البوابة لنقل المرضى عند وصولهم إليها. وتلك لوحة تشير لوجود مرافق للنساء والرجال. ثمة غرفة زجاجية فيها بعض الممرضات، والتي يبدو أنها مكتب لهن أو مكان لاستراحتهن، وهي تكاد تلتصق بمكتب الإستعلامات، الذي هو مكان مفتوح يفصله عن الممر حاجز خشبي. لا، ثمة شيء غير طبيعي في هذه المستشفى، هكذا فكرت مع نفسها.

وقفت عند حاجز الاستعلامات الخشبي. سألتها الموظفة عن اسمها وعنوانها وضمانها الصحي فأخبرتها بأنها لاجئة سياسية، وأن دائرة اللاجئين في البلدية هي التي تتكفل مصاريف علاجها. سجلت الموظفة كل المعلومات اللازمة إدارياً، وطلبت منها التوقيع أسفل الإستمارة فوقعت. وقبل أن تذهب نصحتها الموظفة بأن تنتبه لنفسها وأن لا تؤذي نفسها فالحياة برغم مصاعبها ومشاكلها جميلة، وأخيرا تمنت لها كل الخير. شكرتها هي بدورها على كلماتها الطيبة وعلى حسن الخدمة، وخرجت إلى الشارع.

عبـرت الطريـق مسـرعة وكأنهـا لـم تصدق أنها خرجت من ذلـك الكابوس. عبرت الشـارع، وحيـن صـارت فـي الجهة المقابلة للمستشـفى نظرت إلـي المبنى نظرة غريبة، وكأنها تودع عالماً غريبا، عالما مليئا بالأسـرار والألغاز المحيرة. تُرى هل ما رأته كان حقيقـة أم وهمـاً؟ هـل الراهبتـان كانتـا حقيقيتيـن؟ لكنها تحدثت بوضـوح مع الراهبتين حول حقيقة وجودهما، وعن حقيقة وجود قسـم العناية المركزية، وقد تأكدت بنفسـها من ذلك، فكيف اختفى كل شيء؟ كيف ظهرت المنارة والمسجد في الأفق ثم اختفى كل ذلك في الصباح؟

كانت غارقة في تساؤلاتها حينما جاءت الصدمة الأخرى لها، إذ لمحت، في الجهة المقابلة لها، الراهبة الشـابة تقبل من جهة اليمين، من ناحية الشـارع العام، متجهة نحو بوابة المستشفى وبيدها باقة من الزهور الصفراء. وقبل أن تدخل البوابة نظرت الراهبة الشـابة إلـى حـواء المؤمـن. إبتسـمت لها ولوحـت لها بباقة الزهور. رفعـت حواء يدها بصعوبـة وكأنهـا ترفـع يـدا مشـلولة. بقيتـا للحظات تنظران إلى بعضهمـا البعض. كانت نظـرات الراهبـة الشـابة مليئـة بالألغـاز وكأنها كانت تقرأ مـا كان يدور في أعماق تفكير حواء المؤمن عنها وعن قسم العناية المركزية. ظلت تنظر إلى حواء نظرات ثابتة وكأنما تريد أن تقول لها: أتشكين في وها أنا أمامك صباحا؟

توجهت الراهبة الشابة إلى داخل المستشفى. ظلت حواء تتابعها بنظراتها المتسائلة. دخلت الراهبة الشابة البوابة لكنها هناك بالضبط حدث شيء غريب كادت حواء المؤمن تصـرخ بأعلـى صوتهـا مـن الرعب عند حدوثه، فقد اختفت الراهبة الشـابة فجأة وكأنها لبسـت طاقية الإخفاء، عند بوابة المستشـفى بالضبط، عند أول خطوة لها في الداخل، وكأنها لم تكن موجودة أصلاً!.

مـا الـذي يجـري معـي؟ هـل أنا مجنونة؟ هل بدأت بالهلوسـة؟ ألـم أرَ الراهبة قبل لحظات ولوحت لي بباقة الورد؟ كيف اختفت فجأة؟ كانت حواء خائفة من نفسها جداً، كانت تسأل نفسها: هل جُننت؟ هل هي خرجت من المستشفى فعلاً أم أنها تحلم بأنها خرجت منها؟ وهل هي في المستشـفى أصلا أم أنها تحلم بأنها كانت في المستشـفى وأن خروجها منها هو إمتداد لهذا الكابوس؟ أين هي حقيقة؟ أين الوهم وأين الواقع؟ هل هي التي رأت المنارة حقاً؟ هل صلت وهي محاطة بهالة من النور السماوي فعلاً؟ وهل هذه هي نفسها التي تجلس الآن كالممسوسة بالأرواح أمام بوابة المستشفى؟

مرّ على وقوفها أكثر من أربعين دقيقة. بعض العمال عند بوابة المستشفى اعتقدوا أنهـا تنتظـر مجـيء أحـد من أهلها ليقلها بسـيارته. كانت حـواء المؤمن تائهة في أعماق

روحها. تشعر برهبة وخوف لا تعرف مصدره. لم تكن تعرف إلى أين تذهب. وجدت نفسها تتجه، بدون إرادة منها، نحو الشارع الذي يقود إلى بيتها الذي لا يبعد كثيرا عن المستشفى.

كانت تمشي كالسائر في النوم. تقودها غريزتها على الدرب نحو البيت. السماء الغاضبة بدأت تنشق عن أغصان من البرق المصحوب برعد تقشعر له الأبدان. بدأ مطر مفاجئ يهطل بغزارة.

كانت حواء المؤمن تسير دون أن تحمل مظلة أو أي شيء يقيها من البلل. بعض السابلة كانوا يلتفتون إليها مستغربين هذا الهدوء في السير تحت هذا المطر المدرار. كان المطر قد بللها بالكامل، لكنها كانت تمشي وكأنها ليست من أبناء وبنات هذا العالم. لم تكن تحس بشيء. توقفت امرأة ألمانية بيدها مظلة، كانت على الجهة الثانية من الشارع، أشارت إليها تدعوها للإنضمام إليها ما دامتا تمضيان في الإتجاه نفسه، إلا أنها لم ترد على إشارات المرأة التي واصلت مشيها وعلى وجهها بعض علامات الإستياء من هؤلاء الأجانب غير المهذبين، الذين لا يشكرون من يريد مساعدتهم، والذين يستهترون بكل شيء، بدءاً من القوانين وانتهاءً بصحتهم.

لا تدري حواء المؤمن كيف هطلت الدموع من عينيها. دموع اختلطت بالمطر الذي كان يغسل الأشجار والحيطان والشوارع والنفوس. كانت تمشي وحيدة في الشارع الفرعي الذي يقود إلى البيت. كان المطر يهطل بشدة. وكانت حواء تمشي وحيدة تحت وابل المطر المدرار. كانت السماء تنشق عن بروق مرعبة وتهتز الأرض بالرعد.

في المستشفى الحديثة من المدينة، والذي يقع في الجانب الآخر منها، وفي غرفة من غرف قسم العناية المركزية، أفاق الدكتور آدم التائه من غفوته على صوت الرعد الذي كان يهز المستشفى. الأنابيب المطاطية مازالت ملصقة بأنفه لتسمح بمرور الأوكسجين النقي لرئتيه، وكيس المواد المغذية كان معلقا على على حامل من الألمنيوم ينتصب قرب السرير إلى جانب قنينة الأوكسجين الكبيرة.

كان الأطباء قد أدخلوه إلى قسم العناية المركزية بعد أن تعرض وهو في الشارع إلى ذبحة قلبية. لكنه لا يعرف لحد الآن كيف وصل إلى المستشفى؟. لقد أفاق قبل ذلك، لكنه كان ضعيف القوى، يحس بتعب شديد فنام طويلا وكأنه قد هوى في بئر مظلمة. تذكر أنه فتح عينيه ذات مرة فوجد أشباح رجل وثلاثة أشخاص آخرين ظنهم الطبيب والمساعدين، لكنه لم يذكر شيئا بعد ذلك. لكنه الآن يتذكر بوضوح أنه ذات ليلة أحس بقطرات ماء دافئ تبلل كفه. وبصعوبة شديدة إلتفت إلى تلك الجهة التي

تبللت كفه فيها فرأى حواء المؤمن تجلس القرفصاء عند سريره، ماسكة بيده والدمع يهطل من مآقيها. كانت تبكي بحرقة، وكأنها كانت تريد أن تغسل عارها، وتنظف الوسخ والأثم الذي اقترفته بحقه. لم يصدق ما رأى حينذاك. ربما كان يحلم. ربما أنه يريد منها أن تعبر عن ندمها.

ليلة البارحة أحس بوجود راهبة شابة ذات جمال باهر تقف عند جانب السرير من جهة الرأس. كانت تمسك كتابا سميكا من القطع الصغير بيدها. خمن ربما هو الكتاب المقدس. حين فتح عينيه ابتسمت الراهبة الشابة له إبتسامة مليئة بالحنان وبالتعاطف الإنساني والمودة. حرك كفه فأمسكت بها برقة. أحس أنها بلمستها لكفه منحته سلاما وهدوءا روحيا كان يتعطش إليه، إنسل بهدوء، على إثرها، إلى مملكة النوم البريء..

عند ساعات الفجر الأولى فتح عينيه، فجأة، ليتأكد من وجود الراهبة الشابة، فرأى راهبة أخرى مسنة، ليست بالعجوز لكنها أيضا ليست بعمر الراهبة الأخرى. كانت هذه الراهبة الجديدة جالسة على كرسي قرب سريره تقرأ كتاباً. حاول أن يحدث الراهبة لكن الحروف ماتت على شفتيه، إذ لم يكن بإمكانه أن ينطق. أخذ ينظر إلى سقف الغرفة، وحينما رفع رأسه نحو الراهبة لم يكن هناك أحد. كان الكرسي فارغا. أحس أنه يهلوس. وربما هو نائم أصلاً. وما يجري الآن هو جزء من حلم يراه!.

لم يستغرق الدكتور آدم التائه في مراجعة كل ما رآه في ليالي هذه المستشفى الغريبة، إذ دخل عليه الطبيب المختص يتبعه ثلاثة أشخاص طبيب شاب وطبيبة ذات شعر أسود فاحم وممرضة شقراء. تقدم الجميع منه. أخذ الطبيب المختص اللوحة التي تخصه والمتضمنة تطور حالته الصحية ونتائج تحليلاته. صمت للحظات، ثم رفع رأسه مبتسما وهو ينظر إليه قائلا:

– جيد جدا. النتائج طيبة. لقد تجاوزت مرحلة الخطر. لقد كانت ذبحة قلبية غير خطرة. لكن عليك الحذر مرة أخرى. لا تدخين، لا شرب، يجب ممارسة الرياضة.المشي كثيرا. الإكثار من الخضروات. أوكي. ربما ستخرج غدا صباحا.

لم يستطع الدكتور آدم التائه أن يتكلم، لكنه فهم كل ما قاله الطبيب. أومأ برأسه موافقا على ما قاله الطبيب. إبتسم الجميع له وخرجوا مثلما دخلوا بطريقة احتفالية.

ما أن خرجوا حتى عاد آدم لأفكاره وتداعياته. إذن لقد أصيب بذبحة قلبية، ونُقل على أثرها إلى هذه المستشفى. لكن كيف حدث كل ذلك وأين؟ ومن نقله إلى المستشفى؟ وما قصة الراهبتين اللتين رآهما خلال لياليه هنا؟ كيف ظهرتا واختفيتا، ولماذا لا تأتيان إلا في الليل؟ وما معنى وجود حواء هنا؟ لماذا كانت تبكي هكذا

بحرقة؟ هل كانت تطلب الغفران حقاً؟. لقد تذكر أنه مرر كفه على رأسها غافرا لها ما فعلته؟ إذن كان كل هذا هلوسة ورؤى؟ هو لم ولن يغفر لها أبداً؟ هل كان يتخيل غفرانه لها؟ هل هو ممسوس بحيث صار لا يفرق بين الوهم والواقع؟ يبدو أن كل هذه الهلوسة والرؤى الغريبة هي بتأثير المواد المهدئة التي يتعاطاها والإبر التي تزرق في جسمه؟ هل هذه المستشفى مسكونة بالأرواح أو بالأشباح كما في قصص الأفلام المرعبة؟ هل بدأ يؤمن بالهلوسات والتخاريف؟

قطعت عليه أسئلته الذاتية لنفسه دخول الممرضة الشقراء وهي تبتسم له وتقول:

– يبدو أنك تجاوزت الخطر، فالطبيب سمح بإخراج الأنابيب. بإمكانك أن تتنفس الآن بشكل طبيعي. كما أن هذا الكيس سيكون الأخير. سنستعيض بالحبوب والفيتامينات المقوية. والخبر الأهم إنك ستخرج غدا صباحاً.

ابتسم هو لها بدوره تاركا إياها تنهي كل ما تريد قوله، وما أن انتهت حتى سألها:

– كم يوم مر علي في هذه المستشفى؟

– ثلاثة أيام.. هذا هو اليوم الثالث..

– وكيف دخلت المستشفى؟

– كما سمعتُ، إنك تعرضت إلى ذبحة قلبية وأنت في الشارع، وكانت هناك امرأة مع ابنتها قد شاهدتاك وأنت في تلك الحال، فاتصلت المرأة بالمستشفى وجاءوا بك إلى هنا. هذا كل شيء ببساطة.

– لدي سؤال آخر لو سمحت..

– تفضل..

– هل يوجد هنا قسم للنساء؟

– هل تقصد قسم للولادة؟

– لا.. أقصد عنبرخاص بالنساء..

– طبعا لدينا عنبر للنساء الراقدات لأسباب مختلفة.. فمنهن من تنتظر إجراء عملية ومنهن من ترقد بعد العملية.. وهناك قسم للحالات الطارئة أيضا.

– هل توجد هناك امرأة عراقية اسمها حواء لديكم؟

– لا أدري.. سأسأل.. هل هي قريبتك؟

– نعم..

– سأسأل عنها وأخبرك.

– شكراً..

– لماذا تشكرني؟.. أنا لم أسأل عنها بعد..

بينما كانا يتحادثان أنهت الممرضة عملها. أغلقت قنينة الأوكسجين بعد أن رفعت اللاصق عن الأنابيب وسحبتها من أنفه، فتحرر وجهه منها. وقبل أن تخرج سألها:

– رجاء.. لدي سؤال آخر.

– تفضل.

قالت ذلك وهي تبتسم له وكل ظنها أنه معجب بها ويريد أن يطيل الحوار معها، فقال سائلاً:

– هل توجد راهبات في هذه المستشفى؟

– راهبات؟ قالت ذلك باستنكار.

– نعم راهبات..؟

– من أين جاءتك هذه الفكرة؟

– لقد رأيت راهبة شابة وأخرى مسنة في هذه الغرفة..

– يبدو أنك كنت تحلم.. فلا توجد أية راهبات لدينا.. لكن يبدو أن الحالة النفسية لبعض المرضى تجعلهم يرون أشياء غير موجودة. لقد سمعت من بعض المرضى نفس الشيء بأنهم رأوا راهبات في المستشفى. إطمئن لا راهبات هنا. هذه ليست مستشفى للراهبات.

قالت ذلك وخرجت.

بحث الدكتور آدم التائه مع نفسه عن تفسير منطقي وعلمي لما يجري له. ربما هي الشزوفرينيا، أو إزدواج الشخصية كما تسمى أحيانا..ربما هي هلوسات بتأثير العقاقير التي تحوي نسبة من المواد المخدرة؟ ربما هي تجسيدات اللاوعي والعقل الباطن تظهر في لحظات غياب الوعي، لكن لماذا تأتيه رؤيا الراهبات فهو ليس مسيحيا؟ صحيح إنه لم يتحدث مع الراهبتين لكنه متأكد من رؤيته لهما. تذكر، وهو في تلك اللحظة، قصة الراهب الأسود لإنطوان تشيخوف. فقد قابل البطل راهبا يرتدي اللباس الأسود، وكان يناقشه في كل شيء، ويتدخل في كل أمور حياته، وكان هو الوحيد الذي يراه رؤية مجسدة بينما هذا الراهب غير موجود بالنسبة للآخرين. لكن رؤية تشيخوف للراهب الأسود طبيعية إذ أنها تجسد بطريقة لا إرادية نزعته المسيحية، بينما هو مسلم، وربما يفترض عليه أن يرى أئمة أو أولياء أو شيوخ ربانيين، ولماذا رأى راهبات وليس رهبانا؟.

استمر الدكتور آدم التائه يحلل ما رأى ويبحث عن تفسير منطقي لذلك. فكر مع نفسه أن في تاريخ الأدب العالمي الكثير من الشواهد على رؤية الأرواح والأشباح،

ففي هاملت لشكسبير يظهر شبح روح الأب الملك القتيل لابنه هاملت طالبا منه أن ينتقم من عمه القاتل، وفي الكوميديا الإلهية لدانتي أيضا، فأن روح الشاعر الروماني فرجيل هي التي تقود دانتي إلى الجحيم، فالمطهر، لكن تلك الأرواح كانت معروفة لأصحابها، وكانت تقودهم إلى كشوفات الحقيقة، فلماذا يرى هو تلك الراهبتين؟ وإلى أية حقيقة ستقوداه؟

فجأة، انتبه الدكتور آدم التائه لنفسه. تذكر أن وجه الراهبة الشابة كان يشبه وجه إحدى الراهبات اللاتي شاهدهن في فيلم (حكايات كونتربري) للمخرج الايطالي بازوليني المأخوذ عن رواية لبوكاشيو. لقد تذكر مشهد تلك الراهبة التي أرادت من الفلاح الفقير الذي لجأ إلى الدير هربا من الجوع فعمل هناك بستانيا، إلا أن واحدة من الراهبات طلبت منه أن يضاجعها. تلك الراهبة كانت تشبه لحد ما الراهبة الشابة التي جاءت إلى غرفته.. إنه يسترجع الآن تلك المشاهد. لا.. لا. ربما ليس هي بالضبط.. ربما هي تشبه وجه ممثلة هوليودية أخرى مثلت دور راهبة تطبب الجرحى أيام الحرب العالمية الثانية، أو تلك الراهبة التي رأى صورتها في بعض المجلات الجنسية وفي أوضاع جنسية فاضحة! ما هذا الذي يفكر فيه؟ هل هو يريد تلويث المقدس؟ أم يريد تقدس الجسدي والشهواني؟ وهل كل هذا إلا رغباته النفسية والجنسية الدفينة في تلافيف لا وعيه وعقله الباطن أم أنها حقيقة واقعة رغم نفي الممرضة الشقراء لوجود راهبات في هذه المستشفى؟. عليه أن ينتظر هذه الليلة أيضا ليتأكد من ذلك.

كان الدكتور آدم التائه في حالة أشبه بالحمى وهو مستغرق في تحليل نفسه، حينما أطل عليه وجه الممرضة الشقراء باسماً، وهي تفتح الباب إلى النصف، قائلة له:

- لقد سألت في مكتب الإستعلامات وفي العنبر المخصص للنساء، وتأكدت أنه لا توجد أية امرأة بالإسم الذي ذكرت، بل لا توجد أية امرأة أجنبية في المستشفى بتاتاً.

قالت ذلك وأغلقت الباب خلفها، بينما أحس هو وكأن هناك من سكب على رأسه جردلا من الماء المثلج. إنه مجنون بلا شك. إهتزت الغرفة والمستشفى من إنفجارات السماء المرعبة. كان صوت البرق والرعد يبعث الخوف والرهبة في النفس البشرية التي تشعر بالضعف والضآلة أمام قوى الطبيعة الجبارة. أحس بأنه معزول عن العالم، فهو هنا روح تائهة في غرفة شاحبة في مكان غامض. فهو لم يكن على يقين من القصة التي روتها له الممرضة الشقراء عن ذبحته الصدرية، ومصادفة وجود امرأة مع ابنتها هناك،

التـي قامـت بالإبـلاغ عـن حالتـه، وهكـذا نقلوه إلى هنا، لكنه أيضا لـم يكن يسـتطيع أن ينفي إحتمال حصول هذا الأمر بالكامل، لكن في كل الأحوال يعيش في مكان غامض مليء بالألغاز، ربما هو مكان كما يقال عنه بالعامية: مكان مسكون بالأرواح أو الأشباح.

برقت في ذهنه أحداث لم تخطر على باله. لقد تذكر أنه كان في المكتب السياحي لشـراء بطاقـة السـفر إلـى الإمـارات مـن أجـل إجـراء مقابلـة لغرض العمـل في إحدى جامعاتهـا. تذكـر وجـه الموظفـة الألمانيـة الشـقراء والتي إتفق معهـا أن يأتيها في اليوم التالـي مـن أجـل الاتصـال بقنصليـة دولة الإمارات في بـون. لكن يبدو أنه غير محظوظ بالكامل، فما أن وجد من يسـاعده حتى وجد نفسـه عالقا في هذه المستشـفى. لكنه لن يغادر هذا المكان إذا لم يكشـف سـرّ هذين اللغزين، سـر وجود الراهبتين وسـر وجود حواء المؤمن في غرفته.

بالرغم من أن الدكتور آدم التائه بدا مع نفسـه مصرا على فك مغاليق هذه الأسـرار الغامضة، إلا أنه شعر برهبة تسري منتشرة كضباب الفجر في صحراء روحه. فكر مع نفسه ربما هو ميت الآن! وأنه الآن يعيش وقائع ما بعد الموت. لكن أهذا هو الموت حقا؟

آدم البغـدادي: لماذا أحاول التعليق على النص؟ أهي محاولة لخلخلة تفاعل القارئ مع النص بشكل كامل، أم أنني فعلاً أحتاج للتعليق من أجل نفسي؟ من المؤكد حينما أحاول النشر سأقدم نسخة غير هذه التي أعلق عليها. إنها نسختي أنا.

سـأل آدم المحـروم نفسـه: ما الذي يريـد أن يقوله خلال هذا التداخل بين الواقع واللاواقع. هل رأت حواء المؤمن تلك الراهبات حقا؟ وكيف كانت تجد نفسها في قسم العناية المركزية، بينما هذا القسم غير موجود في الواقع المعاش؟ وكيـف اختفـت الراهبـة الشابة لحظة عبورها بوابـة المستشفى؟ وكيف أنها رأت زوجها وكانت عنده في غرفة العناية المركزية، بينما آدم اللبنانـي أكـد لهـا، بعد أن سأل في مكتب الإستعلامات، بأن هذه المستشفى لا يوجد فيها أي أجنبي بإستثنائها؟

ثـم كيـف رأى الدكتـور آدم التائه الرؤيـا نفسها وهو في مكان آخر؟ رأى الراهبتيـن، الشابـة والمسنة، وكلتاهمـا كانت في غرفته بالمستشفى الآخر، ويفترض أن يكون ذلك في نفس الوقت، لأنهما كانتا في الليالي ذاتها في

المستشفى التي ترقد فيها حواء المؤمن، وكيف رأى هو حواء المؤمن تبكي بحرقة في غرفته ماسكة كفه، ساكبة الدمع عليها، فمن أين أتت؟ وكيف أنها قامـت بهـذا الأمـر في مستشفاها، بينما نفس الفعل جرى في غرفة الدكتور آدم التائه في مستشفاه؟

كيـف يمكـن للأحـداث والأمكنـة أن تكـون هنـا وتكون هنـاك في الوقت نفسه؟ ما معنى كل هذا التداخل؟ ما الذي يريد آدم البغدادي أن يقوله من خـلال هـذا التفاصيـل الغرائبية؟ من أين أتى بهذه التفاصيل؟ هل كان يؤمن بـالأرواح، أقصـد عالـم الأرواح الحية التي تعيش بيننا لكننا لا نراها؟ هذا واضـح، وألا مـا الـذي يدفعه للتوغل في هذا العالم الغريب والمخيف؟ إنها أشبـه بفيلـم رعـب، لكن الغريب أن الأرواح هنا طاهرة، حنونة، جميلة، حاضرة للمواساة، ليس لها سوى منح السلام النفسي للمرضى، على عكس الأرواح فـي أفـلام الرعـب، التـي تكون عـادة أرواح شريرة، كريهة، مرعبة، مؤذية للإنسان، وتحول حياته إلى جحيم. على أية حال يجب أن أواصل القراءة فربما سيكشف عن سر هاتين الراهبتين، وسر هذا التداخل في الزمان والمكان.

4

الأوغـــــــاد

بينمـا كان آدم المحـروم يحـاول أخـذ رزمـة الأوراق ثانية ليواصل القراءة، إنتبه إلى أن بـاب الغرفـة الأخـرى قـد فُتح. وسـمع همهمات لم تبيـن ملامح الجمل فيها. خمن أن هناك من دخل على المرأة التي في الغرفة المجاورة. استيقظ نصف استيقاظة على السـرير، إذ كان يفكر مع نفسـه: هل يواصل القراءة أم يقوم ليتنصت على ما يدور من حـوار فـي الغرفـة المجـاورة، ويـرى مـن ثقب البـاب ما يدور هناك؟ ويبـدو أن فضوله بمعرفـة مـا يجـري فـي الغرفـة المجاورة كان أقوى من رغبة بمواصلة القراءة، لذا نهض ببطء شيئا فشيئا، مقترباً بهدوء من الباب الفاصل بين الغرفتين، قاعيا على ركبتيه هناك، لاصقا إحدى عينيه على فتحة الباب التي بينهما.

رأى ثلاثة من الرجال الشـبان في أواسـط العشـرين من العمر يحيطون بالمرأة التي بـدت مرتبكـة لكنهـا تحـاول أن تخفي إرتباكها من خلال المبالغة في اسـتقبالهم وتبيان فرحتها بمجيئهم. توزعوا جلوسـاً على السـرير والكراسـي. جلسـت هي وأحدهم على السرير وجلس إثنان بالمقابل منهما على كرسيين خشبيين. قال أحدهم لها وكأنه يرأس المجموعة:

– إسمعي.. الحجي دكتور آدم الربيع والحجي دكتور آدم أبو الهلس يسلمان عليك وقـد أوصيانـي بالحـرف الواحـد: قل لحواء شـمعون إن الحجي دكتور آدم ربيع والحجي دكتور أدم أبو الهلس يقولان لك: لا تخافي نحن معك، وسـنرجعك إلـى العمـل، بـل وسـنكافئك مكافأة طيبة، عليـك أن تحضري عند اللجنة النيابية فقـط لتؤكـدي بـأن المديـر العـام قد تحرش بك. لا تخافي، سـنكون هناك، وبل سـتأتي معك حواء الوهابي أيضا، وقد أقنعناها أيضا بالشـهادة ضده. وها نحن نرسل لك من جيوبنا خمسين ألف دينار كعربون.

ارتبكت المرأة، التي عرف آدم المحروم للتو أن اسمها حواء شمعون، وهذا يشير إلى أنها مسيحية، وقالت بتردد:

– أنـا خائفـة، لأن فتيـات المكتـب ربمـا سيشـهدن ضدي وهن يعرفـن أن هذا غير صحيح.

إبتسم الذي يجلس جنبها وهو يحضنها قائلا بإستنكار:

– أنـت تخافيـن يـا حـواء شـمعون؟ ألـم تخافـي حينمـا كنـت تذهبيـن إلـى بيوت المستشـارين الذين ضاجعك إثنان منهم مقابل خمسـة وعشـرين ألف دينار لكل منهما؟ ألم تخافي حينما مارس صديقنا آدم المسافر، أحد أفراد حماية الأستاذ آدم أبو الهلس في الدائرة وفي غرفة أبو الهلس نفسها حينما كان الآخر في اجتماع مـع الدكتـور الحجـي آدم الربيـع؟ فكيـف تخافيـن أن تقولـي كلاما بسـيطاً كهذا الذي نطلبه منك؟ ثم لا تخافي من موظفات مكتب المدير العام فأننا سننقلهن إلى أقسام أخرى، وسنهددهن بالفصل أو التشهير أيضا، ونجد لهن ألف مصيبة ومصيبة، بحيث نوصلهن إلى حال تحاول كل منهن أن تنفذ بجلدها. لا تخافي.

ارتبكت حواء المجدلية أكثر حينما أدركت بأنهم يعرفون عنها الكثير، فقالت:

– ربما سيقوم المدير العام بتقديم بلاغ عني بأني أكذب.

ضحك الرجال الثلاثة معاً، وقال أحد الجالسين على كرسي أمامها، وهو يمد يده إلى ساقها مداعبا:

– لا تخافـي.. هـذا المديـر مـن أهـل الله.. ليـس وراءه أي حزب أو تكتل أو جهة سياسـية فـي البرلمـان، لذلـك لا أحـد سـيدافع عنه.. بل الجهة التي سـاندته في إستلام هذا المنصب هم الآن أكثر أعدائه لأنه لم ينفذ لهم ما طلبوه منه..

– لا أدري. أنا محتارة.. لكن هل سيصدقونني في اللجنة النيابية؟

– لا تخافي من اللجنة النيابية، فالحجي دكتور آدم الربيع والحجي آدم أبو الهلس قد اتفقا مع عدد من أعضاء اللجنة بتقديم تسهيلات لشركات تابعة للكتل السياسية التي ينتمي إليها بعض أعضاء اللجنة، كما أن هناك مستشارة في مجلس الوزراء تساعدهم في حرق أوراق المدير أمام رئاسة الوزراء. الأمور مخطط لها بشكل لا يقبل الشك..لا تخافي..المهم إزاحة المدير..

ضمها الذي يجلس إلى جانبها ملقيا بها على السرير وغامرا وجهها بالقبل ومداعبا صدرهـا بيـده، بينمـا رفـع أحد الجالسـين على الكرسـي ثوبها إلى سـرتها فكشـف عن فخذيها ولباسها الداخلي الأزرق. وقام الآخر بسحبه نازعا إياه.بينما كان الآخر يصور المشهد بكاميرا الموبايل.

فـي هـذه اللحظـة بالذات سـمع آدم المحـروم طرقا على باب غرفته، قفز من مكانه

وعاد للجلوس على السـرير وكأنه كان يقترف جرما أو فعلا سـيئاً. انتظر للحظات ثم توجه فاتحاً الباب. كان الفتى القروي يقف أمام الباب مبتسـماً. نظر آدم المحروم إلى الفتى الواقف أمامه نظرة تساؤل، فما كان من الفتى إلا أن قال مرتبكا:

– عفواً أسـتاذ، عرفت عندك ضيوف فأحببت أن أخدمهم. هل يودون أن يشـربوا شيئا؟

أثار ما قاله الفتى القروي استغراب آدم المحروم فسأل:

– أي ضيوف؟

صمت الفتى مستغربا الجواب، وقال:

– لقد صعد ثلاثة شبان قبل قليل، ظننتهم جاءوا إليك.

– ألم تسألوهم لمن يريدون الصعود؟

– لا.. صاحب الفندق خرج لنصف ساعة يقضي فيها مهمة لديه، وأنا لم أسألهم. ظننتهم جاءوا إليك.

– لا، ليس لدي أي ضيف.

إرتبك الفتى القروي، وتساءل:

– إلى أين يمكن قد ذهبوا؟

أراد آدم المحروم أن يقول له إنهم في الغرفة المجاورة، لكنه استدرك ذلك، فلربما سيستفسر الفتى منه عن مصدر معرفته بذلك، فنفى معرفته بأي شيء قائلا:

– لا أعرف بالضبط، هذا عملكم أنتم، ثم كيف تسـمحون لكل من هب ودب أن يدخـل الفنـدق دون أن تسـألوه عـن هويتـه؟ أو عن النزيـل الذي يريد أن يقابل؟ بل وكيف تسمحون لأي شخص أن يصعد إلى غرف النزلاء بهذه السهولة؟ ألا يفترض بكم أن تطلبوا منهم الجلوس في اللوبي ثم تنادون على النزيل المعني؟

إرتبـك الفتـى القـروي مـن كلام آدم المحروم ونبرة صوته الحازمة، أدرك خطأه، إذ أحـس أن مديـر الفنـدق لـو كان موجـودا لطلـب منهم هويات تثبت شـخصياتهم، فقال بتوسل:

– أرجوك أسـتاذ لا تقل أي شـيء لمدير الفندق. هذه غلطتي. سـأحاول أن أطرق الأبواب جميعها إلى أن أجدهم. أرجوك أستاذ.

لـم يقـل آدم المحـروم شـيئا. نظـر للحظـات في وجـه الفتى القروي الذي شـحب وتعـرق جبينـه مـن أثـر كلمـات التوبيخ التي سـمعها، وأغلق الباب فـي وجهه، ثم أقفل عليها بالمفتاح.

لم يشعر آدم المحروم بالإرتياح من حديث الفتى القروي، إذ أحس بأن ثمة تسيباً وعدم انضباط وتساهلاً قد يشكل في لحظات ما خطرا على سلامة نزلاء الفندق. فهؤلاء الشباب الثلاثة في الغرفة المجاورة، جاءوا لهذه المرأة المسيحية التي يبدو أنها تعمل في مكتب مدير عام ما في الدولة، وهم يقنعونها بالشهادة ضده لمصلحة شخصيات متنفذة، وقد ضاجعوها في الغرفة وقاموا بتصويرها أيضا، فلربما يمكن أن تتردد لذا يمكنهم الضغط عليها من خلال تهديدها بنشر ما تم تصويره بالموبايل، أو لنفترض أنها ليست امرأة وإنما رجل يعادونه ألم يكن من السهل اغتياله والخروج دون أن يعلم أحد؟.

راودت آدم المحروم عشرات الأمثلة والتصورات التي أحس على أثرها بانقباض شديد في نفسه، حتى أنه لم يجد الرغبة في نفسه لمتابعة ما يجري في الغرفة المجاورة من أفعال.

إستلقى على السرير. تناهى إلى سمعه طرقات الفتى القروي على باب أخرى، لكنها ليست باب حواء شمعون، وإنما على باب في الاتجاه المعاكس. ظل صامتا، متضايقا من نفسه للحظات، ولم يجد خلاصا من حالته النفسية تلك إلا بأن يستمر في القراءة. أخذ رزمة الأوراق وواصل القراءة في رواية (متاهة حواء).

خـيط النمـل

حين دخلت حواء المؤمن البناية التي تسكن فيها لم تقابل أحداً من الجيران، فالأمطار الغزيرة لم تترك أحدا في الشارع. لذا صعدت الدرج الخشبي بهدوء. حين وصلت إلى الطابق الذي فيه شقتها التي كانت تتقاسمها مع زوجها الدكتور آدم التائه، فتحت الباب بهدوء ودخلت. لم تفكر إن كان زوجها في البيت أم لا، بالرغم من أن لديها يقيناً بأنه ليس في البيت، وأنها رأته بطريقة ما في المستشفى. أغلقت الباب خلفها.

في غرفته انتبه آدم اللبناني لوقع خطوات على السلم الخشبي. لم يشأ أن يفتح الباب فربما سيكون الدكتور آدم التائه، وهذا أمر لا يعرف بالضبط كيف سينتهي. كما أنه خمن لو كان الصاعد على الدرج هي حواء المؤمن فأنها ستدخل عليه بلا شك، لذا عليه أن ينتظر. وبعد لحظات صار لديه يقين بأن الذي صعد الدرج هو الدكتور آدم التائه لأنه فتح باب شقته ودخلها. أحس بشيء من الإحراج والضيق النفسي من الذي جرى، فهو يحترم الدكتور آدم التائه، ولا يدري ردود أفعاله على ما جرى لحد الآن. قام إلى باب غرفته ووضع رأسه متنصتا لأية حركة تصدر من الشقة المقابلة التي تبعد

بابها من بابه أقل من مسافة متر.

فجأة، سمع وقع خطوات تصعد السلم الخشبي بهدوء وبطء. ظل واقفا يتنصت. وصلت صوت الخطوات إلى المنطقة التي تفصل بين البابين. حبس أنفاسه فلربما هذه الخطوات لحواء المؤمن. سمع صوت الجرس يأتي من الشقة المقابلة. إذن، فالصاعد يريد الشقة المقابلة، لكن من هو يا تُرى؟.

استمر صوت الجرس في الشقة المقابلة لكن لا أحد يفتح. استغرب من عدم فتح الدكتور آدم التائه للباب، ظنا منه بأنه هو الذي دخل الشقة قبل فترة قليلة. فكر مع نفسه ربما أقدم الدكتور آدم على الانتحار أو حدث له شيء وألا فما سبب عدم فتحه للباب؟. فتح الباب بشكل موارب ليرى من يضغط على جرس الشقة، فرأى جارتهم اللبنانية تقف عند الباب. فتح الباب على مصراعيه فالتفتت نحوه قائلة وكأنها تبرر سبب وجودها:

– سلام يا جار.. أردت أن أسلم على أختنا العراقية وأسأل عن صحتها لكنها لا تفتح الباب.

فتح الباب على آخره وخرج واقفا عند عتبته وقال مستغربا كلام المرأة:

– هي في المستشفى كما أعتقد.

نظرت الجارة إليه باستغراب، ثم قالت مؤكدة:

– لا.. لقد خرجت. أنا شاهدتها تدخل البناية قبل فترة قليلة. شاهدتها بنفسي وهي تصعد الدرج. أريد أن أطمئن عليها فهذا واجب وحق للجار على الجار.

أحس آدم اللبناني بفرح خفي وبمشاعر متضاربة وغامضة، لكنه تمتم:

– ولو يا جاره.. هذا حق.. أنا سمعت من يصعد الدرج ويدخل الدار لكني ظننت أنه زوجها.

– لا.. مسكين زوجها الدكتور.. لقد أصابته جلطة قلبية وهو في الشارع ونقلوه إلى المستشفى.. ابني كان مارا في الطريق وشاهد سيارة الإسعاف وهو تنقله.

استغرب آدم اللبناني ذلك فسأل بتعجب:

– متى كان ذلك؟

– قبل ثلاثة أيام.

– وإلى أي مستشفى نقلوه؟

– لا أعرف.. لكن ابني سمع أنهم ينقلونه إلى قسم العناية المركزة.

– العناية المركزة؟

– آعتقد..

– استمرت الجارة في ضغطها على جرس الباب، لكن حواء المؤمن لم تفتح.

ظنت الجارة أنها نائمة فقالت لآدم اللبناني:

– يبدو أنها نامت مباشرة.. لا نزعجها.. سوف أزورها مرة أخرى.

قالت ذلك وأخذت تهبط الدرج بهدوء وبطء كما صعدت. بقيَ آدم اللبناني واقفا عن عتبة بابه مرتبكا من سيل هذه المعلومات المفاجئة. دخل شقته وأغلق الباب. أراد أن يرتب أفكاره ويفهم ما يجري قبل أن يرى حواء المؤمن. جلس على الكرسي حول طاولته الصغيرة. لم يفعل أي شيء. كان ساكنا لكن أمواجاً من الاسئلة الغامضة كانت تتلاطم في رأسه. لماذا لم تأت إليه بل ذهبت إلى شقتها التي كانت تتجنب الدخول إليها لخوفها من مواجهة زوجها؟ لماذا لم تفتح الباب؟ كيف عرفت، حينما زارها في المستشفى، بأنها رأت زوجها راقدا في قسم العناية المركزة، بالرغم من أن المستشفى ليس فيها قسم للعناية المركزة، وها هي جارتهم تؤكد بأن زوجها تعرض لذبحة قلبية ونقل إلى قسم العناية المركزة؟ ماذا يعني كل هذا؟ هل زعلت منه لأنه لم يذهب إلى المستشفى صباحا من أجل إخراجها من هناك؟ ما الذي يجري؟ إنه لا يفهم ذلك، لكن لا بد من رؤيتها، لا بد من الحديث معها كي توضح له ما يجري..

لم ينتبه آدم اللبناني للوقت الذي استغرقه وهو جالس هناك باحثا عن الأجوبة. فجأة أحس برغبة عارمة في رؤيتها والحديث معها، لذا قرر فورا أن يذهب إليها. نهض من مكانه واتجه خارجا من شقته – الغرفة، فاتحا الباب. وحين وقف أمام باب شقتها أحس بالإرتباك والتردد. وأخيرا ضغط على زر الجرس. لم يفتح أحد الباب. ضغط على زر الجرس ثانية ولمدة أطول بكثير من المرة الأولى، لكن دون جدوى فلم تفتح له. إزداد ارتباكا حينما وجد نفسه مرفوضا ولا أحد يفتح له، بالرغم من أن حواء المؤمن لا تعرف من كان يضغط على الجرس. أحس بالحرج والإرتباك وغضب خفي يتصاعد في نفسه، ولم يكن أمامه سوى أن يدخل شقته ويغلق الباب.

كانت حواء المؤمن مستلقية على سريرها في غرفة النوم. لم تكن نائمة بل كانت تنظر إلى نقطة ما على الجدار. نقطة خارج الزمان والمكان. كانت تنظر إلى نقطة ما على جدار الغرفة لكن رأسها كان فارغا وخاليا من أي فكرة. كانت وكأنها تنظر في الفراغ، في اللاشيء. كانت تسمع الجرس يرن وفي الوقت نفسه لا تسمعه، وكأنه يأتي من مكان آخر، مكان بعيد بعيد. لم ينبهها صوت جرس الباب المتكرر إلى أي شيء. ظلت تنظر في نقطة على الجدار، إلى نقطة في الفراغ. كانت وكأنها عاجزة عن التفكير. كانت شبه منقطعة عن هذا العالم وكأنها خارج الزمان والمكان. ظلت على تلك الحال

إلى أن أظلمت الغرفة والشقة.

نهضت من السرير بتثاقل. كانت الغرفة غارقة في العتمة. قامت ببطء واتجهت الى الباب فضغطت على زر التيار الكهربائي قرب الباب فأضاءت الغرفة. توجهت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة من الماء وأخذت تشرب منها مباشرة. تناثر الماء البارد على وجهها. لم تترك قنينة الماء وإنما أخذت تسكب الماء منها على وجهها وجيدها. أحست بالانتعاش. وكأنها صحت على ما يدور حولها. وضعت القنينة الفارغة على سطح الثلاجة وذهبت نحو باب المطبخ الذي يفضي إلى غرفة الإستقبال والباب الخارجي. ضغطت على زر التيار الكهربائي فأضاءت المطبخ. رجعت إلى المطبخ فأخرجت عدة إعداد الشاي. أخذت دورق غلي الماء وملأته من الحنفية بالماء. أشعلت الطباخ ووضعت الدورق عليه، ثم وضعت شيئا من أوراق الشاي في دورق آخر أصغر من الأول. ظلت واقفة لدقائق وهي تنظر إلى الماء وهو يغلي في الدورق. أخذت الدورق وسكبت الماء في الدورق الآخر ثم أخذت دورق الشاي ووضعته على عين الطباخ الملتهبة. قللت من درجة توهجه وبقيت تنظر إلى أوراق الشاي وهي تنقع في الماء وتخرج منها مادة بيضاء ثم يتصاعد الشاي بفعل غليان الماء. رفعت الدورق إلى الأعلى حينما بدأ الشاي يغلي في الدورق وكاد ينسكب منه. وضعته ثانية فغلى مرة أخرى لكنها لم تستطع تجنب غليان الشاي وتصاعده فوق فوهة الدورق وسيلانه على جوانبه.

كانت حواء المؤمن أشبه بطفل يتسلى. أعجبها غليان الماء وارتفاع أوراق الشاي إلى حافة الدورق وتمكنها من رفع الدورق عن عين اللهب لتمنع خروجه من الدورق. كانت تلعب مع الماء المغلي، مع أوراق الشاي المنقوعة بالماء المغلي، مع اللهب الذي يغلي الماء ويدفع بالشاي للإندفاع خارج الدورق. ظلت على هذه الحال لفترة قليلة. لكن رائحة الشاي العبقة دفعتها لإنهاء لعبتها. سكبت الشاي لنفسها في كوب كبير. حملت الكوب متجهة إلى غرفة الاستقبال. وما أن دخلت إليها حتى أضاءت الغرفة وجلست على الكرسي حول الطاولة، والذي كان مخصصا لزوجها حينما يجلس للكتابة.

كانت تشعر بهدوء غريب. وكانت واثقة من أن زوجها لا يأتي. بل كانت تشعر بالأمان وعدم الخوف حتى لو أتى. إنها تعرف أنه إنسان طيب ولا يؤذي أحدا، وهو لن يؤذيها لأن في داخله مساحات شاسعة من الرحمة. لقد تأكدت من ذلك حينما قرأت روايته (متاهة آدم – أو المرأة المجهولة). لقد كان يصور الآلام البشرية، التعذيب والإغتصاب بحنو إنساني، برغم بشاعة الموقف. نعم.. نعم.. لقد سامحها. إنها تعرف

ذلـك. لقـد كانـت عنـده في غرفته بقسـم العناية المركزة فقد مسـد شـعرها حينما بكت على كفه.

فجأة أحست وكأن هناك من صفعها بقوة. جحظت عيناها وتوتر وجهها قلقاً. لقد انتبهت إلى أنه لا يوجد قسم للعناية المركزة في المستشفى. لقد تأكدت من ذلك حينما خرجت فكيف كانت عنده. هل هي تحلم. إرتبكت. وضعت كوب الشاي الذي كانت قد ارتشفت منه رشفات عدة على الطاولة. نهضت من مكانها. لم تكن تعرف ماذا تفعل. فجأة وكأنها قفزت إلى مكان آخر يشبه مكانها الذي هي فيه. أحست وكأنها ليست هي. ثمة خدر في كيانها. وكلمح البرق تذكرت وجود آدم اللبناني. روادتها مشاعر متضاربة. خليط من مشاعر الحقد والرغبة والخوف واللامبالاة.

هي لا تريد أن تكون لديها أية علاقة به، لكنها في الوقت نفسه لا تستطيع الفكاك منـه. تريـد أن ترجـع لحياتهـا مـع زوجها الدكتور آدم التائه لكن في الوقت نفسـه تدرك أن حياتها معه قد انتهت وبشكل مأساوي. تشعر بالحب تجاه زوجها السابق، حب لم تعرفه من قبل، وفي الوقت نفسه، تحس بالذنب تجاهه، وتريد أن تهرب من ذنبها ومن نفسها وتنسى أية علاقة به.

لا تدري كيف اندفعت إلى غرفة النوم. إنها تبحث عن شيء ما. ألقت بنفسها على السـرير، اسـتيقظت في أعماقها رغبة أن ترى الجني الأزرق الذي قابلته سـابقا في هذه الغرفة. ظلت مستلقية على السرير منتظرة أن يخرج الجني الأزرق. أحست أنها تحتاجه في هذه اللحظة. لكن الغرفة فارغة ولا أثر للجني. ظلت على هذه الحال لنصف ساعة وهي تنتظر، وحينما تسرب اليأس إلى أعماقها نهضت ببطء واتجهت إلى حقيبتها التي كانت قد وضعت فيها ملابسها قبل أن تقدم على الانتحار. فتحت الحقيبة وفتشت بين قطع الثياب. أخرجت نسخة القرآن الكريم التي حصلت عليها من المرأة المحجبة في الأردن. نهضت من مكانها وجاءت لتجلس على السـرير. قبّلت القرآن الكريم ورفعته إلـى جبينهـا وعينيهـا. وبهـدوء فتحت الكتاب وقرأت: (إنَـا أنزلنا عليك الكتابَ للناس بالحقِ فمن اهتدى فلنفسهِ ومن ضل فإنما يضلُ عليها وما أنتَ عليهم بوكيل (41) اللهَ يتوفـى الأنفسَ حيـن موتِهـا والتي لم تمت في منامها فيمسـكُ التي قضى عليها الموتَ ويُرسلُ الأخرى إلى أجلِ مسمّى إنَّ في ذلك آيات لقوم يتفكرون (42)). لم تقرأ أكثر مـن هذيـن الآيتيـن، وكأنّما كانت تسـتخير بالقرآن. لم تفهـم معنى الآية الثانية بالكامل. أغلقت القرآن الكريم وقبلته بخشوع ثم وضعته تحت الوسادة. ظلت لفترة طويلة جالسة في موضعها على السرير. لم تكن تفكر في شيء محدد، بل ولم تكن تشعر بشيء محدد،

لا بالجوع ولا بالعطش، لا بالحزن ولا بالفرح، لا بالقلق ولا بالسكينة، لا بالنعاس ولا باليقظة. كانت وكأنها غير موجودة. ثمة فراغ وضجرهائل يكتنفان جسدها وروحها.

تمـددت علـى السـرير وهـي فـي موضعهـا على حافتـه. كانت مسـتلقية على جنبها الأيمـن. نظـرت إلـى الجـدار المقابل لها والمغطى بورق زهري اللون مزين برسـومات ورود بيـض. فكـرت أنهـا لـم تشـاهد فـي الواقـع أيـة وردة بيضاء، فقط فـي الأفلام، إذ شـاهدت ذلك في فيلم ياباني. إنتبهت إلى خيط من النمل أسـفل الحائط يسـير بانتظام نحـو المطبـخ. وكانـت هنـاك خيـط من النمـل قادم من المطبخ أيضـا. حدقت في نملة كانت تحمل حبة صغيرة من السـكر. كانت الحبة تسـقط منها فتعود لتحملها. اقتربتْ نملة من النملة صاحبة السـكر ثم ابتعدت عنها. ظلت تتابع حركة النمل المنتظمة إلى أن اختفت مسيرة النمل من الجهتين. فجأة انتبهت لصوت جرس الباب. لم تكن لديها أية رغبة في أن تتحرك من مكانها، إلا أن اسـتمرار رنين الجرس المزعج دفعها للقيام بشكل آلي، دونما أية أفكار أو مشاعر حول الطارق، متوجهة لفتح الباب.

حين فتحت الباب كان وجه آدم اللبناني هو الذي واجهها. ظلت للحظات تنظر إليه دون أن تعرفه مباشـرة. اسـتغرب من نظراتها الفارغة وجمود ملامحها. ظل ينظر إليها وكأنه يتوسـل أية إشـارة ترحيب على وجهها، إلا أن وجهها ظل فارغا من أية مشـاعر. بعد لحظات انتبهتْ إليه وعرفته. أحسـت برجفة مسـت أعماقها وتسـربت نظرة حزينة لكنهـا لينـة ومتعاطفـة إلـى وجهها الجميل. اسـتغل آدم اللبناني هـذه النظرة ففتح الباب ودخل عليها غالقا الباب بظهره، وهو يضمها إلى صدره قائلا:

– ألف الحمد لله على سلامتك.. لم أعرف أنك هنا إلا من جارتنا التي في الطابق الأول.

لـم تمانـع حـواء المؤمـن بضمهـا إلى صدره فكأنه يضم جسـداً آخـر. إنتبه هو إلى أنهـا لـم تمـد ذراعيهـا لاحتضانـه. دفعها إلى الوراء قليلاً ماسـكاً بها من كتفيها ومحدقا في وجهها، وهو يسأل:

– ما بك؟ ألم تشتاقي لي؟ هل أنت زعلانة مني لأني لم آت إليك صباحا لأخرجك من المستشفى؟ والله العظيم كان لدي ضيف ولم أعرف كيف أتخلص منه، فقد بات عندي ليلة أمس ولم يخرج إلا في حدود منتصف النهار لذا لم أتمكن من المجيء إليك.

لم تقل أي شـيء، ولم تبدي أية مشـاعر أو ردود أفعال على ما قال، وإنما نظرت إليه طويلا وكأنها تقرأ شـيئا غامضا في وجهه، ثم أفلتت نفسـها منه وذهبت إلى غرفة

الاستقبال، فتبعها.

جلست على كرسي زوجها حول طاولة الكتابة، بينما ظل هو واقفا في الغرفة قرب الباب. استغرب هو من سكوتها برغم عدم ممانعتها أو إبداء أية إشارة صد له، لكنها أيضا لم تبد ما يشي بتقبلها له، ما الذي جرى؟ عليه ألاّ يخسرها بأي ثمن. نظر إليها وفي عينيه نظرات شوق ولهفة كاذبة وقال برقة:

– لقد اشتقت إليك كثيرا. أنا سعيد جدا لأنك عدت. لكن لماذا أنت هنا؟

نظرت إليه وقالت بشكل ميكانيكي:

– أنا هنا في بيتي.

استغل آدم اللبناني أول اتصال لفظي معها فقال بلهفة:

– لكن بيتي هو بيتك أيضا!

– هذا هو بيتي.

لم يستطع أن يرد على جملتها كي لا تسير الأمور في غير اتجاه، فقال لها مذكر إياها بكل ما جرى:

– لكن الدكتور ما زال هنا؟ ألا تخافين أن يرجع فجأة؟

نظرت إليه للحظات ثم قالت:

– إنه في المستشفى. لقد كنت عنده وأنت كذبتني حينما قلت ذلك. لكني سمعت جارتنا أمس وهي تقول لك بأن زوجي تعرض لجلطة قلبية وتم نقله للمستشفى في قسم العناية المركزة.. أنا سمعتكما حينما كنتما تتحدثان عند الباب.

– أكنت تسمعين كل شيء ولم تفتحي؟

– لا تغير الموضوع.. أنت تعرف أن زوجي في المستشفى، لذا جئت إلي طارقا الباب، ولو كنت غير متأكد من ذلك لما تجرأت أن تقترب من الباب.

إرتبك آدم اللبناني. أحس أن حواء التي أمامه هي غير تلك التي عرفها. ما الذي جرى لها ياتُرى؟ عليه أن لا يفقد الأمل، عليه أن يوقظ فيها الرغبة. فقال بارتباك:

– لم أصدق كلامها بالكامل، لكنها أكدت بأن ابنها رأى ذلك.

ظلت تنظر إليه وفي نظرتها ثمة فراغ هائل. إقترب منها. صار محاذيا لها. لم تتحرك ولم تبد أي رد فعل. أخذ رأسها بين كفيه ورفع وجهها إلى الأعلى. كانت مستسلمة دونما رغبة. نظر إلى وجهها الجميل. انحنى على وجهها مقبلا شفتيها. لم تعترض، فأخذ شفتيها بين شفتيه بقبلة مليئة بالشبق، بينما يده تداعب نهديها. لم تكن تستجيب له لكنها لم تعترض أو تصده. فجأة، انسحب عنها وأخذها من كفها، ساحبا

إياها خلفه. كانت هي مستسلمة دونما رغبة. خرجا من غرفة الإستقبال وفتح الباب خارجا بها إلى شقته. لم تعترض. أغلق الباب خلفه. دخل شقته الصغيرة. أخذها بين ذراعيه مقبلا وجهها ورقبتها. كانت ساكنة دونما أعتراض. أخذها مباشرة إلى السرير ملقيا بنصفها الأعلى عليه، منهمكا بنصفها الأسفل.

كانت حواء المؤمن في حالة استسلام غريب. كانت تشعر أنه ينتهك جسدها بشبق. كانت تحس وكأن التي يتم التوغل في جسدها ليست هي وإنما امرأة أخرى. كانت ترى نفسها وجسدها وكأنهما غريبان عنها. فجأة أحست بشيء دافئ يخترقها. شيء يملأ رحمها. ورأت وجه آدم اللبناني محتقناً ومهووساً وهو يلهث بشبق وبعنف عليها. كان وجهه قريبا منها. وكانت رائحة الثوم تنبعث مع أنفاسه. أحست بتهيجها أيضا، لكن رائحة الثوم والعرق المنبعث منه دفعت بها إلى أن تدفعه عنها، لكنه كان أقوى منها، فمع أية محاولة منها لدفعه عنها كان يهجم بعنف بين فخذيها، حتى شل حركتها. فجأة أحست برعشة تجتاح جسدها، فضمته إليها دون إرادة منها. كانت ترتعش من اللذة. وفي لحظة همد كل شيء.

أخذ آدم اللبناني ينسحب عنها. كانت هي في حالة سيئة. أحست بالذنب لإحساسها باللذة أيضا. كانت تحس بدوار وبرغبة في التقيؤ. قامت مسرعة إلى الحمام. أغلقت الباب خلفها وأخذت تتقيأ، ليس بسبب أنفاس آدم المشبعة بالثوم ورائحة العرق وأنما تتقيأ من نفسها، من ضعفها وهشاشتها، من شهوتها التي لا تخضع لإرادتها وإنما تدفعها لتقبل أشياء لا تريدها لنفسها.

كان آدم اللبناني ما زال مستلقيا على السرير وهو يحس بأنه انتصر عليها وأنها صارت ملكه، بل هي تحبه على الرغم من ممانعتها فهي لا تستطيع الإستغناء عنه.

آدم البغدادي: يبدو أنا الذي قد دخل المتاهة وليست هذه الشخصيات؟ أو أنها سحبتني معها إلى متاهتها. لم أعد متيقناً من كل ما تعلمته وقرأته وأعتقدته خلال عقود من عمري. ما الذي يجري لي أنا أتغير، أم هذا شعور زائف؟

علق آدم المحروم عندما قرأ تعليق صديقه الكاتب القتيل قائلا لنفسه: أنا أيضا بدأت أشعر بأني داخل في المتاهة. لقد أدخلتني إياها بموتك يا صديقي وها أنت تدخلني إياها بروايتك.

في متاهة الشك

كانت المدينة الصغيرة ملتفة على نفسها، لا تعبر عن وجودها إلا من خلال بعض أعمدة المصابيح المضيئة التي تبعد عشرات الأمتار في ما بينها، والتي تضيء الشارع الرئيسي في المدينة النائمة في مثل هذه الساعة من الليل.

كانت المستشفى المركزي تقع على يمين شارع فرعي لمنطقة غير مأهولة بالسكان والبنايات. شارع عريض تحيطه الأشجار والمزارع الصغيرة التي تتوسطها بعض الأشجار. تحيط الأشجار بالمستشفى من خلفها وجانبها الأيسر أما الجانب الأيمن فتمتد أمامه حديقة المستشفى الواسعة التي يكاد سورها يقترب من الشارع العام.

في الليل تبدو المستشفى كقلعة قديمة لولا المصابيح الكبيرة تضيء مدخلها، واللوحة الإعلانية المضيئة التي تحمل اسم المستشفى عند مدخل البناية، ولولا بعض الضوء الشاحب الذي يتسرب من بعض النوافذ.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وكانت المستشفى تبدو وكأنها لغز مفضوح. أروقتها فارغة، نزلاؤها في غرفهم نائمون، الموظف الخفير في الاستعلامات قد ترك المكتب وذهب إلى غرفته المجاورة لمكتب الاستعلامات، الطبيب الخفر في غرفته في المبنى الآخر الذي يقع ضمن مساحة المستشفى ولا يبعد لأكثر من عشرين مترا عن المبنى الرئيسي للمستشفى، المساعدون في غرفهم التي تقع في نفس المبنى المخصص للأطباء، المساعدات يذهبن إلى مبنى يقع خلف مبنى الأطباء.

أروقة المستشفى مضيئة، خالية من أي أثر لإنسان. أروقة ساكنة سكونا مهيبا يبعث الرهبة في النفس. كل شيء على ما يرام فليس هناك أية حالات طارئة، ولا أثر لحصول عملية ولادة مفاجئة. كل شيء هادىء. الكل في غرفهم التي أوصدت أبوابها.

في غرفته كان الدكتور آدم التائه متمددا على سريره، لكنه لم ينم لحد هذه الساعة من الليل. لم يأخذ الأقراص التي جاءت بها الممرضة مساء وقالت له عليه أن يبتلع أثنتين منها قبل العاشرة. لقد كان يريد السهر ليقابل الراهبتين، ويتأكد من وجود زوجته حواء المؤمن في المستشفى، بالرغم من تأكيدات الممرضة بأنه لا توجد أية أجنبية في هذه المستشفى، بل ولا توجد راهبات.

مد يده إلى ساعته اليدوية التي كانت على الطاولة الصغيرة قرب رأسه ونظر إليها فعرف أن الوقت قد تجاوز الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. تأمل غرفته فرأى أنها

فارغة. أرهف سمعه لالتقاط أي صوت، لكنه لم يسمع شيئا فقد كان السكون يطن في أذنيه. أراد أن يستكشف المستشفى. نهض بهدوء شديد عن السرير. مد قدميه ليقف خارج السرير. وفي تلك اللحظة بالذات فُتح باب الغرفة ودخلت الراهبتان إلى الغرفة، فارتعب وعاد إلى سريره مستلقيا عليه، ساحبا البطانية إلى منتصف جسده.

لم يرتعب منهما بقدر ما أرعبته مسألة حضورهما في اللحظة التي أراد هو أن يستكشف أمرهما وكأنهما كانتا تعرفان بما يدور في رأسه.

إبتسمتا له برقة تبعث السلام والهدوء والطمأنينة إلى النفس. وقفت الراهبة الشابة قرب رأسه لكن على مسافة بسيطة، أما الراهبة المسنة فقد وقفت بالقرب من نهاية السرير من طرف القدمين. إبتسمت الراهبة الشابة له وقالت:

- كنت تريد أن تقابلنا، صح؟

إرتبك وقال بشيء من التردد وكأنه يحاول أن يكسب الوقت ليدرك كل ما يجري معه:

- ليس بالضبط. لكني..

قاطعته الراهبة المسنة وهي تقول مبتسمة بطيبة:

- لكنك أردت أن تتأكد من وجودنا حقا، أليس كذلك؟

لم يجبها لكنه أومأ برأسه، فقالت الراهبة المسنة مبتسمة:

- والآن ماذا تقول؟ هل أنت متأكد من وجودنا؟

فقال بارتباك لكن بدون خوف:

- لكن العاملين في المستشفى أكدوا لي صباحا بأنه لا توجد راهبات في هذه المستشفى، وأن بعض المرضى يرونكن، لكن لا وجود لكن أصلا، ولا في الواقع. ربما هي أوهام المرضى..

توجهت إليه الراهبة الشابة سائلة:

- هل تسمح لنا بالجلوس قليلا، إذ علينا زيارة بعض المرضى الذين يحتاجون وجودنا إلى جانبهم. ونعتقد أنك سهرت الليلة خصيصا لترانا، أليس كذلك؟

وبينما جلست الراهبة الشابة على الكرسي الذي كان على مقربة من جهة الرأس، ظلت الراهبة المسنة واقفة، لكنها اقتربت أكثر، وجاء جوابه:

- الحقيقة أقول لكما..نعم.. أردت أن أتأكد من وجودكما.

- وهل تأكدت الآن؟

- لا أدري

– لا تدري؟
– نعم لا أدري.
– كيـف تريـد أن تتأكـد مـن وجودنا، أتريد أن تتحسـس يدينـا لتتأكد من ذلك؟ ألا تتحدث الآن معنا؟ ألا ترانا؟ أنحن وهم أم حقيقة؟
– لا أدري؟
ابتسمت الراهبة المسنة وقالت له بهدوء:
– كيف لا تدري يا بني؟ مع من تتحدث أنت الآن؟
– معكن
– إذا كنا غير موجودتين، ترى مع مَنْ تتحدث أنت يا تُرى؟
– أنا اتحدث معكما، لكني غير متأكد من أن هذا هو حقيقة، ربما هو وهم، ربما أنا أحلم
– هذا يعني أنك لست أنت، وأنك نائم، وأنك تحلم بأنك تحدثنا
– ربما..
نظرت الراهبتان لبعضهما نظرة عميقة ذات مغزى لثوانٍ، ثم ابتسمتا، وقالت الراهبة الشابة:
– هل أنت مؤمن؟
بهت الدكتور آدم التائه من هذا السؤال المفاجئ، تردد لحظات وسأل:
– ماذا تقصدين؟
– سؤالي واضح، هل أنت مؤمن؟
– أعتقد ذلك
– تعتقد ذلك، هل أنت غير متأكد من أنك مؤمن أم لا؟
– أقصد، أعتقد أنني مؤمن.
– هل أنت غير متأكد من اعتقادك؟
– أعتقد أنني متأكد..
ابتسمت الراهبتان من إجابته، فاستمرت الراهبة الشابة في السؤال:
– هل تؤمن بعالم الأرواح؟
تردد في الإجابة لكنه تمتم بالرغم من ذلك قائلا:
– لآ أدري.. أعتقد ذلك.
نظرتا لبعضهما وعلى وجهيهما ابتسامة طيبة، فبادرت المرأة المسنة قائلة:

- أنت تفكر بأننا ربما وهم أو أننا أشباح، أليس كذلك؟

تردد بالإجابة، إلا أن الراهبة المسنة استمرت قائلة:

- أن ترانا وتتحدث معنا وجها لوجه وأنت بكامل قواك الروحية والنفسية والعقلية يعني أننا موجودتان. وكل ما تحسه الروح هو موجود حتى وأن لم تره العين، على العكس مما يرويه بعضهم بأن ما لا تراه العين أو تحسه الحواس فهو غير موجود.

إنبرت الراهبة الشابة لتستكمل حديث الراهبة المسنة:

- أنت أستاذ جامعي وكاتب روايات، أليس كذلك؟

بهت من معرفتهم بوضعه الأكاديمي والإبداعي، فهو هنا ليس أكثر من لاجئ سياسي.، لذا تمتم بذهول:

- نعم.
- هل تؤمن بأن الوجود مؤلف من ذرات، وأن الذرات تتألف من الكترونات تدور حول النواة؟
- نعم.
- هل تؤمن بذلك؟
- نعم.. هذه حقيقة علمية.
- هل رأيت ألكتروناً يوما ما؟
- لا
- وكيف تؤمن بوجوده وبوجود النواة؟
- لأن العلماء يقولون ذلك.
- وكم من العلماء رأى الألكترونات والنواة؟
- عدد قليل جدا منهم..
- كيف تؤمن بشيء لم تره أنت بحواسك وبعينك؟
- هل تريدين القول بأنه لا توجد ذرات ولا ألكترونات ونواة؟
- لا.. لكنني أود القول بأنك لم تر ذلك الشيء بعينيك وبحواسك ومن خلال تجربتك الشخصية بينما تؤمن به، لأن العين البشرية لا يمكن لها رؤية الألكترونات ولا ذلك العالم المجهري، لكن الإنسان برغم ذلك يؤمن به. هل تؤمن بعالم الأرواح؟
- لا أدري؟

– كيف لا تدري؟ إما أن تؤمن وإما لا تؤمن

– لا أدري

– إذن عليك أن تعرف نفسك أولا.

– إنني أسعى لذلك.

– أنت قلق يا بني.. قلق جداً..

– أنا مليء بالشك.

– هل تشك؟

– نعم.

– بمن تشك؟ إياك أن تقول بأنك تشك بوجود الله!

– لا أدري.. ربما.. إنني أجد صعوبة في التوفيق بين صفات العدل والخير والرحمة التي هي من صفات الله، وبين الألم والتعاسة والشر الذي يملأ العالم ويجعل الوجود البشري جحيما، فإذا كان عادلاً فلماذا هذا الظلم والمآسي واللاعدالة والأوبئة والأمراض تملأ الأرض. هذه الأرض التي يملكها ويسيطر عليها الأشرار والمجرمون؟

– ربما يسيطرون عليها ولكن لا يملكونها يا بني..

– لا يهم.. يسيطرون عليها أو يملكونها.. المهم من يسيطر عليها يملكها ولو إلى حين.. وليس هذا هو مبعث شكي فقط..

– ماذا أيضا..؟

– إذا كان كل شيء مقدّراً على الإنسان، ومكتوباً في اللوح قبل ولادته كما تؤكد الأديان، فهذا يعني أن المجرم ليس مجرماً وأنما الله أراد له وكتب عليه أن يكون مجرما.

– إنك تذهب بعيدا في شكك يا بني.. ولست أول ولا آخر من أثار ويثير مثل هذه الأسئلة.. قبلك أناس عذبهم هذا الشك، وتحملوا ألوان العذاب بسببه..

– أحيانا أفكر بالأديان وما تصف به الجنة. ما معنى وجود أنهار من الحليب والعسل والخمر في الجنة كما تقول الأديان السماوية؟

– ماذا لديك بعد يا بني؟

– أحيانا أسأل نفسي، هل في الجنة ناطحات سحاب؟ سيارات؟ طائرات؟ قطارات؟ دور سينما؟ كمبيوترات؟ مقاهٍ وكازينوهات؟ أنا لا أستطيع العيش طول عمري في حديقة! أستطيع أن أتجول في الحديقة أو الغابة لساعة أو

ساعتين، وربما يذهب المرء لمنتجع بين الأشجار لمدة أيام لكن ليس لسنوات بـل وطـول العمـر وإلـى الأبـد. الجنة لأبناء الريف وعشـاق الطبيعة، وأنا لسـتُ مهوسـاً بالطبيعـة، أنـا أحـب المـدن الكبرى، الجنة سـتكون جحيما بالنسـبة لي. إنها دار للعجزة والعاطلين عن العمل.. لا أستطيع أن أتصور نفسي عاطلا عن العمل.. آكل وأشرب وأنكح فقط..

– وماذا بعد؟

– هل يوجد جحيم حقا؟

– إنه نقيض الجنة يا بني.

– أعتقد أن الله عادل ورحمن ورحيم وغفور ورؤوف، ولا أعتقد أنه يعاقب البشر بالجحيم الذي وصفته الأديان.. ثم إذا كان قد كتب على الإنسان كل أفعاله في اللوح المسطور فلماذا يعذب المخطئين؟ أليس هو من قدر لهم ذلك؟ هذا ليس عدلا.. ولا أعتقد أن الله يظلم البشر الضعفاء.

نظرت الراهبة الشابة إليه بحنان وقالت له:

– ياه.. كم من الآلام والأفكار الثقيلة تنوء بها روحك يا بني..!

– أنـا لسـتُ الوحيـد الـذي يفكـر هكـذا، قبلـي كان الكثير من الكتاب والفلاسـفة ورجالات العلم والشريعة قد طرحوا مثل هذه الأسئلة والشكوك..

– نعرف ذلك.. أتدري أن هذه الشكوك تطهر الروح أحيانا..

– أحياناً..

– نعـم.. أحيانـاً.. لأن صاحبهـا يجـد نفسـه فـي وادي الظلمـات، وهـذه الأفـكار والشكوك المعذبة هي مثل المصباح الذي ينير الدرب في ذلك الوادي المهول.. الشك كثيرا ما يقود إلى الإيمان.

– هذا إذا ما اطمأن الإنسان وكشف السر..!

فبادرت الراهبة المسنة بالقول:

– لا أحد يمكنه كشف السر يا بني.

– كيف إذن يمكن للشك أن يقود إلى الإيمان..؟

– الشك عذاب.. وهذا العذاب يطهر الروح.. يزيل عنها ما يتداخل معها من خبث وأوشـال ويكشـف عن معدنها الأصيل.. الله يحب جميع مخلوقاته.. الوديعة، المسالمة، المؤمنة به إيماناً فطريا، وكذلك يحب مخلوقاته الجامحة، المتمردة، المشاكسة له بشكها فيه، إنه الأب لمخلوقاته وهو ينظر بعين الرأفة والحنو حتى

لأبنائه الضالين والمشاكسين..المحبة والرحمة والحنان والمغفرة والعفو هي من تجليات الربوبية.

– لا أدري.. يصعب علي الإيمان بوجود الجنة والجحيم.. أين هما يا تُرى؟ أين سيكونان؟ هل هما في كوننا الموجود هذا؟ الأديان تقول إن العالم سينتهي، ومعظم العلماء يقولون إن الكون سينتهي، بعض العلماء يتحدثون عن نهاية الكون وإنطفاء الشموس وانهيار المجرات في ثقب أسود والعودة إلى العدم، إلى اللاشيء، والأديان تتحدث عن الشيء نفسه لكن بلغة أخرى.. وبعدها يفترض أن يبدأ يوم الحساب، أليس كذلك؟

نظرت الراهبتان بصمت لبعضهما ولم تجيبا، فاستمر هو بالحديث:

– هذا يعني أنه لو كان هناك حساب، وجزاء وعقاب، فهذا يعني ذهاب الأخيار إلى الجنة والخطاة إلى الجحيم. وهذا ما لا يتصوره العقل، فإذا عدنا إلى العدم فكيف يمكننا أن ننهض من الأجداث للحساب؟ وإذا افترضنا أن هذا سيكون، فهذا يعني يجب وجود كون آخر فيه الجنة والجحيم. كون خارج كوننا هذا، وبما أن كوننا يذهب إلى الزوال وإلى العدم فمن أين سيأتون بنا للحساب؟ نحن وكوننا هذا، وفق تقارير العلماء، سنذهب إلى العدم. هذا ربما سيقود لمسألة تخطئة النظريات العلمية بموت الكون وإندلاقه في ثقب أسود والذوبان في العدم. بل وربما تخطئة التصورات الدينية حول نهاية العالم والكون؟ فلربما الأمر له علاقة بنهاية الحياة على الأرض فقط، لأن كوكبا مثل الزهرة أو المريخ أو أي كوكب من كواكب منظومتنا الشمسية، وفق المعلومات العلمية عن جغرافيته ومناخه، هو الجحيم بعينه، لكن ليس هناك مكان يشبه الجنة بين الكواكب التي نعرفها.

نظرت الراهبة المسنة له بحنان تجلى في نبرات صوتها أيضا وقالت:

– لماذا تعذب نفسك هكذا يا بني؟

– أريد أن أرتاح.. شكي يعذبني.. روحي وعقلي ينوءان تحت ثقله..

– للأديان أساطيرها لكن للعلم أيضا أساطيره.. لا تعذب نفسك هكذا..

– أنا أريد أن أؤمن وأرتاح.. أؤمن بأي شيء يخلصني من الشك.

– وهل تعتقد أن هؤلاء الذين يؤمنون، الذين تراهم حولك، كلهم وصلوا إلى الإيمان بعد أن طرحوا مثل هذه الأسئلة يا بني؟ لا.. الكثير منهم لا يمتلك شجاعة طرح السؤال، بل ولا يمتلك شجاعة الشك. الكثير منهم يخاف طرح

الأسئلة بل يتهربون ممن يطرح الأسئلة، وبعضهم يحاول معاقبة من يطرح الأسئلة ويشكك في الأشياء. لذلك أن الشك يسمو بالعقل والروح ويطهرها.. والذين يطرحون الأسئلة في الله وعن الله هم أقرب الناس إليه.. لا تحزن يابني.. ستجد الدرب وحدك..

– متى؟ وأين؟ وكيف؟

نظرتا لبعضهما وابتسمتا وكأنهما اتفقتا على شيء. قامت الراهبة الشابة واستدارتا خارجتين من الغرفة. كان هو مندهشا، فهو لم يكمل كل ما كان يريد أن يقوله لهما، كما أنهما لم يجيبا عن أسئلة كان بوده أن يطرحها عليهما، حول وجودهما، ومن هما أصلا؟

حينما أغلقتا الباب، نهض هو مسرعا خلفهما ليطلب منهما العودة. فتح الباب ونظر في جانبي الممر فلم يجد أثرا لأي شيء. إنذهل من ذلك، لم يمض على خروجهما سوى ثوان قليلة، فقد قام خلفهما مباشرة، وهذا يعني أنهما لا تبعدان عن باب غرفته سوى خطوات، لكنهما اختفيتا. ظل واقفا للحظات قرب الباب. مشى باتجاه أحد طرفي الممر والذي يتقاطع مع الممر الشمالي. نظر إلى جانبي الممر المتقاطع. كان خاليا. رجع سريعا إلى التقاطع الآخر في جنوب القاطع الذي فيه غرفته ونظر إلى الممر الذي يحده جنوبا فلم يجد أي أثر لهما أيضا. عاد لغرفته. جلس على سريره. ظل على جلسته تلك غارقاً في محاولة استعادة وتفسير كل ما جرى له مع الراهبتين.

سأل آدم المحروم نفسه بعد أن أنتهى من قراءة الفصل: غريب! لماذا لم يعلق على هذا الفصل من الرواية؟بالرغم من أنه مليء بالروحانيات. أسئلته جارحة، ربما لم يشأ أن يواجه صديقي نفسه، وأن يجيب على أسئلة الجحيم؟ هل هو موجود حقا؟ وأين تمضي الأرواح؟ وتلك الأسئلة المقلقة. ربما نفسه لم يصل إلى إجابة لها فوضعها على لسان بطله الدكتور آدم التائه؛ ربما.

دروب في المجهول

أفاق الدكتور آدم التائه على طرقات خفيفة على الباب، ولم يكن أمامه سوى أن يجيب لا إراديا:

– ادخل!

دخلت الممرضة وهي تحمل له صينية الطعام وعلى وجهها إبتسامة مشرقة. شعر

بدبيب الحياة المنبعث من حضور الممرضة وحركتها العفوية ولطفها في التعامل معه. وضعت الصينية على الطاولة المجاورة وانسحبت، وقبل أن تغلق الباب التفتت نحوه وقالت مع ابتسامة مشرقة:

– شهية طيبة. لكن لا تنسَ أن تعد نفسك للخروج قبل التاسعة.

لم يجبها وإنما هز رأسه بالموافقة على ما تقول. بقيَ في سريره لدقائق قليلة. فكر أنه لم يستلق على سريره. لا يتذكر كيف تمدد في السرير. نهض من سريره واتجه إلى غرفة الحمام.

أفاقت حواء المؤمن على صوت فيروز ينسل من شريط الكاسيت. رفعت رأسها قليلا فوجدت آدم اللبناني يسكب القهوة في كوبين صغيرين. انتبه إلى أنها قد أستيقظت، فابتسم لها قائلا:

– حماتك بتحبك.. صحيتِ وأنا أصب القهوة.. هيا انهضي وأشربي القهوة معي.. هل تحبين أن تفطري الآن أو في ما بعد؟

لم تجبه. نظرت إلى الغرفة وكأنها تستعرض المكان وسألت:

– كيف جئت إلى هنا؟ هل نمت أنا عندك؟

إبتسم لها وكأنه يرد على مزحة:

– طبعا أنت نمت هنا، أين يمكن أن تكوني؟

نهضت على عجل، وبدون أن تقول له أي شيء ركضت إلى غرفة الحمام وأغلقت الباب خلفها. سمعها وهي تتقيأ. تذكر أنها حامل. ومع استمرار تقيؤها في الحمام أحس هو بالغثيان وبرغبة في التقيؤ أيضا.

* * *

بينما كان الدكتور عند مكتب الإستعلامات يوقع على استمارة الكشوفات والخدمات التي قدمت له في المستشفى، لمح بشكل مفاجئ الموظفة الألمانية في مكتب السياحة إيفا بيرغمان مع امرأة كبيرة في السن لكنها بالرغم من ذلك تبدو أنيقة وعلى وجهها بقايا جمال أصيل. اتجهت هي وأمها إلى مكتب الاستعلامات وتحدثت مع الموظف سائلة عن الدكتور آدم آدمز المسؤول عن علاج أمها. وبينما كان موظف الإستعلامات يفتش في جداوله باحثا عن دوام الطبيب المعالج، التفتت هي صوب الواقف إلى جنبها

تقريبا، وعرفته مباشر، فارتسمت ابتسامة حقيقية ومشرقة على وجهها الساحر، وقالت له بالإنكليزية وهي تصافحه، وكأنها تعرفه منذ فترة بعيدة:

– أهلا.. كيف حالك.. أين أنت؟ لماذا اختفيت؟ كنت أنتظرك

فأجابها مرتبكا وهو لا يصدق هذه النعمة التي هبطت عليه في مثل هذا الصباح بعد ليلة خالدة:

– أهلا. كيف حالك؟ شكرا للسؤال.. أنا كنت هنا منذ لحظة خروجي من مكتبكم..

– ماذا تقول؟ كيف ذلك؟

– تعرضت لذبحة صدرية ونُقلت إلى المستشفى من حينها، وها أنا أخرج الآن.

– يا للمصادفة الرائعة.. لدي أخبار جيدة ستسرك.

– حقا؟

– إتصلت بالسفارة الإماراتية، وأخبروني بإمكانية حصولك على الفيزة لكن وفق شروط.

– شروط؟

– نعم.. إلى أين انت ذاهب الآن؟

– لا أدري.. لم أزل في المستشفى..

– حسنا انتظرني لأوصل أمي إلى غرفة العلاج، بعدها نذهب إلى المكتب ونتصل بالسفارة مرة أخرى.

– جيد.. سأنتظر في الشارع مقابل بوابة المستشفى.

– جيد جدا.

في هذه الأثناء ارتسمت علامات الإستياء على وجه الأم، ربما لإهمال ابنتها لها وصرف كل انتباهها إلى هذا الأجنبي، أو وربما لأنها لم تخبرها شيئا عن معرفتها برجل أجنبي، وربما خجلا من حديث ابنتها معه أمام موظف الإستعلامات. وكان موظف الإستعلامات صامتا ينتظر لحظة انتهاء حوارهما كي يخبرها بوجود الطبيب في غرفة العلاج. وفي تلك اللحظة قال موظف الإستعلامات:

– الدكتور آدم آدمز ينتظركم في غرفة العلاج. وقتكم من التاسعة وحتى الحادية عشرة.

– شكرا.

تحركت هي وإلى جنبها والدتها التي أحست بالراحة من انتهاء حديث ابنتها مع الأجنبي، وتوغلتا في داخل الأروقة.

نظـر موظـف الإسـتعلامات باهتمـام إلـى الدكتور آدم التائه، لاسـيما بعد أن سـمعه يتحدث الإنكليزية بطلاقة، إلى جانب الثقة في التعامل مع المرأة الألمانية الفاتنة.

لم يطل إنتظار الدكتور آدم التائه أمام بوابة المستشفى، إذ بعد دقائق لمح الموظفة الألمانية تخرج من الباب الرئيسي للمستشفى متجهة نحوه وعلى وجهها إبتسامة مشرقة وكأنها كانت متلهفة للقائه، أشارت بيدها نحوه وهي تعبر الشارع إلى الجهة الأخرى، وحينما وصلت إليه قالت بمرح:

– أتمنى أنك لم تنزعج من الانتظار؟

– لا أبدا. أنك لم تتأخري كثيرا.

– هذه كانت أمي معي. لديها جلسـات علاج في المستشـفى. مرتين في الأسـبوع. تركتها هناك وسأعود إليها بعد ساعتين. هل نذهب إلى المكتب؟

– لنذهب.

– سيارتي هنا في البارك المجاور.

إتجهـت إلـى البـارك المجاور لهما والمقابل لبوابة المستشـفى. فتحت هي حقيبتها الجلدية الصغيرة التي كانت تتدلى من كتفها وأخرجت مفتاح السـيارة. كانت سـيارتها من طراز ألماني، وحينما صارا داخل السـيارة انتبهت لحالة الارتباك التي فيها الدكتور آدم، فقالت له:

– كيف تشعر الآن؟ هل كانت أزمة خطيرة؟ متى جرى ذلك؟

– الحمد لله قد مرت الأزمة. لقد تعرضت لها مباشرة بعد خروجي من المكتب. كنت راجعا إلى البيت. ولولا تواجد امرأة ألمانية مع ابنتها عند موضع الحدث لكنت قد مت، فتلك المرأة هي التي اتصلت بالطوارئ.

– هل أهلك يعرفون بذلك؟ أقصد، لو سمحت لي بذلك، زوجتك وأطفالك

صمت للحظات. فكر في سـؤالها، هل هو عفوي أو أن أنها تريد أن تعرف حالته الاجتماعية. أجابها بهدوء وكأنه يطمئنها، أو يسعى لنيل تعاطفها:

– لا أهل لي. أنا وحيد، أقصد كنت متزوجا وطلقت.

صمتت للحظات، وسألته وهي تتجنب النظر إليه:

– ولمـاذا تريـد مغـادرة ألمانيـا؟ الناس يدفعون عشـرات الألوف من أجل الوصول إلى هنا، بينما أنت تريد مغادرتها، لاسـيما بعد أن صار وضعك رسـمياً ولديك إقامة دائمة؟

أحس بإرتياح كبير لها، فقد مست أعماقه تلك النبرة الحنونة في صوتها التي تكشف

عن طيبة روحها وإنسانيتها، فقال بهدوء:

– حينما غادرت بلادي، العراق، لم أفكر أبدا أن أجيء إلى ألمانيا، بل لم يكن هناك أي بلد محدد في ذهني، كنت أهرب من الوضع الكابوسي الذي وجدت نفسي فيه. كان جل ما أتمناه أن أجد عملا في أي جامعة عربية، فأنا أستاذ جامعي. لكن الكابوس لاحقني، كنت حينها متزوجا، حتى إلى البلدان العربية المجاورة. ولم يكن أمامي سوى التوجه إلى أوربا، وفي تلك الفترة كان المتاح أن أتوجه إلى ألمانيا.

نظرت إليه وعلى وجهها علامات الانتباه الكامل وكأنها كانت تشرب كلماته، أو أن حديثه يشكّل أشياء في داخلها. لم تعلق على أي شيء بل ظلت صامتة وكأنها تريد أن تحثه على مواصلة الكلام، وحينما نظر إليها واصل حديثه:

– أنا أديب، أكتب روايات إلى جانب تخصصي الأكاديمي.

فجأة انتبهت وقالت بصوت مليء بالتعجب والتقدير:

– واو..كاتب.. كاتب روائي.. يا للروعة.. أنا أقرأ بكثرة.. أقرأ روايات وكتباً نفسية وغرائبية، لكنني لأول مرة أقابل كاتباً روائياً شخصيا.. واو.. وعن أي شيء تكتب؟

– أكتب.. أكتب عن الإنسان.. عن معاناته.. عن معاناة الوجود البشري ككل.. عن متاهة آدم.. متاهة حواء.. عن الحياة والموت.. عن الوهم والحقيقة..

– لا..لا.. هذا الأمر يحتاج إلى جلسة خاصة.. وليس حديثاً عابراً في الطريق.. ما رأيك أن أعزمك على فنجان قهوة قبل أن نذهب إلى المكتب، فهناك ضجيج زملائي في العمل، فلربما لا نستطيع الحديث، لاسيما وأنني قد اخذت إجازة لساعتين لكي أذهب بأمي إلى المستشفى.. ما رأيك؟

– لا مانع، لكن ماذا عن الاتصال بسفارة دولة الإمارات؟

– بعد ذلك نستطيع أن نقوم بذلك، الآن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف..

– أو كي..

وفجأة استدارت بسيارتها إلى منعطف شارع جانبي، أمسك هو بمقعده، نظرت إليه وابتسمت قائلة:

– هل تخاف السرعة أو المنعطفات؟ لا ضير نحن بالقرب من المكان المقصود. إنه مقهى لطيف وهادئ، لاسيما في مثل هذا الوقت.

وبعد فترة وجيزة جدا وقفت السيارة أمام مقهى بدا من الطراز القديم. نزلا من السيارة واتجها إلى المدخل. قام هو بحركة رجولية إذ فتح الباب لها، فسرتها هذه

البادرة وابتسمت قائلة له:

– شكرا جزيلا.. هذا لطف منك.

– على الرحب والسعة.

وتبعها داخلا.

❋ ❋ ❋

– علينا أن نسافر إلى مدينة أخرى يا حواء قبل أن يأتي زوجك وربما ستكون هناك مشكلة كبيرة.

– أنا لا أتحرك من هنا قبل أن أراه.

– ماذا تريدين منه؟ لماذا تصرين على رؤيته؟ هل لك الجرأة أن تواجهيه بعد رآك في ذلك المشهد؟

– لا تذكرني بذلك أرجوك.. أنت السبب، نعم أنت السبب..

– لماذا أنا السبب؟ على أي أساس تقولين ذلك؟ هل أنا أجبرتك على ذلك؟ أنت كنت ملتهبة وتصرخين بي أدخله إلى آخره.. أنت لا تشبعين منه.. ماذا أفعل أنا؟

– أسكت رجاء.. لولاك لما حصل الذي حصل.. أنت تعرف نقطة ضعفي وتستغل ذلك.. أنت تعرف كيف تثيرني بحيث لا أستطيع السيطرة على نفسي. أنت السبب. أنت شيطان رجيم.. لا أدري من بعثك في طريقي.. الله أم؟ الشيطان؟

– ما هذا الكلام؟ بدأنا ندخل الفلسفة.. عليك يا سيدتي بدل أن تندبي حظك، أن تقومي الآن لتجلبي ثيابك وكل ما تحتاجينه قبل وصول الدكتور..

– قلت لك لا أتحرك من هنا قبل أن أقابله..

– ومالو..؟ أنا أطلب منك أن تجلبي ما تستطيعين من حاجاتك وتحفظينها هنا.. ثم انتظري..

صمتت حواء المؤمن للحظات ولم ترده وكأنها أقتنعت برأيه. نظرت إليه وقالت:

– إذن بسرعة.. عليك أن تساعدني في لململة الأشياء.. يلاّ.

– هذا هو الكلام الصحيح.. يلاّ.

قال ذلك ونهض بهمة قبل أن تنهض، وكأنه كان خائفاً من أن تتردد في ذلك، لكنها نهضت أيضا، فأسرع فاتحا الباب فتبعته خارجة.

❋ ❋ ❋

– إذن أنت مؤلف روايات؟

– يمكـن القـول بذلـك. أنا لـم أنشـر سـوى رواية واحدة اسـمها (كوابيس القنفـذ) منعـت فـي بـلادي، لكنهـا قوبلت بالترحاب في الصحافـة العربية. وكتبت رواية أخـرى أسـمها (متاهـة آدم أو المـرأة المجهولـة) لكني لـم أنشـرها بعد. وأخطط لرواية أخرى، لكني لم أبدأ بها بعد..
– هل روايتك مترجمة إلى الألمانية أو الإنكليزية؟
– لا
– خسارة.. كان بودي أن أقرأ لك شيئا..
– هل تقرأين بالألمانية أم بالإنكليزية؟
– أنـا نصـف ألمانيـة ونصـف أميركيـة.. أمي ألمانية وأبي أميركـي.. كان أبي رجل أعمال تزوج أمي حينما كان يعمل في دوسلدورف. لكنهما انفصلا حينما كنت فـي الثامنـة.. عشـت مـع أمي.. كنت أزور أبي أحيانـا وأحيانا كان يأتي خصيصا لزيارتي. حينما بلغت الثامنة عشرة سافرت إليه.عشت في أميركا بضع سنوات. أنهيـت جامعتـي هنـاك.. كان أبـي قـد تـزوج هناك وكون عائلـة جديدة. رجعت إلى أمي، تلك التي رأيتها اليوم معي. أنا ابنتها الوحيدة. عشـنا في دوسـلدورف لبضع سـنين لكن أمي فضلت العودة إلى مدينتها الأصلية التي ولدت وعاشـت فيهـا مـع والديهـا.. تزوجـتُ من رجل ألمانـي لفترة قصيرة. وانفصلنا. أعمل في مكتب للسياحة كما تعرف. هذه هي حياتي بإختصار شديد. ومن ناحية اللغات فأنا أستطيع القراءة باللغتين إلى جانب الأسبانية.
– الأسبانية أيضا؟
– نعم.. لقد درست اللغات. الأسبانية تخصصي الرئيسي.. ودرست الروسية كلغة ثانوية..
– يعني أنك تتحدثين خمس لغات؟
– يمكنـك القـول هكـذا. وأنـت هل تتحدث لغات أخرى غير الإنكليزية التي أراك تجيدها بشكل جيد؟
– لا.. أنا لغتي الأم هي العربية.. والإنكلزية هي اللغة الأجنبية الأساسية للتعلم في العراق، فنحن نبدأ بدراستها منذ المرحلة الإبتدائية. حاولت أن أدرس الفرنسية لكني لم أركز عليها. لكن ما يثير فضولي هو ماذا تقرأين بهذه اللغات؟
– أقرأ الأدب والتاريخ والغرائبيات والروحانيات.. يعني أقرا كل شيء تقريبا.
– من هم الكتّاب الذين يثيرون إهتمامك؟

– من الروس يعجبني ليف تولستوي، ومن الإنكليز الأخوات برونتي ومن الأسبان إيزابيلا الليندي، كما أحب الهندي تاغور، ألا يكفي كل هؤلاء؟

– بلى.. يبدو أنك متخصصة في الآداب.. أليس كذلك؟

– لا.. ليس بالضبط، فأنا أقرأهم بدافع تقوية لغتي بهذه اللغات، وأيضا للمتعة والتعلم.. فمن هؤلاء يتعلم المرء الكثير..

– وهل تقرأين لهؤلاء الكتاب بلغاتهم الأم؟

– نعم.. لكني قبل ذلك أقرأهم إما بالإنكلزية وإما الألمانية للمتعة.. وبلغاتهم للتعلم والمتعة أيضا. وأنت.. لمن تقرأ؟

– بالنسبة لي تتركز قراءاتي باللغة العربية. أي قرأت كل هؤلاء الذين ذكرتيهم باللغة العربية، إلى جانب الكّتاب العرب طبعا. هل قرأت لنجيب محفوظ، لعبد الرحمن منيف، لحنا مينه؟

– لا.. أنا لا أعرف من الأدب العربي سوى قصص ألف ليلة وليلة وجبران خليل جبران..

– أنا آسف.. لكني أعتقد أن بين الكتاب العرب ممن يستحقون القراءة.. وبالمناسبة.. معظم الذين ذكرتهم من الكتاب العرب مترجمين إلى اللغات الأوربية، ومن بينها الألمانية والإنكلزية طبعا..

– لكن لغتك الانكليزية جيدة، فلماذا لم تقرأ الأدباء العالميين باللغة الانكليزية على الأقل؟

– لا أدري.. ربما للسهولة.. أنا اقرأ الشعر أحيانا بالإنكلزية..

– ألا تتحدث الألمانية؟

– بلى.. لكني لحد الآن لا أستطيع أن أتحدث بها في مجالات الفكر والثقافة.. أستطيع التعامل بها بشكل لا بأس به..

– يجب أن تجيد الألمانية لأنها ستفتح لك آفاقا واسعة في الفكر والفلسفة والحياة.

– أنا أحاول..

– لماذا تفكر بالسفر إلى بلدان الخليج..؟ لماذا لا تحاول العمل هنا في الجامعات الألمانية..؟ أقصد بعد أن تدخل دورات لإجادة اللغة الألمانية.. بالمناسبة، ما هو تخصصك؟

– أوه.. هذا إحدى مشاكلي.. أنا متخصص في الأدب العربي وبالتحديد في النقد الأدبي الحديث.

– لا أدري إن كنت ستجد مثل هذا الإختصاص هنا.. أقصد الأدب العربي.. لكن في النقد الحديث أعتقد أن هناك نسبة من الحظ.
– على أية حال سأحاول أن أجرب حظي في الخليج.
– بالمناسبة.. لقد أخبروني بأنه لو كانت هناك دعوة رسمية من الجامعة فأنهم ربما سيمنحونك تأشيرة محددة بأسبوع فقط. بعدها عليك مغادرة البلاد.
– لا ضير. المهم أجري المقابلة.. بعدها سنرى كيف ستؤول الأمور..
– حاول.. فلربما ستنفتح أمامك أبواب أخرى..
– لا أدري.. ربما..

سادتْ بينهما لحظات صمت. كان المقهى خالياً من الرواد، لكن أثناء حديثهما دخل إثنان، رجل وامرأة، وكلاهما قد تجاوز السبعين. جلسا على بعد منهما. وكانا يرمقانهما بين الفينة والأخرى بنظرات فضولية ثم يواصلان الهمس بينهما. إنتبهت إيفا بيرغمان لهما. فجأة سألها:

– هل لديك أطفال؟

إرتبكت هي هذا السؤال المفاجئ، وكأنه مس منطقة خاصة جدا تثير الألم والذكريات الحزينة لأن غلالة من الحزن خيمت على وجهها، لكنها تداركت وضعها وقالت له وكأنها تعاني من نقص ما أو تبرر شيئا سلبياً:

– هذا هو سبب إنفصالي عن زوجي آدم بيرغمان.. أنا لا أستطيع الإنجاب، بينما كان يريد هو أطفالاً.. طلبت منه أن نتبنى طفلا لكنه رفض تربية طفل غريب.. أراد طفلا من صلبه.. راجعنا الأطباء.. لكن بدون جدوى.. بعد أشهرعرفت أنه صادق فتاة أخرى وحملت منه، فما كان منه إلا أن صارحني وطلب الإنفصال.. كنت مستعدة لأن يبقى على علاقته مع تلك الفتاة، لكنه لم يكن مستعدا لأن ينفق على عائلتين، أو بالأحرى يعيش مقسما بيننا..ففضل أن يعيش مع الأخرى..
– آسف لأني أثرت مثل هذا الموضوع الحساس وهذه الذكريات الأليمة.
– لا عليك.. أنا أحزن على نفسي.. وليس عليه.. فهو يعيش الآن بشكل طبيعي في عائلة طبيعية.. بينما أنا من الصعب أن أجد زوجا لا يريد أطفالا.. لاسيما وأنا دخلت الثانية والأربعين من العمر..
– لكنك ما زلت في ذروة تألقك وجمالك
– شكرا.. هذا الكلام فيه شيء من العزاء على الأقل..
– أنا أقول الحقيقة.. أنت أجمل امرأة قابلتها في حياتي..

نظرت إليه مندهشة، وارتسمت على وجهها إبتسامة مع شيء من التردد وعدم التصديق، وقالت:

– شكرا لك.. لكني أعتقد انك تجاملني بهذه المبالغة

فقال هو بحماس وحرارة وبنبرة جياشة بالمشاعر:

– أنا لا ابالغ.. إنك أجمل امرأة قابلتها في حياتي.. وأي رجل في العالم يتمنى أن يعيش مع امرأة مثلك..

نظرت إليه غير مصدقة ما تسمع. وبالرغم من أنها اعتبرت كل كلامه مبالغة، إلا أنه أعجبها ومنحها مشاعر جميلة، وتمنت أن يستمر في كلامه الذي لم تسمع مثله في حياتها، فحتى زوجها الذي ارتبطت به عن حب لم يُسمعها مثل هذا الكلام. نظرت إليه بتأمل للحظات وقالت بشكل مرح ومشاكس:

– يعني لو قُدر لك أن تختار.. فهل ستتزوجني؟

وبدون أي تفكير، وبدون أيما تردد قال لها بحماس، إذ أنه كان يتخيلها في تلك اللحظات عارية معه على السرير:

– نعم.. نعم.. وبلا أي تردد..

ضحكت من أعماق قلبها بمرح وفالت له والسعادة تشع من وجهها المثير:

– شكرا لك.. إنك تبالغ كثيرا.. وعلى أي حال أنك ستسافر. هيا بنا نمر على المكتب لأن عليّ أن أمر على والدتي في الساعة الحادية عشرة.

أشارت هي للنادل بإشارة على تسديد الحساب. مد يده إلى جيبه ليخرج النقود فأشارت له بألا يفعل:

– أنا التي دعوتك..

– لكن..

– دعك من هذا.. ستدفع أنت في المرة القادمة

جاء النادل وهو يحمل محفظة جلدية سوداء وفيها فاتورة الحساب. وضعها أمامهما ومضى. نظرت هي للفاتورة ووضعت ورقة نقدية في المحفظة. خاب أمل الدكتور آدم التائه. أحس أنها تفلت من بين يديه بعدما أوصلها إلى الذرى وكاد يحصل عليها، لكنه لم يفقد الأمل، إذ قال لها وهما يقومان:

– علي دعوتك المرة القادمة.

نظرت إليه وعلى وجهها مشاعر قلق خفي مع رغبة واضحة في التواصل، وقالت:

– سنرى.. علينا أولا الإتصال بالسفارة.

– بالمناسبة.. أردت أن أسألك عن شيء لكني لم أستطع لأن الحديث عن الأدب قد أخذنا بعيداً.

– إسأل..

– هل تؤمنين بالأرواح.. أو الأشباح.. أو أي شيء من هذا القبيل؟

كانا متوجهين نحو السيارة التي لم تكن بعيدة سوى أمتار عنهما. ما أن سمعت سؤاله حتى وقفت. نظرت إليه للحظة ثم قالت:

– نعم أؤمن بها.. وأنت؟

كان هو مترددا، لكنه وجد في الأمر محاولة لتفسير كل ما جرى له في المستشفى، ومن ناحية أخرى كانت فرصة أخرى للتواصل معها، فقال:

– لا أدري.. لقد جرت لي أمور غامضة في المستشفى، وأعجز عن تفسيرها..

– مثل أي شيء.. هل رأيت أشباحاً هناك؟

– ليس بالضبط.

وصلا إلى السيارة، لكنها لم تفتح الباب لأن الموضوع أثار أهتمامها، فقالت له وهي على الجانب الآخر من السيارة قرب الباب:

– ماذا رأيت إذن؟

– رأيت أرواحا.. لا أدري.. رأيت راهبتين..

– رأيت أم تخيلت أنك تراهما..؟

– نعم.. لقد تحدثت معهما كما أتحدث معك الآن.. لكنهما اختفيتا فجأة وبطريقة غامضة. وحين سألت قيل لي إنه لا راهبات في تلك المستشفى؟

نظرت إليه للحظات ثم قالت وباهتمام لكن ببطء:

– هذا أمر مثير للإهتمام حقا. لنذهب الآن ولنتحدث عن ذلك بالتفصيل في ما بعد، فهذا الأمر يحتاج لمكان أكثر هدوءا.

– حسن جدا

دخلا إلى السيارة. وانطلقا.

* * *

– عليك أن لا تنسي جواز السفر

قال آدم اللبناني ذلك وهو يحمل حقيبة حواء المؤمن الجلدية الكبيرة التي جمعت فيها ملابسها وما تحتاجه من مواد زينة، وخرج. فتحت صندوقا صغيرا كان في باطن

الدولاب الخشبي الكبير الذي يغطي أحد جوانب غرفة النوم. أخرجت جوازها الأزرق ورزمة من الأوراق النقدية. فكرت لحظة في أن تأخذها، لكنها ترددت. أخذت ورقة نقدية واحدة وأعادت الرزمة إلى الصندوق، ثم مدت يدها وأخرجت بطاقة البنك الخاصة بها. أغلقت الصندوق وأرجعته إلى زاويته تحت بعض الملابس، وأقفلت الدولاب، وخرجت من الغرفة.

شعرت حواء المؤمن وهي تقف عند الباب الخارجي للشقة قبل أن تغلقها نهائيا بأنها تودع حياتها السابقة، الهادئة، الوديعة والبريئة. كانت تشعر بخوف خفي وغامض مما ينتظرها في حياتها المقبلة، حياتها التي عليها أن تخوضها وحدها، فهي تعرف أن آدم اللبناني يحتاجها من أجل الحصول على الإقامة الدائمة، وهي تحتاجه أيضا لأنه أبو جنينها الذي ينمو في أعماقها.

كانت حواء المؤمن تتوسل الأولياء وتقدم النذور من أجل أن تحمل، لكن هذا الحمل جاء عن طريق الزنا، وأنها من أجل هذا الطفل، الذي كانت تحلم به طوال عمرها، حطمت حياتها الزوجية من أجله، وأساءت لزوجها الذي لم يعاملها سوى بالحسنى.

كانت تشعر بالإنهيار النفسي وكأنها تنزلق من جبل ثلجي إلى هاوية في وادي الظلمات. ليس أمامها وهي تنزلق سوى الظلام الذي لا قرار له. أطبقت الباب بقوة وبالمقابل دفعت باب شقة آدم اللبناني. كان الظلام يغمر الشقة، ولأول مرة اكتشفت أن هذه الشقة صغيرة جدا وبشعة، هواؤها فاسد مشبع برطوبة عفنة. كانت الفوضى تعم كل شيء. أغمضت عينيها لثوانٍ ودخلت مستسلمة لقدرها الغامض.

* * *

حينما وصلا إلى المكتب السياحي كان الباب الخارجي مغلقا بالمفتاح، وكان المكتب مظلما. أخرجت إيفا بيرغمان مفتاحا فتحت به المكتب وضغطت على أزرار الإنارة فتألق المكتب بالضوء الكثيف. كان المكتب خاليا ولا يبدو أن أحدا من الموظفين كان هنا. لم يدخل الدكتور آدم التائه خلفها مباشرة وإنما ترك إمسافة بينهما ليتأمل ساقيها ومؤخرتها وقوامها من الخلف. أحس بالإثارة لجمال ساقيها وتناسقها وأنوثتها. طلبت منه الجلوس على الكرسي الذي أمام طاولتها بعد أن وضعت حقيبتها إلى جانب كرسيها. كان هو يتأملها. ينظر إلى وجهها الذي اقتنصه خلال ثوانٍ عندما كانت ملتفتة إلى الجانب الآخر، كان وجهها مهموما ويبدو على وجهها أنها تفكر بأشياء بعيدة جدا وكأنها ليست معه. إلا أنها بعد ثوانٍ قليلة عادت تلك الإنسانة المرحة.

توجهت إليه وسألته إن كان يريد أن يشرب شيئا فشكرها. ذهبت هي إلى عمق المكتب وغابت في غرفته الداخلية الخاصة بالموظفين. بقيَ هو وحده في المكتب لا يدري ماذا يفعل. نظر من خلال واجهة المكتب إلى الشارع فاستغرب لوجود المرأة الألمانية العجوز التي كانت تحدق إليه قبل أيام حينما جاء إلى المكتب في اليوم المطير. كانت تحدق إليه غير آبهة بالمارة الذين لم يكونوا منتبهين لها. استغرب الدكتور آدم التائه من هذه المصادفة الغريبة وشعر بشيء من الانخطاف النفسي والدهشة المريبة. فجأة انتبه على صوت إيفا بيرغمان وهو يعيده لوضعه. كانت قد حملت لنفسها كأسا من الماء. انتبهت لحالته والدهشة المريبة الممزوجة بالخوف على وجهه، فسألته:

– ما بك؟ هل تشعر بألم أو بأي شيء غير طبيعي؟

– لا.. لكن تلك المرأة العجوز..

– أية امرأة عجوز..؟

إلتفت إلى جهة الشارع لكي يشير إليها فلم يجدها وكأنها لم تكن أصلا. تجمدت الكلمات على شفتيه. لم يستطع التواصل مع إيفا بيرغمان حول الموضوع، أحس بارتباك مفاجئ، فقال لإيفا سائلا:

– هل بالإمكان أن أطلب كأسا من الماء رجاء؟

نظرت إليه مستغربة وقالت:

– طبعا

ونهضت متجهة إلى أعماق الغرفة. أحس بطبقة خفيفة من العرق تبلل جبينه فمسحها بكفه. جاءت إيفا بكأس الماء وأعطتها له، وسألته:

– هل تشعر بإنك لست على ما يرام؟ هل تحتاج إلى طبيب؟ هل تريد أن آخذك إلى المستشفى مرة أخرى؟

حاول ألا يبدو ضعيفا أو مرتبكا لكن محاولته هذه زادته إرتباكا. انتبهت إيفا لحالته، ولكي تخلصه منها بادرت بمرح قائلة:

– دعنا ننجز مهمتنا الأساسية ألا وهي الإتصال بالسفارة.

انتبه الدكتور آدم التائه إلى أنها تسعى لتخليصه من حالته، فشكرها في أعماقه، وقال بحرارة لا تتناسب مع ما كان عليه من إرتباك قبل لحظات:

– طبعا.. طبعا.. هذا هو الأمر الأساسي.

* * *

– أنا سأنزل مع الحقيبة أولا، وسأنتظرك عند محطة الأوتوبيس التي قرب الجسر، ويمكنك بعدي بخمس دقائق أن تنزلي حتى لا نثير الشبهات ولا ينتبه الجيران لذلك. أنا سآخذ الحقيبة لأنك لا تستطيعين حملها. لا تنسي حقيبتك اليدوية وجوازك.

قال آدم اللبناني ذلك وفتح الباب خارجا. ترك الباب مفتوحا خلفه. كانت حواء المؤمن واقفة وسط الشقة كالمسوسة التي لا حول لها ولا قوة. تقدمت بشكل آلي نحو الباب وأغلقته. إتكأت على الباب بظهرها. ظلت لدقائق واقفة في موضعها. فجأة أحست برغبة قوية في التقيؤ. مضت مسرعة نحو غرفة الحمام. كانت تضغط على نفسها من أجل أن تخرج كل ما في جوفها، ولأول مرة شعرت بأنها تكره الحمل، وأنها لا تريد هذا الطفل.

نظرت إلى وجهها في المرآة العكرة. أخذت شيئا من الماء بكفها وبدأت تغسل المرآة. أحست برغبة مفاجئة في تنظيف المرآة. أخذت تحمل الماء بكفها وترشه على المرآة. بدأت المرآة تنظف شيئا فشيئا حتى صارت صافية. نظرت لنفسها. أحست برغبة في أن تبصق على صورتها التي في المرآة. جمعت ماء في فمها وبصقت بقوة على صورتها. ارتعبت من وجه المرأة التي في المرآة، وهي تبصق عليها أيضا. أحست بعينيها وقد امتلأتا بالدمع الذي يأبى أن ينزل. مسحت المرآة من البصاق الذي كان قد انحدر إلى أسفل المرآة. غسلت المرآة مرة أخرى. نظرت لبطنها المنتفخ قليلا. أحست برغبة حقيقية في إجهاض حملها. هذا الحمل الذي دمر حياتها، وضحت من أجله بأمانها واستقرارها وسمعتها، لا تريده الآن. ما العمل؟ إنها لا تعرف ماذا تعمل. إنها عاجزة عن فعل أي شيء يمنع إنحدارها المرعب إلى وادي الظلمات الذي يفتح شدقيه لإلتهامها.

خرجت من الحمام وكأنها ليست تلك الحواء التي دخلت إليه قبل قليل. أحست بشجاعة غريبة، شجاعة اليائسين الذين يذهبون إلى حتفهم دونما أي إحتجاج أو حتى خوف. أخذت حقيبتها الجلدية وخرجت من الشقة وأطبقت الباب خلفها بقوة. هبطت السلم الخشبي الذي كانت العتمة تغمره.

* * *

كانت علامات القلق واضحة على وجه الدكتور آدم التائه وهو يضع سماعة الهاتف على الجهاز. كان وجه إيفا بيرغمان مليئا بالتساؤلات وهي تنتظر أن يفصح عما جرى خلال المحادثة الهاتفية. لقد تحدثت مع السفارة الإماراتية، ولكونهم أرادوا معرفة بعض

التفاصيل فقد سلمت الهاتف إليه ليحدثهم بالعربية ويجيب على أسئلتهم ويوضح لهم وضعه.لكن كما يبدو أن الأمور ليس سهلة. كانت تنتظر أن يتحدث، لم تسأله مباشرة، نظر إليها ورأى الأسئلة تزدحم في وجهها المثير، فقال:

– يقولون إنهم لا يستطيعون منحي تأشيرة على هذا الجواز. لو كان لدي الجواز الألماني الإعتيادي لكان بإمكاني دخول الإمارات بدون تأشيرة، حيث سأستلمها هناك في المطار، ولو كان لدي الجواز الذي يمنح للمقيمين، وهو ما نسميه الجواز الإنساني لكان بإمكانهم منحي تأشيرة مؤقتة لكن مع هذا الجواز الخاص باللاجئين السياسيين فلا يمكنهم ذلك.

– خسارة.

– هل يمكنني أن أستبدل الجواز الخاص باللاجئين السياسيين بالجواز الآخر الخاص باللجوءالإنساني؟

– لا أعرف.. يمكننا أن نسأل في دائرة الأجانب هنا في البلدية. دعني أقم بذلك. لكن ماذا لو رفضوا ذلك؟

– لا أدري ماذا سأفعل؟

– إسترخ قليلا.. لا تتوتر.. وضعك الصحي لا يسمح لك بالتوتر.. سأستفسر أنا من دائرة الأجانب.

قالت ذلك وأخذت سماعة الهاتف وطلبت بلدية المدينة، والتي كما بدا تعرف رقمها جيدا، وخلال لحظات كانت تتحدث بالألمانية مع شخص على الجانب الآخر من الهاتف:

– نهارك سعيد. أنا إيفا بيرغمان. لدي سؤال يخص شخصاً أجنبياً حصل على الإعتراف به هنا كلاجئ سياسي، لكنه يريد الحصول على جواز المقيمين من غير السياسيين.. ماذا؟ الشخص المعني بالإجابة على هذا السؤال غير موجود حاليا؟ متى سيأتي؟ بعد فترة الغذاء؟ الساعة الثانية بعد الظهر؟ شكرا سأتصل حينها.. شكرا جزيلا.

كان هو مشدودا إلى كل كلمة قالتها عبر الهاتف. ولم يكن الأمر يحتاج إلى شرح فقد فهم من سياق حديثها بأن الشخص المسؤول غير موجود، ويمكن الإتصال به بعد الثانية عصرا. أدركت هي بأنه فهم ما دار من حديث لكنها كانت تجد نفسها ملزمة بالإيضاح له، فقالت:

– كما سمعت.. الشخص المعني غير موجود.. و

فقاطعها بهدوء قائلا:

– لقد سمعت ذلك وفهمت.. يعني أمامنا ثلاث ساعات ونصف تقريبا.

نظرت هي إلى الساعة المعلقة على الجدار وقالت:

– بالضبط.. ماذا ستفعل الآن؟

– علي أن اذهب إلى البيت.

– وأنا علي أن أذهب إلى المستشفى.. لكن يمكنك ان تعود الساعة الثانية.. سأنتظرك هنا كي نتصل ثانية فعسى أن نحصل على نتيجة طيبة..

– أنا اشكرك جدا جدا على طيبتك ومساعدتك لي.

– لا شكر على واجب.. لكنك لم تحدثني عن رؤيتك لما سميته بالأرواح.. لا ضير.. عندما تعود بعد الظهر سنجد الوقت الكافي لذلك.. والآن علي الذهاب إلى المستشفى. هل تريد أن أوصلك إلى مكان محدد؟

– لا شكرا.. أحب المشي.. وبيتي ليس ببعيد من هنا، أنا أعيش في بيرغ شتراسه.

– إنه قريب من هنا لكني أستطيع أن أوصلك لمنتصف الطريق فالمستشفى تقع على الجانب الآخر المقابل له..

– ربما سأزعجك بذلك.

– لا إزعاج.. على الرحب والسعة.. يسرني الحديث معك..

قالت ذلك وأخذت حقيبتها. خرج هو قبلها. أطفأت هي الأنوار في المكتب، وأغلقت الباب بالمفتاح. حينما أستدارت رأته متوترا قليلا. سألته:

– هل هناك ما يقلقك؟

– أريد أن أدخن..

– لكن التدخين مضر بصحتك.

– بل لقد منعني الأطباء عن التدخين.. وأخذوا ما كان معي من سجائر.. لكني أحس برغبة كبيرة في تدخين ولو سيجارة واحدة..

– لا.. لا. يجب أن تلتزم بما قاله لك الأطباء. إنك ما زلت في دور النقاهة.

بينما هما يتحدثان التفت فجأة وكأنه يحس أن هناك من يراقبه. رأى المرأة العجوز واقفة لا تتحرك وهي تنظر إليه. أراد أن يخبر إيفا بيرغمان عنها. إنتبهت هي لقلقه. فكر في أنها سوف تستغرب من تصرفاته، فما معنى وجود امرأة عجوز في الشارع. ولماذا يتصور أنها تراقبه هو دون غيره، لذا لم يقل شيئا، وحينما التفت مرة أخرى نحو المرأة العجوز لم يرها. كانت قد اختفت مرة أخرى.

آدم البغـدادي: أين هو الواقع وأين هو اللاواقع؟ من يصدق أن ما أرويه، بالرغم من أنه حصل فعلاً، أنه شيء واقعي، وأنه قد حصل؟ من هي (إيفا بيرغمان)؟ لماذا هي تتعاطف معه بهذا الشكل غير المعروف بالنسبة للأوربيين في التعامل مع الأجانب؟ لكن بالتأكيد ليس كل الأوربيين يتحسسون من الأجانب فهناك فعلا من يصادقونهم ويساعدونهم، أتُرى هي منهم؟ هل هي مقدمة لقصة حب رومانسية؟ لا أدري.

5

الأوغــــاد مــرة أخـــرى

توقـف آدم المحـروم عـن القـراءة فـي المخطوطة. لم يسـتطع أن يعلق على ما كتبه صديقـه المغـدور آدم البغـدادي علـى هامـش الفصـل. أحـس بأن الأسـطر صارت غير واضحـة والرؤيـة غيـر واضحـة. انتبـه إلى أن الظلام صار يغمـر الغرفة. فقد كان الوقت يشير إلى الخامسة عصرا، ولكون الغرفة يحجبها جدار في الجهة المقابلة للشباك الوحيد فأن النور لا يصل إليها، ومع إنكسـار الشـمس نحو المغيب أظلمت الغرفة بالرغم من أن الشـمس ما زالت على حافة الأفق. نهض بتكاسـل عن السـرير. مط جسـده بحركة كسولة كي يطرد الخدر والتنمل الذي دبّ إلى جسده لاستلقائه فترةً طويلة متكئا على كوعه وهو يقرأ. أراد أن يضغط على الزر الكهربائي كي يضيء الغرفة، لكنه في الثواني الأخيرة توقف. إلتفت إلى الباب الذي يفصله عن الغرفة المجاورة، فكر بسرعة خاطفة، فيما لون أنه أنار الغرفة فلربما ستنتبه جارته في الغرفة المجاورة من خلال ثقب المفتاح في الباب. لم يضغط على الزر وإنما تحرك بحذر نحو الباب الفاصل وجلس مقفرصا، ملصقا عينه بالثقب الذي يتوسط الباب من أحد جهاته كموضع للمفتاح.

كان الفضول قد بث الحياة في نفسه وأنساه حالته ولو لفترة وجيزة. نظر من خلال ثقب الباب فرأى حواء شمعون عارية بالكامل وفي وضع جنسي مزدوج مع أثنين من الشباب، بينما الثالث يصورها بجهاز الموبايل. بقي لفترة طويلة يراقبهم من ثقب الباب إلى أن أنهوا ما كانوا فيه، وبدأوا يرتدون ثيابهم، بينما ظلت هي عارية.

تأمل آدم المحروم جسـدها الجميل وأحس بالدماء تجري في عروقه. إنتبه لنفسـه وهو يلهث وحبيبات من العرق تغطي جبينه. قام بهدوء شـديد من مكانه. جلس على سـريره. أحس بالإنتصاب. وبحركة لا واعية سـحب سـحّاب بنطاله وأدخل يده يداعب قضيبه. ولكي يسهل على نفسه، نزع بنطاله بالكامل فبقي بسرواله الداخلي. إقترب من ثقب الباب مرة أخرة وقرفص بطريقة لا تضايقه.

نظـر مـن ثقـب البـاب، فـرأى حواء شـمعون ما زالت عارية، وكانـت تنظف ما بين

فخذيها بمناشف ورقية رقيقة، وترآى له بأنها تبكي. كانت أنفاسه تتصاعد. رفعت رأسها باتجاهه. إرتعب. أحسس وكأنها انتبهت لوجوده. حبس أنفاسه بينما تدفق سائل دافئ. أحس بخدر لذيذ يسري في خلايا جسده، وحالة من الاسترخاء العصبي، مع شعور بعدم الارتياح وبشيء من الإثم. وبخطوات هادئة إتجه نحو باب الغرفة وفتحه ثم أغلقه بصوت مسموع وضغط على زر الكهرباء فأنار الغرفة. كان يريد أن يوحي لجارته، التي ربما انتبهتْ لوجود شخص ما وراء ثقب الباب التي بين الغرفتين، بأنه دخل الغرفة الآن. إرتدى بنطاله، وأخرج من جيبه منشفة من الورق الشفاف، واتجه بهدوء فمسح الباب والأرضية من سائله اللزج.

أحس بجوع شديد. فكر مع نفسه كيف هجم الجوع عليه بشكل مفاجئ، فقبل قليل لم يكن يشعر بالجوع، أما الآن فهو يريد أن يلتهم أي شيء. ما ضايقه أنه لا يريد الخروج إلى الشارع. فكر مع نفسه ربما سيرسل الفتى القروي لشراء الكباب أو لفات الشاورما أو الفلافل. وكان كلما يخير نفسه بين أنواع الأكل يحس بالجوع أكثر. وأخيرا قرر الخروج لشراء الطعام. مد يده في جيب قميصه فوجد مبلغا لا بأس به. فتح باب غرفته بعد أن نزع المفتاح عن الباب. أطفأ النور الكهربائي، وخرج.

حينما صار في الممرر، وبالتحديد قرب باب الغرفة المجاورة ترك مفتاحه يسقط على الأرض بطريقة أحدثت ضوضاء. كان يريد من ذلك أن يحتمل خروجها لترى ما يجري قرب بابها من ضوضاء. لكنها لم تخرج بالرغم من أنه أنفق بضع دقائق من أجل أن يرفع المفتاح عن الأرض ويمضي في الممرر هابطا إلى الطابق الأرضي.

حينما صار آدم المحروم في الطابق الأرضي رأى أن مدير الفندق منشغل بمتابعة مباراة لكرة القدم في التلفزيون، وكان هناك بعض الجالسين يتابعونها أيضا. ألقى التحية على الجميع وخرج. نظر المدير إليه نظرة عابرة ثم استمر بمتابعة المباراة.

كانت الشمس قد استلقتْ على خط الأفق ولم يبق من شعاعها سوى النزر اليسير الذي لا ينير درباً، وحيث بدأ أصحاب المحال والدكاكين بإنارة مصابيحهم. إلتف في فرع جانبي جذبته إليه رائحة شواء الكباب والخبز الحار المنبعثة من مطعم للمشويات مجاور للفندق، وحينما صار هناك طلب من صاحب المطعم تجهيز وجبة من الكباب لشخصين مع ملحقات الوجبة من خبز ومخللات وبصل وعلبتين من البيبسي كولا. فكر في أنه ربما سيجوع في آخر الليل لأن من عادته السهر إلى أول ساعات الفجر، وهذا يعني أنه سيجوع بلا شك. دفع مبلغ الوجبتين ووقف قرب باب المطعم منتظرا

تجهيز طلبه. جذبته من هناك رائحة الشاي المخدر. كان هناك رجل مسن قد إتخذ من الزاوية المجاورة للمطعم مكاناً لصنع الشـاي. إقترب من الرجل العجوز وجلس على صفيحة معدنية فارغة طالبا استكانا من الشاي. شرب استكانا من الشاي وطلب تكراره. إنبسطت أسارير الرجل المسن لأن شايه أعجبه، فقال بهلجة أبوية ذات نبرة جنوبية:

– كأنما أراك عطشانا للشاي.

إبتسم آدم المحروم وقال بنبرة فيها هدوء وتعاطف:

– أي والله ياحاج.. عطشان للشاي صار لي يوم كامل لم أشربه.

نظر الرجل العجوز إليه وقال، بنبرة مليئة بالمرارة:

– من أين يأتي الحج يا ابني.. ما شـاء الله كل روؤسـاء دولتنا حجاج، وكل اللي جـاءوا للحكـم حجـاج، وأي حجاج؟ أنهم يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، كما جاء في خطبة الشقشقية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب. هؤلاء الذين جاءوا باسم الإمام علي وآل بيته هم الذين قال عنهم في خطبته: (كأنهم لـم يسـمعوا كلام اللـه حيـثُ يقول: تلك الدارُ الآخـرةُ نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسـاداً والعقبة للمتقين) بلى والله لقد سـمعوها ووعوها. ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجُها.). نعم يا ابني لم يتركوا هؤلاء لنا أن نقوم حتى بفرائض ديننا.

إنتبـه آدم المحـروم أنـه أمـام رجـل يحفـظ شـيئا من خطب نهـج البلاغة، ويتحدث بعمق مفكر، فهو ليس رجلا عجوزاً يكسب رزقه من بيع الشاي لرواد مطعم المشويات المجاور فحسـب، وإنما رجل يدفن في أعماقه معارف وأسـراراً. فأراد أن يستكشـف بواطنه أكثر فقال له:

– لكن هؤلاء خلصونا من أكبر طاغية عرفه تاريخ العراق الحديث.

نظـر الرجـل العجـوز إليـه وكأنـه يريد أن يعرف مع من يتكلم ويزن الشـخص الذي أمامه، وقال:

– هم لم يخلصونا من شيء. الأميركان احتلوا العراق وأسقطوا النظام لمصالحهم الخاصة بهم، لكنهم والغريب جاءوا بالأحزاب الشيعية إلى سدة الحكم، بالرغم من أن العارف ببواطن الأمور لا يستغرب ذلك أيضا. ثم أن هؤلاء لم يغيروا شيئا سوى منحنا حرية اللطم والبكاء على آل البيت. صحيح أن الناس كانوا متعطشين لإداء مراسيمهم الدينية وشعائرهم وطقوسهم، لكن الآن هؤلاء حولولها إلى ما يشـبه الفريضة، وباسـم إقامة الطقوس الدينية يدمرون البلاد والإقتصاد والعباد،

بـل تحـت غطـاء هذه المراسـم تجري جرائم في السـر، وينتفـع حفنة من التجار في السر والعلن.

إرتبك آدم المحروم من صراحة هذا الرجل العجوز، فأراد أن يغير الحديث:

– على أية حال يا حاج، إنهم لم يجبروا أحدا على اللطم.

نظر الرجل العجوز إليه، وأدرك سر إرتباكه، فقال له:

– لا تخف يا بني، لسـت جاسوسـا أو وكيل أمن. لا تخف مني ومن كلامي. أنا أمضيت عمري في العمل السـري وسـنوات أخرى في السـجون، لسـتُ إرهابيا ولا مـن فلـول النظـام البائـد، لكنـي زاهد في هؤلاء الذين سـيدفعون الناس إلى أن تترحـم علـى الطاغيـة المقبـور. أنت دخلت قلبي من أول لحظة رأيتك فيها.. إنك تشبه ابني الشهيد جداً.. فلا تخف.. أليست هناك حرية كما يقولون، فلماذا أنت خائف؟

إرتبـك آدم المحـروم لكنـه أحـس بالإرتياح لتوضيحات الرجل المسـن، فسـأله من باب الفضول:

– ولماذا تبيع الشاي هنا إذا كنت من المناضلين؟ وكما أظن أنك من الإسلاميين أيضا ولم تكن شيوعيا، فهذا واضح من لغتك واستشهاداتك بخطب الإمام علي.

– صحيـح.. أنـا كنـت عضـوا في الحزب الحاكم الآن.. وقد دعوني في بداية الأمر لتسـنم موقـع فـي إحـدى مؤسسـات الدولـة.. لكـن حـدث أن رأيـت في بعض الإجتماعات وجوها كانت قد انهارت في المعتقل، واعترفت على مناضلين تم إعدامهـم وتشـردت عوائلهـم، رأيـت حفنة من هـؤلاء يتحدثون بنبرة عالية جدا، ولم أسكت عن ذلك، لكن كل صراخي كان بلا جدوى، بل إن هؤلاء هم الذين لفقوا لي تهمة التخاذل، والتعاون مع الأمن.. تصور.. بل كاد الأمر يؤدي بي إلى التهلكة لولا تدخل بعض الخيرين الذين أيدوني على ما قلته لكنهم آثروا السلامة وأغراهم المنصب، فتركت لهم الجمل بما حمل. وها أنا كما تراني أبيع الشاي..

نهض الرجل المسن ليحمل صينية فيها بعض استكانات الشاي إلى داخل المطعم.

فكـر آدم المحـروم مـع نفسـه للحظـات وهـو يتأمل الرجل المسـن وقال مع نفسـه: من يمكنـه أن يفكـر أن هـذا الرجـل البسـيط الـذي يبيع الشـاي في هـذه الزاوية هو مناضل حقيقي، ومثقف، أضاع شبابه في السجون والحياة السرية، ويرفض أن يشارك في وليمة اللصوص؟. وبينما كان يحدث نفسـه جاء عامل المطعم وبيده كيسـا من النايلون يضم طلبيته من الطعام. وقبل أن يذهب جاء الرجل المسن فأعطاه آدم المحروم ورقة نقدية

ثمنا لما شربه من شاي. شكره الرجل العجوز مبتسما له بود، وقال:
– كلما تعطش لشرب الشاي تعال إلى هنا.
– شكرا يا الحاج.. أنا اسكن مجاوراً لك في هذا الفندق.
– إذن تعال كلما أحببت أن تشرب الشاي فأنا هنا حتى وقت متأخر من الليل.
– شكرا. ربما سأمر.

ما بين خروج آدم المحروم من الفندق وانتظاره لطلبيته من المشويات وشربه الشاي وحديثة مع الرجل العجوز وبين توجهه إلى الفندق كان الظلام قد هبط على بغداد. وبغداد في المساء والليل تبدو مرعبة. مدينة أشباح مقفرة، لا سيما في الساحات والمناطق العامة.

كانت الشوارع قد أقفرت تقريبا، والدكاكين في الجهة المقابلة بدت كأطلال مهجورة، بالرغم من أن المساء في أوله. كان أبرز ملامح الشارع والمنطقة عموما هو كثافة سيارات الشرطة وبعض آليات الجيش والحرس الوطني. لكن في الزقاق الفرعي المجاور للفندق كانت الحياة تبدو في عنفوانها برغم الكآبة الواضحة.

حينما دخل آدم المحروم الفندق كانت المباريات قد انتهت، ولم يكن في الفندق سوى الفتى القروي، ورجل آخر يلبس الدشداشة العراقية وبيده سبحة ويشاهد التلفزيون. مرّ صاعدا بعد أن ألقى التحية عليهما. فكر وهو يصعد الدرج بمدير الفندق وبقية الرجال، وتساءل مع نفسه: أين ذهبوا؟

وحينما صار بالقرب من باب جارته تباطأ قليلا عسى أن يسمع شيئا يصدر منها، لكن كل شيء كان هادئا في الغرفة والممر. وما أن عبر الفسحة قرب باب الغرفة المجاور ووصل بابه حتى أحس بجوع غريب. فتح باب الغرفة مسرعاً، وضغط على زر الإنارة فأضاء الغرفة. وضع كيس النايلون على السرير. مد يده في الحقيبة الجلدية واخرج صحيفة مجلة فنية كان قد حملها معه، فتحها وأخرج وجبة من المشويات مع المخلل والخبز والبصل، وبدون أي أنتظار أخذ يلتهم الطعام التهاما. كان يأكل بسرعة وكأنه يتسابق مع الوقت. انتبه لطريقة أكله، وبعد لحظات انتبه إلى أنه لم يذق الطعام منذ ظهيرة الأمس.

انتبه إلى صوت قادم من الغرفة المجاورة، وكأنه سقوط قنينة أو صحن. ثم ساد الصمت مرة أخرى. أراد أن ينهض ليرى من ثقب الباب الأوسط ما يجري في الغرفة المجاورة إلا أن خدراً ما كان يسري في جسده، فحمل المجلة وكيس النايلون ووضعهما على الأرض قرب السرير وتمدد كي يستمتع بهذا الخدر اللذيذ وبعلبة البيبسي الباردة.

لا يدري آدم المحروم كيف قفزت صورة الرجل العجوز إلى ذهنه. فكر مع نفسه أنه شخصية درامية ممتازة، لكن كيف له أن يرفض كل هذا الهيلمان وجبروت السلطة والمال والجاه، لاسيما في مثل هذا الزمن الذي اختلط الحابل فيه بالنابل.لا.. إنه يكره هذه العبارة التقليدية، والصورة القبيحة. إنها عبارة جاءت من حروب الصحراء ومن عصور متخلفة تكنلوجيا، فقد ولى وانتهى عصر النبال والقوس والسهم. إننا في عصر كاتمات الصوت والمفخخات والعبوات الناسفة، عصر طيارات الأباتشي والشبح، وليس عصر الجمال والجياد حتى يختلط من يحمل الحبل مع الذي يحمل النبال والسهم.

إبتسم لنفسه من مقارنته الجمال بالاباتشي وطائرات الشبح والنابل بحامل مسدس كاتم الصوت، لكنه عاد إلى التفكير ببائع الشاي العجوز. أحس برغبة في أن يذهب إليه، فحديثه الصريح كان له تأثير جيد على نفسه، إذ، لا يدري كيف أحس بعد الحديث معه، بالأمان ودفق من شجاعة مؤقته. ربما لصراحته وعدم خوفه من الحكام الجدد، لا يدري. لكن رغبته في النزول إليه كانت تنمو وتتصاعد في أعماقة، لذا قرر أن يذهب لشرب الشاي. لم يكمل علبة البيبسي، إذ مد ذراعه واضعا إياها على الأرض. نهض من السرير ببطء، لكنه قبل أن يخرج من الغرفة خطا بهدوء نحو الباب الأوسط. إنحنى بجذعه على ثقب المفتاح ونظر إلى الغرفة الأخرى. رأى جارته متمددة على سريرها وبيدها جهاز هاتف نقال وتتحدث بهدوء مع شخص ما. تراجع عن الباب، واتجه نحو الباب الخارجي. أطفأ المصباح وغادر الغرفة.

فوجئ الرجل العجوز حينما رأى آدم المحروم يتجه نحوه، فابتسم له بمودة وحنان أبوي. لا يدري آدم المحروم كيف مد يده بشكل لا إرادي ليصافحه، وما أثار انتباهه هو أن الرجل العجوز لم يتفاجأ من مبادرته بالمصافحة. كان الرجل العجوز لا يملك مقاعد للجلوس سوى ثلاث صفائح، يجلس هو على واحدة منها أحيانا، إذ أن معظم بيعه للشاي يعتمد على طلبات المطعم المجاور.

جلس آدم المحروم على مقعده الصفيحي. كان مرتبكا قليلا، إذ استغرب هو نفسه هذه الحميمية التي جذبته نحو هذا الرجل العجوز، ولم يكن يعرف كيف يبدأ معه الحديث، وقد انتبه الرجل العجوز لوضعه، فقال بمودة وبدون رسميات:

– هل اشتقت لشرب الشاي؟

– أي والله يا الحاج، فقد أكلت الكباب وشربت بعض البيبسي، لكني إشتقت لشرب الشاي الذي لم أجد أطيب منه.

– هنيئا مريئا.

صب له الشاي. خلال ذلك كان كل منهما يعرف أنه ليس الشاي هو ما قرب بينهما، وإنما ما تم الحديث عنه خلال اللقاء الأول، وأنه هنا كي يواصل حديثه. وقد ارتاح كل منهما للآخر، لكن الرجل العجوز كان أكثر خبرة في الحياة، وأكثر جرأة على المبادرة، فقال له:

– أعتقد أنك لا تريد شرب الشاي فقط، وإنما للحديث والحوار.. أليس كذلك، أم أني مخطئ؟

فوجئ آدم المحروم من صراحة الرجل العجوز وجرأته، لكنه شعر بالرغم من ذلك بشيء من الإرتياح لإزالة الحواجز الرسمية بينهما والصراحة في الحديث، فقال:

– هذا صحيح، أنا لم آت لشرب الشاي فقط، وإنما لأني ارتحت لك حينما كنت هنا في المرة الأولى.

– وأنا أرتحت لك جداً.. حينما أراك أحس وكأن ابني حي يرزق ولم يستشهد.. لكن قل لي يا بني من أنت؟ ولماذا تعيش في هذا الفندق السيء؟ إذ يبدو عليك أنك ابن ناس ولست من الصعاليك والمتسكعين. فما قصتك، حدثني فأنا مثل والدك.

بوغت آدم المحروم من هذه المواجهة السريعة، إذ بدا له أن هذا الرجل قد اخترق أعماقه، أو أنه عرف بفراسة الإنسان المجرب حالته النفسية التي فيها، وسأل نفسه للحظات، هل عليه أن يكون صريحا معه أو عليه التريث، فقال بتردد، وهو ينظر في وجه آدم الزاهد بتفحص:

– أنا آسمي آدم المحروم..و

– عاشت الأسماء.. وأنا اسمي أيضا آدم، لكني آدم الزاهد، وقد جاءني هذا اللقب من بعد سقوط النظام، بسبب رفضي للمناصب... إذن أنت محروم وأنا زاهد.. آسف لمقاطعتك.. أكمل يا ابني..

– تشرفنا يا حاج آدم الزاهد. أنا خريج كلية الآداب، وكاتب صحفي. عشت لحظات خوف فظيع منذ الأمس، بعد إغتيال أحد أصدقائي، فقد وُجد مقتولا في شقته. ولأني أحد أقرب أصدقائه، وآخر من تحدث معه هاتفيا، فقد شعرت بخوف، بل برعب هائل، مما دفعني إلى عدم النوم في بيتي فاخترت هذا الفندق كي أقضي فيه بعض الليالي.

نظر آدم الزاهد إليه نظرات تأمل وتحليل، وكأنه يريد أن يكتشف كذبه من صدقه،

لكنه أجاب بما لم يكن يتوقعه آدم المحروم، إذ قال له:
- هل صديقك هو الكاتب آدم البغدادي الذي وجد أمس مقتولا في شقته؟
بهت آدم المحروم وفوجئ بشكل أثار شفقة الرجل العجوز، فسأل بفزع:
- نعم هو.. لكن من أين تعرف؟
أجاب آدم الزاهد بهدوء وبطريقة لا مبالية كي يخفف عليه، ويمتص شيئا من توتره وفزعه:
- المحطات الفضائية العراقية كلها تتحدث منذ الأمس عن ذلك.
- أنا لم أشاهد الأخبار منذ الصباح. ماذا يقولون في الأخبار؟
أراد آدم الزاهد أن يهدئه، فقال بطريقته المحايدة:
- ليس هناك من جديد. كل المحطات تتحدث بنفس الخبر مع إضافة هنا واختلاف قليل هناك، طبعا كل من وجهة نظره. لكن في كل الأحوال هناك إتهام واضح للحكومة.. ثم ما علاقتك أنت بالأمر؟ فأنت صديقه ولست قاتله..!
- هذه هي المشكلة. أنا صديقه، بل كنت على موعد معه قبل اغتياله، وقد تأخر عن الموعد.. وبعد قليل وصلت سيارات الإسعاف ودخلتْ الفرع ووقفتْ عند باب البناية التي يعيش فيها، أي أنه قُتل أثناء إنتظاري له. ولو راجعت الجهات الأمنية المختصة هاتفه لعرفت أني كنت قد اتصلت به ربما أثناء مقتله. هذه الفكرة بحد ذاتها ترعبني.
- يا ابني أنت لست بقاتله فلم هذا الخوف. أنا سمعت بهذا الكاتب، لم أعرفه سابقا، فأنت تعرف أننا معشر المتدينين لا نقرأ الكتب الفنية والروايات، لإعتقادنا أنها مضيعة للوقت. أو هكذا كنا نفهم الأمر. لكني، وبصراحة شديدة، عرفت من الأخبار فقط بأنه كان ممن يعارضون ممارسات الحكومة، وأنه كان ينظم مظاهرات بعض المثقفين، أو أنه يجتمع بهم في شقته. هذا ما ذكرته بعض المحطات، بل وما تداوله البعض من رواد المطعم.
- وهل قبضوا على المجرم او المجرمين؟
- هه.. أنت عاقل يا ابني، فكيف تقول كلاما كهذا؟ تفاصيل الجريمة التي ذكرتها المحطات هو وجود قاتل أو أثنين، وأنهما دخلا بهدوء إلى الشقة، ولم تكن هناك علامات عنف أو شجار، أي أن القاتل ربما من معارفه.. لكن جميع الدلائل تشير إلى تورط بعض أجهزة الحكومة..بعضهم يقول إنه أحد المسؤولين المقربين جدا جدا لرأس الهرم. مجرد إشاعات، لكن الحكومة هي المستفيدة الرئيسة من مقتله.

– لكنه لم يشكل تهديدا لأحد.. إنه يرفضهم لأنهم كاذبون.. وعدوا العالم بأشياء كثيرة لكن لم يحققوا شيئا منها. كان يرفض توجهاتهم المريبة بالنسبة له. هؤلاء الذين كانوا يعيشون من المساعدات الإجتماعية في الدنمارك ولندن، صاروا الآن يملكون القصور والحسابات المليئة بملايين الدولارات والشقق الفارهة في بيروت وعمان والقاهرة ودبي ولندن وسويسرا. هؤلاء الأميون قتلوا كاتبا رائعا وأديبا فناناً.

– الحكومات دائما تخاف من أصحاب الفكر والقلم لذا تغتالهم.

فجأة إنهار آدم المحروم وأخذ يبكي. فوجئ آدم الزاهد ببكائه، لكنه أحس أن البكاء ربما سيخفف من إختناقه النفسي والهم والكرب الذي ينوء تحت ثقلهما. تركه للحظات يبكي، وحينما لاحظ آدم الزاهد صبي المطعم يخرج من داخل المطعم هاتفا بصوت عال ومسموع بضرورة صب خمسة إستكانات من الشاي، قال له بمواساة:

– لا تبك يا ابني، فالبكاء كما يقال لا يرجع ميتا. عليك أن تنتبه لنفسك.

وبشكل مفاجئ أيضا توقف آدم المحروم عن البكاء، ونظر لآدم الزاهد الذي نظر إليه وقال له:

– عليك مغادرة هذا الفندق المشبوه، وفورا.

لم يفهم آدم المحروم ماذا يقصد آدم الزاهد بجملته تلك فنظر إليه مستفسرا دون أن ينطق بأي شيء، وإنما كان ينتظر الإيضاح أكثر. كان آدم الزاهد منشغلا في صب الشاي بإستكانات ووضعها في صينية صغيرة، لذا لم ينتبه لنظرات آدم المحروم، وحينما نهض لتوصيل الشاي، رأى ملامح علامات الإستفسار على وجه آدم المحروم، فقال له:

– إنتظرني لحظة حتى أرجع.

مضى آدم الزاهد حاملا صينية الشاي إلى الزبائن في داخل المطعم. بقي آدم المحروم وحده في الزاوية. قلقاً من جملته التي تطلب منه مغادرة الفندق فورا. فانتظر مجيئة ليبين له أسباب إطلاقه لتلك الجملة التي خلخلت سكونه. أقبل آدم الزاهد وهو يكاد يجري، لأنه كان يعرف لهفة آدم المحروم لسماع السبب من وراء طلبه ذاك. جلس أمام آدم المحروم وقال له:

– هذا الفندق سيمتلئ الليلة برجال الأمن والمخابرات وأزلام الحكومة، وعليك مغادرته، فوجودك فيه سيضعك في موضع الشبهة، أما إذا عرفوا شيئا عن علاقتك بالكاتب القتيل فستزداد هذه الشبهة عشرات المرات، ثم غدا ستكون الجمعة، وها قد إمتلأت الساحة بالدبابات وسيارات الحرس الوطني، بل هناك

في الشوارع الفرعية سيارات للإستخبارات وسيارات تابعة للأجهزة الحزبية تنتظر لتطويق المتظاهرين، فغدا ستنطلق مظاهرة كبرى، لاسيما بعد اغتيال صديقك الكاتب آدم البغدادي. هناك رعب حقيقي من المظاهرات التي تخرج من ساحة التحرير كل جمعة.

إستمع آدم المحروم بهدوء، وكانت الكلمات تنزل ثقيلة لكنها حادة وواضحة لتكشف له الوضع الذي هو فيه، فتمتم بصوت مختنق:

– لكن إلى أين سأذهب في هذا الليل؟

نظر آدم المحروم إليه بتوسل مشبوب بشيء من الشك، فنظر الرجل العجوز إليه بهدوء وقال:

– ستأتي معي.. تنام عندنا الليلة، وبعدها لكل حادث حديث.

– عندكم؟

– نعم عندنا.. صحيح أننا نعيش بشكل متواضع، لكن بيتنا نظيف وأنا أعيش مع إبنتي وولدها.

– لكن

– لا تتلكن يا ابني. الوقت ليس في صالحك، لأنه ربما بعد ساعة أو أكثر ستكون هذا الفنادق المحيطة بساحة التحرير والطيران مواقع للأمن والإستخبارات، إستعدادا لمظاهرة الغد.

– وماذا أقول لصاحب الفندق؟

– لاشيء. إدفع حساب الليلة واخرج.

نظر آدم المحروم إليه بصمت للحظات وكأنه يزن الموقف، ثم ارتسمت على وجهه إبتسامة حزينة وقال:

– حسنا. سأحاول..

– لا تحاول.. وإنما غادر المكان يا ابني.. اسمعها مني، فأنا رجل مجرب، وأنا أعرف هؤلاء منذ أشهر ماذا يجري هنا كل ليلة جمعة إستعدادا لمحاصرة التظاهرات في ساحة التحرير.

– طيب.. سأذهب لآتي بحقيبتي.

ومضى بخطوات مسرعة، بينما أخذ آدم الزاهد يصب الشاي لدورة جديدة من طلبات رواد المطعم.

حين صار آدم المحروم بجوار غرفة الجارة المسيحية سمع صوت امرأة. لم يكن الصوت يحمل نبرة جارته المسيحية، بالرغم من أنه يشبهه قليلا. فأسرع بالوصول إلى غرفته ليعرف من خلال الثقب ما يجري في تلك الغرفة. فتح الباب وذهب مباشرة إلى حيث الباب فانحنى، وهو في الظلمة، ليتنصت على الغرفة الأخرى. كانت هناك امرأة كبيرة في السن تقريبا، تشد ربطة ملونة على رأسها، تقف عن رأس حواء شمعون التي تسكن الغرفة، وسمع المرأة الأخرى تؤنبها بكلام مليء بالعتب والمرارة قائلة:

– هل تعرفين أن هذا الرجل الذي تريدين خلق المشاكل له قد ساعدنا كثيرا، ووافق على منحي سلفة مليون ونصف من أجل علاج خالك آدم السمعان، بل أعطاني مليون دينار تبرعاً منه حينما أخبرته بأن علينا تسفيره إلى الهند. هل تعرفين أن هذا الرجل عدّل رواتبنا، نحن المنظفات، وضاعفها، وجعلنا أسوة ببقية الموظفين. هل تدرين لماذا يتآمرون عليه؟

لم تقل حواء شمعون شيئا وأنما طأطأت رأسها إلى الأرض شعورا منها بالذنب، فاستمرت المرأة بمواصلة حديثها:

– لأنه لا يقبل على الخطأ، ولا ينصاع لما يريدونه منه.. وأنا التي أقوم بتقديم الشاي له وبخدمته يوميا في المكتب يشكو لي أحيانا هموم منصبه. هل تعرفين أنه كان يسألني كل يوم إن كنت أحتاج لشيء. هذا الذي أعطاك مئة دولار وإجازة لثلاثة أيام حينما أخبرته بأنك تريدين السفر إلى عينكاوه لإستخراج هويات الأحوال المدنية لطفليك، وأنت ماذا فعلت؟ ذهبت واشتريت بنطلون جينز ومواد تجميل وحذاء، بل وبقيت في البيت لثلاثة أيام باعتبارك مسافرة، وحينما عرف ذلك عاقبك بإرسالك إلى قسم العلاقات. أهذا جزاء الذي أحسن إليك أن تتآمري ضده مع من؟ مع حواء عبد الوهاب التي تعتبرك ساقطة؟ أو مع حمايات حجي أبو الهلس؟ يا ابنتي اتقي الرب. يلاّ.. يلاّ.. قومي معي لنذهب إلى البيت، فليس من الصحيح بقاؤك في هذا الفندق، ولولا اتصالي بأحد المستخدمين من أصدقاء حمايات أبو الهلس لما عرفت أين أنت. يلاّ بنا إلى البيت.

ظلت حواء شمعون مطأطئة الرأس لكنها قالت:

– لن أذهب معك إلى البيت. وسأبقى هنا. وقد وعدني أبو الهلس بأنه سيرجعني إلى العمل وسيضاعف مرتبي إذا شهدت ضد المدير العام. ثم.. ثم.. أنهم صوروني بالموبايل..

– ماذا؟

– صوروني بالموبايل وأنا كنت نائمة وفي وضع مكشوف.
– ماذا؟ يا للمصيبة..ادركيني يا العذراء.. أدركني يا أبانا الذي في السماوات.. ماذا يجري..؟!

كانت المرأة المسنة التي عرف أنها أم حواء شمعون أخذت تضرب بيديها على رأسها وهي تندب وتنادي الرب والعذراء، ثم اتجهت نحو الباب خارجة، بينما بقيت جارته مطأطئة الرأس وهي تبكي.

تراجع آدم المحروم عن الباب واتجه نحو الباب فضغط على زر التيار الكهربائي فأنار الغرفة. جلس للحظات مفكرا بهذه الإنحطاط الإنساني الذي يمارسه البعض لإزاحة الشرفاء، على قلتهم في هذا الزمان، من أجل سلبهم مواقعهم ومناصبهم الإدارية.

عاد آدم المحروم من شروده في محاولة التفكير بذاك المدير المسكين الذي تحاك في هذه الغرفة ضده مؤامرة قذرة، فلملم أوراق المخطوطة ووضعها في الحقيبة الجلدية مع المجلة التي فرش عليها الطعام، وأثناء ترتيبه للمخطوطات والأوراق انتبه لهاتفه النقال الموجود داخل الحقيبة أيضا. أخرجه فعرف أنه قد أطفأه منذ ليلة البارحة. أرجع الموبايل إلى الحقيبة، وحمل كيس النايلون الذي فيه بقايا وجبة الطعام وعلبة البيبسي. خرج من الغرفة بعد أن أطفأ الضوء، وأغلق الباب بالمفتاح واتجه هابطا.

عند الإستعلامات لم يجد سوى الفتى القروي، فأعطاه المفتاح. ارتسمت الغرابة على وجه الفتى القروي، فأوضح آدم المحروم الأمر مباشرة وبشكل طبيعي لا يوحي بالشك، بأنه استلم اتصالا هاتفيا من أهله أخبروه بأن والدته مريضة جدا ونقلت إلى المستشفى، وأن عليه أن يذهب إلى النجف حالا. تفهم الفتى القروي وتمنى لوالدته الشفاء. نقده أجرة ليلة كاملة وغادر الفندق.

حين أقبل على آدم الزاهد رأى أنه أخذ يلملم أدواته بعد أن نظف عدة الشاي. وكان هناك في الزاوية صندوق حديدي توجه إليه الرجل العجوز، ففتحه ووضع عدته فيه ثم أغلقه بقفل متين جدا. وتوجه بعد ذلك إلى المطعم فدخله. كان آدم المحروم واقفا ينتظره. حينما خرج من المطعم لمح آدم المحروم الهم على وجهه، لكنه ما أن رفع وجهه إلى الأعلى حتى عادت الإبتسامة الأبوية إلى وجهه الذي يحمل بقايا وسامة صارمة.

كان ثمة شعور بالذنب يسيطر على نفسية آدم المحروم، إذ أحس أنه ربما سيحرج آدم الزاهد بالذهاب معه إلى بيته؟ ثم أنه لا يعرف أي شيء عنه فكيف يدخل إلى بيته

ليبيت عنده؟ سأل نفسه: هل تسرعت بالقبول في الذهاب معه ومغادرة الفندق؟ وماذا ينتظرني عنده؟ لكن أزاح كل هذه التساؤلات جانبا حينما شاهد أربع سيارات كبيرة مضادة للرصاص توزعت على جانبي الشارع، إثنتين على الجانب الأيمن قرب المطعم وإثنتين قرب نهاية الشارع من الجهة المقابلة. إنتبه إلى أن هذه ليست سيارات عادية، ربما هي لأجهزة مخابرات أو لجهات رسمية أخرى.

حينما انتهى آدم الزاهد من إقفال الصندوق الحديدي، جاءه صبي المطعم بكيس نايلون فيه كمية من الطعام. أخذ آدم الزاهد الكيس، ثم التفت إلى آدم المحروم، فانتبه إلى أنه ليس معه شيء سوى حقيبة جلدية، علقها على أحد كتفيه، حقيبة متوسطة الحجم لكنها بدت منتفخة قليلا، فسأل:

- أهذا كل ما تملك؟ أليس لديك أغراض أخرى؟
- لا أبداً. ليس لدي سوى هذه الحقيبة.
- إذن لنتوكل على الله، ولنذهب.. بيتنا في منطقة تل محمد. هل تعرف هذه المنطقة؟
- طبعا أعرفها.
- سنأخذ سيارة نفرات، ميني باص، لكن علينا أن نمشي قليلا إلى ساحة الطيران، فعند الزاوية تأتي الباصات الصغيرة التي تذهب إلى هناك، وإذا لم نحصل عليها فسنأخذ سيارة تأكسي.

قال ذلك واتجها إلى الشارع العام بإتجاه ساحة الطيران. إنتظرا لأكثر من عشرين دقيقة لكن بدون جدوى، لذلك أحس آدم الزاهد بشيء من الارتباك أمام ضيفه، فليس من كرم الضيافة أن يجعله ينتظر كل هذا الوقت، فأوقف سيارة تأكسي، وتحدث مع السائق، ثم فتح الباب، وطلب من آدم المحروم أن يصعد أيضا.

كانت المنطقة شبه مقفرة، وما فيها من حركة يعود لحركة الآليات العسكرية وسيارات الأجهزة الأمنية التي تستعد لمحاصرة التظاهرة التي ستخرج صباح الغد تحت نصب الحرية في ساحة التحرير التي تقع في الطرف الآخر من نهاية حديقة الأمة.

تحركت سيارة التاكسي بهما. كان الشارع مقفرا وغارقا في العتمة، تلك العتمة الغامضة المليئة بالأشباح. مرت السيارة من منطقة القصر الأبيض، إلتفت آدم الزاهد إلى مجمع المباني الذي كان في ما مضى مجمعا للمخابرات العراقية، والذي ينتصب مثل أطلال ومليئة بالأرواح الشريرة، وقال لضيفه مشيرا إلى المكان:

- كنت معتقلا لفترة أشهر هنا.

إلتفت آدم المحروم إلى جهة مباني المخابرات وتمم بهدوء، مرددا جملا من خطبة قديمة يحفظها:

– أيـن مـن بنـى وشـيّد، وزخـرف ونجّد، وغـره المال والولد؟ تلـك بيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية.

إبتسم آدم الزاهد وقال:

– أتحفظ من التراث؟ هذه من خطبة لقس بن ساعدة الأيادي.

أعجب آدم المحروم بذاكرة آدم الزاهد وسرعة بديهته، وقال مؤكدا بحرارة:

– نعم.. إنها له. كانت ضمن مقررات الدراسة.. هي من خطبة جميلة مليئة بالعبر.. لكن لا أحد يعتبر؟ لا أحد.

وافقه آدم الزاهد وقال بهدوء مليء بالحكمة:

– نعم.. لا أحد يعتبر.

وصـل التاكسـي سـاحة الأندلـس والتـف إلى الإتجـاه الذي يقع فيـه إتحاد الأدباء. كان مبنى الإتحاد غارقا في العتمة. التفت آدم المحروم صوب المبنى. إنتبه آدم الزاهد لذلك، فسأله:

– هل أنت عضو في إتحاد الأدباء؟

– نعم..

– ولكنك كما أعرف لست أديبا وإنما صحفي؟

– صحيـح.. لكنـي أكتـب المقـالات والعروض النقدية عن الكتـب الأدبية والفنية، ولدي بعض المحاولات الشعرية والروائية المنشورة.

إلتفت السائق، الذي كان صامتا طوال الوقت يستمع إليهما، وسأل ببساطة:

– أصحيح يا أستاذ أن المكان صار خمارة أو حانة للسكارى؟ بل صار مكانا ليس له علاقة بالأدب والأخلاق؟

فوجئ كلاهما بسؤال السائق، لم يكونا منتبهين بأن هناك شخصاً ثالثاً معهما، إبتسم آدم المحروم لكنه أجاب وفي نبرة صوته ما يشي بالإحتجاج:

– هـذه شـائعات مجلـس محافظـة بغـداد الـذي صـار يذكرنـا بمحاكـم التفتيـش، والحمـلات الإيمانيـة لهيئـات الأمـر بالمعـروف والنهـي عن المنكر.. اسـمع يا أخي.. بغداد ليست قندهار.

إرتبك السائق من هذا الجواب الذي فهم منه هجوما على الحكومة، فقال بتوتر:

– أخـي أنـا سـألتك سـؤال بسـيط، لأنـه أنا سـمعت ذلك من بعض الـركاب الذين

يعلقـون علـى الإتحـاد كلمـا مـررت منها، فما أن يقرأوا اللافتة التي تحمل اسـم الإتحـاد حتـى تبـدأ التعليقـات، فبعضهـم حتـى يعلق بأنه لماذا لا يغيرون شـعار الإتحاد ويضعون بدل القلم قنينة وكأس، فلا داعي أن تدخلنا بالسياسـة.. ليس فينا طاقة للسين والجيم..

سـاد صمت هيمن على الجميع بحيث راود آدم المحروم إحسـاس بأنه تسـرع في قوله ما قال، وكان عليه أن يكون أكثر حذرا، لاسـيما وهو لا يدري أية مغامرة جديدة هو مقبل عليها. نظر إلى وجه آدم الزاهد، فرآه متوترا تحيطه ظلال وأحيانا تسقط عليه إنارة من هنا أو هناك من مصابيح الشارع. سأل نفسه بقلق: هل عليه أن ينزل الآن ولا يواصل الذهاب مع هذا الرجل العجوز؟ لكن أين يذهب وقد خرج من الفندق؟ أليس غريبـا أن يدعـو شـخص بمثـل حالتـه الفقيرة شـخصا آخر للمبيت عنـه؟ ألا يحتمل بأن لديـه خطـة مـا يريـد تحقيقهـا من ذلـك؟ هل هو مخبر أو له علاقة بالأجهزة الأمنية أراد الإيقـاع بـه؟ لكـن، لـو كان الأمـر كذلك فلماذا دعاني للخروج من الفندق، كان أسـهل عليـه أن يتصـل بالأجهـزة الأمنيـة ويخبرهم عـن مكاني ليقبضوا علي؟ ثم ألا يخاف أن أنتقم منه مثلا، فأنا شاب وهو رجل عجوز؟ لا..لا.. لا أعتقد ذلك..لا يبدو عليه أنه من المخبرين، على العكس من ذلك، لكنه يبقى في جميع الأحوال شخصية غامضة، وكم في العراق من شخصيات غامضة لا توجد حتى في أعظم روايات الغموض والتشويق، لا عند دستويفسكي ولا ماركيز.

شـعر آدم المحـروم بشـيء مـن الهـدوء، وعـاد مـن تداعياته النفسـية، منتبها لتوقف التاكسي، ولصوت آدم الزاهد يقول له بهدوء:

– لقد وصلنا.

نزلا من السيارة. مال السائق باتجاههما، موجها كلامه لآدم المحروم، وقال:

– أعذرني أستاذ إذا كنت قد ضايقتك، ما كان قصدي ذلك.

إلتفت آدم المحروم، وقال بطيبة، وقال:

– لا أخـي.. مـا ضايقتنـي، وأعـرف أنه لم يكن قصـدك، لكني تضايقت من الكلام نفسه، ليكن في علمهم جميعا: بغداد ليست قندهار. نعم ليست قندهار..

تحرك صاحب السيارة وكأنه يهرب من مواصلة النقاش، أو خوفا من أن هناك في العتمـة مـن سـمع مـا دار بينهمـا. بعـد خطوات من نزولهما التفـت آدم الزاهد إليه وقال له بلهجة أبوية:

– لماذا أنت عصبي إلى هذه الدرجة؟ السائق ما قال شيئا مسيئا بحقك، إنه نقل ما

يتداوله البعض. لا تكن بهذا العصبية والغضب لأنهما يمكن أن يضراك.
أحس آدم المحروم بالإرتباك وبشيء من الخجل، وقال وكأنه يبرر تصرفه:
– أنا متعب، وأعصابي متوترة كما تعرف، لذلك أنفجر متوترا على أبسط الأشياء. لكني لم أقل شيئا مسيئا أيضا. كل ما قلته إن بغداد ليست قندهار، وأقولها للمرة المليون: بغداد ليست قندهار.
إبتسم آدم الزاهد إبتسامة أبوية ونظر إليه بإعجاب، وقال:
– دعك من كل هذا يا ابني.. نعم بغداد ليست قندهار، أنا أيضا أقولها معك.. لكن إهدأ.. وأنا متأكد بأنك ستهدأ حينما تتعرف على حفيدي.. إنه جنتي.. طفل جميل وذكي بشكل خارق.
– ألآ يكون نائما في مثل هذا الوقت؟
– لا.. إنه لا ينام حتى أرجع أنا، كما أنه يعتقد أنه يجب أن يحمي والدته الوحيدة في البيت والتي تنتظر عودتي كل ليلة أيضا.
دخلا شارعا مظلما، ثم زقاقا جانبيا، وأخيرا وقفا عن باب حديدي صغير. أخرج الرجل العجوز مفتاحا ووضعه في موضعه فاتحا الباب، لكن قبل أن يدخلا، مسك آدم المحروم يد الرجل العجوز وسأله بقلق:
– أصدقني القول يا حاج.. ألا أسبب لكما مضايقة بمبيتي عندكم؟
نظر إليه آدم الزاهد للحظات وقال له:
– ما لك يا ابني؟ هل أنت خائف مني؟ أنت لا تسبب لنا أية مضايقة، والبيت الذي يحل فيه الضيوف تحل فيه البركة، أدخل ولا تسأل مثل هذه الأسئلة مرة أخرى.
كان الباب يقود إلى طريق مبلط بالإسمنت، وإلى جانبه حديقة صغيرة بدت غارقة في الظلمة. الطريق القصير يقود إلى المبنى الصغير الذي يتألف من طابقين. كانت ثمة سجادة صغيرة عند الباب، وانتبه آدم المحروم إلى عدد الأزواج من الأحذية والنعال الموجودة قرب الباب، وهذا ما عنى لديه بضرورة نزع الحذاء قبل الدخول إلى غرفة الإستقبال.
تنحنح الرجل العجوز عند الباب الداخلية وفتحها بهدوء ودخل. بقي آدم المحروم عند الباب ولم يدخل أدبا، فليس من آداب الدخول إقتحام الأبواب. لقد انتظر أن يعلن آدم الزاهد عن قدومه أو يدعوه إلى الدخول بعد أن يتستر أهل البيت أمام الضيف الغريب. بعد لحظات قليلة دعاه الرجل العجوز للدخول، فاتحا الباب له بنفسه.
حين دخل آدم المحروم إلى الصالة أحس بالراحة والإنشراح النفسي. كانت الصالة عادية مثل أية صالة في أي بيت عراقي من عامة الناس، فالأثاث بسيط يتألف من

كنبات تحيط الغرفة، وتلفزيون يتوسط أحد الجوانب على طاولة صغيرة، والأرضية مفروشة بالسجاد الأحمر. وكانت الجدران مصبوغة بلون وردي خفيف لكنه متألق. وثمة مدفئة نفطية تتوسط الغرفة بالرغم من أن الجو ليس بارداً، وكانت الصالة تقود من جانب آخر إلى داخل المنزل، حيث المطبخ والحمام وغرف النوم والدرج الذي يقود إلى الطابق الأعلى.

جلس آدم المحروم على كنبة قريبة من الشباك المطل على الحديقة من مدخل الصالة إلى داخل المنزل، بعد أن وضع حقيبته على الأرض. اختفى آدم الزاهد في أعماق المنزل، وبقي هو وحيدا يتأمل الصالة. انتبه إلى وجود لوحة كبيرة خط عليها بشكل جميل آية الكرسي. وعلى جدار آخر صورة لرجل يحمل طفلا، رجل يشبهه لحد ما، وصورة أخرى للطفل وحده لكن أكبر سنا منه في الصورة الأخرى. أحس بهدوء وأمان، وبإرتياح غامض من هذا الجو العائلي الحميم الذي يفتقده في حياته اليومية.

لم تمض إلاّ لحظات حتى دخل إلى الصالة طفل صغير في الخامسة من عمره. ظل الطفل واقفا باستحياء، فمد آدم المحروم يده إليه داعيا إياه إليه، فركض الطفل وألقى بنفسه في أحضانه، وفي تلك اللحظة دخل آدم الزاهد تتبعه امرأة مكللة بالسواد. تلبس ثوباً أسودَ طويلا وعليه بلوزة سوداءَ طويلة تصل إلى الركبتين، ويغطي رأسها حجاب متواضع لا مبالغة فيه. كانت المرأة باهرة الجمال. عينان سوداوان كبيرتان تشعان بضوء غامض يبعث على القشعريرة اللطيفة في الجسد، ووجه يشبه وجوهاً منحوتةً من المرمر، وبشرة خمرية تميل إلى اللون الوردي، وقامة متناسقة تميل إلى الطول. تقدمت المرأة وألقت السلام بكل ترحاب، فأكمل الأب مقدما إياها إلى ضيفه وعلى شفتيه إبتسامة:

– هذه ابنتي حواء أم آدم الملاك. وهذا الملاك الصغير هو آدم البطل.

نهض آدم المحروم منبهرا بجمالها الذي زلزل كيانه منذ الثواني الأولى لرؤيتها، لكنه تماسك كي لا يفضح نفسه، قام واقفا بعد أن أجلس الطفل آدم الملاك إلى جانبه على الكنبة. أرتسمت على وجهها ملامح الدهشة والغرابة، إذ تذكرت أخاها الشهيد لما بينهما من شبه، رحبت هي به بما يليق وبما يزيل عنه الحرج، ولكي تبعد نفسها وتبعده عن الحرج توجهت إلى ابنها قائلة بمرح:

– تعال يا ابني، لا تزعج عمك، أنه تعبان ويحتاج للراحة، تعال معي كي نعد العشاء لجدو ولعمو.

قفز الطفل من الكنبة وقبل أن يغادر مع أمه احتضنه جده ورفعه مقبّلاً إياه، وما أن تركه حتى اختفى راكضا مع أمه التي قبل أن تغادر رمقت آدم المحروم بنظرة وكأنها

تريد أن تعرف هذا الضيف وما وراءه.

جلس آدم المحروم وآدم الزاهد على كنبتين متقابلتين. أراد آدم الزاهد أن يزيح الحرج عن ضيفه الذي كانت علائم الإطمئنان ممزوجة بالخجل والإرتباك الواضح على ملامحه، فقال له:

– قبل كل شيء أريد أن أقول لك هذا بيتك، فلا تشعر بالحرج، أنا أعرف أنك متوتر وتشعر بالإحراج، لكني اتمنى عليك أن تسترخي ولا تربك نفسك بأفكار وأسئلة غامضة.

أحس آدم المحروم بشيء من الإطمئنان، فقال:

– أنا لا أعرف كيف أشكرك؟ صحيح أنه راودتني مختلف المشاعر وأنا في الطريق إلى هنا، لكني ارتحت لك وألا لم أغادر الفندق، لكني أيضا أحس أنني أثقل عليكم.

– أنت لا تثقل علينا أبداً. سوف نتعشى ونشرب الشاي، لكن هذه المرة ليس من يدي وإنما من يد حواء أم الملاك. موافق؟

إبتسما، وقال آدم المحروم والدم يصعد لوجهه والألق يومض في عينيه:

– موافق.

في هذه اللحظات دخل الصغير آدم الملاك وبيده قطعة نايلون مطوية، وتقدم من جده وهو يقول:

– أمي تقول خلي جدو يفرش النايلون حتى نتعشى.

أخذ الجد النايلون من يده وهو يقبله:

– صار جدو.. من عيوني.

قام الجد برفع المدفأة النفطية ووضعها بعيدا، ثم بدأ، يساعده آدم المحروم، بمد النايلون الذي كان مطويا فامتد إلى أكثر من متر ونصف المتر وبعرض متر أيضا. بعد لحظات دخلت الابنة حواء وهي تحمل صينية كبيرة وضعتها بينهما. ثم انحنت وهي توزع صحون الأرز والمرق وصحن الطرشي والخبز وصحنا مليئا بالكباب. ثم ذهبت وعادت مسرعة بدورق مليء باللبن وآخر بالماء وجاءت بالكؤوس ووضعتها أمامهما. ثم استقامت وقالت باعتذار تقليدي هو جزء من الترحاب وأدب الضيافة:

– اعذرنا من أي تقصير.. واعذرنا على هذه المائدة فلو كنا نعرف لأعددنا أكثر من هذا بكثير..

إرتبك آدم المحروم، بينما كان الأب فخورا بابنته وأدبها وحسن استقبالها للضيف.

تمتم آدم المحروم بخجل، بعد أن ألقى نظرة بارقة إلى وجهها الجميل:

- أنا الذي أعتذر بمضايقتي إياكم في هذا الوقت من الليل. وأشكركم على حسن استقبالي. والحمد لله هذه المائدة بركة. وبالرغم من أني غير جائع لكني من أجل الزاد والملح سأتذوق طعامكم.

- هنيئا وبالعافية إن شاء الله..

اختفت حواء أم الملاك داخل المنزل، بينما تقرفص الصغير آدم الملاك متكئا على فخذ جده. أخذ جده قطعة من الخبز ووضع فيها قطعة كاملة من الكباب ولفها له، وهو يقول له بصوت طفولي:

- وهذه للبطل الصغير الملاك آدم.. كل يا صغيري.

فتمتم الطفل الصغير بصوته الطفولي:

- أنا أكلت يا جدو.

بعد قليل توقف آدم المحروم عن الأكل. إنتبه آدم الزاهد لذلك فسأله بمودة:

- لماذا توقفت عن الأكل؟ لم تأكل شيئا.

- أنت تعرف أنني قد تعشيت، وأنا أكلت من باب المشاركة في الزاد والملح.

لم يدم العشاء طويلا، فبعد عشر دقائق كان الجميع قد انتهى من الأكل. وقام الأب آدم الزاهد بحمل الصحون إلى الداخل، بعده جاءت ابنته لتحمل بقية الصحون وقطعة النايلون، إلا أن الطفل آدم الملاك أصر على حمل أحد الصحون، فخافت أمه أن يتساقط بقايا الطعام منه، لذا أعطته صحنا صغيرا، أفرغت بقايا الطعام منه.

اختفى الجميع داخل المنزل، لكن بعد دقائق قليلة عاد الأب يحمل صينية الشاي وفيها ثلاثة استكانات من الشاي، تبعته ابنته وهي تحمل بعض الحلويات التي يمكن أن تؤخذ مع الشاي. جلس الأب بعد أن أعطى آدم المحروم استكان الشاي وأخذ هو استكانا وأعطى الصينية مع الإستكان المتبقي لابنته. أخذ الجميع يرشف الشاي. أراد آدم الزاهد أن يجعل الجو أكثر حميمية، ويزيح ارتباك ضيفه لاسيما بعد جلوس ابنته معهم. فقال مازحاً والإبتسامة ترتسم على وجهه:

- أي الشاي أطيب، الشاي الذي أنا أعمله أم شاي ابنتي؟

فقال آدم المحروم، وهو يحس بالدم يصعد إلى رأسه:

- ألا تزعل لو قلت لك أن شاي أم الملاك هو أطيب من شايك مرات ومرات؟!

ضحك الجميع للحظات، لكن الصمت عاد من جديد يسود الغرفة، فقال الأب موجها كلامه إلى آدم المحروم:

– ماذا ستفعل مع وضعك؟

بوغت آدم المحروم بالسؤال، لكنه ارتاح أيضا لأنه يريد فعلا أن يستوضح وضعه، ومعنى وجوده بينهم، فأجاب:

– لا أدري بالضبط ماذا سأفعل؟ علي أن أتبين الوضع أساساً.

فقال له آدم الزاهد بهدوء وبنبرة مليئة بالثقة:

– يا ابني لماذا أنت خائف لهذه الدرجة؟ ماذا يعني أنك كنت صديقه وتنتظره قبل حصول الجريمة؟ وماذا يعني أنك كنت آخر من اتصل به؟ من الطبيعي أن يكون القتيل قد اتصل بأصدقائه، وإلا لماذا يسمون أصدقاء ومعارف؟ ثم أن إتصاله بك هو دليل على براءتك وليس العكس، لأن من يتصل بشخص لا يذهب لاغتياله.

كانت حواء أم الملاك تتبادل النظرات المستفسرة والمترقبة بينها وبين أبيها آدم المحروم، لا سيما وقد فهمت من سياق الحديث بأن ثمة جريمة قد حصلت وأن لضيفهم علاقة ما بها. إنتبه آدم الزاهد لوجود ابنته فأخذ يشرح لها موضحاً الوضع لها وضع ضيفهم ولماذا هو بينهم:

– يا ابنتي، الأستاذ آدم المحروم، خريج كلية الآداب – قسم اللغة العربية، وهو كاتب في الصحافة، كان لديه صديق حميم جدا وجد مقتولاً في شقته، وكان هو على موعد معه، وربما آخر من اتصل به، لذا فهو خائف أن يتهم في هذه القضية، فترك مسكنه واستأجر غرفة في فندق الركن الهادئ المجاور لمكان عملي، قرب ساحة الطيران، وهناك تعارفنا، وشرح لي وضعه. ولأن الليلة جمعة فتلك المنطقة ستكون مكتظة برجال الأمن والمخابرات ورجالات الحرس الوطني وأمن الأحزاب، وهذا ربما سيجره إلى سين وجيم هو في غنى عنه، فدعوته ليبيت عندنا إلى أن يفرجها الله عليه.

صمتت للحظات. نظرت إليه بتأمل، ثم تبادلت النظر مع أبيها، وقالت بهدوء:

– مثلما قال أبي، لماذا أنت خائف؟ أنت بريء من دم صديقك. حسناً فعل أبي بإستضافتك عندنا فالوضع غير مستقر، ثم لدي سؤال.

فقال آدم المحروم بهدوء وكأن كلامها كان مسكّناً للقلق والتوتر:

– تفضلي.

– أصديقك هذا هو الكاتب الذي تتحدث عنه الفضائيات منذ يومين؟

– نعم

– لكن بعض الفضائيات تقول بأن أحد أعضاء مجلس النواب، من المقربين لهرم

السلطة مع ابن الحاكم المطلق للبلاد هما المتهمان بالإغتيال.
فوجئ لأب وآدم المحروم من هذا الخبر، فسأل الأب بتوتر:
– من أين لك هذه المعلومات يا ابنتي؟
– مـن الفضائيـات، فأربـع أو خمـس فضائيات عراقية، إلى جانب بعض الفضائيات العربية ذكرت هذه الأخبار.
نظر آدم المحروم والأب لبعضهما على هذه الأخبار الجديدة، وانبسطت أساريرهما لها، وقال الأب بحماس وفرح وكأن آدم المحروم هو ابنه:
– الله كريم وعادل يا ابني، الله كريم. بسم الله الرحمن يالرحيم: سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (1) له مُلك السماوات والأرض يحيي ويميتُ وهو على كلِ شـيء قدير (2) هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيء عليم (3). صدق الله العظيم. الحمد لله على كل شيء.
– شكرا لك يا حاج. حديث أم الملاك ريحني كثيرا. لكن أنت تعرف أن الفضائيات أخذت من جريمة الإغتيال سببا للتصفيات السياسية.
– المهم يجب أن تهدأ، فأنت تبالغ في توترك وتعذيب نفسك بخوف لا مبرر له.

صمـت آدم المحـروم قليـلا، ثـم نظـر إليهمـا وقال بنبرة كان واضحـا أنه يحاول أن يكظم التوتر الذي فيها:
– المشـكلة أنـا لا أخـاف مـن الإتهـام والشـبهات والإسـتجواب، وإنمـا أخاف أن تتـم تصفيتـي أيضـا، فاغتيـال آدم البغدادي كان رسـالة إلى جميع المثقفين الذين يتظاهرون ضد الحكومة.
صمت الأب وابنته للحظات، إلى أن بادرت الإبنة بالسؤال:
– قـل لـي يـا أسـتاذ آدم بصراحـة، فأنـا أريـد أن أعـرف فقط، لمـاذا يتظاهر هؤلاء المثقفون ضد الحكومة ورئيسها؟
تباطأ آدم المحروم في الجواب قليلا، ثم قال بهدوء:
– لقد تخلصنا من طاغية، ولا نريد للطغيان أن يعود ثانية. نريد حياة كريمة. نريد أن تحفظ كرامة الإنسان وأن لا يهان بإلغاء أبسط حقوقه. ما معنى أن البلاد تعيش في شبه ظلام؟ ما معنى أن يتهم الإنسان ويزج به في السجون بلا محاكمة وإنما نتيجة وشاية مقبوضة الأجر؟
لم يُكمل آدم المحروم كلامة إذ فوجئ بانسياب الدمع على خدي حواء أم الملاك،

التي كانت قد أخذت ابنها في حضنها، والذي كما أنتبه آدم المحروم إليه كان نائما في حجر أمه، كما انتبه لوجوم الأب وصمته الأخرس.

ظـن آدم المحـروم أنـه قـد تجـاوز في كلامه علـى معتقداتهم السياسـية، فقد حدثه آدم الزاهد بأنه كان في السجن لسنوات، وأنه يعرف رجال الحزب الحاكم جيدا، لكنه يعرف أيضا أنه ضد تصرفاتهم، لذا لم يفهم بالضبط لماذا نزلت الدموع من عيني هذه المرأة الساحرة، المتألقة، والباهرة الحضور، لذا قال مستدركا:

– أنـا أعتـذر منكمـا، ربمـا قد تجاوزت قليلا في كلامي، لكني أردت توضيح لماذا يخرج زملائي وأصدقائي من المثقفين للتظاهر ضد الحكومة، وكان صديقي آدم البغدادي من المنظمين الرئيسين للتظاهرات.

نظر الأب إلى ابنته وقال بألم:

– لا يا ابني لم تتجاوز الحقيقة في كلامك. لكنك فتقت جرحا مؤلماً كنا نحاول منذ سنين أن نقطبه.

فقال آدم المحروم بتعجب:

– أنا؟ أنا فتقت جرحكم؟ أنا أعتذر مجددا..

نظر الأب إلى ابنته بحنان كبير، وألقى نظرة تفيض حنانا وشفقة على الطفل الملاك النائم في حجرها، والتفت إلى آدم المحروم قائلاً:

– أسـمع يا ابني. حينما كنت أنا في السـجن قبل سـقوط النظام المقبور. استشـهد ابنـي، وبعـد فتـرة تزوجـت ابنتـي مـن ابن جارنـا، والذي كان معلما في مدرسـة إبتدائية. وحينما خرجت من السجن، بعد سقوط النظام، كانت زوجتي أم حواء، اللـه يرحمهـا، قـد انتقلـت إلـى العالم الآخـر. لذا أخذت أعيش فـي منزل ابنتي وزوجها. وقد أخبرتك اليوم عن نفسـي قليلا، بأني كنت قريبا من قادة الحزب الحاكم اليوم، وما جرى لي معهم. ولا أدري من؟ وكيف؟ تمت مداهمة منزل ابنتي وزوجها، وتم اعتقال زوج ابنتي من قبل الأميركان نتيجة وشاية مخبر، فقد أُتهم بأنه يساعد رجال المليشيات في المنطقة، وهكذا اختفى في غياهب سجون ومعتقلات العراق الجديد، وبعد التي واللتيا، عرفنا أنه تم تسفيره إلى سجن بوكا قـرب أم قصـر فـي أقصـى جنـوب العراق، وها أنـت كما ترى، فقد أنجبت ابنتي طفلها هذا، بعيدا عن أبيه.

خلال هذه الأثناء انتبه الأب إلى التفاتة رأس آدم المحروم إلى إحدى الصور المعلقة

على الجدار والتي فيها صورة طفل ورجل، فأراد الأب تصحيح الأمر:

– هذا الذي في الصورة هو خال الملاك. إنه الشهيد ابني، ألم أقل لك إنك تشبهه. لقد تم إغتياله أمام باب البيت مساء يوم رمضاني. أما زوج ابنتي فلم نلتق به أبدا، رغم محاولاتنا اليائسة للوصول إلى مكانه. شخصيا ذهبت إلى أصدقائي من المسؤولين في الحكم اليوم، ورجوتهم، بل توسلت إليهم مذكرا إياهم بإيام النضال وبالتاريخ المشترك، بأن يساعدوني في إخراج زوج ابنتي من بوكا، فلم أجد أذنا صاغية، بل هناك من يصفر وجهه ويرتبك حينما يسمع باسم سجن بوكا، ويهمهمون بكلام غير مفهوم أتبين منه هو أن ما دام الأمر عند الأميركان فالقضية صعبة، فهؤلاء لا يحترمون أكبر رأس عراقي، ويتعاملون معه كمشبوه. والبعض منهم نصحني بأن أنسى الأمر ولا أذل نفسي بالسؤال عنه، لأنه لا أحد يستطيع أن يخرجه من بوكا إلا الأميركان أنفسهم. تصور. وشاية صغيرة، ربما من جار حقود، أو عضو في تنظيم سياسي ديني منافس، وشى به عند الأميركان. ومن هنا حينما تحدثت عن الأبرياء الذين يقبعون في السجون نتيجة وشايات مقبوضة الثمن، فكأنما كنت تتحدث عنا.

كان آدم المحروم يتألم، بل وكان ألمه يتصاعد وتتضح تجلياته على ملامح وجهه، وذلك كلما توغل الأب في سرد حكاية زوج ابنته. كان أحيانا يقتنص لحظات لينظر إلى وجه هذه المرأة الباهرة الجمال، ليدرك أن أحد أسرار جمالها الغامض هو ذلك الحزن المعتق الساكن في أعماق عينيها ونظراتها. أحس في لحظة أنه يعشقها. يعشق حزنها، وألمها الكبير، وصبرها، وأسرارها الغامضة، وشخصيتها المأساوية. وخلال توقف الأب عن الحديث، اقتنص هو الفرصة فوجه كلامه لها، رافعا وجهه إليها، قائلا:

– أنا أعتذر أن كنت قد جرحتك دونما أدري، فقد كنت أجيب على سؤالك: لماذا يتظاهر أصدقائي المثقفون ضد الحكومة؟

– لا عليك.. أنا حقا كنت أسأل نفسي لماذا يتظاهر هؤلاء المثقفون الذين نراهم على شاشات التلفزيون أو نقرأ أحيانا أسماءهم في الصحف والمجلات، ما الذي ينقصهم حتى يتظاهروا؟

– ينقصهم الكثير..

أراد الأب أن يحاصر سيل الحزن الذي إندلق من جرارة الذاكرة، وموجات الغضب

التي بدأت تزحف من ضفاف الكلام. فقال محاولا تغيير دفة الحوار:

- دعونا من كل هذا الكلام الآن. لدينا الوقت للحديث فيه. أنت متعب يا ابني، وسوف نتركك تنام بهدوء، وغدا إن شاء الله نفطر بل ونبقى هنا إلى العصر، نتابع المظاهرات من شاشات التلفزيون، وعند العصر إذا أحببت أن تأتي معي إلى زاويتي عند المطعم، أو أن تذهب لإنجاز أعمالك وتعود إلي، وأني أفضّل أن تبقى عندنا بعض الوقت إلى أن نتبين الأمر بكامله، ونطمئن عليك، عندها يمكنك أن تقرر.

أحس بفرح غامر في أعماقه من حديث الأب بالبقاء لفترة أخرى، فقال بإستحياء كمن لا يريد ذلك:

- لكني أسبب لكم المضايقة، وأسلبكم راحتكم.

نهض الأب، وتبعته بالقيام ابنته وهي تحمل ابنها في حجرها، فأخذه الأب منها، وقال موجها كلامه لآدم المحروم:

- هل تود النوم على الكنبة أم على الأرض؟
- لا فرق عندي.
- لكن الكنبة ضيقة، الأفضل أن تنام على الأرض كي تأخذ راحتك.

خرج الأب وتبعته ابنته. عند المدخل الفاصل التفتت إليه فالتقت نظراتهما خلال ثوانٍ، لكنها كانت كافية أن تخلق شرارة جاذبة بينهما. بعد قليل عاد الأب وبيده فراش ووسادة، ألقاهما على أرضية الصالة وذهب، فقام آدم المحروم بمد الفراش على الأرض، ووضع الوسادة على أحد جوانبه، ثم عاد الأب وبيده لحاف خفيف ودشداشة بنية اللون. أعطاهما لضيفه، ولم يطل الوقوف، إذ قال له:

- هل تحتاج لشيء آخر يا ابني؟
- لا.. شكرا..

وقبل أن يذهب الأب دخلت الإبنة وبيدها كأس مليئة بالماء، وقالت:

هنا الماء أيضا، فلربما تعطش ليلا.

وضعت الماء على طاولة صغيرة كانت في الزاوية، إذ قربتها منه. التفت الأب والإبنة إليه وقالا وهما يغادران:

- تصبح على خير.
- فقال وهو يشعر بدفء الحنان العائلي:
- تصبحون على خير.

6

الشوق إلى المتاهــة

حين صار آدم المحروم وحده جلس، على الكنبة مفكرا بكل الأحداث التي جرت له هذا اليوم. إستعاد الأحداث والتفاصيل مثل فيلم سينمائي. ياه، كم من الأحداث، والتفاصيـل، والمعلومـات والوجـوه مـرت عليـه خـلال هذا اليوم. فكر مع نفسـه أنه لو كان كاتبـا روائيـا مثـل صديقـه آدم البغـدادي لكتـب عن أحداث هـذا اليوم وحده رواية كاملـة. فكـر ثانيـة بوجـوده فـي هذا المنـزل الغريب الذي صار يشـعر وكأنه ينتمي إليه. وسـأل نفسـه: هل هناك، يا تُرى، رجل بهذه الطيبة في هذا الزمان، وعائلة، بالرغم من ضيق الحال، بهذا الكرم؟

مـرت أكثـر مـن نصـف سـاعة وهو جالس على الكنبة مسترسـلا فـي تداعياته. انتبه إلى وجود ساعة حائطية، لم يكن منتبها لها سابقا بالرغم من أنها كانت موجودة ضمن تفاصيل الجدار المقابل. أدرك أن الوقت قد تأخر، فالسـاعة تشـير إلى الحادية عشـرة والنصـف. يبـدو أن الأب وابنتـه وحفيـده قـد رقـدوا، إذ ليس هنـاك من صوت ولا نأمة تأتي من داخل المنزل.

بهدوء نزع بنطاله وقميصه، ثم أخذ الدشداشة فلبسها. كانت مناسبة له تقريبا. تمدد على الفراش، وسحب اللحاف على نفسه، ثم سحب الحقيبة الجلدية نحوه وأخرج منها مخطوطـة (متاهـة حـواء – وادي الظلمــات). وضع الصفحات التي تمت قراءتها جانبا وأخذ يقرأ في الرواية التي شدته بغموضها المريب.

مدينــة الأرواح

فـي ذلـك اليـوم الـذي سـافرت فيـه حواء المؤمن مـع آدم اللبناني إلى مدينة قريبة، وهـو نفـس اليـوم الـذي خـرج فيه الدكتور آدم ألتائه من المستشـفى وقابل إيفا بيرغمان عند البوابة، عاد الدكتور آدم التائه إلى البيت ليستريح، كي يعود إلى المكتب السياحي

مرة أخرى في الثانية بعد الظهر، كي تتصل إيفا بيرغمان بمكتب الأجانب في المدينة.

في ذلك اليوم، الذي كان يوم خروج آدم التائه من المستشفى، غادرت حواء المؤمن البيت وهي في حالة يائسة. وصلت مع آدم اللبناني إلى مدينة إيسن التي تبعد نصف ساعة بالقطار، ومن المحطة الرئيسية لمدينة إيسن ركبا باصا أخذهما إلى المنطقة التي يسكن فيها بعض أقرباء ومعارف آدم اللبناني. استقبلوهما دون أن يعرفوا تفاصيل وضع حواء المؤمن، كانوا يعتقدون أنها صديقته أو خطيبته. و بعد أن أنهوا وجبة الغذاء وجد آدم اللبناني نفسه مضطراً لمفاتحة مضيفه الذي كان يعتبره بمثابة عم له، وأخبره بالتفاصيل، مؤكداً له بأنه يريد الزواج منها للحصول على الإقامة الدائمة، فوافقه عمه على ذلك وأعتبره باب نجاة له، وذهبوا مباشرة إلى مكتب أحد المحامين من الذين يتعاملون مع قضايا الأجانب واللاجئين، فأكد لهم بأن حواء المؤمن من وجهة نظر القانون الألماني تعتبر غير متزوجة، وبالتالي يمكن أن تنفصل عن زوجها رسميا من خلال تأجير سكن خاص بها، لأنهما، هي وزوجها يعدان كصديقين يعيشان بشكل مشترك، ما داما لم يتزوجا أمام المحاكم الشرعية الألمانية، وهذا ما جعل آدم اللبناني أكثر تمسكا بحواء المؤمن. وإن عليها الآن أن تجد سكنا في إيسن وتسجل نفسها في المدينة وتنقل سجلها من مدينتها إلى إيسن، وبالتالي يمكنها الزواج هنا.

وحين عاد الدكتور آدم التائه إلى شقته ظهيرة ذلك اليوم، ودخل إلى غرفة النوم، لاحظ أن دولاب الملابس مفتوح على مصراعيه، فأدرك أن حواء قد دخلت الشقة، وأخذت ملابسها، وغادرت. حينها أحس بقلق مبهم لا يعرف سببه. هل هو قلق عليها أو أنه قلق على نفسه؟

أراد هو أن يدفع بقلقه، فبدأ بانتقاد نفسه، سائلا إياها: لماذا هو قلق ما دام يريد مغادرة ألمانيا إلى الخليج؟ أليس هذا ما كان يتمناه؟ ولماذا هو يقلق عليها ما دامت قد فعلت به ما فعلت، وطعنته في كرامته؟ ثم أنها الآن تعيش في ألمانيا، وهذا يعني أن معيشتها، وسكنها، وعلاجها مؤمّن من قبل الدولة الألمانية، إذن، فلا خوف عليها، فلم تعد تلك الفتاة البسيطة، الساذجة، المسكينة، التي كانت كالجارية بين يديه، بل إنها تلك الغاوية التي ركبت له قرونا من ذهب وعاج، والتي فعلت به ما فعلت، واستغفلته بهذه الطريقة البارعة، بينما هو الذي كان يعّد نفسه دون جوان زمانه، والفهيم بعالم النساء! تلك المرأة لا يمكن الخوف عليها، لكنها بالتأكيد سوف تدفع ثمن هذه الخطيئة التي ارتكبتها بحقه، بالرغم من أنه مستعد لأن يغفر لها ويسامحها، فهي بالتالي جزء من تاريخه الشخصي، وحبيبة أمه، وعمود ذكرياته،

ورفيقة دربه المظلم في متاهته الغامضة.

تذكر الدكتور آدم التائه حينها، أنها تراءت له حينما كان راقدا في المستشفى، وقد دخلت غرفته وبكت عند كفه، إنه يتذكر ذلك، ويتذكر أنه مسح بكفه على رأسها، لكن كيف تراءت له آنذاك؟.

في تلك الظهيرة، حدث أن إستراح الدكتور آدم التائه بعد أن أخذ حماما ساخنا، وبقي لفترة تحت دش الماء الساخن نوعا ما. وبعد أن نام قليلا، ربما لساعة من الوقت، استيقظ، وأعدّ لنفسه شايا ثقيلا، ثم شاهد التلفزيون بمحطاته الألمانية، وحينما اقتربت الساعة من الثانية بعد الظهر، إرتدى ملابسه من جديد، واستعد للذهاب إلى المكتب السياحي.

قبل أن يخرج بقليل سمع طرقاً على الباب، وحينما فتحه، قابله وجه جارتهم في الطابق الأرضي التي ارتبكت حينما وجدت الدكتور آدم أمامها، فاعتذرت، وقالت إنها جاءت لزيارة زوجته السيدة حواء، فأجابها بأنها حاليا غير موجودة، فاستغربت من جوابه، وظنت أنه لا يريدها أن تختلط بهم، وألا فلماذا يقول إنها ليست بالبيت؟.

بعد ذلك غادر شقته، متجها إلى المكتب السياحي الذي وصله بعد الثانية بعشر دقائق، وهناك قابل إيفا بيرغمان، وكانت قد اتصلت قبل وصوله بدائرة الأجانب في بلدية المدينة وشرحت لهم وضعه. وحينما وصل إلى المكتب السياحي، إنتبه إلى أن وجهها كان مبتسما، وفي عينيها تألق المنتصر أو الذي لديه أخبار سارة. ما أن جلس، معتذرا عن التأخير، حتى بادرته بأن عليهما أن يذهبا إلى دائرة الأجانب غداً، إذ أن مدير الدائرة قد أبدى تفهما لوضعه لكنه إذا ما استحصل موافقة إدارته فأنهم سيعطونه جوازا لسفرة واحدة فقط، ويحددون بأن الجواز صالح لثلاثة أشهر أخرى، ولا يحق له السفر إلى أي بلد بإستثناء الإمارات التي يقصدها، وعند رجوعه عليه تسليم الجواز وأخذ جوازه الحالي، لكن المدير أراد أن أتكفلك أيضا، أي أنك ستسافر على مسؤوليتي أنا.

فسألها ماذا سيحصل معها إذا لم يرجع؟ فأجابته بأنه لا يستطيع أن لا يرجع لأن الجواز ممدد لثلاثة أشهر فقط ولسفرة ولبلد واحد، وبالتالي لا تستطيع استخدامه لأكثر من سفرة واحدة وبإتجاه بلد واحد.

ذلك اليوم بقي في المكتب لأطول فترة ممكنة، لكنه استغرب من وجودها وحيدة في المكتب طوال اليوم، أو في كل المرات التي كان حاضرا فيه. نظرت إليه وكأنها كانت تقرأ ما يدور في رأسه، فقالت له موضحة:

– زميلتي أخبرتني بأنها لن تأتي بعد الظهر لأن لديها أشغالا أخرى عليها أن تنجزها.

فقال هو بتلقائية:

– هل أنتما أثنتان فقط؟

نظرت إليه وكأنها تريد أن تعرف ما يهدف من وراء سؤاله، وقالت:

– نعم، أنا وهي فقط.

إلتفت إلى مكتب زميلتها الفارغ، فوجد صورة فوتوغرافية لها على طاولة مكتبها. كانت الصورة للموظفة الأخرى التي كانت تبدو كبيرة في السن. إنتبهت إيفا بيرغمان لشروده الذي كان واضحا من ملامحه، فسألته محاولة سحبه من جاذبية التأملات التي هو على حافة أن يدور في فلكها:

– اليوم سألتني بعد أن خرجنا من المقهى إن كنتُ أؤمن بالأرواح أو الأشباح، وعن أشياء غامضة كنت قد مررت بها في المستشفى، أليس كذلك؟

عاد هو من شروده، وقال لها متمتماً:

– نعم.. هذا صحيح..وقلت لي حينها إن هذا الموضوع يحتاج إلى جلسة خاصة، أليس كذلك؟

– نعم. صحيح. وها نحن وحدنا، فلتحدثني، أنا أصغي إليك.

أحس الدكتور آدم التائه بالإرتباك. نظر للحظات لوجهها ثم التفت بشكل لا يثير أي انتباه إلى مكتب الزميلة التي لم تحضر ونظر لصورتها الفوتوغرافية. فجأة برقت الأشياء في ذهنه، إذ انتبه إلى أن إيفا بيرغمان تشبه الراهبة الشابة بشكل كبير لكن الراهبة كانت محجبة الشعر، وكذا بالنسبة لصديقتها فهي تشبه إلى حد كبير الراهبة المسنة التي كانت في غرفته. أحس لثوانٍ بالخوف، لكنه لم يشأ أن يكشف نفسه، نظرت هي وسألت:

– ما بك؟

– لا شيء.. الحقيقة هو أني حينما كنتُ في المستشفى رأيت ما يشبه الرؤيا..

– ما يشبه الرؤيا؟ أم أنك رأيت؟

إرتبك الدكتور آدم التائه، وقال:

– الحقيقة أني رأيت. فحينما كنتُ راقداً بقسم العناية المركزة في المستشفى، رأيت راهبتين، إحداهما شابة بعمرك وتشبهك أيضا.

نظرت إيفا بيرغمان له وعلى شفتيها إبتسامة غامضة، وسألته:

– والراهبة الثانية؟

نظر إليها متأملا، ثم قال:

– الراهبة الثانية كانت مسنة تقريبا، وهي تشبه.. تشبه.. تشبه زميلتك في العمل.
قال ذلك وأشار إلى صورة زميلتها الفوتوغرافية الموجودة على طاولة مكتبها الفارغ.
إبتسمت إيفا بيرغمان، وسألت مستفهمة وكأنها تعرف بأي شيء يفكر:
– وهل أخبرت أحدا بذلك؟
– نعم أخبرت الممرضة، لكنها أكدت لي بأنه لا وجود للراهبات في المستشفى.
– وهل اقتنعت؟
– لا أدري.. لقد قالت بأن البعض من المرضى، الذين كانوا في العناية المركزة، أخبروها أيضا عن رؤيتهم لراهبتين في المستشفى، لكنها أكدت أن هذا الأمر من هلوسات المرضى، وخوفهم من الموت وهم في تلك اللحظات الحرجة، لذى تترآى لهم تلك الرؤى.
– وأنت ماذا تقول، هل أنت مقتنع بما قيل لك؟
– من الناحية العلمية والنظرية نعم، فالكثيرمن نظريات علم النفس تؤيد ذلك، لكن من الناحية الدينية أو الروحانية قد يبدو الأمر محتمل الوقوع.
– وأنت شخصيا ماذا تعتقد، أو كيف تفسر ذلك؟
– أنا في حيرة.. فأنا شخصيا تحدثت معهن، لكن الممرضة تؤكد لي بأنه لا توجد راهبات في هذه المستشفى، وأن هذه المستشفى شبه حكومية، ولا أدري من هو المصيب ومن هو المخطئ؟ بل الأكثر حيرة من ذلك هو أني رأيت، وأنا في غرفة العناية المركزة، زوجتي حواء المؤمنوحينما سألت عنها في صباح اليوم التالي، قيل لي إنه لا توجد في المستشفى أية امرأة بهذا الإسم، بل لا توجد أية امرأة أجنبية في المستشفى بتاتاً؟ الحقيقة أنا في ذهول.
نظرت إيفا بيرغمان إليه للحظات وكأنها تريد أن تعرف هل انتبه لشيء ما أو لا، إلا أنه باغتها بالسؤال:
– وأنت، ما رأيك؟ هل تفهمين ما رويته لك الآن؟
نظرت إليه مباشرة، وبدون تردد قالت له:
– ربما يفكر البعض أن الإنسان في هذا العصر المادي والتكنولوجي لا يمكنه أن يؤمن بعالم الأرواح، وأن التطور التكنولوجي قد قضى بشكل نهائي على عالم الأرواح، فكل شيء يجب أن يُفسر تفسيرا مادياً، حسيا، له أسبابه ودوافعه ونتائجه، مسبباته، وأنهم قضوا بشكل نهائي على التفكير الروحاني، لكنهم يخطئون في ذلك، هناك الكثير من الأسئلة التي لم يستطع العلم والتقدم

التكنولوجي أن يقدم جوابه عليها وتفسيره لها، ومن هذه الأسئلة الأشياء المتعلقة بالروح وبالظواهر التي لا تنطبق عليها قوانين الفيزياء والزمان والمكان.

– وماذا يعني هذا؟

– أعني، المهم إيمانك أنت بهذه الأشياء، فالإيمان يخلق المعجزات.

قالت ذلك، ومدت يدها فأخرجت من جارور مكتبها كتابا سميكا من القطع الصغير بيدها. كتاب أحمر الجلد، يتدلى منه شريط أصفر اللون، نقش على غلافه بحروف ذهبية كتابة لم يستطع فك رموزها بسهولة لأنها حركت يدها. انتبه إلى أنه شاهد هذا الكتاب، لكنه لم يتذكر بالضبط: أين؟ ولم يستطع التركيز لأنه سمعها تقول:

– الإيمان هو الذي يحقق المعجزات. إسمع. سأقرأ لك من إنجيل متى هذه الأشياء.

– وفتحت الكتاب، وقلبت صفحاته، ثم بدأت تقرأ:

– في الإصحاح التاسع من إنجيل متى نقرأ التالي: (وفيما هو يكلمهم بهذا إذا رئيسٌ قد جاء فسجد له قائلاً إنَ ابنتي الان ماتت. لكن تعالَ وضع يدكَ عليها فتحيا. فقام يسوعُ وتبعهُ هو وتلاميذهُ. وإذا امرأةٌ نازفةُ دمٍ منذ اثنتي عشرةَ سنةً قد جاءتْ من ورائهِ ومستْ هُدبَ ثوبهِ. لأنها قالتْ في نفسها إنْ مسستُ ثوبهُ فقطْ شُفيتُ. فألتفتَ يسوعُ وأبصرها فقال ثقي يا ابنةُ. إيمانُكِ قد شفاكِ. فشُفيت المرأةُ من تلك الساعةِ.). وهنا نقرأ أيضا في الإصحاح الرابع عشر ما يلي: (وللوقتِ ألزمَ يسوعُ تلاميذهُ أنْ يدخلوا السفينةَ ويسبقوه إلى العِبر حتى يصرفَ الجموعَ. وبعد ما صرفَ الجموعَ صعدَ إلى الجبلِ منفرداً ليصلي. ولما صارَ المساءُ كان هناكَ وحَدَهُ. وأمّا السفينةُ فكانتْ قد صارتْ في وسطِ البحرِ مُعذبّةً من الأمواجِ. لأنَّ الريحَ كانتْ مُضادةً. وفي الهزيعِ الرابعِ من الليلِ مضى إليهمْ يسوعُ ماشيا على البحرِ أضطربوا قائلينَ إنهُ خيالٌ. ومنَ الخوفِ صرخوا. فللوقتِ كلمهمْ يسوعُ قائلاً تشجعوا. أنا هو. لا تخافوا. فأجابهُ بطرسُ وقالَ ياسيدُ إنْ كنتَ أنتَ هو فمرني أنْ آتي إليكَ على الماءِ. فقالَ تعالَ. فنزلَ بطرسُ من السفينةِ ومشى على الماءِ ليأتيَ إلى يسوعَ. ولكنْ لما رأى الريحَ شديدةٌ خافَ وإذ إبتدأ يغرقُ صرخَ قائلاً يا ربُ نجني. ففي الحالِ مدَّ يسوعُ يدهُ

وأمسكَ به وقالَ لهُ يا قليلَ الإيمانِ لماذا شككتَ. ولما دخلا السفينةَ سكنت الريحُ.). ولنقرأ هنا في الإصحاح السابع عشر هذه القصة المعبّرة: (ولما جاءوا إلى الجمعِ تقدمَ إليه رجلٌ جاثياً له وقائلاً يا سيدُ أرحم ابني فإنهُ يُصرعُ ويتألمُ شديداً. ويقعُ كثيرا في النارِ وكثيرا في الماء. وأحضرتُهُ إلى تلاميذكَ فلمْ يقدروا أنْ يشفوهُ. فأجابَ يسوعُ وقالَ أيها الجيلُ غيرُ المؤمنِ الملتوي. إلى متى أكونُ رمعكم. إلى متى أحتملُكُمْ.قدموهُ إليَّ ههنا. فأنتهرهُ يسوعُ فخرجَ منهُ الشيطانُ فشفي الغلاُ من تلكَ الساعةِ. ثم تقدمَ التلاميذُ إلى يسوعَ على انفرادٍ وقالوا لماذا لمْ نقدر نحن أن نُخرجهُ. فقالَ لهم يسوع لعدمِ إيمانكُم. فالحقُّ أقول لكم لو كان لكم إيمانٌ مثلُ حبةِ خردلٍ لكنتم تقولونَ لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناكَ فينتقلُ ولا يكونُ شيءٌ غيرَ ممكنٍ لديكم).

أغلقت الكتاب. وهيمن صمت ثقيل على المكان. صمتٌ مشحون بالإيمان. كانت هي تقرأ بخشوع وعاطفة. أثرت هذه القراءة في نفس الدكتور آدم التائه. نظرت هي إليه ورأت التأثر واضحا في عينيه. صمتت وكأنها تنتظر منه تعليقا على ما قرأت أو حتى عن الموضوع برمته. انتبه هو إلى أنها تنتظر منه جواباً فقال بتردد:

– كل هذا صحيح، حول قوة الإيمان، لكن هل هذا يعني أنني لو آمنتُ فهذا يعني أن ما رأيته كان واقعا؟ أو لنقل أن ما رأيته حقيقة وليس خيال مريض راقد في قسم العناية المركزية؟ وأنني لو لن أؤمن بكل هذا فيعني أنه لم يكن الأمر سوى رؤيا أوجدتها الحالة النفسية لي وأنا في ذلك الظرف العصيب؟
– بالضبط؟ بالرغم من أن عدم إيمانك لا يلغي وجود تلك الحقيقة، وهي أن الروح حية لا تموت.

فأكمل هو لها بقية الجملة، قائلا:

– وإن ما شاهدته كان حقيقة واقعة، أي أنني فعلا رأيت راهبتين، وهما موجودتان برغم نفي الإدارة لذلك؟
– بالضبط.
– لكن ما معنى وجود زوجتي عندي، بينما هي أساسا موجودة في شقتها، وغير مريضة، ولا توجد في المستشفى أية امرأة أجنبية؟
– ربما هي زارتك فعلا؟
– لا، لم تزرني قط، فقد كنت في ذلك اليوم قد أطلقت عليها يمين الطلاق، بعد

أن عرفت بعلاقتها بجارنا اللبناني.

نظرت إليه نظرة مليئة بالألغاز لم يفهمها آدم التائه، وقالت له:

– لكنك غفرت لها، أليس كذلك؟

تعجب من جملتها تلك، نظر إليها بشك وقال:

– ولكن من أين تعرفين أني غفرت لها؟

نظرت إليه دونما أي ارتباك، وقالت:

– لأن مثلك لا يمكن إلا أن يغفر، فأنت إنسان طيب القلب.

– لقد غفرت لها بالفعل، حينها، أقصد حينما جاءت تبكي، وانهمرت دموع الندم على كفي.

التفت هو مباشرة إلى الكتاب الذي كان على طاولة المكتب أمامها، وقال:

– أنا رأيت هذا الكتاب في مكان ما، لكن لا أدري أين؟

– ربما رأيت مثله، فهذه طبعة شهيرة للكتاب المقدس، وقد وزعت بمئات الآلاف من النسخ في الأربعينات، وهذه النسخة قديمة ونادرة، مضى على طباعتها أكثر من نصف قرن.

فجأة انكشفت الغمامة عن ذاكرته، فقال لها بحرارة:

– نعم.. نعم.. لقد كان مثل هذا الكتاب بيد الراهبة الشابة في المستشفى. نعم. الآن تذكرت. وبالمناسبة، فيها شبه منك، لكن تلك كانت بثياب الراهبات، وكذلك زميلتك في العمل تشبه الراهبة المسنة، لكن أيضا تلك كانت بثياب الراهبات.. غريب!

نظرت إليه بقلق، لكنها كانت تحاول الإبتسام وتخفيف توتر الموقف، وقالت:

– ما هو الغريب، أن ترى أناساً يتشابهون؟

– لكن ليس بهذا الشبه الكبير

– ماذا في الأمر..؟ أنت مثلا تشبه صديق قريب لي، مات بإنفجار لغم. كان صديقي قبل زوجي الذي حدثتك عنه.

– بإنفجار لغم؟

– نعم..أوه.. لا تذهب بعيداً.. هناك في ألمانيا لا زالت الكثير من الألغام والقنابل مدفونة تحت الأرض، ولم نستطع أن نجد كل الألغام، بالرغم الجهود التي بذلت من أجل ذلك. وذات يوم وجد لغما صدئا وهو يحفر، إذ كان صديقي يعمل سائقا لقيادة حادلة تقشط الطريق. لم يتصل بالجهات المختصة، حاول أول الأمر أن

يعزل اللغم ويرفعه عن المكان، ويبدو أنه لم يستطع أن يسيطر على الأمر فانفجر اللغم بين يديه. كان يشبهك كثيرا، كان مثلي ابن لجندي أميركي تزوج من امرأة ألمانية. وحينما نقلناه للمستشفى أنا وأمه، بقينا هناك إلى أن أسلم الروح. إنها نفس المستشفى التي كنت أنت راقداً فيها، وبالمناسبة، فالمرأة الأخرى التي تعمل في المكتب معي، هي أمه.

– غريب!

– ما هو الغريب؟

– لا أدري.. أحس أني في متاهة لا أجد فيها طريقي.

– كلنا ندور في نفس المتاهة

– أنت تدورين في متاهة أيضا؟

– ولِمَ تعتقد غير ذلك؟

– لا أدري. أحسك واثقة من نفسك، ومن حقائق الأشياء، وأن لديك إيماناً يمنحك القوة في مواجهة المتاهات، مثلما يمنحك الوضوح والثقة بحقائق الوجود.

– هل تقصد إيماني بالأرواح مثلا؟

– الإيمان بالأرواح واحدة منها..

نظرت إليه بحنان وكأنها تريد أن تمنح روحه شيئا من السكينة، وقالت وفي نبرات صوتها دفء مهدئ:

– إسمع يا آدم..قصتك مع الأرواح في تلك المستشفى ليست بجديدة، فالكثيرون من أبناء هذه المدينة يعرفون ذلك، وشاهدوه ويؤمنون به. هذه المدينة كانت قد عرفت الحروب، وتضررت كثيرا منها، سواء الحروب الداخلية أم الأوربية أم الحربين العالميتين، الأولى و الثانية. وكان بالقرب منها دير أيضا، وكانت الراهبات قد تحولن إلى مضمدات ومساعدات أطباء. وكن يسهرن إلى جانب الجرحى. والكل يعرف في هذه المدينة من أبنائها الأصليين، أنه تم قصف الدير والمستشفى، ولم يبق مع الجرحى سوى راهبتين. هاتان الراهبتان، واحدة شابة وأخرى أكبر سنا، ظلتا مع الجرحى، إلى أن تم قصف المكان بقنبلة أمحت كل شيء من على وجه الأرض، سوى حفرة عميقة سوداء. وبعد انتهاء الحرب، وقبل أن يعاد بناء المدينة والمستشفى، كان الناس يسمعون أنين الجرحى يأتي من أعماق الحفرة، وفي الليالي الحالكة كانوا يرون نوراً ضئيلا يأتي من

أعماقها، وحينما كانوا يقتربون لا يجدون شيئا سوى حفرة سوداء تفتح شدقيها للناظر إليها. ظل الناس يعتقدون بأن الأصوات هذه هي لأرواح الجنود الجرحى المساكين، والنور الذي يشع من الحفرة السوداء هو من شموع الراهبتين اللتين بقيتا مع الجرحى ودفنتا معهم. إلى أن تم بناء مستشفى على نفس المكان الذي كانت فيه، ومنذ ذلك الحين يرى المرضى الراهبتين في أروقة المستشفى، بل وفي جميع مستشفيات هذه المدينة. إنهما تأتيان للمرضى الذين يكونون في حالات حرجة جدا. توآسيان المرضى وتمنحانهم شيئا من السكينة، وعلى مر السنين، ودخول عدد كبير إلى المستشفى، ومرورهم بقسم العناية المركزة، صار أهل المدينة يعرفون أن الراهبتين هما حقيقة واقعة، بالرغم من أنه لا توجد مستشفى للراهبات في مدينتنا، بل ولا دير للراهبات. إن معظم أهل المدينة رأوا الراهبتين، بل صاروا يؤمنون بتجولهما في المدينة وحضورهما لجميع أهلها المحتاجين للطمأنينة الروحية.

– وأنت؟

– أنا؟

– نعم أنت، هل رأيت الراهبتين؟

– أنا.. أنا.. لم أكن يوما في العناية المركزة.

– يعني أنك لم تري أياً منهما؟

إرتبكت إيفا بيرغمان، وأرادت أن تسيطر على الموقف، فقالت:

– الجميع هنا يؤكد، مثلما قلت أنت، بأن الراهبة الشابة تشبهني.

– هذا ليس جوابا عن سؤالي..

في تلك اللحظة، فُتح باب المكتب ودخلت أمرأة مسنة، أنيقة، ذات شعر أشهب، وسلمت عليهما بالألمانية، وهي تقول:

– شكرا لك إيفا.. لولاك لم أكن أعرف ماذا أفعل. هل الأمور كلها على ما يرام؟

– أوه.. نعم..

كان دخول المرأة الأخرى وكأنه دخول مؤقت، إذ لم يعد بإمكانهما أن يستمرا بالحديث، ولم يحصل هو منها على الإجابة الواضحة، إن كانت هي قد رأت الراهبتين. أحست إيفا وكأنما تم إنقاذها من وضع غير مريح بالنسبة لها، فهي لم

تشـأ أن تجيـب بصراحـة علـى سـؤاله، لـذا حاولت أن تلملم الموضـوع وتدير وجهة الحديث، فقالت:

– عمومـاً، غـداً تأتـي بصورتين فوتوغرافيتين معك، مع جوازك هذا، وتنتظرني عند دائرة الأجانب في البلدية، وسننهي الأمر غدا، ونأتي بعدها لحجز البطاقة لك..

أحـس الدكتـور آدم التائـه بأنهـا تريـد إنهـاء الموضـوع، فقـام من كرسـيه، ومد يده مصافحا، وهو يقول:

– شكرا لك على كل جهودك. وغدا سأنتظرك، لكنك لم تحددي الوقت.

– – هل الساعة التاسعة صباحا تناسبك؟

– – تناسبني تماما، شكرا لك.

–قـال ذلـك وخـرج وهـو فـي حالة ذهول، وتوتـر غامض أكثر من السـابق. نظرت إيفا إلى زميلتها وتبادلتا نظرات ذات معنى لا يدركه أحد غيرهما، وابتسـمتا كل منهما للأخرى بحزن.

حين خرج الدكتور آدم التائه من المكتب السياحي كان حائرا إلى أين يذهب. لقد كانت ثمة فوضى من المشاعر والأفكار تتداخل في أعماقه. حاول أن يجد تفسيرا لكل هذا الحديث الذي سـمعه من إيفا بيرغمان. أمن المعقول أن إيفا بيرغمان هي نفسـها الراهبـة الشـابة وصديقتهـا هـي الراهبـة الأخـرى؟ لكـن كيف يمكن ذلـك؟ إذا صحت الحكاية فأن إيفا روح حية، لكن كيف لروح تعمل موظفة في مكتب للسياحة؟ بل إنه تعـرف عليهـا قبـل أن يتعـرض للذبحـة الصدرية؟ أي أنه لـو لم يصب بالذبحة الصدرية لمـا عـرف أنهـا روح، بـل ولمـا كان قـد إلتقـى بالراهبتين قط، ثم أنـه كان يفكر أن يقيم علاقـة غراميـة معهـا، فهـي امـرأة مثيـرة حقا، فهل هي روح أو هي امرأة أخرى؟ إنها لم تؤكـد لـه بأنهـا روح أبـداً فلمـاذا يعتقـد هو بأنها روح وأنها هـي الراهبة التي التقى بها؟ ثم إذا كانت هي روح فكيف تحدثت مع مدير دائرة الأجانب وسـتتكفله أمام الدائرة؟ هذا غير منطقي، إلا إذا كانت المدينة كلها مدينة أرواح؟ لكن ما هي الروح؟ هل هي الوجود المفكر، اللامادي، البسـيط، الذي لا يقبل الفناء، ولا يشـغل حيزا في المكان؟ إذا كان الأمر كذلك، فأن إيفا ليست روحا لأنها امرأة من لحم ودم، وقد صافحها بيده، بل هي امرأة مثيرة تشع أنوثة وحسية.

قطع الدكتور آدم التائه طريقا يدخله لأول مرة. لم يكن منتبها للطريق ولا للإتجاه الـذي يقـود إليـه، لكنـه وجـد أن الطريق ينتهي بغابة كثيفة تلتف حول جانب من المدينة

وتقـود إلـى مـزارع الفلاحيـن. أحـس بالخـوف من إجتيـاز الغابة والتوغـل فيها، فرجع أدراجـه إلـى وسـط المدينـة، وحينمـا مر من أمام المكتب السـياحي وجده مغلقا ومطفأ الأنوار من الداخل. إسـتغرب، لأن الوقت ليس نهاية للدوام الرسـمي. فاتجه في سـيره ذاهبا إلى البيت.

حينمـا عـاد الدكتـور آدم التائـه إلى البيت، وبينما هو يصعد السـلم الخشـبي راودته خاطرة بأنه سيفتح الباب وسيجد إيفا بيرغمان أمامه جالسة بإنتظاره. إبتسم مع نفسه من هذه الخاطرة الغريبة. ضغط على زر الإنارة فأضيئت الباحة الصغيرة بين الباب وغرفة الإسـتقبال والمطبخ. دخل المطبخ مباشـرة وأناره ثم بدأ بإعداد الشـاي لنفسـه، فوضع المـاء فـي الـدورق المخصـص لغلي الماء. ذهـب إلى غرفة النوم فألقى نظرة عليها، ثم رجع مباشـرة إلى غرفة الإسـتقبال أضاء الغرفة وذهب نحو مكتبه فجلس على كرسـية حول الطاولة التي وضع عليها بعض الكتب الأدبية والدراسات بالعربية وكتابين لتعلم اللغة الألمانية. لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل، فالمساء لما يزل في أوله، لكن قال لنفسه عليه أن يشرب الشاي أولا ويفكر بعدئذ كيف يقضي ليلته. قام من مكانه وذهب ليعد الشاي لنفسه.

آدم البـغـدادي: لماذا يعذبني سؤال الموت؟ وسؤال الإيمان بما بعد الموت؟ هل يمكن لهذه الأحداث أن تحصل في الواقع؟ كيف يمكن أن تسمى هذه الحالة في هذه الأحداث؟ من هي إيفا بيرغمان؟ هل قوة الإيمان تفعل حقا كل هذه المعجزات ضد كل قوانين الفيزياء المعروفة؟ لا أدري.

حينمـا قـرأ آدم المحـروم هامش صديقه على الفصل قـال لنفسه: يبدو أن صديقـي يعانـي مـن صراع روحي كبير. ما له والبحث في الكتب المقدسة وكل هذا الحديث عن الروح وقوة الإيمان والموت؟ أليس من الأجدى له كتابـة روايـة عن إحتلال العراق من قبـل الإميركان والإيرانيين، ودول أخـرى؟ لكـن غريـب أمره، فهو في الواقع سياسي من طراز رفيع، يقنع الآخرين على تغيير هذا الواقع المخزي والمذل للقيم الإنسانية، حيث يحكم بعضـ الأوغـاد، بينمـا في الكتابة يعيش عالما روحيـا، غرائبيا، لا يمكن فصـل الواقـع مـن وهم الواقع. إنه سياسـي شعبي في الحياة، نخبوي في الإبداع. يالها من مفارقة؟

لعنــة الشـخير

حين خرجت حواء المؤمن وآدم اللبناني وعمه من مكتب المحامي، كان أول شيء دار في ذهن عمه أن يجلسـوا في إحدى المقاهي القريبة في وسـط المدينة، لأن العم لم يود أن يناقش وضع آدم وحواء أمام بقية أفراد العائلة، لا سيما وأن المبنى كله من العوائل اللبنانية والفلسطينية وغيرهم من الجاليات اللاجئة إلى ألمانيا، فالنساء في رأيه ثرثارات وربما يصل الخبر إلى زوج حواء المؤمن فتصبح مشكلة كبيرة. وحينما جلسوا فكروا كيف يجدون مكانا، ولو غرفة واحدة للسكن من أجل أن يتم تأجيرها لهما، وعلى أساس عقد الإيجار يمكن تسجيل عضوية حواء المؤمن باعتبارها من سكان المدينة.

إتصل العم بأحد معارفه ممن يعملون في مكتب للعقارات وأخبره بحاجته لسكن يتألـف ولـو مـن غرفـة واحدة، ولحسـن حظه وعده الـذي على الطرف الآخر من الخط بوجود غرفة وملحقاتها وبأجر معقول، فاتفق معه أن يأتياه في صباح الغد. تجولوا في سوق المدينة قليلا، ثم عرجوا على السوبرماركت الشرقي فاشترى عمه قنينة من الخمر اللبناني (توما) وشيئا من الفواكه وجبنة الحلوم. عند الدفع، وقبل أن يصل دورهم للدفع، مـدت حـواء المؤمـن بقطعـة نقدية ورقيـة إلى يد آدم اللبناني كي يقوم هو بالدفع وليس عمـه، فليـس مـن اللائـق أن يثقلا عليهـم بوجودهما. أخذ آدم القطعة النقدية ولكن قبل أن يقوم هو بالدفع كان عمه قد دفع قيمة المشتريات، وحينما حاول آدم أن يدفع رفض عمه رفضا قاطعا حالفاً أغلظ الأيمان بأنه لا يقبل ذلك لأنهما ضيفاه. وضع آدم القطعة النقدية في جيبه ولم يعدها إلى حواء. إستغربت حواء من تصرفه، لكنها إستغربت أكثر من نفسـها، ومن تصرفها، وسـألت نفسـها: لماذا قامت هي بإعطائه النقود، ما علاقتها هي بالأمر، ولماذا تصرفت وكأنهما عائلة وهي زوجته؟

بعدمـا عـادوا، وأعـدت هـي مع زوجة العم وبنتاها العشـاء للجميع، وجلسـوا على الأرض ليتعشـوا تركوا لها المكان لتجلس إلى جانب زوجها آدم. وبعد العشـاء بدأت سهرة العائلة بمتابعة كاسيت لمسرحية فكاهية كويتية عن مهازل الأغنياء العرب في لندن، بينما نصب العم وآدم المائدة وأخذا يشربان العرق اللبناني. انزعجت حواء المؤمن في داخلها كثيرا ولم تبد ذلك أمام العائلة المضيفة. أحسـت أنها تورطت ورطة كبيرة مع آدم اللبناني، فقد بدا لها سكيرا له خبرة واسعة بشرب الخمر، فقد انتبهت إلى أن عمه بدأ متأثرا بالشرب من الكأس الثاني بينما آدم اللبناني بدا وكأنه في قمة نشاطه وتركيزه.

كانـت العائلـة فـي حالـة مـرح وضحك من أثر المواقف المضحكة في المسـرحية،

وكانت الأم وابنتاها يشربن الشاي ويأكلن المكسرات من جوز ولوز وفستق والبطاطا المحمصة. وحين التفتت إلى الجانب الذي يجلس فيه آدم وعمه رأت أن العم قد بدا غافيا على كرسيه، بينما آدم يصب لنفسه الخمر ويشرب وحده. كانت القنينة عند النصف. نظرت إليه وكأنها تطلب منه ألا يواصل الشرب لكنه لم يأبه بها. واصل هو شربه، بينما هي أبدت علامات التعب، فانتبهت الأم المضيفة، وقالت لها:

– حبيبتي حواء، إذا كنت تعبانة فيمكنك أن تذهبي إلى الغرفة الأخيرة في الممر، إنها مخصصة لكما.

– والله، أحس بتعب شديد، تصبحون على خير.

قامت من مكانها، بعد أن ألقت نظرة تأنيب على آدم، لكنها وهي في طريقها إلى الغرفة التي خصصت لهما، فكرت بإستغراب من أن الأم لم تطلب منها أن تنام في غرفة الفتاتين مثلا، أو أن يفصلاهما في المبيت، وإنما تصرفا معهما وكأنهما زوجان. وحين فتحت باب الغرفة المخصصة لهما وجدت أنها فارغة إلا من فراش عريض وضع على أرضية الغرفة وعليه لحاف واسع ووسادتان. لم تكن تعرف ماذا تفعل. جلست بهدوء على الفراش، ثم تمددت على ظهرها منتظرة ما سيأتي.

في الصالة كان آدم اللبناني قد جاء على القنينة بكاملها، وأكل كل المقبلات الموجودة على المائدة الصغيرة، بينما كانت إحدى الفتاتين قد غادرت لتنام، وأخيرا نهض آدم اللبناني من مكانه وحيا زوجة عمه وابنتها وتوجه إلى غرفة نومه مع حواء.

حينما دخل إلى غرفة النوم وأغلق بابها خلفه، نظر إلى حواء المؤمن وهي مستلقية على الفراش أمامه، أحس بهاجس الرغبة يدور في رأسه المخمور. نزع قميصه وسرواله وهو عند وقفته، لكنه تعثر قليلا فسقط على الفراش.

في اللحظة التي دخل فيها آدم اللبناني إلى الغرفة أغمضت حواء المؤمن عينيها، فهي لم تشأ أن تناقشه، وهي عادة تخاف السكارى. وحين تعثر آدم وسقط على الفراش أرادت أن تنهض بشكل لا إرادي، لكنها أجبرت نفسها على البقاء ساكنة ومغمضة العينين. مد هو يده إلى ساقيها، رفع ثوبها قليلا إلى الأعلى، ومد يده إلى ما بين فخذيها، داعبها لكنها حاولت بكل جهدها ألا تبدي تجاوبا معه. وبعد لحظات، تمكن السكر منه، فتركها، وتمدد إلى جانبها، وغرق في نومه.

كانت هي تعيش مشاعر مضطربة. كانت تحس أنها ولأول مرة تخاف من هذا الشخص النائم جنبها، بل لأول مرة تشعر بعمق الهاوية التي ألقت بنفسها فيها. وبلا إرادة منها نزلت الدموع من عينيها، بينما تعالى شخير الرجل الغريب الذي تمدد بجانبها.

ظلت حواء المؤمن تحدق إلى الغرفة. نهضت بهدوء وأطفأت المصباح، وعادت بنفس الهدوء لتتمدد على الفراش. عادت لتحدق إلى سقف الغرفة برغم الظلمة. أخذت تفكر بما ينتظرها من أيام وأحداث غامضة. أحست بأنها لا تستطيع أن تتواصل مع هذا الشخص الراقد إلى جانبها، لكنها في نفس الوقت وجدت نفسها لا تملك إرادة الإنفصال عنه. تعبت من التفكير في الظلمة، بينما ظل آدم يشخر. حاولت أن توقظه فلم يتزحزح من مكانه ولم يستيقظ. سحبت الوسادة من تحت رأسه، فتوقف عن الشخير، أحست بشيء من الراحة، لكن الأمر لم يطل كثيرا، فبعد دقائق عاد آدم إلى الشخير. تعبت من التفكير، وأرهقها سماع شخير آدم. أغمضت عينيها لتجبر نفسها على النوم، وفعلا، لا تدري متى، وكيف، مست أنامل النوم الرحيمة جفنيها.

***

في تلك الليلة نفسها، جلس الدكتور آدم التائه على كرسيه وراء طاولة مكتبه، بعد أن تناول وجبة خفيفةً من الجبن والزيتون، وشرب الشاي الثقيل. أخذ رزمة من الورق وضعها أمامه وخط عليها بالقلم العريض عنوان روايته الجديدة **(متاهة الأرواح)**. لقد أحس برغبة قوية جداً في أن يكتب رواية عن تجربته مع الأرواح الطيبة. أراد أن يروي قصته مع الراهبتين ومع إيفا بيرغمان. لكنه، بالرغم من حالته النفسية ورغبته العارمة في الكتابة، أحس بالعجز عن الإستمرار في الكتابة. إنه يشعر بحاجته الماسة للكتابة عن الراهبتين، لكن ماذا يكتب؟ إنّ كتابة الرواية ليست بهذه السهولة، فالأمر ليس قصيدة شعرية يمكن أن تعتمد على الشحنة الإنفعالية للشاعر، وإنما هي عالم متشابك من العلاقات النفسية والسير الذاتية والأحداث والتفاصيل. وهو في حالته تلك ليس لديه سوى الإندفاع والتوتر لخلق الحالة الإبداعية لكتابة شيء، أو التخطيط لكتابة شيء. إذن عليه أن يفكر جيدا قبل أن يبدأ بخط أي سطر. بل هذه فرصة له في أن يضع المخطط العام للرواية.

وضع القلم جانبا. أخذ كتابا من مجموعة الكتب العربية التي كانت على الطاولة وأخذ يتصفحه بشكل سريع. كتاب **(اسبينوزا)** للدكتور فؤاد زكريا، وكان قد اشتراه مع كتب أخرى من معرض للكتب العربية في أحد المهرجانات التي يقيمها الأجانب بمدينة كولون. توقف عند صفحة ما وقرأ: «**إن الجمال ليس صفة في الشيء موضوع البحث بقدر ما هو أثر في ذلك الذي يتأمله. ولو كانت قدرتنا على الإبصار أقوى أو أضعف، ومزاجنا مختلفا، لبدت لنا الأشياء الجميلة قبيحة، والقبيحة جميلة. ولا بد أن**

أجمل الأيدي تبدو شـنيعة إذا ما نظرنا إليها بالمجهر. ومن الأشـياء ما يبدو جميلا عن بعد، حتى إذا ما اقتربنا منه ظهر قبحه. وهكذا فإن الأشياء إذا ما نُظر إليها في ذاتها أو في علاقتها بالله، لا تكون جميلة ولا قبيحة. وعلى من يزعم أن الله خلق العالم ليكون جميـلا، أن يعتـرف ضـرورة بـأن اللـه قد صنع العالم من أجل رغبة الإنسـان وعيونه، أو بأنه صنع رغبة الإنسان وعيونه من أجل العالم».

فكـر قليـلا متأمـلا الفقـرة التـي قرأهـا ثم ألقـى الكتاب جانبا. أخذ كتاباً آخر. كان الكتاب مجموعة قصائد مختارة للشاعر بدر شاكر السياب. فتح الكتاب فواجهته قصيدة (**المسيح بعد الصلب**) فقرأ:

بعدما أنزلوني، سمعتُ الرياحْ
في نواح طويلٍ تسف النخيلْ
والخطى وهي تنأى. إذن فالجراحْ
والصليبُ الذي سمَّروني عليهِ طوالَ الأصيلْ
لم تمتني. وأنصتُّ: كان العويلْ
يعبر السهلَ بيني وبين المدينة
مثل حبل يشدُّ السفينة
وهي تهوي إلى القاع. كان النواحْ
مثل خيط من النور بينَ الصباحْ
والدجى، في سماء الشتاء الحزينة.
ثم تغفو، على ما تحسُّ، المدينة.

أطبق الكتاب ووضعه جانبا. ظل حانيا رأسه للحظات مفكرا بهذا الشاعر الجنوبي الـذي، ربمـا لـم يدخـل كنيسـة فـي حياته، يكتب عن آلام المسـيح كأنـه راهب أعتكف طوال عمره ليدرس حياة يسوع الناصري وآلامه، ويتقمصها.

أخذ رأسه بين يديه متأملا نفسه وأحاسيسه وأفكاره وما جرى له منذ لحظة هجرته لبلاده وإلى تلك اللحظة التي هو فيها. إستمر الدكتور آدم التائه على تلك الحال لفترة طويلـة نسـبيا، بعدهـا قـام بتثاقـل وغـادر الصالون، مطفئا النور خلفـه، متجها نحو غرفة النوم. وهناك أطفأ النور وألقى بنفسه على السرير.

صباح المتاهة

في تمام الساعة التاسعة وصل الدكتور آدم التائه إلى الممر الذي تقع فيه دائرة الأجانب في المبنى الكبير لبلدية المدينة فوجد أن إيفا بيرغمان تنتظر هناك أمام باب غرفة المدير. كان قد استيقظ متعباً، إذ نام بشكل قلق، فقد استيقظ مرات عدة خلال النوم، وفي كل مرة كان يهب من نومه ظنا منه أنه قد تأخر عن موعده.

قبل أن يصل إليها أشارت بيدها إليه تحيةً له ولتؤكد له حضورها، وحينما وصل إليها مد يده مصافحا لها، وخلال ثانية ما برقت في ذهنه بأن يضغط على كفها ليتأكد من أنها بشر لا روح. وفعلا ضغط على كفها قليلا، وأبقاها لأطول مدة ممكنة في كفه. إبتسمت هي لهذا الأمر، ولم يكن يعرف هو أنها ابتسمت تجاوباً معه أم أنها أدركت ما جال في ذهنه. إنتبهت هي للقلق والشرود الذهني الذي يبدو على وجهه، لكنها لم تسأله إذ كان عليهما أن يدخلا على مدير دائرة الأجانب. توجهت وهو إلى جانبها إلى غرفة المدير ودخلاها.

* * *

في مركز مدينة أيسن، وعند محطة القطار المركزية كان آدم اللبناني وعمه وحواء المؤمن ينتظرون الشخص الذي عليه أن يأخذهم إلى الشقة الفارغة كي يلقيا نظرة عليها ومن ثم يأتيا إلى مكتب العقارات لتوقع حواء المؤمن العقد، ومن ثم الذهاب للتسجيل في بلدية المدينة، واستكمال إجراءات النقل من المدينة التي كانت تعيش فيها مع زوجها الدكتور آدم التائه.

كانت حواء المؤمن صامتة. أحس عم آدم اللبناني بأنها غير مرتاحة، فهي لا تشاركهما في الحديث ولا يبدو عليها أية علامات على إهتمامها بالموضوع وكأن الأمر لا يعنيها. وقد كانت حواء المؤمن فعلا كما أحس بها العم. كانت تحس وكأنها مأخوذة اللب، ومجذوبة بقوة غير منظورة، قوة شلت تفكيرها، وخدرت أحاسيسها، فلم تكن تأبه لكل ما يجري وما سيجري، وكأنها كانت تلقي بنفسها في فوهة هاوية بلا قرار. أو أنها في عالم آخر، يحجبها عن الواقع جدار لا مرئي يمكن اختراقه في أية لحظة تشاء. كانت لا تسمع حديثهما، أو أنه كان يطرق سمعها لكنها لم تفهم منه شيئا. لاحظت علامات القلق على وجهيهما. إنتقلت فجأة إلى عالم المحسوس بشكل لا إرادي أيضا، فسمعتهما يتحدثان عن تأخر الشخص الذي ينتظرونه. فجأة بدأت الحيوية على ملامحهم. انتبهت إلى أن الشخص الذي ينتظرونه قد وصل وصافحهم،

وألقى عليها التحية فأومأت برأسها دون أن تنطق بكلمة واحدة. ظن الرجل أنها امرأة خجولة لا تستطيع أن تنطق شيئا بحضور الرجال. أشار الرجل إلى سيارته التي ركنها قريبا. اتجهوا نحوها. صعدوا إلى السيارة وانطلقوا لرؤية الشقة.

* * *

لم يستغرق إنجاز معاملة الحصول على الجواز ذي الغلاف الرصاصي والذي يمنح للمقيمين في ألمانيا طويلاً، فبعد أن أوضحت الألمانية إيفا بيرغمان تفاصيل وضع الدكتور آدم التائه، وأن عليه الذهاب للمقابلة التي على أثرها ربما سيغادر ألمانيا نهائيا. وقد تعاطف المدير معه، وتعامل معه بشيء من التقدير لكونه أستاذا جامعيا، وأنه يبحث عن فرصة عمل في مكان، وليس كهؤلاء اللاجئين الذين صاروا عالة على المجتمع الألماني، بل وصاروا مصدرا لانتشار المخدرات والدعارة والتهريب والجريمة المنظمة.

حصل الدكتور آدم التائه على الجواز الجديد، بعد أن أودع جوازه الأزرق اللون لديهم، وبعدما وقعت إيفا بيرغمان على تعهد بأن تتحمل كل التبعات القانونية فيما لو حدث ولم يعد، أو حدث له شيء ما.

حينما خرجا من غرفة المدير كانت إيفا بيرغمان تشع بالسعادة والفرح وكأنها أنجزت شيئا عظيما لإنسان عزيز عليها، بينما كان هو يضج بأحاسيس مختلفة. كان سعيدا بحل مشكلة سفره إلى دولة الإمارات العربية المتحدة من جهة، ومن جهة أخرى كان يحس بأنه مقبل على مغامرة مجهولة. طبعا كان بإمكانه أن يلغي لجوءه ويحصل على جوازه العراقي، لكن لم يكن متأكدا من أنهم سيقبلونه به ويتعاقدون معه للتدريس في الجامعة، لذا فهو لا يريد أن يحرق كل الجسور خلفه، فماذا لو لم يقبلوا به؟ إلى أين سيذهب حينها؟ ومن جانب آخر يحس بالأسف على مغادرته في اللحظة التي تعرف فيها على امرأة جميلة، ومثيرة، وطيبة، كان يمكن أن يخوض معها أجمل مغامرة عاطفية. كان يستغرق في أحلام اليقظة التي تجمعه بها جنسيا.

حينما خرجا من بلدية المدينة، طلبت إيفا منه أن يذهبا إلى المكتب السياحي ويتصلا بالسفارة الإماراتية ويؤكدا لهم حصوله على جواز الإقامة الإعتيادي. صعد معها إلى سيارتها، وانطلقا إلى المكتب.

حينما وصلا إلى المكتب كانت الموظفة الأخرى جالسة على كرسيها حول طاولتها، وما أن رأتهما يدخلان حتى وقفت تريد مغادرة المكتب وهي تقول لإيفا:

- الحمد لله أنك وصلت الآن وألا كنت ساتأخر. عليّ الذهاب إلى المستشفى فجارتنا في وضع سيىء، فقد نقلوها صباح هذا اليوم إلى قسم العناية المركزة في المستشفى ولا بد من زيارتها، فلربما تحتاجني في شيء، فهي امرأة وحيدة. إلى اللقاء سأراك لاحقا.

أخذت حقيبتها اليدوية وخرجت. لم ينتظر الدكتور آدم التائه دعوة إيفا بيرغمان له بالجلوس إذ أنه جلس حينما جلست هي على كرسيها. وبدون أي حديث طلبت منه جوازه لتحجز له. ضغطت على زر تشغيل الكمبيوتر الذي أمامها لترى شركات الطيران وجداول طيرانها إلى الإمارات، وقبل أن تحجز له أخذت سماعة الهاتف لتتصل بالسفارة الإماراتية.

❊ ❊ ❊

في مكتب ضيق للعقارات، بالكاد يتسع من جهة لطاولة صاحبه ومقابلها أريكة للجلوس، كان آدم اللبناني وعمه وحواء المؤمن يجلسون على الأريكة بينما جلس الرجل الذي نقلهم بسيارته على كرسيه حول طاولة تزدحم عليها المفكرات والتقاويم المختلفة إلى جانب صور له ولأبنائه. وكان قد أعد صيغة العقد وطلب من حواء التوقيع عليه، فتحركت من مكانها ووقعت.

لم تكن علامات الفرح بادية على وجه حواء، فكأن الأمر لا يعنيها أساساً بينما كانت عيون آدم اللبناني وعمه تتألق فرحا. شرح صاحب المكتب لهما ماذا يفعلان، وكيف عليهما بعد تسجيل حواء أن يذهبا إلى دائرة شؤون الأجانب في المدينة كي يسجلاها ضمن الذين عليهم الحصول على المساعدات الإجتماعية، وكل ما له علاقة بعملية نقلها إلى هذه المدينة رسميا. كانت حواء تسمع كل ما يقال، لكن بالنسبة لها وكأن الحديث يخص شخصاً آخر غيرها.-

❊ ❊ ❊

- أهنئك، تمت الموافقة، سأرسل إليهم جوازك وبطاقات السفر، الذهاب والإياب، أما رسوم التأشيرة فيمكن دفعها عند استلام الجواز منهم. هم سيرسلون معه ورقة التحويل.
- شكرا جزيلا لك، هذا كله بفضلك، وبجهودك، ولولاك لما كنت أعرف ماذا أفعل.
- لا تشكرني، هذا واجبي.
- كيف هو واجبك؟ أنت غير مجبرة أن تقومي بكل هذا. أن تتصلي بالسفارة وبدائرة

الأجانب، وتتكفلينني أمام الجهات الرسمية متحملة كل العواقب في إحتمال عدم عودتي، هذا ليس من واجبك. لكنك قمت به بكل طيبة ورحابة صدر.

– كل ما ذكرته هو واجبي. واجبي أن أساعد الآخرين ما استطعت إليه سبيلا.

– وماذا لو لم أعد؟ ألم تفكري في ذلك؟

نظرت إليه بصمت. إمتد الصمت بينهما للحظات، كانت تتفرس في وجهه، وأخيرا قالت بهدوء:

– إنك سترجع. ربما سترحل مرة أخرى، هذا لو تم كل شيء بشكل إيجابي، أنا متأكدة من ذلك، لأنك لن تخذل من قدم لك المساعدة. لست من هذا النوع من البشر.

كان هو طوال الوقت يتأملها. ينظر إلى وجهها المثير وهي تتحدث. أحس برغبة قوية في أن ينهض مباشرة ويأخذ رأسها بين يديه ويطبع قبلة حارة على شفتيها. ويقول لها أحبك. كان يحس أنه يحبها. لكنه في الواقع لم يقم من مكانه ولم يقل لها شيئا، سوى أنه ابتسم لها، وظل ينظر إليها صامتا. انتبهت هي إلى أنه يفكر بأشياء أخرى، وكأنه لم يسمعها، ابتسمت له وهي تشير بيديها:

– هلو.. نحن هنا.. إلى أين رحلت؟

إنتبه إليها، وعرف أنها انتبهت إليه، فقال لها بود:

– أتدرين أنني فقدت الرغبة بالسفر.

– ماذا؟

– نعم.. فقدت رغبتي بالسفر.

– لماذا؟

– لأنني سوف أفتقدك كثيرا. ليس من السهل أن يلتقي المرء بامرأة لها كل هذه الطيبة.. والجمال.

– شكرا على هذه الكلمات.. لكن الدنيا مليئة أيضا بالناس الطيبين، رجالا ونساء.

آدم البغدادي: هل وقع الدكتور آدم التائه في حب إيفا بيرغمان؟ إذا كان قد أحبها فعلاً فلماذا يسافر؟ هل هو يهرب من ماضيه؟ من العار الذي ألحقته به حواء المؤمن؟ أم أنا أريد أن أقصيه عن الأحداث من أجل أن أروي قصة متاهة حواء؟

علق آدم المحروم على هامش صديقه سائلا نفسه: هل يسأل صديقي الكاتب هذه الأسئلة دون أن يعرف الإجابة عليها؟ أليس هو الكاتب؟ أمن المعقول أن الشخصيات تتحرك وتتحاور دون إرادته؟ أم أنها لعبة تقنية في السرد الروائي، تقنية ما وراء السرد الروائي أو ما يمكن تسميته برواية ما بعد الحداثة، بحيث يقوم الكاتب بنفسه في نقد الرواية وتفكيكها ضمن الرواية؟ لكن من المؤكد أنه لا يدون هذه الأسئلة إذا لم تكن قد أقلقته فعلاً.

ألقى آدم المحروم المخطوطة جانبا. فكر مع نفسه، نعم الدنيا مليئة بالناس الطيبين. أليس آدم الزاهد مثالاً على الطيبة والكرم، أليست ابنته حواء أم الملاك مثالاً على الطيبة والجمال والكرم، بالرغم من ضيق حالهم.

إسترسل آدم المحروم في تدعياته. أحس بسعادة غامرة تسري في أعماقه، سعادة غامضة يشوبها شيء من الخوف والترقب. نهض بهدوء وأطفأ المصباح. عاد لفراشه متمددا، فاتحا عينيه، محدقا في سقف الغرفة الذي بدا له وكأنه سماء من الإسمنت.

7

التعيس الذي رأى نفسـه

إستيقظ آدم المحروم إثر تحسسه شيئا ما على وجهه. وحينما فتح عينيه وجد وجه آدم الملاك وهو يبتسم له. كان الصغير يمسك بريشة خضراء ناعمة يداعب بها وجه آدم. إبتسم آدم المحروم له ومد ذراعيه محتضناً الصغير الذي أخذ يضحك بصوت عال. لقد كان أطفـال العائلـة، أبنـاء أخواتـه وأخوتـه، يداعبونه هكذا اثنـاء مبيته عندهم أيضا، إلى جانب أنه يحب الأطفال بطبعه. احتضن الصغير وأدخله إلى جانبه في الفراش مدغدغا إياه. كان الطفل يكركر ويضحك ويرفس بقدميه، إلى ان تمكن من التحرر والهرب إلى بعد متر منه وهو يضحك ويقول:

– لا تستطيع أن تلحق بي.. لا تستطيع ان تلحق بي

كان آدم المحروم يبستم له ويقول له بنفس طريقته الطفولية:

– أنا أستطيع.. أنا أستطيع.. سأقوم إليك.. سأقوم إليك

أبدى آدم المحروم حركة وكأنما يريد أن ينهض ليلحق به، فما كان من الطفل إلا أن يهرب إلى داخل المنزل وهو يضحك، مناديا جده. إستغل آدم المحروم ذهاب الطفل، فقام على عجل وارتدى ملابسه، ثم جمع اللحاف وصفه على إحدى الكنبات، ثم طوى الفراش ووضعه جانبا. وبعد فترة قصيرة دخل الجد وهو يبتسم، قائلا:

– صباح الخير يا ابني..

– صباح النور يا حاج.

– إن شاء كان نومك هنيئا.. يبدو أن آدم الملاك لم يتركك تنام أطول، هذا ديدنه، فهـو يصحـو قبـل الجميـع، وعلينا جميعا أن نصحو لصحـوه. إنه يقوم بمختلف الآلاعيب ليوقظني ويوقظ أمه. لينعم الله عليه بالفرح، فلولاه لما أحسسنا بطعم الوقت.

– آمين يارب العالمين.. إنه ملاك حقيقي.. أنا أحب الأطفال لذلك كان شيئا رائعا

أن يوقظني بطريقته الطفولية البريئة.
– هل تريد أن تغسل وجهك أو تذهب للحمام.. قم معي. لا تخجل ليس في البيت سوانا. لقد ذهبت ابنتي إلى السوق القريب من هنا، وستتأخر قليلا.. قم وخذ راحتك.

حين سمع بأن حواء أم الملاك ليست في البيت راودته مشاعر متناقضة، فقد ارتاح لسماع الخبر لأنه سيأخذ راحته في الاغتسال، لاسيما وأن الحمام في عمق المنزل، لكنه أيضا أحس بشيء من الفراغ والنقصان لعدم وجودها. إستغرب من أحاسيسه، أمن المعقول كل هذا التعلق بإمرأة لم يرها سوى دقائق؟. لكنه لم يشغل نفسه بها كثيرا، إذ نهض مع الأب ودخل إلى أعماق المنزل.

في غرفة الحمام وأمام المرآة الصغيرة العكرة نظر آدم المحروم إلى نفسه. فكر للحظات بهذا الوجه الذي يراه في المرآة. ظل يحدق إلى وجهه في المرآة لدقائق. أخذ يحدث الشخص الذي يراه في المرآة، وكأنه يحدث شخصا آخر:
– ماذا تفعل هنا في هذا البيت الذي لا تعرف أهله اصلا؟ ها.. قل.. ماذا تفعل هنا؟
نظر إلى الشخص الذي في المرآة، وقال له بصوت مكتوم لكن فيه نبرة تهديد:
– إهدأ أيها المجنون؟ إلى أين تمضي بمغامرتك هذه؟ كيف جئت إلى هنا؟ وماذا تنوي برغباتك الجنسية الدنيئة؟ الأب يناديك يا ابني يعني ان ابنته مثل اختك، اتريد مضاجعة أختك؟

ولكي يعبر عن رفضه الأخلاقي لهذا أخذ بكفه بعض الماء ورشه على المرآة، قاصدا الشخص الذي يراه في المرآة. فجأة، سمع طرقا على باب الحمام. تنحنح هو إشارة لوجود شخص دخل الحمام، فجاءه صوت الأب وهو يسأل:
– هل أنت بخير ابني؟ هل تحتاج شيئا؟
– شكرا يا حاج.. سأنتهي حالاً..
– خذ راحتك يا ابني، أنا فقط أردت أن اعرف ان كنت تحتاج لشيء.
– شكرا يا حاج.. كل شيء على موجود.. شكرا.

فجأة تناهى إلى سمعه صوت حواء الزاهد متداخلا مع صوت الصغير آدم الملاك والأب آدم الزاهد فعرف أنها رجعت من السوق. أحس بشيء من الفرح يسري في أعماقه. كما أحس بالراحة لأنه كان قد دخل إلى المرافق وتبول وتبرز، لاسيما وأنه

لـم يدخـل إلـى المرافـق منـذ أمس، وكانت أمعاؤه مثقلة جـدا، كما أخرج ريحا بصوت مسـموع، ويا لخجله لو كانت حواء موجودة، لاسـيما وأن المرافق بنيت تحت الدرج وبالقرب من غرفة الحمام المجاورة للمطبخ، أي لو كانت هي موجودة لسمعت ضراطه، وهذا سـيلغي أي مشـروع رومانسـي مسـتقبلي معها. بقي لفترة أطول في غرفة الحمام إلـى سـمعها تصعـد الـدرج مع الصغير آدم المـلاك فعرف أن بإمكانه أن يخرج ويذهب إلى غرفة الإستقبال.

كان الأب جالسا على إحدى الكنبات يتصفح كتاب نهج البلاغة. في وسط الغرفة على الأرض كانت صينية كبيرة فيها صحن من القيمر وأقراص من الخبز الطازج وصحن صغير فيه عسـل أسـود، وبالقرب من الصينية كانت المدفأة النفطية متقدة وعليها إبريق الشاي.

حيـن دخـل آدم المحـروم إلـى الغرفة ألقى الأب الكتاب جانبا، ونظر إليه مبتسـماً، وحينما رآه ينظر إلى الكتاب، قال موضحا:

– أنا أحب أقرأ في نهج البلاغة كل يوم جمعة صباحاً أو حينما يكون لدي فراغ. إنني استمتع جدا بالقراءة صباحا.

– نهج البلاغة كتاب عظيم.

– هل قرأته؟

– قـرأت معظمـه. كنـا نحتفـظ بـه في بيتنا بالنجـف، وهو بالنسـبة للعائلة يعد كتابا مقدسا. كانت أمي تقول وجوده في أي بيت هو بركة.

– هذا صحيح.. دعنا الآن نفطر وبعد ذلك نتحدث عن الكتب.. اليوم لدينا النهار والليل كله، فأنا كنت أذهب إلى عملي يوم الجمعة، لكن بعد ما بدأت مسـألة التظاهر في ساحة التحريرصارت المنطقة مقرفة، إذ تكون من ليلة الجمعة مطوقة بالآليات العسكرية وسيارات المخابرات وكاسري الإضرابات والمظاهرات من المرتزقـة الجـدد، حتـى وقـت متأخر من عصر يـوم الجمعة، لذا كرهت الذهاب يوم الجمعة نهارا، وإنما أذهب عصراً.

– المرتزقة الجدد؟ هذا مصطلح جديد.

نزل الأب من الكنبة وجلس على الأرض داعيا إياه للجلوس أيضاً:

– إجلس الآن لنفطر.. وبعد ذلك نتحدث.

مـا أن انتهيـا مـن الفطـور حتـى جاء الصغيـر آدم الملاك راكضا، إذ أنه قد هرب من

أمه التي كانت تطعمه الفطور، وجاء ليشاركهما، وجاء صوت أمه الهادئ والرقيق وهي تناديه:

– تعال يا حبيبي.. أكمل فطورك ثم أمضِ إلى جدك..

إبتسما له، وفسح جده له المكان ليجلس إلى جواره. كان الصغير يوزع النظرات إليهما والفرح يشع من عينيه المتألقتين. قطع جده شيئا من الخبز ووضع فيها قطعة من القيمر وأخذ ملعقة صغيرة غمسها في صحن العسل وأخذ يرش القيمر بالخبز، ثم أعطاه القطعة للصغير بعد أن صيرها لفة يسهل قضمها.

كان آدم المحروم يشعر بخدرعاطفي، فثمة تيار من المشاعر الرقيقة والمتوهجة بالفرح يسري في فضاء روحه، أحس أنه في أمان كبير، ذكرته بتلك الصباحات الصيفية البهيجة حينما كان طفلا، وحينما كان ينام في السطح مع أخوته، لكنه يصحو على صوت القرآن الكريم وهو يصدح بصوت عبد الباسط المهيب، فينزل الدرج ليجد العائلة تجلس في باحة الدار للفطور، فيأخذ مكانه مباشرة إلى جوار والده الذي كان يعد له لفة القيمر والعسل أيضا. كما أحس بالحيوية حين سمع صوت حواء أم الملاك وهي تناديه. وكان يترقب دخولها عليهم. وكلما تأخرت في الدخول عليهم، يزول تأثير تيار المشاعر، إلى أن وجد نفسه يدخل في دوامة المحايثة. قال لنفسه إن كانت تفكر بي أيضا، فأنها ستدخل.

كان صامتاً وهو يأكل وينظر إلى الصغير وعلى وجهه إبتسامة بريئة، بينما فكره منشغل بإرسال رسائله إليها. وفجاة، دخلت حواء أم الملاك وهي تبتسم وتقول:

– السلام عليكم..

أحس آدم المحروم بالدم يصعد إلى وجهه، إذن هي تفكر به أيضا. هكذا فكر خلال ثوانٍ، فتمتم:

– صباح النور..

قاطعها الأب مبتسما:

– هل هرب منك هذا الملاك؟

– نعم يا أبي.. لم يدعني أطعمه للنهاية إذ هرب إليكم..

– لا ضير. هو يأكل مع الرجال.. يريد أن يصبح رجلا بقفزة واحدة..

ضحك جميعهم. علق آدم المحروم وكأنه يلقي حكمة قديمة، قائلا:

– إنه لا يعرف هذه الدنيا وما فيها.. ولو عرف الإنسان لما جاء إلى هذه الدنيا أصلا..

– أي والله.. كم يتمنى الإنسان لو لم يأت إلى هذا العالم.. علقت حواء أم الملاك.
إبتسم الأب وقال وكأنه متهم:
– هل تقصدين أني أذنبت بحقك..؟
بهتت حواء من المرارة التي تجلت في قول والدها، فقالت وكأنها تعتذر عما بدر منها:
– أبدا.. أنت أروع أب في الدنيا.. لم أقصد ذلك أبداً.. لكني أقصد أن هذه الدنيا مليئة بالتعاسة، وأنها تجبر الإنسان أن يلعنها، أو يتمنى لو لم يكن موجودا فيها أصلا.
– أفهم ذلك يا ابنتي.. لكن ماذا نفعل؟ هذه هي الدنيا وهذا هو الزمان الذي نعيش فيه، لنشكر رب العالمين على أننا شهدنا يوم الخلاص من الصنم الذي كان جاثما فوق صدورنا..
– والأصنام الجدد.. متى سنتخلص منهم..؟ علقت هي.
– هؤلاء ليسوا بأصنام يا ابنتي..
– هؤلاء تم تنصيبهم من قبل أسيادهم، وأنت تعرف ماذا أقصد. قالت بحنق واضح.
– هذا ليس صحيحا يا ابنتي.. بين هؤلاءالكثير من المناضلين ومن عوائل الشهداء والسجناء.
– أمثالك.. ماذا جنيت أنت؟ ألم تقضِ عمرك في السجون، وها أنت تبيع الشاي وأنت بهذا العمر، بينما هم وأبناؤهم يكنزون الأموال والعقارات خارج البلاد..؟!
– استغفر الله.
– لماذا تستغفر الله يا أبي.. أليس ما أقوله صحيحاً؟
إلتفتت إلى آدم المحروم وقالت له وكأنها تطلب عونه ومساندته:
– أليس صحيحا ما أقوله يا أستاذ آدم؟ هؤلاء جاءوا بإسم الدين وبإسم آل البيت لكنهم أتخموا بعضهم البعض. لقد امتلأت السجون بالناس الذين تم إعتقالهم بالوشايات، عن طريق المخبرين السريين، بل إنهم إذا أرادوا التخلص من شخص كتبوا ضده وأرسلوا ضباطهم لإعتقاله، بينما علي بن أبي طالب يقول: لا تعجلنَّ إلى تصديقِ ساعٍ فإنَّ الساعي غاشٌ وإن تشبَّه بالناصحين.
– أنت محقةَ فيٍ كل حرف.. أعتقد أن هؤلاء يخالفون حتى أئمتهم الذين جاءوا إلى سدة الحكم بأسمائهم، ألم يقل علي بن أبي طالب في وصيته للأشتر: إن شرَّ وزرائك مَن كان للأشرار قبلك وزيراً ومَن شركهم في الآثام فلا يكوننَّ

لـكَ بطانـةً فإنهـم أعـوانُ الأثمةِ وإخوانُ الظَّلمةِ. بينما هم جاءوا بالقتلة وعينوهم في أهم المناصب الأمنية والعسكرية. واليوم صار هؤلاء أبناء السلطة الجديدة ومن الناطقين بإسمها.

نظر الأب إليهما، أحس بأنهما اتحدا ضده، بالرغم من أنه يتفق معهما في كل ما قيل، لكنه لم يشأ أن يبدأ الحوار وضيفه لم ينته من فطوره، فقال وكأنه يردد دعاءً:

– اللهم احملني على عفوكَ ولا تحملني على عدلِكَ.

أحس آدم المحروم بأن العلاقة بين الأب والإبنة ليست كما يجب، وأن بينهما إختلافا في النظر إلى واقع الحياة. بينما كان الأب ينظر إلى محاججة ابنته على مائدة الفطور بفخر بالرغم من أنه لم يبد موافقته الكاملة على ما تقول، لاسيما أنه لم يشأ أن يكون هذا كله أمام آدم المحروم، لذا قال مازحا:

– ما هذه المحاضرة منذ هذا الصباح الباكر؟!

انتبهت هي إلى ما رمى إليه والدها من أنها تجاوزت أصول الضيافة، فما كان عليها أن تتحدث هكذا إلى أن ينتهوا من تناول فطورهم، فقالت مازحة لتلطيف الجو، وكأنما تعتذر لأبيها:

– أنا أعتذر لأنني قطعت عليكم فطوركم.. لكن لا ضير، سأعد لكم اليوم وجبة الباميا مع رز البسمتي.. تعبيرا عن أسفي.

ضحك الأب وقال:

– إذا كان الأمر كذلك فأنت معذورة..

أما آدم المحروم فقال مازحا وهو يبتسم:

– بل إن مقاطعتك للفطورجاءت في محلها، فأنا منذ الآن صرت أفكر بالباميا.

ضحك جميعهم. نهضت حواء أم الملاك بينما قام الأب برفع الصينية بعد أن أخرج منها استكانات الشاي وصحن العسل، فأخذتها منه وذهبت بها إلى المطبخ.

كان الجو بينهما متوترا لكن ليس ذاك التوتر العدائي، بل يمكن القول كان هناك ارتباك يحس به كلاهما، فهما لا يعرفان كيف يواصلان الحديث، بل إن كلاً منهما ينتظر أن يبادر الآخر بالحديث، لذا لكي يزيل الأب هذا الإرتباك، قام بصب الشاي لهما، بينما عقب آدم المحروم بهدوء:

– ما شاء الله، أم آدم الملاك مثقفة، وكذلك لديها رؤية واضحة لما يجري..

– إنها تقرأ كثيرا..

– هل هي تدرس؟

- لا.. لقد أنهت الدراسة الإعدادية القسم الأدبي، ولم تكمل لأني كنت سجينا، وأنت تعرف الظروف في ذلك الوقت، لكن لدي مكتبة لا بأس بها في البيت، وهي تقرأ كثيرا، لاسيما بعد وفاة المرحومة أمها وإعتقال زوجها، فهي تقضي وقت فراغها بالقراءة، بل لديها محاولات في الكتابة النثرية، على أية حال، سأريك مكتبتي، إنها في الغرفة التي على السطح.

أحس آدم المحروم بالفرح، فقال بحماس:

- يسرني ذلك.. أنا أشعر بالأمان بين الكتب.. أحس أن المؤلفين أصدقاء لي وهم يحيطون بي..بالرغم من أني ربما لن أشعر بذلك تماماً في مكتبة مثل مكتبتك نظرا لطبيعة الكتب التي فيها، فأنا كما تعرف أميل للكتب الإنسانية والأدب والفن..

نظر الأب إليه وكأنه يستمع لابن صغير له:

- ولماذا تعتقد ذلك؟ لماذا تعتقد أني لا أقرأ كتب الفن والأدب..؟ ستجد عندي معظم كتب التراث العربي.. هل تحب الشعر؟
- نعم.. وهل هناك من لا يحبه؟
- لدي تقريبا كل التراث الشعري من الجاهلية وحتى الآن، بالرغم من أني لا أحب الشعر الذي يسمونه بالشعر الحديث.. لدي كتب اللغة.. والفلسفة.. والتاريخ..
- وماذا عن الفن؟
- لا أميل للفنون كثيرا، بالرغم من أن لدي بعض الكتب في تاريخ بعض الفنون..
- هل لديك روايات؟
- روايات؟
- نعم روايات.. أقصد روايات لدستويفسكي، وتولستوي.. وغيرهم.
- لا.. أنا أعتقد أنه من الأفضل قراءة كتاب في علم النفس أو الإجتماع على قراءة رواية.. بالرغم من أني لست ضد من يقرأها..
- أنا أعتقد أن قراءة الرواية، لاسيما تلك الروايات الخالدة، تغني الإنسان كثيرا، وتمنحه الخبرة في الحياة والناس والأشياء إلى جانب المتعة..
- لآ أخفيك يا ابني.. أحس أنها مضيعة للوقت.. يمكن قراءة كتب التاريخ وعلم النفس والإجتماع مباشرة لكي نعرف ما يدور حولنا، وليس قراءة رواية هي من خيال شخص ما يعكس فيها تجربته الشخصية مهما كان مثقفا.. وأرجو أن لا تعتبرني، من خلال كلامي هذا، معاديا للأدب والفن، لكن ربما أنا أنتمي لنوع

آخر من القرّاء.

– عفوا.. لا أقصد فرض رؤيتي على الآخرين، لكني أنطلق ربما من إختصاصي.. فأنا فنان وكاتب كما تعرف.

– وأنا أنطلق أيضا من إختصاصي..

– وما هو اختصاصك؟

– الدعوة..

– الدعوة؟

– نعم الدعوة.. لماذا تتعجب؟

– لا.. لكني لا أعتقد إنها مهنة أو اختصاص

– ربما.. لكني حينما بدأت درب الإنتماء صارت الدعوة واجبي واختصاصي.

– لكـن يبـدو أنهـا حجبتك عن التواصـل مع أفكار الآخرين والتعرف عليها، لأنك انحزت للدفاع عن أفكارك والدعوة لها..

– ربما.. لكن هذا طبيعي.. فكل إنسان يدعو لما يعتقد أنه صواب، خذ الشيوعيين مثلا ألم يدعوا منذ عشرات السنين لعقيدتهم؟

– ربما أنت محق.. لكنهم لا يدعون أنفسهم دعاة، ولا يجعلون من ذلك اختصاصا لهم..

– أليس لديهم من الناس المتفرغين للعمل الحزبي؟

– بلى

– إذن هؤلاء اتخذوا من الحزب مهنة لهم.

– أنت محق في هذا.. أكنت متفرغا للعمل الحزبي؟

– نعم..

– وكيف كنت تعيش؟

– كنت أعمل. كنت موظفا في المكتبة الوطنية.

– المكتبة الوطنية.. تلك التي في الباب المعظم؟

– نعم.. مقابل وزارة الدفاع القديمة.. كنت هناك.

– ولماذا لم ترجع للوظيفة؟

– أوه.. هذه قصة طويلة.. بعد سـقوط الصنم.. كان وضعي الصحي سـيئا، وكنت منشغلا بالأوضاع الجديدة.. وإعادة الاتصال التنظيمي.. لكني أصبت بالخيبة.. رأيت آخرين قد صاروا من المبرزين في التنظيم.. وحكيت لك من رأيت منهم..

صدقني بين هؤلاء القادة من اعترف وتعاون مع أجهزة الأمن بل وساق أبرياء إلى الموت.. وبعضهم من تعرف على التنظيم في إيران لكنه عاد قائدا ميدانيا يأمر وينهي ويحتل المناصب الرفيعة في الحكومة.. الحمد لله أني سلمت بنفسي من هؤلاء.. لأنهم أرادوا أن يتهموني بما هم فيه.. لا أريد الوظيفة.. ولا أي شيء منهم.. الحمد لله أجريت معاملة التقاعد.. وحاليا أتقاضي كل ثلاثة أشهر مبلغاً يعيننا مع ما أحصل عليه من بيع الشاي.. والحقيقة ما أحصل عليه من بيع الشاي أكثر بكثير من راتبي التقاعدي.. وبالمناسبة أنا لم أختر مهنة بيع الشاي، لكن صاحب المطعم هو قريب لزوج ابنتي، وهو الذي طلب مني أن أفتح زاوية إلى جوار مطعمه لبيع الشاي على رواد المطعم، وكما ترى، الحمد لله مستورة.. لم يبق في العمر بقية نبيع آخرتنا من أجلها.

– إذاً ابنتك محقة في كلامها

– نعم هي محقة، لكني أعارضها كي أخفف من ألمها وقهرها، فإذا أيدتها في ذلك ستعرف عمق ألمي، وسيتضاعف ألمها. إنها حساسة جداً، وهي تكظم في أعماقها الكثير من الألم والحزن. فقد فقدت أمها وأخاها، واعتقل زوجها في وقت متقارب، ورأت ما جرى لي مع أخوة الأمس، كما هي ترى ابنها يترعرع دون حنان الأب. إنها مثل لبوة في قفص.

– كان الله في العون..

– ألم تر أن الصغير قد تعلق بك مباشرة. أنا لاحظت ذلك، وأنها لاحظت ذلك أيضا. الطفل يحتاج لحنان ورعاية.

– لقد لاحظت ذلك، والحقيقة أنا تعلقت به أيضا. نحن عائلة كبيرة، وأنا شخصيا تعودت على وجود أطفال أخوتي وأخواتي حولي، وحينما أذهب إليهم أقضي معظم وقتي باللعب معهم، لذا فهم ينتظرون زيارتي إليهم دائما..

– تعال معي نصعد إلى المكتبة، وسأطلب أن يعدوا لنا شايا جديدا

قام الإثنان وخرجا من الغرفة، وعند مدخل المنزل تنحنح الأب منبها بصعودهما. وصعدا إلى المكتبة. ولم يكونا قد دخلا حتى دخل آدم الملاك عليهما وهو يتبسم بخجل وتعلق بساق جده الذي انحنى ليطبع قبلة على جبينه الصغير.

– دائماً كنت أتخيل الجنة على أنها مكتبة من نوع ما. وربما تخيلها غيري على هيئة قصر أو بستان.

إنتبه الأب إليه وكأنه قال شيئا غير مألوف. فعلق آدم المحروم قائلا:

– هذا قول لكاتب أرجنتيني أعمى من أميركا اللاتينية اسمه بورخيس.
– هذا قول غريب حقا.. فكل أوصاف الجنة في القرآن أو حتى الكتب المقدسة هو توصيف ريفي.. أي أنها بستان جميل وفيه ما لذ وطاب من الفاكهة، والحوريات، وأنهار من الحليب والعسل الخمر..لكن لم يرد ذكر للكتب فيها علما أن القراءة هي من المتع العظمى.
علق آدم المحروم مشاكسا بمرح:
– وليس فيها إنترنيت ولا موبايل ولا سيارات أو طائرات أو أي شيء آخر.. وكأنها منتجع للعلاج. ثم أين تقع الجنة.. هل هي في مجرتنا أم في مجرات أخرى؟ وإذا ما قلنا إن الكون سينتهي لتبدأ القيامة فأن هذا يعني أن على الله أن يخلق كونا ماديا آخر، أو أن الجنة ستكون روحية وغير مادية، وبالتالي فكل ما فيها سيكون كما في السينما أو شاشة الكمبيوتر.
لمح آدم المحروم بعض ملامح الإنزعاج على وجه الأب، فقال بنبرة خجولة ومعتذرا:
– أنا أعتذر عن تجاوزي في الكلام..
صمت الأب قليلا ثم قال بنبرة أبوية وتعليمية:
– إنكم الماديين لا تؤمنون، وهذا شأنكم لكنكم يجب أن تتقبلوا عقائد الآخرين ومعتقداتهم، أليس كذلك؟
– أنا اعتذر إن كنت قد أزعجتك بتعليقي عن الجنة لكنها أسئلة كانت تراود بطل وادي الظلمات.
– من؟
– عفوا.. كنتُ أقرأ رواية بطلها تراوده مثل هذه الهواجس عن الجنة والجحيم. ثم أود ان أوضح بأني أؤمن بخالق لهذا الكون، لكنه بالتأكيد غير هذا الرب الموجود في الكتب المقدسة. أنا اعتقد بأن هناك خالقا مبدعا لهذا الكون، لكن من هو؟ كيف هو؟ متى؟ وأين؟ ولماذا خلق الكون؟ إنها أسئلة تحيرني.
– إنك تذكرني بالطالب في كتاب قصة الإيمان. إنه يسأل ذات الأسئلة.
– لقد قرأت الكتاب، إنه كتاب جيد.. لكنه بالتالي يحاول أن يعود بكل الفلسفات والعلوم إلى الكتب المقدسة.. وأعتقد أن هذا إقحام.
– ألم تقرأ كتاب (فلسفتنا) للشهيد محمد باقر الصدر، وكيف كان الرد فيه على الفلسفة المادية. وكذلك كتابه الآخر (إقتصادنا)، وهناك كتب أخرى في الرد

على الماديين والماركسيين.
– يا حاج.. هل قرأت يوما كتابا من كتب ماركس أو غيره من الماديين؟
– أعوذ بالله.. لكني قرأت الرد المفحم عليهم..
– أعتقد أن الرد لم يكن دقيقا بما يكفي. فالمؤلف قد إعتمد على بعض الكتب التي لا تعتمد كمصادر موثوقة في الفكر الماركسي. لقد اعتمد على كتب تشرح الفلسفة الماركسية بشكل مبتذل، كتب للمؤلفين السوفيت الرسميين، وبعض الكتب من المصادر، لكن المؤلف لم يقرأ كل المصادر الأساسية في هذه الفلسفة، بالرغم من أني لا أؤمن بمادية الفلسفة الماركسية.. فالعلوم الحديثة قد تطورت جدا، لاسيما نظرية (الكم)، والفيزياء الكونية والفيزياء المجهرية، والعلوم التي دخلت في صميم بناء الحامض النووي للجنس البشري، وعلوم الطب، كلها تثبت بأن هناك خالقاً مبدعاً لكل هذا التصميم العجيب للكون والأحياء.
– بغض النظر عن كل شيء، فها أنك تقر بأن الفكر المادي خاطئ.
– أنا لم أقل إنه خاطئ، وإنما أقول بأنني أؤمن بوجود خالق لهذا الكون، لكني أتفق مع كل محاولات تفسير العالم والمجتمع والتاريخ تفسيرا ماديا وليس غيبياً.
– أتريد أن تقول بأنه ليس هناك أنبياء ولا وحي ولا أديان؟
أحس آدم المحروم بأن الحديث أخذ مجرىً غير مناسب له كضيف، فأراد أن يخفف من محاججته، فالتفت إلى الأب الذي كان وجهه ينم عن انفعالات عصبية مكتومة، وقال بلهجة فيها بعض المرح:
– أنا لم أقل ذلك يا حاج..بالتأكيد هناك أنبياء وكتب مقدسة لدى الناس وأديان سماوية وأخرى أرضية.. والحقيقة أنا لا أريد الخوض بمثل هذه النقاش وأنا في حضرة كل هؤلاء المؤلفين والفلاسفة والمفكرين والشعراء.

ثم التفت إلى الصغير آدم الملاك وقال له مازحا:
– وأنت أيها الملاك الجميل.. هل ستكبر لتقرأ كل هذه الكتب العظيمة؟
ضحك الطفل وقال بلهجته الطفولية وهو يتأرجح بساق جده:
– عندما أكبر سأقرأ لجدي وأمي..
– عشت أيها البطل الصغير..
إبتسم الأب آدم الزاهد لكلام حفيده وانحنى فقبله من خده، ونظر إلى آدم المحروم، وقال له:

– أتـدري أن كلام هـذا الكاتـب الـذي ذكرتـه ما زال يدور في ذهني في تصوره بأن الجنة مكتبة.

انتهز آدم المحروم ذلك وقال:

– هـذه مـن فوائـد القصـص والروايات.. في كتب علـم النفس أو التاريخ تقرأ مثل هذه الأفكار الأصيلة؟

– لقـد نبهتنـي لشـيء مهم..ربمـا لـو كانـت مكتبتـي تحتوي على بعـض الروايات والكتب الأدبية المفيدة لكانت قد أفادت ابنتي حواء، ولربما واستها وأخرجتها مـن حزنهـا الـذي صـار كالصخـرة على صـدري، فكلما أنظر إليها أشـعر بالألم يعتصـر قلبـي، لأنـي أعـرف أنها تكظم في أعماقها حزنا كبيرا، ولا أدري، فلربما بعض الكتب التي تتحدث عنها، كالروايات مثلا، فيها ما يفك الحزن عن النفس.

– يا حاج.. كل العوائل السـعيدة متشـابهة في سـعادتها، لكن العوائل التعيسـة فهي تعيسة كل حسب طريقتها وبما لديها.

– هل هذا القول لصديقك الكاتب الأرجنتيني الأعمى أيضا؟

– لا.. إنها أول جملة ترد في رواية (آنا كارينا) للكاتب الروسي ليف تولستوي.

صمت آدم الزاهد للحظة، ثم قال بهدوء:

– أتدري يا بني.. إنك أحسستني بأني لم أقرأ شيئا. وأن رأيي بفن الرواية ليس في محله، فهناك عالم آخر لم أتعرف إليه بل وكنت أتجنبه عن قصد، ربما لأني لم أصادف مَن يرشـدني إليه، على العكس كنتُ محاطاً بمَن يمنعني عنه، وينبهني لعدم الإقتراب منه لعدم جدواه.

كانـا يتحـاوران وهمـا واقفـان يتطلعان إلى رفـوف الكتب التي تحيط الغرفة. التفت آدم الزاهـد إلـى آدم المحـروم فـرآه ينظـر فـي رف من الرفوف متطلعـا لعناوين الكتب، فانتهز الفرصة وقال لحفيده:

– جدو.. إذهب لماما وقل لها أن تعد لنا الشاي.

ركض الطفل مسرعا وهو ينزل السلم فخرج جده إلى باب غرفة المكتبة وهو ينظر إليه بقلق، وقال له منبها:

– جدو.. إنزل بهدوء.. لا تستعجل كي لا تسقط.

كان الطفـل قـد وصـل إلـى داخـل المنزل راكضا نحو أمـه، بينما دخل هو إلى غرفة المكتبة فوجد أن آدم المحروم قد سحب كتابا وهو جالس على الكنبة الصغيرة التي تحتل زاوية بين ضلعي المكتبة يتصفح كتابا ليس من الكتب المجلدة والمعروفة لديه، فسأله:

– هل وجدت شيئا مفيداً في جنتي؟

رفع آدم المحروم رأسه متعجبا، وهو يسأل:

– هل تقرأ لداريوش شايغان؟

– من؟

– داريوش شايغان صاحب كتاب: ما الثورة الدينية؟

– أوه.. هذا الكتاب لقد اشتريته مؤخراً من مكتبة على الرصيف، لكني لم أُقرأه لحد الآن، بل تصفحته، فوجدت المؤلف مستغربا وليس لديه سوى الحديث عن الفلاسفة الغربيين، فعزفت عن قراءته.

– لكن هذا ليس كل شيء يا حاج. لأنك لو قرأت الكتاب لوجدت أنه يتحدث عن الثورة الإيرانية، والثورة الإسلامية أيضا. أي إنه يناقش مشروعكم الإسلامي برمته ويكشف أساس أزمة هذا الفكر والطرق المسدودة أمام هذا المشروع.

– حقا؟

– كيف فاتك ذلك يا حاج.. إسمع ما يقول هنا عن عبارة (ثورة إسلامية).

– ماذا يقول؟

حينما أراد آدم المحروم البدء بالقراءة سمع خطوات على السلم، فخمن أنها لحواء أم الملاك، لكن وقع الخطوات توقف فجأة. فكر أنها تتنصت لما يدور بينهما، فبدأ بالقراءة:

– ما المعنى المضبوط لهذين اللفظين؟ إن فكرة الثورة تجعلنا نستحضر أفكاراً جمّة، فنتذكر الثورة الفرنسية وعصر الأنوار الذي مهد لها الطريق، ونتذكر الموسوعيين، وإعلان حقوق الإنسان، ومن ثمة نتذكر– والعبارة لهيغل– نابليون بونابرت، روح العالم، ممتطياً حصاناً أبيض، ونتذكر الضرورة التاريخية التي لا أحد بإمكانه أن يتجاهلها ولا شيء يوقفها، وأخيرا نتذكر ماركس وصراع الطبقات والمصير الأخروي للبروليتاريا. (صمت قليلا، ثم واصل). في مقابل ذلك بمَّ توحي لنا كلمة إسلام؟ التسليم بالإرادة الإلهية، وبذلك فهي تذكرنا بالقرآن، وبظاهرة الكتاب المقدس، وبالوحي وبالروح النبوية.. فنستحضر في أذهاننا دورة النبوة منذ آدم، أول إنسان خلق على صورة الله، إلى محمد خاتم الأنبياء. إنها دورة تامة تمثل التجلي الكامل للحقيقة المحمدية – الكلمة– التي لا يمثل الأنبياء السابقون سوى تجل جزئي لها....(يتوقف قليلا.. ثم يواصل).. هذان المصطلحان وهذان العالمان، الثورة من جهة والإسلام من جهة أخرى،

ليست بينهما إذاً أي وشائج أنطولوجية. إنهما يتحركان في مدارات مختلفة، وليس لهما نقاط الارتكاز نفسها ولا المحور المركزي نفسه الذي تنتظم حوله الأفكار المرتبطة بهما، إذ تحيل نقاط الارتكاز هذه على مضامين مختلفة ومتناقضة. فعندما نقارن بينهما يتبين لنا أن عالم أحدهما هو مغامرة العقل عبر الزمن الذي ينعم بأولوية أنطولوجية يترقى التاريخ معها إلى مستوى أقنوم وتصبح فيه الثورة النتيجة المباشرة لسلبية العقل، في حين أن العالم الآخر، أي الإسلام، يبقى خارج قلق التاريخ ويكشف عن قيم أزلية غير متموضعة لا في الجغرافيا ولا في التاريخ. (صمت قليلا.. ثم واصل).. لقد ظهر المَلَك جبريل للرسول في عالم الروح، وأوحى له بالقرآن بطريقة خارقة للعادة. ولذلك، فإن اختلاف الإسلام عن الثورة ليس مجرد اختلاف في الآراء والمناهج، وإنما هو اختلاف جوهري. إنه اختلاف كوكبتين متعارضتين.

توقف آدم المحروم عن القراءة. رفع رأسه فانتبه إلى أن وجه الأب آدم الزاهد قد أحتقن من شدة الانفعالات التي كانت تزدحم في ذهنه. علق الأب آدم الزاهد على ما قرأه آدم المحروم قائلا بغضب مكتوم:

– هذه هرطقة. هذا كاتب زنديق. كيف لم أنتبه لوجود مثل هذا الكتاب في بيتي؟ ألم يكن الإسلام بحد ذاته ثورة على التخلف والوثنية وعبادة الأصنام والعنصرية؟ ألم يقرأ هذا الكاتب مؤلفات هنري كوربان الذي كان عاشقا للفلسفة الإسلامية ولديه مؤلفات حول ذلك؟

تصفح آدم المحروم الكتاب الذي كان قد قرأه قبل أعوام، وتوقف عند الصفحات التي يتحدث فيها داريوش شايغان عن هنري كوربان، وقال له:

– انتظر. هنا هو يكتب عن ذلك. فهو يكتب: في ما يتعلق بما هو مطلوب من الغرب تجاه الشرق، أعرف شخصياً مجهودات هنري كوربان الذي كان أستاذي وصديقي. ولئن أحييت ذكراه الآن فلأنني كنت شاهداً طيلة أكثر من عشرين سنة على جهده السخي. فقد كرس أكثر من أربعين سنة من حياته للبحث في المكتبات المغبرة لتحقيق المخطوطات ولإعادة بناء هذا الفكر الثري بمهارة الصائغ وعنايته. (يصمت لحظة.. ثم يواصل).. ولكن ما فعله كوربان هو حج في إتجاه واحد. إنها هجرة الغرب بحثاً عن شروق الأنوار. وإذا كان كوربان قد أعاد رسم المسافة من هيدغر إلى السهروردي، فإن أحفاد السهروردي عاجزون عن رسم المسافة المعاكسة، أي إعادة تتبع الطريق التي تنطلق من السهروردي وتنتهي إلى هيدغر.

لماذا؟ لأن استيعاب فكر هيدغر يعني استيعاب مغامرة الوجود العجيبة عبر تاريخ الفكر الغربي الذي ظهر في شكل طبيعة وعقل في بداياته، وفي شكل فكرة وطاقة مع أفلاطون وأرسطو، وفي شكل وجود جوهري في العصور الوسطى، وفي شكل موضوعية وذاتية في العصور الحديثة، وفي شكل إرادة الإرادة، وفي شكل تفتيش عن خبايا الوجود في عصر هيمنة التقنية. إن استيعاب هذه المغامرة يعني الولوج إلى روح الغرب، ومن ثم متابعة حركته الجدلية.

أحس آدم المحروم بأن الزاهد قد صُدم بصداقة الكاتب مع هنري كوربان أكثر مما كتبه عن كوربان، لكنه قال وفي نبرة صوته حيرة ما:

– لكن ما الذي يريد أن يقوله هنا؟

أراد آدم المحروم أن يقرأ له بقية النص الذي كتبه شايغان عن كوربان إلا أن دخول حواء أم الملاك عليهم وهي تحمل صينية الشاي قطع عليهم ذلك التواصل. أحس آدم المحروم بأنها كانت تستمع له حينما كان يقرأ وكذلك ما دار بين أبيها وبينه من حوار، ولأنها أحست بأن ذلك سيقود لتوتر بينهما دخلت عليهم لتنهي القراءة والحوار عن شايغان والثورة والإسلام. وجهت نظرة دافئة تشع إعجابا خفيا بآدم المحروم دون أن ينتبه والدها الذي كان قد أعطى ظهره للباب حين دخولها، وقالت باسمة:

– كفّا الآن عن النقاش واشربا الشاي. أنا سأذهب إلى السوق القريب لشراء الزيت فلم يبقَ لدينا شيء منه.

لم تترك لأبيها فرصة التعليق إذ خرجت مسرعة لكنها عند الباب التفتت لآدم المحروم وعلى وجهها ابتسامة وحينما نظر هو إليها أحس في ثانية وكأنه أمسك بها إذ أحمر وجهها وارتبكت ومضت مسرعة تهبط السلم.

كان الأب وكأنه قد صدم، أو كأنما قد تهدم جرف كبير في مجراه الفكري. سأل نفسه: هل يمكن للإنسان أن يشطب ما كان يؤمن به طوال سنوات خلال دقائق؟ أمن المعقول أن جلسة واحدة مع هذا الفتى الذي كنت أنظر إليه كشاب مسكين أن يزلزل بنائي الفكري والعقائدي خلال ساعة؟ أين كنت أنا من كل هذه الأفكار والأسماء والكتاب؟ كيف أني لم أقرأ هذا الكتاب الذي اشتريته؟ بلى، لدي الكثير من الكتب التي لم أقرأها لضيق الوقت، ولم يكن لي منها سوف التصفح. ما هي قصة هذا الشاب الحقيقية؟ أليس خطرا وجوده هنا معي في البيت؟ إنه غير ملتزم، لا يصلي، لكن لا يبدو عليه التهتك والإستهتار. لا بد وأن أعرف ما وراء كل هذا.

كانت الأفكار تدور برأسه وهو يصب الشاي في الإستكانين، بينما كان آدم المحروم

ينظـر إليـه ويتأمـل وجهـه الـذي كان يعكس دوامة الأفكار التي تدور برأسـه. أحس آدم المحروم بأن الأب آدم الزاهد يعيش قلقا منذ قراءة نص داريوش شايغان، وأن ثمة توتراً يجتاح كيانه يتجسـد حتى في حركة يده لصب الشـاي، أتراه قد انتبه لنظراته لحواء أو لنظراتها إليه؟ أم أنه استاء لطريقته في الرد على المفكر الذي يصل إلى مرحلة القداسة بالنسبة إليه؟ على أية حال، عليه أن يحذر في كلامه ونظراته، وأن يغادر هذا البيت في أول فرصة مناسبة.

كان كل منهمـا يـدور فـي فلـك أفـكاره، لكـن كلاً منهما يحتاج إلى الآخر أيضا كي يخـرج مـن فلكـه. قـدم الأب آدم الزاهد اسـتكان الشـاي لآدم المحـروم الذي وجد في ذلك مناسبة لمواصلة الحديث وتلطيف الجو المتوتر، فقال:

– أرجـو أن لا أكـون قـد أزعجتـك بمـا قـرأت لداريـوش شـايغان؟ أنـا أحترم هذا الكاتـب، ولقـد قـرأت هـذا الكتـاب أول ما صدر بعد أن اشـتريته مستنسـخاً في شـارع المتنبي، وكنت قد قرأت له كتابا مهما آخر عن الهوية، مستنسـخا أيضا. لكن النسـخة التي لديك أصلية، فأحببت أن أتصفحه، فأعذرني إن كانت آراؤه تصطدم مع منظومة أفكارك. أنا لم أقصد أن أسيء لمعتقداتك، لكن هذا المفكر هو من أبرز المفكرين المعاصرين الذي درسوا الثورة الإسلامية في إيران، وكتب على أساس ذلك كتابه هذا.

انتبه الأب آدم الزاهد لنبرة الإعتذار المؤدبة في حديث آدم المحروم، فأحس بدوره بالخجـل مـن أن الآخـر قـد انتبـه لتوتـره ومـا جال في فكره وربما فهـم الأمر وكأنه هو المقصود بها، قال هو أيضا بنبرة تفيض بالتسامح والمودة:

– لا يا ابني. صحيح أن ما قرأته أول الأمر قد صدمني، حتى أني غضبت واتهمته بالزندقة، لكني أعترف أنه بعد أن قرأت لي ما كتبه عن هنري كوربان، وصداقته له، وتتلمذه عليه، وإحتفائه به، وتلخيص جهده بهذا الشكل، أحسست أنني يجب أن أراجع الكثير من أفكاري، فقد كنت، ربما، منغلقا على نفسي ومعتقداتي فقط، ولم أحاول أن أسـأل نفسـي عن الآخر؟ فأنا مثلا تعرفت على الفكر الماركسـي من خلال الكتب التي عارضته فقط ولم أتأكد بنفسـي إنْ كانت تلك النصوص والاستشـهادات صحيحة أو مقطوعة من سـياقها؟ ناهيك عن عدم إعادة التفكير بالمسـلمات الإيمانيـة ولـم أتجـرأ حتـى على طرح أي سـؤال حولها، بينما أنت بجملة واحدة لهذا الكاتب الأرجنتيني الأعمى خلخلت تصوراتي عن الجنة.

– يعني أنك غير زعلان مني؟

– زعلان؟ لا يا ابني، أنا لم أزعل منك، أنا زعلان من نفسي وعلى نفسي. لم يبق في العمر ما يكفي كي أتنور أكثر بنور المعرفة. أنا زعلان من وضع ابنتي حواء والملاك الصغير آدم، وربما زعلان عليك، فأنت إنسـان متعلم بينما أنت تهرب من مكان إلى مكان خائفاً من تهمة لا تعرف ما هي قد تلصق بك وتقودك إلى وادي الظلمات. أنا زعلان على ما وصلنا إليه، حيث مات من مات واستشـهد من استشهد، وتدمرت مئات الألوف من العوائل، وأخيراً حينما وصلنا نحن إلى الحكم بعنا آخرتنا بدنيانا، وصرنا أسوأ مثال للفساد. أليس هذا ما يحبط الإنسان؟
– بلى..
– قـل لـي بصراحـة يـا ابنـي كـي يطمئـن قلبي. هـل أنت خائف من شـيء ما؟ هل فعلت ما تخاف منه؟
– لا والله يا حاج.. صدقني.. أتريد أن أقسـم لك بأي شـيء مقدس، أنا لم أفعل شـيئا أخالـف بـه القانـون، هـذا إذا مـا كان هناك قانون في هذه البلاد؟ مشـكلتي هي أني صديق حميم للكاتب آدم البغدادي، الذي تم أغتياله في شقته. بصراحة شديدة أقولها لك، إن الحكومة هي المستفيدة الوحيدة من موته، ولها مصلحة في ذلك، فقد كان صديقي آدم البغدادي يشعر بأن هذه السلطة هي سلطة الفاسدين والمفسـدين، وأن البلاد تسـتحق أفضل، وأنزه، وأعرف، بكثير من هؤلاء الذين يحكمون الآن، ولم يكن يخفي رأيه فيهم، بل كان يشـهر بهم بأنهم سـيجعلون الناس يترحمون على صدام حسين. شخصيا كنت صديقه الحميم، وكنت على موعد معه قبل استشهاده بقليل أو بكلمة أدق في نفس الوقت، وبالتالي أنا أخاف أن يقبـض علـيّ وأعـذب أو أرسـل إلـى مكان مجهول حيـث لا يعرف بي أحد. وأنا شـخصيا إنسـان جبان، أعترف أني جبان، لا أريد أن أُسـجن أو أُعذب، لذا اختفيت عن الأنظار، هذه قصتي بدون نقصان.
– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..
– أنا لستُ سياسيا بالمعنى الحزبي أو التنظيمي.. لكني شخص ليبرالي.. شخص حـر التفكيـر.. أنـا مـن عائلة متدينة، أنا شـخصيا مؤمن، لكني متحرر من الأديان بالمفهوم العقائدي والشعائري..لستُ مادياً بالمعنى الإلحادي لكني أفكر بطريقة مادية، بمعنى أنني إنسـان أعيش في هذا الكون المادي، وبالتالي أفسـر الأشـياء تفسيرا علميا مادياً، لكني مؤمن بأن هناك خالق لهذا الكون المادي، وربما عذبني البحث عنه أو محاولة الوصول إليه، لكني في كل الأحوال مؤمن به.

– الإيمان هو المهم يا ابني.. لكن هل هناك ما يشير إلى أنهم يشكون بك؟
– لا أدري.. لكني كنتُ آخر من اتصل به. لقد اتصلت به ليلة إغتياله، واتفقت معه على اللقاء في المقهى المقابل لبيته، وانتظرته، واتصلت به في الموعد المحدد أيضا، ربما في اللحظة التي أغتيل فيها، ومن المؤكد أن الأجهزة التي دبرت أغتياله كانت تتنصت لاتصالاته الهاتفية، أليس هذا ممكنا؟
– ممكن جدا، وممكن لا.. بمعنى ليس كل من اتصل به سيطارد فهو كاتب معروف ولديه عشرات الأصدقاء، وبالتأكيد لست أنت الوحيد الذي اتصل به
– ممكن أيضا. ومن المؤكد أن هناك من اتصل به غيري
– وربما قاتله هو أيضا من المتصلين به، فالأخبار التي بثتها الفضائيات تؤكد بأنه ليس هناك أي أثر للعنف في الشقة ولا على جثته، وهذا يعني أن من دخل عليه كان من الذين يعرفونه، وربما من الذين يطمئن هو إليهم
– لا أدري.. لم أتابع الأخبار، لننزل إلى غرفة الإستقبال ولنستمع لنشرات الأخبار، عسى هناك أخبار جديدة عنه.
– لا تخف يا ولدي، ما دمت بريئا فأن الله سينصرك وينجيك. ويمكنك البقاء لدينا بضعة أيام إلى أن تنجلي الأمور وتعرف كيف يمكنك التصرف. يلاّ لننزل.

خلال ذلك كانا قد شربا الشاي، لكن الأب حمل صينية الشاي معه، وغادرا الغرفة نازلين السلم. وحينما وصلا إلى غرفة الإستقبال واجها حواء وصغيرها آدم الملاك يدخلان، وكانت هي تحمل كيسا من النايلون فيه قنينة من زيت العافية وباقة من الكرفس، وباليد الأخرى طبقا من البيض، بينما الصغير يحمل علبة من اللبن الرائب.

وضع الأب الصينية على الأرض ثم أخذ طبق البيض منها وتبعته مع الصغير إلى المطبخ، بينما أخذ آدم المحروم الريموت كونترول وضغط عليه، فظهر على الشاشة بث لقناة دينية معروفة، فأخذ يتنقل بين المحطات، وتوقف عند محطة تبث من خارج البلاد، وكانت تبث مباشرة من ساحة التحرير، رأى بعضهم يرفع شعارات تندد بجريمة إغتيال الكاتب آدم البغدادي وتتهم الحكومة وزبانيتها بذلك.

انتقل إلى قناة أخرى فرأى نفس المشهد، ثم أخذ يتنقل بين أكثر من محطة، فكانت جميعها تقريبا تنقل الحدث نفسه، تختلف في التعليق عليه فقط، بينما بعضها تجنب التعليق واكتفى بنقل التظاهرة فقط. إنتقل إلى قناة عربية معروفة فلم يرَ شيئا يخص أحداث بلاده، رجع إلى القناة التي تبث من خارج العراق مستمعا إلى نبرة المعلق الحماسية التي كانت تتحدث عن صديقه الكاتب الشهيد آدم البغدادي، متهمة السلطة

بشكل واضح بتورطها في إغتياله، ناقلة هتافات عن أكاذيب السلطة. لكن ما أثاره، بل وخفف عليه، هو رؤيته لبعض الأصدقاء المشتركين بينهما وهم يتظاهرون في ساحة التحرير منددين بإغتيال صديقهم الكاتب آدم البغدادي. إذن، هذا يعني أن السلطة متهمة وهي مرعوبة في التمادي أكثر باعتقال أصدقاء الكاتب الشهيد.

حين دخل الأب آدم الزاهد عليه، وجده منفعلاً، ولاحظ أن التلفزيون يبث لمحطة هو لا يشاهدها إلا نادرا ويعدها من القنوات المعادية للسلطة الجديدة في العراق، لكنّه قدّر قلق آدم المحروم لتصيد الأخبار من أي قناة، فسأله:

- هل هناك أخبار جديدة؟
- نعم.. لقد رأيت بعض أصدقائي وهم يتظاهرون رافعين شعارات ضد الحكومة وضد جريمة إغتيال الكاتب آدم البغدادي.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لكن على أي حال، هذا يعني أنه لا خوف عليك، فهؤلاء أصدقاء له أيضا، وهم يتظاهرون علناً ولم يعتقلهم احد
- من يعرف ما سيحدث بعد انتهاء التظاهرة؟
- المهم.. لا أحد منهم قد إعتقل منذ إغتيال صديقكم ولحد الآن، اليس كذلك؟
- هذا ما يبدو..
- كف قليلا عن التفكير بذلك. وستتضح الأمور قريبا. هل لديك إتصال بهؤلاء الأصدقاء؟
- لا.. أقصد لم أتصل بهم منذ أيام. رأيت بعضهم في إتحاد الأدباء بعد الإغتيال مباشرة، لكني لم أتصل بأحد.. قابلت أحدهم يوم أمس صباحا، وكان خائفا مثلي، لكني شاهدته قبل قليل في التظاهرة.
- ربما تستطيع الإتصال بهم في ما بعد
- ممكن أن أجري الاتصال لكن ليس الآن.
- طبعا ليس الآن. الآن علينا الإستعداد لوجبة الباميا الشهية.
- أنا أشم رائحة الرز البسمتي تصلني إلى هنا.
- سوف تعجب كثيرا بطبخ ابنتي حواء الله يحفظها لي ولابنها وزوجها. إنها متخصصة بطبخ الباميا والرز البسمتي..

قال ذلك وهو يصب الشاي في الإستكانين، ويتابع مع آدم المحروم ما تبثه القناة مباشرة عن التظاهرة في ساحة التحرير. في هذه الأثناء دخلت حواء وصغيرها الملاك آدم. لحظة دخولها نظرت إليه بإمعان لكن تلك النظرة لم تدم سوى ثوان معدودة،

جلست على إحدى الكنبات، وعلى وجهها إبتسامة تبعث الفرح لكل من يتطلع إليها، وقالت وكأنها تزف إليهم خبرا مهما:

- الغذاء سيكون جاهزا خلال نصف ساعة.

بادر الأب بالقول وهو يأخذ حفيده بأحضانه:

- سلمت يداك يا ابنتي.

انتبه آدم المحروم إلى أنها، وعلى الرغم من إرتدائها بلوزة على ثوبها الأسود إلا أن صدرها كان يرتج بنهدين رائعين، لكنه انتبه إلى أنها قد غيرت البلوزة، فبالرغم من أن البلوزة الجديدة سوداء اللون لكنها أكثر ضيقا من تلك التي كانت ترتديها أمس، إذ أبرزت بعض ملامح صدرها. هل تقصدت ذلك، أم أنها قد غيرت بلوزتها بشكل عفوي؟ فكر آدم المحروم لوهلة. لكنه لم يستطع أن يمعن النظر إليها، فالتفت شاغلا نفسه بمشاهدة التلفزيون. غير أنها كانت أكثر جرأة منه فسألته:

- سمعتكما تتناقشان، ويبدو أنكما كنتا على طرفي نقيض، أيحق لي السؤال عن الشيء الذي كنتما تتناقشان حوله؟

تبادل الأب النظرات المتسائلة مع آدم المحروم ثم بادر بالجواب:

- لقد سمعتنا؛ إذن هذا يعني أنك تعرفين عن الشيء الذي كنا نتناقش حوله.

ارتبكت حواء قليلا، وتلون خداها بحمرة خفيفة، لكنها تماسكت وأجابت:

- لم أسمع كل شيء.. فقط سمعت الأستاذ آدم يقرأ شيئا ما، وردك المتوتر عليه بأن الكاتب زنديق أو ما شابه ذلك

تبادلا الأب وآدم المحروم النظرات ثانية. أراد آدم المحروم أن يتحدث، إلا أن الأب سبقه، إذ قال:

- كان يقرأ لي من كتاب كنتُ قد أشتريته قبل شهر تقريباً، لكني تصفحته ولم أقرأه، إلا أن هذا الكتاب يثير إشكالات ويطلق أحكاما لا أتفق معها، ومن هنا كان اعتراضي.

نظرت حواء أم الملاك إلى أبيها متسائلة:

- لم أعهدك تشتري الكتب دون أن تكون قد أثارت فضولك، أو أنك تحتاج إلى قراءتها

- عنوان الكتاب قد أغراني، اسمه: ما الثورة الدينية؟ لكاتب إيراني معاد للثورة الإيرانية.

تدخل آدم المحروم معلقاً على قول الأب:

- إنه ليس معاديا للثورة، وإنما هو مفكر حاول أن يطرح الأسئلة الجدية والفلسفية حـول أبعـاد هـذه الثـورة ومفهومهـا، لذا فقد جعل من عنوان الكتاب سـؤالاً: ما الثورة الدينية؟

إبتسم الأب وقال لابنته مازحا:

- إنه من أنصار الكاتب والكتاب.

كانت هذه فرصة لآدم المحروم كي يستعرض ثقافته وموقفه أمام حواء أم الملاك، فأخذ تلك الجملة حجة للمبادرة بالحديث:

- أنا أعتقد أن داريوش شـايغان واحد من أهم المفكرين المشـرقيين المعاصرين. وهو واحد من أهم مَن تناول الثورة الإيرانية بالتحليل والتفكيك. لقد حاول أن يدرس بنية الأيديولوجيا الدينية الإسـلامية، والأثني عشـرية بالتخصيص، ليصل إلى آفاق جديدة لفهم أزمة الفكر الديني.

كانت بعض ملامح الانبهار قد تجسدت على وجه حواء، إذ أنها لم تسمع سابقا، لا من أبيها ولا من زوجها، بمفردات غريبة: التفكيك، البنية، الآيديولوجيا، أزمة الفكر الدينـي، لـذا انتبهـت إليـه وفي عينيها إعجـاب خفي بطريقته في الكلام، والتي بدت لها جديدة، وقد انتبه آدم المحروم لذلك، لكنه تماهى في حديثه، وبدأ يعبر عن رأيه بشكل صادق، فأسترسل:

- إن والدك الحاج يعتقد بأن داريوش شايغان مستغرب، أي متأثر بالغرب، ويكثر من الإستشهاد بمفكريهم وفلاسفتهم وأدبائهم، لكني أود أن أقول بأن شايغان، قد قرأ التراث الإسلامي بشكل جيد، عرف شطحات الصوفيين كالحلاج، والجنيد، والبسطامي، والسهروردي، وابن عربي، النفري، وغيرهم، مثلما عرف فلسفة ابن رشـد، والفارابي، وابن سـينا، والملا صدر الدين الشـيرازي، وصولا إلى علي شريعتي، وحينما يتحدث عن الغرب فهويتحدث أيضاً عن معرفة دقيقة بهم، بدءاً من سـقراط وأرسـطو وأبيقور وأفلاطون، مرورا بإفلوطين، وأغوسـطين وفلاسفة القرون الوسـطى، وانتهاء بالفلسـفة الحديثة التي ابتدأت منذ ديكارت وسـبينوزا، وبالتالي فهو ليس مستغربا، بل إنه مفكر كبير يناقش الفكر الإسلامي من خلال دورة الفكر الإنساني، ونقاط التماهي والتناقض في هذا الفكر.

لـم تكـن حـواء أم المـلاك متقطعة الأنفاس من الإنبهار بهذا الدفاع الفكري، وبهذه الكـم المعرفـي مـن الأسـماء التـي تسـمع بهـا لأول مرة، سـواء من الإسـلاميين أو من

الغربيين، وإنما الأب آدم الزاهد كان منجذبا لهذه المرافعة في الدفاع عن شايغان، فقال بإنفعال لا يخفي إنبهاره بآدم المحروم:

– إنك تجعلني أخجل من نفسي يا ابني. الحقيقة أقول لك، إني لم أسمع بإسم شايغان هذا سابقا، وحين اشتريت الكتاب لم أهتم به بهذا الشكل، لكنك، أثرت إعجابي بذكرك الحديث عن شايغان وعمق معرفته بالتراث الإسلامي، وكذلك بالفكر الغربي الذي لم أشك فيه أبداً. لكن أنت نفسك هل قرأت شيئا لهؤلاء الذين ذكرتهم؟

– نعم.. قرأت لهم، ربما ليس كل مؤلفاتهم، لكني أعرفهم، وبعضهم قرأت له كل أعماله المنشورة.

فقالت حواء أم الملاك، وهي لم تخش أن تعبر عن إعجابها أمام والدها:

– أتدري يا أستاذ آدم أنك أخجلتني لجهلي بكل هذا الفكر وهؤلاء المفكرين الذين لم أسمع بأسماء معظمهم. مكتبتنا والحمد لله عامرة بالكتب القيمة، لكني لم أقرأ أو أسمع بهؤلاء الصوفيين الذين أسميتهم، كالبسطامي والنفري أو هذا الذي اسمه سبينوزا. ربما بعضهم قد مر اسمه علي، كالفارابي وابن سينا وابن عربي، والحلاج، لكن البقية لم أسمع بهم..

وبالرغم من أن الأب آدم الزاهد كان لا يتحسس من آدم المحروم، إلا أنه انتبه للإعجاب الذي كشفت عنه ابنته تجاه آدم المحروم، فمرقت ظلال الغيرة على نفسه للحظات، لكنها لم تحجب إعجابه به، ووجد العذر لابنته بأن تعجب بحديثه أيضا، إلا أنه أراد ألا يتوغل في هذا الحديث، فقال منهيا الحوار بطريقة أبوية:

– يا ابنتي، المعرفة بحر عميق جدا لا ندرك سواحله. وكلما مشيت خطوة ستكتشفين جهلك أكثر، وستكتشفين أسماء جديدة مع كل خطوة.

ثم التفت إلى آدم المحروم وقال مازحا:

– أتدري با ابني آدم، أنني حينما رأيتك للمرة الأولى لم أدرك أنك تكتنز كل هذه المعرفة بالمفكرين وبالفكر عموما. إن الحديث معك ممتع جدا، ويسرني أن نستفيد من معرفتك، لكن علينا الآن أن نستعد للغذاء (ثم التفت إلى ابنته) أليس كذلك يا ابنتي؟

انتبهت حواء لإشارة أبيها وقالت وهي تبتسم، وكأنها صارت أكثر استرخاء في تعاملها مع ضيفهم:

– هذا صحيح.. فالغذاء جاهز.

الصغير آدم الملاك أنهى الجلسة حينما قفز وكأنه تحرر من هيمنة الكبار بالحديث الجاد الذي لم يفهم منه شيئا، ومن حضن جده التي لم يتركه يتحرك طوال الوقت، فقام سابقا أمه إلى المطبخ وهو يقول:

ـ أنا أحمل الصحون.. أنا أحمل الصحون.

ضحك الجميع، وعلقت الأم مازحة معه:

ـ أحملها.. من يمنعك من حملها.. أحملها يا ملاكي.

كان آدم المحروم يعاني من تداخل تيارات المشاعر المتضاربة في أعماقه. إنه يود أن يبقى في هذا البيت، لكنه يخاف من نفسه. إنه تعلق بحواء ابنة آدم الزاهد، وتراوده أحلام اليقظة معها، وإذا استمر بقاؤه في هذا البيت فلربما سيقترف خطأ بحق الأب آدم الزاهد من خلال التعرض لابنته. هذا البيت منحه الأمان والدفء العائلي، فليس من الصحيح الإساءة للأب من خلال التفكير الشهواني بابنته. لا، أنه برغم رغبته العارمة لا يريد ذلك. نظر إلى الأب آدم الزاهد وقال له بإحترام يشوبه شيء من الإرتباك:

ـ إذا سمحت لي أيها الحاج آدم الزاهد، أن أرفع الزحمة عنكم، وأعود إلى بيتي، فكما رأيت أنه لا خطر علي، وجميع أصدقائي هم في التظاهرة بساحة التحرير. وأنا أشكركم جدا جداً على كرمكم وطيبتكم.

نظر الأب آدم الزاهد إلى وجهه المرتبك قليلا، وابتسم له ثم قال:

ـ يا ابني، أولا الحمد لله أن لا شيء قد تحقق من مخاوفك، فكما رأيت أن أصدقاءك قد خرجوا للمظاهرة، أي أن مخاوفك ليست في محلها، ثانيا: إنك صرت واحدا منا، وقد تعلق بك الصغير آدم الملاك جدا، وحتى ابنتي أحس أنها قد ارتاحت، وأنا شخصيا قد تعلقت بك جدا، بالرغم من بعض الإختلاف في رؤيتنا للأشياء، فالبيت بيتك، وأنت لا تضايقنا بتاتاً، فإذا كنت أنت لا تشعر بالراحة معنا فهذا شيء آخر. لكن على أية حال أنت تستطيع أن تزورنا في أي وقت تشاء، بالرغم من أن الصغير آدم الملاك سيزعل كثيرا.

أحس آدم المحروم بأن الأب يود بقاءه لكن في نفس الوقت محرج من وجوده في البيت، فحزم أمره قائلا:

ـ أنا أذهب معك حينما تخرج عصرا، وأبيت الليلة في شقتي، وأرى ماذا سيكون، وعلى أية حال أنا أعرف أين تعمل فسأكون عندك كل يوم.

خلال حديثهما دخلت حواء بيدها قطعة النايلون التي تفرش على الأرض ومعها

الصغير آدم الملاك وهو يحمل صحنين، فبادرها الأب قائلا:
– الأستاذ آدم يريد أن يتركنا اليوم..
نظرتْ إليه وفي وجهها علامات الخيبة الواضحة، فقالت وفي صوتها شيء من الغيظ المشوب بنبرة عدم الرضا:
– ربما ما ارتاح لوجوده معنا..
إرتبك آدم المحروم وقال وكأنه يبرر موقفه:
– لا والله، لقد ارتحت جدا بينكم، وكأنني في بيتي، لكني أخاف من إزعاجكم، والإثقال عليكم، ومضايقتكم..
فقالت وهي تنظر إليه وكأنها تطلب منه التراجع عن موقفه:
– أنت لا تضايقنا أبداً.. ونحن سعدنا بوجودك بيننا، وأحس أن أبي ارتاح لك جدا، وكذلك ملاكي آدم.. أما اذا كانت هذه رغبتك، فأنت حر.
قالت الجملة الأخيرة وكأنها تؤنبه وتبين له عدم رضاها، فارتبك أكثر، وقال وكأنه يعتذر:
– من المؤكد أني سأزوركم.. فأنا قد تعلقت بالملاك آدم أيضا.
لم تشأ حواء أم الملاك أن تتحدث أكثر كي لا تكشف عما يجول في نفسها، لذا مدت قطعة النايلون إلى والدها، وخرجت. مد الأب النايلون على الأرض، وأخذ الصحنين من يد الصغير آدم، ثم سحبه إليه.
أحس آدم المحروم بأنه تسرع في حديثه عن المغادرة، لكنه عاد وقال لنفسه بأنه فعل الصحيح لأن صار واضحا بأن ثمة خيطا من الود قد شد أحدهما للآخر. انتبه الأب إلى علامات الشرود المرتسمة على وجه آدم المحروم، فقال له باسماً:
– أين أنت؟ لماذا شردت بِتفكيرك؟
أحس آدم المحروم وكأنه أُخذ على حين غرة، فقال:
– لا أبداً.. كنت أفكر بالإتصال بأحد أصدقائي وأسأله عن الوضع..
تمتم الأب وهو يهز برأسه:
– يمكنك ذلك.. لكن لا تشغل نفسك كثيرا يا ابني.. إن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام.
انتهوا من وجبة الغذاء، وشربوا الشاي بعده، بيد أن الأب أراد أن يستلقي في قيلولة قصيرة ليخرج بعدها إلى عمله. فقال لأدم المحروم وهو يغادر الغرفة:
– علي أن أتسطح قليلا، فبعد أكله مثل هذه لابد من قيلولة قصيرة. يمكنك متابعة

التلفزيون أو أن تتمدد أنت أيضا لتأخذ قسطا من الراحة.

– أنا لم أتعود النوم ظهرا، ربما سأتابع الأخبار.

غادر الأب الصالة، وسمع هو صوت وقع خطواته وهو يرتقي السلم. خمن آدم المحروم مع نفسه بوجود غرفة أخرى على السطح، لكنه لم ينتبه لها. بلى، تذكر أن هناك باباً مقابل غرفة المكتبة. تمدد على الكنبة في مواجهة التلفزيون، وأخذ يقلب القنوات التي كانت قد انتقلت إلى برامجها الإعتيادية بعد إنتهاء البث المباشر للتظاهرة. توقف عند قناة عراقية تبث من بلد عربي، وكان ثمة حوار سياسي، إذ يبدو قوات الأمن قد اعتدت على بعض الأدباء والمثقفين الذين شاركوا بالتظاهرة. إنه يعرفهم جيداً. كانوا يعقدون مؤتمرا صحفيا أمام وسائل الإعلام يتحدثون فيه عمّا تعرضوا له من ضرب وإهانات على يدي رجال الشرطة.

كان مستغرقا في متابعة ما يقال على الشاشة حينما دخل الصغير آدم الملاك راكضا وخلفه أمه التي كانت تريد الإمساك به. رفع هو رأسه، فقبضت هي على يد الصغير وقالت له بصوت خافت:

– تعال واترك عمك يستريح.. إنه لا يريدك.. لذلك يريد مغادرتنا.. تعال

قالت ذلك ونظرت إليه، فنهض جالسا على الكنبة. نظر إليها وقال بصوت خافت أيضا وكأنما يشتركان في سر:

– ما هذا الكلام.. أنا متعلق به جدا.. وأخاف من تعلقي هذا..

نظرت إليه، وقد أدركت أنه يقصدها في كلامه، وقالت بخفر:

– ولماذا تخاف من تعلقك به؟ إنه متعلق بك أيضا.

– صحيح..؟

نظرت إليه للحظات بخجل مع إبتسامة رقيقة، وهي تنظر إلى الأرض:

– صحيح..

– لكني مضطر للذهاب إلى شقتي، وبالتأكيد سوف أمر..

– أتمنى أن لا تنساه.

– كيف أنساه..؟ أنا متعلق به جداً.

– صحيح؟!

– صحيح

تألق وجهها بإبتسامة مضيئة، وغادرت الغرفة مسرعة تاركة يد الصغير الذي رمى بنفسه على آدم المحروم الذي تلقفه بذراعيه.

8

العنكبـوت

كان الوقت هو بداية المساء حينما دخل آدم المحروم إلى شقته، إذ ما زال في الأفق شيء من دم الشمس المسفوح. توجه مباشرة لفتح الشباك فالهواء كان خانقا فيها. جلس علـى الصوفـا الجلديـة التي تتوسـط غرفتـه. وضع الحقيبة الجلديـة على الأرض وأخذ الريمـوت كونتـرول. ضغـط عليـه فأضيئت شاشـة التلفزيون بموجـز للأخبار من إحدى القنوات العربية التي تبث من دبي. أخذ يتنقل بين المحطات العراقية عله يسـمع شـيئا جديداً، لكن بدون جدوى، فمعظم القنوات كانت تبث حلقات من مسلسلاتها، أو تقدم برامج تسلية أو رياضة. توقف عند إحدى القنوات التي تبث من خارج البلاد. لم يكن يتابـع مـا يجـري علـى الشاشـة لتلـك القناة. لأنـه بحكم العادة يتابع شـريطها الأخباري الـذي كان فيـه خبـر عـن تصاعـد الإحتجاجـات ضد إغتيـال الكاتـب آدم البغدادي في ظروف غامضة.

كان جو الشقة يبعث على كآبة لم يشعر بها سابقاً، بل على العكس كان يلوذ إلى شقته حينما يضيق بالمدينة أو تضيق المدينة به، فهي زاويته وملاذه ووطنه الصغير، لكنها الآن بدت له موحشة وكئيبة وخانقة. أحس برغبة جنسية تشتعل في جسده وفكره نحو حواء أم الملاك. إنه يتأجج شـهوة في مضاجعتها، وفي الوقت نفسـه يحن إليها بشـكل رومانسـي وطهراني. يحلم شـبقا بالتوغل في جسـدها وإختراقها من كل جهاتها، مثلما يحلم بالتواصل العاطفي والفكري معها والإسـتغراق بقصة حب عاطفية وحالمة أشـبه بقصص الأفلام الأميركية أو الهندية ذات النهايات السعيدة.

حيـن خـرج عصـرا مـع والدهـا كانـت هي تقف عنـد المدخل الفاصـل بين الصالة وأعماق المنزل. استرقت النظر إليه لثوانٍ لأن والدها كان في مواجهتها أيضا، لكنها لم تبخل بتوديعه بكلمات كلها دعاء له بالتوفيق والنجاح والأمان مع رجاء بأن لا ينساهم ولا ينسى آدم الملاك لأنه قد تعلق به. وحينما وصل مع الأب إلى المطعم ساعده في إخـراج عـدة الشـاي وحمـل المـاء من داخل المطعـم، وجلس قليلا عند الأب حتى بدأ

بإعداد الشـاي، وما أن بدأت أولى الطلبات على الشـاي تأتيه من المطعم حتى قام من عنـده مودعـا، وواعـدا بأنـه سـيمر بعـد أن يذهب إلى شـقته ليغير ملابسـه ويحلق ذقنه. وفعـلا، قـام متوجهـا إلـى غرفـة الحمـام حيث حوض الغسـيل والمرآة وعـدة الحلاقة، فبلل وجهه ثم أخذ صابون الحلاقة وباشر بحلاقة وجهه. حين انتهى من الحلاقة رش وجهـه بعطـر طيـب الرائحـة يسـتخدم كماء ما بعد الحلاقـة وكعطر رجالي أيضاً. ثم بدأ بنزع ملابسه متوجها لدولاب الملابس فأخرج قميصا نظيفا وسروالا وفانيلة وجوارب جديدة. أعاد تجديد نفسه، وحينما ارتدى كل الأشياء الجديدة نظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة التي تغطي باب الدولاب. أحس بشيء من الرضا عن نفسه. فكر للحظات بما ستقوله حواء أم الملاك لو رأته.

فجأة سـمع أصوات صافرة سـيارة الإسـعاف مصحوبة بأصوات صافرات سـيارات الشرطة، فأحس بشيء يقبض على قلبه، وهبوط في الضغط. تشاءم من هذه الأصوات، وأحـس أنـه قـد أفـاق علـى واقعه الحقيقي، فقد كان أشـبه بالمتخـدر خلال تواجده في بيـت الأب آدم الزاهـد، لكنـه الآن قـد عـاد إلـى عالـم الكوابيـس المرعبـة. ضغط على الريمـوت كونتـرول فأنطفـأت الشاشـة. فتـح بـاب الدولاب ثانية ومد يـده إلى ما تحت الثيـاب المصفوفـة وسـحب مـا كان قـد احتفظ به من نقـود. حمل الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات صديقه آدم البغدادي. فكر مع نفسه ربما سوف يغيب طويلا عن هذه الشـقة. هو نفسـه لم يقرر شـيئا محدداً، لكن فكرة البقاء في هذه الشـقة صارت ترعبه. فكر، أن عليه في كل الأحوال تغيير مسـكنه. ربما سـيؤجر بيتا قريبا من بيت الأب آدم الزاهد؟. يا لها من فكرة رائعة. كيف أنها لم تخطر بباله إلا الآن؟ ربما سـيفاتح الأب بها، فلربما سيؤيده، أو ربما سيشك في نواياه؟ عليه أن يكون حذرا في مفاتحته ويجد الطريقة المناسبة لذلك.

حينمـا وصـل آدم المحـروم إلـى حيـث يعمـل الأب آدم الزاهد وجده يحمل صينية مزدحمة باستكانات الشاي وهو يدخل بها إلى المطعم. جلس ينتظر، وما أن خرج الأب حتى ارتسـمت الإبتسـامة العريضة على وجهه وهو يرى آدم المحروم ينتظره. تصافحا وكأنما كانا قد افترقا لفترة طويلة. رحب الأب به وسـأله عن أحواله، وظروف الشـقة، وكيف يشعر الآن، لاسيما وقد رآه حليقا وبثياب جديدة.

أراد آدم المحروم أن يستغل الحديث لطرح مسألة تغيير البيت وتأجير مسكن آخر، فقال مختلقاً كذبة لا يدري من أين، وكيف ولدت في ذهنه:

– الوضع سيىء يا حاج، فحينما وصلت وجدت الباب مفتوحا. لا أدري من جاء

وكسر قفل الباب، ودخل إلى الشقة؟

– ماذا تقول؟ هل أخذوا شيئا؟ قال الأب بقلق.

– لا، لم يأخذوا أي شيء

– من تراه يكون؟

– لا أدري. لكن لو كان لصا لسرق بعض المال الذي كان في الدولاب

– وماذا تفعل الآن؟

– لا أدري. عليّ تغيير مسكني.

– لا أعتقد أنه من الصحيح رجوعك إلى البيت. تعال عندنا إلى أن نجد لك مسكنا.

– لا أريد أن أسبب لكم المضايقة.

– لا يا ابني، عليك تغيير مسكنك هذا. فكما يقول المثل السائر: (الباب الذي تأتيك منه الريح، سدّه واستريح).

لم يكن آدم المحروم يصدق كيف تطورت الأمور وكيف جرى كل شيء بهذه السهولة، لكن ثمة شعوراً بالذنب عكر عليه فرحته، فقد تأسف في أعماقه على أنه كذب على هذا الإنسان النبيل، كاتما عنه نواياه الدنيئة في أن يكون قريبا من ابنته. سأل نفسه: هل أنا نذل إلى هذه الدرجة؟ كيف كذبت على هذا الإنسان الطيب؟ لِمَ اختلقت هذه الكذبة التافهة كي أكشف عن رغبتي بتغيير المسكن؟. لكن هذه الصحوة المفاجئة للضمير تلاشت حينما فكر بأنه سوف يراها الليلة أيضا، بل سيبقى عندهم إلى أن يجد غرفة أو شقة قريبة منهم.

وبالرغم من أن تأنيب الضمير قد اختفى إلا أن شعورا بالعري أمام نظرات الأب آدم الزاهد قد أزعجه فلم يعد مستريحا في جلسته. كان يحس بأن الأب ينظر إليه نظرات متفحصة. فكر مع نفسه لربما أنه لم يصدق حكاية كسر القفل لذا ارتاب فيه فهو يحاول بنظراته هذه أن يستكشف أعماقه. عليه أن يختفي عن أنظاره إلى أن يستعيد هدوءه. لذا جاءته فكرة أن يضفي المصداقية على كذبته، فقال للأب:

– أليس من الأفضل أن أبات الليل في فندق الركن الهادئ المجاور، إلى أن أتمكن من تأجير مسكن جديد؟ حقيقة لا أريد أن أزاحمكم ثانية؟

– تفاجأ الأب من كلامه، نظر إليه للحظة متأملا ثم قال له بهدوء:

– أنت لا تزاحمنا يا ابني، وجودك بيننا يحسسني وكأن ابني الشهيد أمامي، فأشعر بالراحة. لكن ربما لم ترتح أنت معنا، فهذا أمر آخر، فأنت حر.

أحس بقلق داخلي، يبدو أن الأمور أخذت مسارا آخر، فكر مع نفسه، لم يكن

عليـه أن يثيـر الموضـوع، لـذا لكـي لا يتـرك الأمر له ولحريته فيقـرر المبيت في الفندق كما يفترض الحال من شخص غريب، فأنه قال بحرارة مفاجئة:

– أبـداً واللـه.. أنـا أرتحـت لكـم جـداً، بل لقد تعلقت بالملاك آدم جداً. وشـعرتُ وكأنـي فـي بيتـي، لكنـي لا أريـد أن أزعجكـم. فمن المؤكـد أن وجودي عندكم هو الأكثر أماناً بالنسبة لي، لكني لا أريد أزعاجكم.

نظر الأب إليه للحظة ثم انشغل بصب الشاي في استكانات كانت تزدحم الصينية بها، وقال:

– إذ كنت تعرف بأن وجودك عندنا هو الأكثر أماناً بالنسبة لك فلماذا هذه المغامرة وخسران المال؟! تعال عندنا إلى أن تجد مسكنا، هل تريد أن تؤجر هنا في هذه المناطق؟ أقصد الأورفلي والبتاوين أم تريد في مناطق أخرى؟

أحس بالأمان من أنه سيذهب معه ولم يكن مجبرا للمبيت في الفندق، فقال:

– أفضل أن أسكن في مكان بعيد عن هذه المناطق التي تعج بالغرباء والمشبوهين وكل من هب ودب. أقصد أريد أن اسـكن في منطقة سـكنية إعتيادية بعيدةً عن وسط العاصمة كمنطقتكم مثلا.

أحس وكأنه ألقى مفرقعته وها هو ينتظر صوت انفجارها. سكت الأب لحظة. كان قد ملأ الإستكانات جميعها وأضاف إليها السكر، ونهض حاملا الصينية، وقبل أن يتجه إلى المطعم قال له:

– هذه فكرة جيدة. انتظرني لحظة وأعود لنناقش الأمر.

قال ذلك واتجه إلى المطعم، بينما ظل هو منتظراً. كان يحس أن الحظ يبتسم له. نسـي مخاوفه كلها. ونسـي مسـألة هروبه وملاحقته من قبل قوى مجهولة. إنه لا يفكر الآن سـوى أن يكـون قريبـا مـن حـواء الزاهـد. آه لو يعرف الأب ما يدور في نفسـه لما نظر في وجهه أبدا.

مـا أن خـرج الأب مـن المطعـم حتـى لمح آدم المحروم الذي كان يعكس إنشـغاله الذهنـي. بمـاذا يفكـر؟ سـأل آدم المحـروم نفسـه. حينما وصل الأب إليـه قال له وكأنه توصل إلى شيء مهم:

– إسـمع.. في المنعطف الذي نعيش فيه ثمة مشـتمل ليس فيه سـوى غرفة واحدة فـي الطابـق الأسـفل وغرفـة واحـدة مع حمـام في الطابق الأعلـى، وهو متروك، أقصـد مقفـل، يعـود لمعلـم كان صديقـا لزوج ابنتي، وقد ترك السـكن خوفا من الانتقامـات الطائفيـة. إنـه يسـكن الآن فـي الكرخ، في الغزاليـة. لقد ترك منطقتنا

قبل اعتقال زوج ابنتي بسنتين، وطوال هذه السنوات لم يأت إلى منطقتنا، لكن قبل ستة أشهر جاء إلى المنطقة، وكان عندنا، لكنه أبدى عدم رغبته في الرجوع إلى منطقتنا فقد أجر عند أهل زوجته هناك بيتا أوسع، وهو يشعر بالأمان هناك أكثر، لذا كان يود تأجيره. يمكننا أن نسأله. كم كنت تدفع إيجارا لشقتك الحالية؟

– ثلثمائة وخمسين ألف دينار.

– ثلثمائة وخمسين ألف، أعتقد أنه لن يؤجره بأقل من أربعمائة ألف..

– هذا المبلغ ليس بمشكلة.. الفرق خمسون ألف أستطيع أن أتصرف.

– سأتحدث الليلة مع ابنتي، فهي تعرف رقم هاتف زوجته ويمكنها أن تتحدث معهم.

يمكن القول إنه ليس من السهل وصف المشاعر والأفكار التي كانت تمور في أعماق آدم المحروم وهو يتلقى تلك الأخبار. صحيح أن المبلغ ربما سيضايقه لو أضاف إليه نفقات النقل، فالمنطقة بعيدة نسبيا عن وسط العاصمة، وهذا يعني زيادة في النفقات، لكن ليس هذا بمشكلة، عليه أن يقتصد بأشياء أخرى، المهم سيكون قريبا من حواء أم الملاك.

كان مستغرقا في أحلامه حينما انتبه لوقوف سيارة عسكرية بالقرب منهم. نزل عنها رجل برتبة ملازم، وثلاثة من رجال الحرس الوطني. إرتبك. بدت علامات التوجس على وجه الأب، الذي كان بالرغم من ذلك متماسكا. نظر إليهم مستفسرا، فقال له أحد رجال الحرس الوطني:

– يا حاج أربع استكانات من شايك الممتاز. والله رأسنا يوجعنا لعدم شرب الشاي.

إبتسم الأب، وكذلك أجبر آدم المحروم نفسه على الإبتسام، بينما تحرك الملازم نحو المطعم، إذ جذبته رائحة الشواء الشهي. صب لهم الأب الشاي. إلا أن الملازم رجع إليهم وقال للأب:

– يا حاج.. سنجلس في المطعم.. هل بالإمكان أن تحمل لنا الشاي في الداخل؟

– لا مشكلة في الأمر.

صعد السائق إلى السيارة ليصفها بعيدا عن زاوية الأب، من الجهة الأخرى على امتداد المطعم، بينما توجه الملازم وبقية الحرس إلى المطعم.

كانت حواء أم الملاك جالسة مع صغيرها تتابع التلفزيون حينما فتح الأب الباب، متريثا قليلا وهو يقول:

– تفضل يا ابني..

فوجئت حين رأت آدم المحروم يدخل خلف والدها وهو حليق الوجه وقد غير ملابسه. ركض الصغير آدم الملاك ليلقي بنفسه في أحضان جده الذي استقبله منحنيا ليرفعه إلى الأعلى. وخلال إنحناءة الجد تبادل آدم المحروم وحواء لثوانٍ نظرات مليئة بالفرح، والقلق، والرضى. نظر الأب لابنته وقال لها:

– لقد كسروا باب غرفته. عليه أن يبقى عندنا إلى أن نؤجر له بيت آدم الأنباري. المشتمل المتروك. يمكنك أن تفاتحي زوجته.

لم تستوعب حواء الأمر دفعة واحدة، فقد كانت المفاجأة كبيرة. نظرت إلى والدها نظرة مستفهمة، فقال لها:

– سأشرح لك كل شيء بالتفصيل. لكن قبل كل شيء علينا أن نتعشى.

إرتبكت حواء لأنها لم تكن تنظر ضيفا لذا قالت بإرتباك:

– لدينا بقايا من الباميا، وسأطبخ رزا جديدا.

قالت ذلك وأسرعت إلى المطبخ، بينما انتقل الصغير آدم الملاك من أحضان الجد إلى أحضان آدم المحروم.

مرت هذه الليلة كسابقتها. مجاملات الضيافة المعتادة، العشاء وشرب الشاي، ثم في نهاية المساء جاء الرقّي. ومحاولة للإتصال بزوجة صاحب المشتمل الفارغ، والإتفاق على مواصلة الحديث بعد التشاور حول الأمر، وتبادل للنظرات الخاطفة لكنها مليئة بالألغاز الواعدة بين آدم المحروم وحواء الزاهد دون الإفصاح عن شيء سوى الإرتياح العميق لهذه الخطوة التي أقدم عليها آدم المحروم.

في آخر الليل، وحينما تمدد آدم المحروم على فراشه في الصالة، فتح الحقيبة الجلدية وسحب مخطوطة وادي الظلمات – متاهة حواء. لم تكن رغبته في القراءة قوية، لكنه أراد أن يهرب من نفسه. فحينما غادر الجميع إلى النوم، وبقي هو وحده في فراشه، أحس بالأفكار السوداء تهجم على مخيلته وكأنها قطيع ثيران هائجة سوداء.

كان يحس بأنه يتصرف بنذالة. لم يستطع أن يبرر لنفسه كذبه على الأب آدم الزاهد، ولا تخطيطه العنكبوتي للتقرب من فريسته حواء لإلتهامها. لماذا انجر لمثل هذه الدناءة؟ الأب آدم الزاهد يخاطبه بـ (يا ابني)، بينما هو يكذب عليه مستغلاً طيبته وحسن ظنه وكرم ضيافته. أليست هذه نذالة منه؟ لكنه ماذا يفعل أمام رغباته الدفينة؟ ثم أنها أيضا كشفت بطريقة أو بأخرى عن إرتياحها له، وحاجتها، ربما دون وعيها، له. فكل نظراتها له ذات مغزى، وهو بخبرته مع النساء يعرف معناها، حتى لو أقسمت المرأة بأنه لم

تقصـد ذلـك. مـن الطبيعـي أنهـا ترتاح لوجود رجل قريب منها، ويهتم بها، لا سـيما في جـو عائلـي مقبـول، فهـي امـرأة متزوجـة، ولديها ولد في الخامسـة، وقد فارقت زوجها من خمس سـنوات، ومن المؤكد أنها تحتاجه، بل ومن المؤكد أنها تسـتعيد في ظلام الليـل المريـب والغامـض لياليهـا الحميمـة مـع زوجها، وربما كانت قـد دفنت رغباتها، لكـن وجـوده أيقظهـا. إن دخولـه إلـى عالمهـا من المؤكد قد خلخل سـكونها. لكن في كل الأحوال، أن طيبة الأب آدم الزاهد تعذبه، وتقبض على قلبه وضميره بمخالب من ثلـج. مـاذا عليـه أن يفعـل؟ هـل يترك فكرة الإنتقال إلى منطقتهم؟ إنه يريد بكل عنفوانه أن يكـون قريبـا مـن حـواء، لكنـه أيضا لا يريد أن يشـوه هذه العلاقة الأبوية الرائعة التي يمنحـه إياهـا الأب آدم الزاهـد. إن التفكيـر يعذبـه، إذن عليـه أن يهرب من تفكيره، عليه أن يواصل قراءة المخطوطة، أن يهرب من ظلمات نفسه إلى وادي الظلمات.

أخـذ المخطوطـة وسـحب الصفحـات التـي كان قد قرأها سـابقا، وخطـا إلى عالم وادي الظلمات.

زلـة المـلاك

أحس الدكتور آدم التائه بخوف بارد يسـري في حنايا روحه المرتبكة. كيف له أن يترك هذه المرأة الساحرة الجمال، والهائلة بطيبتها وسماحتها، والتي من النادر جدا أن يجد مثلها، لا بين الألمان ولا بين غيرهم. كيف له أن يتركها، ومن أجل ماذا؟ هل هو محتاج للمال حقا؟ لا. لقد باع البيت وأخذ الكثير مما ورثه من أبيه.

فجـأة، أحـس آدم التائـه وكأن بوابـات الجحيـم قد فُتحت علـى مصراعيها. كان قد نسي كل ما له بماضيه. لم يتذكر أمه إلا نادرا، وبالتحديد حينما كان في عمان. أما أبوه فقد حاول أن يلغيه من ذاكرته، وكأنه ولد ونشأ يتيماً؟ لا، كيف ينساه وهو الذي يشك أصـلا بأنـه ليـس أبـاه؟ وكيف ينسـى ما رآه مع زوجته فـي غرفتهما ذات ظهيرة صيف؟ الآن.. الآن، وبعـد أن رأى حـواء فـي ذلـك الوضـع الفاضح مع جارهم اللبناني، فأنه لا يستبعد بأنها كانت على علاقة مع والده، بل إنه شبه متأكد من ذلك.

إذن ماذا يبحث في البلاد البعيدة؟ هل يحن إلى العمل؟ لماذا لا يستقر هنا، لاسيما بعد أن حصل على الإقامة الدائمة، وبعد سـنوات سـيتمكن من الحصول على الجنسـية الألمانيـة، وبإمكانـه، لـو بقـي أن يطـور علاقته مع إيفا بيرغمان، ويعيش معها؟ لكن من يضمن له أنها ستوافق؟ من يضمن له بأن تصرفها معه نابع من سويتها وسلوكها وقناعاتها

وليس له أية سمة خصوصية، أو هو تميز له، أو أنها تريد أن تكون معه؟ هل الأمر يستحق المغامرة حقا بأن يترك السفر ويبقى على أمل أن يقيم علاقة معها؟ وماذا عن تلك العاهرة زوجته؟ هل يحدث هذه المرأة الملاك عنها؟ لا. ليس الآن، عليّ أولاً أن أمد خيوطي لأشد هذه المرأة الساحرة إلي؛ علي أن لا أضيّع الوقت، عليّ المبادرة.

كانت إيفا بيرغمان منشغلة بضبط الحجز، وتأكيده، وطبع بطاقات السفر. كان هو يتأملها، يتأمل صدرها، ووجهها المثير، وحينما تنشغل بالتفاتةٍ أو إنحناءة كان ينظر إلى زوايا جسدها الأخرى التي تتيح له جلسته برؤيته. انتبهتْ إلى نظراته إليها، ارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة. طبعت مواعيد السفر وأرقام الرحلات، كما سحبت جارورا وأخذت منه بطاقات سفر فارغة وملأتها بالمعلومات الضرورية، ومرة أخرى طلبت جواز سفره لتدون رقم الجواز واسمه الكامل. وبينما كانت تدون اسمه ابتسمت، فسألها محاولا أن يقتحم عالمها أكثر:

– لماذا تبتسمين؟

– لا شيء.. هل اسم آدم شائع لديكم؟

– لا.. إنه اسم غير شائع.. لكنه يمثل كل الأسماء. لا معنى للأسماء سوى اسم آدم، وكذلك اسمك.

– اسمي؟

– نعم.. آدم.. و.. حواء، هل تعرفين أن اسمك بالعربية يلفظ.. حواء..؟ إيفا هي حواء بالعربية، لكن آدم هو آدم.. إنه لا يتغير في جميع اللغات.

– شيء لم انتبه له سابقا.. فعلا أن آدم اسم لا يتغير بينما إيفا يتغير باللغات الأخرى كالعربية..

– والفارسية والتركية أيضا. بالرغم من انتشار الأسم الأوربي حالياً بين تلك الشعوب ايضا.

كانت قد أنجزت إعداد البطاقات، ووضعتها في مغلف خاص وقالت له:

– الآن كل شيء قد أعددناه، لم يبق سوى أن أرسله غدا إلى السفارة. لا انتظر..

نظرت إلى الساعة، ثم قالت:

– لدينا بعض الوقت بحيث نرسله الآن وبالريد المسجل كي نستفيد من الوقت، ماذ تقول؟

– فكرة رائعة. هل أذهب الآن إلى البريد؟

– لا. سنذهب معاً، وسأرسله باسم المكتب ليكون أضمن، فهم ينجزون معاملات

المكاتب السياحية بسرعة. تعال معي.

قالـت ذلـك ونهضـت وهـي تضع المغلف في حقيبتها. نهض هو أيضا. أحس فجأة برغبة في أن يحتضنها، لكنه تردد. كانت هي قريبة جدا منه، بحيث شم عطرها المثير.

عنـد مكتـب البريـد بحثـت عـن مكان لتركن السـيارة في الكـراج فلم تجد. أوقفت السـيارة أمام زاوية ميته لا يمكن أن تتسـع لأي سـيارة، وطلبت منه البقاء في السـيارة. خرجت هي من السيارة، فصار بإمكانه أن يراها من الخلف وهي تمشي. أثاره جسدها المتناسـق، ربلتا سـاقيها، مؤخرتها المتناسـقة والمثيرة، اسـتقامة ظهرها، والألق الأنثوي الذي يشع منها. أحس برغبة شديدة في مضاجعتها. سأل نفسه، هل سيتمكن من ذلك قبل سفره؟

كان غارقـا فـي أحـلام اليقظـة حينمـا شـاهد جيرانـه في الطابق الأرضـي يخرجون مـن مكتـب البريـد. أولا الأم التـي فـي بداية الأربعينات لكنهـا تبدو وكأنها في منتصف الخمسـينات، ثم خرج ابنها السـمين الذي قد تجاوز العشـرين بقليل، وابنتها الأخرى التي كانت في الثامنة عشر، والتي كانت تنظر يمينا وشمالا وكأنها تبحث عن أحد ما، وأخيـرا خـرج الأخ الأصغـر وهـو يدفع أمامه كرسـيا متحركاً تجلـس عليه أخته المعاقة التي يقال إنها أكبر الجميع سناً، إلا أن عدم نمو جسدها جعلها كشبح مخيف لا يمكن تقدير عمره. ولا يدري كيف نظروا نحوه، وما هي قوة الجذب المغناطيسية التي شدت عيونهم تجاهه. وقفوا جميعهم للحظة وكأنهم يريدون أن يتأكدوا من أنه هو وليس غيره. وحينما تأكدوا من ذلك همّوا بالتوجه نحوه، لولا خروج إيفا بيرغمان من مكتب البريد وتوجههـا نحـو السـيارة. توقفـوا في منتصف خطواتهـم، وكأن رؤيتهم لإيفا بيرغمان قد شـلتهم، إذ ظلـوا واقفيـن فـي مكانهـم، حتـى صعود إيفا إلى السـيارة وتحركها لمغادرة الكراج. ولا يدري لماذا التفت إليهم، بينما كانت السيارة عند بوابة الكراج وهي تغادر، فرآهم ما زالوا عند وقفتهم، وكأنهم غير مصدقين ما رأوا.

إنتبهت إيفا بيرغمان إلى انشغاله بالنظر إلى الخلف، فسألته مستفسرة:

– هل هناك شيء ما؟

– لا.. أبداً.. لقد رأيت جيراني الذين يسكنون في الطابق الأرضي.

– أها.. وهل هذا يعني شيئا ما؟ مثلا، إنهم سيخبرون زوجتك بأنهم رأوك معي؟

– لا أبـداً.. أنـا قـد انفصلـت عـن زوجتي. ولا أريد أن أسـمع عنها أي شـيء، ولا يهمني أن تسمع عني أي شيء.

– ما هذا؟ إلى هذه الدرجة أنتم على خلاف؟

أحس الدكتور آدم التائه بأنها فرصته الذهبية كي يتقرب منها أكثر بأن يشركها في حياته الشخصية أكثر، فقال لها:

– هذه قصة طويلة، يمكنني أن أرويها لك لو كان لديكِ الوقت والمزاج لسماعي

– أنا لدي الوقت، لكن إن كانت لديكَ أنتَ الرغبة في الحديث عن ذلك، دون أن يسبب لك ألما أو حرجا

– إنها قصة طويلة.. وتحتاج لمكان هادئ كي أرويها. ما رأيك أن أدعوك على العشاء؟

– على العشاء؟ لكن أجواء المطاعم غير مناسبة لمثل هذه الأحاديث.

– طيب.. هل تمانعين أن تتفضلي عندي؟

فوجئت إيفا بيرغمان لمقترحه، ولجرأته، وأحست بالإرتباك، لكنها أدارت الإقتراح بطريقة أخرى، فقالت:

– لا.. يفضل في هذه الحالة أن تأتي أنت عندي، سنطبخ شيئا ما، ويمكننا الحديث بهدوء.

لم يصدق الدكتور آدم التائه أن تدور الدائرة بهذا الشكل كما في الأفلام، فأبدى موافقته بكلمة واحدة فقط:

– أو كي.

انطلقت إيفا بيرغمان بالسيارة صامتة. كانت تفكر بسرعة كمبيوترية عن السيناريو الذي يمكن أن تتحرك وفقه أحداث المساء المقبلة؛ كيف سيتصرف هذا الشرقي معها؟ هي تعرف أنه يفكر فيها بشبق، وربما يخطط لمضاجعتها! أصحيح ما فعلتْ حينما دعته إلى بيتها؟ إنه ربما لا يفكر سوى بمضاجعتها! هل يعرف من هي حقا؟ لكنه إنسان يائس، واليائسون وحيدون دائما. سأمنح روحه المضطربة شيئا من السكينة.

كان هو صامتاً أيضا. كلاهما كان صامتاً. صمتها مسه بالخوف. شعر بشيء غامض يقبض على روحه. هل عليه أن يغير رأيه ويرفض الذهاب معها إلى البيت؟ كيف يمكنه ذلك بعد أن خطط بكل ما أمكنه من حيل درامية، وملكة روائية، وخبرة جنسية؟ ماذا سينتظره هناك؟ هل سيضاجعها بهذه السهولة؟ كيف لإمرأة مثلها أن تدعو شخصا عابرا إلى بيتها؟ نعم، شخصا عابرا، فهو بالنسبة لها شخص عابر، شخص أراد شراء بطاقة سفر فساعدته في ذلك، لا أكثر ولا أقل، فهناك الكثير من الألمان، رجالا ونساء، يبدون المساعدة بشكل يثير غرابتنا نحن الشرقيين، بغض النظر عن هؤلاء الذين يسيئون للأجانب من المتطرفين والنازيين الجدد. هل هي أمراض الرجل الشرقي جاء محملا

بها، بحيث يعتقد أن أية امرأة تبتسم له، وتتباسط معه قليلا، وتتعامل معه بحرية، يمكنه أن يضاجعها؟ ثم.. ماذا سيحكي لها عن زوجته حواء المؤمن؟ هل يخبرها بأنها كانت مطلقة وتزوجها بناء على رغبة أمه؟ هل يخبرها بأنه يشك، بل إنه متأكد بأن ثمة علاقة محرمة كانت بينها وبين والده؟ وأنها صارت متدينة، تصلي وتقرأ القرآن، لكنه، بالرغم من ذلك، وجده جارهم اللبناني يولجه فيها من الخلف، وهي تصرخ به أن يدفع أكثر، بينما الحجاب يغطي وجهها؟ وهل سيخبرها بأنه رآها في المستشفى، حينما كان في غرفة العناية المركزة، وكانت تبكي، وتهمل دموع الندم وطلب المغفرة على كفه؟ وأنه مسد على رأسها بكفه كإشارة للغفران والتسامح؟ وأنه حينما سأل في اليوم التالي عنها، قيل له بأنه ليس هناك أية امرأة أجنبية في تلك المستشفى؟ هذه هي حكايته كلها، فماذا ستقول هي؟ امرأة مثلها ستسامحها مباشرة، بل وتطلب مني مسامحتها أيضا، وهذا سيعقد الأمور أكثر، لأن ذلك يعني بأن عليها أن تجره إلى أية علاقة معها، وأن كل ذلك سيقود إلى جلسة وعظ وكلام عن التسامح والغفران وإلى استدعاء الأجواء الدينية، وهذا يعني فشل خطته في مضاجعتها. إذن عليه أن يبتعد عن قصة زوجته وخيانتها له. لكن سبب دعوتها له هو أن يحكي لها عن زوجته فكيف عليه أن يتصرف؟

فكرت هي بأن تتصل بصديقتها لتسألها عن جارتها العجوز، وربما هناك من يحتاج إلى المساعدة، لا، عليها الليلة أن تساعد هذا الإنسان اليائس. هذا الإنسان الذي ينظر إلى الهاوية بأحداق مفتوحة. حاولت أن تقنع نفسها بما جاء في الإنجيل، والذي تحفظه: إن كانَ لإنسانٍ مئةُ خروفٍ وضَلَّ واحدٌ منها أفلا يترك التسعةَ والتسعينَ على الجبالِ ويذهبُ يطلبُ الضَّالَّ. وإنِ اتفقَ أن يجدهُ فالحقَّ أقولُ لكم إنهُ يفرحُ بهِ أكثرَ من التسعةِ والتسعينَ التي لم تضلَّ. وهذا الإنسان في حيرة كبيرة، ويستبد به اليأس ومسكين، ألم يذكر الكتاب المقدس:طوبى للذي ينظرُ إلى المسكين؟

* * *

كانت حواء المؤمن طوال اليوم كالتمثال المتحرك، لا تتحدث كثيرا إلا إذا سُئلت، وأحياناً كانت تفعل ما يراد منها دونما أي تعليق. لم تكن هي طبعا من يقوم بالإجراءات الإدارية في عملية النقل، إذ كان آدم اللبناني وعمه في أوج حماسهم لإنجاز هذه المهمة بإسرع وقت. وفعلا، فقد تم تسجيلها في بلدية المدينة كأحد سكانها إعتمادا على عقد الإيجار، بالرغم من وجود عنوان آخر لها في مدينتها الأولى، وتم ترتيب أوراق نقلها من دائرة المعونات الإجتماعية ايضا، واستلمت كتابا بذلك لإشعارمدينتها الأولى بذلك.

وقد استفسرا عن إجراءات الزواج في دائرة الأحوال المدنية في البلدية، وحددا موعدا لمقابلة المسؤول لتسجيل زواجها من آدم اللبناني.

كان آدم اللبناني وعمه يشعران بالإنتصار، وكان الفرح باديا عليهما، في كلامهما وضحكاتهما التي كانت تنطلق من القلب، والكرم في الإنفاق، إذ عرجوا على السوق الشرقي حيث أشتريا قنينتين من العرق، وعلبة لبن وخيار، وخضروات، وكرزات وبعض الحلوى. وأصر العم على الدفع بهذه المناسبة. بينما كانت هي ظل يتبعهما، وكانا يعرفان أنها في حالة غير طبيعية، ولم يفهم العم لماذا هي بهذه الحالة من الجمود، ولماذا لا تفرح لكل هذه الخطوات الناجحة التي تمت خلال يوم واحد؟.

حينما عادوا إلى البيت، وأخبرهم العم بأن كل شيء قد تم كما خطط له، أطلقت زوجة العم زغرودة، سمعها جميع سكان البناية. لم تكن حواء المؤمن تشارك بكل هذه الضجة العائلية، وفي نفس الوقت لم يضايقها أحد من نساء العائلة بالسؤال عما بها أو لماذا هي ليست سعيدة، وكأن كل ما يجري برمته ليس إلا وسيلة لحل مشكلة آدم اللبناني. لقد انتبهت هي لهذا الأمر لكنه لم يؤثر فيها، لأنها تدرك أنها قد ضيعت نفسها، وهي تنظر لكل ما يجري لها وكأنه عقاب إلهي عليها أن تتقبله دونما إعتراض، بل وبالرضى والإستسلام.

حينما مضت الأم وبناتها إلى المطبخ، ذهبتْ هي إلى الغرفة التي خصصت لهما. في المطبخ تبادلت الأم وبناتها النظرات وتهامسن في ما بينهن، لاسيما بعد أن جاء صوت حواء المؤمن من الحمام وهي تتقيأ. مضت الأم إليها. بينما تعالت ضحكات آدم وعمه من الصالة.

بعد الإنتهاء من وجبة العشاء، أعدت البنات مع أمهن حفلة عائلية وكأنهن يحتفلن بزواج، فأجلسن حواء المؤمن إلى جانب آدم، وبدأت الفتيات يرقصن ويدبكن على أنغام موسيقة الدبكة اللبنانية. استمر هذا الإحتفال العائلي لساعة تقريبا. بعدها انزوى العم وآدم في جانب من الغرفة وأمامهما قنينة من العرق، وأخرى على الأرض تنتظر مصيرها أيضا، وكذلك كان الجاجيك والزيتون والسلطة، وصحن فيه الفستق السوداني، بينما انتشرت النساء في بقية أرجاء المكان يتابعن مسلسلا عربيا يُبث من إحدى القنوات العربية التي تبث من لندن، وأمامهن توزعت الشوكلاتة، والفستق، والبطاطا المقلية، وقناني البيبسي.

حينما انسحبت الفتيات مع أمهن إلى غرفهن، لم يكن أمام حواء المؤمن سوى الإنسحاب إلى غرفتها. لم تكن نعسانة، ولكن لم تجد من الملائم أن تظل جالسة في

الصالة، بينما آدم وعمه، يحتسيان الخمر، وقد أتيا على الزجاجة الثانية التي كانت على وشك النفاد. كما بدا السكر واضحا عليهما.

* * *

كانت إيفا بيرغمان تسكن في مجمع سكني حديث يقع على أطراف المدينة بالقرب من غابة صغيرة تحيط بالمدينة من أحد جوانبها. وحينما وصلا إلى منطقتها، التي انتبه هو إلى أنها تحمل اسم شارع المقبرة.

كان المساء قد حل على المدينة. ركنت السيارة في المكان المخصص لسيارات سكان المجمع. بدا للدكتور آدم التائه بوضوح أن المجمّع جديد البناء، جميل المنظر، يشبه إلى حد كبير منتجعاً صحياً، أكثر مما هو مبنى سكني إعتيادي. وكانت الأشجار تحيطه من بعض جوانبه، إلى جانب سياج يحدد المجمع. لكنه انتبه إلى وجود مقبرة مفتوحة على أحد جوانب المكان، وكانت المقبرة تتوغل في الغابة. كان المبنى هادئا، ومقفرا من أي أثر لبشر. كانت معظم النوافذ مضيئة. وكانت شقة إيفا بيرغمان تقع في الطابق الأرضي.

حينما دخل معها إلى الشقة أعجبته نظافتها وانشراحها المتأتي من حسن تخطيط المكان. فالباحة الواسعة نسبيا كانت تقود إلى غرفة الإستقبال من جانب وإلى المطبخ وغرفة الطعام من جانب آخر، بينما كانت غرفة المكتبة تحتل مكاناً تتواصل مع غرفة الإستقبال، أما غرفة النوم فكانت على الجانب الآخر من الباب تتوسط بينها وبين المطبخ غرفة الحمام الواسعة. وحينما قادته إلى غرفة الإستقبال لفتت نظره أناقة الأثاث وبساطته، بينما ذهبت هي إلى غرفتة ومن هناك إلى المطبخ، إذ سمع صوت الثلاجة وهو يُفتح.

جلس الدكتور آدم التائه على الصوفا الواسعة المنجدة بجلد أبيض رقيق والتي تصلح أن تكون سريراً لعرضها، ثم أجال النظر في الغرفة الواسعة. انتبه إلى بعض اللوحات ذات الموضوع الديني من عصر النهضة وما بعده. لوحة مستنسخة لبعض أعمال دافنشي. ولوحات حديثة عن الحرب. جبهات قتال وجنود جرحى وثلوج ودماء. جذبت نظره صورة فوتوغرافية لفتاة في منتصف الثلاثين على منضدة في الطرف الآخر المقابل، لكن الصورة كانت بنية اللون، كالحة. إقترب من الصورة فأحس بأن صاحبة الصورة قريبة جدا من شكل إيفا إلا أنه انتبه إلى تأريخ الصورة الذي يشير إلى ثلاثينات القرن العشرين. أحس بقشعريرة باردة تسري في جسده. ما هذه. لا. ربما ليست هي،

حاول أن يبرر لنفسه ما رأى. وبينما هو في وقفته تلك دخلت إيفا وهي تحمل صينية فضية عليها قنينة من عصير البرتقال وأخرى من عصير التفاح وقدحين. وقفت تنظر إليه لحظة، فسألها قبل أن تبادر بالكلام:

– هذه أنت؟

– ماذا تقول أنت؟

– إنها تشبهك جداً. طبعا مع إختلاف في التسريحة وطراز الملابس.

– يقال إنها تشبهني كثيرا.

– نعم تشبهك كثيرا، هذا يعني أنها ليست لك؟

– أقرأ تاريخ تصويرها. إنه العام 1935.

ولم تكمل كلامها، إذ رن جرس الهاتف في الصالة، فوضعت الصينية على الطاولة وخرجت. رجع هو فجلس على الصوفا الجلدية البيضاء. فتح هو قنينة عصير التفاح وسكب لنفسه قليلاً، وأخذ يرتشف منه، بينما كان صوتها الرقيق يأتي إليه وكأنها تهمس للذي على الطرف الآخر الذي خمن أنه زميلتها:

– لا أستطيع المجيء الليلة. نعم أيتها الأخت.. نعم.. نعم..: الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدي والنادبون يطوفون في السوق، أتذكر هذا القول الذي جاء في سِفر الجامعة. نعم أيتها الأخت أفهم ما ترومين قوله لي، لكن جاء في سفر الجامعة أيضا: النور حلوٌ وخيرٌ للعينين أن تنظرا الشمسَ. لأنه إن عاش الإنسانُ سنينَ كثيرةً فليفرحْ فيها كُلها وليتذكرْ أيامَ الظلمةِ لأنها تكونُ كثيرةً. كلُ ما يأتي باطلٌ. نعم أيتها الأخت. نعم. إنه هنا. أعرف. سنلتقي غداً إذن بمشيئته.

انتبه من أطراف الكلام بأن قولها: نعم. إنه هنا، كانت إشارة واضحة إليه. فهو بشكل أو بآخر كان موضوع الكلام. لكن من نبرة صوتها وهدوئها الذي يبعث الإطمئنان في النفس لم يرتبك أو يرتاب في شيء. دخلت هي وعلى وجهها ابتسامة مغتصبة، إبتسامة فرضتها الضيافة ولم تكن نابعة من القلب، لأن نظراتها كانت تشي بشيء من القلق. وخلال ثوانٍ فكر في معرفة أي سبب لقلقها فلم ينجح. جلست هي على كرسي واسع مجاور له. صبت لنفسها شيئا من عصير البرتقال، وأخيرا نظرت إليه وكأنها تود أن تعلن شيئا:

– الآن أنت هنا. لا أحد غيرنا. وربما يمكننا القول معنا شخصيات هذه اللوحات، أي معنا التأريخ والأسطورة. سنشرب العصير أولا، ثم نعد عشاء خفيفا لكلينا، بعدها ربما نشرب القهوة أو الشاي، حسبما نشاء، وسأصغي إليك وأنت تروي

قصتك. هل أنت موافق؟

– موافق طبعا. أنا شربت عصيري.

– وها أنا قد أنهيت عصيري.

قالت ذلك وشربت ما كان في كأسها. ثم التفتت إليه وعلى وجهها إبتسامة صادقة:

– والآن يمكننا أن نذهب إلى المطبخ.

قامت متجهة إلى المطبخ وهو يتبعها، لكن عينيه لم تكفّا عن التحديق إلى ساقيها واهتزاز مؤخرتها المتناسقة جدا. وخلال هذه الأمتار القليلة كان يعيد حساباته، هل عليه أن يبدأ معها حينما يكونا في المطبخ، بحيث يبدأ بمسها واحتضانها أم يترك الأمر إلى ما ستتمخض عنه هذه الليلة.

حينما دخل المطبخ انتبه إلى الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى الثامنة والربع مساءً. إذن عليه أن لا يستعجل في الأمر، فلربما إذا ما تأخر الوقت ستطلب منه المبيت عندها، فكر مع نفسه.

فتحت الثلاجة وأخرجتْ ما فيها من عصائر وزبد وبعض الفواكه وقطع من السجق. أدرك هو أن العشاء سيكون بسيطا، وخفيفا كما هي عادة الألمان أو على الأقل لامرأة رشيقة القوام مثل إيفا بيرغمان. جلس هو على كرسي حول طاولة الطعام، بينما هي فتحت دولابا صغيراً وأخرجت منه قدرا وضعت قطع السجق فيه ووضعته على الطباخ بعد أن أشعلته. أخذت ترتب المائدة، فأخرجت الملاعق والسكاكين والشوكات. كان هو يتأملها، لكنه أراد أن يكون قريبا منها أكثر فسألها:

– هل كنت تسكنين هنا حينما كنت متزوجة؟

– نعم.

– في نفس هذا البيت؟

– نعم.. لكن تم إعادة بناء البيت من جديد، فقد كان البناء قديما حينها.

– كيف.. ما معنى ذلك؟ كيف تم إعادة بناء البيت، وأنتم أين ذهبتم؟

– كنا نسكن عند أمي إلى أن تم الإنتهاء من البناء فرجعت للسكن هنا من جديد، لكن بدون زوجي هذه المرة، لأننا كنا قد انفصلنا.

– آسف..

– لا داع للأسف.. كان هذا الأمر برغم أرادتنا. وأنت؟

– ألم تقولي بأنك ستستمعين إليّ بعد العشاء؟

إبتسمت له قائلة:

ـ إنك لا تنسى.. هذا جيد وسييء في نفس الوقت.
ـ كيف؟
ـ النسيان نعمة.. لكن عدم النسيان يكون بمثابة الجحيم أحياناً.
ـ هذا صحيح..
كان الدكتـور آدم التائـه يفكركيـف يبـدأ الحديث معها عـن خصوصياتها، والدخول إلى المناطق الحميمية في النفس، فسألها:
ـ لدي سؤال، أرجو أن لا يضايقك إذا ما سألته؟
ـ لا أبداً.. تفضل.. بالرغم من أني أكاد أخمن سؤالك..
ـ غير معقول.. ماذا خمنت أن أسأل؟
ـ ألم تود أن تسأل إن كنت قد أقمت علاقات مع الرجال بعد إنفصالي عن زوجي؟
بهـت الدكتـور آدم التائـه مـن فطنتها. أحس بأن هناك شـيئا غير طبيعي عندها، لكنه أراد أن لا يتراجع، بل على العكس أن يتوغل أكثر، فقال:
ـ نعم.. بالضبط، هذا ما أردت أن أسأله.
ـ هل تصدق إن قلت لك لا.. لم أقم أية علاقة مع أي رجل؟
ـ أليس هذا صعباً عليك؟
نظـرت إليـه وهـي تلتقط قطع السـجق وتضعها في صحنـه وصحنها.وقالت بطريقة غامضة:
ـ ماذا تعتقد أنت؟
ـ أعتقد أنه صعب على الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، أن يكون وحيدا.
ـ ها أنت قد قلت بنفسك: أن يكون وحيداً. وأنا لم أكن وحيدة قط، كنتُ مشغولة بالآخرين، وهذا ما شغلني عن الرجال. ألا تصدقني؟
تردد الدكتور آدم التائه في الإجابة، لكن كان مضطرا للإجابة:
ـ أصدقك. لكني أعتقد أنك كنتِ تهربين من الرجال بإشـغال نفسـك بالآخرين، وهذا لا يعني بأنك لم تكوني تريدين ذلك
ـ ربما، ربما كان نوع من تربية الذات و..
ـ وقمع الحواس والرغبات..
ـ لنقل ذلك. بالرغم من أني لا أميل لكلمة قمع.. لأن كل ذلك كان برغبتي، فلو كنت مقتنعة بذلك لكنت فعلت ما فعلت..لكني لم أشأ أن أكون كذلك..وبالتالي فإنشغالي كان يأخذ الكثير من وقتي، وحينما أكون وحدي أكون قد هلكت من

التعب، فلا أجد الوقت الكافي للتفكير في.. في..

– في الجسد.. في المضاجعة..

– نعم

كان الدكتـور آدم التائـه يشـعر وكأنـه يعيـش أحداث روايـة لم تُكتب بعد. وأنه الآن يعيـش أحـداث أحـد فصولهـا الشـيقة، وأن الرجـل هنـا ليـس هو فحسـب، وإنما رجل افتراضي، وهنا عليه هو أن يقود الأحداث. فكر للحظة، ماذا كان هنري ميللر سـيفعل مع امرأة مثل هذه؟ من المؤكد كان سـيقوم بكل بسـاطة سـيدفعها لتتمدد على الطاولة، واذا مـا اعترضـت فعليـه أن يسـيطر عليهـا بقوتـه، وبالتالـي يفتح فخذيهـا ويفتح بنطاله ويسحب عضوه ويحاول أن يولجه فيها، واذا ما أعاقه سروالها فيمكنه تمزيقه، لو كان هنري ميللر لشقها شقا، ومثل هذه المرأة الملاك ستتحول إلى إحدى ملائكة الجحيم. لكـن هـو الآن يجلـس هنـا، وعليه السـفر بعد أيـام، وهو متأزم مما جرى له مع زوجته، وعليه أن يقود أحداث هذه الليلة. عليه بالصبر قليلا، فهو أسـتاذ في الحوار وسـيصل إلى ما يريده منها. عليه بالصبر. فقال وفي صوته شيء من المشاكسة:

– أتريدين القول بأنك لا تريدين أن تكوني مع رجل؟

نظرت إليه وكأنها تريد أن تعرف كيف ستجيبه، فقالت:

– لم أقل هذا.

فقال بنبرة المنتصر:

– يعني أنك كنت تهربين من نفسك بالإحتماء وراء الإنشغال بالآخرين..

– ربما..

– وربمـا هـذا يعنـي أنـك حينمـا تتـاح لـك الفرصـة، أي حينما لا تكوني منشـغلة بالآخرين فأنك تفكرين بجسدك.. وتحاولين إطفاء النيران التي تتأجج في أعماقه

– لو كنت لست كما أنا عليه الآن فربما..

كانت إيفا تحس وكأنها قد علقت في كماشـة محكمة، لاسـيما وهي لم تتعود أن تكذب أو تواري مشاعرها وأفكارها. وهي الآن تقترب من منطقة حساسة، كانت فعلا تتجنب التفكير فيها. ولكي تجد مخرجا من هذا الوضع، قالت له:

– علينا أن نتعشى الآن.. بعد ذلك سنتحدث.. ما رأيك؟

نظـر هـو إليهـا للحظـات وعلـى وجهـه إبتسـامة ذات مغزى. نظرت هـي إليه، لكن نظراته كانت من الوضوح المليء بالرغبة بحيث أنها خفضت بصرها، فقال وهو يبتسم:

– اتفقنا.. سنواصل الحديث بعد العشاء.

لم يستمر العشاء طويلا، إذ سرعان ما انتقلا إلى الصالة ثانية، وجلسا في تلك الزاوية على الصوفا الجلدية البيضاء. كان هو يريد أن يبدأ من حيث ما انتهيا في حديثهما في المطبخ، إلا انها كانت تريد أن تسمع منه قصته مع زوجته، وحينما حاول أن يعيدها إلى ما كان من حديث في المطبخ رفضت قائلة أنها لا تود الحديث عن هذا الأمر ما لم تسمع منه ما جاء من أجله أصلاً، فما كان منه إلا أن يسرد لها الحكاية من أولها، إلى ما كان رواه لها من رؤيته لها في غرفة العناية المركزة. نظرت هي إليه نظرات غامضة وقالت له:

– أعتقد أنني أعرف زوجتك

– تعرفينها؟!

– نعم أعرفها.. ألم تقدم على الإنتحار؟

– ماذا؟!

كان الدكتور وكأنه صُدم، بل نسي كل مخططاته لإغوائها، وقال بتعجب:

– من أين تعرفينها؟ متى رأيتها؟

– أعتقد أنا كنت في زيارة للمستشفى، ورأيت امرأة أجنبية، كانت قد قطعت وريدها، وكانت في حالة نفسية منهارة، وكانت تسأل دائما عن غرفة العناية المركزة في المستشفى. وكان الأطباء واستعلامات المستشفى يؤكدون لها بأن لا يوجد أي قسم للعناية المركزة في المستشفى. والغريب كانت هي تبحث عن زوجها، وتقول إنه في المستشفى، لكنه لم يكن هناك، ربما كان في مستشفى آخر.

– لكني رأيتها في المستشفى التي رقدتُ فيها؟

– هي أيضا كانت تقول بأنها رأت زوجها راقدا في إحدى غرف العناية المركزة، لكن الكل كان يؤكد لها بأن لا غرف للعناية المركزة في ذلك المستشفى، وهذا صحيح، فالمستشفى التي قابلتها فيها ليست فيها غرف للعناية المركزة.

– غريب

– ما هو الغريب؟

– كيف كنتُ أنا في مستشفاها، وكانت هي في مستشفاي؟

– ألم تسمع بتخاطب الأرواح؟

– تخاطب الأرواح؟ أقول لك أنا رأيتها في غرفتي، وكانت تبكي، وأخذت كفي ووضعت وجهها عليها بحيث أحسست بدموعها تبلل كفي، كانت تقبل كفي

وكأنها تريد غفراناً لما اقترفته بحقي، واذكر أني مسدت بكفي على رأسها. أي لم يكن تخاطب أرواح، بل كان اللقاء حقيقياً. رأيتها مثلما أراك الآن.

– هي أيضا كانت تؤكد بأنها رأت زوجها في غرفة العناية المركزية، لكن لا غرف للعناية المركزية هناك.

– لكن من يؤكد بأن التي قابلتها هي زوجتي حواء المؤمن؟

– لا أدري بالضبط، لكن كان اسمها حواء.

– غريب

– ما هو الغريب؟

– كل هذه الحكاية غريبة.

أحس الدكتور آدم التائه وكأنه دخل في متاهة غامضة شبيهة بأفلام الغوامض الروحية والأشباح. نظر إلى إيفا بيرغمان بتأمل وكأنه يريد أن يتوغل في أعماق عينيها وصولا إلى أسرارها العميقة، وقال لها وكأنه قد أقترب من حل اللغز:

– ولكني كنت ظهر هذا اليوم في البيت ولم أجدها، بل على العكس انتبهت إلى أنها قد أخذت بعض ملابسها وغادرت الشقة

– هذا لا يعني شيئا

– كيف لا يعني شيئا؟ لو كانت في المستشفى فمن أخذ ملابسها؟ ولو كانت قد خرجت فمتى استطاعت أن تأتي إلى البيت وتأخذ ملابسها وهي في تلك الحالة؟ لا.. هذا غير ممكن..ربما أنت قد التقيت بامرأة أخرى، وصادف أن اسمها حواء.

– لكنك تقول إنك رأيتها عندك

– نعم.. هذا ما لا أشك فيه أبداً. مهما حاولت الممرضة والإستعلامات أن ينكرا وجود امرأة باسم حواء في المستشفى التي رقدتُ فيها. لكن أين هي تلك المرأة؟ ثم.. لماذا كانتَ هي موجودة في المستشفى أصلاً. أيكون ما قلته صحيحاً؟ لكن لو كان صحيحا لكان في مستشفانا وليس في تلك المستشفى الأخرى البعيدة التني كنت أنت في زيارة لها؟ لآ أعرف.. أنا في حالة تخبط.. فقد التبس الأمر علي بالكامل.

– لا أعتقد ان هناك مشكلة.. يمكنك التأكد من ذلك حينما تراها وتسألها عن محاولة الإنتحار وعن تواجدها في المستشفى الذي كنت أنت فيه لكني أرى أنك ما زلت تحبها، أراك قلقا عليها

– ليس للحب دور هنا يا إيفا، المسألة وما فيها أنها هنا غريبة مثلي، لا تعرف أية

لغة أخرى، لغتها الألمانية أسوأ من لغتي بكثير، بحيث أنها تعتمد علي في الكثير من الأمور، لكنها، خانتني مع جاري. أنا أكاد أجن، فهذه المرأة التي كانت تقرأ القرآن وتؤدي الفروض، أجدها في وضع جنسي فاضح. ولكني حينما رأيتها في المستشفى تبكي غفرتُ لها، والآن حينما سمعتُ منك بأنها قد حاولت الإنتحار، بالرغم من أني أشك في ذلك، فأني شعرت بالقلق حيالها، فهي برغم كل شيء إنسان طيب. وهي غريبة، وأنت لا تعرفين معنى الغربة لأن هذا البلد هو بلدك، لكني أعرف معناها، لا سيما حينما أفكر بها كامرأة لا تعرف اللغة الآلمانية، ولم تكن تقود حياتها بنفسها في يوم من الأيام، إذ كان هناك دائما من يقودها في هذا الحياة.

- أنت إنسان طيب جدا.
- شكرا لك.. أنت ايضا إنسانة في منتهى الطيبة.
- شكرا لك.. أنا لم أعمل شيئا خاصا، هذا جزء من واجبي.
- كان الدكتور آدم التائه قد استعاد شيئا من استقراره النفسي، وكذلك انتبه إلى أنه كاد يضيع كل شيء، وخمن بأن الوضع ملائم لإتخاذ خطوة أكثر جرأة. فقال لها:
- أتدرين ما أتمنى في هذه اللحظة؟
- ماذا تتمنى؟
- أن أضع رأسي في حضنك وأغفو مثل طفل صغير. فأنا احس بأني تعبان جداً، وليس هناك من يحمل عني تعبي.
- ماذا تقصد؟
- أقصد بكل بساطة أن أتمدد الآن وأن أضع رأسي في حجرك وأنام؟
- نظرت إليه بغرابة وتعجب، وكأنها لم تصدق ما سمعت، وقال تسأله:
- هل هذا ما تريده وتتمناه حقاً؟
- نعم..
- ولا شيء آخر؟
- لا شيء.. لا شيء.. أنا تعبان يا إيفا ..
- لو كان هذا الأمر يريحك فتعال..
- لم يكن يصدق هو ما سمع، فقال لها:
- إذن تعالي إلى هذه الصوفا.. فهي أوسع وأكبر، وأعرض..

نهضت من مكانها وجلست عند إحدى نهايتي الصوفا الكبيرة، وبدون أي خجل،

وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد أو كأنها حبيبته، وضع رأسه في حجرها. كانت هي محرجة في بداية الأمر، وهو بدوره لم يفعل شيئا يثير أية شبهة لديها. فقد أغمض عينيه وكأنه يريد أن ينام. لكنه في الوقت نفسه كان يفكر بالخطوة التالية التي عليه أن يخطوها من أجل أن يضاجعها. مشكلته كانت طيبتها الكبيرة وبراءتها، وثقتها به، وألا ما معنى أن تسمح له بأن يضع رأسه في حجرها بحيث كان يسمع سريان الدماء في عروقها، بل كان يتخيل ساقيها وما بينهما؟ لكن، وبدون أن يحس كيف؟ ومتى؟ غرق في لجة نوم عميق.

* * *

كانت حواء المؤمن تحاول بأي شكل أن تنام. كانت قد أطفأت النور في الغرفة. استلقت على ظهرها وأخذت تعد إلى المائة ثم تعيد الحساب من جديد، عسى أن يأتيها النوم، لكن بدون جدوى. أخذت تحدق إلى السقف فأخذت تتراءى لها أشياء غامضة، أشبه بتيارات ودوائر سوداء تدور وتتداخل ثم تختفي. وأخيرا لا تعرف كيف أحست بثقل أجفانها، وأن النوم بدأ يتسرب إلى عينيها. ولم تكن تعرف كم استمر ذلك من الوقت، إذ أحست بأن هناك من يتحسس جسدها. عرفت أنه آدم اللبناني، وقد جاء سكراناً. أحست أنه بدأ يمد يده بين فخذيها مداعبا إياها، ثم مد أصبعه داخلها. وأخيرا سحب سروالها عنها. لم تشأ أن تبدي أية حركة تدل على يقظتها وانتباهها له، لكنها انتبهت لأول مرة إلى أنها غير راغبة فيه، وأنه لا يثيرها أبداً، بل أحست بالألم حينما أولج إصبعه فيها. وبدون أية مراعاة لوضعها، رفع ثوبها وفتح فخذيها ودخل بينهما. لا تعرف هي كيف أنها صارت رطبة، بالرغم من أنها فاقدة الرغبة فيه، وحينما دخل فيها وصار وجهه قريبا منها، أحست بنفسه الكريه، أحست ببخر فمه الممزوج برائحة العرق والثوم. كان هو يلهث وهو يدخل فيها، وكانت تحاول أن تتحمل بأقصى ما يمكنها عسى أن ينتهي، لكنه كان سكرانا، فطال الأمر عنده.

كانت هي تتعذب ولم يكن أمامها إلا أن تدفعه عنها، وتركض في الظلمة متجهة إلى الحمام، لتتقيأ هناك، كل آلامها ومخاوفها وشقاءها. ظلت هناك، متدلية الرأس في حوض التواليت، جالسة على الأرض. وحينما شعرت بالراحة نوعا ما، حملت نفسها ورجعت إلى غرفتها، وكم كانت راحتها كبيرة حينما سمعت شخيره عاليا، فتمددت على الفراش بعد أن سحبت البطانية منه، وشدت نفسها بها. شعرت بالراحة، نظرت إلى السقف المظلم فأحست وكأن السقف ينشق عن وادي الظلمات.

* * *

فجـأة، فتـح الدكتـور آدم التائـه عينيه. كانت الظلمة شـديدة. إنتظر لبضع ثوان حتى تمكن من تمييز الأشياء في الظلمة. أدرك أنه نائم على الصوفا الجلدية العريضة البيضاء، وعلى جسـده شرشـف دافئ لكنه ليس ثقيلا. انتبه إلى أن قدميه طليقتان خارج حذائه. إذن، فقـد غـط فـي نـوم عميـق، لكن أين هي؟ نظر حولـه. كان المطبخ مظلما، والباحة أيضـا، بإسـتثناء بصيـص نـور يضـيء حافة باب غرفتها المقابلـة للمطبخ. نهض بمتمهل وحذر شديد ألا يحدث صوتاً. اقترب من المطبخ ونظر إلى الساعة الحائطية التي، قرأ برغم العتمة، بأنها تشير إلى الرابعة والنصف فجراً. وبخفة، وعلى رؤوس أصابع قدميه، تسلل إلى الباحة، مقترباً من غرفة نومها. تناهى إلى سمعه همس لم يستطع أن يميزه، همس أشـبه بتلاوة الأنجيل في كنيسـة. مد كفه المرتعشـة لكي يفتح الباب، لكنه فجأة سحب كفه. قرفص جالساً، ووضع عينه على ثقب مفتاح الباب، فذهل إذ رأى الراهبة الشابة تجلس على السرير وبيدها الكتاب المقدس وهي تقرأ فيه بهمس.

أحـس برعـب يهـز كيانـه، هـل إيفا بيرغمان هي الراهبة نفسـها؟ كيف؟ هل عليه أن يهرب الآن من هذا المنزل؟ لا.. عليه أن يخوض التجربة إلى آخرها، قال لنفسه، وقرر أن يفتح الباب عليها مهما كانت النتائج. نهض واقفاً، ومد يده بتمهل شديد على مقبض الباب، بينما كان قلبه يخفق بشدة. دفع الباب ببطء شديد. فجأة أحس بنور ساطع شديد لم يتركه أن يرى شيئا.

دام هذا الأمر في لمح البصر. واختفى كل شيء، وحينما تمكن من الإبصار، وجد أن إيفا بيرغمان في سـريرها. نهضت هي متفاجئة من دخوله عليها. قفزت هي خارج السرير واقفة. كانت الغرفة مضاءة. وكانت هي في ثوب نوم أبيض شفاف جدا بحيث كانت أشـبه بالعارية. لم تكن ترتدي أي شـيء يغطي عريها تحت هذا الثوب الأبيض الشفاف جدا. ذهل هو، نسي ما رأى قبل لحظات، نسي الراهبة والضوء الساطع. كانت الرغبة قد هيمنت على تفكيره. ذهل لجمال جسـدها. انتبه إلى أنها شـقراء لكن الثوب الأبيض الشـفاف يكشـف عن شـعر عانتها الأسـود. إقترب منها ببطء، كانت هي تمتم بكلمات لم يسمعها. لكن سمع جملة واحدة منها:

– أيها الشقي..

كان قد صار أمامها بالضبط. ركع أمامها. احتضن سـاقيها وجذعها الأسـفل. أخذ يقبـل سـاقيها وفخذيهـا ومـا بينهمـا. كانت هـي ترتعش من الرغبة. سـمع تصاعد أنينها الشبق. فجأة مد يده إلى ما تحت الثوب الأبيض الشفاف ليلامس عريها مباشرة. أخذ يدفعها إلى الوراء، ملقيا بها على السرير. رفع الثوب إلى الأعلى فانكشفت أمامه عارية

بالكامل. وبحركة عنيفة فتح فخذيها فانكشفت أمامه وردتها السوداء. فجأة، وفي تلك اللحظة بالذات، أحس بالضوء الباهر، الساطع، يغمره، ويغمر المكان كله. ولم يعد يرى أي شيء.

لم يعرف كم استمر انهمار الضوء الساطع، لكنه أفاق على نفسه، فرأى نفسه متمددا على الصوفا الجلدية في الصالة المضاءة بشقته هو. وكان العرق قد بلله. كانت ياقة قميصة وشعره مبتلين بالعرق، وجبينه متعرقاً أيضا. نهض على مهل. فرأى على التلفزيون جواز سفره والبطاقات في داخلها. وتأشيرة الدخول المحدودة موجودة أيضا. كانت الساعة الحائطية تشير إلى التاسعة صباحا. وكانت المفكرة التي على الحائط تشير إلى تاريخ اليوم. فجأة أخذ بطاقات السفر ونظر إلى تأريخ السفر، فوجده يصادف نفس تأريخ اليوم. وهذا يعني أن عليه السفر اليوم، ومن مطار مدينة دوسلدورف، عصرا. كيف جرى كل هذا؟ ومتى؟ وكيف جاء إلى هنا؟ ومتى حصل على التأشيرة؟ وكم مضى عليه وهو نائم؟ ألم يكن هناك مع إيفا بيرغمان؟ ما الذي يجري له؟!

لم يكن على الدكتور آدم التائه أن يأخذ الكثير من الأمتعة. شهاداته الأكاديمية، رسالة الدعوة، جواز السفر، بعض قطع الملابس الضرورية، وأدوات الحلاقة. كان كل شيء جاهزا. إذن عليه أن يمر على إيفا بيرغمان في المكتب السياحي ليعرف منها كل شيء.

كان هو يمشي، حاملا الحقيبة الصغيرة التي يمكنه من إدخالها معه في الطائرة، على كتفه. كان شارد الفكر. يحاول استرجاع كل ما جرى له منذ لحظة دخوله إلى غرفتها. لم يستطع أن يتذكر أي شيء، وكأن ذاكرته صفحة بيضاء.

حينما وصل إلى مركز المدينة توجه مباشرة إلى حيث المكتب السياحي، لكنه، وقبل أن يصل المكان رأى المرأة الألمانية العجوز تنظر إليه وعلى وجهها إبتسامة غامضة. لم يفهم هو أصلا معنى وجودها الدائم كلما توجه إلى المكتب، ولم يفهم سر هذه الإبتسامة الغامضة.

حينما وصل إلى مكان المكتب السياحي لم يجده. كانت الدكاكين والمخازن تتراصف، والمكان الذي كان مكتباً سياحيا، هو الان مكان لبيع الخبز. تراجع قليلا ليتأكد من العنوان. نعم أنه في المكان الصحيح، فبجوار المكتب كان ثمة محل لبيع الزهور، وهو هنا، وإلى الجانب الآخر محل لبيعه المصابيح والثريات المنزلية، وهو ما يزال موجودا، وبينهما كان المكتب السياحي، لكن الآن يوجد محل لبيع المعجنات والخبز!

مد يده إلى جيبه الداخلي ليتأكد من وجود الجواز والبطاقات، فوجدها في مكانها. هـل هـو مجنـون؟ التفـت حولـه، فرأى المرأة الألمانية العجـوز واقفة وهي تنظر نحوه، والإبتسـامة الغامضة ما زلت على وجهها. أراد أن يتوجه إليها، لكن المرأة اسـتدارت فجـأة ومضـت فـي الطريـق الآخـر. مـاذا يجري له؟ هل هي الشـيزوفرينيا؟ لا.. وألا ما معنى وجود بطاقات السفر، وتأشيرة السفارة؟.

نظر إلى سـاعته، فوجد أنها قد تجاوزت العاشـرة صباحا، إذن لديه بعض الوقت، قبل أن يتوجه إلى محطة القطار التي ستقله إلى إيسن، ومنها سيحول قطاره لكي يصل إلى دوسلدورف. توجه إلى حيث سيارات التاكسي. اقترب من إحدى السيارات وقال للسائق:

– أريد الذهاب إلى شارع المقبرة.

– شارع المقبرة؟

– نعم.. شارع المقبرة

– لا يوجد شارع بهذا الإسم في مدينتا.

– كيف لا يوجد شارع بهذا الإسم؟ مساء أمس كنتُ هناك.

– أأنت متأكد من ذلك؟

– نعم.. وألا كيف أسألك الذهاب إلى هناك؟

– في أي جانب من المدينة يقع، هل هناك شيء آخر معروف يدل عليه؟

– لا أدري، لكن إذكر كانت هناك غابةهل تقصد المقبرة؟

– ماذا تقصد؟ كانت هناك مقبرة، وهناك مجمع صغير حديث البناء، والشارع الذي يقع فيه المجمع يسمى (شارع المقبرة – فريدهوف شتراسه)

– ليس هناك سوى المقبرة. ويمكنني أن آخذك إلى هناك.

– حسنا لنذهب

صعد الدكتور آدم التائه إلى جنب السائق، وتحركت السيارة. كان السائق يعرف أن هناك مقبرة لكن ليس هناك أي مجمع سـكني. وما أن دخلت السـيارة حدود المنطقة حتـى تعـرف الدكتـور آدم التائـه علـى بعض ملامح المـكان، فتأكد أنه يتجه إلى المكان الصحيح، وحينما وصل إلى المكان لم يكن هناك أية مجمع سـكني. كان المكان هو نفسـه الـذي كان فيـه مسـاء أمـس، كمـا يفترض أن يكون، لكن فـي المكان الذي يجب أن يكون المجمع السـكني فيه كانت هناتك مقبرة. قبور تغطي المكان. حاول الدكتور آدم التائه أن يتخيل المكان، وفي المكان الذي يفترض أن يكون مدخلا إلى شـقة إيفا

بيرغمـان، كان هنـاك قبـر عليـه صـورة. نـزل الدكتـور آدم التائه من السـيارة وطلب من السائق أن ينتظره لحظة.

تقدم بخطى قلقة نحو القبر. كان كالمأخوذ بسـحر غامض. حينما صار قرب القبر قرأ على شاهدته:

إيفا بيرغمان

1905 - 1944

إقترب الدكتور آدم التائه من الصورة محدقا فيها فذَهل حينما رأى وجه إيفا بيرغمان التي كانت معه ليلة أمس. ولدهشته تراءى له بأن الوجه الذي في الصورة قد ابتسم له بحنـان. أحـس بالرعـب. قفـز إلـى الوراء من الخوف وأخذ يهرول نحو السـيارة. دهش سائق السيارة لحالة الخوف التي رجع فيها الدكتور آدم. سأله:

– هل هناك شيء ما قد حصل؟

– لا.. خذني إلى محطة القطار رجاء.

– مثلما تشاء. لكن هل اقتنعت بأنه ليس هناك مجمع سكني في المنطقة؟

– ربما التبس علي الأمر.

– هذه مقبرة قديمة تعود لضحايا الحرب، وعادة تهدم المقابر بعد خمسـين عاما، وربما ستهدم هذه المنطقة أيضا. وقد سمعت بأنهم يريدون بناء مجمع سكني هنا.

لـم يجـب الدكتـور آدم التائـه بأي شـيء ولم يود مواصلة الحديث. كان شـارداً في أعماقـه. وكان السـائق ينظـر إليـه من خلال المرآة، مسـتغربا مـن تصرفاته. كان الدكتور آدم التائـه يحـس بـأن عليـه مغـادرة هذه المدينة فوراً، فطلب من السـائق أن يغير اتجاهه ويذهب إلى مدينة ايسن مباشرة بحيث يستقل القطار الذاهب إلى دوسلدورف من هناك. نظر السائق إليه، وقال مستفسرا:

– هل تريد أن أقلك غلى أيسن؟

– نعم

– لكن هذا سيكلفك كثيرا

– لا ضير.

– كما تشاء. أنا أردت أن أنبهك لذلك.

حينما وصلت سـيارة التاكسـي إلى محطة القطار الرئيسـية واصطفت السـيارة كي ينـزل منهـا الدكتـور آدم التائـه، الـذي تأخـر في النزول وهو يعـد المبلغ مع زيادة طفيفة ليعطيه للسائق، لمح فجأة، زوجته حواء المؤمن وآدم اللبناني ورجلاً آخر يصعدون إلى

سيارة تاكسي أخرى، انطلقت بهم بسرعة.

كان الدكتـور آدم التائـه واقفـا كالمذهـول على الرصيف في محطة وقوف التاكسـي عنـد محطـة أيسـن، منذهـلا من كل هذه الأحداث. مسـتغربا مـن لقاء حواء المؤمن في هـذه اللحظـة بالـذات. مفكـرا بأنـه لو كتب عـن تجربته هذه وعن لقاء حواء المؤمن في آخر ساعات وجوده في ألمانيا لابتسم البعض وعلل ذلك بتأثره بالأفلام الهندية.

مـد يـده إلـى جيبـه ليتأكـد مـن وجود جواز السـفر والبطاقات، وكذلـك من الورقة التي فيها معلومات السـفر. وفجأة برقت في ذهنه مسـألة لم ينتبه لها سـابقا، فقد أدرك بأنه لم يدفع أي شـيء ثمنا لبطاقات السـفر. أخرج بطاقة معلومات السـفر التي طبعتها لـه إيفـا بيرغمـان، وقـرأ المعلومات الموجودة، وقـرأ أن الموظفة التي باعت له البطاقة: إيفا بيرغمان؟. فتش عن عنوان المكتب السياحي الذي باع له البطاقة، فقرأ: فريدهوف شتراسه 44- (شارع المقبرة 44).

أحس أنه في عالم لا منطق فيه. دخل المحطة متجها إلى قسم بيع التذاكر. أشترى بطاقة للذهاب إلى مطار دوسلدورف. صعد إلى الرصيف المخصص له، حسبما أخبرته البائعـة. كان الرصيـف فارغـا من أي مسـافر غيره. تعجـب. على الأرصفة الأخرى كان يرى المسافرين ينتظرون قطاراتهم. لكن على رصيفه لا أحد غيره. وفي الوقت المحدد جاء قطاره وكأنه انبثق من العدم. فُتحت الأبواب. لم ينزل أي أحد من القطار، بل ولم ينزل أي جاب أو عامل في القطار.

حينما صعد القطار استغرب بأنه كان فارغا. قال لنفسه ربما هذه العربة هي فارغة، فلأمض إلى عربة أخرى. فتح الباب الذي بين العربات ودخل عربة أخرى كانت فارغة أيضا. غادرها إلى عربة فارغة أيضا. لا أحد في هذا القطار. أصر على أن يكتشف السر، فدخل إلى كل العربات التي كانت جميعها فارغة، حتى وصل إلى عربة السائق، فأطل مـن زجاجهـا ليـرى بـأن القطار كان يمضي بدون سـائق أيضا. ظـل يحدق بعربة القيادة الفارغة، حتى رأى أن القطار بدأ يمضي سـريعا، وها هو يقترب من نفق مظلم.. دخل القطار إلى النفق المظلم. وغرق كل شيء في وادي الظلمات.

آدم البغـدادي: كيف يمكن أن يحدث ذلك في الواقع؟ هل ما جرى حقيقة أم من شطحاتي؟ أنا أعتقد أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تحصل في الحياة؟ لكني لماذا لم أدعه يضاجعها؟ ألأنها روح والأرواح ليست لها علاقة بالجسد؟ لكنها

كانت متجسدة في جسد امرأة تشرب وتأكل، أكان كل ذلك وهما؟ كيف يمكن لامرأة قتلت في الأربعينات بينما تعيش وتتجول في التسعينات؟ من يصدق ذلك؟ ربما الذين يؤمنون بالأرواح وبقوة الخير والإيمان مثلي. لكن هل أنا كذلك حقا؟

لم يعلق آدم المحروم على ملاحظة صديقه آدم البغدادي، لأنه كان منبهرا ويريد ملاحقة الأحداث.

نبض الخطيئة

حينما رأى الدكتور آدم التائه زوجته حواء المؤمن مع آدم اللبناني والرجل الغريب في محطة التاكسي بمدينة أيسن، كانت هي تتوجه إلى دائرة الأحوال المدنية في البلدية لإتمام عقد زواجها من آدم اللبناني. صحيح أنها كانت تُعد زوجة للدكتور آدم التائه حينما قدما إلى ألمانيا وقدما طلب اللجوء السياسي، لكنهما قانونا يعدان غير متزوجين، فالقانون الألماني يعتمد على التسجيل المدني للزواج. ولو كانا حينها قد قدما عقد زواجهما المدني الذي تم في العراق لكانا يعدان، وفق القانون الألماني، متزوجين، ويؤخذ هذا العقد بنظر الإعتبار، لاسيما حينما يتم تصديقه من قبل سفارة بلادهما، لكن هذا لم يحدث، لذا كل هذا الإهمال قد سهل من عملية زواجها من آدم اللبناني، بالرغم من عدم شرعيته دينياً.

بعد الإنتهاء من ذلك. أخذ آدم اللبناني ورقة تؤيد زواجه من حواء المؤمن وذهب معها إلى دائرة الأجانب في مدينته، فأخبروه بأنهم سيمنحونه إقامة إعتماداً على إقامة زوجته، لكنهم حددوها له بسنتين، كمرحلة أولى. وقد اندهش الموظفون في دائرة الأجانب من ذلك، لأنهم يعرفون أنها تُعد زوجة للدكتور آدم التائه، بالرغم من أن لقب العائلة مختلف بينهما، لكنهما أعتبرا ذلك صداقة لم تستمر.

كانت الأمور تجري بطريقة سهلة أمام آدم اللبناني. فقد أخذ يخطط مباشرة للسفر لمدة شهر إلى لبنان. ماذا يفعل هناك؟ هذا ما لم يكشفه لزوجته أصلا، بل إأنها لم تسمع بذلك إلا من زوجة عمه، التي كشفت عن ذلك بزلة لسان.

إنتقلت حواء المؤمن للعيش في شقتها التي استأجرتها باسمها. وبعد أيام حصل آدم اللبناني على جواز السفر الرصاصي، الذي يمنح للمقيمين بشكل رسمي في ألمانيا،

وانتقل للعيش معها في مدينة أيسن، إلا أن الحياة الجديدة التي بدأت حواء المؤمن تعيشها في أيسن كانت مملة، وفارغة، وتافهة، وكانت تشعر بأن روحها بدأت تتقيح.

إستغربت من نفسها كثيرا، فقد صارت لا تحب ممارسة الجنس مع زوجها، بل منذ تلك الليلة التي جاء فيها مخموراً ليضاجعها، أحست بالنفور منه، لكنه لم يكن يعرف ما يجول في أعماقها، لذا كان يريد أن يفرض سيطرته عليها بإشباعها جنسيا، فكان يأتيها في أوقات مختلفة. في المطبخ بينما هي منهمكة بإعداد الطعام كان يأتيها من الخلف ويضجعها للأمام ثم يولجه فيها من الخلف، وأحياناً كان يدخل عليها حينما تكون في الحمام، فكان يتعرى بالكامل ويدخل عليها وهي عارية تحت الماء. وأحياناً كان يأتيها في الليل وهي نائمة، فيقلبها ويولجه فيها من الخلف، وحتى حينما كانت تبدأ بالتهيج، فأنها كانت تفكر بأي شيء آخر حتى تبعد نفسها من التجاوب معه، وكان هو يستغرب حالتها الجديدة، وقد فكر في السبب، لكنه لم يجد تفسيرا سوى أنها مزاجية، وهي حامل، وربما أثر الحمل على نفسيتها.

كان الحمل قد أثر عليها فعلاً، إذ بدأت ملامح التغيير على جسدها، حيث بدأ صدرها يكبر، وبطنها تبرز يوما بعد يوم، وأخذت تميل للصمت أكثر، حتى صارت تمر أيام وليال دون أن يتبادلا أية كلمة، وقد أثر ذلك على مزاج آدم اللبناني، فصار يغادر البيت صباحا ولا يأتي إلا في نهاية الليل، وكثيرا ما كان يأتي سكرانا فيقوم بمضاجعتها بأي طريقة تعجبه، ولا يهمه إن كانت صاحية أم نائمة. وذات ليلة أجبرها على أن تأخذ عضوه بفمها، فأبت ذلك، فأخذ يضغط على فمها، ويدخل عضوه في فمها عنوة، وحينما تمكن من ذلك، أفرغ ماءه على وجهها. فدفعته بقوة. تعجّبَ أن تكون امرأة مثلها تمتلكها، وأسرعت إلى الحمام لتغسل وجهها وفمها، وتتقيأ هناك، كل قذارات أيامها.

ظل آدم اللبناني يفكر لأيام في هذا التحول الذي طرأ عليها. فلقد كانت تشتعل من لمسة واحدة، بينما الآن يقضي وقتا طويلا معها، ويولجه فيها مرات ومرات وبمختلف الأوضاع، ولا تبدر منها أية حركة تجاوب، بل تكون كالجثة الحية. لم ييأس منها. أخذ يقضي معظم لياليه عند بيت العم، وأحيانا كان ينام هناك. بل صار يغيب عنها أياما، ولكن بالرغم من أنها صارت تحس بكره له، وتشمئز منه، إلا أن بعض مشاعر الغيرة بدأت تتسرب إلى نفسها. لقد كانت مغتاظة من زوجة عمه وبناتها، فقد كن يتهامسن حولها، وحينما تتواجد يقطعن الحديث الذي يدور بينهن، لذا فهي لم تزرهم منذ استقلت في بيتها، وعندما جاءوا ذات مرة، قامت بما يلزم من واجبات الضيافة لكن ببرود. بعدها

انقطعت العلاقة بينهم بالكامل. ولكي تبُعد زوجها عنهم، فكرت بأن تهجر هذه المدينة وتنتقل لمدينة أخرى بعيدة عنهم. فكرت بأن عليها إقناع زوجها، وهذا يعني بأن تتساهل معه قليلاً. وذات ليلة انتظرته. أعدت عشاء شهيا من الرز والفاصوليا، ومن السلطات اللبنانية الشهية. وجلست تشاهد التلفزيون إلى أن وصل. والغريب أنه لم يكن سكرانا تلك الليلة.

حين فتح الباب ولمحها جالسة تشاهد التلفزيون أحس بأن شيئا غير عادي قد جرى. أحس بالقلق، فدخل وسألها مستفسرا:

– هل حدث شيء ما؟

نظرت إليه نظرة لطيفة وقالت بهدوء:

– لا.. لم يحدث أي شيء.

– غريب؟

– لماذا تستغرب. قل لي أولا، هل أنت جائع؟

– ليس تماما، فقد أكلت لحم بعجين عند الشباب، ماذا هل طبخت شيئا؟

– نعم.. طبخت الرز مع الفاصوليا التي تحبها.. وأعددت تبولة، لكن على طريقتي

– أوه.. ما الذي جرى؟ هل أنا في حلم أم علم؟

إبتسمت له وقالت بدلال:

– أنت في علم طبعا. أجلس. سآتيك بالطعام، وبعدها أريد أن أناقش معك موضوعا.

– يا ساتر يا رب.. أي موضوع؟

– لتأكل أولا..

– وأنت ألا تأكلين؟

– أنا لا أستطيع الأكل، نفسي تنقبض، وتأتيني حالة التقيؤ إذا أكلت، لكني أكلت بعض السلاطة.

قامت من مكانها وذهبت إلى المطبخ، بينما جلس هو على الأريكة التي تحتل الجانب الأكبر من الغرفة. لم تمض لحظات طويلة حينما دخلت حاملة صينية الطعام، ووضعتها على الطاولة الصغيرة، وجلست هي على كرسي آخر يبعد عنه قليلا. كان هو يأكل بشهية، صامتاً، مفكرا بما ستقوله، مقلبا الفكر عن الموضوع الذي يشغلها، والذي جعلها تنتظره إلى هذا الوقت وتعد له العشاء؛ لذا استعجل في الأكل ليسمع منها ما تود قوله.

رفعت حواء المؤمن الصينية، وكانت خلال فترة إنشغاله بالأكل قد جهزت الشاي. تأخرت قليلا في المطبخ. كان هو ينتظر بقلق. لم يكن ينتظر خيرا من أي موضوع ستفتحه، لأنها كانت تعامله بإهمال شديد، ولا تكترث له، ولا تتجاوب معه، فماذا ينتظر منها؟

دخلت هي حاملة صينية صغيرة فيها استكانان من الشاي، وضعتهما أمامه، أخذت منهما استكانا لها. نظر إليها وفي عينيه استفسار وانتظار لما ستقوله، ولما طال صمتها سألها:

– قولي.. ما الموضوع؟

صمتت لحظة. نظرت إليه بتفحص، وقالت:

– لماذا لا ننتقل إلى برلين؟

صمت للحظات، وكأنه صفع من حيث لا يدري. لقد كان يتوقع حديثا عن سكره المستمر، عن تأخره الدائم ومبيته خارج البيت، عن المبالغ التي يستلمها كمساعدة إجتماعية وينفقها هو على ملذاته وحياته الشخصية، بحيث أنها تتحمل كل أعباء البيت من نفقات.لم يكن يتوقع أن تأتيه بمثل هذا الإقتراح. فكر لدقائق مع نفسه. كانت هي تنظر إليه وهو يفكر مع نفسه دون أن ينظر إليها، وأخيراً رفع رأسه إليها وقال:

– إقتراح جيد. برلين.. برلين.. لكن كيف توصلت إلى هذه الفكرة؟

– لا أدري كيف.. لكني فكرت بمستقبلنا.. أنا حامل.. وسنرزق بطفل، وهنا لا أمل للعمل.. هناك في برلين نستطيع أن نكون أنفسنا. هناك مجالات أوسع للعمل الأسود والرسمي. وربما أستطيع أنا أن أعمل بعد فترة من الولادة.. هنا، وما دمنا قريبين من المعارف فأننا سنظل ندور في فلكهم ولا نستطيع أن نكون أنفسنا.. ولا تنظر لبيت عمك، فعمك مع بناته الثلاث وزوجته يستلم مساعدات إجتماعية تعادل راتب موظف ألماني كبير، هذا إذا حسبنا السكن والتأمين الصحي، ومعونة الشتاء والصيف؛ نحن بالكاد نكفي حالنا..

كان هو ينظر إليها متمعناً في ملامحها، راصداً كل تحولات ملامحها ونبرات صوتها، باحثا عن شيء خفي تبطنه غير هذا الكلام المنطقي والصحيح الذي تعتمده كحجة لتأكيد مقترحها، لكنه وجد أنها متحمسة لمقترحها وتحاول أن تقنعه بشكل صحيح، وأنها ليست أكثر من أم تحاول أن تضمن مستقبلاً أفضل لطفلها، وأن تبتعد عن كل ماضيها. حينما صمتت نظر إليها مباشرة، إلتقت نظراتهما، لكنه لم يقل شيئا، كانت تنتظر أن يقول شيئا، ظل للحظات ينظر في أعماق عينيها، ثم قال بهدوء وكأنه يسألها:

– هـذا الأمـر يحتـاج إلـى تفكيـر. قبـل كل شـيء يجب أن نجد لنا سـكنا هناك في برليـن. وهـذا يعنـي علينـا الإتصال بمعارفنا هناك. أنا أعرف الكثير من الأصدقاء هناك، وربما سيوفرون لنا السكن في البداية إلى أن نجد لنا مكاناً نستأجره.

– عظيم..

كان هو مستأنساً بفكرة الإنتقال إلى برلين. كيف لم تخطر هذه الفكرة على باله منذ البداية. لقد كان يحلم أن يعيش في برلين. لقد سافر مرة إلى هناك، وعاش أجمل أيامه منذ دخوله إلى ألمانيا. الآن، وبعد حصوله على الإقامة، بإستطاعته الإنتقال للعيش في أي مدينة أو مقاطعة من ألمانيا.

كانـت هـي تنظـر إليـه وهـو مسـتغرق في أحلامٍ يقظته عن برلين. فكرت مع نفسـها أن عليهـا أن تشـد مـن عزيمتـه وألا تتـرك لـه مجالاً للتردد أو لمناقشـة الفكرة مع عمه، لأنه بالتأكيد سيعترض على إنتقاله إلى برلين. إذن عليها أن لا تتركه وحده. قالت له:

– هل لديك أرقام تليفونات أصدقائك في برلين؟

فوجئ بسؤالها، فقال:

– نعم.. لكن علي أن أفتش عنها. ربما هي في دفتر تليفوناتي الذي في غرفة النوم.

قام من فوره ودخل غرفة النوم. وبعد لحظات عاد وبيده دفتر صغير، وكان مبتهجا، ففكرة إنتقاله إلى برلين ولقائه بأصدقائه منحه البهجة. قال لها وكأنه يمسك أشياء ثمينة:

– كل أرقام تليفونات أصدقائي في برلين هنا.

– ألا تستطيع أن تتصل بهم الآن؟

نظر إلى السـاعة الحائطية التي كانت تشـير إلى السـاعة الحادية عشـرة ونصف ليلاً، وقال:

– الوقت متأخر الآن، لكن لأجرب الإتصال ببعضهم. هناك تليفون عند ركن البناية سأنزل حالا.

حينما خرج من الشـقة، أحسّـتْ حواء المؤمن بسـلام غريب يروي أعماقها القلقة. وللحظة أحسّت بعاطفة نحو آدم اللبناني، وقررت مع نفسها أن تكون لطيفة معه الليلة في الفراش، ولهذا توجهت إلى غرفة النوم وفتحت الدولاب الخشبي الرخيص الذي تم شراؤه مع بقية الأثاث عندما انتقلت رسميا إلى هذه المدينة، بل ووفرت شيئا من المال الذي حصلت عليه من دائرة المساعدات الإجتماعية. أخرجت عيدانا من البخور كانت قد اشترتها من الدكان التركي الذي اعتادت أن تبتاع منه ما تحتاج لحياتهما المعيشية، كما رشـت نفسـها بعطر نسـائي طيب الرائحة، ودخلت غرفة الحمام فغسـلت أسـنانها،

وتحت أبطيها وبين فخذيها. وجلست تنتظره. مر وقت قارب الساعة، حينما سمعت صوت الباب وهو يُفتح، وخلال لحظات دخل زوجها وعلى وجهه إبتسامة عريضة، وقال، وهو يرفع كفه مادا إصبعين منها مشكلا حرف (V)، وهي علامة الإنتصار التي إعتاد عليها المقامون الفلسطينيون واللبنانيون. لم تفهم هي شيئا من هذه الحركة، لكنها نهضت بكل قامتها وهي تنتظر أن يخبرها، فقال وهو يرقص دائرا بجسده حول نفسه، وقال:

– لقد أنجزت كل شيء بالتلفون. صديقي أبو قابيل قال لي تعال من الغد وسنجد لك مسكنا وبيتا.

قال لي بأنه يسكن في منطقة يكثر فيها الأجانب واليساريون الألمان، تسمى كرويسبورغ. وإن هناك الكثير من الشقق في هذه المنطقة، وإن لديه الكثير من العلاقات، المهم علينا السفر إلى برلين. ومن الغد.

– من الغد؟

– نعم.. من الغد. ماذا، ألا تريدين أن ننتقل إلى برلين من الغد؟

– بلى أريد. لكن هل أنت متأكد من أصدقائك، بأنهم سيوفون بوعدهم؟

– طبعا.. أبو قابيل كان معي في المقاومة، لكنه ترك مثلي، وجاء إلى ألمانيا.

– وماذا يفعل الآن؟

– لا شيء.. لكنه يقول بأن شغله جيد.

– وماذا يعمل؟

– لم يقل لي أي شيء عن عمله، وإنما قال إن أموره جيدة، وإنه سيجعلني أعمل معه حينما نسكن في برلين.

كانت تشعر بشيء من الفرح لأول مرة من بعد ذلك اليوم المشؤوم الذي دخل عليها زوجها الدكتور آدم التائه وهي في ذلك الوضع المشين. لأول مرة تحس بأنها تجد ثمة ضوءاً بعيداً في هذا النفق الذي هي فيه، لكن مهما يكن، فالضوء هناك، بعيد لكنه موجود.

وبدون تخطيط مسبق، وبعفوية، احتضن آدم اللبناني حواء المؤمن، وأخذ يقبلها من وجهها، ثم من عنقها، ثم أخذها إلى الفراش، وبهدوء رفع ثوبها الذي اكتشف بأنها لم تلبس شيئا تحته، أي أنها كانت مستعدة لذلك، وهذا ما أدركه منذ اللحظة التي احتضنها وشم رائحة عطرها.

لم تكن تشعر بالتهيج والرغبة معه، لكنها منحته نفسها برضاها، وتجاوبت معه

مصطنعة الرغبة. في تلك اللحظة بالذات، ولا تعرف تفسيرا لذلك، طرأت فكرة العاهرات في ذهنها، وسألت نفسها وهي بين أحضانه، كيف أنهن يمثلن الرغبة، يصطنعن اللهاث الشبق. لقد أحست وكأنها تمثل دور عاهرة، لكنه زوجها، هكذا قالت لنفسها.

بهدوء إنسلت من مكانها، وذهبت إلى الحمام. ولأول مرة أحست بأنها تريد الإغتسال بعد الممارسة، فنزعت ثوبها، ودخلت تحت دش الحمام.

حينما دخلت إلى غرفة النوم ثانية، سمعت شخيره. إستغربت منه، كيف أنه يكاد يكون بلا هموم. ليس لديه سوى الأكل والمضاجعة، والتسلية، بينما حينما يتحدث، تراه يتبجح بسنوات المقاومة، وذكرياته عنها.

في أعماق الليل، وبينما كانت حواء المؤمن نائمة بعمق بعد أن تعبت من التفكير ببرلين وما ينتظرهما هناك، أحست بأن هناك من يضربها. فتحت عينيها في الظلمة وهي تبسمل، وتستعيذ بإسم الرحمن الرحيم. لم يكن هناك من أحد، بل ولم يكن حلما. لكن هناك من أيقظها من نومها بضربة خفيفة حقاً. ومرة أخرى مستها تلك الحركة الناعمة. فجأة، فهمت كل شيء. إنه الجنين في رحمها بدأ حركته الأولى. أحست بفرح غامر وسعادة لا توصف. أرادت أن توقظ زوجها الذي يشخر، لكنها فكرت بأنه لن يهتم لذلك. إسترخت، وهي تضم يديها على بطنها. وتبتسم لنفسها في الظلمة، إلى أن مست أنامل النوم جفنيها.

سأل آدم المحروم نفسه: لماذا لم يعلق صديقي على هذا الفصل؟

برلين – كرويسبورغ

لم تصدق حواء المؤمن عينيها وسمعها، حينما أفاقت من النوم لترى زوجها آدم اللبناني يناديها بأن تنهض، إذ عليهما الإسراع بالفطور ثم التوجه إلى برلين. ربما هذا هو اليوم الأول خلال الأشهر التي عرفته فيها، تراه ينهض مبكرا، فحتى حينما كان جارهم، ولم يكن بينهما أية علاقة، كانت أغاني فيروز يأتي صوتها إلى شقتهم بعد الحادية عشرة صباحا في أحسن الأحوال، فكانت تعرف أنه استيقظ تواً من النوم. نهضت بمهل. وكانت، بالرغم من أنها لم تشبع من النوم، سعيدة. أرادت أن تقول له بأن الجنين بدأ حركته الأولى، ورفسها ليلة أمس، لكنها احتفظت بهذا السر لنفسها وكأن ذلك ليس شأنه، وإنما هو حوار سري خاص بينها وبين جنينها.

كانت تحس بنشاط غير عادي، وكأن دفق الحياة بدأ من جديد يسري في كيانها.

مـا أجمـل هـذه الأحـداث التـي حصلت من ليلـة أمس وإلى هذا الصباح. فها هي أخيرا تشـعر بحركة الجنين. صحيح أنها كانت تعرف بأنها حامل منذ شـهور لكنها لم تشـعر حقـا بوجـوده إلا الآن، بعـد أن بـدأت تشـعر بحركتـه في أعماقها. طاف، فجأة، ظل من الحزن على نفسها، لأنها كانت تريد هذا الطفل من زوجها الدكتور آدم التائه وليس من هذا الذي صار الآن زوجها، لكنها تجاوزت هذا الطيف ولم تتوقف عنده كثيرا، ففرحتها بحركة الجنين في أعماقها أمدها بشعاع من الأمل والفرح، لاسيما وأنها الآن وبسهولة شـديدة لم تكن تتوقعها أقنعت زوجها بالإنتقال إلى برلين، بل ولم تتوقع منه أن يبادر على الفور بترتيب مسلتزمات هذا الإنتقال. وها هو كما يبدو أكثر حماساً منها بالسفر إلـى برليـن. فليلـة البارحـة حينمـا قـال لها بأن أحد أعز أصدقائـه قابيل قال له تعال من الغد، فأنه سوف يبادر، بل لقد فكرت هي بأن لا تدعه يناقش الموضوع مع عمه، وعليها أن تقنعه بالسفر غداً، وها هو الغد جاء، بل وتراه هو الذي يوقظها للسفر إلى برلين.

بينما هي ما زالت في السرير أحست بأن ثمة تغييراً كبيراً قد طرأ عليها، وبأن رأسها صار خفيفا وكأنها أفرغت جمجمتها من ركام الأفكار السـوداء. فكرت مع نفسـها بأن الإنسـان كائـن غريـب حقـاً، إنـه يقضـي وقتاً طويـلاً من عمره، يمتد لأيام، لأشـهر، بل لسـنوات، مركزا على قضية، أو موضوع، أو حالة نفسـية أو فكرية، أو حتى إجتماعية، وفجأة، يستيقظ ذات يوم وكأن كل شيء قد تم إلغاؤه ومحوه نهائيا. إذ يستيقظ الإنسان وكأنه ولد من جديد، لا يتذكر شيئا، بل حتى إذا ما تذكر فإنه يتذكره وكأنه شيء قديم، قديم جداً، ولا يعنيه الآن أي شيء، وما عليه سوى نسيانه إلى الأبد، وكأن الذي عانى، وتألـم، وفكـر، وتمـزق، ليـس هو وإنما إنسـان آخر، ربمـا كان هو، لكنه لا يعرفه الآن، ولا يريد أن يعرفه. وهذا ما كان من أمرها حين اسـتيقظت وكأنها تولد من جديد. بل إنهـا تـكاد تحـس بالفـرح يخنقها، إذ شـعرت بأن أنفاسـها تتقطـع، وأنها لا تعرف كيف تستطيع أن تعبر عن فرحها.

نهضت على وجهها إبتسامة مشرقة، وفي نظراتها تساؤلات غامضة، لكنها تساؤلات طيبة ومسترخية، وليست تلك التساؤلات التي تمنح وجه الإنسان قلقاً حيوانياً، وتشوه ملامحـه، وتحيطـه بدائـرة غيـر مرئيـة، دائـرة تمنـع الآخر من التواصـل معه. مضت إلى الحمـام. غسـلت وجههـا، لكنهـا لأول مـرة تقـف أمام المرآة لتنظر إلى نفسـها. لمحت بعض الترهل تحت عينيها، وانتبهت إلى شعرها الذي بدا متآكلا من أطرافه. نزعت عنها حجاب الرأس فرأت أن شـعرها مهمل. فكرت عليها أن تهتم بنفسـها، وسـتبدأ حياتها

الجديدة في برلين، لكنها لم تفكر أن تترك حجاب الرأس. أحست أنها قد تعودت عليه. على الأقل لا تستطيع الآن تركه. سترى ما ستأتي به برلين وعالمها المثير. انتبهت إلى صوت زوجها يناديها:

– ماذا هناك؟ هل نمت؟ علينا الإستعجال بالسفر. هل تسمعين؟

– نعم.. نعم.. أنا قادمة.

وخرجت مسرعة لتعد الفطور.أسرعت لإعداد الشاي، وفتحت الثلاجة فأخرجت الجبن والزيتون، وقطعة خبز تركي، أخذت تسخنه على قطعة صفيح وضعتها على الطباخ. بينما كان زوجها منشغلا بإعداد حقيبة السفر. ومن غرفة النوم ناداها:

– هل ستأخذين الكثير من الملابس؟

– لا أدري

– لقد قال قابيل لي لا تحمل الكثير من الأشياء، لأن كل شيء متوفر، لم أفهم ماذا يقصد؟

– وأنا لا أفهم ماذا يقصد أيضا. دعنا نأخذ أقل ما يمكن.

– تعالي إذن لتضعي في الحقيبة ما تريدين أخذه معك.

– سآتي حالا.. لأسخن الخبز أولاً.

إنتبهت حواء المؤمن أنها لأول مرة منذ أن تعرفت على آدم اللبناني تحدثه بسلاسة ودونما توتر وكأنها تعرفه منذ زمن طويل. إبتسمت لنفسها. سحبت قطع الخبز الساخنة ووضعتها في الصينية، وكذلك وضعت صحن الزيتون، وفتحت الخزانة التي تعلو الطاولة التي تمتد في المطبخ (الكاونتر) فأخرجت علبة الشكولاته مع الزبدة (نوتيلا) مع سكين. وجهزت الصحون والاستكانات. حملت الصينية إلى حيث يجلسان عادة للأكل. ودخلت الغرفة لتختار ما ستأخذه معها إلى برلين، قائلة له:

– إذهب وأفطر.. كل شيء جاهز.

– وأنت؟

– أنا لا أشتهي. سآتي حالا.

لم تكن تعرف ماذا تأخذ معها إلى برلين، لأنها أساساً لم تكن تعرف كم سيبقيان هناك إلى أن ينتقلا بشكل نهائي. لكنها كانت تعرف شيئا واحدا هو أن تأخذ القرآن معها، ففتحت الدولاب الكبير وأخرجت كتاب الله. قبلته ووضعته على جبينها تكريما، ثم وضعته في الحقيبة. انتبهت إلى أنها تحب أن تكون نظيفة من الداخل فأخذت أكبر عدد من السراويل الداخلية، كما وضعت بعض فوط الرأس التي تستخدمها لتغطية

شعرها، وخرجت.

كان آدم اللبناني قد التهم الجبن والزيتون، وصب لنفسه الشاي، وكان حينما دخلت عليه يمسك سكينا قد غمسها في علبة الشكولاتة ويحاول طلي الخبز بها. إبتسمت مع نفسها لأنها شعرت به كالطفل الصغير الذي يحتفي بالطعام ويغرم بالشكولاتة.

حينما وصلا محطة القطار الرئيسية في المدينة ذهبا مباشرة إلى قاعة بيع التذاكر، وطلب هو تذكرتين إلى برلين بإتجاه واحد، لأنه أيضا لا يعرف كم سيمكثان هناك. وحين قدمت الموظفة البائعة له التذاكر صدم حينما سمع ثمنها بالكامل. لم يكن لديه المبلغ كله، فالتفت إلى زوجته وطلب منها أن تعطيه ما يمكن أن يسد به ثمن البطاقتين فأعطته ورقة نقدية زادت، مع المبلغ الذي عنده، عن ثمن البطاقتين، فأخذ الباقي ووضعه في جيبه. وأخذا يسرعان إلى الرصيف المحدد، لأن القطار القادم والمتجه إلى برلين لم يبق على وصوله للرصيف سوى عشر دقائق. أسرعا، بالرغم من أنها كانت حذرة في مشيتها، لأنها كانت تخاف على حملها. صعد هو السلم مع الحقيبة قافزا الدرجات، بينما وقفت على المصعد الكهربائي الذي صعد بها بطيئا. نظر إليها بغضب مع أنفاسه المتقطعة من شدة الصعود.

حينما وصلا الرصيف لم يكن القطار قد وصل لكنهما سمعا النداء بدخوله المحطة. من بعيد رأت القطار السريع قادما. أحست بشيء من الخوف، وكأن القطار كائن خرافي قد جاء إليها. لم تر أي سائق للقطار في العربة الأولى التي تقود القطار. أحست وكأنها لمحت ذلك المخلوق الفضي المائل للزرقة المخضرة الذي حضر في غرفتها وتحدثت معه قبل أشهر عديدة. أحست برعشة هزت جسدها لثوان. كان الهواء الهاب مع قدوم القطار قد أنعشها قليلا، لكن رؤيتها لذلك المخلوق أربكت وضعها النفسي المستقر منذ الصباح.

تذكرت كلمات ذلك المخلوق، الذي ظهر لها في غرفة نومها المشتركة مع زوجها الدكتور آدم التائه، بأنه يعشقها ويريدها زوجة له، وأنه سشبعها بما لديه من قوة ومن عضو كبير. خافت من هذه الرؤية. أحست بشيء غير مريح، فقد اختفى ذلك المخلوق نهائيا، ولم يظهر بعدها أبداً، بالرغم من أنها انتظرته طويلا، لأنها كانت تحتاجه حينها، لكنها الآن لا تريد رؤيته، فلماذا ظهر مجدداً؟

صعدت القطار ولديها هاجس خوف من القادم، بالرغم من أنها كانت إلى لحظات قبل مجيء القطار ذات مزاج جيد، بل وكانت سعيدة لما وصلت إليه وحققته، ولما طرأ عليها من تحولات نفسية منذ حركة جنينها الأولى.

كان القطار مزدحما على غير عادته، فلم يجدا لهما مكانين شاغرين إلا بصعوبة، وبعد أن عبرا بعض العربات. لكن الركاب برغم الزحمة كانوا ساكنين كالموتى، فكلما كانوا يدخلون عربة باحثين عن أماكن شـاغرة كانوا يرون الركاب يجلس كل منهم في مكانه، أما في حالة نوم، أو مغمض عينيه، أو جامد النظرة، ساكن الوجه، إلى أن وجدا مكانين شاغرين لهما في العربة الأخيرة. خلال الرحلة لم يسمعا صوتا بشريا قط، فحتى محصل البطاقات وصل إليهما بحركة ساكنة ووقف عندهما دون أن ينطق بكلمة واحدة، فمد آدم اللبناني البطاقات إليه فكبس عليها بمثقاب يحمله ومضى بحركة آلية وساكنة.

لم تدم السفرة بين مدينتهم وبرلين سوى أربع ساعات وربع. وبالرغم من أن حواء المؤمن كانت تشعر بالنعاس إلا أنها لم تستطع النوم، فقد ظلت تنظر من خلال النافذة للطبيعة الألمانية الجميلة، وتنظر إلى الناس الجامدين في المحطات. كان النازلون من القطار أو الصاعدون إليه، يبدون وكأنهم جثث تمشي، إذ لا حياة في العيون، ولا تعابير وداع أو تهاليل لقاء. لم يكن آدم اللبناني قد انتبه لما حوله مثلما انتبهت هي، فهمست في إذنه، بأن الناس هنا يبدون كالنيام، أو الجثث الماشية، أو كأنهم مبرمجون. أخذ هو يحـدق فـي الـركاب، ثـم في النـاس حينما يقف القطار في محطة إحدى المدن، فأحس بالرهبة مما يجري حوله، ولكي يخفي خوفه بدأ يردد أغنية شهيرة لمارسيل خليفة من شعر محمود درويش، وبصوت مسموع، بحيث التفت بعض الركاب التفاتة واحدة دون أن يعلقوا شيئا، سوى البحلقة بعيونهم الجامدة، بينما تعالى صوت آدم اللبناني بحيث صار مسموعا جدا:

أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وتكبر فيّ الطفولة

يوماً على صدر يومِ

وأعشق عمري

لأني إذا متُ

أخجل من دمع أمي.

كان المشهد غريبا، أن يغني أحدهم في القطار وبصوت عال، لاسيما بالنسبة للألمان المعروفيـن بمبالغاتهـم بحقـوق الفـرد. الغريب أنهم لم يعلقـوا ولم يعترض أحد منهم، لاسـيما بعد أن مسـتهم لمسـة الحزن في صوته. كان صوته شـجيا، وكان يغني بعاطفة جياشة، حتى أن الدمع ترقرق في عيني حواء المؤمن، فأخذت كفه بين كفيها وضغطت عليهمـا. كانـت تعـرف أنـه خائـف مثلها، لكن بقايا جـذوة المقاومة ما زالت في داخله، والتي ظهرت في مثل هذا الموقف. أحست به، أحست بعمق الأسى الذي يختزنه في أعماقـه، بـل لقـد أثارتهـا هـذه الأغنية، فهي لم تسـمعها من قبل، بل لم تسـمع بكلمات بسيطة ومعبرة وعميقة، تمس القلب والمشاعر مثل هذه الكلمات. انتبهت إلى أن الركاب أداروا رؤوسـهم إلى الأمام ثانية ولم يعيروه اهتماماً. وحينما نظرت في وجه آدم رأت الدمع في عينيه، فقالت له هامسة:

- أتبكي؟ تقول إنك تخجل من دمع أمك، بينما أنت تبكي.

فقال وهو يغطي وجهه بالمقعد الذي أمامه، وقد نزل خيط من الدمع على وجهه:

- لا أدري لمـاذا تذكـرت هـذه الأغنيـة، وتذكـرت أمـي. ما الذي جـاء بنا إلى هذا الكابـوس؟ أنـا فعـلا أحـن إلـى خبز أمي وقهوة أمي ولمسـة أمـي.. وليس الأمر أغنية فحسب.

- إنها أغنية مؤثرة جداً.

لأول مـرة تحـس أنهـا قريبـة مـن آدم اللبناني إلى هذه الدرجة. ولأول مرة تكتشـف الوجـه الآخـر لـه، الوجـه الطفولي، الطيب، الحنون، فهو ليس فقط هذا المغامر، الدون جوان، الفاسـق، الداعر، الانتهازي والوصولي، والخائن للجيرة والصداقة والقيم، كما عرفته سابقا، وإنما هو إنسان يخفي في داخله هموماً وأحزاناً وذكريات جارحة، وطيبة، دفنت تحت ركام نفايات الغربة القاسـية. وبدون أن تشـعر أخذت رأسـه إلى صدرها، احتضنته بذراعيها، فألقى رأسه على ما بين كتفها وصدرها، وظل ساكنا إلى أن دخلوا مشارف برلين.

فـي المحطـة التـي تسـبق المحطـة التي يفتـرض أن ينزلا فيها حسـب إتفاق زوجها الحالي مع صديقه قابيل، وهي محطة (تسو بانهوف)، وهي نفس المحطة التي وصلتها هي وزوجها الدكتور آدم التائه قبل ثلاثة أعوام، انتبهت إلى أن جميع الركاب قد نزلوا. لم يبق في العربة سواهما، حتى أنها شكت بأن القطار قد وصل محطته النهائية، فأيقظت زوجها لتسـأله، ولكن قبل أن تسـأله تحرك القطار. انتبه زوجها إلى أن المحطة القادمة ستكون محطتهم، فتحرك معها ووقفا قرب بوابة العربة تحضرا.

كان القطار فارغا، وبعد دقائق قليلة جدا دخل القطار المحطة المنشودة. كان القطار يسير وكأنه بلا صوت، أو بصوت مكتوم، وما أن دخل محطة (تسو بانهوف) حتى تعالى صوته فجأة. وما أن توقف القطار، وفُتحت أبوابه، حتى تعالت ضجة الحياة. حينما نزلا، رأى آدم صديقه قابيل فورا. كان ينتظرهما. تعانقا عناقا حارا، ثم مد الصديق يده مصافحا حواء المؤمن التي قدمها آدم كزوجته. وسارا هابطين الدرج مغادرين القطار الغريب.

يسكن قابيل في منطقة (كرويسبورغ) وهي منطقة كبيرة جدا، يحتل الأجانب معظمها، أتراك وعرب وروس وأكراد وشيشان وبولونيون وقوميات أخرى، إلى جانب ألمان من التيارات اليسارية المختلفة، وهي منطقة تكثر فيها المخالفات والجريمة. هنا تباع المخدرات، وهنا عصابات المافيا، وهنا تواطؤات رجال البوليس مع العصابات. هنا التنظيمات السياسية المتطرفة والمعتدلة، وهنا عصابات السرقة المنظمة، هنا لا يمكن الإلتزام بإشارات المرور أو أنظمة السير، وهنا يمكن شراء أي سلعة بنصف ثمنها، سلع مسروقة من المحلات. وهنا خليط من ثوريين، وفوضويين، وثوريين سابقين ولصوص حاليا، ومجاهدين إسلاميين، ومؤيدي حزب العمال الكوردستاني، وبقايا المنظمات الفلسطينية، وشيوعيين عراقيين تركوا السياسة، أوممن لا يجد ما يلهي نفسه سوى بالسياسة. هنا جمعيات الإسلاميين المتطرفين، هنا خلايا القاعدة النائمة، وهنا أتباع آل البيت. هنا المساجد والحسينيات، وهنا أماكن بيع المخدرات، والمطاعم الشرقية بكل أنواعها وجنسياتها. هنا يتم الإصطدام بين الشبيبة اليسارية يوم الأول من أيار، ومن هنا تنطلق التظاهرات ضد البنك الدولي وإجراءات الحكومة التقشفية، وهنا يصطدم النازيون الجدد بالشبيبة الفوضوية واليسار المعادي للنازية الجديدة. هنا الوجه الآخر لبرلين. وهنا يعيش أبو قابيل. وإلى هنا وصلت حواء المؤمن وزوجها آدم اللبناني. ومن هنا دخلت إلى عالم برلين الصاخب والمثير.

وصلوا إلى منطقة نويه كولن التي هي من الأحياء الرئيسة في منطقة كرويسبورغ، وإلى شارع هيرمان شتراسه بالتحديد حيث يسكن قابيل، مضيفهم المرح الذي استقبلهم في المحطة، ومن ثم أقلهم بسيارته الجديدة، والذي لم ينقطع عن الحديث والنكات، وشتم الجميع، والسخرية من الجميع، خلال طريقهم من المحطة إلى شقته، أحست حواء المؤمن أن الحياة بدأت ترجع لها، فالجميع هنا أجانب تقريبا، بل إن المطاعم التركية والعربية، والمقاهي التي على الرصيف، واللافتات التي تجد فيها كلمات عربية، أو فارسية، منتشرة هنا بشكل بارز. أحست بالألفة وبأن هناك بدايات لإنتظام إيقاع حياتها. أحست أن الفرح والخير ينتظرها في هذه المدينة، بالرغم من أنها لم

تفكر بالإنتقال إلى برلين بالتحديد، وإنما كانت تريد أن تبعد زوجها عن بيت عمه، وأنها أقترحت برلين باعتبارها المدينة الأبعد حسب معرفتها، ولأنها كانت في هذه المدينة أول ما وصلت، وما تزال تتذكر الإنبهار الذي غمر روحها أول ما خرجت من المحطة في أول يوم وصولها إلى برلين قبل سنوات. إذن كان اختيارها لبرلين وكأنه إشارة من الغامض المجهول الذي يقرر المصائر ويسّير أقدار الناس حسب إرادته العظيمة واللامتناهية. هكذا فكرت وهي تدخل شقة قايبل بعد زوجها، وقد سبقهم مضيفهم نفسه.

وما بين شرب الماء البارد أو العصير، وهي عادة شرقية عند دخول ضيف ما، وتبادل التحايا والتعبير عن الأشواق، طلب قابيل الطعام من مطعم لبناني قريب، مؤكدا لهم بأن الإنسان يستطيع ألايطبخ لأسابيع، فكل شيء جاهز ويمكن بالتلفون أن يحملوه إليه إلى باب البيت. وبالرغم من أنها قد سمعت بذلك لكنها لم تجربه، وما أن انتهوا من الحديث العام والمجاملات، طُرق الباب، فقام وهو يقول لآدم صديقه بأن يحضّر الصحون فالطعام قد وصل.

قامت حواء المؤمن بتهيئة كل شيء. جلس قابيل وآدم اللبناني في الصالة المفتوحة على المطبخ، وكانا يريانها وهي تحاول أن تتعرف على المطبخ وتعد المائدة، بعد أن أخرجت الكباب المشوي، وشيش الطاووق، والحمص والتبولة، ووضعت كل شيء في صحنه الخاص به، وما أن انتهت من إعداد المائدة حتى دعتهما لتناول الطعام.

كان الحبور والفرح باديين على الثلاثة. وبالرغم من أنها لا تستطيع الأكل بشهية كاملة، نتيجة لحملها، فأنها أحست بالراحة. وما أن انتهوا من الطعام حتى أرادت ان تعد لهم الشاي، إلا أن قايبل أعترض قائلا بأنه سيذهب مع آدم إلى المقهى القريب ليشربا الشاي ويدخنا النارجيلة، وبإمكانها أن تعد الشاي لنفسها، لإن لديهما ما يتحدثان به عن مسألة إنتقالهما إلى برلين، وحينما قالت بأنها تريد أن تشارك معهما أيضا، اعترض قايبل مؤكدا بأن هناك حديثاً خاصاً آخر بينهما، وفي كل الأحوال ستعرف بكل التفاصيل حين عودتهما. وخرجا.

بقيت حواء المؤمن وحدها. تجولت في الشقة، مستعرضة كل الغرف، بما فيها غرفة نوم مضيفهم، برغم ترددها في بداية الأمر لكن الفضول كان أقوى من التردد. إنتبهت إلى أن الشقة وسخة، وأن قايبل فوضوي وأشياءه مبعثرة، وملابسه غير مكوية. وأن الحمام وسخ، والمطبخ في حالة فوضى.

تمنت من كل قلبها لو أنها تسكن بشقة مثل هذه الشقة. فكرت مع نفسها عن طبيعة

عمل مضيفهم، كيف وهو الأعزب لديه شقة واسعة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام، بل ولديه سيارة جديدة، علما أنه، كما يبدو من طريقة حياته لايعمل، وهو لاجئ مثلهم؟.

أحست نحوه بشيء من الإمتنان لإستقباله الحار لهم، وتجشم مجيئه إلى المحطة ونقلهم بسيارته، واستضافتهم لديه في شقته، كما أحست أنها استلطفت شكله أيضا، فهو أسمر وليس أبيض كزوجها، وهو أكثر نحولا منه، ووجهه ليس حليقا، وله عينان كبيرتان وجميلتان، تكادان لجمالهما تختزلان الوجه كله، واستغربت أنه غير متزوج لحد الآن. فكرت ربما لديه صديقة ما، ألمانية أو أجنبية، أو حتى عربية، من يدري؟

جلست على الصوفا الجلدية البنية اللون لا تدري ماذا تفعل، وفجأة فكرت، كتعبير عن امتنانها، أن تنظف له البيت وترتب له المطبخ. وفعلا، قامت إلى المطبخ. فتحت الخزانة فوجدت مواد التنظيف الكيماوية وكيس للماسحات الإسفنجية، لكنها جميعها لم تفتح أو تُستعمل قط. بدأت بحوض الألمنيوم فغسلته وأزالت عنه الصدأ حتى بدا وكأنه جديد، كما رتبت القدور والصحون في الخزانة، ورتبت الشاي والسكر، وأكياس الشوربة الجافة والشعرية التي يبدو أنها وضعت للطوارئ. كما وجدت كارتونا مليئا بالبيسي كولا، فأخرجت بعضا منها ووضعتها في الثلاجة. ما أن انتهت من المطبخ حتى توجهت إلى الحمام، فقامت بغسل الحوض والمغسلة، ومسحت المرآة فيه، كما غسلت زاوية الحمام، وغسلت الزجاج الذي يحجبه عن بقية أجزاء المكان. وبعد ذلك توجهت إلى الصالة، فرتبت زوايا المقعد، وجاءت بمادة كيماوية رشت منها على زجاج الطاولة التي تتوسط الصوفا والمقاعد الجلدية المحيطة بها، ونظفتها. ولم تكتف بذلك حتى أخذت تفتش عن المكنسة الكهربائية، فوجدتها في غرفة صغيرة جدا بجانب الباب الخارجي تستخدم كمخزن لحفظ المواد والأشياء الزائدة. أخذت المكنسة وبدأت بتنظيف البيت والغرف جميعها، لذلك وجدت نفسها مضطرة لدخول غرفة نومه مجددا، فاضطرت لترتيب الفراش. دخلت إلى الغرفة الثانية فوجدتها مجهزة أيضا بسرير يسع لإثنين أيضا مع دولاب فارغ. فرتبتها أيضا حسب ما فيها. وبينما كانت على وشك الإنتهاء، فُتح الباب ودخل الإثنان. كانت الدهشة قد تجمدت على وجه مضيفهم، بينما ابتسم زوجها وكأنه فرح لمبادرتها. وبدون أيما كلمة، تجول قابيل في شقته، وهو يصفر ويقول:

– لا أصدق أنها شقتي؟ ماذا فعلت؟ وكأن أناملك سحرية؟ شكرا لك.

– ابتسمت حواء المؤمن وقد غمرتها الفرحة لإعجابه بما فعلت، وقالت:

– لا شكر على واجب. لقد كنت جالسة وحدي ففكرت أن أرتب البيت قليلاً..

– أنا خجلان من حالة الشقة.
– لا داعي للخجل.. إنك أعزب وهذه حالة العزاب تقريبا.
– أنا كنت أطلب من إحدى التركيات اللاتي يعملن في البيوت أن تأتي للتنظيف، وكنت أسلمها المفتاح وأخرج ثم أرجع بعد ساعتين فأجد الشقة نظيفة، لكنها انقطعت عن العمل لأسباب لا أعرفها. وأنا أيضا تكاسلت. وكما ترين تراكم الغبار والأوساخ.

تدخل آدم وهو يبتسم ويقول:
– لا تقلق بعد الآن.. لأننا لو انتقلنا إلى برلين، سنكون جيران، وهذا يعني أنها سوف تنظف شقتك أيضا.

نظرت هي باستغراب إلى زوجها، فهو يتحدث عن الجيرة، وهذا يعني أنهما قد قررا شيئا، لكنه أيضا يتحدث عن تنظيفها لهذه الشقة أيضا، ماذا أيريدها أن تعمل منظفة في البيوت؟ نظرت إليهما وقالت:
– يبدو أنكما قررتما أشياء كثيرة في المقهى، ماذا أسمع، سنكون جيران، ما معنى ذلك؟
– معنى ذلك، أن هناك شقة في نفس البناية تعود لعائلة تركية، سافرت إلى تركيا قبل أسبوعين، وظلت شقتهما فارغة، وهم يريدون تأجيرها، وسنؤجرها نحن، وصاحب الشقة صديق قابيل.

نظرت هي إلى قابيل وكأنها تستنطقه، فأكد ما قاله زوجها ناظراً إلى وجهها وكأنه يحاول أن يتغلغل إلى أعماقها لمعرفة موقفها:
– نعم.. هذا صحيح. جارنا الذي كان يسكن في الطابق الأعلى مني يريد تأجير شقته، لأنه قرر الذهاب إلى تركيا لفترة طويلة، لكنه لم يشأ أن يؤجرها لأشخاص لا يعرفهم، أو للألمان، فحينما يريد الشقة بعد سنة أو سنتين أو أكثر، أي بعدما يرجع، فأنه، حسب القانون، لن يستطيع إخراج المؤجر بسهولة، لذا فأنه قرر أن تبقى خالية ولا يؤجرها بحيث يتورط بالمؤجر في ما بعد. وقد ترك المفتاح عندي، وأعتقد سيوافق على تأجيرها لكم، لاسيما إذا كتبنا في العقد بأنكم ستخلون الشقة عند حاجة صاحبها. وقد اتصلت به تليفونيا قبل قليل، لكن هاتفه كان مغلقا، لكني متأكد من أنه سيوافق، لاسيما إذا أخبرته بأنكم تخصونني.

حينما قال جملته الأخيرة نظر إلى أعمق أعماق عينيها وكأنه يريد أن يقول لها بأنها تخصه. أو هكذا شعرت بوقع جملته الأخيرة. صمتت للحظة، ثم عقبت:

– هل هي كبيرة؟
– إنها مثل شقتي بالضبط، وهي الشقة التي فوقي مباشرة.
– والإيجار؟ أعتقد أنه سيكون أكثر مما سُيدفع لنا.
– أكثر بقليل جدا. ويمكن لآدم أن يعمل هنا.
– وماذا يعمل؟

حينما طرحت سؤالها ران صمت بارد على كليهما. نظر المضيف إلى آدم وتبادلا النظرات. نظرت هي إليهما وأحست أنهما لا يريدان أن يجيبا على هذا السؤال. فبادر قابيل بالإجابة قائلا:

– إسمعي حواء جيدا. لأقول لك بصراحة. الشغل في برلين ليس سهلا أبداً. يحتاج لنوع من الصبر. سيقوم بالعمل معي في بداية الأمر، بالبيع والشراء، إلى أن يجد له عملا في ما بعد.
– بيع وشراء ماذا؟

نظر قابيل إلى آدم، ثم التفت إليها قائلا، لا سيما وأن آدم قد شحب لونه قليلاً، من هذا السؤال الواضح والصريح:

– بيع وشراء الحاجات. مختلف الحاجات من ملابس، أجهزة كهربائية، ساعات، حقائب نسائية.. يعني أي شيء يمكن المتاجرة به. ولا تخافي، لا يحتاج هذا العمل إلى رأس المال فنحن نأخذ الأشياء من أصحابها ونبيعها بطريقتنا إلى العوائل والأجانب الذين نعرفهم، ونأخذ نسبة على ذلك.

مرت ظلال من الشك في ذهنها، لكنها طردتها، لرغبة عميقة جذبتها في أن تبقى في برلين، وتبقى قريبة من هذا الشخص الذي يبدو بأنه خبر الدنيا، ويبدو أنها أعجبته مثلما هي قد إستلطفته، فلم يكن أمامها سوى أن تقول بهدوء، لكنه معبر ومبطن بتهديد خفي:

– إذا كان الأمر كذلك فنعم..

إبتسما كلاهما وكأنما قد حققا أول خطوة من الذي اتفقا عليه في المقهى. بالرغم من أن حواء كانت تدرك بأن هناك أشياء كثيرة تحدثا بها لكنهما لم يقولا لها عنها شيئا. وعلى غير انتظار منهما سألت:

– وماذا عن النقل وعقد الإيجار؟
– لا مشكلة في الأمر، سنذهب عند مكتب العقارات هنا، وهو صديقنا أنا وصاحب الشقة، وهو يعرف بكل التفاصيل، وسيؤجر آدم الشقة، وتذهبان بها إلى بلدية نوي كولن، لتسجيل أنفسكما هنا أولا، وبعد أن يتم تثبيتكما هنا كسكان في

المنطقة تذهبان إلى إيسن وتلغيان أقامتكما هناك..

قاطعه زوجها قائلا:

– سنفعل بالضبط ما فعلناه في إيسن. يعني من الغد يمكننا أن نكون من أهل برلين.

في هذه اللحظة بالذات أحست حواء بخفقة صغيرة مست بطنها، فابتسمت وهي تقول:

– كأنه يريد أن يقول لنا شيئا.

– من..؟ سأل قابيل.

نظرت إليه وابتسمت بحنان وهي تضع يدها على بطنها:

– إنه هو.. ابني الذي في بطني.

إبتسم قابيل، ولأول مرة أخذ يتأمل جسدها. أحست به قد أطال بنظرته إلى أسفل بطنها. أحست بالخجل فتحركت. انتبه هو لنفسه، ونظر إلى عينيها وكأنه يريد أن يعرف إن كانت قد انتبهت لنظرته أو أدركت ما كان يفكر به أو ما تخيله في تلك اللحظات، بينما كان زوجها سادرا في أحلام يقظته عن برلين، بالرغم من ظل غمامة حزن كانت تظهر وتختفي في عينيه مثل ضوء نجمة بعيدة.

آدم البغدادي: إنها بداية التيه الحقيقي. هل الإنسان سريع النسيان إلى هذا الحد؟ ما الذي خلق من حواء المؤمن إمرأة مختلفة إلى هذه الدرجة، هل هي تحاول الهرب من خطيئتها؟ هل تحاول أن تعاقب نفسها؟ أكل هذا من أجل الطفل حقا؟ أم هي بدأت تعي سقوطها وانحدارها لذلك تعاقب نفسها بسلخ جلد ضميرها من الداخل؟

حينما قرأ آدم المحروم تعليق صديقه الكاتب سأل نفسه: أهذا هو مصير العراقيين في المنفى؟ لكن من أين لآدم البغدادي كل هذه التفاصيل عن ألمانيا، وعن برلين والمدن الأخرى؟ غريب. أعرف أنه لم يغادر بغداد قط؟

النذل الذي رأى نفسه

تم كل شيء كما قال ووعد قابيل. إيجار الشقة والتسجيل في بلدية برلين – نوي كولن، وإلغاء التسجيل في مدينة إيسن. وكانت فرحة حواء كبيرة، لكنها مخفية، حينما زارا بيت العم وأخبروهم بالتفاصيل، وصدمتهم لسماع الخبر، وبالتحديد، الأم وبناتها،

اللاتـي لـم يسـتطعن أن يخفيـن غضبهـن، فانهالن على آدم وحـواء، بالنقد واللوم بأنهما لـم يقـدرا الـذي عملـوه مـن أجلهمـا، وها هما ينكران العشـرة والفضل بهذه السـرعة، وأنهمـا رتبـا كل شـيء والآن جـاءا مـن أجـل رفـع العتب فقط. وقد حـاول آدم أن يبرر لهما الوضع أما حواء فقد سكتت أكثر الوقت وتمسكنت كي تشير بطريقة غير مباشرة إلـى أن زوجهـا هـو الـذي قـام بهـذه المبادرة لما تم عرضه عليـه من مقترحات من قبل صديقه قابيل. وقد انتبه زوجها إلى تبريراتها فأعجب بها وأخذ يسرد على مسامع عمه ما ينتظره هناك من آفاق، حيث سـيعمل مع صديقه أبي قابيل وآخرين، وأنه سيحسـن مـن وضعـه المـادي كثيـرا، وقامـا بإجراء كل الخطوات الإدارية اللازمة في تلك المدينة وأخذا من المستمسكات ما يثبت إلغاءهما للسكن ولإستلام المعونات الإجتماعية في إيسن. وعادا إلى برلين.

بدأت حياتهما في برلين بشـكل هادئ، وبهيج. فكل يوم يتم إضافة شـيء لشـقتهما التي خلال تواجدهما في إيسن ليومين، قام قابيل بدعوة المنظفين الذين قاموا بتنظيفها وغسلها بالكامل. بل وذهب إلى محل لبيع الأثاث المستخدم، فاشترى لهما غرفة نوم متواضعة وأثاثاً لغرفة الإستقبال، وأدوات للمطبخ، وتلفزيوناً. وبإختصار أثث لهما الشقة مـن جيبـه الخـاص. وقـد كانـت حالته المادية جيدة جدا من خـلال إتجاره بالمخدرات أحيانا، وبالسـرقة في أكثر الأحيان. لذا لـم يشـكل المال إليه عائقا. وحينما قام بما قام به، فقد كانت ثمة قوة سوداء في داخله، قوة أشبه بالمغناطيس القوي، قوة تأكله وتثيره الرغبة فيه نحو هذه المرأة المثيرة، الحامل.

لقد كانت شهوته تتوهج حينما يتخيل بطنها العالية وانحدارها الواضح إلى الأسفل، وكان يتلوى رغبة في أن يضاجعها، لكن كيف؟ إنها كما يبدو له امرأة قوية، وهي ليست سـهلة أو مبتذله، فهي امرأة محجبة، وبالتالي فهي زوجة صديقه، فكيف له أن يحصل عليها؟ لكنه بالرغم من ذلك كان يشعر بأن ما يقوم به هو من أجلها، وأنه سوف يحصل عليها في يوم ما، من خلال إبعاد زوجها عن طريقه بأي طريقة ممكنة.

لم يكن يدرك ما الذي يجذبه إليها؟ هو ليس بالرجل المكبوت الذي لا يجد امرأة يضاجعها، فلقد كانت لديه عشيقة تركية وأخرى إيرانية، وثالثة روسية، وأول ما وصل برلين كانت لديه علاقة مع امرأة ألمانية متزوجة، وأحيانا حينما تضيق به الحال يذهب إلى دكاكين الأفلام الجنسـية القريبة من محطة القطار التي اسـتقبلهم فيها فيرى النسـاء اللاتي يعرضن أجسادهن في غرفهن للناظرين من وراء الزجاج مقابل المال، أو يدخل صالة صغيرة لرؤية فيلم جنسـي، أو يشـتري قرصا مدمجا لفيلم جنسـي، بالرغم من أن

لديه أقراصا عديدة، وبعضها لنساء حوامل جميلات جدا يمارسن الجنس. كانت مشكلة قابيل هي أن المرأة الحامل تثيره جداً. لا يعرف هو أي سبب لذلك، فهو يفضلهن على النساء الأخريات.

بعد أن سلمه عمال تنظيف الشقة مفتاح شقة آدم وحواء، عاد إلى الصالة في شقته، وجلس يفكر في حواء المؤمن وكيف عليه أن يتصرف، وكيف عليه أن يحذر في إثارة شكوكها أو شكوك زوجها. فكر في أن آدم يعاني من وضعه المالي المتأزم، إذن عليه أن يغرقه بالديون، ويأخذه إلى أماكن اللهو، ويحاول أن يزجه في أعمال تبعده على البيت. كما عليه أن يتصرف بذكاء مع حواء ويغرقها بالهدايا، وأن يكون جهد الإمكان مهذباً معها إلى أن تطمئن له وتزول الحواجز بينهما. لكنه يريد أن يضاجعها وليس أن يعيش قصة حب معها، فهو لا يؤمن بالحب إطلاقاً.

كان قد استلم إتصالاً من آدم بأنهما سيصلان مساءً، وأتفقا على أن يلتقيهما في نفس المحطة في ساعة محددة بوصولهما. وفي الوقت المحدد كان هو في المحطة. كان يحس بأنه مشتاق لرؤيتها، بل أحس، لأول مرة منذ سنوات، بفراغ في هذه المدينة الكبيرة التي لا تنام. هل هو عاشق؟ إنه يسخر من هذا الأمر. إنه يعرف أنه يريد مضاجعتها، وقد صمم على خطط لذلك، فما له كالمراهق يشتاق لرؤيتها بهذا التعطش؟ عليه أن يكون حذرا فزوجها آدم رغم غرابته فهو شرس جدا، وهو يعرفه حينما كانا في المقاومة في منطقة الدامور بلبنان.

حين وصل القطار كان هو ينتظرهما على رصيف المحطة. رآهما من بعيد. رأى صديقه آدم من بعيد وهو ينزل حقائبه، حقيبتين كبيرتين وأخرى أصغر منهما. ثم لمح حواء المؤمن وهي تنزل بتؤدة وحذر لكونها حاملاً وتخاف على جنينها. واستغرب وهو يراهما من بعيد أن بطنها بدت له واضحة، أمن الممكن أن يتم ذلك خلال يومين، لكنه عزا ذلك إلى أنها كانت في المرة السابقة ترتدي ثوبا عريضا جدا فلم تكن بطنها بارزة مثل هذه المرة التي كانت ترتدي فيها ثوبا أسود يصل حتى ركبتيها، وتلبس فوقه بلوزة برتقالية اللون من الصوف الخفيف، وتضع قدميها في حذاء جلدي أسود أيضا، بينما تضع على رأسها ربطة تكشف عن وجهها بالكامل ومقدمة شعرها وتشدها على طول وجهها رابطة إياه من أسفل حنكها. كانت تبدو كسيدة رائعة الجمال، لكنه فجأة، أحس بالغضب من صديقه آدم لأنه لم يعطها يده حينما نزلت، إذ كان من الممكن أن تسقط.

جاء مسرعا ليساعدهما، سلم عليهما، وعانق صديقه، ثم جرَّ كل منهما حقيبة، بينما أخذت هي الحقيبة الصغيرة، فانتهز الفرصة والتفت إليها طالبا أن يسحب الحقيبة

الأخـرى، ومـد يـده فمسـت يدهـا، وتركت هي الحقيبة له. كانت هـذه الحركة العفوية، البسيطة، ذات دلالة لكليهما، بينما لم ينتبه زوجها لذلك بتاتاً.

حينما وضعا الحقائب في السيارة، كان ثمة إحساس يراود قابيل. أحس بفرح غامر، وبرغبة عارمة في الحياة والإبتهاج، فقال لهما بطريقة مفاجئة، واحتفالية:

– بمناسـبة وصولكمـا الكريـم إلـى مدينتنـا العظيمة برلين، وبمناسـبة اعتباركما من أهالـي برليـن، لذلـك، وقبـل أن أفاجئكما بالشـقة وما أجريت فيها، فأنني أود أن أدعوكما إلى عشاء فاخر بأحد المطاعم الجيدة. ما رأيكما؟

كان آدم الزوج جالسا في مقدمة السيارة إلى جنب سائقها، بينما كانت حواء جالسة فـي المقعـد الخلفـي. نظـر قابيـل إليها بالمـرآة الأمامية، بينما التفـت زوجها إليها وكأنه يستشيرها في الموافقة أو الرفض، فأبدت عدم مبالاة وكأن الأمر لا يعنيها، فقد علقت:

– أنتما قررا ما تريدان ولا تسألاني شيئا، أنا تعبانة، وأريد أن أرتاح في أي مكان، في البيت، في مطعم، في أي مكان.

وقد فهم زوجها بأنها لا تريد الذهاب، لكنه وقبل أن يقول شيئا، قال قابيل:

– إذن إلى المطعم، ما دمت تعبانة وتريدين الراحة، وسـآخذكما إلى مطعم إيراني شهير هنا. ما رأيكما؟

لم يكن بإمكانهما أن يقولا شيئا، إذ علق ضاحكا دون أن يترك لهما فرصة للرد:

– سـتأكلان القورمـة سـبزي الإيرانـي الشـهير والـرز بالزعفران مع جلـو كباب. ما رأيكم؟

ولم يكن يريد أن يسمع أي رد منهما لأنه يريد أن يكون قريبا من حواء التي صعقته بجمالها، بل إن التعب والإرهاق زاداها جمالاً.

المطعـم الإيرانـي يـكاد يكـون خاليـا، سـوى من رجـل وامرأة يبدو أنهمـا إيرانيان يجلسـان وحدهمـا فـي أقصـى زاويـة في المطعم. تعجـب آدم وحواء، من أن قابيل كان معروفـاً لـدى أصحـاب المطعـم إذ أن صاحـب المطعـم صافحـه ورحـب بهم أحسـن ترحيـب. كانـت هـي لا مباليـة بمـا يجـري، وبمـا ينوي مضيفهم، فقـد كان ذلك يرضي غرورها الأنثوي بطريقة لا إرادية بحيث لم تصده بشكل واضح. أخذت تتأمل المطعم وديكوراته الجميلة المسـتمدة من التراث الإيراني، وحينما أقبل الطعام، انتبهت لطعمه اللذيذ أيضا، لاسيما القورمة سبزي، أما رائحة اللحم فقد أصابتها بالغثيان، فقامت على عجل إلى غرفة الحمام والمغاسل التي رأت علامة ترشد الزائر إليها.

أحس قابيل بالضيق لحالة حواء، بينما لم يهتم زوجها للأمر أبداً. حينما عادت، وما كانا قد أنهيا طعامهما بعد، إذ أشار قابيل لعامل المطعم بأن يعّد لهم الحساب، وبعد دقائق جاء عامل المطعم وبيده صحن صغير فيه أعواد لتنظيف الأسنان وبعض الحبوب التي تطيب رائحة الفم مع فاتورة الحساب، وحينما أراد آدم أن يدفع، من باب استعراض اللياقة، نهاه قابيل عن ذلك، ومد يده إلى جيب بنطاله ساحبا رزمة كبيرة من الأوراق النقدية، فوضع في الصحن مبلغا أكثر بكثير مما دون في الفاتورة. نظر آدم إلى الفاتورة وإلى المبلغ الذي وضعه قابيل، فأبدى اعتراضه بأنه قد أعطاه كثيرا كبقشيش، فابتسم قابيل وهو يربت على كتفه. دون أن يقول شيئا.

وحينما انطلق يقود السيارة عائدين إلى البيت، كان يرمق حواء بين الفينة والأخرى، فرأى أنها منشغلة في شيء لم يدرك هو كنهه، فهي تبدو مشغولة البال. لكن ملامحها بالرغم من ذلك كانت مسترخية. ليس معهم، لكنها ليس متوترة. كم هي جميلة؟ قال لنفسه. وأحس بأنه يريد أن يتحدث معها، فقال بصوت عال:

– سوف ترون شقتكم ولا تصدقون أنها شقتكم.

انتبهت لما قال، فسأل آدم:

– ماذا تعني؟ كيف لا نصدق؟

نظر هو إليه ثم إلى حواء عبر المرآة وقال مبتسماً:

– لقد أثثتها لكم. ولم يبق إلا بعض الأمور الصغيرة، التي لا أستطيع أن أشتريها، فغدا نذهب معاً ومعنا حواء لشراء كل ما تحتاجونه.

التفت آدم إلى حواء المؤمن متعجبا، وعلى وجهه دهشة وتساؤل وكأنه يريد أن يقول لها كم رائع هذا الصديق؟ إبتسمت حواء للأمر ولم تعلق.

في مصعد البناية الضيق جدا، والذي بالكاد تحملهما مع الحقائب، غرق قابيل في أحلام يقظته مع حواء. وحينما دخلوا الشقة أصيب آدم وحواء بدهشة حقيقية. لم يصدقا فعلا أن هذه الشقة هي شقتهما، فقد تركاها متربة، ووسخة، وها هي تتألق بنظافتها والأثاث الذي فيها وبمطبخها وغرفة نومها وتلفزيونها الكبير الشاشة. التفتت إلى قابيل وفي عينيها عرفان وشكر، لأنها تدرك بأنه قام بذلك تقرباً منها. أما آدم فلم يجد من كلمات يعبر بها فالتفت إلى قابيل وأخذه بالحضن. وبينما كانا في تشابك الأذرع، كان قابيل ينظر إلى حواء نظرات كلها هيام وشوق، وتساؤل.

آدم البغـدادي: أليس من الممكن أن تنشأ علاقة حب حقيقية بين قابيل وحواء المؤمن، لاسيما وهو يعشقها نتيجة مصلحة له لديها كما فعل آدم اللبناني زوجها؟ لكن لماذا هي بالذات؟ لماذا اختار زوجة صديقه؟ أهو الحنين لزنا المحارم المتأصل في الذات البشرية كنوع من التحريم والتابو؟ ربما.

فكر آدم المحروم بملاحظة صديقه المغدور آدم البغدادي عن علاقة قابيل وحـواء المؤمـن، وانتبـه فجـأة لعلاقتـه بحواء ابنـة آدم الزاهد، لماذا هي بالـذات؟ أليسـ هنـاك غيرها؟ أهو حقا الحنين اللاشعـوري لزنا المحارم؟ لا. فهي لا تقرب له، لكنه دخل بيتهم ومنحوه المأوى والأمان، بينما هو يحـاول أن يضاجعهـا؟ إنـه أسوأ من قابيـل فقابيل أحب حواء المؤمن ومن أجلها أنفق الكثير من المال، بينما هو يعرف أن حواء أم الملاك متزوجة، زوجهـا فـي السجـن، وهي أم لطفل ويفكر فـي غوايتها، تف عليك يا آدم المحروم!
لأواصل القراءة أفضل.

زائرتان في الفجر

مضى أسـبوعان على إنتقالهما النهائي إلى برلين. لكن قابيل ظل يسـتمر في لعب دور المضيف، إذ كان يحمل لهما الخضار واللحم والرز والحلوى، ثم يدعو نفسه إلى الغذاء والعشاء عندهما، بل حتى في الصباح كان يصعد ليشرب القهوة عندهما، بالرغم من أن حواء تشرب الشاي. لكن آخر الليل كان يأخذ آدم معه ويخرجان ولا يأتيان إلا بعد منتصف الليل، وأحيانا كانا يأتيان ومعهما كيس مليء بالمعجنات أو بلفات الشاورما وعلب البيبسي، ويجلسان إلى ساعات متأخرة من الفجر.

فـي الأيـام الأولـى كانـت تجلس معهما حينما يصلان في آخر الليل وتسـهر معهما بالرغـم مـن أن النعـاس يثقـل عليهـا، لكنها في ما بعد كانت تدعهما في الصالة وتذهب لغرفة النوم لتستلقي على سريرها وتغط في النوم.

ذات مرة، بعد أن تركتهم في الساعة الأولى من بعد منتصف الليل، ودخلت لغرفة النوم وألقت بنفسـها على السـرير، غفت دون أن تدخل السـرير وتسـحب الغطاء على نفسـها، لكنهـا أفاقـت علـى حـركات الجنيـن القويـة. تحاملت على نفسـها وقامت إلى الصالـة، فوجئـت إذ وجـدت زوجهـا يجلس وحيدا، مهمومـا، ينظر في نقطة أبعد بكثير

ممـا أمامـه، وكأنـه ليـس فـي المـكان. حين فتحت باب غرفتها التفـت إليها، محاولا أن يبتسم أو أن يغير من ملامح وجهه، لكنه لم ينجح كلياً. إقتربت منه، وسألته:

– ما بك؟ هل حصل شيء ما؟

نظر إليها وكأنه فوجئ بالسؤال، بل فوجئ بوجودها أصلا:

– هذه أنت؟ من صحاك في هذه الساعة؟

– صحوت على حركة في بطني، لكن ما بك، أراك مهموماً؟

– لا شيء. أحس بالتعب قليلاً.

التفـت إلـى زاويـة الصالـة حيـث وضع عليها كتبه التي حملها معه وارتسـمت على وجهـه نظـرة منكسـرة وكأنـه يعتـذر لها لأنه تركها مهملة منذ فتـرة. انتبهت إلى التفاتته، فقالت:

– ماذا؟ أتحس برغبة في الكتابة؟

– نعم.. ولا..

نظر إليها وهي تقف على مسـافة منه وقال لها وكأنه يبرر لها كسـله وانشـغاله عن القراءة والكتابة، وابتعاده عنها، فقال:

– كنت أريد أن أكتب عنك روايتي الأولى، لكني انشـغلت، الآن سـأحاول العودة للكتابة. سأكتب عن برلين، عني وعنك، وعن عالم التهريب والمخدرات والعهر. سأكتب عن أبطالي التائهين في دروب الحياة.

نظرت إليه بإستغراب. أرادت أن تسأله، لكنها أجلت سؤالا انبثق من خلال كلامه، لكنها قالت:

– أرجو أن لا تقتل الأبطال في النهاية. أتمنى أن أقرأ قصة ذات نهاية سعيدة مثلما في الأفلام.

نظر إليها، وانتبه إلى انها ليست بالساذجة كما كان يتصور، فهي على الأقل كانت زوجة لأستاذ جامعي وكاتب أيضا، فقال بحزن:

– إذا كنا جميعا سنموت في النهاية، فمن أين سآتي بنهاية سعيدة. وهل هناك نهاية سعيدة أصلاً ما دام الموت ينتظرنا؟

– المشكلة ليست في الموت. الموت كما نقول حق، لكن المشكل بطريقة الموت، بالقتل والتعذيب. هناك من يموت سعيداً، هناك موت سعيد.

نظر إليها مستغربا، ومتسائلا، وقال:

– إنـك تتحدثيـن فـي الفلسـفة. أتدريـن أن هناك رواية للكاتب الفرنسـي البير كامو

أسمها: الموت السعيد؟

– لا. لا. أعرف.. المهم.. أن تخرج من وضعك هذا، وتبدأ بالكتابة..إنك تقضي وقتك كله مع قابيل، ولا تجد الوقت الكافي لنفسك.

نظر إليها بإرتباك. كان يريد أن يقول شيئا، لكنه صمت، انتبهت لذلك، فعاد السؤال الذي أرادت أن تسأله إلى ذهنها، تقدمت منه، وجلست بهدوء على أحد المقاعد الجلدية القريبة، وقالت:

– لقد ذكرت بأنك تريد الكتابة عن برلين، وعن عالم التهريب، والمخدرات، والعهر. ما معنى ذلك؟ ومتى تعرفت على هذا العالم نحن لم يمض على وجودنا هنا سوى أسبوعين؟

إرتبك. أحس أنه دخل شبكة عليه أن يخلص نفسه منها بسلام، دون أن يقول شيئا ما أكثر مما يجب، فتمتم:

– في برلين يمكنك أن تعرفي ذلك بسهولة.

نظرت إليه نظرة تؤكد عدم تصديقها لما يقول، فسألته سؤالا مباغتا:

– أريد أن أسألك، ما هو عمل قابيل بالضبط؟ فما يقوله عن البيع والشراء لا يدخل عقلي. إنه ينفق بإسراف، بل إنه ينفق علينا أيضا، كما أنه لا يذهب إلى أي مكان للعمل، ولم نجد يوماً أنه أتى بأي حاجات للبيع؟

أحس آدم بأنه مثل نمر محاصر، وبدل أن يجيبها، افتعل الغضب، فقال وكأنه يريد أن ينهي الحوار:

– ما الداعي لمثل هذه الأسئلة الآن، أهذا ما يجب أن تفكري به؟ ألا يحظى منا بالإحترام لما قام به من أجلنا، ولا نقابل ذلك إلا بالشكوك وسوء الظن؟ لنذهب إلى النوم أفضل.

قال ذلك وهو يقوم متجها إلى المطبخ، لكي لا يدع مجالا لإستمرار الحوار، فتح الثلاجة، وأخرج قنينة ماء فتحها وشرب منها، أغلق الثلاجة وتوجه لغرفة النوم. ظلت هي جالسة في مقعدها، وكانت تراقب حركته إلى أن اختفت قامته في غرفة النوم. تأكدت لديها الشكوك أكثر حول طبيعة عمل قابيل، بل وأحست من خلال غضب زوجها بأنه متورط معه بهذا الشكل أو ذاك.

ظلت حواء المؤمن جالسة على مقعدها. لقد خذلها رد فعل آدم حينما سألته عن عمل قابيل. ظلت تقلب الأمر في ذهنها. وفجأة بدأت الأسئلة تندفع وكأنها كانت

محصورة وراء باب مقفل تحطم للتو. أخذت تسـأل نفسـها: منذ أسـبوعين وزوجها لا يعمـل، بـل يقضـي معظـم وقتـه مع قابيل، سـواء فـي البيت أو حينمـا يخرجان، وأحيانا يتركها ويبقى معه في شـقته لفترة، وبالرغم من ذلك فهو لم يطرح مسـألة العمل لحد الآن، هل زوجها يعمل معه دون أن يخبرها؟ ثم أنهما لم يقبضا لحد الآن معونات من دائرة المسـاعدات الإجتماعية بينما زوجها لا يبدي أي تذمر أو أي تضايق من الوضع المادي لهما؟ صحيح أن قابيل يشتري لهم كل شيء، لكنه لا يعتبر ذلك دينا وإنما ينفق وكأنه ينفق على نفسـه، لماذا؟ في الإسـبوع الماضي جاء زوجها بقمصلة جلدية خفيفة من النوع الفاخر وقال إن قابيل أهداه إياها؟ غريبة علاقتهما هذه.

وبينما هي في دوامة الأسـئلة سـمعت نقراً خفيفا على الباب. لم تكن منتبهة أول الأمـر، لكـن الدقـات الخفيفـة كانـت تتواصـل. أرادت أن تذهـب لتخبـر زوجها، لكنها فكرت مع نفسـها بأن تنظر من العدسـة المقعرة الصغيرة الموجودة في القسـم الأعلى من وسـط الباب. قامت على مهل. تركت نعالها، ومضت حافية القدمين، وكأنما تريد أن تتلصص على من ينقر على الباب في مثل هذه السـاعة، دون أن ينتبه بأن هناك من جاء ليفتح له. وصلت إلى حيث العدسة المقعرة ووضعت عينها لتنظر. فجأة، وهي في وقفتهـا تلـك، ضربـت علـى صدرها بكفهـا، والتصقت بالجدار عند الباب وهي مرتعبة. حبسـت أنفاسـها، ومشـت على رؤوس أصابعها، وعادت إلى وسـط الصالة شاحبة. لقد رأت الراهبتين اللتين قابلتهما في المستشفى بمدينتها الأولى واقفتين أمام الباب، وكانت الراهبة المسنة هي التي تنقر على الباب. لم تصدق ما رأت، إذ راودها شك بأنه ربما لم يكن هناك طرق على الباب أصلا، وأنها ربما تتوهم كل ذلك، لكن الطرق إستمر، ولكي تتأكـد مـن رؤيتهـا ذهبـت إلـى حيث المرآة المقعرة ونظرت ثانية، فرأت الراهبة المسـنة تبتسم لها بطيبة وكأنها تعرف أنها تقف وراء الباب المغلق. تراجعت قليلا. أرادت أن تفتح الباب، لكن الرعب شلّ مفاصلها. ظلت متسمرة في مكانها. فجأة سمعت صوتاً:

– ماذا يجري؟ أهناك من يطرق على الباب؟

فزت من الرعب ملتفتة إلى زوجها الذي كان في سـرواله الداخلي فقط، إذ خرج من غرفته على الطرقات التي على الباب. إرتبكت هي، وقالت بكلمات متقطعة بسبب الخوف:

– أنا أيضا سمعت الطرقات وقمت لأنظر فلم أجد أحداً؟

تقـدم زوجهـا دونمـا أي كلام وتوجـه إلـى الباب وفتحـه، وكانت هي تقف مرعوبة خلفه. لم يكن هناك أي أحد. خرج زوجها لخطوات ونظر إلى أسفل السلم الدائري،

لمح ظلال ثوب أسود لثانية من الوقت ربما. صاح وهو في مكانه:

– هلو.. من هناك.. هلو..

لـم يجـب أحـد. سـمع حركـة المصعـد وهو يهبط. دخـل إلى الشـقة، وهو مرتبك قليلاً، وقال:

– لم يكن هناك أحد. لكن وكأنني رأيت شيئا. ظل ثوب أسـود. لسـتُ متأكدا من ذلك. لا..لا. ربما بسبب النعاس الذي يطغى علي..ليس هناك من أحد، بالرغم من أني سمعت طرقات خفيفة على الباب.

– وأنا سمعتها كذلك. يعني كانت هناك طرقات على الباب فعلاً؟

– نعم.. لقد سمعتها وإلا كيف خرجت من الغرفة؟

– الحمد لله..

– الحمد لله؟ قال آدم متسائلاً.

– نعـم الحمـد للـه. لأنـي ظننـت أني أهلوس، فليس هناك أيـة طرقات على الباب وإنما أنا أتوهم ذلك.

– لا.. لم تتوهمي أنا سمعتها أيضا.. لكن من كان هذا؟ وماذا يريد في هذه الساعة من الفجر.

– لا أدري.. غريب أليس كذلك؟

– نعم.. شيء غريب فعلاً. يلاّ تعالي لتنامي.

دخل إلى غرفة النوم، ظلت هي للحظات واقفة تنظر إلى الباب. لم تجرؤ أن تتحدث لآدم عن الراهبتين. دخلت خلفه إلى غرفة النوم. إستلقى هو السرير، بينما ذهبت هي مباشرة إلى الدولاب الكبير الذي يحتل جانبا من الغرفة. فتحته وأخرجت القرآن الكريم. قبلته، وجاءت به لتضعه قرب رأسها على الطاولة الصغيرة التي تستقر إلى جهتها. نظر هو إليها، وارتسمت إبتسامة إشفاق على وجهه. ضغط على الزر الكهربائي الذي قرب رأسه، فغرقت الغرفة في الظلام.

ظلـت حـواء المؤمـن يقظـة، لـم تسـتطع أن تنام. كيـف تنام وهي تسـتعيد لحظات خارقة في حياتها. كانت تعتقد أن كل ما رأته في ذلك المستشـفى ليس إلا أوهاماً، أو أحلام يقظة، نتيجة للحالة النفسية التي كانت تعيشها في تلك الأيام، واعتقدت أنها قد قلبت تلك الصفحة من حياتها، بل إنها محت كل ما سـطرته تلك الأيام. لكن ها هما الراهبتان يلحقانها إلى برلين. إنتبهت إلى الفجر الذي بدأ يخطو على برلين، لكن جنينها يبدو أنه لا يريدها أن تنام، فلقد استيقظت هذ الليلة لأنه تحرك كثيرا، ثم هدأ، وها هو

يتحرك ثانية. هل أن حالتها النفسية التي مرت بها قبل قليل قد أثرت عليه، فأقلقته هو أيضا؟ فكرت، أن عليها أن تذهب إلى طبيبة نسائية كي تشرف على حملها ووضعها الصحي، فهي في منتصف الشهر السابع، وربما هي في نهايته، وعليها أن تنتبه، لتخبر زوجها غداً عن الأمر، ولامت نفسها في أنها لم تفكر بهذا الأمر أول ما انتقلا إلى برلين. ظلت تنظر إلى سقف الغرفة، وتقرأ سورة الفاتحة مع نفسها، ولا تدري كيف تسلل النوم إلى جفنيها.

إستيقظا على جرس الباب وهو يرن بقوة في وقت واحد تقريباً. نظرت إليه وهو يحاول النهوض، ليذهب إلى الباب، فقالت له وفي صوتها لذة النعاس.

– إلبس شيئا قبل أن تفتح الباب.

أخذ بنطاله الذي كان على الأرض من جهته، وخرج وهو يشد حزامه. إستذكرت ما كان ليلة أمس، وانتبهت إلى أن الراهبتين لم تضغطا على جرس الباب وإنما طرقتا على الباب طرقات خفيفة. من خارج الغرفة سمعت صوت زوجها وقابيل يتحدثان، ويبدو أنهما في الصالة. نهضت ببطء. نظرت إلى نفسها في المرآة، وانتبهت لبطنها المتكورة فأحست بشيء من البهجة. خرجت إليهما، وهي تلقي تحية الصباح:

– صباح الخير أخ قابيل.

– صباح النور.. آسف على إزعاجكم في مثل هذه الساعة.. أعرف أنها الثامنة، لكني كنت قد خرجت مبكرا هذا اليوم، فمررت على المطعم اللبناني وجئتكم ببعض القطع من اللحم بعجينة. ولم أنتظر إلى أن تصحيا لأنها ستبرد فقلت الأفضل أن تأكلاها وهي حارة، كما أن لدي مفاجئة أخرى.

استمعت حواء لتقريره حول سبب مجيئه مبكرا، بالرغم من أن لديها شعوراً بأنه لا يريد أن يفارقهما، بل هو يريد أن يراها دائما، فهو يتحجج بكل شيء كي يأتي إلى البيت. لكن ما هذه المفاجئة، نظرت إلى زوجها الذي كان مبتهجا لكن إبتهاج المخذول والمغلوب على أمره، إبتهاج يعرف أنه سيدفع ثمنه غاليا. نظر قابيل إليه، وقال له مبتهجا:

– لماذا لا تريد أن تخبرها؟ إخبرها يا أخي وخلصنا، فهي تنتظر.. أفرح قلبها.

نظر آدم إليها لثوان فقط، متجنباً النظر لعينيها مباشرة، لأنه لم ينس حوارهما ليلة البارحة حول قابيل، لكنه بالرغم من ذلك ألقى مفاجأته قائلاً:

– الأخ قابيل وجد لنا سيارة.

– ما معنى وجد لنا سيارة؟

– وجد لنا سيارة يعني وجد لنا سيارة.

تدخل قابيل مباشرة في الحوار ليشرح الأمر، فقال موجها الكلام لها:

– وجدت لكما سيارة مناسبة. لأنكما تحتاجان للتنقل، فليس من المعقول أن تتنقلي بالمترو أو بالتاكسي وأنت في هذه الحالة، وخلال الفترة القادمة سيكون لديكما طفل أيضا.

تنقلت حواء المؤمن بنظراتها ما بين قابيل وزوجها الذي كان يتجنب نظراتها، وقالت لقابيل:

– لكننا لا نحتاج حاليا لسيارة، وأننا كما تعرف نادرا ما نخرج، وإذا ما خرجنا فنتجول هنا في المنطقة، وإذا ما ذهبنا بعيدا فأنتَ والحمد لله تقوم بالواجب وأكثر. ثم من أين لنا المال لشراء سيارة؟

– يا حواء.. يا حواء..أنتِ في برلين. ماذا رأيت حتى الآن منها؟ ستعرفين أنك بدون سيارة لا تستطيعين العيش هنا. ثم أن السيارة رخيصة جداً، وأنا أعرف أنكما الآن في وضع ربما لا يسمح لكما بشراء سيارة، لكن لا تهتمي.. سأدفع أنا ثمنها، وحينما تتحسن حالكما يمكنكما أن تعيدا ثمنها، وإذا ما شئتما فيمكن إعتبارها هدية مني.

نظرت حواء المؤمن إلى زوجها الذي كان محصورا بين بهجته بالسيارة وبين أسئلة حواء وشكوكها ونظراتها التي تطالبه بموقف رافض لكنه غير قادر على الإقدام عليه، فقال بارتباك:

– ما تقوله حواء صحيح. ليس لدينا الآن المال لشراء سيارة.

فانبرى قابيل للإجابة بفرح وإحتفالية واضحة، حاسماً الأمر، فقد كان مصمما على شراء السيارة لهما، وهو لا يتوانى على إقناعهم بالرغم منهما، فقال:

– إسمعني يا آدم.. بأرواح كل الشهداء لا أريد أن أسمع أي رفض. يا أخي إعتبرها هدية مني، بل سأسجلها باسمي لكنكما تستخدمانها. (ثم واصل بنبرة عتاب) ماذا تقول يا رجل، ما معنى المال بالنسبة لنا؟ أنسيت أيام الجوع في الدامور، أيام كنا نحلم بأبسط الأشياء، لا تحزني يا رجل بالحديث عن المال. طز بالمال. طز بأصحاب الملايين. ولا أريد أن أسمع منكما أي حديث عن الحاجة إلى المال، اعتبرا كل ما لدي، وهو بمئات الآلوف بين أيديكما. أوكي؟ والآن دعونا نفطر، فقطع اللحم بعجينة قد بردت.

أحس آدم بشيء من الراحة النفسية حينما تحدث قابيل عن ذكرياتهما، وأنه ما زال ذلك المناضل، وبالتالي فما قاله، فيه شيء من الإجابة على شكوك حواء حول

دوافع قابيل، لكن كلامه عن كمية المال الذي لديه، أذكت جمرة تلك الشكوك مجدداً. صمتت حواء المؤمن وكذا آدم. وأعتبرا الموضوع غير قابل للرد والنقاش. فقامت هي إلى المطبخ لتحمل الصحون التي وزعتها على الطاولة التي تتوسط المكان، وذهبت لتعد الشاي.

بعد أن أنتهوا من الأكل وشرب الشاي، طلب قابيل من آدم أن يذهبا لرؤية السيارة، فاعترضت هي قائلة:

- اليوم أريد أن اذهب لعيادة نسائية، أحس بأن وضعي غير مستقر، بالمناسبة ألا تعرف هنا طبيبة نسائية قريبة من هنا، أقصد في هذه المنطقة؟

فقال آدم وكأنه فوجئ بالأمر، متسائلاً:

- ماذا تقولين؟ هل تحسين بشيء غير طبيعي؟
- لا أدري إن كان طبيعيا أم لا، لكني أحس بحركة غير طبيعية للجنين.

تدخل قابيل بسرعة قائلا:

- أنا شخصيا لا أعرف، لكني أستطيع أن أبحث في الكتاب الأصفر الذي توزعه البلدية وفيه كل شيء يحتاجه الإنسان.

قال ذلك وقام خارجا، وهو يقول:

- سآتي بالكتاب الأصفر، لدي نسخة منه في شقتي.

حينما سمعا خطواته السريعة وهو يهبط السلم، قالت حواء المؤمن لآدم:

- ما معنى كل هذا؟ هل تستطيع أن تفسر لي سبب إهدائه سيارة لنا؟
- لماذا تسألينني أنا؟ ألم يجر الحديث أمامك؟ ثم أن السيارة لن تكون لنا لأنه كما قال سيسجلها باسمه.
- وهل لديك أصلا إجازة سوق حتى تريد سيارة لك؟
- نعم لدي، لقد استخرجتها إستنادا لإجازتي اللبنانية، فبعد سنة من وصولي قمت بذلك.
- لم أعرف ذلك سابقاً.

لم يستكملا حوارهما إذ دخل قابيل، وفي يده كتاب ذو صفحات صفراء. فتحه على صفحة محددة، وهو يقول:

- هنا في منطقتنا توجد طبيبة نسائية، وعدد من الأطباء الرجال. الطبيبة كما يبدو ألمانية أو تركية، لأن أسمها الأول ألماني وبقية إسم العائلة مركب ألماني - وتركي. يمكنني أن أتصل بهم لأخذ موعد، أو إذا كنت تشكين من شيء فأننا

يمكن أن نذهب مباشرة.

– لا.. لا.. داعي.. أكتب لي العنوان وسأذهب.

– ماذا تقولين؟ كيف أتركك تذهبين وحدك؟ سنآخذك أنا وآدم إلى هناك.

فقال آدم مؤيدا كلام قابيل:

– نعم.. سنأخذك إلى هناك.

– ألم تنويا الخروج؟

فعلق قابيل بنبرة انفعلية واضحة:

– طز بالسيارة.. صحتك يا حواء هي الأهم.. نستطيع أن نذهب لرؤية السيارة وجلبها لاحقاً.

إستغربت من تصرف قابيل وردة فعله السريعة والقوية على ما شكت منه. ألم يتحرج أن يعبر عما في نفسه بهذه الطريقة الفاضحة أمام زوجها. من هو حتى تبدر منه ردة الفعل هذه؟ ألم يفكر أنه ربما سيولد الشك في نفس زوجها آدم؟ هل هناك شيء لم تفهمه يجري بينهما حولها؟ أتراهما قد اتفقا حولها؟ أيمكن أن يعقل بأن زوجها آدم يتنازل عنها لقابيل دون أن تعرف؟ ماذا أهو قواد؟ أهذا يفسر أن زوجها لم يقترب منها منذ آخر مرة لهما في إيسن ليلة فاتحته بالإنتقال إلى برلين، بينما كان أحيانا يأتيها مرتين في اليوم، ولم يترك مكانا في البيت لم يضاجعها فيه؟

كانت الأسئلة تهطل في ذهن حواء مثل قطرات المطر الناعم. قطرات تهطل بسرعة فائقة جدا، ولم تستطع أن توقف هطول الأسئلة التي بللت بحيرة ذاكرتها المظلمة. لماذا يتصرف قابيل معها، وبحضور زوجها، بحرية كاملة؟. وبالرغم من أنه يعرف ما يريده منها بالضبط، فأنه كان يتصرف بعفوية وبراءة كي يغطي على ما قد يفضحه من تصرفات أو اهتمام في لحظة ما لم ينتبه لها، أو ليفسر تواجده الدائم عندهما ودخوله وخروجه دونما حرج أو إستئذان؟ أو تدخله في تفاصيل حياتهما اليومية العادية، بل وتدخله السافر في تيسير يوميات حياتهما وفق ما يشتهيه، حتى صارت حياتهما مرتبطة بإيقاع حياته هو، وفقدا خصوصيتهما العائلية والزوجية، لاسيما وأن زوجها يثق به ثقة عمياء دونما أي أسئلة، ولا تعرف سر تعلق زوجها به، أو بتعبير أدق تبعيته له؟ لماذا لا ينتبه لنظراته المليئة بالرغبة إليها؟ لماذا تحس وكأنه ضعيف الشخصية ومسلوب الإرادة أمامه؟ أثمة تواطؤ ما بينهما حولها؟ ها هو ينفعل ويقلق عليها ويتحمس لأخذها إلى العيادة وكأنه هو زوجها وليس آدم. لا بد وأن هناك سراً. لا بد أن تعرف؟ وستعرف لكن ليس من زوجها وإنما من قابيل نفسه، لكن كيف ومتى؟

كان نظراتها تشي بأنها تفكر بشيء ما. لكن علامات التعب كانت أكثر وضوحا على وجهها. فكر قابيل بأنها لم تنم كفاية، هذا واضح، لكن أمن المعقول أن صاحبه آدم لم يتركها تنام الليل؟ وخلال أقل من ثانية تراءت له حواء عارية ببطنها الكبيرة المدور وهي تفرج ساقيها. أحس فجأة بالحرارة تصعد في جسده، فضغط على ذهنه كي يغير الصورة. نظر إلى آدم ثم إلى حواء وقال سائلاً، ليصد سيل الصور التي تريد أن تهيمن على مخيلته:

– ماذا بكما؟ هل هناك شيء قد حصل بغيابي؟ ليلة أمس ودعتكم وكل شيء على ما يرام، بينما اليوم أراكما خاملين، مترددين، هل حصل شيء ما؟

– لا أبداً.. كل ما هناك أننا لم نتعود الصحو مبكرين هكذا. علق آدم.

– وخاصة أنا. فقد سمعتُ طرقا على الباب في الساعة الثالثة فجراً تقريبا. قالت حواء.

– الساعة الثالثة فجراً؟ ومن تراه جاء في مثل هذه الساعة؟ سأل قابيل.

نظر آدم إلى حواء وكأنه يسمع بالخبر لأول مرة، وسأل:

– لماذا لم توقظيني؟ أكنت أنا نائما؟

إستغربت حواء من سؤاله، وقالت:

– ماذا تقول؟ ألم تفتح أنت الباب ولم تجد أحداً؟

– أنا؟ صرخ آدم متعجباً.

– نعم أنت. بدليل كنت في سروالك الداخلي فقط. خرجت ونظرت إلى أسفل السلم، وحينما عدت قلت إنك رأيت شيئا أسود، لكنك غير متأكد من ذلك.

– هل تمزحين معي؟ قال آدم وهو يحاول الإبتسام غير مصدق شيئا مما تقوله حواء.

هيمن صمت ثقيل على الجميع. كان قابيل يتنقل بنظراته بينهما ليعرف سر هذا الحديث. فما معنى قول حواء هذا، وما معنى نكران آدم لكل شيء؟ أحس آدم بأن هناك شيئاً غير مفهوم، وأن زوجته تقصد شيئا ما لم يفهمه، ألم يكن عليها أن تتفق معه على مثل هذه الكذبة قبل أن تحرجه بها وتحرج نفسها؟. بينما استغربت حواء نكران آدم لكل شيء؟ لم تفهم لماذا تصرف هكذا؟ ليس في الأمر ما يسيء لقابيل حتى ينكر صلته به أصلاً. لا. ستتحدث معه حينما يكونان وحدهما. بينما فكر قابيل مع نفسه بأنه سيعرف هذا السر آجلا أم عاجلاً، أيلعب آدم معه لعبة خطرة؟ أيتفق مع الآخرين من وراء ظهره؟ هل بدأ يتاجر لحسابه الخاص؟ سيعرف ذلك وإذا تأكد من ذلك فأنه سوف يندم. المهم الآن أن يأخذ حواء إلى العيادة، لذا قال وكأنه يريد أن

يعبر حاجز الصمت الذي أوقف سير الأشياء:
– المهم.. دعونا الآن نذهب إلى الطبيب، وبعدها يمكنكما النوم إلى ما تشاءان. يلاّ. بلا تأخير.

قال ذلك بلهجة آمرة. أحست حواء للحظة أنها تخضع له أيضا، وأنه يملك سلطة خفية عليها. وأشفقت على زوجها العاجز. بل أحست بشيء من الإشمئزاز لكل ما يجري.

آدم البغدادي: يبدو أن حكاية قابيل وهابيل كانت ترقد في أعماق اللاوعي حينما فكرت بشخصية قابيل، بل ربما في اللاوعي منحته هذا الأسم أيضا.

علق آدم المحروم سائلا نفسه بعد قراءة ملاحظة صديقه القتيل: أأنا قابيل آخر؟

المسخ

خرجت الممرضة من غرفة الطبيبة وهي تنادي على حواء المؤمن. نهضت لتدخل، فقام كلاهما معها، إلا أن الممرضة لم تقبل بدخول أي منهما، وحاولا أن يشرحا لها بأنها لا تجيد الألمانية، فأوضحت الممرضة لهما بأن على الطبيبة أن تفحصها أولاً ومن ثم يمكن أن يدخل زوجها لتقول له ما يخص وضعها الصحي. إنتظرا طويلا، وبعد حوالي عشرين دقيقة خرجت حواء شاحبة الوجه، بينما توجهت الممرضة إليهما وسألت عن أي منهما هو زوجها، فأجاب آدم، فطلبت منه أن يدخل على الطبيبة لأمر هام، لأنها تريد أن تحدثه.

حينما دخل آدم على الطبيبة في غرفتها كان يحس بارتباك شديد، فقد خمن بأن هناك شيئا ما لا يسر. قامت الطبيبة مرحبة به، وسألته إن كان يجيد الألمانية، وأنه يفهم ما ستقوله، فأجاب بأنه يفهم ما ستقوله، فبدأت الطبيبة قولها باللوم:
– كان عليكما أن تأتيا منذ الأشهر الأولى من الحمل. لقد أجريت لزوجتك الفحص بالأشعة المصورة لبطنها، ورأيت شيئا لم يعجبني في الجنين. لستُ واثقة مئة بالمئة، لكنني أريد إجراء فحوصات أخرى عليها، سأحيلكم إلى إحدالمراكز المختصة بالتشخيصات الدقيقة والتي عليكم الذهاب إليها الآن أو يمكن أن

أحيلكم إلى المستشفى فوراً.

فقاطعها آدم قلقا، وسأل:

– هل هناك شيء ما؟

نظرت الطبيبة إليه بحذر أول الأمر، كانت مترددة من أن تخبره إلى أن تتأكد مئة بالمئة، لكنها اضطرت أن تجيب على سؤال الزوج، فقالت محاولة تخفيف الأمر جهد الإمكان:

– أعتقد أن الجنين مشوه. هناك عدم تناسب واضح في تطور الأعضاء. رأسه أكبر من اللازم بكثير، وجسده ضامر أكثر مما يجب. لا أريد أن أطلق حكما نهائيا، لكني يجب أن أتأكد من ذلك، لأني أعتقد أن الجنين مصاب بما يسمى طبيا (هيدراسفاليه)، أي وجود ماء كثير في رأس الجنين. سأحيلكم إلى هذا المركز الذي يرأسه البروفيسور آدم آدمز، الذي كان أستاذي أيضا، وربما سيحيلكم هو بنفسه إلى المستشفى.

– ماذا تقصدين بالمشوه؟!

– أقصد أنه مسخ. الجنين ليس جنين طفل إعتيادي، وإنما هو مسخ.

– وما الحل؟ قال آدم قلقا بل ومرعوباً

– أما الإحتفاظ بالجنين لحين ولادته، وفي معظم الأحيان أنه يموت بعد ساعات من الولادة أو تريدان إسقاطه من خلال إجراء الطلق الإصطناعي، وبعد ولادته سيموت أيضا. في كل الأحوال سيموت مثل هذا الطقل لأن وضعه غير طبيعي، وجسده غير مؤهل للقيام بالوظائف الأساسية للجسم، إلى جانب أني وجدت في عنق رحم زوجتك شيئا مريبا، يمكن أن تستكملا الفحوصات في مركز التشخيصات الدقيقة.

– يعني أنها حامل بطفل مسخ؟

– يؤسفني قول ذلك. أعتقد أن عليكما أن تناقشا الأمر وتقررا إن كنتما تريدان الإحتفاظ بالطفل أم لا؟

– هل هي تعرف بكل هذا؟

– من؟ تقصد زوجتك؟ لا، فأنا لم أقل لها لحد الآن شيئا، لكني مضطرة أن أقول لها ذلك، لذا استدعيتك لأقول لك ذلك أولا، ويمكنك أن تخبرها بنفسك أو أخبرها أنا بنفسي، لكني أعتقد أن الأمر سيكون صعبا عليها لذا فضلت أن أخبرك أولاً. سأكتب للبروفيسور آدم آدمز وهو يعرف ما المطلوب في مثل هذه

الحالات.

قامت الطبيبة لتعبّر بذلك عن نهاية المحادثة. قام هو مرتبكا، شاحبا، مرعوباً، وخلال ثوان قليلة، ما بين مكانه والباب وغرفة الإنتظار، عاش عمره كله. تراءت له الأشياء كفيلم سريع جداً، وها هو الآن يقف ليواجه طفله المنتظر، طفله المسخ. راودته مشاعر مختلفة في تلك اللحظة، لكن أهم صعوبة واجهته كانت مسألة إخبار حواء بالأمر. شعر بشيء من الراحة عند سماع أن الجنين المسخ سيموت في كل الأحوال، بالولادة الطبيعية أم بالطلق الإصطناعي، لأن هذا الأمر سيضع، بشكل تلقائي، نهاية لهذه المغامرة، ولهذا الإرتباط الذي جاء نتيجة لنزوة جنسية لا أكثر.

شعر بتأنيب الضمير لهذا الشعور الغريب الذي راوده، لكنه قرر أن يكتم الأمر إلى أن يناقش الأمر مع نفسه ويقرر أية طريقة هي الأفضل لإخبارها بالكارثة، لكن ماذا عن قابيل، هل سيخفي الأمر عنه أيضا؟ ربما سيعرف بطريقته، فهو مهووس بالأطفال، ويعتني بحواء بشكل استثنائي لأنها حامل.

حينما خرج آدم من غرفة الطبيبة، لم يذهب إليهما مباشرة وإنما وقف عند مكتب الإستقبال لأخذ التحويل إلى المختبر وليعطي لنفسه وقتا يستطيع أن يسيطر به على إنفعالاته. جاء قابيل مباشرة إليه وهو يسأله:

– ها.. ماذا قالت الطبيبة؟

– لقد أعطتنا تحويل لإحد مراكز التشخيصات الدقيقة، التي علينا أن نذهب إليها حالاً.

– تحويل لمركز التشخيصات الدقيقة؟ لماذا؟ هل هناك شيء غير طبيعي؟

– لا أبداً، لكنها تريد أن تعرف وضعها الصحي للجنين بشكل كامل، لاسيما وأنها لم تكن عند أية طبيبة منذ أشهر.

إقتربت حواء منه قلقة، وشاحبة، وكانت تنظر في وجهه لتعرف أن كان يخبئ شيئا ما. لم تستطع أن تفهم شيئا، فقد كان وجهه ينم عن قلق، وإحراج، ليس أكثر. سألته وكأنها تستجدي أملاً:

– ماذا قالت لك الطبيبة؟

– لا شيء مهم. إنك ياحواء لم تذهبي إلى الطبيب منذ معرفتك بالحمل. أنا أعرف أن الظروف هي التي حالت دون حصول ذلك، لكن على أي حال، فأن هذه الطبيبة تريد أن تدقق في كل التفاصيل، وضع الجنين، نموه الطبيعي، ووضعك أنت وما شابه، ولهذا علينا أن نذهب إلى المركز حالاً.

– أليس لديها هنا في العيادة جهاز لترى كل شيء؟
– لا. هي تريد فحوصات أكثر من هذه الفحوصات البسيطة التي يمكن أن تجريها هنا وإلا لماذا ترسلنا إلى مكان آخر؟
– ألم تقل لك شيئا آخر؟
– مثل أي شيء؟
– لا أدري.. أي شيء يخص الجنين مثلا.
– لا

كان قابيل ينظر إلى وجه آدم طوال المحادثة بينه وبين حواء. أحس بأن هناك شيئا ما غير مفهوم. لكنه لم يذهب به الفكر إلى تصور ما قالته الطبيبة لآدم. كانت هناك امرأتان تنظران إليهما وتستمعان لحديثما، وعند باب الخروج التفت حواء إلى صالة الانتظار فرأت المرأتين، أحست لوهلة أنها رأت هذين الوجهين، لكنها لم تتذكر أين ومتى..

في المركز الطبي للتشخيصات الدقيقة تم إجراء الفحوصات والتصوير الملون وسحب الدم وقالوا لهم بأن يراجعوا غداً، أو إذا شاءوا أن يراجعوا الطبيبة في العيادة. كان الجو العام كئيبا، وكان آدم كالمحموم. لحظة يكون كئيبا، وأخرى يبالغ في الضحك على أبسط الأمور التي لا تبعث على الضحك. أحس قابيل وحواء بأنه غير طبيعي، لكن لم تذهب بهم الأفكار بعيداً إلى حيث ما دار من حوار في غرفة الطبيبة.

كان الوقت قريبا من منتصف النهار حينما عادوا إلى البيت. شكرت حواء قابيل على جهوده معها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشكره على شيء فعله لهما. أحس هو بالخجل والإرتباك. لم يستطع تحمل هذا القدر من الرقة. بالرغم من أنها عبرت بكلمات بسيطة ومختصرة، لكن نظراتها كانت تشي بكم هائل من العرفان بالجميل. وللحظة أحست أنه أقرب إليها من آدم زوجها. بل وربما هو يحبها ومغرم بها، بالرغم من أنه لا يخفي رغبته فيها وفي امتلاك جسدها، وهذا ما كانت تفضحه به نظراته التي تقبض عليها أحياناً بشكل مفاجئ. وكتعبير عن عرفانها بجميل ما قام به من أخذها إلى الطبيب ومن ثم إلى المركز الطبي للتشخيصات الدقيقة، وكأنه لأول مرة يقدم لهما خدمة، أبدت إستعدادها على أن تقوم بإعداد وجبة الرز مع الفاصوليا والتي تجيد طبخها، إلا أنه اعترض بشدة، وقال إنه سيحمل الطعام من مطعم قريب، وسألها إن كانت قد جربت الطعام الصيني، فوجدت الأمر مثيرا، فقام من لحظته، وطلب من آدم أن يأتي معه. وخرجا.

ظلت جالسة على الصوفا الجلدية. أخذت الأفكار تتداعى في عقلها ونفسها، أيمكن أنها بدأت تحب قابيل؟ لقد كانت تحصن نفسـها، وتضع الموانع النفسـية التي تنفرها منه، لكنها الآن بدأت تتقبل وجوده.

هي تعرف أنه يريد أن يضاجعها، تعرف ذلك جيدا، وهي لا تمنحه أية ذريعة لذلك، لكنه أيضا يهتم بها، ويفكّر بكل ما يريحها، بل هو يكرس كل وقته من أجل أن يكون بين يديها ويخدمها. إنها تعرف أنه يساعد آدم في الكثير من الأمور، فقط من أجل أن يكون قريباً منها، هو يعشقها، نعم، هذا واضح. لكنها تقاوم كل محاولاته للتقرب منها. لكن إلى متى سـتقاوم؟ ما دام هو يكاد يعيش معهم، ولا يفارقهم إلا في وقت النوم. هي تعرف ذلك، وهي تخاف من أن تنجرف مع شهوتها، وتضعف أمام رغبتها، وتمنحه نفسـها، ولا تدري عندها كيف سـتنتهي الأمور؟ ربما بجريمة، إذ ربما إذا ما عرف آدم فأنه سيقتلهما، أو يقتلها، أو يقتله، وفي كل الأحوال ثمة دم وجريمة ستحدث؟! كيف لها أن تتخلص من هذه الورطة التي وجدت نفسها فيها؟ فجأة، برقت في ذهنها فكرة. لمـاذا لا تجـرب الإنتقـال مـن هذا الشـقة إلى شـقة أخرى، فـي منطقة أخرى من برلين، كي تكون في منأى من حصاره الجنسـي لها. لكن كيف لها أن تقنع زوجها آدم؟ ماذا ستقول له لكي يقتنع بضرورة الإنتقال؟ أن تقول بأن الشقة صغيرة حجة ضعيفة فالشقة كبيرة وفيها غرفة أخرى فارغة. أتقول له بأنها غير مرتاحة لقابيل، فسيسألها أن كان قد تحرش بها، وحينما تنفي ستسقط حجتها، وإذا ما أكدت ذلك فربما سيتشاجر معه، أو سـيطلب قابيل مواجهتها لتثبت ذلك، فهو لم يلتق بها لحد الآن بغياب زوجها. ما هو الحل؟ كانت تشعر نفسها محاصرة.

كانت لا تزال في دوامة أفكارها ومشـاعرها حيينما سـمعتهما يفتحان باب الشـقة ويدخلان، وهما يبتسمان. وحينما لاحظ آدم بأنها لم تحضر الصحون والملاعق، وإنما كانت في نفس الحال عندما تركاها، فنظر إليها وكأنما يعاتبها على هذا الأمر. أحست هي بالتقصير، إلا أن قابيل تدارك الأمر قائلا وهو يؤنب آدم:

– لماذا تنظر إليها هكذا؟ ماذا فعلت؟ لا تنسَ أنها حامل.

ودلف إلى المطبخ ليضع الطعام هناك، ثم يفتح الخزانة ليحمل الصحون. إرتبكت مـن تصرفـه، وذهبـت هـي إلى المطبخ أيضا لتأتي هي بالصحون والملاعق. كان الطعام شهيا جداً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تجرب حواء المؤمن الطعام الصيني.

آدم البغـدادي: شخصية حواء غريبة، هي تعرف أن قابيل يريد أن يضاجعها، وهي لا تمنحه أية ذريعة لذلك، وتتمنى أن يبتعد عن حياتها، لكنها أيضا مستمتعة بإهتمامه الواضح بها، وبجرأته في التقرب منها ومنحها إحساساً بأنها مهمة جداً بالنسبة له أكثر من زوجها، لذا فهي لا تريد أن تخسره؟ عجيبة هي نفسية المرأة.

علق آدم المحروم على ما قرأ وما علق به صديقه على الفصل، فعلق هو مـع نفسـه: أعتقـد أن هـذا في أعماق المرأة. فحواء ابنة آدم الزاهد أيضا تلوح لي بإشارات خفية، بالرغم من أنها أمرأة تقية، ومؤمنة، ومتدينة، وأم. لكنهـا امـرأة أيضـا، أمرأة محرومة بثديين عامرين وجسد شامخ. لا أدري لماذا لدي أحساس بأنها ستكون لي، برغم حشمتها. لم أكن أعرف أنـك خبيـر هكـذا ياصديقـي. فلقد كنـت زاهداً بكل شـيء. أخذ المخطوطة وواصل القراءة.

البئـر ذات المياه السوداء

أحسـت حـواء المؤمـن بلـذة الغـذاء الصينـي. لكنهـا لا حظـت أن زوجها آدم ليس علـى عادتـه. فقـد كان يسـهو للحظـات عنهما، لكنه سـرعان ما يعـود إلى طبيعته. قابيل حاول، حينما ذهبا إلى المطعم الصيني أن يعرف منه سبب تقلباته المزاجية، فلم يعطه جوابا شافيا. كل ما هناك أنه أشار إلى أن وجود طفل في العائلة يعني وجود مصاريف جديدة، وأن وضع حواء النفسـي لا يعجبه، فهي تتصور أشـياء غريبة لـم تحصل، مثلما ادعـت اليـوم بـأن هنـاك مـن طرق الباب في السـاعة الثالثة فجرا تقريبا، وأنه هو قد فتح الباب فلم يجد أحداً، بل إنه خرج لينظر إلى أسفل السلم فرأى ظلاً أسود، وما شابه، وهذا مؤشر غير جيد. يبدو له أنها ليست في وضع نفسي مستقر. إلا أن قابيل رده، بأن حواء امرأة رائعة وأنها سيدة محترمة، وست الستات، لكن ربما هي تعبانة من الحمل، وهذه حالة طبيعية عند النساء. أما في ما يخص وضعهم فليترك القلق لأنه سيكون إلى جانبهم. وأن عليه أن يكون لطيفا معها.

وهكـذا لـم ينطـق آدم بـأي كلمـة عن الكارثة التي تنتظرهـم، ربما اعتقد بأن الوقت غير مناسـب، لأنه بالتأكيد سـيحتاج إلى دعم قابيل في إقناعها بضرورة إجراء العملية، عندما سـيخبرهما بما قالت الطبيبة، وهذا ما سـيفعله بعد أن تظهر النتائج بشـكل كامل

ويتيقن منها، مثلما تتيقن الطبيبة نفسها من ذلك.

بعد الغداء قامت هي لإعداد الشاي، وكان جالساً على الصوفا الجلدية المقابلة للمطبخ. وبينما ذهب آدم إلى الحمام كان هو يسترق النظر إلى حواء المؤمن. التفتت هي نحوه، وابتسمت، ثم غابت ثانية عن ناظريه. فكر قابيل مع نفسه. هذه هي المرة الأولى التي تبتسم له، فقد كانت دائما لا تعطيه أي مجال لشيء خاص بينهما، وكأن علاقته هي مع زوجها فقط، لذا فسر هو ذلك بأنها قد غيرت من نظرتها إليه.

كان في بداية الأمر في شك من هذا التحول، لكنه انتبه لذلك حينما شكرته على ما قام به حينما أخذها إلى العيادة ومن ثم إلى المختبر. وكذلك أحس بهذا حينما لم تتركه يقوم بإحضار الصحون عند الغذاء. صحيح أن هذه أمور بسيطة ولا تعني أي شيء، ويمكن النظر إليها دون تحميلها هذه الأبعاد، لكنه ومنذ انتقالهم إلى برلين يحس بنفورها منه، وصدها له مهما حاول التقرب منها أو حتى من زوجها. لكن هذه المرة اختلف الأمر. أحس أن الثمرة قد نضجت، وعليه الإقدام على خطوة جريئة لتصبح له بالكامل، لكن ماذا عليه أن يفعل؟ إنه يتمنى أن يكون معها ولو لمرة واحدة على إنفراد، لأنه يعرف حينذاك بأنها إما ستكون له وإما يخرج من حياتها إلى الأبد، لكن كيف يمكن أن يكونا وحدهما؟

فكر أن هذا لا يمكن إلا بإبعاد زوجها من الشقة لفترة طويلة، لتكن لساعات على الأقل. فجأة برقت في ذهنه فكرة خبيثة، ألا وهي أن يدعي بأن لديه عملاً خاصاً جداً، وأن على آدم الذهاب إلى أحد أطراف برلين، إلى منطقة شبنداو، سيعطيه العنوان من أجل جلب السيارة، وسيسلمه المبلغ أيضا.

حينما خرج آدم اللبناني من الحمام، وكانت حواء المؤمن في المطبخ، قال له قابيل مباشرة:

– إسمع يا آدم، أنا عندي الآن موعد مع صاحب البضاعة. كنت أريد أن نذهب معاً لجلب السيارة، لكني سأتصل بصاحبها، وأعطيك عنوانه بالكامل، وستذهب بالتاكسي، ومن هناك سترجع بها، خذ معك إجازة السوق، وهو سيزودك بملكية السيارة، وغدا سننقل الملكية.

إستغرب آدم من ذلك، وقال متسائلا:

– ألا يمكن أن نذهب غداً معاً؟

– لا. ربما سيغير رأيه، إنه عرض سعراً مقبولا، وربما سيغير رأيه لو تأخرنا عليه.

– لكن..

– ماذا يا أخي.. هل أنت غير واثق من نفسك ومن سياقتك؟
– لا.. على العكس أنا سائق محترف وأنت تعرف ذلك.
– إذن على بركة الله.. بعدما نشـرب الشـاي سـننزل عندي، ونتصل به، وأعطيك المبلغ المتفق عليه معه. أنا سـأذهب لسـاعة أو سـاعتين، وبهذه المناسـبة أود أن أدعوكما عندي، لكن شقتي تحتاج لبعض الترتيب.
في هذه الأثناء جاءت حواء بصينية الشـاي وفيها دورق الشـاي والاسـتكانات، وقد سمعت الجملة الأخيرة، فقالت ببراءة:
– أنا سأرتبها لك، متى تريدها جاهزة؟
– لا.. أنت حامل.. ربما ستتعبين، يمكنني أن أستأجر من يأتي لتنظيفها.
تدخل آدم متحمسا وهو يقول:
– لمـاذا تدعـو أحـدا..؟ يمكنهـا أن تنظفهـا لـك خـلال سـاعة.. بينمـا أنت تذهب لموعدك، ستكون هي قد رتبتها لك أحسن ترتيب.
– قل فقط متى تكون أنت خارج البيت وأنا ساقوم بذلك.. لا تقلق.
– بعد أن نشرب الشاي، سننزل أنا وأنت ونتصل بصاحب السيارة، وقبل أن أذهب سأنادي حواء كي تنزل إلى شقتي.
– ليست هناك أية مشكلة. قالت هي.
أحست هي برغبة مفاجئة في أن تزور شقته وترتبها له، وتدخل غرفة نومه. لا تدري سر هذه الرغبة المفاجئة في أن تقترب منه، لتعرف عالمه.
كانت العجلة واضحة عليه وهو يشـرب الشـاي، وكان يفكر بسـرعة هائلة في كل تفاصيل خطته. فكر أنه لا يسـتطيع أن يهجم عليها مباشـرة أو أن يغتصبها، فهو يريدها طيعة لاسيما وهي حامل، وأية حركة عنيفة من قبله أو قبلها ربما ستأتي بنتائج كارثية، لكن كيف عليه أن يوصلها إلى تلك المنطقة. فكر في أن يضع أقراصه المدمجة والتي تتضمن أفلاماً إباحية، لاسيما تلك التي تصورالنساء الحاملات وهن يمارسن الجنس، بطريقة تقع أمام عينيها، ولتكن على سريره في غرفة نومه مثلا، وحينما سيفاجئها ستكون الأمور واضحة، وسيعرف موقفها. على أية حال عليه أن ينجح أولا في إبعاد زوجها.
بعد أن شرب استكانا واحدا من الشاي، نهض من مكانه وكأنه على عجلة لإنجاز مهمته والذهاب إلى موعده. نظر إلى آدم وقال له:
– سأنتظرك في الشقة.
ثم التفت إلى حواء المؤمن وقال لها بنبرة هادئة:

– قبل أن أذهب لموعدي سأخبرك كي تنزلي.

حينما خرج التفتت حواء المؤمن إلى آدم وقالت له:

– الآن صرنا وحدنا، قل لي لماذا نكرت أنك فتحت الباب فجراً، ولم تجد أحداً؟

– ماذا تقولين؟ أنا فعلاً لم أفتح الباب لأحد، وكنت نائماً، ظننتك تقصدين شيئا من وراء ذلك، لكني لم أفهم.

– هل تمزح معي أم ماذا؟ ما معنى أنك لم تفتح الباب؟

– أقسم لك أنني لم أفتح الباب.

فقالت حواء بنبرة عصبية واضحة:

– ماذا هل أنا مجنونة كي أتخيل كل هذا؟

– أنا لم أقل ذلك؟ لكني فعلا لم أفتح الباب لأحد.

صمتت هي للحظات ثم نظرت إلى وجهه دون أن يرف لها جفن كي ترصد رد فعله، ثم قالت:

– أتدري من رأيت من وراء العين السحرية في الباب؟

– رأيت الراهبتين. الراهبتين اللتين رأيتهما في المستشفى في مدينتنا الأولى.

فجأة أحس آدم بأنه لا يستطيع أن يبقى هادئا أمام كل هذا الهراء، والتخيلات المجنونة، فقال ربما يشبه الصراخ:

– هل أنت في كامل قواك العقلية يا حواء؟ الراهبتان مرة أخرى؟ كيف جاءتا إلى برلين؟ وكيف عرفتا العنوان؟ ومن ثم ألم تقل لنا الإدارة في حينها بأنه لا توجد راهبات في تلك المستشفى؟ وأن كل ذلك من أوهام المرضى. وأنت والحمد لله لست بمريضة الآن. وأننا لو أفترضنا جدلاً أنهما كانتا حقا هنا، فلماذا جاءتا في الساعة الثالثة فجراً وليس في الصباح مثلا؟ ولماذا طرقتا على الباب ولم تضغطا على الجرس؟ و. و..

صمتت أمام عصبيته المفاجئة، إلى جانب أن حججه كانت منطقية جداً. لاسيما أنه كيف عرفتا عنوانها هنا في برلين، ولماذا جاءتا في الثالثة فجرا وليس في وقت آخر؟ ولماذا طرقتا على الباب طرقا خفيفا ولم تضغطا على الجرس؟ وإذا كانتا فعلا قد جاءتا خصيصا إليها هنا في برلين، فمن أين حصلتا على العنوان؟ ولم تأتيا إليها حينما خرجت من المستشفى مباشرة، أو حينما انتقلت إلى إيسن؟ ومن أين عرفتا أنها صاحية ولم تنم بعد؟

غرقت هي في أفكارها وتداعياتها، بينما نهض وهو يقول:

– أنا ذاهب إلى منطقة شبنداو بالتاكسي لكني سأرجع بالسيارة. هل تحتاجين مني شيئا؟

نظرت إليه نظرات شاردة، وقالت بإستسلام:

– لا.. سلامتك.. لا أحتاج لأي شيء.

خرج آدم من الشقة، نظر إلى جهة المصعد فوجده مستقرا في طابقهم، ولرغبة خفية غامضة، دخل إلى المصعد وهبط إلى الطابق الذي فيه شقة قابيل، على الرغم من أنه طابق واحد. إستغرب من نفسه ومن هذه النزوة الغريبة.

جرت الأمور مثلما خطط لها قابيل، وكأنه سيناريو سينمائي محكم. إتصل من تليفونه الأرضي بالشخص المعني، وأخبره بأنه سيرسل له شخصا اسمه آدم، يحمل له المبلغ المتفق عليه، وأنه يسلمه أوراق ملكية السيارة

أعطى المبلغ لآدم، مع مبلغ جيد يكفي لسيارة التاكسي التي ستقطع تلك المسافة البعيدة في برلين. وبعدما خرج آدم دخل قابيل إلى غرفة نومه وأخرج بعض الأقراص المدمجة ووضعها بشكل غير متناسق على السرير، ثم دخل إلى الحمام ليحلق ذقنه ويستحم.

كانت حواء المؤمن في حالة نفسية قلقة، لكنها شعرت بشيء من الراحة حينما خرج آدم وبقيت وحدها. ظلت جالسة على الصوفا الجلدية. أحست برغبة في النوم، لكنها وعدت قابيل بأن تنظف له شقته، غير أنه لم يأت، فقامت متوجهة لغرفة النوم. لم تدخل الفراش، وإنما تمددت قليلاً، فلربما سيأتي قابيل. لكنها ظلت غير مصدقة ما جرى بينها وبين آدم من حوار. هل وصل بها الوهم بحيث تتوهم قيامه وفتحه للباب وخروجه عاريا إلا من سرواله لينظر إلى أسفل السلم؟ ظلت تفكر بما جرى لها ليلة أمس ودلالته. لا تعرف كيف أخذتها الغفوة إلى حقول غريبة.

كانت وحيدة في قطار. لم يكن ثمة أحد في كل العربات. كانت وحدها. لكنها لم تكن حاملا. وكانت في ثوبها الأسود الجميل الذي وصلت به إلى برلين، وعليه كانت ترتدي نفس البلوزة البرتقالية. كان القطار يمشي سريعا جداً. من النافذة بدا لها أن القطار بدأ يخترق الضباب. ضباب كثيف. والقطار يطلق صفارته في الريح. فجأة إنقشع الضباب. وجدت أن القطار بدأ يدخل طريقا مشجرا من كلا الجانبين. كانت أغصان الأشجار ترتطم بعربات القطار من الجانبين. وصل القطار إلى صحراء بيضاء. صحراء من الثلج. توقف القطار. من النافذة رأت ثمة بئراً حجرية تتوسط تلك البراري الثلجية اللامتناهية. إنفتح الباب من تلقاء نفسه. أحست وكأنها يجب أن تذهب إلى تلك البئر

التي لم تكن بعيدة جداً من القطار، لكن أيضا لم تكن قريبة منه.

نزلت من القطار. مشت في الثلج. وصلت إلى البئر. رأت دلوا معلقا بها، أنزلت الدلو إلى قاع البئر، لكن البئر كانت عميقة جداً. وأخيرا سمعت إرتطام الدلو بالماء. سحبت الدلو إلى الأعلى. ظلت تسحب الدلو، وحينما سحبت الدلو ألقته مباشرة، إذ كان الدلو مليئا بماء أسود. ومن أعماق البئر جاءت أصوات قهقهات ساخرة. هربت من البئر ولاذت بالقطار ثانية.

ما أن صعدت حواء المؤمن إلى القطار حتى انتبهت إلى أنه لا أحد في القطار سواها. أُغلقتْ الأبواب من تلقاء نفسها، وبدأ القطار بالحركة. إزدادت سرعته بطريقة جنونية. أحستْ أن القطار بدأ يرتفع عن السكة الحديدية، ويتلوى في الهواء مثل ثعبان عملاق. بعد فترة هبط سائراً على بحيرة متجمدة. ظلَّ يدور حول محيط البحيرة، ثم بدأ بحركة دائرية متداخلة مشكلاً رقم ثمانية كما يُكتب في اللغات الأوربية. صعد القطار ثانية إلى الفضاء، ثم نزل مرة أخرى على السكة الحديدية. دخل القطار نفقاً في أعماق جبل. سمعتْ صراخَ أطفال مرعوبين. لم تعرف من أين هذا الصراخ يأتي فالظلمة كانت دامسة. وأخيراً خرج القطار من النفق. إختفى صراخ الأطفال المرعوبين، لكنها سمعت بكاء طفل وحيد يأتي من العربة المجاورة.

حين فتحتْ بابَ العربة المجاورة كان ثمة مهد كبير الحجم، يرقد فيه طفل، لكنه ليس طفلاً وإنما مسخ كبير. طفل - مسخ رأسه كبيرة جداً، بينما جسده لا يتجاوز حجم الكف. كان الطفل ينظر إليها بعينين واسعتين جدا. إنه أشبه بكائنات الفضاء التي كانتْ تراها في بعض الأفلام. فجأة اختفى الطفل، وتحول إلى هيئة زوجها آدم اللبناني، لكنه كان بقرنين صغيرين على رأسه. فزت مرعوبة، بينما كان جرس باب الشقة يرن.

إستعاذت بالرحمن وقامت متسللة خارج الغرفة. وحينما فتحت الباب وجدت قابيل أمامها. كان حليق الوجه، فواح الرائحة، إذ رش على وجهه الكثير من العطر، وقد لبس قميصا نظيفا. إبتسم لها. لم تستطع أن تبتسم فهي مازالت تحت تأثير ذلك الكابوس الغريب، لكنها ارتاحت لوجوده، فقد منحها وجوده شيئا من الأمان. كانت تريد أن تخرج من الشقة. وبدون أن يقول شيئا، عرفت أنه جاء ليخبرها لتنزل.

أغلقت الباب خلفها ونزلت معه. كان باب الشقة مفتوحا. وحينما صارا في الشقة، قال لها بأن تأخذ حريتها، إذ عليه أن يجري إتصالاً سريعا بالشخص الذي يرتبط معه على موعد ويخبره بقدومه. بدأت هي من المطبخ. لم يكن هناك الكثير لتعمله في المطبخ. بينما أخذ هو سماعة التلفون وضرب رقما وهميا، ثم قطع الإتصال، لكنه أخذ

يتحـدث وكأن هنـاك شـخصاً مـا علـى الطرف الآخر مـن التلفون وأخذ يقول له بصوت عال كي تسمع هي:

– أهل وسهلا، نعم هذا أنا قابيل. نعم نعم، إتفاقنا اليوم، بعد نصف ساعة، ماذا؟ ماذا تقول؟ لماذا؟ كيف بعد ثلاث ساعات، لا.لا. لدي أعمال أخرى بعد ثلاث سـاعات، لدي ضيوف، ماذا تقول، غداً؟ أكيد غدا أم أنك سـتلغي الموعد مرة أخرى؟ لا.. لا.. هذا غير ممكن.

وضـع السـماعة علـى الجهـاز. وجلـس وعلى وجهـه علامات النفـور، وكان يراها تتحرك في المطبخ. لقد سمعت هي كل شيء، ويبدو أن رغبة دفينة في أعماقها كانت تتمنى بألا يذهب. وهذا ما جرى. رأته وعلامات العصبية على وجهه، فقالت:

– ماذا؟ هل تأجل الموعد؟

– – نعم؟ إلى الغد

– أحسن.. إلى الغد.. إلى الغد.. ما المشكلة في ذلك؟

نظر إليها غير مصدق ما سمع. فكر مع نفسه ربما قالت ما قالت ببراءة هكذا دونما أي قصد. وجاء صوت داخلي آخر يقول له، بأنه ليس هناك كلمات تقولها امرأة لرجل بـدون قصـد، فحتـى لـو كانـت بدون قصـد فهي مقصودة كي تبدو بدون قصد. إنتبه إلى أنها اتجهت إلى غرفة نومه. حبس أنفاسه ليرى ردة فعلها على رؤية الأقراص المدمجة. لم يصدر منها أي صوت.

مرت دقائق دون أن يصدر منها أي صوت. ماذا جرى؟ مرت أكثر من خمس دقائق والسكون يهيمن على غرفة نومه. فقام متسللا بخفة إلى غرفة النوم. حينما دخل على مهـل رآهـا وهـي واقفـة تنظر إلى الأقراص المجمدة، وبالتحديد إلى أغلفتها التي كانت مزينة بصور للنساء الحوامل وهن في أوضاع جنسية مختلفة. لم تلتفت إليه، لكنها كانت تدرك أنه قد دخل الغرفة. إقترب منها. لم تتحرك من مكانها. صار خلفها مباشرة، فلم تتحرك. كانت هي كالمخدرة. أحسـت أنها تنهار. لا تسـتطيع المقاومة أكثر. عرفت أنه خطط لكل ذلك، أدركت بسرعة بأنه أبعد زوجها آدم، واختلق الموعد، ووضع الأقراص على السـرير متقصدا لكي تراها. ماذا تفعل؟. صار خلفها مباشـرة، وبدون أي مقاومة احتضنها من الخلف. كادت تنهار من الشبق. مد يده مباشرة إلى بطنها، ثم إلى أسفل بطنهـا. وبالرغـم مـن أنهـا كانـت ملتهبة إلا أنهـا تمانعت وصدته. رفعت يديه عنها وهي تقول:

– ماذا تفعل يا قابيل؟ لا يجوز ذلك..

– لمـاذا لا يجـوز؟ أنـت تعرفيـن كم أحبك أنـا؟ أنا أموت فيك، الدنيا كلها أضعها تحت رجليك.

– لا.. لا يجوز.. أنت صديق زوجي.. يعني صرت من العائلة.

– ثم ماذا؟ ما الغلط في هذا؟

– ثم لا تنسَ أنا حامل.

– وماذا يعني؟ انظري لهؤلاء النساء الجميلات بالصور التي على غلاف الأقراص هذه، ولو تشاهدين الأقراص لرأيت العجب.

– وإذا جاء آدم؟

– آدم لن يجيء الآن، آدم تائه في برلين.

– لا..لا..لا يجوز..

كانت تتنقل من مكان إلى مكان، لكنها لم تخرج من الغرفة. تأكد أنها تريد ذلك لكنها لا تريد أن تستجيب من ذاتها، إذ عليه أن يبادر بأخذها بالقوة، وربما تنتظر هي هذه المبادرة منه، كي تغفر لنفسـها ما سـيجري. وبدون أي كلام أو حوار آخر مسـك بها وأجلسها على السرير. انتبه إلى أنها كانت طائعة ولم تقاوم. أضجعها على ظهرها. ونزع بنطاله بسرعة. رفع ثوبها إلى الأعلى فانكشف نصفها الأسفل أمامه، لاسيما بطنها المتكورة التي زادت من شـبقه. أولجه فيها برفق. كانت رطبة جدا. أطلقت آهة شـبقة. قالت له:

– -أكرهك.. عليك اللعنة.. أكرهك..لكن ريحني..أرجوك ريحني..

أحسـها ملتهبة. لم يكن يتوقع الأمر سـيكون بهذه السـهولة. وما أن بدأ يهرس فيها حتى أخذت تطلق الشتائم وهي تلهث:

– يا حقير.. يا كلب.. خططت لكل هذا.. ماذا تريد بعد؟.. لقد وصلت لمرادك.. سأصير قحبتك.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

لم ينطق هو بأي كلمة. كان يستمع إليها وهو منشغل بنفسه وشهوته، لكنه لم ينته منها. فجأة سـحب نفسـه منها. ووضع رأسـه على بطنها، وهي يمرغ وجهه على بطنها الكبيـرة ويقبلهـا بشـغف. وصلـت إلـى أنفه رائحة غير طيبـة انبعثت من فرجها، لكنه لم يأبه لذلك. ظل فترة على هذه الحال. كانت هي مسـتمتعة بذلك، وكانت تريد منه أن يدخـل فيهـا، لكنـه كان يعانـد وكأنـه لا يسـمعها، أراد أن تشـتعل رغبة فيه، أن تتوسـله، فقال وهو يلهث:

– أريدك أن تتوسلي في أن أني..

- أتوسل إليك.. أبوس أيدك ورجلك أن تريحني.. أن تني..

في تلك اللحظة رفع ساقيها إلى الأعلى وأطبق نفسه على جسدها الرطب واللدن. ظل لحظات على هذه الحال، لكنه، فجأة، لم يعد يستطيع تحمل الرائحة النتنة التي كانت تنبعث منها. إنسحب عنها وذهب مسرعا إلى الحمام لينهي رغبته هناك. كانت هي في ذروتها التي لم تصلها بعد.فاجأها تصرفه، لا سيما وهي تعرف أنه لم ينته بعد أيضا. أحست بالإهانة لتصرفه. وبينما كان هو في الحمام، سمع هو باب الشقة يطبق بقوة. عرف أنها خرجت غاضبة. لكنه أحس بنشوة الإنتصار، وأحس أنها صارت ملكه هو.. عبدته أو قحبته كما قالت هي بنفسها. لكنه لم يكن يتوقع أن تنبعث من فرجها مثل هذه الرائحة.

حين نظر إلى نفسه في المرآة رأى قرنين صغيرين قد نبتا على صدغيه. إبتسم لنفسه إبتسامة الشيطان الماكرة.

آدم البغدادي: ربما انهارت أحلام قابيل بعدما شم الرائحة النتنة التي تنبعث من أسفل حواء المؤمن؟ هذه هي جوهر الرغبة البشرية، إنه نفس اللحم والدم والعضو الذي يمنح اللذة والحياة، فهو أيضا نتن وعفن ويمكن أن تنبعث منه الجيفة. هذا هو الإنسان بسموه وانحطاطه.

علق آدم الحروم على الفصل مستغربا من الطريقة الذكية غير المباشرة للمفاتحة الجنسية الصريحة بوضع الأقراص المدمجة في موضع تراه حواء المؤمن. لكن ماذا يضع هو في هذا البيت المليء بالكتب الدينية؟ فكر مع نفسه. لا. لكل امرأة مفتاحها الخاص بها، وإلا ألا يضاجع الشيوخ ورجال الدين باسم القرآن والسنة والدعاء؟ بل إن آيات الله الجدد بالملابس الأوربية لم يتركوا موظفة إلا وعرضوا عليها زواج المتعة. سيبحث عن مفتاح حواء الزاهد أم الملاك بنفسه.

الجيفـــة

حينما دخلت حواء المؤمن شقتها وأغلقت الباب خلفها أخذت تلطم وجهها بيديها ندما. كانت تندب حظها العاثر وضعفها الذي أخذ يحولها إلى كلبة تبحث عمّن ينط

عليها، بل وتتوسل من أجل ذلك. دخلت الصالة وذهبت لتجلس على الصوفا الجلدية. كانت تفكر بما جرى لها قبل قليل في شقة قابيل.

وفي خضم تدافع الأفكار في ذهنها سألت نفسها: لماذا تركها وخرج من الغرفة؟ هل لأنها مملة ولا تعرف فن المضاجعة أم أنه أكتشف شيئا ما في جسمها؟ هل لأنها حامل وجسدها غير متسق؟ لا.. وإلا لماذا أخذ يقبل بطنها المكوّرة بهوس، أي أنه كان يعرف أنها حامل، بل بدا أن ذلك يعجبه فهو يشاهد مثل هذه الأفلام أصلا؛ إذن لماذا تركها؟ هل يريدها أن تركض لاهثة خلفه كالكلبة من أجل أن يلبي رغبتها؟ لكن كيف سمحت لنفسها أن تنساق له بهذه الطريقة المهينة؟ وماذا لو عرف آدم؟ لكن من أين يعرف؟ كيف ستتصرف مع قابيل؟ إنها تكرهه لإهانته لها لعدم إشباعها ولأنه لم ينهِ وطره، هذا جرح لكرامتها وأنوثتها فهل ستذهب إليه ثانية؟ وكيف ستتصرف معه أمام آدم، وكأن شيئا لم يكن؟ ما الذي يجري معها بالضبط، أتحولتُ إلى عاهرة؟ ما فرقها عن بقية العاهرات إذن؟ هل تقاضي المال على الممارسة هو الفرق؟ هو أيضا دفع ما يكفي لهما، وبالتأكيد كان يريد أن يحصل على شيء بالمقابل، وهو واضح جدا في هذا، وقد حصل عليه الآن، لكن لماذا تركها وذهب إلى الحمام دون أن ينتهي منها؟ أسيحاول مرة أخرى؟

وبشكل لا إرادي بدأت الصور تتداعى في ذهنها. ها هي تستعيد مشهد جيفة قوية لحصان فاطس وهي طفلة صغيرة تقف مع فتيات بعمرها ينظرن إليها. كانت الكلاب قد نهشت معظم جثة الحصان الفاطس، ولم تبق سوى بقايا من جهة الرأس والقفص الصدري المهشم. كان الذباب الأخضر والمائل للسواد، الكبير الحجم، يطلق أزيزا وهو يطير قريبا من هذه الوليمة النتنة. فجأة أحستْ بالغثيان وهي تستعيد تلك الصور. قامت مسرعة إلى الحمام. حاولت التقيؤ فلم تستطع، لكنها كانت تشم رائحة نتانة خانقة. خرجت من الحمام فانتبهت لانتشار رائحة النتانة في كل أرجاء الشقة. فتحت نوافذ الشقة عسى أن يتغير الهواء الفاسد.

بعد دقائق خفت الرائحة قليلاً، لكن، بالرغم من ذلك، كان ثمة شيء من العطن يزكم أنفها. ذهبت إلى المطبخ وفتحت جردل النفايات عساها تجد ما يبعث على تلك الرائحة، لكنها لم تجد شيئا يشي بذلك، فليس هناك سوى ثفل الشاي. وبينما كانت هي في المطبخ سمعت صوت جرس الباب. من تراه أتى؟ آدم لديه المفتاح، أيكون قابيل جاء ليتواصل معها؟ لا لن تقبل، فربما سيأتي آدم؟. ذهبت لتفتح الباب. ولسرعتها غاب عنها أن ترى القادم من خلال العين الساحرة، وحينما فتحت الباب صارت وجها

لوجه مع الراهبتين.

ظلت تنظر إليهما غير مصدقة. شحب لونها. لم تقل أي شيء عسى أن يكون ماتراه وهما، لكنها فاقت إلى الموقف الذي هي فيه حينما سمعت الراهبة المسنة تلقي عليها التحية:

– كيف حالك أيتها السيدة حواء المؤمن؟

ظلت صامتة لا تجيب، فقالت لها الراهبة الشابة برجاء لكن بثقة أشبه بالأمر:

– أتسمحين لنا بالدخول؟ لقد جئنا من مكان بعيد تعرفينه جيداً.

لم يكن أمامها سوى أن تتنحى جانبا فدخلتا. ظلت هي للحظات جامدة في مكانها، لكنها استدارت ومضت خلفهما. وبدون أن تطلب منهما الجلوس جلستا على الصوفا الجلدية. نظرت إليها الراهبة المسنة بحنان، وهدوء كي تبعث الثقة في نفسها، فقد انتبهتا لارتباكها وخوفها، ثم قالت لها:

– أنت متفاجئة من حضورنا، أليس كذلك؟

ظلت حواء المؤمن صامتة، كانت مستغربة من أن رائحة النتانة قد اختفت، فاستمرت الراهبة بالحديث:

– إسمعي جيدا يا حواء.. أنت تعرفيننا، وقد التقينا في مستشفى مدينتنا الأولى قبل أن تنتقلي إلى أيسن، ومن ثَّم إلى برلين. ونعرف أنك حامل. وهذا الحمل حدث حينما كنت تسكنين في مدينتنا. أليس كذلك؟

هزت حواء رأسها بالإيجاب، مؤكدة كلام الراهبة. فقالت لها الراهبة الشابة:

– لقد جئنا إلى هنا من أجلك وبسببك.

نظرت حواء المؤمن إليهما بإستفهام، فأجابت الراهبة المسنة، بطريقة أكثر هدوءا:

– لا نريد أن ندخل الروع في قلبك، لأننا كما تعرفين نحضر دائما من أجل مساعدة الناس، لاسيما لمن كان وما زال في مدينتنا. ولأن الجنين تشكل في مدينتنا فنحن نجد أنفسنا من رعاة الأمهات الحوامل، وطبعا المسنين والذين يحتاجون للمواساة.

كان كلام الراهبة المسنة له تأثير طيب جدا عليها، وبنشر الإطمئنان في نفسها، فقالت:

– ولكني بخير.

تبادلت الراهبتان النظرات بصمت، وأخيرا قالت الراهبة الشابة لها:

– لا. أنت لست بخير يا حواء.

لم تفهم حواء المؤمن شيئا. نظرت بفزع إليهما محاولة أن تقرأ الجواب في نظراتهما وملامح وجهيهما، لكنهما لم تستطع أن تفهم أي شيء من ذلك، فلم يكن أمامها إلا أن تسألهما، بفزع:

- ما الأمر؟ لِمَ أنا لستُ بخير؟

- بسبب الجنين الذي في رحمك. أجابت الراهبة الشابة.

- الجنين؟

مسكت حواء المؤمن بطنها مرعوبة ظنا منها بأنهما سوف تفعلان بها شيئا، أو بالتحديد بجنينها، وتمتمت فزعة:

- ما به؟

هيمن صمت ثقيل على الثلاث، إلى أن أزاحته الراهبة المسنة جانبا، حين قالت لها بهدوء أمومي وبتعاطف ونبرة حنونة:

- إسمعي يا حواء ما سنقوله لك.. والأمر بعد ذلك متروك لك أنت. نحن علينا إبلاغك أولا وقبل كل شيء، ونتمنى أن تستمعي لنا بهدوء، وبتفهم، وبدون خوف أو أي تصورات أخرى.

كانتا تنتظران منها أي إشارة ايجابية كي تستمرا في الحديث إليها، وبعد صمت دام للحظات قالت:

- أنا أسمعكما.

- إسمعي يا حواء، إنك حامل بجنين مسخ.

استنكرت حواء هذه الكلمة، وقالت:

- مسخ؟ ما معنى مسخ؟

فوجئتا بردة فعلها. نظرتا لبعضهما، ثم قالت الراهبة الكبيرة مستمرة بالحديث، وكأن عليها أن توصل رسالة ما مهما كانت ردة فعل المستقبل:

- إن الجنين الذي في بطنك هو مسخ، يعني أنه جنين لطفل مشوه. إنه علامة على الإستعداد لحمل الصليب، لتقبل الآلام، وولادة هذا الجنين ستجلب الآلام لك. ستسمعين كلاماً كثيرا، وهناك من سيحاول إقناعك بإجهاضه، لكن هذا الطفل بكل ما فيه هو من عطايا الرب. وعلينا تقبل عطاياه مهما كانت. سيقولون لك إن عليك أن تجهضيه بأي شكل، لأنه سيدمر حياتك، وحياة الكثيرين غيرك، وجوده علامة شر قادم، لكننا أردنا أن نقول لك، إنك ستتطهرين من خلال تقبلك هذه العطية.

لم تستطع أن تستوعب كلامها، بالرغم من أنها بحضور هاتين الراهبتين تحس وكأنها تجيد اللغة الألمانية بشكل كامل، لذا عدم استيعابها لم يكن بسبب حاجز اللغة، وإنما بسبب مضمون المعلومات المرعبة التي استمعت إليها من الراهبة. لم تجد نفسها إلا وهي تدافع عن جنينها بشراسة، وهي تقول:

– ما هذا الذي تقولينه؟ هذا غير صحيح، لقد كنت اليوم عند الطبيبة بعد أن شعرت ليلة أمس بالألم، ولم تقل لنا أي شيء

– ليس ليلة أمس، إنما فجر هذا اليوم، وفي الساعة الثالثة، وكنت أنت هنا تتألمين، وكنا نحن هنا أيضا، طرقنا الباب ولم تفتحي. واليوم كنتم عند الطبيب. نحن كنا هناك أيضا.

– كنا جالستين في صالة الإنتظار لكنك لم تنتبهي إلينا لأننا كنا بثياب أخرى. قالت الراهبة الشابة.

– والطبيبة رأت كل شيء، وقالت لزوجك عن كل شيء، ولكي تتيقن مائة بالمائة وتخلي مسؤوليتها القانونية، أرسلتكما إلى مركز التشخيصات الدقيقة. كنا هناك أيضا. لكنك لم تنتبهي إلينا مرة أخرى. ولم يكن أمامنا إلا أن نزورك ونبلغك بأنهم سيحاولون إقناعك بضرورة إسقاط الجنين. عليك تحمل أمره إلى النهاية. ربما لن يعيش طويلاً بعد الولادة، لكن يجب أن لا تقتليه أنت، لأنك حينها ستتعذبين كثيرا. الله يعطي والله يأخذ. اتركي أمرك إلى الله وحده.

كانت حواء المؤمن تستمع إليهما برعب. فجأة، قامت من أمامهما، وذهبت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة ماء. فتحت الخزانة وأخذت كأساً. صبت لنفسها شيئا من الماء وشربته. نظرت من هناك إليهما عسى أن يكون كل ما رأته وسمعته وهما، لكنها وجدتهما تنظران إليها وتبتسمان، ثم قالت لها الراهبة الشابة، وكأنها تعرف ما الذي تفكر به حواء:

– نحن هنا. يمكنك إحضار قنينة الماء معك إذا أردت؟

أحست حواء المؤمن بالإرتباك. فتحت الخزانة وأخرجت قدحين آخرين، وحملت القنينة إلى الطاولة ومن ثم الكؤوس. وجلست أمامهما. صبت لهما الماء في الكأسين، ولنفسها مرة أخرى. لكن لم تمس أية منهما كأسها. وإنما كانتا تنتظران رأيها. ولما طال الصمت وهي لم تجب، سألتها الراهبة المسنة:

– ماذا تقولين يا حواء؟

– ماذا أقول في ماذا؟

– في ما قلته لك.
– أنا لا أصدق ذلك. لم تقل لنا الطبيبة عن أي شيء.
– الطبيبة قالت لزوجك كل شيء. وإذا جاء يمكنك أن تسأليه. بل يمكنك غدا الذهاب إلى العيادة، وستكون النتائج هناك. وستخبرك الطبيبة.
– هذا طفلي. ولا أريد أن أفقده بكلام غير صحيح. ثم أنه مهما يكن، ومهما سيكون شكله فهو ابني، ولن أسقطه لمجرد كلام.
– هذا ما أردنا أن نقوله لك أيضا. ونحن سنكون دوماً معك. وسنساعدك.

قالت الراهبة المسنة ذلك ثم قامت فقامت الراهبة الشابة معها. قامت حواء معهما وأرادت أن توصلهما إلى الباب، إلا أن الراهبة المسنة أوقفتها، قائلة بحنان:

– لا داعي لذلك. نحن نعرف الباب.

مضتا نحو الباب. ظلت هي جامدة في مكانها منذهلة، فزعة، غير مصدقة. وسمعت صوت الباب وهو يغلق. فجأة أحست أنها تريد أن تستفهم منهما أكثر. فتحت الباب فلم تجد أحداً. نظرت نحو المصعد قرب الباب فوجدته في طابقهم، خرجت ونظرت إلى أسفل السلم فلم تجد احداً. كيف حصل هذا، ففي كل الأحوال لم يمض سوى أقل من دقيقة، وهذا يعني أنهما يجب ان تكونا في الطابق الثالث أو الثاني في أكثر تقدير، فليس من المعقول نزول أربعة طوابق في أقل من نصف دقيقة؟

دخلت الشقة ففاجأتها الرائحة النتنة ذاتها، سألت نفسها مستغربة، كيف اختفت الرائحة بحضور الراهبتين وعادت بعد ذهابهما؟.

ذهبت إلى حيث كانت تجلس على المقعد الجلدي. سمعت باب الشقة يُفتح. دخل آدم فرحا. أقبل نحوها ورمى مفاتيحَ ومغلفا من النايلون فيه ورقة رسمية خضراء. نظر إليها وكأنه حقق إنتصارا، بينما نظرت هي إليه، واستذكرت كل ما جرى لها خلال هذه الساعات التي غاب فيها. ياله من إنسان سعيد آدم هذا، فكرت مع نفسها، فها هي زوجته تم إغواؤها من قبل أقرب صديق له، وهو سعيد بهذه اللعبة، لكن أتراه يعرف بكل ما كان قابيل يفعله ويخطط له؟ هل هو ديوث أم قواد؟

ما أن جلس آدم حتى تشمم الرائحة النتنة. تلفت حوله، كانت النوافذ كلها مفتوحة، لكن ثمة رائحة عفونة ما تتسرب مع الهواء إلى أنفه. لم يعر للأمر بالاً. نظر هو إليها فوجد أنها مشغولة البال، شاحبة الوجه، فسألها مبتسماً:

– ألم تسألي لمن هذه المفاتيح؟ وما هذه الورقة؟

نظرت بصمت إليه، وألقت بسؤالها الذي كان ألقى به في عالم آخر، عالم التوتر،

سؤال سحبه من غيومه الوردية إلى بيداء الواقع المؤلم، قالت له تسأله بتصميم وحزم:

– ما الذي قالته لك الطبيبة اليوم عن الجنين الذي في بطني؟

– أعرفتِ؟

– ماذا كان عليّ أن أعرفه؟

إرتبك آدم، وسأل نفسه بسرعة خارقة، هل هي تعرف أم لا؟ ما معنى سؤالها إذا كانت لا تعرف؟. لا. من المؤكد أنها تعرف، وفي كل الأحوال يجب أن تعرف، لكن من قال لها ذلك؟ لذا أجاب بهدوء:

– بخصوص الجنين.. ألم تسألي عنه لتوك؟

– نعم.. لكني أسأل عن الذي قالته لك الطبيبة عنه؟

– إذا كنت قد عرفتِ فلماذا تسألينني؟

– ما الذي عرفته يا آدم؟

– بأنه مسخ. وأنه مشوه.

وفي لحظة غير متوقعة من قبل آدم لطمت حواء المؤمن وجهها بباطن كفيها لمرات عدة. وهي تولول:

– أويلاه يا أمي.. أويلاه يا ربي.. أويلاه.. أويلاه..أويلاه من هذا النصيب الأسود.. أويلاه يا أمي.. يعني كلام الراهبات صحيح..

كانت تولول وتضرب وجهها بباطن كفيها، ثم سحبت الغطاء عن رأسها وأخذت تسحب شعرها الأسود الطويل. وتعود لتضرب وجهها بباطن كفيها. إرتبك آدم جداً، لقد نسي مثل هذه المشاهد التي لم يشهدها منذ أن كان في المقاومة، حيث كانت أمهات الشهداء يضربن على وجههن حينما يندبن أولادهن أو أزواجهن، لكنه نسي ذلك كله، وها هو الآن، وفي هذه اللحظات التي أحس فيها بالفرح لحصوله على سيارة، قادها طوال الطريق من شبنداو إلى هنا، تقابله حواء بهذا الندب الذي يمزق القلب، لكن من قال لها؟ ما معنى قالت الراهبتان لها؟ قام إليها ومسك بيديها كي لا تضرب نفسها أكثر، وهو يقول لها:

– إهدأي.. إهدأي قليلا.. لنتفاهم أولا.. إهدأي.. وضحي لي أولاً من قال لك ذلك؟

نظرت إليه شزرا وصرخت به:

– أتريد أن تعرف من قال لي؟ الأرواح قالت لي.. الراهبتان قالتا لي.. لقد كانتا هنا وقالتا لي بأنك تعرف ذلك.. أكنت تعرف ولا تقول لي؟

وأخذت تضربه على صدره ضربات ضعيفة، ضربات امرأة منهارة. لم يصدق هو ما قالته، فما معنى الأرواح، وما معنى أن الراهبتين قالتا لها ذلك؟ لكنه فجأة انتبه لوجود الكؤوس الثلاث. وسألها:

– من كان هنا؟

وأشار إلى الكؤوس الثلاث. نظرت إليه بغضب وقالت:

– ألم أقل لك أن الراهبتين كانتا هنا؟ لقد كانتا معنا في العيادة وفي المركز الطبي. وهما اللتان أخبرتاني بأن الطبيبة قالت لك عن كل شيء..

إبتسم ساخرا مما قالت، وسأل بطريقة استهزاء:

– وماذا كانتا تريدان منك؟

– أتستهزئ؟ لقد أرادتا أن أمضي بالحمل إلى النهاية ولا أسقط الجنين بأي شكل. والآن قل لي ماذا قالت لك الطبيبة؟

أحس آدم بالرعب الحقيقي. أخذ يستعرض الأمور مع نفسه بسرعة خارقة، ليفهم حقيقة ما يجري هنا. فهنا ثلاث كؤوس وفيها ماء يعني وجود شخصين آخرين معها. والمعلومات التي قيلت لها صحيحة. فهي حامل بمسخ، ووجوده خطر على حياتها. وأن عليها إسقاطه. هذا أيضا ما قالته الطبيبة. لذا ليس لديه أكثر مما هي تعرف. نظر إليها وقال لها مهدئاً:

– إجلسي بهدوء واسمعيني. أنا أبوه مثلما أنت أمه. لذا أرجوك اسمعيني.. إهدأي أولا، وسأخبرك بكل شيء.

جلست هادئة وكأنها تلميذة صغيرة، بالرغم من كثافة الآلم الذي تجمع في عينيها، والإحمرار الذي صبغ وجهها إثْر الندب القوي. نظر إليها وقال لها بتوتر يحاول السيطرة عليه:

– حينما دخلت على الطبيبة عاتبتني أولا على إهمالك لأنك لم تذهبي إلى الطبيبة النسائية خلال أشهر الحمل المنصرمة. ومن ثم أخبرتني بأن لديك إلتهابات قوية جدا، وأخبرتني أيضا بأن الجنين الذي في رحمك مشوه، مسخ، رأسه كبيرة جدا جدا ولا تتناسب مع بقية الأعضاء بحجم الكف، وهو مرض لا أذكر اسمه الآن، لكنها سمته لي. وأن هذا الحمل سيؤذيك. وأنه هناك ضرورة قصوى لإجراء ما يسمى بالطلق الإصطناعي كي يسقط الطفل، أو أن تستكملي بقية الأشهر كي تولديه، لكن عليك أن تعرفي شيئا واحداً قالته الطبيبة هو أن هؤلاء الأطفال المشوهين يموتون بعد ولادتهم بساعات. وبما أنه سيموت في كل الأحوال

فعلينا التفكير بإستمرارك بالحمل أو بإسقاطه عن طريق الطلق الإصطناعي.
فصرخت حواء المؤمن:

– إذا كان ذلك صحيحا فلماذا أرسلتنا إلى مركز التشخيصات الدقيقة؟

أحبط آدم محاولتها، لأنه عرف أنها تريد أن تواسي نفسها بأمل كاذب، فقال جازما:

– هي متأكدة مئة بالمئة. لكنها، كما يبدو لي، لا تريد أن تتحمل المسؤولية القانونية كاملة، فتدعم موقفها بتشخيصات المركز المختص بذلك. إلى جانب أنها أرادت أن تتأكد من وضعك أيضا. لكنها كما قالت لي رأت كل شـيء بجهاز الأشـعة المصورة.

– والحل..؟

نظر آدم إليها بعطف وهو يرى تحطم آمالها كلها، وانطفاءها مثل شمعة صغيرة:

– الحل هو إسقاط الجنين المسخ.

– مستحيل.

نظرت إليه بعينين مفتوحتين، عيني امرأة مجنونة، تنظر في نقطة مجهولة، وقالت:

– مستحيل.

آدم البغدادي: هل الإنسان يلقى جزاء أفعاله في حياته أو في ما بعد، أو لا يلقاها أبداً؟ لماذا كان جزاء حواء المؤمن أن يكون لها جنين مشوه؟ أهذا ما أنا أخترته لها، أم أختاره منطق الصراع الأخلاقي لشخصية مثل حواء المؤمن؟ بمعنى هل الحمل بجنين مشوه له دلالة رمزية أنا أردت أن أوصلها كرسالة أخلاقية أم أن منطق الأشياء والخيار الإبداعي كان هكذا؟ أنا لستُ أخلاقيا بهذا المعنى؟ ما معنى الأخلاق حينما أجلس في غرفتي وحدي، أو في شقتي لأسبوع كامل لا أخرج منها؟ أية قيمة للأخلاق عند ذاك؟ أنا لا أحتاج الأخلاق. أنا بلا أخلاق. الأخلاق أتركها للسادة الجدد، بعمائمهم وخواتمهم ولحاهم الكريهة.

قرأ آدم المحروم تعليق آدم البغدادي، تعجب، قال لنفسه، هذا وجه آخر و جدي لصديقي، لم أكن أعرف أنه متألم لهذا الحد، وأنه يفكر بهذا العمق. مـن منـا يتجـرأ أن يقول أنه بلا أخلاق، ولا يريد أن يكون أخلاقياً، بينما هو يعيش كقديس.

9

تفـــاحـة آدم

مرة أخرى إستيقظ آدم المحروم على مداعبات الطفل الصغير آدم الملاك. حين فتح عينيه قابله وجه الطفل الباسـم. لكن من الجهة المعاكسـة للرأس. كان الطفل الصغير يجلـس عنـد رأسـه وبإصبعـه الناعمة الصغيـرة كان يمس أنف آدم المحروم مداعبا. وما أن أراد أن يمد إصبعه مرة أخرى حتى قبض آدم المحروم على كفه بسرعة ساحباً إياه إلى حضنه فصرخ الطفل ضاحكا من المفاجأة.

ركضت أمه من المطبخ إليه وهي تظن بحصول شيء ما له. كانت في ثوبها الأسود الطويل الذي يكشف عن تقاسيم جسدها، وكانت الفوطة مفتوحة، وقد ألقت بها على جانبي كتفيها، لأنها كانت في المطبخ تعد الفطور لهم، فالأب في غرفة المكتبة، وضيفهم نائم، وهي مسترخية في أفكارها عمّا يسعى إليه آدم المحروم من مسألة انتقاله قربهم، حينما صرخ ابنها.

رفع آدم المحروم رأسه فرآها بكل جبروت الأنوثة الفياضة والجمال الفطري البريء والرغبات الدفينة لكن الصارخة في نظراتها وفي إستدارات جسدها. وخلال ثوانٍ قليلة أجرى مسحا سريعا لكل تفاصيل جسدها، عنقها العاجي المتلع، صدرها الناضج بنهدين يصرخان، وبطن مسـتوية تنحني عند منطقة الوسـط لتلتف على اسـتدارة تضم الوركين ليستقيم على ساقين ممتلئتين بإتساق، وطويلتين.

إنتبهت هي لنظراته، لكنها ظلت متسـمّرة تحت تأثير رغبة دفينة في لا وعيها لكي يراها بشـكل جيد. ربما لن تسـتطيع أن تبدو كذلك أمامه، لاسـيما حينما يكون والدها موجوداً. لكنها بالرغم من ذلك لم تستطع الوقوف طويلا، فلا إراديا ركضت ثانية إلى المطبخ بعد أن تأكدت من أن ابنها يلعب مع الضيف، حتى أنها نسـيت أن تلقي تحية الصباح. بعد دقائق من ذلك أطلت ثانية لكنها كانت بالعباءة، لتخرج إلى المخبز القريب منهـم لشـراء أرغفـة الخبـز السـاخنة، فقفز الصغير يريد الذهاب معهـا، لكنها هذه المرة ألقت تحية الصباح قائلة بخجل:

– صباح الخير.
لم ينظر إليها لأنه كان ما زال في الفراش، وقال:
– صباح النور.

حينما خرجت قام هو مسرعا، فارتدى ملابسه، ولملم الفراش ووضعه جانبا ثم توجه إلى الحمام. وبينما هو هناك، سمع وقع خطوات الأب وهو ينزل الدرج. ويبدو أن الأب عرف بأن ابنته قد خرجت لعدم وجودها والصغير، كما عرف بأن آدم المحروم في غرفة الحمام.

حين خرج آدم المحروم وجد أن الأب يحمل صينية الشاي والقيمر ويذهب بها إلى غرفة الإستقبال. فقال له:
– صباح الخير يا حاج.
إبتسم الأب وقال بلهجة أبوية مرحبة:
– صباح النور.. أرجو ان تكون قد نمت مرتاحاً.
– الحمد لله.. نمت نوماً عميقاً.
– يبدو أن الجماعة ذهبوا لإحضار الخبز الحار.. أنت تعرف أن المخبز قريب من البيت لذلك تحرص ابنتي على شراء الخبز الحار في كل الأوقات، لاسيما صباحاً.
– وجود مخبز قريب من البيت نعمة..

ولم يستمرا بالحديث طويلا إذ انفتح الباب على ضجيج الطفل الصغير تتبعه أمه. فسلمت على الجميع ثانية بينما ألقى الطفل بنفسه بين أحضان جده الذي ضمه بحنان إلى صدره وأخذ يقبله ويتشممه. كان مشهد الجد وهو يحتضن حفيده ويتشممه لوحة إنسانية أثارت في نفس آدم المحروم مشاعر دافئة وحنونة.

بعد لحظات جلسوا ليفطروا، بينما انسحبت الإبنة حواء إلى المطبخ لتفطر هناك وحدها. خلال الفطور تحدث الأب عن ضرورة الإتصال بأصحاب المشتمل ليعرفوا قرارهم الأخير. وقال إن ابنته ستقوم بذلك بلا شك. وفجأة سأل الأب:
– إلى أين ستذهب خلال النهار؟ هل عليك الذهاب إلى العمل؟

كان السؤال له وقع ضربة قوية على الفك. أحس آدم المحروم وكأن فكه قد حطم ولسانه قد شل، لكن ذلك لم يستمر طويلا، سوى لحظات، فقال:
– أنا لا أعمل في مكتب، وإنما أكتب مقالاتي وعروضي للكتب في البيت، فأنا لستُ موظفا وإنما كاتب أو صحفي حر. أما عملي في مديرية السينما

والمسرح، فهو شكلاني، أي أن معظم الموظفين على ملاك المديرية لا يداومون وإنما يذهبون للتوقيع فقط. نقبض رواتبنا الزهيدة من باب رفع العتب بالنسبة للدولة. بل معظم الفنانين يعملون في المحطات التلفزيونية والإذاعية والصحف، ويذهبون للتوقيع فقط. هذا الأمر منذ السقوط تقريبا. لكن والحق يقال أنا أعيش بشكل أساسي من الكتابة، علما أن عليّ إلتزامات صحافية يجب إنجازها. إذ عليّ كتابة مقالين وتسليمهما غدا وبعد غد، وأنا لحد الآن لم اكتب منهما أي حرف.

– ولماذا لم تكتبهما؟

– أنت تعرف الوضع يا حاج.. أين أكتب، وأنا أتنقل من مكان إلى مكان وقلق لا يستقر على حال؟

– اكتب هنا، لماذا لا تكتب وأنت هنا؟ ما الذي يمنعك؟ يمكنك أن تصعد إلى غرفة المكتبة، وهناك تجد كمية كبيرة من الورق الأبيض، وأقلاماً، ويمكنك الكتابة.

لم يفهم آدم المحروم مقاصد الأب. حاول أن يستوضح لكنه ارتبك قبل أن يسأل، فقال بطريقة ملتوية:

– متى أكتب يا حاج؟ نحن وصلنا في ساعة متأخرة من الليل، وأنا لا أريد أن أزعج أحدا.

– أنت لا تزعج أحدا. أنا سأخرج إلى عملي، يمكنك الصعود إلى غرفتي واغلقها على نفسك إن كان آدم الصغير يزعجك. تستطيع أن تكتب مقالتاك اليوم. ولا تتحرج من حواء ابنتي فهي مثل أختك بالضبط، وهي تنشغل عادة بتنظيف البيت وإعداد الطعام، وأنا متأكد أنها لن تزعجك.

لم يصدق آدم المحروم ما سمعه، فالأب يقترح عليه البقاء وحده في البيت، بينما ارتعب أول الأمر من سؤاله إذ ظن أنه يطلب منه أن يغادر البيت معه ما دام هو يخرج للعمل. لذا فأنه شعر بقلبه يدق بقوة، وبالدم يتدفق في شرايينه، لكنه حاول جاهدا أن يكبت كل ذلك كي لا يبان أي شيء من هذا الفرح على وجهه أو في نظراته، بل على العكس عليه أن يبدي شيئا من التحفظ على بقائه في البيت، فقال:

– لكن يا حاج ربما سأسبب لها الحرج والضيق بوجودي في البيت؟

– يا ابني عليك أن تكتب مقالاتك وتسلمها، فمن أجورها تعيش، ما هذا الكلام؟

لم يشأ آدم المحروم أن يناقش في الموضوع أكثر كي لا يضطر إلى المبالغة في تحفظه، وربما إذا استمر في ذلك سيتراجع الأب عن فكرة أن يبقى في البيت لكتابة مقالاته. لذا أنهى الحوار بالشكر للنعمة، على الطريقة العراقية:

– مائدة دائمة إن شاء الله.. اللهم زد وبارك.
– ماذا، أأنهيت فطورك؟ لم تأكل شيئا؟
– أنا يهمني الشاي صباحا، ولأنه لا يمكنني شرب الشاي وحده على الريق فأنا أضطر لأكل أي شيء معه.
– على أية حال. أنت في البيت، ويمكنك طلب أي شيء عند حاجتك، وبدون تردد.
– أنا لا أعرف كيف أشكرك يا حاج فلولاك لم أعرف ماذا أفعل؟
– لا تشكرني يا ابني. الشكر لله، والناس لبعضها البعض.
في هذه الأثناء دخلت الإبنة حواء الزاهد مستبشرة وهي تقول:
– لقد اتصلت جارتنا أم قابيل زوجة صاحب المشتمل، وقالت إنهما وافقا على تأجير المشتمل، لاسيما وأن الشخص مزكى من قبلنا ومن طرفنا، وأن المرأة تمر اليوم بعد الظهر وتأتي بعقد جاهز، سيتم إعداده من قبل مكتب للعقارات في منطقتهم، وطلبت الإسم الثلاثي الكامل لحضرتك، ورقم هوية الأحوال المدنية لك، كي يتم إعداد كل شيء، ولا يبقى سوى التوقيع، أو بالتحديد سوى توقيعك لأنهم سيوقعون العقد.

إبتسم الأب إبتسامة صادقة وتألق وجهه بالفرح، أما آدم المحروم فلم يصدق ما سمع، توهج وجهه بدفق الدم الذي صعد إلى رأسه وهو ينظر إلى الإبنة حواء وهي تتحدث وهو يعرف أن أباها جالس معه، فلم ينطق شيئا أول الأمر، ثم قال بصوت هامس:
– الحمد لله.. هذا صباح مبارك.

مد يده إلى جيب قميصه وأخرج هوية الأحوال المدنية، ومد يده إلى الإبنة، وهو يقول:
– الإسم الثلاثي هنا، ورقم الهوية وكذلك رقم الصفحة والسجل.
أخذت الهوية بسرعة خاطفة. وقبل أن تذهب لتتصل بأصحاب المشتمل، قال الأب:
– ابنتي حواء، الأستاذ آدم سيبقى هنا، سيكون في غرفتي، لديه واجب كتابة مقالاته الأسبوعية ليسلمها للصحف. أرجو أن لا يشغله الملاك الصغير. وبين فترة وأخرى أسأليه إن كان يحتاج لشيء.

نظرت الإبنة إلى آدم المحروم وفي عينيها نظرات غامضة مليئة بالتساؤلات والترقب. لم يكن أمام آدم المحروم سوى أن يبتسم بما يشبه الإعتذار، وقال:
– أنا آسف.. إذا كان الأمر يضايقك فأستطيع أن ألغي ذلك..

قاطعه الأب:

– ماذا تقول.. لماذا تلغي عملك..؟ أبق أنت وانجز عملك بهدوء. وإذا أردتَ الخروج فأنت تعرف مكاني.

قال الأب ذلك وقام مستعدا للذهاب إلى عمله، ثم التفت لآدم المحروم وكأنه يرشده:

– تعال معي إلى غرفة المكتبة كي أريك أين تقع الأوراق، لكن أين هي الكتب التي تريد أن تكتب عنها؟

أحس آدم المحروم بأنه وقع في الفخ، فكيف فاته أن يكتب عروضا للكتب دون أن تكون بين يديه، وهو فعلا أراد أن يكتب عرضا لكتاب كان قد صدر منذ سنوات عديدة لكنه لم يدخل العراق إلا مؤخرا، أو على الأقل هو قد حصل عليه مؤخرا، لكن هذا الكتاب في شقته، وهو لم ينقل كتبه بعد، على الرغم من أنه لا يملك الكثير من الكتب. كما أراد أن يكتب عموداً مستمدا في جوهره من أفكار الكتاب المذكور لصحيفة أخرى، غير التي ينوي كتابة عرض الكتاب لها. ولكي يتخلص من السؤال المحرج، دون أن يتراجع، بل ودون أن يعطي فرصة لإلغاء مسألة البقاء في البيت، أشار إلى رأسه، وقال باسماً:

– هنا. الكتب هنا في رأسي. فأنا لا أكتب عن أي كتاب إلا إذا ترسخ في رأسي، وحاورته واتخذت موقفي منه، بالإستحسان أو بالرفض، ثم أني أريد أن أكتب عمودا وهو ليس عرضاً لكتاب، لذلك سوف أكتب المادة الأساسية من الكتاب ومن ثم أنسّق المعلومات عنه وأضيف للمقالة المعاومات الخاصة بالكتاب.

– وعن أي كتاب ستكتب؟

– نهاية اليوتوبيا لراسل جاكوبي.

– نهاية ماذا؟

– نهاية اليوتوبيا؟

– وما هي هذه اليوتوبيا؟

– إنها الطوباوية بترجمات أخرى.

– الآن عرفت.. ممتع.. وماذا ستكتب؟

– سأخبرك في ما بعد.

– جيد.. بالموفقية.

– شكرا.

خرجت هي قبلهما ودلفت إلى المطبخ، بينما صعد الأب وهو يمسك الصغير آدم ليصعد معه وتبعه آدم المحروم. وحين صار هو على منصف الدرج التفت نحو المطبخ فوجد حواء واقفة تنظر إليه، إبتسم لها، فابتسمت له أيضا. اعتبر هو هذا إشارة جيدة من طرفها، وواصل صعوده، إلى أن دخل الجميع إلى غرفة المكتبة.

ظلت هي في المطبخ غير مصدقة ما يجري. كانت هي مليئة بمشاعر متناقضة، ومتداخلة، وغامضة. فهي مرتبكة من أن تكون وحدها في البيت مع رجل يعجبها، بشكله وثقافته وتحرره الفكري كما هو واضح. وأجرت بسرعة هائلة المقارنة بينه وبين زوجها المعتقل. فهذا الرجل مختلف عن زوجها الذي هو من طراز أبيها، أي محافظ جداً، ومتعصب جداً، ومتدين جدا، بحيث أنها كانت لا تحس بكيانها وشخصيتها معه. بل إنها كانت لا تستطيع أن تعبر عن مشاعرها حتى في أقرب لحظاتهما حميمية، إذ كان يعتبر المرأة آثمة، وهي سبب البلاء، وسبب خروج آدم من الجنة، ولم يتغير حاله، بل إنه بعد سقوط الطاغية ودخول الإميركان صار أكثر تديناً. لكنه بالرغم من هذا كله، فهو إنسان طيب، لم يشتمها يوماً، ولا رفع يده عليها، بل كان لا يعرف أن يكون رقيقاً، أو حنوناً، حتى حينما كان يرغب بها، إذ كان لا يمارس معها إلا في الظلمة، لذا فهي طوال سنوات زواجهما لم تره يوما عاريا، ولم تعرف تفاصيل جسده.

لكن آدم هذا مختلف. إنه وكما واضح من هيئته، ليس متديناً، وهو في كل الأحوال غريب، لكن كيف وافق والدها أن يتركهما وحدهما في البيت؟ لقد أحست بالحرارة تجتاح جسدها حينما سمعت كلام أبيها، لكنها تخاف ممن؟ أتخاف منه، ربما؟ أتخاف من نفسها؟ ربما أيضا. هي تعرف أنها جامحة العواطف والمشاعر، وأنها محرومة، وقد لا تستطيع السيطرة على نفسها، لكنه كما يبدو ً مؤدب، ثم أنه سيكون في غرفة المكتبة منشغلاً بالكتابة. على أية حال سنرى. لكن من هو هذا الشخص أصلاً؟ كيف تعرف به أبي؟ ولماذا يمنحه كل هذه الثقة؟ هل هناك شيء ما لا أعرفه في علاقة أبي به؟ لكن ما دام أبي قد أدخله بيته فهو يثق به، وهذا يعني لا خوف منه..هكذا حسمت الأمور مع نفسها.

مرت ساعة تقريبا وآدم المحروم منهمك بالكتابة، وكان قد كتب صفحة ونصف تقريبا حينما سمع طرقات خفيفة على الباب. لم يكن متأكدا أول الأمر، فترك الكتابة وأنصت، فسمع الدقات الخفيفة ثانية، فقام من مكانه وفتح الباب، فقابله وجهها الجميل المرتبك، وأمامها كان الطفل الصغير أيضا، وانتبه أنها تحمل صينية فيها كوب من الشاي. نظرا لبعضهما بشكل عميق وأطول من كل مرة، حتى أن الطفل رفع رأسه لينظر إليهما،

فانتبه آدم المحروم لنفسه، وقال لها:
– لماذا تزعجين نفسك.؟
– لا أبدا ليس ازعاجا..بل أرجو أن لا أكون قد قاطعتك
كان هو قد أخذ الكوب من الصينية التي تحملها ووضعه على حافة إحدى الرفوف.
وهو يقول محاولاً إستدراجها:
– لا أبداً. على العكس كنت أريد أن أستريح قليلا قبل مواصلة الكتابة.
نظرت إلى أوراقه فرأت أن هناك صفحةً واحدة مركونة إلى جانب رزمة الأوراق التي بدا أنه لم ينته الكتابة فيها. نظرت إليه متشجعة، وسألت، بينما كان الصبي يعبث ببعض المجلات في الزاوية:
– عن ماذا تكتب إذا لم يكن سرا؟
– عن اليوتوبيا؟
– عن ماذا؟
– - عن اليوتوبيا.
– وما معنى ذلك؟ لقد سمعتك تقولها لوالدي لكني لم أفهم.
– كيف أشرح لك ذلك؟ سأحاول أن أبسط الأمور أكثر مما يجب.. كان المفكرون والفلاسفة في جميع الأزمنة يفكرون بخلاص البشرية وتحقيق مجتمعات عادلة يتساوى الناس فيها، فليس هناك مكان لإستغلال إنسان لإنسان، ولا طبقة لطبقة، وكان هناك مفكر ومصلح إجتماعي إنجليزي، أراد أن يفكر بمجتمع مثالي، فعرض أفكاره على شكل حكاية، عن جزيرة أو مكان سماه (يوتوبيا)، حيث الناس هناك يعملون كلاً في مجال ما، لكن كل شيء كان مشتركاً بينهم، وليس هناك ملكية، فالحياة كانت مثالية، ليس فيها فقر، ولا إستغلال، مجتمع العدالة الإجتماعية. ومنذ ذلك الحين، صارت أية أفكار مثالية عن مثل هكذا مجتمع يقال لها أفكار يوتوبية، أو كما ترجمت الكلمة للعربية بالطوباوية. ثم جاء فلاسفة عبروا عن إمكانية تحقيق مثل هذه المجتمعات، لكن النقاد صاروا ينظرون إلى اليوتوبيا وكأنه رديف للخيالي والمثالي غير القابل للتحقيق.
– هذا صحيح.. هذا الشيء غير قابل للتحقيق، إلا بظهور صاحب الزمان.
– كيف؟ ظهور صاحب الزمان؟
– نعم. ألم تقرأ بأنه بعد ظهوره تمتلئ الأرض عدلاً بعدما أمتلأت جوراً؟
انتبه آدم المحروم إلى أنها ذكية، لكن أكثر ما انتبه إليه أنها فقدت الكثير من خجلها

وخشيتها منه، كما انتبه لصدرها النافر. أراد أن يغير الموضوع ويستدرجها إلى فخاخه الخفية التي لا تنتبه لها بسهولة، فقال لها باسماً:

– لم أكن أعرف أنك سريعة البديهة إلى هذه الدرجة؟

– وما البديهي في الأمر، أنا لا أعرف شيئا عن كل هذه الأفكار التي تحدثت عنها، وإنما أعرف ما قرأته الذي لا يختلف كثيرا عما قلته أنت عن هذا الذي كتب حكاية الجزيرة السعيدة.

إبتسم وهو ينظر إليها بنظرات مليئة بالحنان والحب والرغبة. أحست بجسدها كله يرتعش وأنفاسها تتغير في سرعتها. أرادت الخروج لكن ثمة قوة أرغمتها على البقاء والإستمرار في الحديث معه، بالرغم من أنها تعرف أنها تغامر بما لديها من قوة، فقالت له، وهي تبتسم بحياء:

– لماذا تنظر إليّ هكذا؟

فقال مشاكسا وهو يجرها إلى دوائره الخفية:

– لماذا.. النظر إليك حرام؟

– لا لكنك تنظر إلي نظرات خاصة.

– لأنه..

وصمت متقصداً، وهو يعرف أنها ستلح بالسؤال لتعرف السبب، وفعلا سألته:

– لأنه ماذا؟

– لأنه..

واصطنع الخجل والإرتباك، وصعوبة القول، وكأنه يخاف أن يقول ما يريد، فظل صامتاً، فسألته بحرارة وبإلحاح خفي:

– لأنه ماذا؟

نظر إليها وقال بخبث غير ظاهر:

– أخاف أن تسيئي فهمي عندما أجيب؟

– أسيء فهمك؟ لا.. لا أسيء فهمك. قل لي إذن لماذا تنظر إلي هكذا؟!

كانت هي تخمن بشكل غامض ماذا سيكون جوابه، وأحبت هذه اللعبة، لذا ظلت تنتظر جوابه، فقال لها وهو يبث كل الحنان والرغبة في صوته:

– لأنك جميلة جداً. لأنك ساحرة الجمال، ولأني أشعر أنني لا أستطيع أن أقاوم أن لا أنظر إليك.

صمتت للحظات. نظرت إليه وكأنها سمعت كلمات سحرية، لكنها كلمات شيطانية

أيضا. نظرت إليه، وفي وجهها صراع واضح، بين القبول والإستنكار، نظرت إليه بإرتباك وكأنهـا تـدرس وجهـه، خفضت رأسـها ونظرت إلـى الأرض، بقيت للحظات على هذه الحال. رفعت رأسـها إليه وعلى وجهها إبتسـامة جميلة وكأنها حسـمت أمرها، أو كأنها تقول أعرف غرضك، ثم غادرت الغرفة.

ظـل الصبـي يقلـب المجـلات، بل وكان أثنـاء كلامهما قد أخرج مجلدا ضخما من الـرف القريـب إليـه وجلـس يقلـب صفحاتـه كأي لعبة يلهو بها. نظـر آدم المحروم إليه مبتسما وقال:

– ماذا تقرأ أيها الفيلسوف الصغير؟

– أريد أن أكون مثل جدي.

– ستكون.. ستكون..

قـال ذلـك بمـرح، لكنـه فجـأة انتقل للتفكير بما دار من حـوار بينه وبين حواء، أراد تحليل الأمر، هل وصل إلى ما أراد؟ هل خلع القفل عن الباب للدخول إلى عالمها؟ ماذا سيكون رد فعلها؟ عليه أن لا يتهور فيخرّب كل شيء؟ لكن عليه أن يتخذ خطوات جريئـة أخـرى ليحطـم بذلـك كل المصـدات الموجودة بينهما. عليه أن يسـتغل الوقت، ويطرق على الحديد ما دام ساخنا.

مـاذا عليـه أن يفعـل الآن، هـل سـينزل إليهـا، أم ينتظر صعودها ثانية؟ لينتظر عشـر دقائـق أخـرى ليكتشـف تأثيـر مـا دارعليهـا، فإذا صعدت فهذا يعني أنها بدأت تستسـلم وتريد مواصلة المغامرة بينهما وأنها موافقة على ما سـيأتي من تفاصيل أخرى، أما إذا أهملتـه ولـم تصعـد فهـذا يعنـي أن عليه أن يكون حذرا جداً معها ويعيد حسـاباته. لكن ماذا إذا تصرفت بشـكل متطرف بحيث تخبر أباها أو تكشـفه أمامه؟ عليه أن يصبر ولا يدع شهوته تقوده بحيث تعميه عن التصرف السليم.

لم تمر الدقائق العشـر بعد حينما رآها واقفة عند الباب. ذهل. كان وجهها باسـماً بخجل، كانت مرتبكة من صعودها ثانية لأن هذا كان واضحا بأنها موافقة على ما قال، نظرت إليه بإرتباك مع إبتسامة خجولة، وقالت:

– جئت آخذ الصغير لأنه قد يزعجك.

كان هـو منذهـلاً، لأنهـا صعـدت، هـذا يعنـي أن عليـه أن يذهب أبعـد، لكنه إرتبك أيضا، لم يكن يعرف ماذا يفعل فقال بنبرة متوترة وبصوت مرتجف:

– أبداً.. إنه لا يزعجني أبداً.. تفضلي لماذا تقفين عند الباب.

دخلت إلى غرفة المكتبة لكن ليس ببعيدة عن الباب، صارت أكثر أماناً، فقالت:

– أنـا أنتظـر إتصـالاً مـن زوجة مالك المشـتمل، قالت إنها تتصـل ثم تأتي، بالرغم من أنها قالت ستأتي بعد الظهر. كما أن أذني على الباب، ربما سيأتي أحد دون أن أنتبه.

– من سيأتي.. الوالد في العمل.

– لا أدري، لكن لا أريد أن يفاجئنا أحد.

نظر إلى عينيها، فأحست بالإرتباك، فأقدم على خطوة أخرى بإتجاه عالمها، إذ قال:

– لا أحد سيفاجئنا إذا انتبهنا جيداً.

أحمر وجهها، إذ فهمت قصده، لكنها لم تجب، وإنما أحست بإرتكاب شيءخاطئ، فنظرت إلى ابنها وقالت:

– تعال يا حبيبي لننزل، لنترك عمو يكتب بهدوء.

فرد الصغير الذي كان منهمكا بالمجلد الضخم على حجره:

– أريد أن اكون مثل جدي..

إبتسـمت. رفعت وجهها نحوه ونظرت في عينيه بتسـاؤل وكأنها تسـأله عما سـيأتي. أحس هو بنظراتها المتسائلة، وأحس أنها تائهة لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، لكنه أحس أنها ترغب في التواصل، فانتهز الفرصة وقال بهمس:

– أنا أحب حضورك إلى هنا، أحس بالأمان وأحس كأن كل شـيء يصبح أجمل. وأتمنى أن تبقي، هذا طبعا إذا كنت قد أنجزت عملك

لم تعرف ماذا تجيبه. نظرت إليه وفي عينيها فرح وتألق وخوف، فلأول مرة هناك من يتحدث معها بهذه الطريقة. أرادت أن تقول شيئاً إلا أنها أحست بالكلمات تموت علـى شـفتيها، اسـتدارت وأخـذت الصغيـر معهـا، وعنـد البـاب نظرت إليه نظـرة مليئة بالألغاز، وهبطت.

لـم يـدر آدم المحـروم مـاذا يفعـل. إنه وحـده مع امرأة بكل هذه الكنوز والثمار ولا يسـتطيع أن يفعل شـيئا. عليه أن يحلل الموقف جيداً، فلقد عادت وصعدت بحجة أن الصغيـر يزعجـه، لكـن كلاهمـا يعـرف بأن ذلك غير صحيح، ثم أنه صرّح لها برغبته في حضورها، فلم تعلق، بل ابتسـمت، لكن ما معنى هذه الإبتسـامة المليئة بالألغاز؟ لقد حقق لحد الآن تقدماً معها، لكن عليه أن ينتبه، فربما يقدم على خطوة مستعجلة فيضيع كل شيء.

ماذا عليه أن يفعل الآن؟ فكر مع نفسـه أنها لو صعدت إليه خلال الدقائق العشـر القادمة، فأنه سـيفاتحها بحبه لها. سـينتظر الدقائق العشـر القادمة، وإذا لم تصعد فهذا

يعني أنها رفضت كلامه الأخير لها.

ظل ينتظر بقلق. إقترب من عتبة الباب، مد رأسه وركز على حاسة السمع عسى أن تصل إلى أذنيه أية حركة يستطيع أن يستشف من خلالها ما يجري. لم يسمع شيئاً وكأنه لا أحد في البيت. رجع إلى حيث كان يجلس ويكتب. أراد أن يشتت تركيزه عليها من خلال إشغال نفسه بالكتابة، لم يستطع أن يكتب شيئا إضافيا، لكنه استطاع أن يقرأ بعض الفقرات التي كتبها. انتبه إلى أنه قد مضت عشرون دقيقة ولم تأت.

حاول أن يمنح نفسه أملاً إضافيا من خلال إيجاد التبريرات لها، ربما هي مشغولة بإعداد الطعام، أو ربما هي تتحدث مع زوجة صاحب المشتمل، لا. لا، هذا غير ممكن وإلا لكنت سمعتُ صوتها وهي تتحدث، لكن ربما هي قد خرجت إلى السوق القريب. كان قلقاً، لا يستطيع أن يهدأ، إضطربت في داخله مشاعر متضاربة شتى، رغبة جنسية هائجة، وأحلام يقظة رومانسية بعلاقة ثابتة وقوية، لكنها متزوجة، ولا يعرف أي شيء عن طبيعة علاقتها مع زوجها، فربما هي تحبه، أو تزوجته أساساً عن حب؟ لكنها وقفت واستمعت إليه وهو يلقي عليها كلمات لا يمكن أن تفسر غير أنها كلمات غزل وحب ورغبة من رجل وامرأة متزوجة، امرأة بثديين صارخين وجسد يفيض بالأنوثة، في غرفة منعزلة. ما معنى ذلك؟ لماذا لم ترده وتقول له بأن ذلك لا يجوز وأنها متزوجة و.و.و. لتفهمه بأنها لا تريده. هذا في أحسن الأحوال، وألا كان بإمكانها أن تسمعه كلمات قاسية وخشنة، بحيث يترك البيت ولا يعود إليهم ثانية. لكن كل ذلك لم يحصل. إذن، هي موافقة، لكن لماذا لم تصعد إليه وقد قال لها بأنه يحس بالأمان عندما تكون موجودة؟

كان آدم المحروم كالمحموم نتيجة أفكاره المتضاربة وتحليلاته المتناقضة. ألقى نظرة بانورامية على أرفف الكتب المتجاورة. أحس بالإحباط يتسلل إلى نفسه. سأل نفسه فجأة: ما الذي فعلت بنفسك يا آدم المحروم؟ من جاء بك إلى هنا؟ إلى هذه المتاهة السوداء؟ أحقا أنت ذلك الفنان والكاتب الذي ينادي بإنتصار الجمال والخير والعدالة، بينما أنت الآن تتحرق لإغواء امرأة شابة مسكينة، محرومة من الحب والحنان والجنس، امرأة متدينة، تخون ثقة رجل آواك وفتح أبواب بيته لك، وعاملك مثل ابنه، بل إن كلمة يا ابني لم تسقط من فمه قط وهو يخاطبك؟ أهكذا تجازيه على ما فعله لك؟ من يفعل ما فعله لك في هذه الأيام العصيبة؟ وأنت.. أنت أيها النذل الرعديد، الخسيس، لا هم لك سوى أن تضاجع ابنته؟ لا.. لا.. هذا ليس أنت؟ إنه شيطانك، وجهك الآخر، طاقة الشر والقذارة التي في داخلك.

كان يحدث نفسه ويهينها. فجأة قرر الخروج من البيت، وليكن ما يكن، فآدم الزاهد

لا يستحق ذلك منه. طوى الصفحتين اللتين كتبهما، ووضعهما في جيب بنطاله، وقام ليخرج. في هذه اللحظة بالذات دخلت عليه حواء. أحس بصدمة، وفي لحظات لعن القدر، لماذا لم تتأخر ثوان أخرى لكان قد خرج، لكنه الآن لا يستطيع الخروج أبداً. وقفت هي أيضا كالمصدومة لأنها عرفت أنه كان ينوي الخروج. لم يعرفا ماذا يقولان لبعضهما، بادر هو قائلا:

– ظننتكِ لن تأتي، فقررت الخروج.

نظرت إليه بشيء من الإحباط، وقالت وكأنها تبرر تأخرها:

– حاولت أن أنوّم الصغير.

– وهل ينام هو في مثل هذا الوقت؟

– عادة لا.. لكني حاولت أن أدفعه للنوم.. كي.. كي لا يزعج..

في هذه اللحظة، أحس هو أنها قد انهارت أمامه، لأنها أرادت أن تقول له كي لا يزعجنا، هكذا فهم هو قولها. فابتسم لها إبتسامة ذات معنى، وسألها بخبث:

– وهل نام الآن؟

– نعم..

– ربما سيصحو

– لا أعتقد ذلك.. على الأقل سينام نصف ساعة إلى ساعة.

– يعني عندنا نصف ساعة إلى ساعة؟

إبتسمت بخجل، برغم قوة شخصيتها، وهيكلها الشامخ القوة. ظلا صامتين. ينظر كل منهما إلى الآخر. خجلت هي فطأطأت رأسها إلى الأسفل. إقترب منها ورفع وجهها بإصابع كفه. كان وجهها أبيض مشبوباً بحمرة وردية، وعيناها كالعقيق الأسود، وشفتاها ورديتين، لحيمتين دون متانة. وبدون أي مقدمات أو تفكير، إقترب منها، صار كل منهما يسمع أنفاس الآخر، وبشكل خاطف ومفاجئ، ضمها إليه مقبلاً شفتيها، حاولت أن تتملص منه، وهي تقول:

– لا..لا.. لا يجوز..لا..

لكن كلماتها وصوتها خمدا أمام الحرارة التي تأججت في جسدها نتيجة احتكاكها بجسده،. إلتهم شفتيها إلتهاما. وأخذ يقبل أذنيها، وعنقها، أحس أنها تنهار. كان يسمع أنفاسها وهي تشهق، وتتأوه بكتمان، ولكي يحسم الأمر، أخذ يقبل صدرها، ثم مد يده إلى نهديها، فندت عنها صرخة شبق، ولكي يجعلها تنهار بالكامل مد يده إلى ما بين فخذيها، فصرخت، وجلست على الأرض منهارة. حملها عن الأرض وأخذها إلى نصف

الكنبة التي تحتل جانبا من المكتبة، أجلسـها إلى جنبه وأخذ يقبلها. كانت سـكرى من القبل، لكنه مد يده في جيب ثوبها من الأعلى فأمسك بنهدها الطري. كانت الفوطة قد انحلت وبان شعرها الأسود الكث، وفتحة الثوب الواسعة والعريضة، فرفع بيده نهدها وأخرجـه مـن الفتحـة وأخـذ يمص حلمتها. إنهارت بالكامل. وتمددت بإسـترخاء، فمد يده إلى تحت ثوبها، أحس بفخذها الصقيلة، وكانت هي تدافع عن نفسـها، تحاول أن تبعـد يـده، لكنـه تمكـن من الوصول إلى منطقتهـا الملتهبة، إلى بركانها المتأجج. أحس أنها رطبة، بل مبتلة هناك، فأدخل أصبعه فيها، فصرخت بشهوة، وهي ترتجف من اللذة، أحس بتقلصاتها على أصبعه. انتبه إلى أنها يكاد يغمى عليها من اللذة، سمحت له أن يمد يده أكثر، فأخذت كفه تداعبها هناك بحرية. كانت مشعرة، لكنها حارة ومبتلة من أمطار الشـهوة. أحس بها ترتجف، والدموع تنزل من عينيها. فجأة انتفضت، مبعدة يده عنها، قافزة بشكل كامل من بين أحضانه. وقفت أمامه عند الباب. نظرت إليه، وكأنها ليست تلك التي قبل قليل كانت منهارة وتتأوه بين يديه، قالت له والشرر يتطاير من عينيها:

– عليك لعنة الله.. إذا كنت إنساناً حقاً ورجلاً شريفا ما كان عليك أن تفعل هذا، أرجوك أخرج من حياتنا. أرجوك أن لا تعود إلى هذا البيت، وأن تنسانا إلى الأبد.

وقفت والشرر يشع من عينيها، ثم خرجت. لم يفهم هو ما الذي جرى. قبل لحظات كانت يده تلعب بفرجها المشـعر. وكانت تتجاوب مع قبلاته، وتتأوه بين أحضانه، فما الذي أيقظ فيها هذه المرأة الشرسة. كان هو في كامل ثيابه. متوتراً جداً، لأنه لم يستطع أن يكمل ما بدأه معها. نزل بهدوء. لم يكن ثمة أحد. في الصالة أخذ الحقيبة الجلدية التي فيها مخطوطات آدم البغدادي. وخرج.

في الطريق قرر أن لا يمر على الأب آدم الزاهد حقا. وأن يغيب عن هذه العائلة، ومـن المؤكـد أنهـا لـن تتحـدث لأبيها عن ذلك. لكنه بالرغم من ذلك أحس بشـيء من الراحة النفسية، لما حققه معها

10

نهـــــار الجــثـــث

أفـاق آدم المحـروم علـى صـوت إنفجار قريب جداً اهتز البيت كله على أثره، فهب واقفا بشـكل لا إرادي. وقبل أن يهرع من في المنزل، ارتدى ملابسـه الخاصة سـريعا. عـرف، بـل تأكـد بـأن كل الـذي جـرى بينه وبين حواء ابنـة آدم الزاهد لم يكن إلا حلماً جنسياً جميلاً بالرغم من نهايته غير السعيدة، لكن انتبه أيضا بأن ثمة إنفجاراً قريباً حصل. وبينما كان يلملم أوراق المخطوطة ويضعها في الحقيبة الجلدية، ويلملم الفراش أيضا، دخل الأب آدم الزاهد وهو يسـتعيذ بالرحمن، وكذلك هرُعت ابنته والصبي. وقبل أن يلقي الأب التحية، قال:

– إنه انفجار قريب جدا، ربما في السوق القريبة.

– أكيد.

– السـلام عليكم..نسـيت أن اسـلم عليـك يـا ابنـي.. متى نخلص مـن هذا الوضع التعيس؟!

– عليكم السلام حجي..

حواء أيضا ألقت التحية وهي تحتضن ابنها:

– السلام عليكم.. يا ساتر يارب..

– عليكم السلام.

خـرج الأب وآدم المحـروم إلـى الشـارع، الطفـل أراد أن يخـرج فأوقفته أمه، بقوة، أراد الطفل أن يفلت من بين يديها وهو يصيح:

– أريد أن أروح مع جدي..

لكن الأم مسكته بقوة بحيث لم يمكنه أن يفلت من بين يديها.

عند رأس الشارع، وليس ببعيد عن منعطفه كانت قد انفجرت سيارة ملغمة. كانت أصوات نفير سيارات الأسعاف وهي تهرع إلى مكان الحادث يصم الآذان ويبعث القلق في النفس. وكانت الأجسـاد قد تطايرت إلى أنحاء شـتى، وتعالى الدخان من المكان.

قبـل أن يصـلا إلـى مـكان الحادث رأى آدم المحروم سـاعدا بشـرياً ممزقة أمامه. وقف فجـأة، انتبـه آدم الزاهـد لآدم المحـروم، كمـا انتبه إلى السـاعد الذي تمزق وانفصل عن ذراع صاحبها، الذي من المؤكد قد تمزق من هول الإنفجار.

حينمـا وصـلا إلـى مـكان الإنفجـار رأيا الجثث الممزقة والمتناثـرة هنا وهناك. رأيا بعـض الجرحـى الأحيـاء الـذي فقدوا أعضاء من أجسـادهم، فهـذا فقد يده وهو يركض لا يـدري إلـى أي اتجـاه، وذلـك يجلـس علـى الأرض مقطوع السـاق، هنـاك جثث قد برزت أحشاؤها وأصحاب قد فارقوا الحياة، عشرات الجثث والجرحى. إذ تم الإنفجار بالقـرب مـن مطعـم يرتـاده العمال والموظفون الذاهبون إلى أعمالهم ودوائرهم. جاءت قـوات الحـرس الوطنـي وأخـذت تطلـق النار في الهواء لتفرق النـاس الذين هرعوا إلى مكان الحادث.

بعض الناس أخذ ينقل الجرحى ويضعهم على الرصيف المجاور بانتظار سـيارات الأسـعاف التـي كان صوتهـا يسـمع مـن مسـافة غيـر بعيـدة لكـن يبـدو أن الإزدحام في الشارع قد أعاق سهولة حركتها، وما أن وصلت حتى بدأوا بنقل الجرحى. كان عددهم بالعشرات. بعض أصحاب السيارات تبرعوا بنقل الجرحى حسب الإمكان.

لـم يجـد آدم المحـروم مـا يمكـن أن يسـاهم فيه وكذلـك الأب. كان آدم المحروم يشـعر بالإنقباض النفسـي، والغضب. الغضب من كل شـيء، من هؤلاء الساسـة الذين يعيشون في تلك المنطقة المسورة بكل شرطة ومخابرات الدنيا، وبالأجهزة الألكترونية، وبالدبابات، والتي تسمى المنطقة الخضراء، بينما الناس هنا يتساقطون كالذباب وبطريقة بشعة ومؤلمة وقاسية، بل سوف يخرج أحدهم ليهين الناس بالتقليل من عدد الضحايا والجرحى، ويوجه الإتهام للقاعدة وذيول الحزب المجتث. رأى الناس تتجمع، وبعض النساء بدأن باللطم على خدودهن، والبعض الآخر راح يشتم الحكومة والناس السياسيين الذين يجلسون في المنطقة الخضراء.

تصاعدت أبخرة الدم ورائحته الثقيلة مع الزحمة، وتصاعدت الحرارة، فأحس آدم المحروم أنه على وشك أن يفرغ ما في جوفه في الشارع، فأسرع إلى جهة البيت. انتبه إليه الأب الذي كان شاحب الوجه، وحينما لحقه، سأله:

– هل أنت بخير يا ابني؟

– أحس برغبة في أفراغ ما في جوفي، رائحة الدم أصابتني بالغثيان.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. إلى متى سينتهي كل هذا؟

– لن ينتهي يا حاج، لن ينتهي..

قبـل أن يصـلا إلـى البـاب شـاهدا من بعيد حـواء وابنها يقفان عند العتبة. أحس آدم المحروم بنفسه تهدأ قليلاً لأن كل ما جرى كان حلما، فهو لم يسئ لهذا الرجل الصالح والطيب، ولا لهذه المرأة الجميلة الصابرة. وقبل أن يصلا إلى البيت دخلت هي وابنها. حين صار الأب وآدم المحروم في الصالة كانت صينية الفطور مع الشاي والخبز موجودة مع علبة المربى والعسل. وقبل أن تسأل حواء الزاهد أباها قال لها:

– إنفجار سيارة عند مطعم الكباب. عشرات الجرحى.

– يا ربي.. يا سـاتر.. أنا خرجت قبل نصف سـاعة من الإنفجار واشـتريت الخبز والخضروات، ومررت على الدكان الذي بجانب المطعم فاشتريت بعض علب المربى والبيض، وكبة الموصل المجمدة. يا ساتر يا ربي..

– قالت حواء مرعوبة.

لم يجدوا ما يقال. كانت الوجوه شاحبة، والنفوس متألمة، وكان الصمت أكثر بلاغة من الكلام. أرادت الإبنة أن تنهي هذا الصمت الثقيل، فقالت:

– أفطروا على الأقل قبل أن يبرد الشاي..

فقال الأب بحزن ويأس:

– من لديه شهية أن يفطر بعد أن يستيقظ على مثل هذه الإنفجارات.

– لا بد أن تأكلوا.. وراءك عمل لساعات طويلة يا أبي.

– صحيـح يـا ابنتـي.. صحيـح.. وأنـت يا ابني لا بد أن تـأكل فمعدتك فارغة بينما رائحة الدم أصابتك بالغثيان.

– والله يا حاج النفس تعاف كل شيء بعد رؤية هذه المشاهد.

– صحيح.. لكن لا بد للحياة أن تستمر يا ابني..

– حياة من يا حاج.. حياة هؤلاء القادة الذين يجلسون في المنطقة الخضراء وأبنائهم وعوائلهم.. بينما نحن نعيش في رعب المفخخات وكواتم الصوت والمادة أربعة إرهاب التي صارت تطال كل من يتنفس في هذه البلاد؟ حياة من تستمر.. هل هذه حياة هي حياتنا حتى تستمر؟ حياتهم هي الحياة طبعا، قصورهم التي تجري من تحتها الأنهار، نعم يا حاج.. الطاغية المقبور أقام قصورا ومباني في المنطقة التي تسمى اليوم بالمنطقة الخضراء، أقام مباني سميت بفينيسيا الجديدة.. قصور متراصفـة تجـري الأنهـار والجداول المنشـقة عن دجلـة لترويها بالمياه، ففي كل بيـت تمـر هـذه الجـداول والبحيـرات الصغيرة. الآن يعيش فيهـا الوزراء ورجال الحكومـة المتنفـذون، وقـادة الأحزاب الدينية. لقد ورثوا قصور الطغاة ليسـكنوا

فيها..تصور يصيحون ليل نهار بمظلومية الإمام الحسين، وزهد الإمام علي بينما هم يعيشـون في قصور فارهة.. وأنت تقول يا حاج بأن الحياة تسـتمر.. نحن لا نعيش يا حاج.. نحن أموات في هذه الحياة.

كانـت حـواء تنظـر بإعجـاب إليه وهو يتحدث بحرقة وغضب وإندفاع، حتى الأب أحس بالخجل من جملته التلقائية العابرة التي قالها بأنه لا بد للحياة أن تستمر. فما قاله آدم المحروم صحيح جدا، بل هو يعرف سرقاتهم وقصورهم وعماراتهم التي اشتروها في بيروت والإمارات ولندن وحساباتهم في البنوك أيضا، بينما يوزعون الأموال القليلة هنا وهناك من أجل إقامة المجالس االحسينية والمبالغة فيها وإلهاء الناس عن دنياهم.

أحسـت حواء المؤمن بتعاطف كبير معه، لاسـيما وأنه مس وضعها بالحديث عن المـادة أربعـة التـي أعتقلـوا زوجها تحت بندها. لذا أحسـت برغبة في أن يتجاوز غضبه ويأكل. فقالت:

– هذا الكلام صحيح جدا يا أستاذ آدم، لكنه مع الأسف لا يقدم ولا يؤخر.. من يسمعنا من هؤلاء الذين تحدثت عنهم؟ لا أحد. هؤلاء جاءوا إلى الحكم بدماء الشـهداء وتضحيات مئات الألوف، بينما هم كانوا في إيران أو سـوريا أو لندن. جاءوا ليصبحوا قادة البلاد، ويسرقوها ويبيعوها لأربابهم في الدول الأخرى.

– أميركا هي التي جاءت بهم.. علق آدم المحروم وهو ينظر إليها.

– أميركا أو إيران.. لا فرق.

– ماذا تقولين يا ابنتي.. كيف لا فرق؟.. علق الأب

– أميركا تفكر بمصالحها، وإيران تفكر بمصالحها.. لا أحد يفكر بأهل البلاد..

– صحيح..قال آدم المحروم مؤيدا.

إبتسم الأب محاولا تجاوز الحالة النفسية المتوترة التي تهيمن على الجميع، وقال وهو ينقل النظر بينهما:

– صار بينكما إتحاد ضدي..

تبادل آدم المحروم وحواء الزاهد النظرات، فبادرت حواء قائلة:

– لا..ليست القضية أننا اتحدنا ضدك.. وإنما نحن نعبر عن وجهة نظرنا.

فقال الأب بهدوء:

– كنت أمزح فقط. أردت أن ننهي الحديث ونأكل.

– بالعافية.

قالت حواء الزاهد ذلك واتجهت إلى أعماق المنزل. بينما صب الأب الشـاي في

الاستكانات وأخذا يفطران. الصبي الصغير كان ضجرا من النقاش الذي كان، لذا بدأ يلعق القيمر والعسل بإصبعه الصغيرة، فأخذ جده قطعة خبز ليضع فيها القيمر والعسل ويلفها له كي يأكلها.

بعد أن انتهوا من الفطور نهض الأب وحمل الصينية إلى الداخل. وحينما عاد ثانية قال لآدم المحروم عن ضرورة الإتصال بأصحاب المشتمل ليعرفوا قرارهم الأخير. ثم أردف بأنه ربما ابنته ستقوم بذلك بلا شك. وفجأة سأل الأب:

– إلى أين ستذهب خلال النهار؟ هل عليك الذهاب إلى العمل؟

كان السؤال له وقع ضربة قوية على الفك. أحس آدم المحروم وكأنه فكه قد حطم ولسانه قد شل، لكن ذلك لم يستمر طويلا، سوى لحظات، فقال:

– أنا لا أعمل في مكتب، وإنما أكتب مقالاتي وعروضي للكتب في البيت، فأنا لستُ موظفا وأنما كاتب أو لنقل بشكل أدق صحفي حر. أما عملي في مديرية السينما والمسرح، فهو شكلاني، أي أن معظم الموظفين على ملاك المديرية لا يداومون وأنما يذهبون للتوقيع فقط. نقبض رواتبنا الزهيدة من باب رفع العتب بالنسبة للدولة. بل معظم الفنانين يعملون في المحطات التلفزيونية والإذاعية والصحف، ويذهبون للتوقيع فقط. هذا الأمر منذ السقوط تقريبا. لكن والحق يقال أنا أعيش بشكل أساسي من الكتابة، علما أن عليّ إلتزامات صحافية يجب إنجازها. إذ عليّ كتابة مقالين وتسليمهما غدا وبعد غد، وأنا لحد الآن لم اكتب منهما أي حرف.

– ولماذا لم تكتبهما؟

– أنت تعرف الوضع يا حاج، أين أكتب، وأنا أتنقل من مكان إلى مكان وقلق لا يستقر لي حال؟!

– أكتب هنا، لماذا لا تكتب وأنت هنا؟ ما الذي يمنعك؟ يمكنك أن تصعد إلى غرفة المكتبة، وهناك تجد كمية كبيرة من الورق الأبيض، وأقلاماً، ويمكنك الكتابة.

لم يفهم آدم المحروم مقاصد الأب، حاول أن يستوضح لكنه ارتبك من أن يسأل، فقال بطريقة ملتوية:

– متى أكتب يا حاج؟ نحن وصلنا في ساعة متأخرة من الليل، وأنا لا أريد أن أزعج أحدا.

– أنت لا تزعج أحداً. أنا سأخرج إلى عملي، يمكنك الصعود إلى غرفتي وإغلقها على نفسك إن كان آدم الصغير يزعجك. تستطيع أن تكتب مقالتاك اليوم. ولا

تتحرج من حواء إبنتي فهي مثل أختك بالضبط، وهي تنشغل عادة بتنظيف البيت وإعداد الطعام، وأنا متأكد أنها سوف تزعجك.

لم يصدق آدم المحروم ما سمعه، فالأب يقترح عليه البقاء وحده في البيت، بينما ارتعب أول الأمر من سؤاله إذ ظن أنه يطلب منه أن يغادر البيت معه ما دام هو يخرج للعمل، لذا فأنه شعر بقلبه يدق بقوة، وبالدم يتدفق في شرايينه، لكنه حاول جاهدا أن يكبت كل ذلك كي لا يبان أي شيء من هذا الفرح على وجهه أو في نظراته، بل على العكس عليه أن يبدي شيئا من التحفظ على بقائه في البيت، فقال:

– لكن يا حاج ربما سأسبب لها الحرج والضيق بوجودي في البيت؟

– يا ابني عليك أن تكتب مقالاتك وتسلمها، فمن أجورها تعيش، ما هذا الكلام؟

لم يشأ آدم المحروم أن يناقش في الموضوع أكثر كي لا يضطر إلى المبالغة في تحفظه، وربما إذا استمر في ذلك سيتراجع الأب عن فكرة أن يبقى في البيت لكتابة مقالاته، لذا أنهى الحوار بالشكر للنعمة، على الطريقة العراقية:

– مائدة دائمة إن شاء الله. اللهم زد وبارك.

– ماذا، أأنهيت فطورك؟ لم تأكل شيئا؟

– أنا يهمني الشاي صباحا، ولأنه لا يمكنني شرب الشاي وحده على الريق فأنا أضطر لأكل أي شيء معه.

– على أية حال. أنت في البيت، ويمكنك طلب أي شيء عند حاجتك، وبدون تردد.

– أنا لا أعرف كيف أشكرك يا حاج فلولاك لم أعرف ماذا أفعل؟

– لا تشكرني يا ابني. الشكر لله، والناس لبعضها البعض.

في هذه الأثناء دخلت الإبنة حواء مستبشرة وهي تقول:

– لقد اتصلت جارتنا زوجة صاحب المشتمل، وقالت أنهما وافقا على تأجير المشتمل، لاسيما وأن الشخص مزكى من قبلنا ومن طرفنا، وأن المرأة تمر اليوم بعد الظهر وتأتي بعقد جاهز، سيتم إعداده من قبل مكتب للعقارات في منطقتهم، وطلبت الإسم الثلاثي الكامل لحضرتك، ورقم هوية الأحوال المدنية لك، كي يتم إعداد كل شيء، ولا يبقى سوى التوقيع، أو بالتحديد سوى توقيعك لأنهم سيوقعون العقد.

إبتسم الأب إبتسامة صادقة وتألق وجهه بالفرح، أما آدم المحروم فلم يصدق ما سمع، توهج وجهه بدفق الدم الذي صعد إلى رأسه وهو ينظر إلى الإبنة حواء وهي تتحدث وهو يعرف أن أباها جالس معه، فلم ينطق شيئا أولا الأمر، ثم تمتم:

– الحمد لله.. هذا صباح مبارك.

ثم مد يده إلى جيب قميصه وأخرج هوية الأحوال المدنية، ومد يده إليها وهو يقول:

– الاسم الثلاثي هنا، ورقم الهوية وكذلك رقم الصفحة والسجل.

أخذت هي الهوية بسرعة خاطفة. وقبل أن تذهب لتتصل بإصحاب المشتمل، قال الأب:

– إبنتي حواء، الأستاذ آدم سيبقى هنا، سيكون في غرفتي، لديه واجب كتابة مقالاته الأسبوعية ليسلمها للصحف. أرجو أن لا يشغله الملاك الصغير. وبين فترة وأخرى اسأليه إن كان يحتاج لشيء.

أحس آدم المحروم وكأنه يرى فيلما معاداً. فجأة انتبه إلى أنه يرى تفاصيل الحلم الذي رآه قبل وقوع الإنفجار. نفس الحديث ونفس الحركات ونفس التفاصيل، لذا لم يشأ أن يسيء لهذ العائلة التي أحس وكأنها صارت عائلته، لذا فكر بأن عليه أن يفعل المستحيل كي لا يبقى في هذا البيت، ويخرج مهما كلف الأمر، لأنه إذا ما بقي فمن المؤكد أن بقية الحلم ستتحقق. فوقف فجأة وقال وكأنه تذكر شيئا:

– يا إلهي.. يا حاج.. تذكرت شيئا مهما..علي الذهاب اليوم إلى مقر الجريدة.. إذ علي تصوير غلاف الكتاب، فلا يمكنني أن أقدم الكتاب بدون صورة غلافه؛ لذا فهذه المهمة اسهل، إذ يمكنني بعد ذلك أن أكتب المقال. ربما في الليل.

توقف كلاهما. نظر الأب إليه، وخمن أنه لا يريد أن يبقى في البيت بدون وجوده، فاستحسن ذلك منه، وقال له:

– مثلما تحب.. البيت بيتك.

ونزلا ثانية. نظر إليها لاحظ علامات الخيبة على وجهها، إذ كانت تفضل تحت ضغط رغبة لا واعية أن يبقى. إبتسم آدم المحروم بخجل مع نظرة فيها إعتذار، وقال لها:

– إذا جاءت زوجة صاحب المنزل، فأني سأحاول الحضور، ويمكنك أن تتصلي بي على رقم هاتفي النقال...

ردد لها رقم هاتفه. وحينما استعدا للخروج، تعلق الصبي الصغير بجده يريد الذهاب معه، إلى العمل، فأبت الأم، لكنه تشبث بجده. أحس الجد أن وجود الصبي الصغير معه ربما يقلقه لكنه من جانب آخر سيسليه، ولا مشكلة هناك، إذ يمكنه أن يجلس على أحد المقاعد، ويأتي إليه المشاوي الطيبة ليأكل، وإذا ما تعب، فيمكنه أن يتصل بآدم المحروم، إذ عليه أن يرجع لتوقيع العقد، فيرجعه معه. قال ذلك أيضا لإبنته، التي وافقت تحت تبريرات الأب وإحساسها برغبة الأب في أن يكون الصبي

معـه. وهكـذا خـرج الثلاثـة، الصبي الملاك وجـده، وآدم المحروم. وقفت حواء الزاهد عند الباب الداخلي للمنزل مودعة.

كان الصبـي الصغيـر سـعيدا جـدا وهـي يذهب مع جده وضيفهم الذي أحبه كثيرا، وحينما صعدوا في السيارة وضعه جده في حجره. كان الصغير ينظر للطريق وللركاب بعينين مليئتين بالترقب والإستفسـار، فهو لا يفهم لماذا يصعد بعض الناس ثم ينزلون بعـد فتـرة قصيـرة قبـل أن تصل لتواصل السـيارة سـيرها، لأنه لو كانـوا قد وصلوا لنزل جده أيضا. كان آدم المحروم يجلس على مقعد مقابل له، وكان يتطلع إليه بحنان وكأنه يحاول أن يعرف ما يدور في رأسه الصغير، وكان جده يقبله ويتشممه بين فترة وأخرى. وأخيرا توقفت السيارة فعرف أنهم وصلوا من نزول السائق نفسه.

حينما نزل الثلاثة من السيارة في ساحة الطيران، ودع الأب آدم المحروم بينما لم يفهـم الحفيـد لمـاذا لـم يـأت ضيفهـم معهم. أخذه جده من يـده بينما ظل هو ينظر إلى الوراء باتجاه آدم المحروم الذي رفع كفه إليه مودعاً. كان واضحا أن الجد يتجه ناحية المطعم حيث زاويته لصنع الشاي، بينما بقي آدم المحروم حائرا إلى أين يذهب.

فكر في أن يذهب إلى شقته ليكتب مقاله الإسبوعي للجريدة فعلاً وليس إدعاءً كما أراد حينها في البيت. كان يحس براحة نفسية وإحساس أخلاقي رائق في أنه إستطاع أن يقف بوجه نزوته لإغواء حواء ابنة آدم الزاهد. كان يشعر بتدفق لطاقة الخير في نفسه. سأل نفسه ألا يكون من الأفضل له ولها وللأب الزاهد لو أنه يرجع لشقته الأولى ويلغي مشروع الإنتقال إلى مكان آخر؟

أحس آدم المحروم بأنه بدأ يتغير، إذ أن رغبته الشبقة فيها بدأت تفتر، وبدأ يحس نحوهـا بمشـاعر رقيقـة صادقـة. أخـذ يحـس أنه قد وقع في حبهـا، لكنها امرأة متزوجة، ولديهـا ابـن، فكيـف سـيعيش مع هكذا حب، لاسـيما وهـو لا يفهم الحب بدون علاقة جسدية، وهذا غير ممكن إلا إذا أغواها؟ وهو يريد أن يحتفظ بإحترامـه لنفسه ومبادئه.

ولكي لا يضطر إلى أن يقابلهما ثانية اتخذ الطريق الآخر من ساحة الطيران والذي يلتف على الجهة اليمنى من حديقة الأمة، قاطعا تلك المنطقة متشابكة الدكاكين وضيقة الفروع إلى أن وصل إلى ساحة التحرير. رأى سيارات الشرطة والحرس الوطني مقيمة هناك بشكل دائم، بالرغم من أن الشرطة ورجال الحرس الوطني بدوا في حالة استرخاء، فهناك من يتحدث بالهاتف النقال وآخرون في داخل السيارة يتحدثون، وبعضهم يأكل شيئا، وآخرون بأيديهم علب المياه الغازية يعبون منها. إجتازهم عابرا إلى جهة اليسار ومن هناك عبر إلى الطرف الآخر من بداية شـارع السـعدون حيث المكتبات البغدادية

المعروفة، والتي بدت مظلمة لعدم وجود التيار الكهربائي. توقف عند الكتب المعروضة على الأرض في عتبات المكتبات.

مر سريعا على عناوين الكتب التي بدا معظمها قديماً، والكثير منها قد قرأه قبل سنوات. أطل على عناوين الكتب داخل الحاجز الزجاجي والتي بدأت جديدة الطبع. انتبه لاكتساح الكتب الدينية وكتب الشعوذة لمعظم العناوين، بالرغم من أن بعض العناوين كانت تشكل تناقضا صارخا لبعض العناوين المحاذية لها. انتبه إلى معظم الكتب الدينية مطبوعة في قم الايرانية، والبعض الآخر كان يرقد في مخازن دور النشر اللبنانية، لأن معظم الطبعات كانت من فترة السبعينات. وصل إلى إحدى المكتبات العراقية الحديثة والتي انتقلت من دمشق إلى بغداد، وهي من المكتبات ذات التوجه التقدمي الواضح، فوجد الكثير من الروايات والأعمال الفكرية الحديثة. كانت الكتب على الواجهة تغريه بالدخول إلى إليها، لاسيما وأنه رأى الطبعة الجديدة من رواية عشيق الليدي تشاترلي للكاتب الذي يحبه دافيد هربرت لورنس. وكذلك مجلد مؤلفات جيمس جويس الذي لم يقرأ له آنذاك سوى أقاصيص دبلن. وما أن انحنى ليأخذ الكتاب كي يتصفحه حتى دوت المنطقة بإنفجار عنيف اهتزت له الأرض تحت قدميه. إلتفت مرعوبا فلم يجد شيئا، سوى دخان كثيف يتصاعد من الجانب الآخر لبيوت البتاوين، ورأى سيارات الحرس الوطني تدور مسرعة نحو ساحة الطيران وهي تطلق الرصاص باتجاه السماء. حين صار عند رأس شارع السعدون والتفت ناحية ساحة الطيران هاله المنظر، إذ كان الدخان يأتي من الشارع الذي يقع فيه المطعم.

هرول آدم المحروم مرعوبا نحو ساحة الطيران، وقبل أن يصل بعشر دقائق أحس بقلبه ينقبض جدا، إذ أن الإنفجار كما هو واضح عند المطعم. لم يكن سهلا عليه الوصول، لقد كان رجال الحرس الوطني يمنعون أي أحد من الإقتراب، لكنه رأى أن لا وجود للمطعم ولا لزاوية الشاي، فقد انفجرت سيارة ملغمة عند الزاوية نفسها وفي المسافة القصيرة بين زاوية الشاي والمطعم.

أحس آدم المحروم بأن قدميه ترتجفان ولا تستطيعان حمله، فجلس مقرفصا على الأرض. كان كل شيء مختلطا، الملابس بقطع اللحم الممزقة، الأطراف المهشمة، الرؤوس المقطوعة. حاول الإقتراب وهو يصيح برجال الشرطة:

– أبي هنا.. أبي هنا..

لا يدري من أين جاء الدمع. كان يبكي ويصرخ. سمحوا له من الإقتراب قليلاً، تعاطفا مع حالته، رأى ثوب الأب آدم الزاهد وسترته الملطخة بالدم وهي تضم بقايا

جسد ممزق، ولا أثر للرأس. لم يجد سوى بعض الأحشاء الداخلية ورأس الطفل آدم الملاك الذي لم يبق من رأسه سوى جلد الوجه لأن مخه وجمجمته قد تمزقت بفعل الإنفجار. رأى بركة من الدم قد حفرت في الأرض من قوة الانفجار. رأى بعض أعضاء أو أحشاء بشرية قد التصقت بالجدار المقابل للشارع. لا يدري كيف أنه وبلا شعور منه ولا إرادة منه أخذ يضرب على وجهه ورأسه بكفية نادبا الأب آدم الزاهد وحفيده آدم الملاك. أخذ يصرخ بأعلى صوته:

– لماذا؟ لماذا؟ كل هذا يحصل يا ربي؟

كان الناس الذي تجمعوا وسيارات الإسعاف التي هرعت إلى المكان قد سدت الطريق والمنافذ. لم يعد أحد ينظر إليه لأن الجميع قد توجه إلى مكان الإنفجار. كان هو كالمجنون يصرخ محدثا نفسه:

– لماذا خرجت هذا اليوم يا آدم الملاك؟ لماذا خرجت اليوم يا أبي يا آدم الزاهد؟ ماذا أقول لأمك حين أقابلها؟ آه يا ربي.. أين عدالتك؟ ما ذنب هذا الطفل البريء أن يتمزق جسده هكذا؟ وكل ذلك باسمك؟ أتريد هذا حقا يا ربي؟ يا أبانا الذي في السماوات؟!

ظل يبكي مع نفسه إلى أن تعب ولم تجد عيناه دمعا تذرفه، قام منكسرا. تحرك نحو مكان الإنفجار. كانت الزحمة قد خفت قليلا، إذ ذهبت سيارات الإسعاف، وكذلك بعض رجال الحرس الوطني، وبعض الذين تجمهروا. وكان هناك من يسأل أن كان أحد يعرف أحدا من الضحايا، فتقدم حزينا من أحدهم، الذي بدا برتبة عسكرية متقدمة، وقال له حزينا:

– أنا أعرف الرجل الذي في الزاوية يبيع الشاي، كان اليوم مع حفيده. إنه آدم الزاهد، وحفيده اسمه آدم الملاك. إنهم يسكنون في منطقة المشتل. وأعتقد أن صاحب المطعم هو أخو زوج ابنته. يمكنكم أن تذهبوا إليها لتقول لكم أكثر.

أعطاهم العنوان وانسحب حزينا. لم يشأ أن يذهب هو ليخبرها بالكارثة، لكنه يجب أن يذهب إليها ويقف إلى جنبها في هذه المحنة الرهيبة عليها. لم يشأ أن يحمل لها مثل هذا النبأ. سيذهب إليها، لكن ليس الآن. لأن لاحظ أن العسكري المشرف على تلك الحادثة أمر أحدهم للذهاب على العنوان الذي أعطاهم إياه.

إنسحب آدم المحروم من المكان. كان يحس بخواء عظيم، كان وكأن الحياة أمست تافهة ولا تعني أي شيء، فلم تعد هناك قيمة لكل شيء. ما معنى هذه الحياة التي يتم قتل الناس فيها بهذه الطريقة البشعة؟. ما ذنب هذا الطفل البريء آدم الملاك. وما ذنب

جـده آدم الزاهـد؟ ومـا ذنـب هـذه الأم التي ثكلت ابنها وفقدت أباها في لحظة واحدة، وبطريقـة بشـعة؟ ومـا ذنـب ذلـك الأب القابع في بـوكا أن يقتل ابنه بهذه الطريقة بحيث يتطاير مخه وجسده الطري البريء ولا تبقى سوى بقايا أمعائه وجلدة وجهه؟. ما ذنب هـؤلاء النـاس الذيـن جـاءوا ليأكلوا لقمة هنيئة ليواصلوا بعدها رحلتهم الشـاقة في هذه الحياة الجحيم التي يعيشونها؟

ولمـن يتـم تقديـم كل هـذه الضحايـا قربانـاً، لمـن؟ مـن أجـل حفنة مـن المزورين والفاسـدين والعملاء لدول الجوار؟ من أجل رفاهية عوائلهم وأبنائهم وحسـاباتهم في البنوك؟ ما الذي جناه العراقيون من هذه المذبحة التي تستمر منذ عقود؟ ما هذا العبث بحيـاة النـاس باسـم الديـن والقيـم؟ وأيـة قيم؟ مـا معنى هذه الحياة؟ أهـذه حياة يمكن لإنسان أن يعيشها أصلاً؟

لم يكن يدري إلى أين يذهب، كان يحس بفراغ جسده، وبثقل رأسه. انعطف في شارع السعدون دون هدف. وصل إلى ساحة النصر. عبرها صاعدا الطريق نحو ساحة الفردوس، التي كانت سـابقا تسـمى سـاحة الجندي المجهول قبل بناء ضريح آخر له تنقل فيه رفاته الوهمية. عبر صاعدا نحو سـاحة قهرمانة والتي تجسـد حكاية علي بابا والأربعين حرامي. فكر مع نفسه، يبدو أن أعلى رقم للحرامية كان في ذلك الزمان هو الأربعين، لكن طاقم السلطة في البلاد الآن يعدون بالمئات، أية حكاية سنكتب اليوم، علي بابا والمئات من حجاج بيت الله الحرامية؟ يا لسخرية القدر. هؤلاء ليسوا بأفضل من الذي سبقهم؟ أية لعنة تدور في أرجاء هذه البلاد؟.

وجـد آدم المحـروم نفسـه يـدور إلـى الجهـة الأخرى ويعود أدراجـه. فكر ربما أن الشـرطة قـد ذهبـوا إلـى بيـت آدم الزاهـد وأتـوا بإبنته لتتعرف على بقايـا الجثث. أحس بنفسه وهو يسرع في مشيه ليصل إلى المكان. كان يحس بنبضات قلبه سريعة، وأحس بالعرق يبلل جبهته. ماذا هل هو مريض؟ أحس بهبوط في قلبه، وبحالة أشبه بالإغماء، فأسـرع ليجلـس فـي زاويـة فيهـا شـيء من الظل، وبدون شـعور منه تمـدد على الأرض ووضع الحقيبة الجلدية تحت رأسه. مر في تلك اللحظة رجل وامرأة فتية سافرة الوجه. اقتربا منه، كان الرجل يناديه، ولاحظ أن الرجل رفع رجليه إلى الأعلى مباشـرة، وكان يصرخ به:

– لا تنم، لا تنم، إبق صاحيا..

ولم تمض إلا لحظات حتى أحس بنفسه تعود لوضوحها. رأى الرجل والمرأة التي معه يجلسان القرفصاء، ويسألانه:

– هل أنت مريض.. وجهك أصفر؟

لم يقل لهما شيئا وإنما كان ينظر إليهما، فسمع الرجل يعلق:

– الحمد لله أنّا جئنا في اللحظة المناسبة. لقد تعرضت أيها الأخ إلى ذبحة صدرية، أو هبوط حاد في الضغط. لكن الحمد لله مرّ كل شيء بسلام. هل تحتاج إلى أن نتصل بالإسعاف؟

فأشار بيده رافضا ذلك، وبهمس قال:

– أنا بخير.. شكرا لكما.. أنا بخير..

– هل أنت متأكد بأنك لا تحتاج للإتصال بالأسعاف؟

– لا شكرا.. شكرا لكما.. لقد مر كل شيء بسلام.. شكرا لكما.

نظرا إليه للحظات، ثم واصلا سيرهما. ظل آدم المحروم جالسا في مكانه فترة طويلة من الزمن، أحس بجسده يتعرق عرقا باردا. وشيئا فشيئا أحس بالتحسن. نهض من مكانه، حاملاً حقيبته، متجها إلى مكان الإنفجار في ساحة الطيران.

حينما وصل إلى مكان الإنفجار لم يجد شيئاً. لا سيارات الشرطة والحرس الوطني، ولا الناس، سوى حفرة فيها ماء ملوث بالدم، لأن هناك من جاء لينظف المكان من الأشلاء والدماء وكأن شيئا لم يكن. رأى آثار الخراب التي خلفها الإنفجار حيث لم يبق من المطعم سوى حفرة سوداء وبقايا حريق، أما زاوية الأب فقد انقلبت باطنها على ظاهرها، وكأنما كان جرار ضخم حفر تلك البقعة وقلبها على بعضها. كانت بالقرب من المكان، وعلى الطرف الآخر من الشارع سيارة للحرس الوطني. اقترب منهم، فتتأهبوا، لكنهم هدأوا قليلا حينما وجدوه لا يرتدي غير قميصه الملتصق بجسده، فأطمأنوا إلى أنه ليس مفخخاً. سلم عليهم وسألهم أين أخذوا الجثث والجرحى والبقايا من الأشلاء من ضحايا الإنفجار، لأن هناك من يقرب له كان يعمل هنا، فقالوا له لقد تم نقل بعضهم إلى مدينة الطب، وبعضهم إلى مستشفى اليرموك، لأن المستشفيات اليوم قد امتلأت بالجثث وبالجرحى، حتى مشرحة بغداد لم تعد تستوعب الجثث. شكرهم ومضى متجها صوب ساحة التحرير، إذ قرر أن يذهب إلى مشرحة بغداد لأن الأب والابن قد تمزقا في الإنفجار فهما ليس من الجرحى. ولم يمش عشرة أمتار حتى أوقف سيارة تاكسي ودخلها، قائلا له:

– إلى مشرحة بغداد.

حينما وصل آدم المحروم إلى المشرحة لم يجد الكثير من الناس كما كان يتوقع.

رأى شابا في مقتبل العشرينات من العمر مقبلا من الطابق الأسفل تحت الأرضي، أراد ان يسأله إلا أن موظف الإستعلامات صاح به:

– هيه أنت يا آدم الحارس، هل أعددت تقريرا لكل الجثث التي جيء بها اليوم؟

– نعم.. إنها جثث لخمس نساء وطفل.

إقترب آدم المحروم منه، وسأله:

– أخي، أنا أسأل عن الجثث التي نقلت إليكم قبل ساعة من الوقت ربما في إنفجار ساحة الطيران.

نظر إليه آدم الحارس بغموض وقال:

– ليس لدينا اليوم سوى خمس جثث لخمس نساء قتلن في إنفجار قرب مؤسسة الشهداء، وبينهم طفل أيضا.

– ألم تأت أمرأة تسأل عن ابنها وأبيها؟

– اليوم لم يحملوا لنا سوى جثث النساء الخمس مع الصبي. ربما تم نقلهم إلى أماكن أخرى، كمدينة الطب مثلا.

كان الحارس آدم صموتاً وكأنه جثة تمشي.

لم يجد حواء ابنة آدم الزاهد بين المتواجدين من النساء النائحات والآباء الذين يبكون بصمت أو بصوت مكتوم لكنه مسموع بالرغم من ذلك. أحس أن ألمه تضاعف أكثر، لم يستطع أن يستوعب مصيبة واحدة بينما هنا رأى مصائب العراقيين متجسدة هنا ولا تحتاج لتعليق.

سار آدم المحروم مجرجرا نفسه بإتجاه الباب المعظم، ليدور من هناك بإتجاه شارع الجمهورية وليركب سيارة بإتجاه ساحة التحرير. فكر ربما هي الآن في المكان نفسه. فليذهب إلى هناك.

حين وصلت السيارة نهاية شارع الجمهورية، نزل وقطع الشارع بإتجاه ساحة التحرير، ومن هناك انعطف نحو الشارع الذي تم الإنفجار فيه. لم يكن ثمة أي أثر للدمار وكأنما لم تكن هناك مجزرة هنا صباح هذا اليوم أو كأنما الموت لم يمر من هنا صباحا هذا اليوم.

فكر آدم المحروم بأن يذهب إليها في بيتها ليعرف ماذا جرى معها، وكيف واجهت الكارثة؟ لكنه أحس بأنه أضعف من أن يذهب إلى هناك. أخذ يمشي بلا هدف. توجه صاعدا الطريق حتى وجد نفسه أمام القصر الأبيض، في تلك المنطقة التي كانت ترعب العراقيين، لكون مباني أجهزة الأمن والمخابرات كانت في تلك المنطقة المقابلة للقصر

الأبيـض. إنعطـف فـي دروب المنطقـة تلك. وجد نفسـه يـدور في أزقة تؤدي إلى أزقة. وحدث أن دخل أزقة مسدودة بجدران إسمنتية عالية، خمن أن ثمة مسؤولاً أو شخصية ما مهمة تعيش في تلك المنطقة. انتبه لتواجد عدد كبير من المطابع في تلك الأزقة، إذ كان يظن أنها متجمعة في شارع المتنبي. دخل إلى أزقة لم يكن فيها غير بيوت مهدمة، بيوت أطلال. فكر مع نفسه لِمَن هذه البيوت؟ ولماذا هي مهجورة وكأنها أطلال حضارة بائدة وسط منطقة سكنية ببغداد؟.

كان ينظـر بـلا مبـالاة إلـى هـذا العـدد الكبيـر من المولـدات الكهربائية، وشـبكات الخطـوط الكهربائيـة الموصلـة بهـا، وإلـى الأوسـاخ التـي خلفها زيـت المولدات على أرضية الشـوارع، وإلى تلك الروائح الكريهة نتيجة تجمع الأوسـاخ وفضلات البيوت. كان الخـراب قـد خيـم علـى تلـك المنطقـة، بالرغم من أن الناس هناك كانوا يمارسـون حياتهم وكأنهم لم يكونوا يعرفون غيرها في يوم من الأيام، بل صاروا يقبلون بهذه الحال خوفا من مجيء الأسوء. استرجع في ذاكرته شكل هذه المنطقة قبل ثلاثة عقود، حيث كانت تُعد من مناطق بقايا الطبقة الوسطى التي بدأت بالإضمحلال منذ قيام الجمهورية كنظام حكم للبلاد.

فجأة انتبه إلى أن أحد الأزقة قاده إلى الشارع العام. أحس وكأنه خرج من كابوس مرعـب إلـى كابـوس آخـر أقـل رعبا. أحس أنه خرج من متاهة الخراب التي تلتف حول تلك المنطقة بعيدا عن الشوارع الرئيسية التي لا تقل خراباً. أهذه هي بغداده؟ أهذه هي مدينته التي تغنى بها الشعراء؟ انتبه إلى أن تداعياته التي تمخضت عن سيره في الأزقـة الخلفيـة تـكاد تكـون ترفـاً نفسـياً بالقيـاس لتلـك الحـال التي هو فيهـا، إذ عليه أن يفكر بوضعـه، مـاذا عليـه أن يفعـل الآن؟ هـل يذهب إلى حـواء ابنة آدم الزاهد؟ وهل عرفت بالكارثـة اصـلاً؟ ربمـا هـي لم تعرف لحد الآن، وأن الشـرطة لم تذهب لتبلغها بالأمر؟ كيف يعرف ذلك؟ الآن هو وقت العصر، والمساء لم يبدأ بعد، فهل عليه الذهاب إلى هناك؟ وإذا وجدها قد عرفت بالأمر فكيف سيواجهها؟ وماذا سيقول لها ليواسيها؟.

وبدون أن ينتبه لنفسه، وجد نفسه يتجه مرة أخرى نحو القصر الأبيض، ومن هناك، وبشكل لا إرادي، كالمأخوذ، صعد سيارات ركاب متجهة إلى حيث تسكن البيت الذي آواه في أيام رعبه بعد إغتيال صديقه آدم البغدادي.

فـي السـيارة كان الـركاب يتحدثـون عـن انفجارات متعددة وقعـت اليوم في بغداد. بعضهم تحدث عن إغتيالات لبعض الشخصيات الإدارية الكبيرة. الكل كان يشتم ويلعن القاعـدة وهـؤلاء الذيـن يأتـون من وراء الحدود ليفجروا أنفسـهم بين الناس، أو يقوموا

بتلغيم السيارات وتفجيرها في الأماكن العامة. كان الركاب لا يخافون من سب الحكومة وأعضاء البرلمان وكل اللصوص في هذه الدولة التي وصفها أحد الركاب بأنها الدولة المهزلة. آخر اعترض عليه نافيا وجود دولة أصلاً، وإنما وجود قبائل سياسية وطوائف تتصارع من أجل الغنيمة. كان هو يستمع لكل هذه الحوار العفوي الذي ينطلق من حرقة الناس وحزنهم على ما آل إليه الحال. انتبه إلى رجل كان في الصف الأخير من الركاب، إذ علق على ما سمع من حوار، وكأنه خارج السرب، قائلاً:

– هذه لعنة زينب الحوراء على العراقيين حينما ذبحوا الحسين. بل ولعنة الإمام علي عليهم، ألم يأتوا بالإمام من مكة إلى الكوفة لكنه لم ير منهم سوى التآمر عليه، والخروج ضده، وأخيرا قتلوه في المحراب؟ ألم يرسلوا الرسائل لابنه الحسين أن يأتي إليهم، ثم قتلوه وذبحوه مع أخوته وعشيرته؟ لقد توجهت الحوراء زينب إلى رب العالمين وهي ترى أخوتها وأحبتها وأبناءها جثثاً مقطوعة الرؤوس ودعت على أهل العراق بالخراب. إنها لعنة زينب الحوراء على العراق وأهله، هذا شعب ملعون. ولن يرى الراحة، ولن يتخلص من الطغاة أبداً. طاغية أبشع من آخر، طاغية يسلمها لطاغية.

كان الجميع صامتين يسمعون هذه الخطبة، لأن الرجل كان يتكلم بصوت عال وكأنه على المنبر. التفت إليه رجل في أواسط الخمسينات من عمره، قائلاً:

– أنا أتفق معك يا حاج في ما يخص اللعنة، فهو شعب ملعون، وبلد ملعون، لكني لا أتفق معك بأنها لعنة غادة كربلاء زينب الحوراء، وإنما هي لعنة الأنوناكي.

صرخ الجميع به بصوت واحد وكأنهم كورس مسرحي:

– منو؟ من؟

– الأنوناكي.

– الأنوناكي؟

– نعم الأنوناكي..ماذا بكم؟ ألم تسمعوا بالأنوناكي؟ نعم الأنوناكي..

قال الرجل وهو يؤكد ذلك بصوت واضح وبطيء. ولما انتبه إلى استغرابهم أحس بشيء من الأهمية الشخصية، بحيث أن السائق خفف من سرعته ليستمع أيضا، فقال الرجل:

– كل ألفي عام تمر على بلاد الرافدين.. أو الميزوبوتاميا، كارثة تدمره من الأساس. حيث تتم المجازر والدمار والحروب والمجاعة والأمراض ويتشرد الأبناء في البلدان. وتأريخ وادي الرافدين شاهد على ذلك. فقبل ألفي وخمسمائة عام قبل

الميلاد مرت بمدينة أور عاصمة السومريين كارثة مثل التي نمر بها وربما أكبر. وبعد ذلك بألفي عام مرت البلاد بكارثة أخرى حينما سقطت بابل، وها وبعد ذلك بألفي عام مرت البلاد بكارثة مشابهة حينما اجتاحها التتار والمغول ودمروا بغداد، وها نحن نمر بمثل هذه الكارثة باحتلال العراق من قبل الأميركان.

ويبدو أنه لم يقنع الموجودين، إذ اعترض عليه الرجل الذي كان يتحدث عن لعنة زينب محاججا، وهو يقول:

– لم يمر ألفا عام بعد على إحتلال المغول لبغداد يا أخي.. هذه لم توفق فيها.. السومريون ونكبة أور ثم سقوط بابل ممكن.. ولازم نتأكد من المعلومات، لكن لم يمض ألفا عام على سقوط بغداد بيد المغول.. وبالتالي تسقط نظريتك. وأقولها لك وللجميع إنها لعنة زينب الحوراء.. التي لا أذكرها والتي تؤكد فيها بأن اللعنة ستلاحقنا بحيث سيولى علينا من لحمنا ودمنا لكنه لن يرأف بنا ونحن لن نرضى عنه.

– إيقاع الزمن تغيّر يا أخي؛ فالسنة الواحدة تعادل عشر سنين من سنوات القرون الماضية، وبالتالي تغير الإيقاع، صار كل خمسمائة سنة ممكن تحل كارثة ببلاد الرافدين. قال الرجل صاحب نظرية الأنوناكي.

التفت رجل كان طوال الوقت ينظر من نافذة السيارة وكأنه يخاف أن تفوته منطقته التي يريد الوصول إليها إليهم جميعا، وقال وهو يتهيأ للنزول:

– أخي يبدو أن الكوارث لم تغادر البلاد أصلاً.. هذه بلاد ملعونة، مرت كل دول العالم عليها، حتى الخرفان مرت عليها، ألم يحكمها الخروف الأبيض ثم الأسود.. فلا الأنوناكي..ولا الأنوناكو.. هذه لعنة أتى بها العسكر، لعنة الأبرياء من عائلة الملك الذي تم إعدامهم في صباح بغدادي مشمس.. منذ ذلك اليوم واللعنة لم تغادر هذه البلاد.. طاغية يخلف طاغية..كلهم خونة.. خيرهم لغيرهم.. المقبور كان يفضل أبناء البلاد العربية الأخرى على العراقيين، وهؤلاء الآن يفضلون مصلحة إيران على مصلحة بلادهم.. كلهم خونة..

إنقطع الحوار وصمت الجميع من صراحة هذا الأخير الذي طلب من السائق أن يتوقف لينزل، حيث أنه وصل محطته التي يريدها. نظر آدم المحروم إلى معالم المنطقة التي نزل فيها الراكب، فعرف أنها منطقته أيضا، لكن السائق كان قد تحرك، فطلب منه أن يقف لينزل. أحس السائق بالانزعاج منه، لكنه أوقف السيارة، وقبل أن ينزل سمع أحدهم يعلق على كلام الرجل الذي نزل:

– هؤلاء عملاء ومن فلول النظام السابق.

نـزل آدم المحـروم مـن السـيارة مرتبـكاً. أحس وكأنه نـزل إلى أرض مليئة بالألغام. مشى قليلا باتجاه الزقاق. انتبه إلى الهدوء في الشارع. فجأة خرجت من الدار امرأتان تلبسان العباءة السوداء. مرتا من جانبه، سمعهما تقولان:

– كان الله في عونها.. تفقد الأب والابن، وأخا الزوج في يوم واحد، بينما الزوج في السجن.. كان الله في عونها..

– ماذا سـتفعل وحدها في هذا البيت؟ يبدو أنه ليس لديها أحد.. وإلا لكان هناك من يواسيها الآن..و

كان قـد ابتعـد عنهمـا بخطـوات متعاكسـه فلم يسـمع بقية حوارهمـا لكنه أدرك من كلامهمـا أن حـواء الزاهـد قـد عرفـت بمـا حصـل. حينمـا وصل إلى الـدار وجد الباب مفتوحاً. وقف لحظات ليسـتجمع فكره ويسـتحضر شـجاعته. وبيد مرتعشـة طرق على البـاب بالرغـم مـن أنـه كان مفتوحـاً. لـم يظهر أحد. طرق مرة أخـرى ولمدة أطول. لم يخـرج أحـد. قلـق مـن عـدم خروجها. وخلال ثـوان تصور أنها انتحـرت وألا لماذا لم تخرج له؟. تجرأ فدخل إلى الدار. عبرالممشـى. كان في الحديقة الصغيرة جدا بعض ألعاب الصغير آدم الملاك.

أحس بالألم يعتصر قلبه وذاكرته، إذ استحضر صورة الصبي، أو جلدة الوجه الخالي مـن بقايـا الـرأس الأخـرى، وصورته وهو يداعبـه حينما يكون نائما. خطا بإتجاه البيت، رأى أن البـاب الخارجـي الـذي يفضـي إلـى غرفة الإسـتقبال مفتوحـاً أيضا. طرق على البـاب فلـم يجبـه أحـد. طـرق ثانيـة فلم يجبه أحد. دخل إلى غرفة الإسـتقبال فلم يجد أحداً. كان فراشه على موضعه على إحدى الكنبات الجانبية. كان البيت ساكنا جداً، ثمة صمت يخيم عليه، والعتمة تكتم أنفاسـه. وضع حقيبته الجلدية على الكنبة إلى جانب الفراش المصفوف عليها. مشـى نحو الفتحة التي تؤدي إلى بقية أقسـام البيت، فسـمع أنيناً مكتوماً يأتي من الغرفة المجاورة للسلم والتي تقابل المطبخ وغرفة الحمام. خطا خطوتيـن فصـار أمـام بـاب الغرفـة الغارقة في العتمـة. نظر إلى أعماق الغرفة التي كانت هي غرفة نوم حواء وابنها، فوجدها جالسـة على سـرير نومهما العريض. رفعت رأسـها نحوه. فجأة أخذت تبكي بصوت مسموع. نهضت ثم ركضت مسرعة وهي تبكي وألقت بنفسها عليه وكأنها تبحث عن عزائها عنده. كانت تبكي وتقول بصوت نائح:

– راحا يا آدم.. تركوني هنا وحدي.. رحل ابني الملاك.. رحل أبي الزاهد..

نزلت الدموع من عينيه، وجد نفسه يبكي معها وينوح أيضا، ويقول:

– لقد تركوني أنا أيضا.. أنا وحيد بدونهما.. يا حواء..

فجأة كفت عن النواح والبكاء المسموع ولم يسمع منها سوى أنين مكتوم. وبدون أي تفكير مسبق، سحبها معه إلى الصالة. أجلسها على إحدى الكنبات. ظلت هي تئن وكأنها في غيبوبة. أدرك أنها قد بكت لساعات وساعات، وندبت ما استطاعت، وذرفت من الدمع الكثير، حتى لم يعد في مآقيها دمع يذرف حتى لو أرادت البكاء، ولم يعد لديها من التوتر ما يمكن أن تستطيع به أن تسيطر على حركات يدها، لقد كانت متعبة ومنهكة من اللطم والبكاء والنواح والندب. إنها الآن شبه مغمى عليها من الألم وهول الصدمة والندب والبكاء. وكأنها كانت قد تخلصت بالبكاء من الكثير من الألم.

ظل جالسا معها على تلك الحالة لأكثر من نصف ساعة. أركنها قليلا إلى الحائط وقام بسرعة فأضاء الغرفة بالمصباح الكهربائي، ثم أخذ وسادة من فراشه المصفوف على الكنبة الجانبية، وعاد إليها، وضع الوسادة تحت رأسها وأمالها قليلا لتنام. فتحت عينيها وهي تقول له، وكأنها كانت واعية لكل لحظة مرت:

– لقد هجرني النوم..كيف لي أن أرتاح بعد اليوم؟ أأستطيع النوم وهما غير موجدين؟ أيحق لي النوم بينما هما حتى ليسا تحت التراب؟!

فجأة وكأنما جاءتها قوة من المجهول إذ أخذت تندب وتضرب على وجهها، وهي تصرخ:

– لم أستلم جثتيهما. لم يبق منهما شيء.. كيف لي أن أنام.. وهما حتى ليسا تحت التراب؟

ثم التفتت إليه وهي تقول، بوجه غريب الملامح، وكأنها تسأل عن شيء عادي:

– ربما لم يكونا هناك؟ فهما لم يُقتلا في الإنفجار.. لم يجدوا شيئا منهما.. لم أرَ شيئا؟ صحيح أن المكان مخرب كله..لكني لم أرَ أي شيء يدل على موتهما.. أيمكن أن يكونا في مكان ما وقت الإنفجار ولم يحصل لهما أي شيء، وأنهما يمكن أن يأتيا الآن؟ أيمكن أن يحصل ذلك؟

أدرك آدم المحروم أنها ليست في حالة نفسية وعصبية مستقرة نتيجة الصدمة، ولم يشأ أن يقول لها بأنه رأى بقايا وجه الملاك الصغير، وبقايا أحشائه، وجاكيتة الأب بعض عظام من الصدر وبقايا الجسد. لم يشأ أن يقول لها بأنهما يكادان الأكثر عرضة للدمار لأن السيارة الملغمة كانت بين زاوية الأب والمطعم، حيث كثيرا ما تقف السيارات التي يطلبون الطعام لأخذه معهم. فجأة ابتسمت له وقالت، وكأنها ليست هي، وليست تلك المرأة المحافظة والتي تتحشم بحضور الضيوف:

– هـل أنـت جائـع؟ كنـت قـد حضرت لكم الرز والفاصوليا. أنت تحبها أنا أعرف. أم أعد لك الشاي؟

لـم يعـرف كيـف يتصـرف معها. أحس أنها تحت تأثير الصدمة، بل ربما اسـتوعبتها لكنها لـم تستطع مقاومة هولها وثقلها على نفسها، فأثر على إتزانها النفسي قليلا. فقال لها بهدوء:

– شكرا جزيلا.. أنت استريحي الآن..

نظرت إليه وقالت:

– أستحلفك بالله، إذ جعت فقل لي.. كل شيء جاهز.

– سأقول لك بالتأكيد.. حاولي أن تنامي قليلا..

– ولمـاذا علـي أن أنـام.. مـاذا بي؟ لا.. إني أريـد النوم حقا؟ أحس بالتعب.. أريد أن أنام.. هل أزعجك إذا نمت هنا؟

– لا.. أبدا.. نامي..

– وأنت؟

– أنا سأظل جالساً أنتظرك حتى تصحي..

– إذا جاء أبي فأرجوك أن توقظني.. ما أن يطرق الباب حتى توقظني.. إتفقنا؟

– إتفقنا.

انقلبـت بجسـدها علـى الجهـة الأخـرى ونامـت. ظل هو منذهلا مـن الوضع الذي وصلت إليه. فكر مع نفسـه، ربما هي حالة نفسـية، سـتزول ما أن تنهض من النوم، أو ربمـا ستسـتمر قليـلا.. لكـن مـاذا لو أنها فعلا قد فقدت إتزانها العقلي؟ ماذا سـيفعل؟. جلس على الكنبة المقابلة. غارقا في وديان نفسه المظلمة.

لـم يعـرف آدم المحـروم كـم مضـى عليه مـن الوقت بالضبط وهـو جالس في هذه الغرفـة، بينمـا كانـت حـواء ترقـد على الكنبة الأخرى وهي تئن في النوم، وتنوح أحيانا، وتبكي. نظر باتجاه النافذة التي تطل على الحديقة الصغيرة فوجد أن العتمة قد هبطت علـى المدينـة الجريحـة. تحركـت حـواء في نومها فانزاح ثوبها عنها كاشـفا عن القسـم الأكبر من ساقيها، إذ التف الثوب وصار القسم الأسفل على بطنها. وبالرغم من أنه في تلك الحال النفسية اليائسة والحزينة فأنه راح يتلصص عليها. كانت الفوطة التي تضعها على رأسـها قد انحسـرت عنها كاشـفة عن شـعر أسـود كثيف يلتمع سواداً، وفتحة ثوبها مـن الأعلـى تكشـف عـن مرتفعات نهديها. أحس بالذنـب وهو ينظر إليها، خاصة وهي في هذه الحال. أراد أن يغطيها بلحاف خفيف من الأفرشـة الموجودة على الكنبة. قام

من مكانه وسحب الغطاء.

حين اقترب منها لم يستطع أن يقاوم رغبته في التطلع إلى جسدها، وقف بالقرب منها فارشا يده ليغطيها لكنه لا إراديا نظر إلى فخذيها فوجدهما مكشوفتين بالكامل أمامه، فنظر إلى ما بين فخذيها. أحس بدماء الرغبة تصعد واضحة إلى أماكنها. نظر إليها، فأحس أنها تعاني من كل شيء، من الفقدان والخسارات والحرمان النفسي والجسدي. أترى هو دنيء إلى هذه الدرجة بحيث يستغل وضعها الذي هي فيه ليروي عطش رغبته فيها؟. أحس بأنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه، فألقى بالغطاء عليها كي ينهي صراع الرغبة في داخله.

عاد إلى مكانه السابق وجلس. لا يدري ماذا يفعل بنفسه وبها؟ ولا يعرف كيف سيخرج من هذا الوضع الغامض؟ كيف له أن يتركها وهي في هذه الحالة النفسية العصيبة. هل تراها جُنت حقا؟ وماذا لو أنها جنت فعلا؟ ماذا سيفعل حينها؟ أنه لا يعرف أي أحد من أهلها ولا من أقاربها، ولا يعرف بمن سيتصل؟ هو يعرف أباها فقط، وحسبما فهم منه أنهم بلا أحد تقريبا فهو كان في السجن حينما تزوجت ابن جارهم الذي هو الآن في السجن، وأن الأم قد ماتت، والذي ساعده لإيجاد العمل في زاوية الشاي هو أخو زوج ابنته، وهو مات في الإنفجارأيضا، إذن لم يبق أحد لهذه المسكينة. لكن ماذا لو جاء الآن أحد من الأقرباء، لاسيما من طرف أهل زوجها، ووجده جالساً، ماذا سيقول عنه؟ ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يخرج ويتركها هنا لحالها؟ هل يذهب ليتمشى قليلاً في المنطقة ثم يعود في آخر الليل؟ من المؤكد إن لا أحد سيأتي ليلاً. قرر أن يغامر بالمبيت هنا ويخرج صباحا.

تصفح المخطوطة في يده. فرز الصفحات التي كان قد قرأها ووضعها جانبا، ولم يبق في يده سوى ما تبقى من الرواية. نظر إلى الساعة الحائطية فرأى أنها تشير إلى العاشرة ليلا. استغرب مرور كل هذا الوقت بهذه السرعة. وضع أوراقه جانبا، قام بهدوء، ومضى إلى الباب الخارجي فأغلقه، ثم أغلق باب غرفة الإستقبال، وحينما جلس ليبدأ بالقراءة، وجد أن حواء بدأت تئن وتتلوى من الألم ودفعت الغطاء رافسة إياه برجلها فانكشفت فخذها وسروالها الداخلي، فقام ثانية ودثرها بالغطاء. فجأة، فكر أنه من الأفضل له ولها أن يحملها لكي تنام على فراشها في غرفتها. فقال لها مناديا بهدوء:

– حواء.. أختي حواء.. إنهضي ونامي في غرفتك.

لم تكن تسمع شيئا. لذا قرر أن يحملها إلى هناك. وضع المخطوطة جانبا. وقف فوق رأسها محاولا إيقاظها قائلاً:

- أختي حواء.. حواء..

لم يجد أمامه سوى أن يحملها. مسكها من كتفيها، فلم تستيقظ، أجلسها لمنتصف جسدها، ثم بقوة رفعها إلى أن تقف. كانت هي بكل جسدها قد صارت بين أحضانه، بل أحس بنهديها على كتفه وفخذه بين ساقيها. أحس بارتباك شديد. وكان وجهها ملاصقا لخده. سحبها معه سحبا، مثلما يسحب الإنسان الصاحي إنسانا ثملاً. أرادت أن تنهار عند عتبة غرفة النوم، فما كان منه، وبشكل لا إرادي إلا أن يمسكها من منتصفها فصارت يده بين فخذيها من الأمام وركها من الخلف. سحبها بسرعة وألقى بها على السرير، لكن يديها كانتا على كتفه، ومن ثقلها تعثر بها فسقط فوقها على السرير. صارت هي تحته بالضبط، وصار هو على صدرها وجذعه الأسفل بين فخذيها. للحظة أرخى نفسه عليها من التعب، لكنه سرعان ما قام عنها. مد جسدها بشكله المستقيم على السرير، وسحب الغطاء عليها، وخرج. وقف أمام عتبة غرفة النوم للحظة ناظرا إليها، مستغربا عن عدم استيقاظها بالرغم من كل تلك الحركات العنيفة.

لا يدري ما الذي ساوره بالضبط في تلك اللحظة. لقد أحس بالإنتصاب بالرغم منه. أحس بأن ثمة رغبة عارمة ومفاجئة تسري في كيانه للذهاب إليها ثانية، ومحاولة الإقتراب منها. دخل الغرفة مقترباً منها، نادى بصوت خافت:

- حواء.. حواء..

لم تجب بل ولم تصدر منها أية إشارة لا إرادية تشير إلى أنها سمعت شيئا حتى وهي نائمة. تحركت فانزاح الغطاء كاشفا عن ساقين رائعتين ومتناسقتين. وبيد مرتعشة أراد أن يرفع ثوبها، لكنه في اللحظة الأخيرة تردد، وسحب يده كالملدوغ. سحب الغطاء ليغطيها ثانية وتوجه إلى الصالة.

أفاق آدم المحروم على صوت يناديه بصوت عال:

- أخي لقد وصلنا ساحة الطيران. أخي.. هذا ليس مكانا للنوم. استيقظ.

انتبه آدم المحروم إلى واقعه. إنه ما زال في السيارة التي أقلته من بداية شارع الجمهورية، وهو الآن في ساحة الطيران. لم يفهم شيئا، انتبه إلى أن كل ما كان ليس إلا كوابيس لا غير. تحرك لينزل دون أن يقول شيئا، وبينما هو ينزل علقت حقيبته بمقبض الباب من الداخل فكان أن يقع ويرتطم بالسيارة، إلا انه تدارك نفسه، وسحب حزام الحقيبة عن مقبض الباب.

ما الذي يجري له. ألم يكن هو في بيت حواء الزاهد. أكان كل ذلك حلما؟ ألم يذهب إليها ورآها شبه مجنونة؟ ثم ألم يصعد هو سيارة الركاب المتجهة إلى ساحة

التحرير وليس إلى ساحة الطيران، بالرغم من أنهما قريبتان من بعضهما؟ هل هو الآن نائم في بيت حواء الزاهد، وأن ما يجري له الآن وفي هذه اللحظة ليس سوى حلم؟

عبر آدم المحروم الشارع الذي ينزل بإتجاه ساحة التحرير وصار أمام جدارية فائق حسن، ومن هناك قرأ اسم فندق (الركن الهادئ) الذي نزل فيه ذات يوم. عبر الشارع وانعطف نحو الزقاق الفرعي الذي تم الإنفجار فيه.

أصيب آدم المحروم بذهول مخيف. لم يكن ثمة أي أثر للدمار وكأنما لم يكن هنا ثمة إنفجار لسيارة ملغمة، أو كأنما الموت لم يمر من هنا صباحا هذا اليوم. أحس بإنقباض وتشنجات في صدره، كما أحس بالعرق البارد يبلله ثانية، لاسيما حينما رأى الأب آدم الزاهد يحمل صينية الشاي متجها إلى المطعم، ورائحة الشواء تملأ خياشيم كل من يقترب من المكان. والطفل آدم الملاك يمسك بلفة خبز، وخمن أنها محشوة بالكباب، يأكل منها بسعادة بريئة.

ما الذي يجري هنا؟ هل هو مجنون؟ ألم يكن هنا قبل أكثر ساعتين حينما رأى المجزرة أمامه؟ ألم يتحدث مع الرجل العكسري عن معرفته بالرجل بائع الشاي في الزاوية وأنه أعطاهم العنوان كي يبلغوا ابنته عن الحادث؟. هل كل ما حدث له هو وهم، أم أن ما يراه الآن هو الوهم؟ هل هذه علامات الجنون؟ أم هي الشيزوفرينيا التي يتحدث عنها سيجموند فرويد وبقية علماء التحليل النفسي؟

أحس بأن ساقيه ترتجفان، وبرغبة في التبول لا يستطيع أن يسيطر عليها، ركض سريعا فدخل المطعم، ليذهب إلى المغاسل. لمحه الأب حينما دخل. استغرب لأنه لم يسلم عليه ولم يأته قبل دخوله إلى المطعم.

في زاوية المغاسل في المطعم، دخل إلى زاوية المرافق الصحية، دخل المرحاض وأغلق الباب على نفسه. حين انتهى من إفراغ مثانته، ظل جالسا على المقعد. أحس بأن قميصه صار رطبا من كمية العرق الذي أفرزه جسده. أترى هو مريض؟ لقد مرت عليه هذه الحالة مرتين هذا اليوم. في الأولى لم يستطع أن يتماسك فتمدد على الأرض، واليوم بالكاد تماسك. إنه يحس بنفسه ضعيفا، ويحس بأن قلبه بالكاد يستطيع أن ينبض. بلى، إنه يشعر بهذا لأنه يحس بأن قلبه يرتجف وأن صدره ينقبض فيحس بالإختناق قليلا، وتنحصر أنفاسه. ربما عليه أن يذهب لطبيب ويجري فحوصات عامة لقلبه أو يذهب لطبيب نفساني ليشرح له ما يجري معه، فهو لم يعد يدرك أين حدود الواقع وأين هو الوهم؟ تذكر في تلك اللحظة أبيات لشاعر صيني قديم كان قد حفظها، فمرت على ذهنه، ورددها في أعماقه:

حلمت أنا تشوانغ أنني فراشة

وأنا الآن لا اعلم أأنا تشوانغ الذي حلم أنه فراشة

أم أنني الفراشة التي تحلم؟!

سأل نفسه ذات السؤال: مَن أنا الآن؟ أأنا آدم المحروم الحي في الواقع، أم أنا آدم المحروم الذي يحلم به آدم المحروم؟ أأنا في الحلم الآن أم أنا كنتُ أحلم؟. فكر إذا أنا كنت أحلم، وبما جرى لحواء الزاهد، فلماذا كنت عفيفاً إلى هذه الدرجة في الحلم ولم أضاجعها؟ أليست الأحلام تفريغ لرغبات، وأنا أرغب فيها فلماذا لم أشبع رغبتي في الحلم إذن؟ أهذا يعني أن ما كان هو الواقع وأني الآن في الحلم؟ ولماذا أجلس الآن في المرحاض لأفكر بتحليل ذلك؟ إبتسم في ذهنه، إذ تذكر بأن هنري ميللر كتب بأنه قرأ أهم الكتب في حياته حينما كان يجلس في المرحاض لقضاء حاجته. فجأة سمع طرقا على الباب، يبدو أن أحداً ما تضايقه أمعاؤه أو مثانته، ليخرج إذن. لكن عليه أن يتأكد هل هو في الحلم أو الواقع، فلو هو الآن في الحلم فعليه الآن أن يذهب إلى حواء ويفعل ما يشاء ما دام حلما؟ ولكن ماذا لو يكن الأمر حلما، وأن كل ما كان هو الحلم أو الكابوس الذي رآه وهو في سيارة نقل الركاب ما بين باب المعظم وساحة الطيران؟ لكن كيف يتم كل تلك الأحداث الطويلة التي تستغرق ساعات في هذا الوقت القصير؟

إذن، صحيحة تلك النظرية التي تقول أن فترة الحلم مهما بدت طويلة لا تستغرق إلا أعشار الثانية من وقت النائم.

حينما خرج من زاوية المغاسل، ومر من أمام صاحب المطعم ولم يجلس ليطلب الطعام، نظر إليه الأخير نظرة عدم رضا وغضب مكتوم وكأنه يريد القول بأن المطعم ليس مرافق صحية ومبولة لتفريغ المثانات وقضاء الحاجة لكل من هب ودب، وإنما هو للذين يجلسون ليطلبوا الطعام ويدفعوا. انتبه هو لنظرات صاحب المطعم فتجنبها بالمرور سريعا من أمامه، وخرج من المطعم متجها نحو ساحة الطيران. مرة أخرى لمحه الأب آدم الزاهد، واستغرب عدم مروره عليهما. حاول اللحاق به إلى رأس الزقاق، لكن آدم المحروم كان قد اختفى عن ناظريه.

وقف آدم المحروم بين زحمة الناس الذين ينتظرون سيارة نقل الركاب الصغيرة ليتراكضوا إليها من أجل الحصول على مقعد فيها. كان متردداً، ومرتبكاً من غموض الأحداث التي مرت به. كان يود أن يذهب الآن إلى بيت آدم الزاهد ليتأكد بأن حواء الزاهد في وضع طبيعي وأن كل ما رآه ليس سوى كابوس مرعب. لكنه كان خائفا من إتخاذ هذه الخطوة، فذهابه إلى هناك بغياب الأب أربكه جِداً، بالرغم من أن حواء قالت

إن أم قابيـل زوجـة صاحـب المشـتمل سـوف تأتي بعد الظهر.لكنـه أيضا يحس بالوهن الشديد يسري في كل جسده، ولديه رغبة بالنوم الطويل، لا يدري لم يحس برغبة في أن يتمـدد علـى الأرض أو علـى أي مـكان آخـر. فكـر من الأفضل أن يذهب إلى شـقته التي لا تبعد كثيرا عن المكان الذي يتواجد فيه.

حيـن وصـل آدم المحـروم إلـى شـقته التـي تقع ضمن بنايـة قديمة تتألف من ثلاثة طوابـق، بغداديـة الطـراز، تقـع على زاوية زقاق يؤدي إلى شـارع أبي نؤاس، كان يشـعر بالبرد، وكان جسده يرتجف، كما أن العرق قد بلل شعره ووجهه. فتح الباب بصعوبة، إذ كانت يده ترتجف حينما وضع المفتاح في مكانه من قفل الباب. دخل الشقة وأغلق الباب من الداخل بالمفتاح. ألقى بالحقيبة الجلدية على الأرض وبجسده على الصوفا الجلدية. أحس بأنه يغرق في الظلمة. ولم يعد يذكر شـيئا. إنه في وادي الظلمات مرة أخرى.

11

القنـــــاع

وجد آدم المحروم نفسه في صحراء رملية، ذات نهار شتوي مشمس. كان عاريا تماما. ليس في الأفق سوى مرآة كبيرة أشبه ببوابة عالية تسندها أسوار وهمية. مشى إليها بخطوات مترددة. اقترب منها، وخطا داخلا في المرآة. كان زئبق المرآة شفافاً. خرج من الجهة الأخرى من المرآة إنساناً زئبقيا، يكسوه جلد من الزئبق كالثوب. ظل يمشي نحو الأفق الغامض المجهول، ومن وراء تلة رمل ذهبية رأى كائنا مرعباً يتقدم زاحفاً. للكائن وجه إنسان، لكن بقية الجسد لعقرب. عقرب بحجم جسم إنسان. ومن تلة أخرى صعد عقرب آخر يحمل وجه إنسان آخر، ثم صعدت إلى تلال الرمل القريبة عقارب تحمل رؤوساً بشرية. حدق في تلك الوجوه فعرفها جميعا. إنها وجوه لأبرز الشخصيات السياسية في البلاد. كان قد رأى بعضهم على شاشات التلفزيونات يتحدثون خلال المقابلات، أو يدلون بتصريحاتهم للصحافيين. والغريب أن هؤلاء الرجال العقارب كانوا ملونين، فثمة رجل عقرب أخضر، وثمة رجل عقرب أزرق، وكانت بين العقارب عقربتان لامرأتين، عقرب صفراء وعقرب خضراء. زحفت العقارب ذات الرؤوس البشرية نحوه بشكل منظم، بحركة منظمة نصف دائرة، إلا أنه ركض مرعوباً، فزحفت خلفه مسرعة بشكل فوضوي، فقدت فيه شكلها المنتظم، ولم تستطع أن تلحق به، لأنه قفز داخل المرآة ثانية، فصار على الجانب الأول الذي وجد نفسه فيه. وعاد عاريا، من لحم ودم. فز آدم المحروم مرعوباً من هذا الحلم. فوجد أنه مبتل بالعرق. لكنه لم يعد يرتجف من البرد، كما كان لحظة دخوله إلى شقته.

أحس بالإرتياح لإستيقاظه وتخلصه من كابوس العقارب، لكنه أخذ يفكر في تفسير الأمر، ما علاقته بهؤلاء الناس في الواقع؟ لقد كانوا من كتل سياسية مختلفة، فما علاقته بهم،وهو المستقل الذي لا ينتمي إلى أية جهة حاكمة في هذه البلاد، ولا في أي بلاد؟ ولماذا كانوا في هيئة عقارب؟ وما معنى المرآة الهائلة كالبوابة. ولماذا طلتْ جسده بالزئبق؟ بل كيف اخترقها وكأنها لم تكن مرآة زجاجية؟ ولماذا كان عارياً؟ربما

كانـت هـذه رمـوز للمـرض أو الحالـة التي كان فيها لكنه تخلص منها ورجع إلى وضعه ربما ولكن ما معنى تلك الوجوه؟ وإذا كان تفسـير الحالة المرضية صحيحا فما علاقة هؤلاء بمرضه؟ ومن أين جاء تخيل هذا الشكل من الزواحف؟ إنه لم يقرأ عن الرجال العقارب إلا في ملحمة كلكامش حينما ذهب للبحث عن عشبة الخلود، فكان عليه أن يمر ببحر الظلمات ويلتقي بالرجل العقرب، لكن كان ذلك في الإسـطورة السـومرية.. لا، ربما رأى ذلك في إحدى اللوحات التي تمثل يوم الدينونة لرسامي القرون الوسطى الذيـن كانـوا يرسـمون مثـل هذه اللوحات. المهم، مهمـا كان دلالة وجودهم في الحلم فأني قد تخلصت منهم، ونجوت. لكن هل نجوت فعلاً؟.

حينما أراد أن ينهض أحس بالوهن، لكنه جمع كل قوته فجلس بنصف جسده على الصوفـا. انتبـه إلـى أنـه لـم يكـن كذلك حينما دخل الشـقة. صحيح أنه كان يرتجف من البـرد برغـم تعرقـه، إلا أنـه كان يمشـي، لكنـه الآن لا يسـتطيع أن ينهض. فكر بأن عليه أن يذوق شيئا من الأكل أو يشرب الشاي على الأقل. إستجمع قواه ونهض من مكانه واقفاً. توجه إلى الزاوية التي فيها الطباخ. أخذ القداحة التي تشـبه المسـدس في هيئتها لكنها بخرطوم طويل يقبض على الحجر الناري الذي يطلق الشـرارة النارية على الغاز فيشتعل الغاز ويتعالى اللهب الأزرق.

أخذ الدورق الذي يغلي فيه الماء فوضعه على الطباخ، وفتح الخزانة الخشبية التي قرب الطباخ فأخرج كوبا يضم شـعرية يابسـة جاهزة لا تحتاج إلى إلا الماء السـاخن، فسحب الغلاف عنه. ظل واقفا دون أن يرهق نفسه بأي تفكير، بل إنه كان من الضعف بأنه لم يسـتطع أن يفكر في تلك اللحظات إلا بغليان الماء ليسـكب بعضه على كوب الشـعرية وينتظر لدقائق لتكون جاهزة للأكل وكأنها شـوربة، وكذلك يصنع لنفسـه كوباً من الشـاي، وكلما كان يسـمع صوت اقتراب الماء من الغليان كان يحس بجوع أكبر، وبلهفة أكثر لكأس من الشاي أيضا. لكن عليه أن يأكل شيئا أولاً.

سـكب آدم المحروم الماء في كوب الشـعرية، وكذلك صبه في كوب كبير بعد أن وضع فيه كيسـين من شـاي اللبتون. وحمل كوب الشـعرية بيده، ليجلس على الصوفا مرة أخرى. كان الكوب ساخناً، فتركه على الأرض قليلاً، لكنه لم يكن يستطيع الصبر فأخذ الكوب إلى فمه وارتشف منه بضع جرعات أحس بعدها بالدفء يسري في جسده. فأخذ ينفخ على الكوب بفمه ويرتشف منه إلا أن صار بإمكانه أن يسحب كتل الشعرية بفمه. أحس وكأنه إنسان بدائي لم يذق الطعام منذ فترة طويلة. بل إنه أحس بشهية تنفتح وبجوع خريف يجتاحه، فقام إلى الدورق الذي ما زال فيه بعض الماء الساخن، فأخرج

كوبا ثانيا من الشعرية اليابسة وسحب غلافها الرقيق ثم سكب الماء الساخن عليها.

جلس على الصوفا وأخذ يلتهم الكوب الثاني من الشعرية ويرتشف عصيرها اللذيذ، لكنه أحس بالشبع هذه المرة، وبدبيب النشاط في جسده. قام إلى حيث الطباخ فأخذ كوب الشاي بعد أن عصر الكيس وأخرجه ليلقيه في سلة النفايات. جلس على الصوفا ثانية. أخذ يرتشف من كوب الشاي، لكن فجأة برقت في ذهنه فكرة في أن يتصل ببعض الأصدقاء. مد يده في جيبه وأخرج هاتفه النقال الصغير الحجم. ضغط على موضع التشغيل وانتظر للحظات حتى انتظم برنامج التشغيل وتأكد من وجود إتصال. فتش في قائمة الأسماء عن شخص معين. ضغط على موضع الطلب. انتظر للحظات، إلا أن الطرف الآخر كان قد أغلق هاتفه، إذ سمع الجهاز يجيبه بأن الرقم الذي طلبه مغلق أو خارج نطاق التغطية. حاول مع شخص آخر، فكانت النتيجة كسابقتها. أراد أن يعرف ماذا حدث خلال هذه الأيام من غيابه، وهل هناك جديد في قضية إغتيال صديقهم الكاتب آدم البغدادي؟ حاول مع صديق مقرب ثالث ولم يتمكن من الاتصال أيضا، فأغلق الهاتف.

كان يخاف أن يكون هاتفه مفتوحاً. كان يشعر حينئذ بأنه مراقب ويمكن الوصول إليه في أية لحظة، لكنه حينما يغلق الهاتف يحس بنوع من الأمان بأن لا أحد يعرف أين هو. فكر في أن أفضل طريقة لمعرفة الأخبار هو الذهاب إلى إحدى مقاهي الانترنيت، ومن هناك يستطيع الدخول إلى المواقع الالكترونية المختلفة، والعراقية منها بالتحديد، وسيعرف الكثير من الأخبار.

فجأة ظهرت صورة الأب والحفيد أمام عينيه. استغرب من نفسه كيف أنه نسي كل ما جرى له نهار هذا اليوم. نظر إلى ساعته اليدوية فعرف أنها الرابعة والنصف عصراً. هل عليه أن يتأكد ثانية من أن الإنفجار لم يحصل وأن الجد والحفيد بسلام، وأن الإنفجار وما شاهده من دمار، وما جرى له مع حواء ابنة آدم الزاهد في البيت، وأعراض جنونها لم يكن سوى كابوس ثقيل؟. تذكر بأن زوجة صاحب المشتمل كان يفترض أن تحمل عقد الإيجار المعد من قبل مكتب العقارات معها بعد ظهر هذا اليوم، أي أنه تأخر على ذلك. على أية حال، عليه أن يذهب إلى حيث زاوية الشاي وحيث الأب وحفيده، عندها سيتأكد من كل شيء.

نزل من شقته وهو يشعر بعودة الحياة إليه، لكنه ما زال يحس بالضعف. مشى باتجاه ساحة الطيران، وقبل أن يصلها انعطف في زقاق جانبي، وهناك رأى الأب آدم الزاهد يفتح كيسا صغيرا من الشكولاته لحفيده، ويخرجها له واضعا بعضها في جيبه والبقية

ليمسكها بيديه. إقترب منهما. انتبه الصغير له مباشرة فترك جده وركض نحوه، فتلقفه بذراعية وأخذ يقبله ويشمه بعمق ويضغط به على صدره بقوة. فوجئ الأب آدم الزاهد من ظهور آدم المحروم، كما غمرته موجة حنان حينما لاحظ إحتضانه لحفيده وتقبيله إياه وشمه كما يفعل هو. أحس بأن آدم المحروم صار ينتمي إليهم عائليا، ولم يشأ أن يسأله عما شاهده قبل ساعات عندما دخل إلى المطعم وخرج دون أن يمر عليهما.

إقترب آدم المحروم من الأب مصافحا بالرغم من أن الصغير بين أحضانه. مشى والصغير بين أحضانه وجلس على المقعد الذي يجلس دائما عليه حينما يكون عند الأب. نظر الأب إليه بطيبة وحنان، ودون أن يسأله صب له استكانا من الشاي، وهو يقول لحفيده:

– جدو إنزل.. خلّ عمو يشرب الشاي.

نزل الصغير من حجر آدم المحروم والتصق بجده ماسكاً إياه من كفه. نظر آدم المحروم إلى ما حوله ليتأكد من أن أي شيء لم يحصل، فانتبه الأب وسأله:

– تبحث عن شيء ما يا ابني؟

– لا.. ولكني أسأل، ألم يحصل أي شيء هنا صباح هذا اليوم؟

– مثل ماذا؟ هنا يحصل كل شيء..

– إنفجار مثلا..

– إنفجار؟ لا.. الحمد لله هذه المنطقة لم يحصل بها أي شيء لحد الآن.

– صباحا حينما كنت في شارع السعدون، سمعت صوت إنفجار جاء من هذه المناطق المحيطة..

– ربما حصل إنفجار في منطقة ما، لكن ليس عندنا.. بالمناسبة.. اتصلتْ ابنتي وقالت إن المرأة جارتنا السابقة جاءت وحملت معها ثلاث نسخ من عقد الإيجار. وانتظرتك لكنك لم تمر، وقالت إنها ذهبت إلى السوق القريب وربما ستعود في الساعة الخامسة قبل أن ترجع لمنطقتها في الكرخ.

نظر الأب إلى ساعته اليدوية، ثم قال له:

– إنها الخامسة إلا عشر دقائق. إذا ذهبت الآن فربما ستلحق بها، وأنا سأتصل بالبيت وأقول لها كي تؤخرها إلى أن تصل.. وبالمناسبة.. خذ هذا الملاك الصغير معك، فقد تعب من الجلوس هنا معي.

لم يقل آدم المحروم شيئا مهما، كأنما نسي كل ما كان بلحظة واحدة، وعاد إلى ذلك الشقي الذي تموج أعماقه بلجج الرغبة والشهوة المظلمة. إبتسمَ، وأخذ الصغير

من كفه ومشيا بإتجاه سيارات نقل الركاب في ساحة الطيران.

ما أن دخلا الزقاق حتى ركض الطفل الملاك باتجاه البيت الذي لم يكن بعيدا عن رأس الزقاق، بينما أخذ هو يحث الخطى. حينما وصل كان الصبي قد دخل البيت، ومن المؤكد قد أعلن عن حضوره، لكنه طرق الباب أدبا ففتحت حواء الزاهد الباب الداخلي. بدت له في هيئة المرأة العصية والمشتهاة، جميلة ومثيرة، وشامخة. إبتسمت له مرحبة وهي تقف عند الباب، فدخل إلى أن وصل باب غرفة الإستقبال فطرقها أيضا، وسمع صوتها يرحب به، فدخل فرأى امرأة أخرى جالسة في الصالة. غادرت حواء الزاهد الصالة.

كانت المرأة الأخرى جميلة أيضا، لكنها تميل إلى السمرة، وفي نفس عمر حواء الزاهد تقريبا، فسلم عليها وجلس على إحدى الكنبات المقابلة لها. في هذه اللحظة بالذات دخلت حواء الزاهد وبيدها صينية فيها ثلاثة استكانات من الشاي. قدمتها لهما وأخذت استكاناً لها. انتبه آدم المحروم إلى أنها جلست على نفس الكنبة التي يجلس عليها، وبالقرب منه أيضا. وخلال ثوانٍ سأل هو نفسه عن السبب، لكنه أجاب نفسه أيضا بأنها ربما تريد أن تعطي إنطباعاً للمرأة الأخرى بأنهم يعرفونه جيداً، فلا مجال للشك في المؤجر الجديد. وقالت حواء للمرأة:

– يمكن لأستاذ آدم أن يوقع العقد الآن حتى تأخذي نسختك ونسخة المكتب العقاري.

أخرجت المرأة نسخ العقد الثلاث ومدتها إليها، فمد آدم المحروم يده فأخذها فتلامست أذرعهما لأن كل منهما مد ذراعه لأخذ النسخ، شعر بحرارة جسدها، لكنه بالرغم من ذلك أخذ الأوراق لأنها سحبت يدها بعد أن شعرت وكأن تيارا كهربائيا لذيذاً مسها. أخذ يفتش عن القلم في الحقيبة الجلدية إلا أن حواء الزاهد قفزت إلى داخل البيت وجاءت بالقلم بينما كان هو يحاول كسب الوقت، فقد انتبه إلى أنها ذهبت لتأتي بالقلم، إذ لم يجد هو قلماً في الحقيبة الجلدية، ولم يكن يحمل قلماً معه، فشعر بالإرتياح حينما مدت له بالقلم. أخذ القلم منها ووقع جميع النسخ. وأعطاها لها. أعطت المرأة نسختين وأبقت واحدة منها لديها، ثم ذهبت إلى حيث الفتحة بين الصالة وبقية البيت، وأشارت إليه بأن يتبعها. قام هو من مكانه، بينما دخل الطفل الملاك ليجلس حيث كان هو يجلس وأخذ يلعب بحزام الحقيبة الجلدية.

دخلت غرفة نومها المقابلة للمطبخ ووقفت عند العتبة من الداخل. إقتربت منه وقالت بصوت واطئ:

– هل تحمل مالاً، لأن علينا دفع إيجار شهرين يعني في حدود ثمانمئة ألف دينار؟

إرتبك هو لأنه كان معها في غرفة نومها، وأنها إقتربت منه إلى هذه الدرجة بحيث كان يشم عطرها الطيب الرائحة، فقال مرتبكا:

– نعم.. لقد حملت المبلغ معي من البارحة.

قال هذا وأخرج رزمة من الدنانير ذات فئة الخمسة وعشرين ألف دينار. عد المبلغ وسلمه لها، فلاحظت أنه لم يبق غير أوراق قليلة من تلك الورقة النقدية. أخذت المبلغ وخرجت إلى المرأة وسمعها تقول لها:

– أم قابيل، هذا مقدمة إيجار لشهرين..

إستغل هو الوقت فدخل إلى بيت الراحة، وبعدما قضى حاجته، دخل غرفة الحمام وغسل وجهه. ثم خرج إليهم في غرفة الإستقبال. جلس هو حيث الصغير يلعب بالحقيبة. قامت حواء الزاهد لتأتي بدورة جديدة من الشاي. كانت المرأة تنظر إلى آدم المحروم نظرات مستفسرة متفحصة وكأنها تريد أن تعرف هذا المستأجر الجديد. ويبدو أنها شعرت بارتباكه، فابتسمت ثم قالت له:

– أستاذ آدم.. توجد ثلاث نسخ من المفاتيح. أنا تركت لك نسختين وتبقى نسخة عندي. لكن أرجو أن لا تنزعج إذا، أحيانا، أمر على البيت. لأنه بعض أغراضنا في الغرفة التي حولناها إلى مخزن.

إرتبك آدم المحروم من نظراتها المتفحصة التي شعر بأنها لم تكن بريئة بل كانت مليئة بالخصوصية، لاسيما حينما جاءت على ذكر مرورها أحيانا. فقال مرتبكا لكن بإبتسامة ذات دلالة بأنه يرحب بذلك:

– لا أبداً.. أهلا وسهلا بك في أية لحظة..

فنظرت إليه بدلال مع إبتسامة مغناج، وقالت بما شبه الهمس:

– يعني ما راح تنزعج؟

فتمتم هو أيضا بنفس النبرة:

– لا أبدا.. على الرحب والسعة.

في تلك اللحظة دخلت حواء الزاهد مع صينية الشاي، فنهضت المرأة واقفة وهي تنظر إلى آدم المحروم وتقول:

– لقد تأخرت.. ورائي طريق طويل.

– إشربي هذا الشاي وروحي.. قالت حواء الزاهد معلقة.

– أبدا حبيبتي.. إن شاء الله نشربه بالأفراح.. إن شاء الله بخروج زوجك من

السجن يا ربي.

– الله يسمع منك. قالت حواء بإنكسار.

– مع السلامة أستاذ

– مع السلامة ست..

خرجت المرأة تتبعها حواءالزاهد والصغير مودعين إلى الباب الخارجي، بينما ظل هو جالسا، يكبله ارتباك لا يشعره بالراحة. ارتباك من لمسته لحواء الزاهد، واقترابها منه في الغرفة بشكل مثير، وأيضا لنظرات صاحبة المشتمل الواضحة بدلالتها الجنسية.

حين عادت حواء الزاهد والصغير بعد توديع صاحبة المشتمل، وإغلاق الباب الخارجي، وجدته مرتبكا، لكنها نفسها لا تعرف كيف أنها أخذت حريتها بالتعامل معه أمام جارتهم القديمة زوجة صاحب المشتمل، بينما تشعر الآن بالإرتباك قليلا، فكرت مع نفسها، ربما لأنها رأته مرتبكا، فلو كان طبيعيا لما شعرت بالإرتباك. نظرت إليه فوجدته ينظر إليها مستفسرا وكأنه يريد أن يعرف لماذا جلست جنبه، ولماذا اقتربت منه كل هذا الاقتراب؟ أراد أن يقطع لحظات الصمت الثقيلة بينهما فقال:

– يبدو أنها امرأة طيبة..

نظرت إليه وكأنها تريد أن تستشف غايته من السؤال. إبتسمت وقالت:

– نعم.. إنها امرأة طيبة.. لكنها تتحرك كثيرا..زوجها إنسان طيب لكنه لا يستطيع السيطرة عليها..

– لم أفهم؟

نظرت إليه مستفسرة وكأنها تريد أن تعرف هل هو حقا لم يفهم ما وراء كلامها، أو أنه يريد أن تستمر بالحديث وتكشف عنها أكثر، لكنها فضلت بألا تتوسع بالحديث عنها، فقالت:

– على أية حال.. ستتعرف أنت عليها أكثر.. ألم تقل لك بأنها ستزورك أحيانا لأن لديهم أشياء في الغرفة التي صارت مخزنا لحاجياتهم الزائدة التي لم يحملوها معهم؟

إستغرب آدم المحروم لأنها سمعت هذا الكلام بينما حاولت الأخرى أن تقوله بهمس، فاحمر لأن ذلك يعني أنها سمعت جوابه لها أيضا، الذي فيه تواطؤ معها، وترحيب مبطن لزيارتها. فأراد أن يبدو وكأن الأمر بريء، فقال:

– لقد قالت لي بأنها ستزور البيت بين فترة وأخرى.. وطلبت السماح بذلك..

– زيارة البيت أم زيارتك؟

وانتبهتْ إلى أنها ستكشف عن غيرتها الخفية من تلك المرأة، فقالت للتوضيح:
– أقصد ستزورك عندما تكون في البيت أم حينما تكون خارج البيت؟
– لا أدري.. أعتقد أن لديها نسخة من المفتاح، يعني حتى لو لم أكن موجودا فأنها تستطيع الدخول إلى البيت لأخذ ما تريد.
– على أية حال يمكنك أن ترى البيت الآن، ومن الغد نبدأ بتنظيفه.
– أنا غير مستعجل..فأنا أدفع إيجاري مقدما، ونحن في منتصف الشهر تقريبا، فلدي وقت كاف للإنتقال، لاسيما وأنا لا أملك الكثير من الأثاث أصلا، فالشقة التي أسكنها أثاثها يعود لصاحبها، أي ليس لدي سوى ملابسي وبعض الكتب.

نظرت إليه حواء الزاهد نظرة غامضة، وبدأت تسأل نفسها عن سر إهتمامها به، وغيرتها الخفية عليه. نعم، لقد أحست بالغيرة من محاولة جارتهم زوجة صاحب المشتمل التحرش به، وترتيب وضعها معه من خلال الحديث عن زيارتها له أحيانا، وهو أيضا تجاوب معها، ورحب بها، يا للرجال، لا يمكن الإئتمان إليهم. لا، لا، لن تدعها تلف خيوطها ونسيجها العنكبوتي حوله، لكي تلتهمه، لا سيما وأن الحديث عنها لم يكن بريئا، حينما كانت

تسكن في منطقتهم. فجأة قالت له:
– عدم وجود أثاث لديك يعني أن الأمر صار أسهل، إذ يمكننا شراء سرير ودولاب لك بأرخص الأثمان من دكان الأثاث المستعملة، الموجود في رأس شارعنا قرب المخبز. كما يمكننا أن نجهز لك ما نستطيع من هنا، من البيت، وأهم شيء أن ترتب مع صاحب المولدة أن ينشط لك الخط، لأنه كان لديهم خط كهربائي مرتبط بالمولدة، ويمكنك التحدث معه وتتفاهم عن عدد الأمبيرات التي تحتاجها، كما يمكننا أن نشتري لك ثلاجة صغيرة.. أقولها لك بصراحة: أترك الأمر لي وأنا سأقوم بكل شيء. من الغد يجب تنظيفها، وأن نغسل أرضيتها بالماء. غدا بعد فطور الصباح سنقوم أنا وأنت بذلك. ويمكننا الآن أن نلقي نظرة على المشتمل، إتفقنا؟.

كان هو ينظر إليها مدركا أن طيبتها من جانب، وغيرتها من جانب آخر، يدفعاها للقيام بذلك، كي لا تترك مجالاً للأخرى بالإقتراب منه، حتى وهي تعلم بأن الأخرى لن تأتي مباشرة، بل ربما بعد أسبوع على الأقل. هل هذا يعني أنها تفتح الأبواب أمامه للإقتراب منها؟ أم أنها تقوم بكل هذا بشكل عفوي، وطبيعي، ومن أعماق سريرتها الصافية وبمشاعر أخوية؟ لذلك حينما سألته عن الإتفاق بالقيام بتنظيف البيت غدا

صباحا، ابتسم ونظر في أعماق عينيها وقال بهدوء وببطء:

- اتفقنا.

مرت لحظات صمت بينهما، كان الصغير ينظر إليهما، فانتبهت هي وقالت للصغير:

- عمو راح يصير جارنا..

لم يقل الصغير شيئا وإنما إبتسم بصدق طفولي، وركض راميا بنفسه على آدم المحروم، الذي تلقفه بذراعين مفتوحتين وحمله لصدره. أحست هي بتيارات من الحنان والرغبة تجاه آدم المحروم، بل ودت هي أن ترمي بنفسها بين ذراعيه أيضا، فهما يحتاجان للحنان، نعم، هي وابنها يحتاجان لحنان كبير، وقد وجد الصغير شيئا منه لديها ولدى جده، وها هو آدم المحروم يغمره بحنان الأب. تذكرت للحظات زوجها السجين فأحست بشيء من الذنب، فهي تمنح هذا الغريب حنانها واهتمامها، وربما رغبتها الدفينة فيه.

ألقى آدم المحروم بنظرة إلى ما وراء النافذة، فرأى أن الغروب قد بدأ يقترب، فقال لحواء:

- هل تحتاجين شيئا أحمل معي حينما أعود؟

فاستغربت وسألته:

- إلى أين أنت ذاهب؟ سيأتي قريبا أبي، والدنيا بدأت تغرب، كما اتفقنا أن نلقي نظرة على المشتمل

- لا أريد أن أحرجك، فربما لديك عمل أو أي شيء تودين فعله، وأنا أعيقك عن ذلك

- لا.. ليس لدي شيء.. العشاء تقريبا جاهز.. لقد أردت أن أسألك عن أشياء كثيرة، لكني أتردد بحضور أبي..

نظر هو إليها، أحس بملامحها تتغير، وكأن هناك شيئاً ما يثقل على نفسها وفكرها، فقالت له:

- سمعتك تتحدث صباح هذا اليوم، وأحس أنك مختلف عن أبي، بل وعن زوجي أيضا، فكلاهما لا تخرج الحياة عندهما عن الدين، بل وكأن الحياة خلقت لتكون حسب قوالب الدين فقط. فهما لا يجرؤان على إنتقاد هذه الحكومة، بالرغم من الفساد، والسرقات العلنية والسرية التي يقوم بها أعضاء الحزب الذي يفترض أن يكونوا قدوة للعالم. ثم رأيتك تتحدث عن شيء ما..توبيا..أو يوتوبيا.. ولم أفهم ذلك بالتحديد.. أريد أن أسألك، هل أنت مقتنع بكل ما يجري هنا في بلادنا؟

نظر إلى أعماق عينيها، فأحس بأنها تعاني من قلق مجهول، ربما هي الرغبة الصادقة في المعرفة، لا يدري، لكنه واثق من أنها مستعدة لتشرب الأفكار الجديدة، فقال:

– هناك حكيم صيني اسمه تشوانغ، قال ذات يوم عن نفسه: حلمت أنا تشوانغ أنني فراشة. وأنا الآن لا اعلم أأنا تشوانغ الذي حلم أنه فراشة. أم أنني الفراشة التي تحلم؟.

– يا آآآه.. كم جميل هذا القول، بالرغم من أني لم أفهمه بالكامل، ولم أفهم ما يريد قوله هذا الحكيم الصيني. هل تشرح لي ماذا يريد قوله هذا الحكيم؟

– سأشرح لك ذلك، لكن ليس الآن.. هناك مفكر ألماني أو نمساوي اسمه أريش فروم، لديه كتاب مهم اسمه (الخوف من الحرية)..يبدأ فيه بطرح سؤال الحرية: هل الحرية شيء فطري في الطبيعة الإنسانية؟ ولماذا يخاف البعض من الحرية؟ هل لدى هؤلاء رغبة دفينة في الخضوع؟ لكني قبل أن أشرح لك، أود أن أسألك: إلى أي مرحلة وصلتِ دراسياً؟

كانت تنظر إليه بإنبهار حينما كان يتحدث، وأحستْ بالإرتباك حينما سألها، فقالت:

– أنهيت دراستي الإعدادية، وسجلت في الجامعة، لكن الظروف لم تسمح، إذ تم إغتيال أخي في رمضان أمام باب الدار، وكان أبي قد سجن لأنه ينتمي إلى حزب الدعوة، وخافت أمي من أن يتم اعتقالي أيضا، فزوجتني لابن جارنا الذي هو زوجي الحالي، ولكن زوجي كان متديناً جداً، ورفض أن أواصل دراستي، وبالتالي، بقيت أسيرة البيت، ثم ولدتُ ابني الملاك، وخرج أبي بعد سقوط نظام الطاغية، لكن أمي لم تعمر طويلاً، إذ ماتت بعد خروج أبي بسنة، وبعد سنوات من خروج أبي، وبعدما تفجرت الأوضاع في البلاد، تم اعتقال زوجي وأنا في شهري التاسع، لذا لم يستطع المسكين من رؤية ولده، لكن بعد خروج أبي من المعتقل أخذ يزوره، ويصور له ابني ويأخذ بصورته إليه. مضى على ذلك خمس سنوات أو أكثر بقليل. هو منذ سنوات في سجن بوكا، لكني لم أستطع أن أطور نفسي، فكما ترى أن مكتبتنا ليس فيها سوى كتب الدين، فأنا لا أعرف غير الكتب الرهيبة التي تتحدث عن عذاب القبر، والتي بعد أن قرأتها لم أنم لأسابيع،وكأن هؤلاء الذين كتبوها كانوا أمواتا وعرفوا ما يجري في القبر. وكذلك الكتب الإرشادية الأخرى، وكتب الشعر والأدب العربي القديم التي قرأت معظمها، وبيني وبينك، كنتُ أعتقد بأني عالمة ومتبحرة في الفهم، لأني قرأت كثيرا، لكني عرفت الآن أني لا أعرف شيئا.

إبتسم آدم المحروم من جملتها الأخيرة، وقال:

- هـل تدريـن أن أحـد حكمـاء وفلاسـفة الأغريـق قـال ذات يوم: كلمـا أتوغل في المعرفة، أراني أتأكد من شـيء واحد هو أني أعرف أني لا أعرف شـيئا. وأنت قلت كلاما قريبا منه في المعنى. أي كلما يتعمق الإنسان في المعرفة فأنه يعرف بأنه لا يعرف شـيئا، فالمعرفة بحر محيط، لكني أود أن أسـألك شـيئا: هل أنت تعرفين نفسك؟ تعرفين ماذا تريدين بالضبط؟ وهل أنت قادرة على ذلك؟.

ترقرقت الدموع في عينيها، وقالت بحرارة ممزوجة بالألم:

- أتدري أنا أشعر أني ضائعة، وأني لعبة بيد هذه الأقدار الغريبة. أنا أريد أن أكون مثـل حكيمـك الصينـي، الـذي حلـم أنه فراشـة، أنا أيضا أحلم بأن أكون فراشـة بجناحيـن ملونيـن، وأتنقـل حـرة بين الزهور، لكني أحس وكأني مقيدة من قدمي بأغلال حديدية ثقيلة، لا أستطيع إلا أن أدب دبيباً حينما أمشي. أحياناً أحس أني أعرف نفسي، وأحيانا أخرى أحس أنني أجهل نفسي بالكامل، فهذه النفس التي تريد، وترغب، وتشـتهي، وترفض، وتعاند، هي ليسـت أنا. أنا تعلمت أن أكون مسـكينة، تابعة، لا تكشـف عن رغباتها، لا تأكل ما تشـتهي، وإنما تأكل ما يُقدم لها فتأكله بصمت. ليس لها رأي في شيء، فهناك من يقرر مكاني، فزوجي هو الذي يقرر كل شـيء يخصني، وقبله كان أخي، وبعد ذلك أبي. لقد كنت أحن إلى أبي كثيرا، وكنت أنتظر خروجه من السجن، والحمدلله سقط نظام الطاغية، لكنـي صدمـتُ أيضـا بأبي، إذ أحسـه محبطاً، يائسـاً، مهزومـاً، يكاد يصرخ: ليس من أجل هذا سجنتُ. وليس من أجل هذا تم إعدام الآلاف من الشهداء، سواء في السـجون أم في المقابر الجماعية. أحسـه منكسـراً ومقهوراً، لكنه يكظم في قلبه كل هذا القهر. حتى زوجي، وأنا لا أسـتطيع هنا أن أقول أي شـيء يمس شخصيته وأخلاقه وأدبه، لكني أستطيع القول إنه قد لون حياتي باللون الأسود فقط. هل تعرف، وربما ما سـأقوله حرام أن يقال، لكن تمر بي لحظات أشـعر فيها بالراحة لغيابه؟ بالرغم من أني لا أتمنى له أن يبقى في السجن طبعاً، ليس من أجلي، بل من أجله هو ومن أجل ابني. أود أن أقول بأني أحيانا أجد نفسي أقتنص الفرح من خلال برنامج غنائي أو ترفيهي أو مسلسـل، طبعا بغياب أبي. فهو لا يفتح التلفزيون إلا للأخبار أو البرامج السياسية. هل تدري أن المسلسلات التركية والمكسيكية، هي فرصتي الوحيدة لأسوح في الأماكن الأخرى، وأعيش قصص الحب الرومانسية مع الأبطال. أنا لم أعرف الحب في حياتي، ولم أشعر

يوما ما بأني عشت حياتي كأية فتاة أخرى، لم أشعر بأني حرة، ولا أعرف معنى الحرية. لا أدري ماذا أقول.. يبدو أني تحدثت أكثر من اللازم..

نظر هو إليها وكأنما يرى إنسانة أخرى، إنسانة مليئة بالمعاناة والأفكار الجريئة، وأنها بحديثها هذا بدأت تعي ذاتها، فقال لها منفعلاً:

– لماذا تخافين من الحرية؟ لماذا هذه الرغبة في الخنوع؟ ألم أقل لك إن المفكر الألماني طرح مثل هذا السؤال. أنت لم تفعلي شيئا سوى أنك مارست حريتك البسيطة في التعبير عن نفسك. في فتح نافذة صغيرة على أعماقك. بل أنا أحس أنك تواقة إلى أن تعيشي حياتك كذات حرة، وبإرادة حرة، واختيار حر، وليس أن تعيشي وفق ما يريده الآخرون، كوني أنت. ولا تخافي.

في هذه اللحظة قامت هي والدموع تترقرق في عينيها وذهبت إلى داخل المنزل مسرعة، كي لا ينتبه الصغير لبكائها ومن ثم يخبر جده. بعد دقائق عادت وهي تبتسم لصغيرها وتقول له:

– تعال حبيبي إلى صدري، فقد تعب عمو.. دعه يستريح قليلاً.

– لا..دعيه مستريحاً في حضني.

انتبه إلى أنها محرجة في الحديث عن نفسها، أو وكأنها انتبهت إلى أنها قالت أشياء لا يجب أن تقولها، لاسيما في الإشارة لطبيعة علاقتها مع زوجها. لكنه أراد أن يستفيد من لحظة المكاشفة هذه ليذهب معها إلى ما هو أبعد من ذلك، علما أنه انتبه إلى استعدادها للتواصل أكثر، وكان عليه أن يبادر، فقال لها بعد لحظات صمت مشحونة:

– إسمعي يا حواء.. أود أن أقول لك شيئا. الإنسان هو كائن معزول في متاهة هذا الوجود. إنه ملقى في لجة بحر مظلم هائج، تتلاطمه الأمواج العنيفة، لاشيء أمامه ليتشبث به ويمنحه أمل بالنجاة من هذه اللجة سوى الحب، فكل ما عداه هو عدم، فالحب هو الأمل الوحيد الذي ينقذ الإنسان من رعب الوجود.

– إنك تتحدث بطريقة لم أسمعها ولم أقرأها من قبل.. لكنك تلغي كل ما تعلمناه وورثناه عن القضاء والقدر، ورسالة الإنسان في هذه الحياة.

انتبه إلى أنها ذكية وما قالته يعبر عن صراعها مع نفسها، فوجه إليها أسئلته الغامضة:

– أريد أن أسألك. هل سُئلتِ وخُيرتِ قبل أن تأتي لهذا الوجود؟ لو كنت قد ولدت في مجتمع هندي، أفلا كنت هندوسيّة التفكير؟ أو إذا كنت قد ولدت في الصين أو اليابان أفلا كنت كونفوشيوسية التفكير؟ ولو كنت قد ولدت في مجتمع لا يؤمن بالأديان، أكنت تطرحين سؤالا عن القضاء والقدر؟ نحن لا نختار بيئتنا

ومحيطنا ودينناـ، وإنما يقذف بنا في هذا الوجود نتيجة إلتقاء جسدي والدينا، ونتبع ما هما عليه، وألا نحن من أين يمكننا أن ننبثق إلى الوجود؟ تتحدثين عن رسالة الإنسان في الحياة، ما هي رسالتك أنت في هذه الحياة؟

طأطأت رأسها وقالت بهدوء، لكن نبرتها كانت توحي بعدم الثقة بما تقول:

– أن أكون أما، وأن أربي ابني تربية صالحة، وأن أكون زوجة مطيعة، وأن أفعل الخير

– أهذه هي رسالتك في الحياة؟ ماذا لو لم تكوني قد تزوجت، ولم يكن لديك ابن؟ قال هو وفي صوته نبرة تهكم خفي.

– لا أدري، لو لم أتزوج.. ولو لم يكن لي طفل.. لا أدري، ربما فعل الخير، وطاعة الوالدين هما رسالتي

– ولنفترض أنك لم تتزوجي، وأن والديك توفيا، وبقيت وحدك، فما هي رسالتك في الحياة؟

– لا أدري، ربما فعل الخير، والعيش، الاستمرار في العيش إلى أن تأتي ساعة الموت

– أهذه هي رسالتك؟ فعل الخير، والاستمرار في العيش حتى ساعة الموت، وما معنى ذلك؟ لنفترض أنت كنت مضطرة للعيش في مكان ناءٍ، لا يوجد فيه أحد، فلمن ستقومين بفعل الخير؟ ألا ترين أن الخير والشر مفاهيم لها طبيعة إجتماعية، فبدون الناس، بدون الآخر لا وجود لمفهوم الخير أو الشر؟ ولا وجود للحرام والحلال، لا ولا لرسالة في الحياة، وإنما تحمل أعباء الوجود إلى لحظة الرحيل عنها.

– إنك تخلخل أفكاري بما تقول.

– ألا ترين أن الأديان هي محاولة لترويض البشر رغبة في الهيمنة عليهم؟ أتعتقدين أن خالق هذا الكون يحتاج صلاة الناس وزكاتهم؟ الله هو الحرية المطلقة، فلماذا يريد الناس أن يكونوا عبيداً له؟ هل تعرفين أن الأرض بكل ما فيها من بشر، وجبال، وبحار، ومحيطات، وصحارى، ما هي إلا ذرة رمل على شاطئ هذا الوجود؟ نعم، ذرة رمل بالمعنى الحقيقي المجسد وليس كتعبير مجازي. فهل يحتاج خالق هذا الكون لعباداتنا نحن؟ إنه ربما يرضيه تسبيحنا لبديع خلقه وليس لهذه الطقوس الغريبة التي تمارس باسمه.

نظر إليها فوجد أنها تنظر إلى الأرض وتستقبل كل كلمة منه بإهتمام ولهفة وتفكر، فواصل حديثه:

– أنت مثلا، لا تستطيعين أن تتصرفي أمامي بحرية، ولا أن تعبري عن ما يجول في أعماقك، ليس لأنك لا تريدين ذلك، فأنا أشعر بأنك تريدين ذلك وأكثر، لكنك مقيدة بالتقاليد والعرف، والدين، أليس كذلك؟

نظرت إليه بإستسلام، وقالت بهدوء:

– صحيح.

– فما الذي يمنعك من أن تكوني حرة، أن تمارسي إنسانيتك معي، أن تكوني أنت كما أنت؟

– لا أدري، لا أستطيع حتى لو أردت ذلك.

– وهل جربتِ أن تكوني غير ذلك؟

– لا..

– إذن جربي..

– كيف؟

– هل لي أنا أن اخبرك كيف؟ هذا يجب أن تعرفيه أنت؟ يجب أن تعرفي ماذا تريدين.

– أحيانا لا أعرف ماذا أريد.. أحيانا، وفي لحظات معينة أعرف ما أريد، لكني أطرد ذلك من ذهني، لأني أشعر بأني لا استطيع فعل ذلك. ربما ستساعدني أنت في أن افهم نفسي أكثر، أتساعدني؟

– إذا كان لديكِ الإستعداد لذلك، فالأمر سيكون سهلاً، هل أنتِ مستعدة؟

نظر كل منهما إلى وجه الآخر وكأنما يستوثق منه، وليتأكد منه. فجأة، إبتسم كل منهما للآخر، وكأنما اتفقا أن يقتحما حقول التجربة. لكن سرعان ما غام وجهها بإنفعالات مفاجئة، فسألها:

– ماذا هناك؟

– أبي.. كيف أتغيّر وهو الذي لا يريد أن يراني إلا بالصورة التي كونها عني؟ ربما سوف يغضب مني وأنا لا أريد أن أغضبه، أبدا.

– عليك أن تلبسي القناع إذا

– القناع؟!

– نعم القناع. فلا يمكنه عندها أن يرى إلا الصورة التي يريدها.

– لكن ذلك تزييف، وأنا أرفض أن أكون مزيفة؟

– هل تعتقدين أنك الوحيدة التي سترتدين القناع؟ أنا أيضا سأرتديه أمامه. ثم أن

جميع البشر يرتدونه في علاقاتهم الحياتية والإجتماعية والعائلية.

– كيف؟

– أتعتقدين أن زوجة صاحب المشتمل لا تلبس القناع؟ إنها نزعته ما أن ذهبت أنت إلى المطبخ. أنا أعرف ما هو غرض زيارتها.

– لكنك وافقت على ذلك وفرحت له. قالت ذلك وعلى وجهها إبتسامة إتهام.

– نعم. أردت أن أستخدم القناع معها أيضا.

– ألم يكن ذلك وجهك وليس قناعك؟

– أتغارين؟

فوجئت لهذا السؤال. لم تكن تتوقع منه أن يكون جريئا وصريحا إلى هذا الحد معها. شعرت بالخوف، وبأنه سيضيعها إذا استجابت له، وكشفت له ما يجول بخاطرها. فقالت بكبرياء:

– ولماذا أغار منها؟

لم يقل هو شيئا. في هذه اللحظة رن هاتفها النقال. نظرت إلى الرقم فعرفت أنه أبوها، فأحست بشيء من الخجل، وأجابت:

– وعليكم السلام بابا. نعم، جاءت أم قابيل، ووقع هو النسخ الثلاث. ها. لا خرج بعد أن وقع العقد. العشاء جاهز، لا بابا، لا نحتاج لشيء. وعليكم السلام.

– كان الصغير يحاول أن يمد جسده إلى أمه، فأنزله هو عن حجره، إلا أن الأم لم تتركه يتحدث مع جده، نظر آدم المحروم إليها وسألها بخبث:

– هذا أنا الذي خرجت بعد توقيع العقد مباشرة؟

طأطأت رأسها، وتمتمت:

– نعم.. استحيت أن أقول له إنك لا تزال هنا.

– لا ضير.. هذا يعني أنك بدأت بإستخدام القناع، وبشكل رائع.

– أهذا هو القناع..؟!

– وهل هناك غيره؟ على أية حال، عليّ الآن أن أخرج، ربما سأمر عليه، وربما أمر على إتحاد الأدباء لأرى بعض أصدقائي.. لا أدري. المهم.. أحسنت.. أترين أن الأمر سهل للغاية؟

نظرت إليه وكأنها تقدم على شيء جلل. قام هو للخروج، لكنه رجع ووضع الحقيبة الجلدية على الكنبة وقال:

– من الأفضل أن أتركها هنا. إنها مخطوطات لروايات صديقي الكاتب آدم البغدادي

الذي اغتالوه قبل أيام.

– روايات؟

– نعم روايات.. سأدعك تقرأينها في ما بعد، حينما تكونين مستعدة لذلك

– ألست مستعدةٌ لذلك الآن؟

– لا أدري.

نظر إليها وابتسما لبعضهما وخرج. بينما أخذت هي ابنها في حضنها، وقد غمرتها سعادة غريبة لا تدري مصدرها. وبينما يهم للخروج، أحست برغبة عارمة في أن يبقى وأن تواصل حديثها معه، فقالت له:

– ألا نذهب لرؤية المشتمل؟

– الآن؟

– نعم الآن..

– لكن ليس هناك تيار كهربائي

– وهل تخاف من الظلمة؟ قالت مبتسمة.

– لا طبعا.. إذن لمنضِ، لكي أذهب بعدها إلى الحاج كي أثبت كلامك..

خرجت قبله من البيت ملتفة بعباءتها تمسك بيد ابنها، وخرج هو خلفهم بعد أن أغلق الباب خلفه. مشت بخطوات أمامه كي لا تثير انتباه أحد، وسار هو خلفها وكأنما ثمة إتفاق صامت بينهما على أن يمشيا منفصلين. لم يكن يعرف أين هو المشتمل، وقد فوجئ بأنه لا يبعد عنهم سوى ببيتين. فتحت الباب بالمفتاح ودخلت. إقترب هو من الباب والتفت إلى جانبي الطريق، لم يجد أحداً، فدخل.

فتحت هي الباب التي تفضي إلى الصالة ومنها إلى زاوية فارغة يمكن وضع بعض الدواليب فيها وعلى الجهة اليسرى يقع الحمام. على الجهة اليمنى تقع غرفة النوم، وإلى جانبها غرفة كبيرة لها باب يفضي إلى الخارج كانت بمثابة مطبخ كبير. لم يكن ثمة نور في المشتمل. ظل الطفل آدم الملاك يتشبث بالشباك الواطئ في الصالون. بينما دخلت هي إلى أعماق الصالون فمشى هو خلفها. كان قلبه يرتجف. صعدت الدماء إلى كل خلايا جسده. أحس بالإثارة لوجودهما معا في بيت فارغ وبعيد ووحدهما. فلم يكن يفكر بالصغير كعائق. سأل نفسه: هل هي ياترى تشعر مثلي؟. عليه ألا يهدم كل شيء، لكن عليه أيضا أن يجس النبض، إن كانت تشاركه رغباته. كانت العتمة خفيفة في الصالون. دلفت هي إلى غرفة النوم التي تكثفت العتمة فيها. دخل خلفها. سألته:

– ألديك ولاعة أو عود ثقاب؟

– لا..

وقفت هي وسط الغرفة. وقف خلفها مباشرة. وحينما التفت لتخرج اصطدمت به. فمسكها من كتفيها.أحس بها ترتجف.نظر إلى عينيها فأحس بها تعاني، أغمضت عينيها، لكنها لم تحاول الإفلات من قبضته. اقترب منها أكثر، حتى مس صدره صدرها وبطنه بطنها. أحس بها ترتجف وتتأوه. أسبل يديه عن كتفيها. ظلت واقفة لم تتحرك. كانت مغمضة العينين وكأنها كانت تنتظر شيئا. أحس بأنفاسها المضطربة. كان ينظر إلى وجهها متأملا جماله الباهر. فتحت عينيها. كانت المسافة بينهما قصيرة جداً. وبدون تردد ضمها إليه، مقبلا إياها من شفتيها قبلة حارة شبقة. أحس بصدرها الريان ينهرس على صدره. وشفتيها تملآنه بالإثارة. كانت تلهث، أخذ يقبلها من خدها وأذنيها. صار لهاثها مسموعاً. أرادت أن تفلت منه، لكنه كان قويا، مسك بها وبلا شعور مد يده إلى صدرها. فندت عنها آهة، وهي تقول لاهثة:

– أرجوك لا..لا. لا أستطيع المقاومة.. أرجوك لا..ارحمني.. لا أستطيع أن أقاوم..

وبدون أن يعطيها فرصة لاسترداد إرادتها. أدارها إلى الخلف، فصار ظهرها إلى صدره، ومد يده إلى صدرها من خلال فتحة الثوب، فقبض على نهدها مداعبا حلمتها النافرة، كادت تنهار. أحس بمؤخرتها في وسطه. ضغط عليها كل بجسمه. ولكي ينهي مقاومتها مد يده إلى ما بين فخذيها، فانهارت مرتجفة بين يديه، وهي تتمتم:

– أرجوك.. ارحمني.. ليس الآن.. أكاد أختنق.. أموت.. ياه.. أنت تستغل نقاط ضعفي.. اتركني أرجوك.. أنا ضعيفة أمامك. على الأقل ليس الآن.

لم يحاول معها أكثر. وقبل أن يتركها رفع وجهها إليه والتقم شفتيها اللتين أعطتهما إليه بتجاوب. تركها. كان بإمكانه أن يضاجعها في هذا المكان. لكنه تركها. أخذت ترتب نفسها وعباءتها. وقبل أن تنتهي كان هو قد خرج من الغرفة. كانت هي مثارة جداً، وتعيش مشاعر متناقضة جداً، فمن جهة كانت تتأسف أنه تركها لأنها كانت تريد أن يواصل معها ولا يستجيب لتوسلاتها، ومن جهة أخرى اشمأزت من إنهيارها وضعفها واستسلامها بهذه السهولة.

حينما خرجت من الغرفة رأت ابنها وحده يتشبث بحافة النافذة في الصالة. لم تجد أي أثر لآدم المحروم. أين هو؟ حتى أنها شككت في أنه كان موجوداً. سألت ابنها:

– أين عمو؟

– راح

– وين راح؟

– ما أعرف.. راح.

أحست بشيء من الارتياح حينما عرفت أنه خرج، أخذت ابنها وغادرت المشتمل. كان الغروب قد حل. وبدأت العتمة تتمدد في الدروب والشوارع وعلى سطوح البيوت. أحست بجسدها وقد صار أخف، لكنها ملتهبة، وتريد أن تطفئ نارها. ولا تعرف كيف. أحست أنها تريده. تريد أن تراه. لن تسأله مرة أخرى أن يتركها لو حاول معها ثانية، هكذا قررت مع نفسها. ارتسمتْ على وجهها إبتسامة ماكرة وقالت لنفسها: كم هو جريء!

12

درب الآلام

لم يذهب آدم المحروم إلى الأب مباشـرة، وإنما ظل يتجول في شـارع السـعدون، ثـم ذهـب إلـى شـقته وأخـذ ما تبقى لديه من أوراق نقديـة كان قد وضعها في الدولاب تحت الملابس. جمع ملابسه القليلة ووضعها في حقيبة جلدية، وكذلك حاجاته اليومية الأخـرى كمعجـون الأسـنان وأدوات الحلاقـة، وقنينة عطره. وبعـض كتبه، وهي قليلة، وبعض أوراقه وقصاصات من الصحف والمجلات التي كان قد نشـر فيها مقالاته، أو المجـلات التـي أجـرت معـه حـواراً. وحينما تأكد بأنه وضـع كل ما يخصه في الحقيبة. حملها خارجا، ولم تكن ثقيلة بحيث يضطر إلى تأجير سيارة. خرج وأقفل الباب خلفه، وتوجه نحو الأب.

حين وصل إلى حيث زاوية الشـاي كانت السـاعة في حدود التاسـعة. فكر أن عليه أن ينتظـر علـى الأقـل لسـاعة ونصـف أخرى، لكنه حينما وصـل إلى رأس الزقاق الذي فيه المطعم وزاوية الشاي، وجد أن المطعم قد بدأ يطفئ الأضواء، وكأنه ينتظر خروج آخر الرواد، وليس هناك من يقوم بشي الكباب، كما وجد الأب قد لملم أشياءه، وهو علـى وشـك الرحيـل. تأكـد مـن أن شـيئا قد حصل، فالأب ليـس على ما يرام من مزاج هاديء، مسالم، متصالح مع الأشياء ومع نفسه. كانت علامات الشرود والتفكير تهيمن عليه، وكان ثمة غمامة من الحزن والقلق تغطي وجهه.

حين لمح الأب آدم المحروم مقبل عليه، لم يبتسـم له كعادته، بل قال له بصوت هادئ حزين:

ـ أهلا ابني

شـعر آدم بالتوتـر. وخـلال ثـوان قليلـة كان يسـأل نفسـه أسـئلة عديدة لتفسـير هذه الطريقـة البـاردة فـي التحيـة، وهـذا الحـزن الذي يهيمن عليه، هل تراه عرف بشـيء مما دار بينه وبين ابنته؟ هل اعترفت له بما دار بينها وبينه؟ هل عرف شيئا ما عنه؟ أو هل جـاء مـن أخبـره عنـه شـيئاً ما؟ أو ترى جاءت الأجهـزة التي اغتالت صديقه الكاتب آدم

البغدادي لتسأل عنه؟

لم يطق أن يتحمل ثقل كل تلك الأسئلة، فسأل الأب ليتخلص من قلقه المدمر:

– هل جرى شيء ما يا حاج؟ أنت لست على طبيعتك.

نظر الأب إليه وقال بحزن:

– مصيبة أخرى حلت بنا يا ابني.

– مصيبة؟ أي مصيبة لا سمح الله.

– زوج ابنتي مات تحت التعذيب في سجن بوكا.

– ماذا تقول؟ مَن أخبرك بذلك؟

– لقد وصلت المعلومات قبل قليل إلى أخيه صاحب المطعم، وقد أخبرني هو بذلك.

– هل أنتم متأكدون؟

– نعم.. الأخبار التي وصلت تقول إنه إنتقل إلى رحمة الله قبل شهر تقريبا، ولم يتمكن أحد من إيصال المعلومات لإهله.

– ماذا ستفعل الآن؟

– لا أدري يا ابني. لا أعرف كيف أخبر ابنتي بهذه الكارثة، ولا أستطيع أن أتحمل ترملها وهي في مثل هذا السن. ولا أستطيع أن أتحمل يتم الصغير، بالرغم من أنه لم يعرف أباه.

– إنها مصيبة حقيقية.

انتبه آدم المحروم إلى ان الوضع قد ارتبك جدا، وليس من السهل أن يتحقق أيّ أمل من آماله التي رسمها لعلاقته مع حواء، بالرغم من أن هذا الخبر ربما سيحررها من العلاقة الزوجية، لكنها ستكون في مرحلة سوداء أخرى، وربما ليس من المستحسن أن يذهب معه إلى البيت الليلة، فقال للأب:

– اعذرني يا حاج. كنت قد حملت حقيبتي التي فيها كل أشيائي، لأني ظننت قد انتقل إلى السكن الجديد من الغد، بالرغم من أن هناك أكثر من عشرة أيام مدفوعة الأجر لشقتي الحالية، لكن بعد سماعي هذا الخبر فمن المستحسن أن تكونا وحدكما.

انتبه الأب لما قاله آدم المحروم. صمت لحظة ثم قال:

– لا.. الأفضل أن تأتي معي. لا أعرف كيف سأواجهها وأقول لها الخبر. لكني على أية حال، سأسافر مع أخيه إلى البصرة ليومين أو ثلاثة، نستجلي الأمر،

فإذا صح فسنقوم بالواجب، وإذا لم يصح فنحن نكون قد عدنا بخبر طيب. لذا أفضل أن تكون معي الليلة، وغدا تحمل حقيبتك إلى السكن الجديد، وتكون على الأقل قريبا منهما إلى أن أعود. ثم أنني لا أريد ان أخبرها الآن، ووجودك سيدعها لا تجلس معي كثيرا. أي ستكون لدي الفرصة لكسب الوقت، وليقضي الله أمرا كان مفعولا.

– هكذا ترى؟ ربما أنت محق من هذه الناحية.

فُتح باب الصالة. دخل الأب، وبقي آدم المحروم منتظراً إلى أن سمع صوت الأب يدعوه للدخول. ركض الحفيد وألقى بنفسه على الجد فتلقفه بالأحضان مقبلا، ومستنشقا عطره الطفولي. وترقرقت عيناه بالدمع، فأنزله إلى الأرض فركض الصغير ملقياً بنفسه على آدم المحروم الذي فتح له ذراعيه أيضا، وبقي معلقاً بأحضانه إلى أن أقبلت حواء أم الملاك لتسلم عليهما مرحبة. كانت مرتبكة قليلاً لوجود الأب وآدم المحروم معاً، لذا لم تنتبه لارتباك أبيها، لكنها تداركت ارتباكها.

خلال الساعات التي غاب فيها آدم المحروم عن البيت كانت هي تعيش صراعا نفسيا عنيفا. صراعات بين شعور بالذنب تجاه زوجها ووالدها، وانتهاكها للتعاليم والمحرمات والأعراف وبين رغبتها الحقيقية والمخلصة في أن تكون ذاتها هي، وأن تعمل ما تشتهيه نفسها، أن تحب، فهي لم تعرف مشاعر الحب في حياتها قط، سوى حبها لوالديها ولابنها، أما حبها لزوجها فهو من باب الواجب، لأنه زوجها ووالد ابنها، وليس له علاقة بما تشعر به كأنثى وكامرأة. إنها شعرت بأنوثتها مع آدم المحروم، شعرت بخيالاتها الجامحة معه فقط. إنها تشعر بالفرح حين تراه، وتستيقظ فيها الرغبة بوجوده أو حتى حينما يكون غائبا. وما جرى اليوم بينهما منحها سعادة كبيرة، لكنها تشعر بأنها سعادة محرمة، ودنسة، لأنها تجري ضد كل ما تعلمته واعتادت عليه، وأنها اضطرت وستضطر إلى أن تكذب على أبيها وابنها، وربما على نفسها من أجل أن تقتنص لحظات السعادة معه. تحس بأنها بدأت تتغير. لم تعد كما كانت عليه، لكنها أيضا ليست إنسانة أخرى بالكامل. لذلك ارتبكت حينما حضر الإثنان معا.

كان آدم المحروم يقف خلف الأب حينما أقبلت من المطبخ، دخل حاملا حقيبته التي وضعها قرب الباب إلى جانب الجدار. لاحظ ارتباكها، وكان هو مرتبكا أيضا، لأنه تركها في حالة مشوشة، ولم يكن واثقاً جداً من موقفها. وحينما أحس أنها سيطرت على نفسها، وبدت إعتيادية كما هي حين تستقبلهما كل مرة، أحس بالراحة وزال عنه ارتباكه أيضا، وأنزل الصغير إلى الأرض.

تحدثت حواء لأبيها عن زيارة أم قابيل وتوقيع العقد، وأنهم سوف يقومون بتنظيف الشقة غداً، وكيف أنهم لا بد أن يذهبوا إلى بائع الأثاث المستخدمة ليشتروا له ما يحتاجه في المشتمل. كانت وهي تتحدث تخاف من أن الصغير ينط ليقول شيئا يحرجها. إلا أن الأب لم يطرح أي سؤال يمكن أن يدفع الصغير ليقول شيئا. كما أنه حاول جاهدا أن يشغلها بذلك الحديث.

أحضرتْ العشاء، أخذتْ صغيرها وخرجتْ. تعشى الأب وآدم المحروم دونما أية شهية. كانا صامتين، وليس بينهما سوى لغة العيون. أخذا يتابعان الأخبار في التلفزيون بصمت. كانت نشرة الأخبار تشير إلى حدوث اغتيالات تمت بمسدسات كاتمة للصوت، في مناطق متفرقة من بغداد. أحد هذه الإغتيالات تمت لشخصية معروفة على الطريق السريع عند دوار محمد القاسم في الرصافة. أخذا يعلقان بكلمات قليلة على الأخبار. كانت وجهات نظرهما، بالرغم من أن التعليقات كانت لا تتجاوز الكلمة أو الكلمتين. كان الأب يعتقد أن بقايا حزب البعث المحظور بالتعاون مع القاعدة هم المنفذون لهذه الجرائم، بينما كان هو يعتقد أن أغلبها تصفيات داخلية بين الحزب الحاكم ومعارضيه من الشركاء، لأسباب تتعلق بصراعات على النفوذ والمصالح الشخصية، وكذلك تتم الإغتيالات من قبل مخابرات دولة مجاورة. وكان كل منهما لا يقطع رأيه، إذ يعطي احتمال أن يكون الآخر محقا في ما يذهب إليه أيضا. بل كانا يشعران بأنهما من خلال هذه التعليقات يحاولان الهرب من التفكير بخبر موت زوج حواء في سجن بوكا.

دخلت حواء الزاهد وهي تحمل لهما صينية الشاي. ولكي لا يدخل معها بأي حوار رفع الأب وجهه نحو آدم المحروم وسأله:

- هل رأيت المشتمل؟

- الحقيقة كان يجب أن أرى المشتمل لكني لم أقم بذلك. سأراه غدا.

من المؤكد لو كان الصغير موجودا لتبرع بالقول بأنهم كانوا هناك. تذكرت حواء كلامه عن الأقنعة، فابتسمت مع نفسها. وفي هذه اللحظة بالذات أحس الأب بأنه لا يستطيع أن يتحمل كتمانه للأمر كثيرا فالتفت لابنته وقال لها:

- سأسافر غداً يا ابنتي، ولمدة ثلاثة أيام.

تفاجأت حواء عند سماعها تلك الجمل، فأحست بخوف غامض يعتريها، وسألت مستفهمة:

- تسافر؟ إلى أين؟ ولماذا؟

- إلى البصرة.

– البصرة؟ إلى سجن بوكا؟
– نعم
– ولماذا هذه السفرة المفاجئة؟ هذا ليس موعد للزيارة؟
– أعرف.. لكن أبا هابيل، تعرفينه أنت. صاحب المطعم، عم الصغير، يريد القيام بزيارة لأخيه فسألني أن كنت أود الذهاب معه لأرى نسيبي. خجلت منه ووافقت على مرافقته.

كان آدم المحروم متوترا ومترقبا كيف سيدلي هذا الأب الحنون بما يثقل قلبه. أحس بالإعجاب الكبير لسرعة بديهته في إيجاد مخرج لتبرير سفره. لكن فوجئ بالإبنة تسأل:
– هل حدث شيء ما لزوجي؟
– لا أبداً. لكني كما قلت لك، سألني فخجلت أن أرفض الذهاب معه فوافقت.

اطمأنت حواء الزاهد، فهي تعرف أن أباها لا يكذب أبداً. كان المحروم ينظر بإعجاب للقناع الذي أخفى الأب سره خلفه، لكن حواء الزاهد، التي غمرها فرح خفي لسفر الوالد بعد أن اطمأنت بأنه لا شيء قد حدث لزوجها، أرادت أن تحتمي بقناعها هي، فسألته:
– ونحن، ماذا عنا؟ أتتركنا هنا وحدنا؟

نقل الأب النظرات بينها وبين آدم المحروم، وقال:
– غدا سينتقل الأستاذ آدم إلى المشتمل. وسيكون جارنا، ثالث بيت على جهتنا، وبالتالي هو ليس ببعيد عنكما، سيكون موجودا بجانبكما. ثم أني لا أتأخر كثيرا.
– ومتى ستسافر غدا إن شاء الله؟
– بعد الفطور مباشرة.
– تروح وترجع بالسلامة يا ربي.
– إن شاء الله..

قامت خارجة ومتمنية لهما ليلة سعيدة. كانت لا تريد البقاء معهما. كانت تحس برغبة قوية لتكون وحدها. إنها تريد أن تحاور نفسها. وكانت تحس برغبة دفينة جدا بأن تنام لتصحو على الصباح. كانت تستعجل السير في درب الآلام.، درب المتعة المحرمة.

ما أن خرجت، تبادل الأب وآدم المحروم النظرات. بادر آدم المحروم قائلا:
– حينما بدأت تتحدث عن سفرك كنت خائفا أن تقول لها كل شيء، لكنني فهمت من أنك تريد أن توصل الخبر إليها على دفعات.
– لا أدري. لم أفكر بأي شيء. فقط كنت أريد أن أدفع هذا الهم عن قلبي، وأن

أبرر لها سفري.

– المهم اقتنعت بما قلت لها.

– أتمنى أن تنتبه لوضعهما إلى أن أرجع.

– لا أعتقد أنها ستنتبه لشيء، لحين عودتك.

– على أية حال.علي أن أنام، فطريقي غدا طويل.

قـال ذلـك ونهـض. متمنيـا لـه ليلـة هانئة. حينمـا توجه الأب خارجا نظـر هو إليه. أحس أنه هرم خلال ساعات. فقد كان يتحرك ببطء شديد. بقي هو وحده في الردهة. مـد الفـراش علـى الأرض. انتبـه إلـى الحقيبـة الجلديـة التي تضم مخطوطـات روايات صديقه المغدور آدم البغدادي. لم يشـأ أن يغير ملابسـه. اسـتلقى على الفراش. سـحب حقيبـة المخطوطـات. أخـرج مخطوطـة (متاهة حـواء- وادي الظلمات)، عزل الفصول والصفحات التي قرأها، ووضعها على جهة، وبدأ بقراءة بقية الفصول.

منعطـف المتاهة الكبـيـر

كان الجو متوتراً بين حواء المؤمن وزوجها حينما سمعا رنين جرس الباب. صمت كلاهمـا، نظـر كل منهمـا للآخـر. كلاهما خمن أنه قابيل. حين توجه زوجها إلى الباب، فكرت كيف ستتعامل مع قابيل. لقد أحست أنها تكرهه، لكنها أيضا أحست أنها مرتبطة به، وهي تريد أن توضح علاقتها به.

حينما وصل قابيل الصالة نظرت في عينيه للحظات نظرة مباشرة، تبادلا النظرات، انتبه آدم إلى نظراتهما المتبادلة، فعلق قائلاً:

– ما لكما تنظران لبعضكما هكذا كأنما تريان بعضكما البعض لأول مرة؟!

– لا أبداً

– لكن ماذا بكما؟ هل تشاجرتما؟ كلاكما متوتر النظرات. علق قابيل.

إلتفتت حواءالمؤمن إلى زوجها وقالت له بشكل استفزازي:

– إخبره. ليعرف الحقيقة.

نظر قابيل إليها بخوف وارتباك واضح. ثم نظر إلى زوجها، لقد شـعر للحظة أنها قد أخبرته بما جرى بينهما عندما ذهب لإحضار السيارة. فسأل:

– ماذا هناك؟ أي حقيقة علي أن أعرفها؟

– لا شيء..

- قل له.. ما معنى قولك لا شيء؟ هل كل شيء لديك بلا قيمة.. كل شيء يصير لا شيء؟ عقبت حواء.
- أريد أن أفهم عن أي شيء تتحدثان؟ سأل قابيل.

مـرت لحظـات صمـت، فبادرت حواء لتشـرح الموضـوع، فقالت وهي تنظر إلى ما وراء نافذة المطبخ:

- اليوم حينما كنّا عند الطبيبة، وبعد أن أجرت لي التصوير الشـعاعي، وجدت أن الجنين غير طبيعي.

لم يفهم قابيل كلمة غير طبيعي، كان مستعجلا إلى أن يفهم كل شيء دفعة واحدة، فسأل:

- ما معنى غير طبيعي؟
- يعني طفلاً مشوهاً، رأسه كبيرة جدا وجسمه صغير، وأنه.. وأنه..

لـم تسـتطع أن تكمـل الـكلام إذ تحشـرجت الكلمـات فـي فمها، وأخذت تنشـج، فركضـت إلـى غرفـة النـوم، وأغلقـت البـاب خلفها. صُـدم قابيل من كلامهـا، فأراد أن يستفسر أكثر، فسأل:

- ما معنى هذا الكلام يا آدم. ماذا قالت لك الطبيبة وأخفيته عنا؟ قل..

شعر آدم بالإحراج لإخفائه ما قالته الطبيبة عن وضع الجنين، فقال بإنكسار:

- لم أشأ أن أكسر خاطرها، وأردتُ أن أقول لها الحقيقة بعد الحصول على نتائج التحليلات الأخرى التي أجريناها.. لكنها عرفتْ..
- عرفتْ؟ من أين عرفتْ؟
- تقول من الراهبتين..من الشبحين اللذين يظهران لها دائما..
- ما هذه اللعبة؟ المهم..دعنا الآن عن هذا.. وأخبرني ماذا قالت لك الطبيبة:
- قالت إن الجنين هو مسـخ، يعني رأسـه كبيرة وجسـمه صغير، وأنه سـيموت بعد الولادة بساعة أو ساعات، فنادراً جداً أن يعيش مثل هؤلاء بعد الولادة.
- ولماذا لم تخبرنا عن ذلك؟
- قلت لك أردت أن لا أصدمها بهذا، فكرت أن أنتظر نتيجة التحليلات، وعندها كنت سأقول ذلك.
- ولماذا لم تخبرني أنا؟
- فكرت أن أخبرك لكني لم أتمكن من ذلك لأني ذهبتُ بعدها لإحضار السيارة.

صمـت كلاهمـا. كان الخبـر صدمـة قاتلـة بالنسـبة لقابيـل. أحـس بالشـفقة علـى

حواءالمؤمن. نظر إلى آدم وسأله:

– هل تشاجرتما على ذلك؟

– ليس بالضبط، الطبيبة تنصح بإجراء إسقاط للجنين عبر الطلق الإصطناعي، وهي ترفض ذلك وتقول مستحيل أن أسقط الجنين، حتى لو عرفت أنه سيولد ويموت بعد ذلك. تقول إنها لا تريد أن تقتله.

صمت كلاهما، ثم انتبه قابيل إلى نفسه، وإلى ما جرى من حوار، فسأل:

– ماذا قلت لي قبل قليل، كيف عرفتْ هي؟

– قلتُ إنها عرفتْ من خلال راهبتين، شبحين، روحين، لا أدري. حينما كانت في المستشفى بمدينتنا الأولى رأتهما في المستشفى، بالرغم من إن إدارة المستشفى نفتْ وجود راهبات في المستشفى، والآن قالت إن الراهبتين جاءتا إلى هنا، إلى برلين، وأخبرتاها بأنها حامل بجنين مسخ، وإن عليها أن لا تقتله لأن هذا يُعد جريمة قتل.

– غريب..

– وما هو الغريب؟

– غريب أن ترى أشباحا، أن ترى راهبتين.. فهي ليست مسيحية؟

– صحيح.. أنا لم أفكر بهذا أبداً.

غرق في صمته قليلا ثم عاد للعوم ثانية، وقال لآدم:

– علينا أن لا نكسر خاطرها الآن. علينا تغيير الجو.. وبمناسبة السيارة الجديدة دعوني أدعوكم إلى الذهاب إلى مطعم هندي.

– لكنها ربما لا تريد الخروج..هي غاضبة مني..

– لا عليك..اذهب أنت واحضر السيارة وجهزها، وأنا سأتحدث معها وأقنعها بالنزول. إنتظرنا في السيارة.

صمت آدم اللبناني للحظات، ثم قام حاملا شدة المفاتيح معه، غالقا الباب خلفه. ظل قابيل للحظات جالسا في الصالة، فكر بما سمع، أحس بالشفقة عليها، كما أنها فرصة أخرى ليمارس سلطته المطلقة عليها. قام متجها إلى غرفتها. طرق الباب طرقات خفيفة. لم يجبه أحد. فتح الباب فرأى حواء المؤمن مستلقية على ظهرها وتنظر إلى السقف بعينين جامدتين. دخل الغرفة مقترباً من السرير. أدارت وجهها تنظر إليه. بقيا للحظات ينظر كل منهما إلى الآخر وكأنما يريدان أن يكتشفا بماذا يفكر كل منهما في تلك اللحظات. شعر قابيل بأنها وكأنما تسأله: لماذا انسحب عنها حينما ضاجعها في

شـقته. بينما خمنت هي بأنه يفكر بما يدور في رأسـها فعلا، وهو نفس السـؤال الذي فكر فيه قابيل في تلك اللحظات. جلس إلى جانبها، فاستغربت وأشارت بعينها وببعض ملامح وجهها إلى الصالة وكأنها تقول له إن زوجها هناك، فقال لها:

– لا تخافي..لقـد أرسـلته لينتظرنـا فـي السـيارة. أنـا أدعوكمـا للعشـاء فـي إحدى المطاعم الهندية. أريدك أن تنسـي كل الهموم الآن، وغدا سـيكون لكل حادث حديث.

وبـدون إرادة منهـا مـدت كفهـا وأخـذت كفه ووضعتها علـى بطنها المكورة. أحس هـو بالإثـارة. وبهـدوء إنحنـى ووضع رأسـه على بطنها المكورة. أحسـت هي بدفق من الحنان نحوه نتيجة تعاطفه معها ومع جنينها. مدت كفها الأخرى ومسدت شعره. كان هو مثارا وهائجا، وفكر في أن يقوم ليولجه فيها، لكنه فجأة قام من مكانه، إذ أخذ يشم نفس تلك الرائحة النتنة الكريهة تنبعث من أسفلها.

ابتسمتْ له. نظر هو حوله حائرا، وكأنه يشرد من نظراتها، ولم يشأ أن يسألها عن سبب هذه الرائحة الكريهة التي تنبعث منها، لربما هي فطريات أو إفرازات سببها مرض تناسلي ما، وأن عليها التخلص من هذه الروائح، لكنه تجنب الحديث عن ذلك الآن، وإنما قال لها:

– علينا الإسراع بالنزول كي لا يشك آدم. لقد تأخرنا.

قالـت وكأنهـا وكأنهـا انتبهـت للحـرج الـذي هي فيه، إذ عليهـا أن تنزل إلى زوجها بعدما إختلت هي مع صديقه:

– أنا جاهزة.

خرج هو من الغرفة. تبعته بعد أن رتبت نفسها قليلا. خرجا من الشقة، وأطبق هو البـاب خلفـه. انتظـرا المصعـد. وحينمـا وصـل المصعد فتح البـاب فدخلت، إلا أنه لم يدخل معها وإنما أغلق الباب لها قائلا:

– علي أن انزل إلى شقتي فقد نسيت شيئا.

فتح باب الشـقة، وذهب مباشـرة إلى غرفة النوم، فتح الدولاب الكبير وأخرج منه حقيبـة جلديـة متوسـطة الحجـم، ومـن الحقيبـة الجلدية أخرج صندوقا جلدياً مسـتطيل الحجـم. أخـذ الصنـدوق الصغيـر ورفع باطنه الذي كان أشـبه بالصندوق الصغير، ومن تحتـه أخـرج كيسـاً صغيـرا، مفتوحـاً، فيه مـادة الهيروبين البيضاء. أخـذ الكيس الصغير وسـكب جزءا منه على الطاولة الصغيرة على جانب سـريره العريض، وسـحب موسـا صغيـرة مـن الصنـدوق، مـد وجهـه ومنخريه نحو المـادة المخدرة وأخذ يستنشـقها من

جانبي منخريه. بعد ذلك وضع الكيس ببقاياه القليلة في الصندوق وأدخل الصندوق الوهمي الصغير فوقه واغلق الصندوق الأسود ووضعه ثانية في الحقيبة الجلدية، ألقى بالحقيبة داخل الدولاب. نظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة على باب الدولاب. إبتسم لنفسه وخرج من الغرفة.

حينما نزل إلى الشارع كان محرك السيارة يهدر، ورأى آدم ينظف السيارة بقطعة من القماش، وكانت حواء المؤمن جالسة داخل السيارة. وقف قابيل منتشيا. نظر إلى الشارع بعينين لامعتين تتقدان بالبهجة والحلم. إقترب من آدم قائلا:

– اعطني المفتاح لأجرب السيارة.

انتبه آدم إلى أن قابيل ليس في وضع طبيعي، لأن محرك السيارة كان يهدر. لكنه أحس بالرغم من ذلك بالإنكسار لأنه كان يريد هو أن يقود السيارة متبخترا أمام زوجته، بينما لم يتركه قابيل أن يفوز بهذه الفرصة. قال له بهدوء:

– ماذا بك يا قابيل. ألا تسمع صوت محرك السيارة؟

لم يجب قابيل عليه، وإنما اتجه ليجلس خلف المقود. صعد آدم إلى جنبه، وانطلقت السيارة. كان قابيل يحب السياقة السريعة. وقد أخذ يسرع أكثر حينما صعدت السيارة إلى الطريق السريع. كان قابيل يشعر بالإنتعاش. فكر مع نفسه بأن هذه المرأة التي كانت لا تنظر إليه هي الآن تحبه وتتوسله وتتمنى رضاه. أراد أن يبين لها مهارته بالسياقة فأخذ يضغط على دواسة البنزين. وفي لحظة ما أراد أن يتجاوز سيارة كانت تسير بسرعة معقولة أمامه، وما أن خرج عن الخط حتى وجد أن الطريق يحاصره من الجانب الآخر. كانت السيارة آنذاك تسير على جسر عال نسبيا، وفي لحظة عدم توازن، وعدم سيطرة من قابيل على المقود، ارتطمت السيارة بسياج الجسر، وحطمته، وقفزت السيارة بمن فيها من الجسر إلى مجرى مائي تم صب جوانبه بالإسمنت، وفي الأسفل اشتعلت النيران فيها. كل هذا الأمر لم يستغرق ربع ساعة ما بين تحركهم من البيت وتحطم السيارة وهي تسقط من الجسر.

بعد دقائق قليلة هرعت سيارات الشرطة إلى المكان وأطفئت النار بقناني الغاز التي لديهم، كما جاءت سيارات الإسعاف بعد عشرين دقيقة. كانت السيارة قد تحطمت بالكامل، وتم إخراج جثة آدم وقد تحطمت جمجمته وسال مخه منها، كما لم يعثروا على جثة قابيل داخل السيارة وإنما تحتها، وقد تفحمت، وكان مدهشا بالنسبة للشرطة خروجه من السيارة ليكون تحتها ويحترق بنارها. أما حواء المؤمن فقد دخل الزجاج في وجهها وسالت الدماء منه، ووجد الشرطة بين فخذيها كتلة من اللحم غطاها الدم.

لكنها هي نفسها كانت تتنفس.

حين أفاقت من غيبوبتها في المستشفى، وجدت نفسها مشدودة ومضغوطة من كل الجهات. وجهها مربوط بالشاش. حتى عيناها كانتا معصوبتين بالشاش ولم يبق من وجهها سوى منخريها اللذين مدوا فيهما أنابيب صغيرة للتنفس من قنينة الأوكسجين المنصوبة إلى جانب السرير. أحست بجسدها وكأنه قد تهشم. لم تكن قد استوعبت بعد ما حدث. أرادت أن تفتح عينيها فلم تستطع. كانت عيناها معصوبتين. أخذت تنظر بعين الذاكرة، ظنت أنها في حلم. أول فكرة مرت عليها هي أنها تحلم بأنها في مكان ما غارق في السكون. مكان مظلم. بعد لحظات انتبهت إلى إن هذا ليس حلما وإنما هو واقع، فهي صاحية وليست نائمة. لكن أين هي؟

إنتبهت بسمعها للباب وهي يفُتح. لم تعرف من الداخل. كانت الراهبتان قد وقفتا إلى جانب سريرها. إبتسمتا لها بلطف وحنان، بالرغم من أنها لم تستطع أن تراهما. قالت الراهبة المسنة لها:

– لا تخافي يا ابنتي.. نحن هنا معك. كل شيء سيكون على ما يرام.

– أين أنا؟ تمتمت حواء المؤمن بصعوبة.

– أنت هنا في المستشفى يا ابنتي. قالت الراهبة المسنة.

– لماذا؟

تبادلت الراهبتان النظرات في ما بينهما، وبادرت الراهبة الشابة بالإجابة بنبرة مليئة بالحنان:

– لقد تعرضت لحادث. أنت الآن في أمان.

– حادث؟

– نعم.. حادث.

– ولماذا وجهي مربوط كله؟

– لأنك تعرضت لجروح ورضوض.

– هل أنا ميتة أم حية؟

– أنت ما زلت على قيد الحياة يا ابنتي.

في لحظة واحدة ظهرت الأحداث التي جرت وكأنها تعرض على شاشة سينمائية. كيف صعدت وكيف قاد قابيل السيارة بسرعة هائلة على الطريق العام، وعلى الجسر بالتحديد أراد أن يتجاوز السيارة التي قبلهم فخرجت السيارة عن الطريق وصعدت الرصيف لتصطدم بسياج الجسر. ولم تعد تذكر شيئا. أجل تذكرت الراهبتين كانت عند

رأسها، ولم تعد تذكر أي شيء آخر. فجأة، أحست بالرعب. أرادت أن تقوم من هول صدمة الوعي. لكنها لم تستطع أن تتحرك. فهمت الراهبتان حركتها، وسعيها للجلوس، وسمعتاها تقول بتمتمة:

– زوجي وقابيل..؟

نظرت الراهبتان لبعضهما، ومالت عليها الراهبة المسنة، وقالت بحنان أمومي:

– إرتاحي الآن يا ابنتي.

– ابني..؟

ومدت يداً ملفوفة بالجبس على بطنها، بحركة بطيئة. صمتت للحظات، لكن الراهبتين فهمتا من التشنجات التي تعرض لها جسدها الممتد على السرير بأنها أدركت ما جرى لحملها. سمعت الراهبة المسنة تقول لها:

– لا تيأسي يا ابنتي.. الله يعطي.. والله يأخذ.. ومثلما أخذ سيعطيك أيضا.

كان جسدها يرتجف من الألم والنشيج الصامت. سمعت ضجيجا مقبلا. الباب يُفتح وأصوات جلبة. أحست أن ثمة أشخاصاً آخربن قد دخلوا. سمعت صوت امرأة خمنت أنها الممرضة تقول لشخص ما:

– لنأخذها الآن إلى الأشعة. لقد أراد البروفيسور أن تؤخذ لها أشعة جديدة.

– هل هنلك شيء ما؟

– لا أدري. لكنه طلب بشكل عاجل تصويرها بالأشعة. كما طلب من رئيس قسم النسائية أن يقدم تقريره عنها.

أحست حواء المؤمن بأنها غارقة في الظلام. لا يصلها من العالم المحيط بها سوى الأصوات. لا تشعر سوى بالأصوات. بل صار سمعها حادا جدا، إذ كانت تسمع حوارات المرضى في غرفهم لحظة مرور سريرها المتحرك من أمام غرفهم. وحينما أدخلوها إلى غرفة الأشعة، ووضعوها على السرير الخاص بالأشعة، أحست أن الممرضتين اللتين جاءتا بها قد خرجتا من الغرفة. بينما لامست كف حنونة كفها اليسرى وأخرى لامست كفها اليمنى، فعرفت أنهما الراهبتان.

مرّ وقت لا تعرف هل هو بالساعات أم بالأيام. وقت طويل طويل. وهي في الظلام. تزرق في جسدها الإبر، وتغط في نوم عميق عميق. المغذي يزرق في جسدها عبر أنابيب وإبر زرقت بها وألصقت بشريط قوي حول معصمها. تحس أنها تتنقل من مكان إلى آخر. تفحص وتجرى لها مختلف أنواع المعالجات والعمليات، وهي ليست إلا جثة تتنفس. تعود لوعيها بعض الوقت، لكنها تعيش في الظلام. الظلام الدامس،

ولا يضيء شيء إلا في ذاكرتها التي تختزن كل ما رأته عيناها، وما يمكن أن تتصوره. لا تعرف شيئا عن وضعها، ولا أين هي، وليست متأكدة من أي شيء، إلا من شيء واحد هو أن الراهبتين تزورانها دائما.

وذات يوم، بالنسبة لها، في لحظة ما، إذ أنها فقدت أي ارتباط لها بالوقت، إذ صارت لا تعرف الليل من النهار، فهي في ظلام دائم، وبالتالي ذلك اليوم كان بالنسبة لها مجرد لحظة ما في ليلها الطويل، حينما قرر الأطباء رفع عصابة الشاش عن وجهها.

كان هناك ربما أربعة أشخاص أو خمسة في غرفتها، هكذا خمنت من تباين نبرات الصوت، بل إنها استطاعت أن تميز نبرة رئيس الأطباء من الأطباء المساعدين والممرضات. أجلسوها برفق على سريرها، وبدأ أحد الأطباء يفتح الربطات عن وجهها، بالرغم من أن إحدى ذراعيها ظلت في الجبس. كانت تحس بارتخاء الضغط على وجهها. أحست بأنها تريد حك وجهها، ربما لتدفق الدم بشكل أفضل إلى عضلات وجهها. وأخيرا صار معظم وجهها مكشوفا وبدون أربطة، ثم بدأوا يفكون الرباط عن عينيها. وشيئا فشيئا ارتخى وجهها وجمجمتها من شدة الضغط عليه. وأخيرا تم رفع قطعتي القطن والشاش عن محجري عينيها.

كان وجهها شاحبا بعض الشيء وتقشر في بعض مواضعه، لكنه ما زال يحتفظ بجماله. إقترب رئيس الأطباء منها وقال لها، بلهجة مشجعة، لكنها آمرة:

– إفتحي عينيك.

كانت تحس بصعوبة أن تفتح عينيها، لكنها بعد أن رمشت لثوان إستطاعت أن تفتح عينيها. فتحت عينيها، لكنها لم تكن ترى سوى الظلام. كان الطبيب يحرك كفه يميناً ويساراً وبيده قلم فضي، ليتأكد من سلامة بصرها وردود فعلها وتنبه جهازها العصبي، إلا أن عينيها ظلتا جامدتين لا تتحسسان حركة كف الطبيب.

نظر الطبيب إلى بقية الأطباء نظرة شك وحزن وحيرة. لم يستطع أحد منهم أن ينطق بأي شيء في حضورها. هي لم تفهم. هل هي فتحت عينيها ولم تر شيئا، أم أنها لم تفتح عينيها بعد، إذ هي قادرة على ذلك. أخذ الطبيب مصباحا طبياً صغيرا جداً. أضاءه ووجهه بشكل مباشر إلى عينيها، لكنه بالرغم من ذلك لم يلمح أية ردة فعل تعبر عن تحسس العين بالضوء الساقط عليها بشكل مباشر. قال الطبيب بصوت هادئ، لكنه حذر جداً:

– إغلقي عينيك للحظة ثم افتحيهما عندما أقول لك.

أغلقت هي عينيها، وفتحتهما حينما سمعت صوته يقول لها:

– إفتحي عينيك الآن.

فتحت حواء المؤمن عينيها، لكنها شعرت بأنها لا ترى غير الظلام، ربما أن عينيها لا تفتحان، لكنها تعرف أنها فتحتهما على أوسع قدر تستطيعه. لكنها لم تشعر سوى بالظلام. وفي لحظة، سمعت صوت الطبيب القلق وهو يطلب من بقية الأطباء الإتصال بالدكتور آدمز، جراح العيون، ليأتي إليهم، وليستشيروه في هذه الحالة. سمعت حواء المؤمن جلبة وهم يخرجون، وكانت تميز نبرة القلق عندهم جميعا.

انتبهت حواء المؤمن إلى أنهم تركوها على حالها دون أن يقولوا لها أي شيء. ارتبكوا حينما وجد رئيس الأطباء نفسه مرتبكا. بعد فترة من الظلام، سمعت هناك من يدخل عليها. كان طبيب وممرضة. إقتربا منها. سمعت الطبيب يقول لها مطمئناً:

– لا تخافي.. هذه الحالة التي أنت فيها هي نتيجة الصدمة. كل الفحوصات لعينيك جيدة، الأشعة لم تبين أي ضرر أو تلف في أي جزء من عينيك. لذا أرجو أن لا تخافي أبداً، إنها حالة نفسية ربما، ستزول بلا شك. أهم شيء هو عدم القلق والإسترخاء. والآن هناك بعض الأمور سأترك الممرضة تشرحها لك. إلى أن يأتي الطبيب الخاص بالنسائية والتوليد.

لا تعرف حواء المؤمن من أين جاءها هذا البرود الكامل حينما سمعت كلام الطبيب وأدركت أن هناك شيئا ما يخص حالة عينيها وبصرها، ربما من اليأس الكامل الذي تعيشه بعد أن أدركت سقوط الجنين، وبعد أن أدركت أنها قد تعرضت مع زوجها وقابيل إلى حادث أثناء السير. أحست أن كل ما جرى لها ليس إلا عقاباً على ما فعلته بزوجها الأول الدكتور آدم التائه أساساً. إن ما يجري لها ليس إلا عقاباً إلهيا عليها أن تتقبله مهما يكن. وإن وجودها الآن لا يعني أي شيء، فقد صارت هذه الحياة بالنسبة لها لا تعني أي شيء. إن شعوراً باللاجدوى وإهتزاز القيم يجتاحها بقوة، لذا فهي لم تشعر بالألم من فقدانها البصر سواء بشكل مؤقت أم دائم. إنها الآن تريد أن تعرف ما جرى للجميع وبالتفصيل.

سمعت الطبيب يغادر الغرفة ويغلق الباب. اقتربت الممرضة منها وقالت لها برفق وتضامن أنثوي:

– عليك أن تكوني قوية. أنا أعرف أن ما تمرين به صعب جداً، لكن أهم شيء الآن أن تحتفظي بصحتك وأن تكوني قوية كي تستطيعي العيش بسلام.

لم تجب حواء ولم تعلق بل ظلت تسمع فقط، بينما استمرت الممرضة تقول لها:

– يجب أن أقول لك قبل أن يأتي الطبيب المختص بالنسائية والتوليد، والذي قام

بتنظيف رحمك، إذ تعرضت لنزيف بعد إسقاط الجنين نتيجة الحادث.

هنا بالتحديد، وعند هذه الجملة نزلت الدموع الصماء من العينين العمياوين، وقد لاحظت الممرضة ذلك، فواصلت:

– لا تبكي بل اشكري الرب أنك أسقطته بهذه الطريقة، فقد كنت ربما ستتعذبين بعد ولادته. المهم، تعرضت لنزيف بعد الإجهاض، وقد أجريت لك عملية التنظيف، وأنت الآن على أحسن حال من الناحية التي تخص الجانب النسوي، لكن عليك استخدام بعض المراهم التي أمر الطبيب بها، لأن لديك بعض الفطريات والإلتهابات التي من الضروري معالجتها، وخلال الإسبوع الماضي كنا أنا وزميلتي نتناوب بأنفسنا على القيام بذلك، وأعتقد أنك على وشك التخلص النهائي من هذه الإلتهابات والفطريات، وكنا نعتقد أنه آن الأوان، بما أنك الآن في صحة جيدة، أن تقومي بنفسك لوضع المرهم، لكننا فوجئنا قبل قليل بوضع عينيك، والعمى المؤقت نتيجة الصدمة، كما يسمى لدينا، لذا فيجب أن نستمر نحن للقيام بذلك.

وبدون أن تنتظر جوابها، أخذت كفا من النايلون ولبسته، وطلبت منها أن تستلقي وتفتح ساقيها. وبدون أي تعليق أو تأثر، وكأنما تحولت إلى إنسان آلي، استلقت وفتحت ساقيها فمدت الممرضة أصابعها التي دهنتها بالمرهم المخصص للإلتهابات ومسحت ذلك المكان الذي خفت رائحته كثيرا، بل لا يكاد تنبعث أية رائحة منه.

سحبت الممرضة كفها، ونزعت كف النايلون عنها، ورمته في صفيحة للنفايات بالقرب من السرير. وقالت لحواء:

– نحن ننتظر قدوم الدكتور آدمز جراح العيون الذي يجب أن يفحصك بنفسه، ويشخص حالتك.

وبينما هي تتوجه إلى مغادرة الغرفة، سمعت حواء تسألها:

– هل لك أن تقولي لي ما الذي جرى للآخرين؟

– أي آخرين تقصدين؟

– أقصد زوجي وصديقه.

– من الأفضل أن لا تسأليني، فليس لدي جواب لك. إسألي رئيس الأطباء وهو سيخبرك.

– هل ماتا؟

صمتت الممرضة قليلاً، لكنها انتبهت إلى نبرة صوت حواء المؤمن العادية وغير

المنفعلة، فقالت لها:

– أعتقد أنهما ليسا من الأحياء الآن.

وخرجت مسرعة كي لا تتورط في شرح أمور ربما ستحاسب عليها لاحقا، من حيث أن تفسير رئيس قسم الجراحة هو أن حالة فقدان البصر الذي تمر بها هذه المريضة هو نتيجة صدمة عصبية، إذ أن جهازها البصري لم يتأثر بالحادث أبداً، وبالتالي فأن فقدان البصر هو نتيجة حالة نفسية، وهذا يعني أن الحديث معها عن مصير زوجها وصديقه ربما سيؤثر عليها نفسيا.

خرجت الممرضة. ظلت حواء المؤمن مستلقية على السرير. فكرت مع نفسها دونما أي إنفعال، بهذه السرعة الخاطفة التي جرت بها الأشياء، فكل هذه المعاناة والأحداث، والصراعات، والإنفعالات، والتنقلات، والمغامرات، والإحتيالات، كل ذلك انتهى بأقل من ربع الساعة. فما بين صعودهم للسيارة، وتحركهم من منطقتهم، في (هيرمان شتراسه) في نوي كولن، وصعودهم إلى الطريق السريع، وسقوط سيارتهم من فوق الجسر لم يستغرق أكثر من ربع الساعة. نعم، جرى كل شيء بشكل سريع، كما في الأفلام الهندية أو المسلسلات التركية، بلا ربما في الحياة ما هو أغرب من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية.

ماذا يعني كل هذا؟ سألت حواء المؤمن نفسها. لماذا هي باردة المشاعر هكذا؟ لا تشعر بأي شيء، لا بالحزن ولا بالرضى، لا بالألم ولا بالأمل. لا بالخسران ولا بالفقدان؟. لقد شعرت أنها تخلصت من عبء جريمة كان يمكن أن تقترفها، لا تعرف، لكنها أيضا تخلصت من مأساة كان يمكن أن تدمر حياتها، ولم يكن الأمر بيدها، بل ولم تساهم به، وإنما قدر لها أن يكون الأمر هكذا. ماذا لو كانا قد ضغطا عليها بإسقاط الجنين المشوه؟ بينما هي لا تريد إقتراف جريمة قتله. ماذا لو كان قد ولد ومات أمام عينيها، لربما كانت قد شعرت بالثكل والفقدان والإنكسار، بينما ما جرى الآن كان حكمة ربانية خلصتها من الألم الذي كان ينتظرها، فبحركة بسيطة، ألغت يد القدر كل ما كان نجساً ومحرماً في حياتها. ربما كانت هذه الحكمة الربانية رسالة لها، لتعي ما اقترفته من دناءة بحق زوجها الدكتور آدم التائه، الذي دمرت حياته، بحيث لا تدري أين استقر به المقام؟. ربما كان عقاباً ليس لها وحدها، وإنما لزوجها الذي تزوجها من أجل مصلحته، مدمرا حياة إنسان بريء، لكن ما ذنب آدم اللبناني؟ هذا ذنبها هي، فهي وحدها التي كانت تركض كالكلبة وراء شهوتها. ربما كان ذلك عقاباً لقابيل، الذي أحرقه الله في الدنيا قبل الآخرة. على أية حال. عليها ألا تحزن، وتنتظر ما يأتي دونما أي أمل

بالنجـاة، فربمـا هـي قـد نجـت، وربما الآن بدأت فترة قضاء العقوبة التي ربما قد بدأت الآن فعلا. نعم.. نعم.. قالت هي لنفسها، إنها الآن بدأت السير في وادي الظلمات.

آدم البغـدادي: لماذا أنهيت حياة آدم اللبناني وقابيل عشيق حواء المؤمن بهذه السرعة؟ هل لأتخلص من الإستطراد الروائي وأوجه الرواية للتركيز على حواء المؤمن؟ ربما. ولكن لماذا؟ ألا يمكنني من خلالهما أن أتحدث عن عالم الجريمة والمخدرات والدعارة؟ ربما سأدع حواء تكتشف ما كتبه آدم اللبناني لاحقاً، سيكون ذلك تعويضا عن غيابه المفاجئ. لكن، هل أستطعت حقا أن أتغلغل في عالم حواء المؤمن وأصل إلى أعماقها؟ لا ادري، فهذه الشخصية صارت لغزا بالنسبة لي.

علــق آدم المحــروم علــى الهامش قائلا لنفسه: لمــذا يعذب هو نفسه هكذا؟ ليترك الأمر للآخرين للقراء، للنقاد، أيريد أن يكون ناقد نفسه؟

الهبـوط إلى الـوداي

مـر شـهر علـى الحـادث. إنقلبت حيـاة حواء المؤمن خلال هذه الفترة. لم يسـتطع الأطباء إيجاد أي تفسير علمي للحالة التي هي فيها، إذ تم فحصها مرات عدة، واتضح أن أي جزء من جهاز العين لم يتأثر بالحادث، وباتالي فلم يعد لدى أطباء جراحة العين سوى تسجيل الحالة بكامل تفاصيلها بإعتبارها حالة غريبة واستثنائية، وتم تحويل سير علاجهـا لـدى الأطبـاء النفسـانيين، الذين رحبوا بمعالجتهـا باعتبارها حالة نموذجية في تفسير الصدمات النفسية وتأثيرها على فسلجة الأعصاب. لكنهم وجدوا في الأمر صعوبة لكون حواء المؤمن كانت طبيعية ولم يبد عليها أية أعراض نفسية غير طبيعية، ومن ثمّ فأنهم كانوا أيضا عاجزين عن تقديم العون المباشر لها، لكنهم كانوا يعتقدون بأن عودة بصرها ربما مرتبط بتحول نوعي يشبه الصدمة إذا ما تعرضت له في المستقبل، لكن ما طبيعة الصدمة التي يمكن أن تعيد بصرها إليها، هذا ما كانوا أيضا عاجزين عن تحديده.

وبمـا أن وضعهـا الصحـي كان كمـا يـرام، وتمـت معالجة إلتهابهـا ولـم يبق من آثار الحادث سوى فقدانها لبصرها، اضطرت إدارة المستشفى أن تخاطب الجهات الرسمية الأخرى، كالشرطة، وبلدية (نوي كولن) للنظر في وضعها. وبالتالي تم الإتفاق على أن

تنقل إلى شقتها في شارع (هيرمان شتراسه)، على أن تكون معها في الأيام الأولى مرافقة لخدمتها وتعويدها الحركة داخل البيت، بإعتبارها من ذوي الإحتياجات الخاصة. وفعلا، قدمت إحدى الباحثات الإجتماعيات إلى المستشفى أول الأمر، وتحدثت مع حواء، لكنها لم تخرج بنتيجة مرضية، كون حواء المؤمن لا تجيد اللغة الألمانية بشكل جيد جدا بحيث تستطيع أن تدير شؤونها بنفسها، بالرغم من أنها في كل الأحوال ستحتاج لشخص يرافقها. وهذا ما جرى، إذ تم نقلها إلى شقتها. وكانت طوال اليوم تعيش معها امرأة تم تخصيصها من قبل الباحثة الإجتماعية، كي تدربها على الحركة داخل البيت بحيث تقوم هي بنفسها في ما بعد لإنجاز ما تحتاجه من أشياء بسيطة، إلى ان يتم تخصيص شخص ثابت معها يتم تعيينه من قبل دائرة الشؤون الإجتماعية. وكان على هذه المرأة أن تقدم تقريرها عن وضع حواء النفسي. والغريب، وهذا ما حير تلك المرأة المساعدة، هي أن حواء المؤمن كانت طبيعية جدا. كانت صموتة لا تتحدث إلا نادراً، ربما تتبادل معها بعض الكلمات يوميا. ولم تكن حزينة، لا على زوجها الذي مات في الحادث، ولا على جنينها الذي أجهضته أيضا، ولا على فقدانها لبصرها، ولم تكن قلقة على مستقبلها، ولم تشكُ من شيء، بل إن معنوياتها لم تكن هابطة، إذ كانت تستقبل الحياة بإسترخاء وإستسلام نادر.

في البداية كانت الباحثة الإجتماعية قلقة على وضعها، وكيف ستعيش وحدها، وهي المرأة الأجنبية، بعد أن فقدت زوجها وجنينها، لكنها انتبهت إلى أن حواء قد تمكنت خلال أيام قليلة من أن تقوم هي وحدها بالحركة السليمة داخل الشقة.

وفعلا، كانت حواء المؤمن ترى الأشياء بعين الذاكرة، فهي تعرف تفاصيل الشقة، وأين تقع الأشياء، وتعرف المسافة بينهما، لذا لم يكن صعبا عليها أن تتحرك إلى المطبخ، لاسيما وأن الباحثة الإجتماعية سهلت عليها بعض الأمور، فبدل أن تغلي الماء في الدورق على الطباخ الغازي اشترت لها الدورق الكهربائي لغلي الماء، فما عليها إلا أن تضع الماء فيه وتضغط على زر التشغيل حتى يغلي الماء بعض دقائق. وكذا مع المواد التي هي أكثر إستخداما من قبلها مثل الشاي والقهوة، حيث وضعت هذه المواد على الطاولة في المطبخ، لكن هذا ليس كل شيء، إذ عليها مراجعة الأطباء، وشراء الحاجات، والتجول قليلا كرياضة، ومراجعة البنك، أو أية دائرة حكومية عند الحاجة، وبالتالي قام الأشخاص القائمون على مساعدة ذوي الإحتياجات الخاصة بالبحث عن امرأة تجيد العربية والألمانية لتعيينها كمساعدة لها، وتكون مسؤولة عن تسهيل أمورها اليومية أمام دائرة المساعدات الإجتماعية. وهذا ما تم، إذ تم تعيين امرأة عراقية مساعدة

لها. وتم تبليغها من قبل الباحثة الإجتماعية بأن امرأة عراقية مثلها ستكون مساعدة لها في كل شؤونها، ويمكن أن تعيش معها إذا لزم الأمر، لاسيما وأن الشقة هي لشخصين، وأنه لا يحق لها قانونا أن تعيش بشقة كبيرة بالنسبة لشخص واحد مثل هذه، وبالتالي، فما دام هناك غرفة أخرى من غير غرفة نومها، فبإمكان المساعدة لها أن تنام في هذه الشقة أيضا.

تلك الليلة لم تستطع حواء المؤمن أن تستلقي في فراشها. ظلت جالسة على الصوفا في الردهة. لم يكن يربطها بالعالم سوى الأصوات. كانت قد بدأت تفك شيفرة الأصوات، وتعرف مصدرها، وتتعرف على أصحابها. ففي منتصف الليل، تسمع صوت وقع أقدام حذاء نسوي يصعد السلم، ويقترب شيئا فشيئا، إلى أن يصل إلى الطابق الذي تعيش فيه، يتوقف قليلا، بعدها تسمع قلقلة المفاتيح التي تفتح قفل الباب المقابل لشقتها، فتعرف أن هذه هي جارتها التي تسكن في الشقة المقابلة. بل بدأت تحدد الوقت، وذلك من خلال المرأة المساعدة التي كانت تقول لها بأن الساعة الآن هي السابعة مساءً، وبالتالي فأن أي شيء يحدث بعد ذلك فهو يحدث في المساء أو الليل، وإذا ما حصل قبل مجيئها بقليل أو أثناء تواجدها فهذا يعني أن الوقت هو النهار. لذا فأنها تعرف بأن الوقت متأخر جداً. لأن جارتها قد وصلت قبل فترة طويلة. وكانت قد اعتادت أن تنام بعد فترة قصيرة من وصول الجارة. لكن الجارة قد وصلت منذ فترة طويلة. بدأت تفكر بقلق، بينما هي كفت عن التفكير منذ أن كانت في المستشفى. إنها لا تريد أن تفكر بأي شيء نهائيا. تدع الأيام تمضي بنفس الإيقاع، والتفاصيل.

تنهض صباحا، وغالباً، على صوت الباب وهو يُفتح من قبل المساعدة. تنهض بهدوء. تتوجه إلى غرفة الحمام الملحقة بغرفة النوم، تقضي حاجتها، وتغسل وجهها، وتخرج إلى الصالة، فتعرف من صوت الماء في الغلاية الكهربائية بأن المساعدة تعد لها الفطور. تذهب إلى الصالة بخطوات حذرة، مستخدمة العصا الرفيعة الطويلة، فتقبل المساعدة عليها وتلقي عليها التحية وتأخذها من يدها لتجلسها على الصوفا، ثم تحمل إليها الصينية الصغيرة التي فيها كوب الشاي، وقطع الخبز وعلبة الشكولاتة أو الجبن، فتبدأ هي بالمحاولة لإنجاز كل شيء بنفسها، إذ نادرا ما كانت المساعدة تتدخل بشكل مباشر.

لكنها الآن بدأت تفكر بالرغم من إرادتها. أول فكرة طرأت على ذهنها، أن المساعدة الجديدة عراقية وهذا يعطي احتمالاً، أن تعرفها. لكن هذا الأمر صار لا يعنيها، فماذا لوعرفتها؟ لكن من أين لها أن تعرفها؟ جيد أنها سوف تستطيع أن تتحدث معها بلغتها

ولسانها أو تسمع كلاما بلغتها، فهي لم تسمع حديثا باللغة العربية منذ يوم الحادث.

ظلت حواء جالسة في مكانها كأنها تمثال حجري لكنه يتنفس. كل شيء كان يدور داخل جمجمتها. كانت الأشياء تمر على شاشة الذاكرة كفيلم سينمائي، وكانت تشعر أنها موجودة لكن في اللامكان. إنها موجودة في الزمن فقط، فقد انتفى المكان بالنسبة لها ما دامت لا تراه بالرغم من أنها موجودة فيه.

فجأة سمعت أصواتاً تتحدث بهمس، أصواتاً مختلطة، تأتي من جهة الشارع، أصواتاً يتداخل الحوار فيها، أصواتاً تتحدث بلغة ألمانية، وأخرى بلغات لم تستطع أن تتيقن منها، لكن بينها صوتاً يتحدث بلهجة لبنانية، وأصوات نساء. مَن تراهم هؤلاء؟ ظلت الأصوات تخفت شيئا فشيئا، إلى أن هيمن الصمت، لكنها سمعت صوت إحدى الراهبتين تتحدث، ويبدو أنها تتحدث لهذا الجمع الذي علت جلبة أصواته. سمعت صوتاً، فميزته مباشرة، إنه صوت الراهبة المسنة:

– إسمعوني.. سنكون في ضيافتكم، وسنصلي من أجل أن تهدأ أرواحكم المضطربة.

– نريد أن نتجول قليلا في الشوارع الفارغة، نزور أهلنا النائمين الآن، نعود قبل طلوع الفجر.

– ولكنكم سترعبون أهاليكم.

– لن نتحدث معهم. ننظر إليهم فقط ونعود.

وجرت ضوضاء، وحركة دفع لحجارة، وطقطقة عظام، وصوت الراهبة الشابة هذه المرة وهي تخاطب مجموعة ما:

– وأنتم لماذا بقيتم؟

– لقد تهدم بيتنا وبنوا مكانه متجرا، وانتقلت عائلتي إلى مدينة أخرى. قال صوت ما

– وأنا ليس لي أحد. انتقلت عائلتي إلى مدينة أخرى بعد رحيلي، وهم الآن رحلوا أيضا، لكنهم في مدينة أخرى. قال صوت آخر.

– ونحن ليس لدينا أحد في هذه المدينة. جئنا إلى هنا بالصدفة. أنا ورفيقتي. قال صوت ثالث.

كانت حواء المؤمن تسمع هذا الكلام بوضوح شديد ولم تفهم ما يجري. لكن سألت نفسها عن علاقة الراهبتين بهذه الجموع الغفيرة، وإلى أين هم يذهبون؟. ظلت حواء المؤمن جالسة على سريرها دون أيما حركة. كانت مثل الرادار الذي يلتقط الأصوات. ظلت تستمع لرواح ومجيء الأصوات التي كانت تأتيها من النافذة.

لا تدري حواء كيف جاءها النوم، إذ استيقظت على حركة في الصالة وصوت أقدام

لأكثر من شـخص، بينما كانت هي قد مالت بجذعها الأعلى على جانب السـرير، أي أنها نامت وهي في جلستها، ولـم يتغير من الأمر سوى أنها مالت بجسدها على السرير.

شـعرت هناك من يتنفس في الغرفة. أحسـت بوجود شـخص ما، بعدها بلحظات سـمعت الباحثـة الإجتماعيـة تتحـدث مـع شـخص آخر لكن الصوت يأتـي من الصالة. خمنت أن الباحثة الإجتماعية أطلت عليها في الغرفة ثم انسحبت لتتحدث مع شخص آخر، ربما هي المساعدة العراقية الجديدة.

قامت من سـريرها. وتوجهت إلى الصالة. اسـتقبلتها الباحثة الإجتماعية بالترحاب، وقامت بتقديم المساعدة الجديدة لها وهي تقول:

– هذه هي السيدة شيرين، وهي عراقية مثلك، وتتحدث لغتك، وستكون من اليوم معك مساعدة في كل شيء.

– أهلا وسهلا

وسـمعت المسـاعدة الجديدة تقول لها بالعربية وباللهجة العراقية، وهي تأخذ يدها بكف وتصافحها بالكف الأخرى:

– أنا اسمي شيرين. أنا كوردية من العراق. أتكلم العربية أيضا، كما ترين. وسأكون معك مثل أخت لك، وإن شاء الله سأكون عوناً لك.

– شكرا.

قالت المساعدة بالألمانية لحواء المؤمن:

– السيدة شيرين ستكون معك. وهي من اليوم بدأت عملها. وأنا شخصيا سأترككما. ويمكنكما الإتصال بي في أي وقت، وأنتما تعرفان مكاني.

وقبل أن تغادر سألتها حواء المؤمن، بهدوء، ودونما انفعال:

– ماذا فعلتم بالجثث الأخرى؟

تأثرت الباحثة الألمانية من سؤالها، وقالت لها بطيبة واضحة:

– لا تقلقي، لقد تم دفنهم على الطريقة الإسلامية. لاسيما وان أحدهم كان محترقا. لقد اسـتدعينا أحد شـيوخ المسـاجد الأتراك، وقيل لنا إن هناك جمعية عربية في (زونن آليا) فذهبنا إليهم وجئنا بشـيخ عربي قام بمراسـيم الدفن، وتم دفنهم في مقبرة الأتراك القريبة من هنا.

ظلت حواء صامتة ولـم تعلق على ما قالت الباحثة الإجتماعية التي انتظرت للحظات لتسمع تعليقها على ما قالت، ولما تسمع شيئا غادرت المكان دون أن تعرف أرضيت حـواء بمـا قامـوا بـه أم لا؟ حتـى شـيرين كانت تنتظر أي تعليـق من حواء المؤمن، ولما

غادرت الباحثة الإجتماعية سألتها:

– لم تعلقي على كلام الباحثة بصدد مراسيم الدفن.

– ليس لدي ما أقول بهذا الشأن، خيرا فعلوا حينما دفنوهما. على الأقل المقابر هنا أنظف من المقابر في بلداننا. بالمناسبة، أنت من أين من العراق؟

– هل نجلس أولا، وسأحكي لك كل شيء عني. هل تريدين أن أعد لك الفطور؟

– سأعد الفطور معك. أنا أضع الماء في الإبريق الكهربائي وعليك الباقي. ياه.. كأن حملا ثقيلا إنزاح عني. وأخيرا استطيع أن أتكلم بالعربية.

ومضتا إلى المطبخ. كانت حواء المؤمن تعرف أين مكان الإبريق الكهربائي، فأخذته مباشرة وملأته بالماء ووضعته على قاعدته وضغطت على الزر، بينما قامت شيرين بفتح الثلاجة وإخراج ما فيها من جبن ومربى، وعلبة الشكولاتة التي كان آدم اللبناني يحبها كثيرا.

شربتا الشاي، وفطرت شيرين معها للمجاملة، بينما اكتفت حواء المؤمن بقطعة صغيرة من الجبن لفتها بقطعة صغيرة من الخبز. كانت حواء مرتبكة، فهي غير متعودة أن تأكل بينما ثمة من ينظر إليها، لذلك ألحت على شيرين أن تأكل معها، فكانت تلتقم أشياء صغيرة جدا، كي ترضي حواء، لكنها شربت معها الشاي لمرات عدة. كانت حواء مرتبكة، ولكي تزيل عنها الإرتباك، بدأت شيرين تتحدث عن نفسها، فقالت بنبرة سلسلة ومرحة قليلاً:

– أنا إسمي شيرين. كوردية من قرية قريبة من مدينة سيد صادق. لدي أخ اسمه هيمن، تم اعتقاله وسجنه في أبي غريب، لأنه شيوعي. وقد سمعنا أنه أعدم. ولدي أخ اسمه كاوا كان بيشمركة واستشهد. وكنت أنا مخطوبة، إلا ان الجيش حرق قريتنا، وقتل أبقارنا وجيادنا، وكل الذكور في قريتنا. أمي هربت بي إلى قرية اسمها كاني سكان، وأبقتني عند أقرباء لنا، وذهبت هي لزيارة أخي هيمن في أبي غريب. ذهبت ولم تعد. كان علي الإنتظار في القرية للصعود إلى الجبل والذهاب إلى خطيبي. لكن في الليلة التي جاء فيها البيشمركة إلى القرية لأخذي معهم، أبلغ مختار القرية، الذي كان يتعاون مع الحكومة سرا ضد البشمركة، فهجم الجيش على القرية، ومات من مات، بمن فيهم المختار نفسه. إعتقلوني، وأخذوني إلى المعسكر المجاور، ومن هناك أرسلوني إلى معسكرات أخرى. وفي كل معسكر أصله كنت أتعرض للإهانة والسب والشتم والإغتصاب، إلى أن جاء البيشمركة وأحاطوا بالسيارة التي تنقلني وخلصوني، لكني أشفق على

جنـدي اسـمه عبدالله آدم، الـذي كان طيبـا جدا معـي، وكان يريد أن يذهب مع البيشمركة، لكن السائق أطلق النار عليه قبل أن يتمكن البيشمركة من قتل السائق. وهناك عرفت أن خطيبي قد قتل، لكني بقيت معهم، وتزوجت أحد البيشمركة. وكان بيننـا الكثيـر مـن الأنصـار البيشـمركة الشـيوعيين، وكان بينهـم الكثيـر من النساء، ومنهن تعلمت اللغة العربية. لقد عشنا أكثر من ثماني سنوات معا. إلى أن قـرر زوجـي مغـادرة الجبـل، فنزحنا إلى سـوريا، وأخيـرا وصلنا إلى إلى هنا. ربما ستسألينني عن عائلتي. لم يبق لي أحد من عائلتي. وأما قصتي مع زوجي فسأحكيها لك لاحقاً. عندي ابن وحيد عمره الآن ست عشرة سنة. رجل ما شاء الله. وقصتي معه قصة طويلة أيضا. سأحكيها لك في ما بعد. والآن حدثيني عن نفسـك. مـا هـي قصتـك أنـت؟. كيف حصل لك ما حصـل؟ لقد حدثوني عنك بشكل سريع وليس بالتفاصيل. ما أن رأيتك حتى أحسست بأنك قريبة من نفسي، وكم تألمت لهذا الجمال السـاحر أن يكون بهذا الوضع، لكن اعتبريني أختك، لا تعتبريني مساعدتك، أو موظفة عند الحكومة، تؤدي ساعات عملها وتذهب، اعتبريني أختك وافتحي قلبك لي.

كانت حواء المؤمن تستمع إلى شيرين بهدوء، وتنتبه إلى منعطفات النبر في صوتها، لذا حللت مع نفسـها كل ما صدر عنها خلال لحظات سـريعة، فقد بدأت بنبرة مرحة، لكـن صوتهـا تلـون فـي مـا بعـد بالألـم، ويبـدو أنها عبرت سـريعا كل ما جـرى لها في المعسكرات، وتلون صوتها بالحنان والطيبة حين تحدثت عن الفتيات اللاتي كن معها فـي الجبـل، لكـن المـرارة غلفت صوتها حينمـا تحدثت عن زوجها، وكذلك كان الألم والفرح يمتزجان معا حينما تحدثت عن ابنها. وكان صوتها صادقا وحنونا حينما سألتني عن وضعي، وعن اسـتعدادها أن تكون لي كالأخت. يبدو أنها إنسـانة طيبة. لكن ماذا أحدثها عن نفسـي؟ هل أحدثها عن كل شـيء أم عن الذي حصل لي هنا في برلين؟ ولكن ماذا لو سـألتني عن أصلي وفصلي في العراق؟ لا، هي كما يبدو ليسـت خبيثة. حتى لو حدثتها عن كل شيء فستتفهم ذلك، لأنها نفسها قد مرت بطريق صعب جدا، جدا. على أية حال، لدينا الوقت الكافي للحديث.

فجـأة تذكـرت مـا سـمعته فجـراً مـن أحاديث جاءت من الشـارع عبـر نافذة الردهة المطلة عليه. فسألت:

– هل يمكنك أن تطلي من النافذة لتنظري إلى الشارع وتصفي لي الجهة المقابلة منـه؟ فأنـا لـم أتمكـن مـن التعرف إلى المنطقة، فلم أخرج من البيت إلا للطبيب

أو إلـى المطعـم، ويـوم الحـادث، ولـم أتمكـن فعلاً أن أعرف مـاذا يوجد مقابل الشقة على الجهة الأخرى

– إستغربت شيرين من طلبها، وانتقالها المفاجئ لموضوع ليس له علاقة بحديثهما. قامت ونظرت وهي تقول:

– لا يوجد شيء محدد. ماذا تريدين أن أصف لك؟

– كل شيء. ماذا يوجد في المقابل، بيوت، محلات، مطعم، فندق، ماذا يوجد؟

– لا شيء.. ثمة مقبرة كبيرة تمتد لأكثر من مائة متر عرضاً.

– مقبرة؟

– نعـم مقبـرة. وكذلـك ثمة أشـجار كثيفة تكاد تغطي السـياج فـلا نرى كل القبور. كما توجد ما يشـبه الغرفة ذات قبة ما، ربما هي مكان للصلاة أو لغسـل الميت أو شيء من هذا القبيل.

– هل نهاية سياج المقبرة أمامنا أم وسطه؟

– نحن في الوسـط تقريباً. نبعد عن صف البيوت بحوالي عشـرين مترا من اليسـار وأكثر بكثير من ناحية اليمين. لكن لماذا تسألين؟

ظلـت حـواء المؤمـن صامتـة. عادت شـيرين فجلسـت بالقرب منها. نظـرت إليها. اسـتغربت أنها عمياء، إذ لا يبدو على حواء أي ملمح إلى أنها فاقدة للبصر. ملامحها الجميلـة والمثيـرة، وأنوثتهـا الطاغيـة، وعيناها اللتان ترمشـان بشـكل طبيعـي، ونظراتها التلقائية، وليست الجامدة كما العميان الآخرون، بحيث من الصعب على الذي لا يعرف أنها عمياء أن يظنها كذلك. أرادت شـيرين أن تعرف الغاية من سـؤالها عمّا يوجد على الجهة المقابلة للمبنى، فسألتها بشكل عفوي:

– لماذا أردت أن تعرفي ماذا يوجد على الجهة المقابلة، هل حدث شيء ما؟

صمتت حواء للحظات، ثم قالت:

– لا أدري إذا ما قلت لك ماذا رأيت أو أرى، هل تصدقينني أو لا؟ زوجي لم يكن يصدقني، بالرغم من أني قدمت له الدليل على صحة ما أرى لكن الآن لم أعد أرى، الآن أسمع، وليلة البارحة، أو الصح فجر هذا اليوم سمعت أشياء غريبة

– قولي، فربما سأصدقك

صمتت حواء المؤمن، نظرت ناحية شيرين، وكانت تبدو للناظر إليها وكأنها تراها، بـل هـذا الإحسـاس راود شـيرين فـي تلـك اللحظة، لكن حواء المؤمـن كانت تنظر في اللامكان، ليس أمامها سوى شريط ذكرياتها التي تضيء في ذاكرتها. قالت:

– منذ أن كنت في مدينتي الأولى في غرب ألمانيا، مررت بحالة عصبية فأقدمت على الإنتحار.
– ماذا؟
– نعم، حاولت الإنتحار في حالة يأس. عندما نقلوني إلى المستشفى، رأيت زوجي الدكتور آدم التائه مسجى في إحدى غرف العناية المركزة.
– هل زوجك دكتور؟
– ليس هذا الذي مات في الحادث، زوجي العراقي.
– أكان لديك زوج آخر، وعراقي أيضا؟
– إذا كنت ستسألينني على كل كلمة فلن أستطيع أن أتحدث.
– لا.لا. اكملي.
– في المستشفى رأيت راهبتين ألمانيتين، واحدة شابة وأخرى كبيرة في العمر. وكنت، حينما أراهما تأتيني قدرة عجيبة على التحدث والتفاهم معهما بالألمانية. وكانتا تحنوان علي جداً. لكني حينما زارني زوجي الثاني آدم اللبناني.
– زوجك الثاني آدم اللبناني؟ أكنت متزوجة الأثنين في وقت واحد؟
– كيف أشرح لك؟ كنت متزوجة من الأول لكني كنت على علاقة مع الثاني، وحينما رآني زوجي الأول معه طلقني. فانتحرت. المهم. لا تسأليني كثيرا.. في اليوم الثاني أخبرت آدم اللبناني، الذي صار زوجي لاحقاً، فاستفسر من الإدارة التي قالت له بأنه لا توجد راهبات في المستشفى وليس فيها قسم للعناية المركزة. بعد ذلك، انتقلت إلى أيسن، إلى مدينة أخرى، فرأيتهما في المحطة وكذلك حينما انتقلت إلى برلين رأيتهما في المحطة، لكنهما جاءتا إلي هنا، في هذه الشقة.
– يا ربي. قالت شيرين خائفة.
– كنت حينها حاملا. ولم أكن أعرف ماذا كان ينتظرني، ففي اليوم الذي ذهبت فيه إلى الطبيبة النسائية، لا أدري ماذا أخبرت زوجي، إذ أرسلتنا إلى مستشفى تحليلي آخر. المهم، جاءتا إلي وقالتا لي بأني حامل بطفل مشوه، وسيطلبون مني أن أسقطه عن طريق الطلق الإصطناعي. وحينما فاتحت زوجي بما سمعته منهن، إعترف لي ولجارنا قابيل، صديقه، بأن الطبيبة قالت له نفس الأشياء، وحينما سألني عن مصدر معرفتي بكل هذه التفاصيل قلت له من الراهبتين، فلم يصدقني. لم يصدقني أحد. وحينما انقلبت سيارتنا ووقعنا من فوق الجسر، رأيتهما فوق رأسي وأنا جريحة. وحينما أجهضت وسقط الجنين، كانتا معي في

غرفة المستشفى، وهما أخبرتاني بكل التفاصيل عن موت زوجي وصديقه. وليلة البارحة، سمعة ضجة أصوات تأتي من الجهة المقابلة، وسمعتهما تتحدثا إلى آخرين، كانت الأصوات تأتي من الجهة المقابلة.

– بدأت أخاف منك.

– أتخافين مني؟

– لا أقصدك أنت، إنما أخاف من الذين تتحدثين عنهم؟ كيف ترين أرواحاً ولا تخافين؟

– لو رأيتهما لما خفت منهما أبداً، فإحداهما رائعة الجمال، والأخرى، الأكبر سناً، كأنها أم، تتحدث بكل محبة وأمان وحنان. كنت أخاف أول الأمر، لكني صرت على العكس أحسهما وكأنهما حارستاي الأمينتان.

– هل يزورانك في في البيت؟

– لا. لقد قامتا بذلك مرة واحدة، حينما كنت حاملاً. وقد جاءتا لهذا السبب، كما قالتا لي. لكني الآن لستُ حاملاً، لذا فأنهما ذهبتا عني. ليتهما تعيشان معي هنا.

– بدأت أخاف منك أختي حواء. الذي تقولينه يجعلني أخاف منك، ومن التواجد معك في هذه الشقة، أخاف أن أعيش بين الأرواح والأشباح.

– الحياة نفسها مليئة بالأشباح، والأسوأ من الأشباح. إنها مخيفة. نعم، الحياة مخيفة. هناك بشر يخيفون أكثر بكثير من الأشباح والأرواح. أنا الآن أعيش في عالمي الخاص. لقد قطعت كل رابطة لي بالحياة. أتدرين يا شيرين، لقد كنت أحلم طوال حياتي بأن يكون لي طفل. ولا أدري لماذا كُتب علي بأن أتزوج من رجل رائع، مثقف، مهذب، لكنه لا يستطيع أن يكون أباً. وحينما انزلقت، ولهثت وراء شهوتي، وأقمت علاقة مع جارنا آدم اللبناني، حملت منه، ولأني لم أشأ أن يكون لي ابن زنا، قررت أن أنفصل من زوجي الدكتور آدم التائه. هل تدرين أنه كان يؤلف الكتب والروايات، وقد كتب رواية اسمها(متاهة آدم– أو المرأة المجهولة).

– أنا سمعت أيضا بأن هناك من كتب عن حياتي واعتقالي وما جرى لي في المعسكرات رواية. قاطعتها شيرين.

– خيبتي كانت كبيرة. دمرت حياتي بنفسي. ركضت لاهثة بشبق وراء متعتي، فدمرت حياة رجل لم يسئ إلي قط، ولا أعرف ما جرى له. سمعت أنه أصيب بجلطة قلبية، لكنه نجا منها. المهم. ما الذي جنيته. مشكلتي أني ضعيفة أمام

شهوتي. أنا لا أشبع من الجنس. ومع أني أصلي، وأتحجب، لكني أنهار حينما يمسني رجل من أي منطقة حساسة تثيرني. لكن عقوبة السماء كانت قوية، فحملت بطفل مشوه. طفل مسخ. صحيح أني لم أره، لكن الراهبتين قالتا لي ذلك. وكذلك زوجي الثاني آدم اللبناني الذي أخبرته الطبيبة بذلك، ثم في المستشفى بعد الحادث وإجهاضي للجنين، أخبروني بأنه كان مشوهاً. أنا أعتبرها عقوبة من السماء. حتى هذا الذي جرى لي الآن، هو عقوبة من السماء. عيناي لم تتضررا أبداً، وكل جهازي البصري سليم، لكني بالرغم من ذلك لا أستطيع الرؤية. حارَ الأطباء في حل هذا اللغز. لكني أنا شخصيا أعرف الجواب: إنها عقوبة إلهيّة فما معنى حياتي الآن؟ شخصيا لست سعيدة، لكني أيضا لستُ تعيسة. لقد عشت حياتي كلها شبه صامتة، أحيانا كانت تمر أيام لا أتحدث فيها أية كلمة. كنت أقوم بكل أعمالي المنزلية صامتة. أحيانا أسأل نفسي: هل سكنتني الشياطين؟ ولا أجد الجواب. الشهوة تعمي بصيرتي. جسدي يسخن وكأنني مصابة بالحمى. لكن ما أن يمسني الرجل، أي رجل، حتى ينفجر جسدي بشبق.

– لكنك كنت متزوجة، فلماذا دخلت في علاقة غرامية أخرى، ألم يكن زوجك يرضيك؟

– لا، كان والحق يقال، رجلا محترما، ووسيما، ولديه خبرة في الجنس والمعاشرة، ولم يكن ضعيفا أبداً، بل كان يمتعني جداً. ثم هل تعتقدين أن النساء الخائنات اللاتي يبحثن عن الشهوة في الخارج هن متعطشات للجنس؟ أحيانا ليس الأمر كذلك. أحيانا يبدأ من رغبة في التغيير لا أكثر، لكنه يتحول إلى عادة. أحيانا المشكلة في طبيعة الجسد. أنا شخصيا، في أي مكان أو زمان، إذا مسني رجل في مواضع محددة من جسدي فأني أشتعل، وتتأجج شهوتي. هل تعتقدين أني كنت موافقة على علاقتي بجارنا اللبناني؟

– إذن كيف صرت زوجته؟

– بدأ الأمر كنزوة. إنه يشبه أول حبيب لي عندما كنت مراهقة، لكن جرأته أعجبتني. وذات مرة سحبني من يدي إلى شقته التي كانت مقابل شقتنا، وحصرني عند الباب، ومد يده إلى منطقة الشهوة في جسدي فشعرت بالإنهيار. لكنه بدأ بالإغتصاب، بيد أني كنت أريد منه أن يغتصبني لأني لا أستطيع أن أمنحه نفسي طائعة. واخترقني. بعدها كنت أشعر بالغضب منه ومن نفسي، وكنت أقرر مع نفسي أن لا ألتقيه، لكني في نفس الوقت كنت أحوم حوله،

وما أن يمد يده على جسـدي حتى أغفر له كل شـيء، وأتناسـى كل ما وضعته لنفسي من موانع. لذا كنت أهرب منه إليه. وهكذا حينما طلقني زوجي، هرعت إليه، وقد تزوجني هو من أجل الحصول على الإقامة، وقد حصل عليها. لكن كم سـاذج هو الإنسـان. يضع لنفسـه الخطط الطويلة، ويرسـم لوحات ولوحات للمستقبل، ولكن خلال دقائق ينتهي كل شيء. كل شيء. وها أنا الآن أنظر في المرآة فلا أرى نفسي.

أحسـت شـيرين بالتعاطـف الإنسـاني والأنثـوي معها، لاسـيما فـي بعض لحظات وصفها لحالها، أحسـت وكأنها تتحدث عنها أيضا. لا سـيما في الحديث عن زواجها الثانـي. أحسـت بمـرارة الخيبـة مثلهـا، والشـعور العميـق، الداخلي، غيـر المعترف به، بالهزيمـة والإنسـحاق والتفاهـة، والمكابـرة علـى مواصلة الحياة، لكن سـاورها بعض الشـك فـي وضعهـا النفسـي، فمـا معنـى هـذا الحديث عـن الراهبتين، ورؤيتهـا لهما، وزيارتهمـا لهـا. وهـذا الحديـث عن الموتى الذين نهضوا من المقبرة المقابلة. هل هي مجنونة؟ لا يبدو عليها ذلك. هل ستخبر الباحثة الإجتماعية عن هذا الأمر؟ لا. لماذا تخبرهـا، فهـذا الأمـر يخـص حـواء وحدها، فربما هو وليد العمـى الذي هي فيه لكنها قالت إن ذلك حدث سابقا أيضا، قبل أن تصاب بفقدان البصر؛ ربما هذا هو شيء من العزاء بالنسـبة لها لكني أخاف الأرواح. هل سـأواصل معها أم أرفض؟ لأنتظر بعض الوقت وأقرر بعدها.

كانت حواء المؤمن صامتة، وكأنها تعرف أن شيرين تتحدث مع نفسها، وأنها خائفة مـن حديثهـا عـن الراهبتيـن. هل فعلت الصواب حينمـا حدثتها عن الراهبتين؟ فربما لم تصدقها، وربما اعتبرتها مجنونة، أو مريضة نفسيا تصنع لنفسها عالماً خاصاً بها، عالماً وهميا، وتفرضه على واقعها بإعتباره حقيقة واقعة، بل وربما نظرت إليها باعتبارها إمرأة سيّئة خانت زوجها وكانت تلهث وراء شهوتها لكن هذه هي الحقيقة، وربما هي عاشت مثلها أيضا لكنها لم تكشف عن ذلك بعد. لتنتظر. كلتاهما قررت أن تنظر إلى الأخرى لترى ما ستكشف عنه الأيام القادمة.

فجأة سمعتا رنين جرس الباب. نهضت شيرين واتجهت لتفتح الباب. ظلت حواء المؤمن جالسة. سمعت صوتا نسويا يلقي التحية:

– نهارك سعيد

– نهارك سعيد

– أنا إيفا أومسك. جارتك التي تعيش في الشقة المقابلة.

– أهلا وسهلا. لكني لست صاحبة الشقة، إنها في الداخل تفضلي.
– عفواً. أنا لم ألتقِ جارتي من قبل، لذا ظننتك أنتِ، عفوا.

أحست حواء المؤمن بحضور جارتها من خلال وقع الأقدام، ومن خلال تنفسها، فهي تسمع أنفاس الآخرين أيضا حتى وأن لم يتكلموا أو يأتوا بحركة، كما شمّت عطرها الطيب. فوجئت إيفا أومسك بالحضور الأنثوي الجميل لحواء المؤمن. تقدمت منها ومدت يدها مصافحة، فلاحظت أن حواء لم تستجب مباشرة، ونظرت إلى شيرين التي اشارت بإصبعها إلى عينيها دلالة على أنها عمياء، فارتسم الحزن على وجه إيفا أومسك مباشرة، وانحنتْ لتأخذ يدها بنفسها مباشرة، وهي تقدم نفسها:

– نهارك سعيد. أنا جارتك إيفا أومسك، من روسيا.

إبتسمت حواء المؤمن إبتسامة حزينة لكنها طيبة ومليئة بالصداقة، وقالت:

– وأنا حواء المؤمن. أهلا وسهلاً. أنا أسمعك وأنت تصعدين ليلاً، حتى صرت أعرفك من وقع خطواتك. أهلا وسهلا بك. أعذريني على وضعي فأنت تشاهدين ذلك بنفسك.

أحست إيفا أومسك بدفق من الحنان والمودة تجاهها مباشرة، وانحنت عليها لتقبل رأسها وتقول:

– لا عليك. أنت تبصرين بعين قلبك. وهذا أفضل بكثير من الذين يرون بعيونهم لكن قلوبهم عمياء. أنا سعيدة بالتعرف عليك، واعتبريني صديقة لك إذا تكرمت بذلك. وشقتي مقابلة لشقتك. وأنا كما تعرفين أرجع في وقت متأخر، لذا فلا تتحرجي من الدق على بابي في أية لحظة تشائين.

شعرت حواء المؤمن بسعادة حينما غمرتها هذه المرأة وقبلها شيرين بهذا الدفق من الحنان والمودة، فقالت وعلى شفتيها إبتسامة رقيقة:

– أنا لن أتكرم بمنح الصداقة الحقيقة للآخرين، وإنما الصداقة هي تكريم إلهي، نادر. إنها نعمة إلهية، هبة من السماء، يكرمنا الله بها، بإرسال صديق لنا. تشرفني صداقتك. أهلا وسهلا.

كانت شيرين تنظر هذا المشهد، لكنها كانت في ذهول من تجاوب حواء المؤمن وكلامها، كانت كمن يكتشف ما وراء الستارة. أحست أن في شخصية حواء المؤمن شيئاً من القداسة، لكنها أيضا أحست بشيء من الغيرة الخفية للحفاوة التي منحتها حواء لجارتها. نظرت إيفا أومسك إلى شيرين وسألت:

– وأنت؟ هل أنت قريبتها؟

– أنا مساعدتها.
– أهلا وسهلا.
– أنا جئت لأطلب شيئاً من الملح. فقد نفد ما عندي، وقد سلقت البيض، لكني أفتقد الملح. وليس لدي الرغبة في أن أنزل إلى المحل، فقلت أسألكم شيئا من الملح.
– غالي والطلب رخيص (قالتها لإيفا أومسك باللهجة العراقية وهما تتجهان إلى المطبخ).
– ما هذا وبأي لغة؟
– هذا بالعربية، ومعناها أنت غالية جداً علينا وما تطلبينه رخيص أمامك.
– شكرا شكرا.. لدينا بالروسية أمثال مشابهة.
أعطتها شيرين شيئا من الملح في ورقة صغيرة من المناشف الورقية. عادتا إلى الصالة. إلتفت إيفا أومسك إلى حواء المؤمن وهي تودعها برقة:
– تشرفت بمعرفتك. واعتبريني صديقة لك. وأرجوك أن تلغي الرسميات بيننا.
– أهلا وسهلا بك. لكن كما ترين أنا لا أستطيع التحرك بحرية.. يمكنك المجيء في أي وقت، فأنا أسهر الليل كله تقريبا.
– إتفقنا. نهاركما سعيد.
– نهارك سعيد.
خرجت الجارة الروسية. بقيتا وحدهما. أحست حواء المؤمن برغبة في معرفة جارتها أكثر فسألت شيرين:
– كيف هو شكل جارتنا هذه، هل يمكنك ان تصفيها لي؟
– إنها جميلة. شقراء. طويلة القامة. نحيلة لكن بجسم متناسق. تبدو حزينة بالرغم من أنها تسعى أن تكون لطيفة. التعب واضح على ملامحها. لا أعرف ماذا أصف لك أيضا؟ ملابس فيها شيء غير محتشم.
– ماذا تقصدين؟
– أقصد أنها كانت ببجامتها الضيقة التي تبرز تفاصيل جسمها من الأسفل، وترتدي بلوزة مفتوحة الأزرار تكشف عن مرتفعات نهديها.
– وماذا في ذلك؟ إنها في بيتها، عساها تمشي عارية.
– هذا صحيح، لكن ماذا لو كان يعيش رجل هنا بدلاً عنك؟ أليس هذا اللبس مثيراً ومغرياً ويعطي تفسيرات عديدة حينها؟

– ربما.. على أية حال، يبدو أنها إنسانة طيبة.
– نعم.. يبدو أنها طيبة. بالمناسبة، هل تحتاجين لشيء ما أستطيع أن أشتريه لك؟
– لا أدري. انظري بنفسك في المطبخ وحددي الأشياء التي نحتاجها. جبن، زيت، بيض، زيتون، سكر، مربى، شاي، خبز، حليب، أوراق الكلينكس، أوراق للحمام، مواد لغسيل الصحون.. لا أعرف أي شيء تقررينه أنت.
– طيب. سأشتري هذه الأشياء، وبعدها نتحاسب. سأرى بنفسي ما تحتاجينه وأنزل لشرائه من المحل في الأسفل.
– طيب.

توجهت شيرين إلى المطبخ. أحست حواءالمؤمن أن شيرين تفتح الثلاجة وتفتش في المطبخ عما تحتاجه هي. وبعد لحظات، سمعت الباب يفتح ثم يغلق، ففهمت أن شيرين قد خرجت.

آدم البغدادي: لماذا أضفي على حواء هذه الهالة من الرقة والقداسة، بينما أنا أنوي أن أقودها إلى أعماق المتاهة؟ إلى القاع الذي لا فكاك منه إلا بالخروج من هذه الحياة؟ هل ستتمرد على مخططي الروائي أيضا؟ لنرَ. الرواية التي تتحدث عنها شيرين والتي تعتقد أنها كُتبت عنها، أعرفها، قرأتها، إنها رواية الجحيم المقدس للشاعر الروائي برهان شاوي. لقد أثارتني شخصيتها الصامتة في تلك الرواية، فهي لا تتحدث أية جملة طوال الرواية، بل حتى حينما كانت تُغتصب كانت لا تتحدث، لذلك أنا انتشلتها من هناك. أخذت أمتداداتها هنا في روايتي هذه، لأني أريدها أن تتحدث، أن تصرخ وتقول للعالم ما جرى لها، بالرغم من أني أريدها أن تركز على حياتها بعد زواجها الثاني ومجيئها إلى ألمانيا، أريدها أن تتحدث عن متاهتها أيضا. كلنا ندور في المتاهة، ربما نلتقي في بعض منعطفاتها، لكننا نمشي كل في دربه ومتاهته.

علق آدم المحروم على هامش صديقه الكاتب المغدور؟ لماذا أخذ شخصية شيرين من رواية الجحيم المقدس لبرهان شاوي، ألم يكن بإمكانه أن يخلق شخصية خاصة به، دون أن يسحبها من رواية أخرى، غريب صديقي هذا. لو كان حيا لطلبت منه أن لا يفعل ذلك.

إعـتـرافـات إيفـا أومسـك

حينما غادرت شـيرين مسـاءً أحسـت حواء المؤمن بالوحشـة لأول مرة. ولأول مرة أحست بنفسها تشتاق للحديث مع الآخرين. تمنت لو أن جارتها الروسية إيفا أومسك كانت معها، إذ أحست بها قريبة منها. صحيح أنها أحست بالراحة لشيرين أيضا، لكنها أحسـت بـأن شـيرين لديهـا مـا يكفـي من الأحـزان والآلام التي مرت بهـا، وبالتالي لن تدهشـها وتثيـر شـفقتها وتعاطفهـا كثيـرا، لكـن هل ياتُرى هي تحتـاج للتعاطف من قبل الآخريـن؟ صحيـح أنهـا ظاهريـا لا تريـد ذلـك لكنها في أعماقها تحتـاج إلى التعاطف، ليس الشفقة وإنما التعاطف الذي ينبع من مشاعر الرحمة والطيبة، لأن في الشفقة شيئاً من الإستضعاف لها. وهي لا تريد أن يُنظر لها كضعيفة.

هـي لـم تجـرب التخاطـر الروحي والفكري، لكنها اسـتغربتْ من نفسـها جداً، ففي اللحظات التي كانت هي فيها تفكر بجارتها الروسية إيفا أومسك، سمعت رنين جرس الباب. ظنت مع نفسـها أنها شـيرين، ربما جاءت لتقول شـيئا أو ربما نسـيت شـيئا، أو اشترت شيئا رأته في طريقها وجاءت به قبل أن تذهب إلى بيتها، لكنها فكرت أيضا، بأن شيرين لديها نسخة من المفتاح، وبالتالي يمكنها أن تدخل دون أن تضغط على جرس الباب. نهضت وأخذت العصا الرفيعة التي أعطتها إياها الباحثة الإجتماعية متجهة إلى الباب الخارجية. وقفت قرب الباب من الداخل وسألت بصوت خافت:

– من هناك؟

– أنا إيفا.. إيفا أومسك جارتك.

فتحت حواء المؤمن الباب بسرعة ولهفة، ولم تحس إلا والأخرى تحتضنها وتقبلها، وهمـا تدخـلان. أرادت إيفـا أن تمسـك حـواء المؤمـن مـن يدها لتسـاعدها على إيجاد طريقها، فقالت لها حواء مبتسمة:

– في البيت أعرف طريقي جيداً. شكرا. لقد كنت أفكر فيك قبل لحظات.

– أنـا أيضـا كنـت أفكـر فيـك وقلت لنفسـي، ما دمـتُ لا أخرج الليلـة إلى العمل، فلأزر جارتي الجميلة

– شكرا.. وماذا تعملين، لو لم يكن في ذلك حرج لك؟

صمتـت إيفـا أومسـك قليـلا. نظـرت إلى حواء المؤمن وهي لا تسـتطيع أن تصدق لحـد الآن أنهـا عميـاء، بالرغـم مـن أنها متأكدة، في الوقت نفسـه، مـن ذلك. قالت إيفا وهي تجلس:

– شغل متعب، لكنه على أية حال شغل. أعيش منه.
– ولماذا هو في الليل دائما؟
– ومن أين عرفت أنه في الليل دائما؟
– لقد قلت لك إنني أسمع وقع خطواتك على السلم كل ليلة، ثم أسمعك حينما تفتحين الباب.
– صحيح.. صحيح..
– إذا كان في ذلك حرج..يمكنك ألا تقولي أي شيء.. المهم أنا سعيدة بوجودك معي. أتصدقين، أحسست وكأني أعرفك منذ زمن بعيد؟!
– وأنا أيضا.. لقد فكرت فيك. هل يحرجك لو سألت كيف صرت هكذا؟ أقصد لا تستطيعين البصر. هل ولدت هكذا؟
– لا.. أنا لقد كنت طبيعية مثل بقية الناس، لكني فقدت البصر نتيجة حادث إنقلاب سيارة. يقول الأطباء إنها نتيجة الصدمة..
– هل هذا منذ زمان؟
– لا.. قبل شهرين أو أكثر بقليل.
– يعني أنك كنت تبصرين؟
– نعم.
– وحينما انتقلت إلى هنا كنت تبصرين؟
– نعم.
– وهل رأيتني قبل الحادث؟
– لا.. مع الأسف. كنت أسمعك وأنت تصعدين، لكني لم أفتح الباب أو أنظر من خلال العين الساحرة في الباب إليك.
– خسارة
– لماذا؟
– لكنت على الأقل تعرفينني. ألا ترين الأشياء بذاكرتك؟
– نعم أرى كل شيء عرفته خلال حياتي، وأستطيع تخيل الأشياء التي رأيتها، لكني طبعا لا أستطيع تخيل الوجوه التي لم أرها. لكني سألت شيرين عنك، فوصفَتك لي، وقالت إنك جميلة جداً؟ طويلة، وشقراء، وناحلة نوعا ما، لكن جسمك متناسق جداً وجميل.
– أوه.. شكرا لكما.

– لكن قالت أيضا إنك تبدين متعبة وحزينة. هل هذا صحيح؟
– هل قالت ذلك ايضا؟
– نعم.
صمتت إيفا أومسك للحظات، ثم قالت بنبرة حزينة:
– حياتي يا صديقتي حزينة جداً. الحزن يطوقني من كل الجهات.ماضيّ حزين، وحاضري حزين، ولا أشك أبداً من أن مستقبلي سيكون حزيناً ايضا.
– الحزن أحيانا يصيرنا بشراً. إنه يصقل الروح.
– لكن لا بد لقليل من الفرح في هذه الحياة. من الصعب أن تنظر إلى كل الجهات ولا ترى غير الغيوم المدلهمة السواد، تحيط بك، وتنذرك بالمصير المظلم المرعب. أحيانا، حينما أرجع آخر الليل إلى شقتي تعبة ومليئة بالقرف والإشمئزاز، أجلس وحدي، في سريري، أحس وكأني في لجة دوامة مياه سوداء عميقة، وفي ليل شديد السواد، وعتمة مليئة بالغموض والأسرار، فأشعر بالرعب، برعب حقيقي، وأحياناً أهرب من الشقة وأجري في الشوارع، إلى أن يبدأ الناس بالحركة في الشوارع.
أحسّتْ حواء المؤمن للحظات بالرعب أيضا، فكأن إيفا أومسك كشفتْ عن طبقات خفية من مشاعرها هي، بل وأجبرتها على أن تنظر إلى أعماق نفسها. ولكي تقطع على نفسها مواصلة التفكير، سألت حواء بهدوء وحزن:
– يبدو أنك عانيت كثيرا؟
– عانيتُ وأعاني، وسأعاني كما يبدو.
– كيف؟
– إنها قصة طويلة. سأرويها لك لو شئت، لكنها قصة حزينة ومؤلمة، ومقززة. لكن هل أنت مستعدة لكي تضيفي لأحزانك أحزاناً جديدة؟
– يقال إن المرء حينما يستمع لأحزان الآخرين ينسى أحزانه، أو لنقل إنه يجد فيها بعض المواساة.
– ربما..
– إذا لم ترغبي في الحديث فلا تجبري نفسك على ذلك.
– لا..لا بد أن تعرفيني جيدا إذا أردت أن تكوني صديقتي..
– بدون أن أعرف شيئا أنت صديقتي..
– نعم.. لكن ربما إذا سمعتِ قصتي فلربما سوف ترفضين ذلك

– ماذا تقولين؟
– نعم.. إسمعي إذن.. أنا.. أنا.. أنا التي أمامك.. جارتك إيفا أومسك. التي تقولين عنها إنها صديقتك. هذه التي تعتبرينها صديقتك هي مومس.
– ماذا؟ أنا لا أعرف معنى هذه الكلمة جيداً.
– أنا مومس. يعني أنا أعمل عاهرة في محل للعروض الجنسية والبغاء. أعطي جسدي مقابل المال.
كانت إيفا أومسك تنظر في وجه حواء باحثة عن أي رد فعل يمكن أن يتجسد عليه لما قالته لها. لكن وجه حواء كان جامداً. لم يتأثر بما قالت. بالرغم من أن حواء المؤمن كانت تمور في داخلها بتيارات متصارعة من الإنفعالات والأحاسيس العنيفة، وبالرغم من ذلك، قالت لها بصوت باهت، لا مبالٍ، وحزين:
– وماذا بعد؟
– ألا يشكل لك هذا شيئا، أن أكون أنا مومسا؟
– إذا كانت الدعارة تعني بيع شيء ما منا مقابل ثمن فكلنا نمارس الدعارة بهذا الشكل أو ذاك. إكملي..
وقبل أن تبدأ إيفا أومسك بالحديث عن نفسها، رن جرس الباب. كانت حواء المؤمن شبه متأكدة من أن القادم هي شيرين. قامت إيفا أومسك لتفتح الباب. ما أن فتحت إيفا الباب حتى تجمد الدم في عروق حواء المؤمن، إذ سمعت صوت إحدى الراهبتين تسلم على إيفا، وسمعت صوت الأخرى تسأل إن كانت هي في البيت، ولم تنتظرا أن تقوم إيفا بإخبارها بوصولهما، إذ دخلتا مباشرة وكأن البيت بيتهما. سلمتا على حواء المؤمن التي، بالرغم من فقدانها للبصر فأنها وقفت لهما احتراما. طلبتا منها الجلوس، وسألتاها عن وضعها، فشكرت الله على كل شيء.
كانت حواء المؤمن على يقين داخلي بأنهما جاءتا من أجل إيفا أومسك، وليس من أجلها هي، لأن الراهبة المسنة سألتها مباشرة:
– أنت جارتها التي تعيش في الشقة المقابلة أليس كذلك؟
– نعم
– وكم مضى على وجودك في ألمانيا؟
– أكثر من أربع سنوات.
– أأنت من روسيا أم من جمهوريات أخرى؟
– أنا من مدينة أسمها أومسك، وتقع في سيبيريا؟

– من سيبيريا؟

– نعـم. مـن مدينـة أومسـك التـي عـاش فيها الكاتـب دستويفسـكي حينما عوقب بالإعتقال في سيبريا.

– آه.. دستويفسكي..

نظرت الراهبة الشابة إليها وسألتها:

– هـل قـرأت شـيئا لـه، أقصـد من رواياته، هل قـرأت الأبله.. هلـى تعرفين الأمير ميشكين؟

إسـتغربت إيفـا أومسـك مـن هذه الراهبـة التي تعرف دستويفسـكي، وتعرف الأمير ميشكين، فأحست بالقرب النفسي منهما، وقالت وهي تبتسم:

– نحن نقرأ دستويفسـكي في المدرسـة الثانوية، كما شـاهدنا الفيلم المأخوذ من الرواية، لكني أحب دستويفسكي ورواياته أكثر من الأفلام الماخوذة عنها.

كانت حواء المؤمن صامتة طوال الوقت، فهي على يقين بأن مداخلتها ستعيق مهمة هاتين الراهبتين، لذا صمتت وكأنها غير موجودة. كانت تسـتمع للحوار فقط. سـمعت الراهبة المسنة تسألها:

– ولماذا أراك متعلقة به لهذا الحد؟

– لا لشـيء. لكـن ربمـا لـو كان حيـاً فـي زماننـا لكتـب عنـي أيضـاً. أحيانـاً أحس أني إحدى شـخصيات رواياته. إنه ينتشـل المذلين والمهانين والمسـحوقين من الحضيض، ويمنحهم الكثير من شفقته وحبه ورحمته، حتى حينما تقرأين عنهم في رواياته تتعاطفين مع آلامهم. أحيانا أفكر أنا ربما خرجت من إحدى رواياته. ربمـا أنـا سـونيا ميرميلادوفـا فـي الجريمة والعقاب. أو ناتاشـا في روايته مذلون مهانون، لا أدري. فحياتي ليست بسيطة أبداً.

نظرت الراهبتان لبعضهما البعض. نظرتا إلى إيفا أومسـك بحنان شـديد وبتعاطف واضح، ثم قالت الراهبة الشابة لها:

– إنك لحد الآن تتحدثين عن أشخاص في روايات هذا الكاتب. بينما أنت تريدين أن تتحدثي عن نفسك. يمكنك أن تتحدثي لنا. نحن راهبتان، يمكننا أن نستمع لروحك المثقلة بالعذاب.

أحست إيفا أومسك بنبرة الحنان في صوتها، وفيض الشفقة التي تشع من عينيهما، فأومضت في روحها فكرة أن تعترف لهما بكل شيء مرت به، بكل تقززه. نظرت لهما وقالت بما يشبه القرار:

– أود أن أروي لكما شيئا عن حياتي. هل أنتما مستعدتان لسماع إعترافاتي المرعبة؟
– نحن هنا لنستمع لإعترافك يا إيفا.

إبتسمت حواء المؤمن إبتسامة داخلية، إبتسامة في الأعماق، لأنها عرفت أنهما جاءتا لسماع إعترافات إيفا أومسك. لكنها لم تأت بأي حركة تعكر صفو هذا الطقس الروحاني. أحست أنها خارج المكان حينما بدأت إيفا أومسك تسرد قصة حياتها.

– كنت الوحيدة لأمي. أبي ترك أمي وذهب مع امرأة أخرى. كنت حينها في الخامسة من عمري. لا أذكر أبي، بالرغم من أمي تحتفظ بصوره. لا أعرف لماذا طلق أبي أمي، لأنها ظلت ترفض الحديث عن ذلك، إلا في لحظات معينة أبدت شيئا من الأسباب حينما كانت تلعن الرجال والنساء، وكيف أن أعز صديقاتها سرقت زوجها منها. وهكذا عرفت شيئاً من مشكلتها مع أبي، وحتى حينما بلغت النضوج وحاولت أن أستدرجها فقد كانت ترفض الحديث عن ذلك. لكنها كما أتذكر ظلت تبكي لسنوات بعد رحيله عنها. بقيتْ لسنوات زاهدة بالرجال. فلم أتذكر أنها كانت ذات علاقة مع رجل بعد أبي، بالرغم من أنها كانت امرأة جميلة. ويبدو أنها كانت قد تزوجته عن حب، لكنه كان أصغر منها بثلاث سنوات، وكان رجلاً يحب الحياة، بينما أمي امرأة حازمة. تحب الترتيب والنظام. كانتْ أمي في منتصف الثلاثين حينما هجرها أبي. لكنها بعد سنوات عدة، حينما صرت في الثانية عشرة من عمري، تزوجت أمي رجلا يكبرها بعشر سنوات، ظناً منها بأن الرجل الذي يكبر الزوجة بهذا المقدار من السنين سوف يتمسك بزوجته الأصغر سنا منه، لن يهجرها. كانت هي في بداية الأربعين وهو في بداية الخمسين من عمرهما، وبالتالي فهي كانت تعتقد بأنها ستعيش حياة مستقرة، لاسيما أن زوجها الجديد ثري، ووسيم أيضا، ولديه مكانة حزبية جيدة في الحزب الشيوعي، ولديه منصب جيد، وسيارة، وشقة كبيرة. إنه من أثرياء الحزب. لكنها لم تعلم أنه تزوجها ليغطي على سلوكه الشاذ أمام الدوائر الحزبية المرتبط بها. بينما هي أرادت أن تثبت لأبي بأنها ستجد من هو أحسن منه.
– ما معنى أنه أراد أن يغطي سلوكه الشاذ؟ كيف عرفت ذلك؟ سألتها الراهبة الشابة.
– كان شاذا في علاقاته الجنسية، ويبدو أن شائعات دارت حوله، فأراد أن يتزوج كي يقضي على هذه الشائعات. ولقد اكتشفت أنا ذلك حينما وجدته مع شاب جميل جدا أكبر مني ببضع سنين. كان ذلك في شقتة الكبيرة التي انتقلنا إليها أنا وأمي.
– وأين كانت أمك؟ سألت الراهبة المسنة.

– أمي كانت موظفة في وزارة الثقافة، وفي الهيئة الخاصة بالسينما. كانت موظفة بدرجة مديرة قسم. لذا كانت تذهب إلى الدوام يومياً.

– وكيف اكتشفت ذلك؟

– كانت أمي، كعادتها، في العمل. أنا كنت في المدرسة الإعدادية، لكني شعرت بألم الدورة التي جاءتني بشكل مفاجئ وأنا في المدرسة، فعدت إلى البيت. كان لدي مفتاحي الخاص. وحين فتحت الباب بهدوء، سمعت صوت آهات يأتي من غرفة الحمام، وبالمناسبة في شقته التي حصل عليها من الحزب، كان هناك حمامان، واحد في القسم الخاص بهما، وآخر ملحق بغرفتي الواسعة. حينها مشيت بهدوء لأرى. كان واضحا أنه صوت رجل. ارتعبتُ حينما نظرت في الحمام من الزاوية الضيقة المفتوحة من فتحة الباب. وجدت زوج أمي عاريا بالكامل وهو منحن يحضن شابا عاريا أيضا من الخلف. نظر الشاب وهو منحن تحته إلي، من خلال فتحة الباب الضيقة، حيث كنت بعيدة عن الباب تقريبا. كنت متأكدة من أنه رآني. لا أعرف ما جرى. لقد هربتُ بسرعة فائقة. دخلت غرفتي وأخذت شيئا من لفافات العادة. غادرت الشقة بأسرع ما يمكن بحيث أني وضعت لفافاتي، كي لا ألوث ثيابي، وأنا تحت الدرج قبل أن أخرج عائدة إلى المدرسة. حينها كنت قد فكرت بأني إذا لم أرجع إلى المدرسة فسيظن أنني كنت في الشقة فعلاً، وكنت مطمئنة بأن الشاب لا يعرفني. الناظرة استغربت رجوعي، وجدت لها عذراً بأني نسيت المفتاح ولم أحمله معي، لذا فضلت الرجوع إلى المدرسة بإنتظار عودة أمي من الدوام. عند نهاية الدوام، في ذلك اليوم، وجدت زوج أمي ينتظرني عند باب المدرسة، وكان نادرا جدا يأتي مع أمي لأخذي. أطمأن زوج أمي بأنني لست أنا التي كنت في الشقة، وربما ظن أن الشاب يكذب عليه، أو أنه توهم ذلك. طبعا لم أقل أي شيء لأمي خوفاً منه.

أحست حواء المؤمن بأن جسدها أخذ يرتعش، وينكمش، وسرت رعشة باردة في جسدها نتيجة ما سمعت من إيفا أومسك. لكنها لم تشأ أن يكون لوجودها بينهم أي حضور يعكر إنسياب هذه الإعترافات المرعبة.

– الغريب، ذات يوم رأيت ذلك الشاب الجميل ينتظرني قرب منعطف الشارع، حيث نسكن. وعرف مكان المدرسة التي أدرس فيها. كان يتبعني كل يوم تقريباً. ذات يوم كان ماشياً خلفي، ثم بدأ يكلمني. لم أشأ أن أكلمه أول الأمر. كنت أخاف من زوج أمي لأنه كان مسؤولاً حزبياً كبيراً، وكثيرا ما كان يزورنا العديد

من المسؤولين الحزبيين والعسكريين. لذلك كنت أخاف من أن يراني زوج أمي. وربما هو الذي أرسله. كما أني كنت مشمئزة من هذا الشاب، لأني رأيته في وضع مقزز مع زوج أمي. كان وسيما جداً. وبدأ الشاب يعتذر لي، ويؤكد لي بأنه ليس بالشاب السيء الذي أظنه، وأكد بأن زوج أمي كان قد هدده، حينما التقاه في مكان ما ذات مرة، وتعرف عليه، ثم دعاه بلطف إلى شقته. بعد ذلك أغدق عليه بالمال والشراب الغالي الثمن، نعم، أنه أعطاه مبلغاً كبيرا كان يحلم أن يحصل عليه. لقد فكر هو حينها بأنه سيقدم على ذلك لمرة واحدة، ولم يكن الأمر كذلك أول مرة، لأنه في المرة الأولى طلب من الشاب أن يفعل به، لذا لم يشعر الشاب بمشكلة كبيرة، لكنه في مرة من المرات، وفي شقته الخاصة التي، كما أكد الشاب، ليست الشقة الحالية، طلب أن هو يقوم هو بالفعل في الشاب. الشاب رفض، لكنه، وهذا ما أقسم الشاب عليه بأغلظ الإيمان، بأن زوج أمي سحب عليه مسدساً وهدده بأنه سيقتله، ويدعي أنه جاء ليسرق وقتله دفاعاً عن النفس. ويمكن تصديقه لأنه مسؤول حزبي كبير. فاضطر أن يوافق، ومنذ ذلك الحين يقوم هو بالفعل فيه، لكنه يعطيه كل مرة الكثير من المال. ولا يدري لماذا طلب منه اليوم أن يوافيه في هذه الشقة، فعادة هو يلتقيه في شقته الأخرى. حينها شعرت بالشفقة على الشاب، وبدأت بيننا علاقة عاطفية. كانت في البداية حول أوضاع كل منا ثم تطور الأمر.

الراهبة الشابة أشارت بيدها كعلامة للسؤال، وسألتها بتعاطف، بالرغم من علامات القلق التي ارتسمت على وجهيهما.

– لحظة، هل كانت أمك تعرف شيئا عن سلوك زوجها؟

– لا أعتقد ذلك.

– أكملي.. يا ابنتي.. كان الله في عونك.. أكملي..

– تكررت لقاءاتي بهذا الشاب. إلى أن دعاني ذات يوم إلى شقته التي يعيش فيها مع أمه المطلقة أيضا. وكان وحيدا لأمه، وهي تعمل بائعة في سوبر ماركت كبير تابع للدولة. وهناك، في تلك الشقة عرفت أنوثتي الحقيقية، وعرفت الجنس لأول مرة. كنت في منتصف الخامسة عشر حينما تعرفت عليه. كنت خائفة، لم يمسسني أي شاب قبله. كما قلت كانت أمي شديدة الطبع. لم أكن أعرف القبلة من الشفاه. كان هو في هذه الأمور ذا خبرة. كان يداعبني بإصبعه، وبلسانه، ومنه تعرفت على كل الآلاعيب الجنسية. وتكررت اللقاءات في شقته، إلى أن

صرت في السادسة عشرة، وحينها أردت أن أجرب معه بشكل طبيعي، لكنه لم يسيطر على نفسه. وهكذا منذ السادسة عشرة صرت أعيش كامرأة بالغة. ويبدو أن زوج أمي اكتشف علاقتي بهذا الشاب، الذي يبدو لي أنه لم يقطع علاقته به، لكنه كان يلتقيه في شقته الأخرى على الأرجح، بالرغم من أني كنت اسأله دائما، ودائما كان ينكر ذلك. لكني كنت أخمن ذلك من المال الدائم الذي كان في جيبه، ومن ملابسه، ونفقاته التي هي أكثر بكثير من مصاريف شاب أمه بائعة بسيطة في محل. المصيبة بعد فترة سنة ونصف اختفى صديقي الشاب فجأة. ولا أدري لحد الآن أين اختفى.

– أين اختفى؟ سألت الراهبة المسنة.

– لا أدري.

– هل بحثت عنه، أو سألت عنه من أمه؟ سألت الراهبة المسنة مرة أخرى.

– لا طبعاً، لكني عرفت أن أمه ذهبت للشرطة وقدمت بلاغاً، وكانت صورته موجودة في مركز شرطة منطقتهم بإعتباره مفقوداً.

– هل كان لزوج أمك علاقة بالأمر؟

– أعتقد ذلك، لأن هذا الشاب كما عرفت من زوج أمي لاحقاً، كان يريد الإنتقام منه، فنصب الشباك لأمي، عرف مكان عملها، وأخذ يتحجج لزيارة مكان عملها، ثم أخذ يفتعل المناسبات ليكون أمامها بعد انتهاء الدوام، أو في مخزن ما. المهم كان يطاردها، ثم بدأ يغازلها، إلى أن وقعت في شباكه. لم أكن أعرف طبيعة علاقة أمي بزوجها، لكن مهما تكن جيدة فأن المرأة كائن عاطفي، فهي تغامر بسعادتها الزوجية، وبكل شيء من أجل حفنة من الكلمات الرقيقة، كلمات الغزل التي تبالغ بجمالها، وبأنها أجمل ما في الكون من النساء، وحتى لو كانت المرأة تعرف أن الرجل المقابل يكذب عليها، ويبالغ في كلامه، فهي تحب هذه الأكاذيب. ونحن نساء ونعرف ذلك. المهم. تعمقت علاقته بأمي، ولا أدري كيف أغواها بالذهاب معه. ويبدو أنه كان يأخذها ليضاجعها في شقة زوج أمي التي كان يستأجرها لمتعته هو مع الشاب، وكان قد أعطاه نسخة من المفتاح. ويبدو أنه عرف بطريقة ما، ربما من البوابين الذين هم في البنايات الخاصة بالمسؤولين الحزبيين يكونون عادة من المخابرات. أو من خلال علاقاته الخاصة عرف بأن الشاب الذي كان معروفا بالنسبة للبوابين بإعتباره من أصدقاء زوج أمي، يأتي ومعه امرأة ما. ويبدو أنه عرف، حينما سأل عن أوصاف المرأة التي تأتي مع

الشاب، أنها أمي. لأني رأيت في ما بعد صورا لها مع الشاب في أوضاع جنسية شاذة، إذ كان يفعل معها ما كان زوج أمي يفعل به.

– وأنت، كيف عرفت كل هذا؟ سألت الراهبة الشابة.

– عرفت كل ذلك لاحقاً من زوج أمي نفسه.

– كيف، هل اعترف لك بذلك؟ واصلت الراهبة الشابة سؤالها.

– نعم. ذات يوم كنت في البيت وحدي بعد أن ذهبت أمي إلى العمل. وكان هو نائما. كنت أظنه قد خرج أيضا، لكنه كان في غرفته. أخذت حماما ساخنا بعد أن استيقظت من النوم. وكنت ضجرة وملتهبة وقلقة على وضعي، أفكر في صديقي الذي اختفى فجأة. خرجت من الحمام، الذي كان مرتبطا بغرفتي تقريبا. دخلت غرفتي، كنت ما زلت عارية أشد منشفتي على جسدي. فجأة دخل هو غرفتي. كان في في قميص الحمام. فوجئت بوجوده. إقترب مني جداً. سحب المنشفة التي كنت أغطي جسدي بها، فصرت عارية أمامه. نظر إليّ برغبة واضحة مطلقا من شفتيه صفيرا إعجاباً بجسدي. وبدون شعور مني وضعت يدي ما بين فخذي لأغطي نفسي. لكنه دفعني على السرير وألقى بثقل جسده علي. وقال لي: حرام أن يتمتع ذلك الشاب الغبي بكل هذا الجمال. ثم بحركة سريعة منه صار في وسطي تماما، وبيده القوية دفع فخذيّ ودخل فيّ. كنت أريد أن أصرخ. أخذت أتحرك لأدفعه، لكن كلما كنت أتحرك يزداد دخوله فيّ و تزداد سيطرته على جسدي. أثناء ذلك، هددته بأن أخبر أمي، فهددني بدوره بأني لو نطقت حرفا فأنه سيرسلني وأمي إلى ما وراء الشمس. وفجأة وبدون أن أنتبه كيف، أدارني على بطني، وأركعني بقوة، ولا أدري إن كان قد خطط لكل ذلك، لأنه أخرج دهنا ذا رائحة طيبة جداً، فلطخني من الخلف وأولجه فيّ. كما كان يفعل بذلك الشاب. وكان يصرخ بي أن أمي تحب ذلك جداً. لكنها تحبه مع ذلك الشاب العبيط. وكان يشتم أمي بأقذع الكلام، لأنها ترفض أن تفعله معه، وهو زوجها، بحجة أنه مقزز، ومؤلم، بينما هي تتوسل الشاب العبيط، حينما تنتهي من الأمام، أن يفعله بها من الخلف. كنت أتقزز من ذلك. وبعد أن انتهي مني، طلبت منه أن يثبت لي كل ما قاله عن أمي.

– وهل فعل؟

– نعم. رأيت صوراً، من كاميرا خفية كان قد وضعها في شقته، ويبدو أنه قد أعد كل شيء لذلك. إذ كانت لديه صور لأمي في أوضاع داعرة مع صديقي الشاب.

بل أسمعني صرخاتها على شريط كاسيت وهي تتأوه، وتصرخ متوسلة بعشيقها بكلام لم أتوقعه أن يصدر من أمي. لأني كنت أنظر إليها كشـيء مقدس. كنت أتذكر كيف تحملت السنين بعد غياب أبي ووفرت لي كل شيء، كنت أتذكر أنها لم تكن لعوبا برغم جمالها، إلى أن تزوجت من هذا المسـؤول الحزبي. لذلك ما سمعته ورأيته صدمني، ولم أعد أؤمن بأي شيء. أحسست بسقوط المقدس، فكل شيء دنس وملوث، ومبتذل مهما بدا لك متسامياً.

رسـمت الراهبتـان علامـات الصليـب الأربـع بينما هما تسـتمعان لهـذه الإعترافات الجهنميـة، لكنهمـا كانتـا تنظـران بشـفقة لهـذه الآثمـة التي تنـوء بثقل كل هـذا العذاب الروحي. نظرت الراهبة الشابة إليها وسألتها بحنان:

– وماذا جرى بعد ذلك، كيف عشت كل هذا يا ابنتي؟

– لـم أعـد أهتـم لغيـاب صديقـي، بل نشـأ لدي تعاطف مع زوج أمي، شـعرت إنه مخدوع بزوجته المصون مثلي، تعاطفت معه ربما إنتقاماً من أمي، التي حطمت مثالي الأعلى الذي كانت تجسده أمامي، وانتقاماً من صديقي الذي كان يضاجعني ويضاجع أمي في الوقت نفسه. المهم. صرت لا أحقد على زوج أمي، بل صرت عشـيقته. كان يضاجعني يوميا تقريبا. من كل الجهات وكل الفتحات الموجودة في الجسـد ويمكن الدخول فيها. وذات مرة سـألته، عن الذي رواه لي صديقي من أنه فعل فيه أول الأمر، فلم ينكر ذلك، وقال أردت أن أجربه فقط. واستمر الحال هكذا لسنة ونصف تقريبا. الغريب في الأمر أني صرت أنافس أمي على زوجها. بل كنت أحنق منها إذا ما صادف وأن التقينا على المائدة، وأحاول حينها أن أكـون أنـا الأثيـرة لديـه مـن أجل إغاظتها لا أكثر. غريبة طبيعة المرأة. كنت لا أعرف نفسي، كنت أتصرف مدفوعة بضغط قوة غامضة. لكننا نحن البشر دائما نتصـرف بوعـي ثـم نقـول إننا كنـا تحت ضغط هذا الأمر أو ذاك، لكن لأعد إلى الحكاية المملة. يبدو أن أمي لم تسـتطع أن تتحمل غياب عشـيقها، الذي كان عشـيقي أيضـا. إذ بـدأ الشـجار بينهـا وبيـن زوجهـا. ويبدو أنهـا وافقت على أن يمارس معها من الخلف لأنها تعودت عليه، وأخبرني هو ذات مرة بأنها صارت تطلبه منه. أنهيت أنا دراسـتي الإعدادية ودخلت الجامعة، وأخذت أدرس اللغة الروسية وآدابها. لكن حياتنا في البيت كانت تسير وفق الخطة السابقة المعتادة، كان هـو فـي الليـل معهـا، لكنـه في النهار أو فـي لحظة غيابها معي، وأحيانا كان يأخذني بسيارته فنخرج إلى الغابات المحيطة بالمدينة لنفعل ما نفعل هناك. إلى

أن حلّت به كارثة كبيرة، حينما حصل الإنقلاب في السلطة، وتم حل الحزب الشيوعي، وتمت إحالته على التقاعد.

– هل كانت أمك، يا ابنتي، تعرف علاقته بك؟ سألت الراهبة المسنة.

– لا أدري، ربما، لأن الأمر برمته انتهى بكارثة عائلية حقيقية، وأعتقد أن ذلك مرتبط بإكتشافها للأمر.

– كيف؟ سألت الراهبة المسنة.

– كنت حينها في السنة الثانية في الجامعة. وذات يوم رجعت إلى البيت، فرأيت سيارات الإسعاف والشرطة، وهي تغادر المنطقة. وحينما وصلت البناية التي نسكن فيها، عرفت من الجيران بأن أمي انتحرت بإلقاء نفسها من بالكون شقتنا التي كانت في الطابق الثالث عشر، وماتت على الفور. حينما دخلت الشقة، رأيت زوجها، عشيقي، جالساً، وحيداً، منكسرا. لكنه ما أن رآني حتى رجعت الحياة إليه، فاحتضنني متظاهراً بالبكاء، وهو يقول لي: لم يبق لنا أحد سوانا لبعضنا. سألته عن سبب انتحار أمي، فأنكر أنه يعرف شيئا عن السبب، وأكد لي بأنها لم تنتحر وإنما سقطت بينما كانت تنشر بعض الغسيل في البالكون. لكني رأيت بعد أسبوع في خزانتها وبين أشيائها صورها مع ذلك الشاب الذي اختفى، صوراً لها في أوضاع داعرة كنت قد شاهدت بعضها سابقا. ويبدو أنهما تشاجرا، وأثناء ذلك كشف لها عن صورها، وربما أسمعها الكاسيت، وربما أخبرها بأني أعرف ذلك أيضا، وأني شاهدت هذه الصور وسمعت الكاسيت، فلم تستطع أن تتحمل أن تراني، فانتحرتْ. لا أدري. أنت تعرفين بنفسك كامرأة، نحن نفعل أبشع الأشياء وأحطها، وأكثر إبتذالا، نفعلها بوعي كامل، لكننا لا نريد أن يعرف عنها أحد. نريد أن تبقى في السر، وحينما تظهر إلى العلن لا نستطيع تحمل مواجهتها.

– يا ابنتي، ليغفر لك الرب. واصلي يا ابنتي، إلقي الحمل عن روحك المنهكة. ماذا حدث بعد ذلك. كيف صرت هنا في ألمانيا؟ سألت الراهبة المسنة.

– لم أكمل دراستي. بعد سقوط الإتحاد السوفيتي، صار بالإمكان السفر إلى أوروبا. طلبت منه أن أسافر لتغيير الجو. لم يقبل. لكني كنت قد تجاوزت الثامنة عشرة وصار بإمكاني أن أحصل على جواز السفر بنفسي، وأخذت ما استطعت أن أحصل عليه من المال، وسافرت إلى ألمانيا.

– هل كنت تعرفين أحدا هنا؟ سألتها الراهبة الشابة.

– لا أحد. كانت مغامرة. كنت أريد أن أنسلخ عن حياتي السابقة كما تنسلخ الأفعى

من جلدها. المهم. تعرفت في الطائرة على رجل من القوميات السوفيتية السابقة كان يجلس إلى جانبي. كان لديه مخزن كما قال لي، وشقة، وسيارة. وحينما سألني عن وضعي أخبرته باني أسافر لأول مرة، فعرض عليّ أن يريني برلين كلها، وأنه يمكنني السكن لأيام عنده، مع عائلته. ترددت أول الأمر، لكني فكرت بأني سوف أوفر شيئا من المال إذا سكنت عندهم، لاسيما وأن عائلته معه.

– وماذا بعد، أيتها الإبنة المعذبة.. ماذا بعد؟ قالت الراهبة الشابة.

– لم تكن لديه عائلة. أقصد،نعم لديه عائلة، لكنها ليست في برلين وإنما في جمهوريته المستقلة حديثا. وهو يعيش وحده في شقته ببرلين، وحينما سألته لماذا كذب علي، أجابني لأنه لو قال لي إنه يعيش وحده لما وافقت على المجيء معه، ولأنه أراد أن يساعدني بتوفير أجور الفندق فكذب علي حتى أوافق. ولكن يمكنني القول، إنه اعتنى بي جيدا أول الأمر، ولم يطلب مني مباشرة أن أنام معه، بل تركني عدة أيام بحريتي، وكان يدللني في كل شيء. كنا نخرج في وقت الفطور لكي نأكل في أحد المطاعم، ولم تمض وجبة لم نأكلها في غير المطعم. زرت جميع المطاعم لجميع الشعوب تقريبا، وجميع الأماكن الجميلة في برلين، إلى أن اطمأن له قلبي. وذات ليلة رجعنا متأخرين، وكنت قد شربت بعض كؤوس الشمبانيا، فملتُ لأتكئ عليه، وبلا شعور قبلني وقبلته، بل كنت متلهفة له، حتى أني كدت أفعلها في المصعد، ولم نستطع الإنتظار، إذ أننا فعلنا كل شيء على أرضية الشقة، وبنفسي طلبت منه، بعد أن أنهكني لمرات، بأن يفعلها بي من الخلف. لكن كان هذا مثل شهر العسل. صرت أعشقه، وصرت لا أستطيع أن أتحمل غضبه مني أو حتى إنشغاله عني لوقت بسيط. إلى أن أخذ يحدثني ذات يوم عن مستقبلي، وماذا أخطط لنفسي، وهل أريد الرجوع إلى دياري. فرفضت أن أبتعد عنه. كنت مجنونة به، قلت له أفعل بي أي شيء، وبما تشاء، لكن لا تبعدني عنك. فسألني حينها: أفعل بك أي شيء، وما أشاء؟ فأكدت له ذلك. فقال حتى لو رغبت أن أرى شخصاً آخر يضاجعك أمامي؟ فقلت له لو كانت هذه رغبتك، وتريحك، سأفعلها من أجلك. وفعلا إتصل بشخص ما، وبعد ساعة كان ثمة رجل من الجمهوريات السوفيتية المستقلة حديثا، رجل مفتول العضلات، في شقتنا. لم أصدق أنه يطلب ذلك، لكني كنت أمام إمتحان عسير حينها لأثبت له أني أعني ما أقول. لم أستطع أول الأمر، فقلت له، أريد ان أسكر، فأعطاني كأسا مليئة بالفودكا، شربتها وكأني أشرب السم، لكني أحسست

بالحرارة والخدر في جسـدي، وذهبنا ثلاثتنا إلى الغرفة. كان هو جالسـاً أيضا، والآخر قد تعرى ولم يبق إلا سرواله، وكان هو يمسك بيدي، بينما الآخر كان يعرينـي. صـرت عاريـة تمامـاً. بينما أخذ الرجل يقبلني من صدري، نازلا إلى ما بين فخذي. كنت أنظر لعشيقي، بينما كان الآخر قد دخل في. أحسست بتيارات هائلة من اللذة. وحينما انتبهت لنفسي، أخذت دموعي تنزل من عيني دون إرادة مني، أحسست أنني أضيع، وقد ضيعني معه، ولم أتذكر بعد ذلك شيئا. وحينما صحوت، وجدت نفسـي عارية في السـرير مع الرجل الآخر. نهضت مذهولة. فتشـت وأنـا عاريـة عـن عشـيقي فلم أجد له أثرا في الشـقة. فجـأة نهض الرجل الغريـب. وحينمـا رآنـي، جاء فأخذني إلى السـرير، وأخـذ يداعبني، ويضاجعني بعنف. كنت مستسـلمة كالذبيحة. سـألته عن عشـيقي، فقال لي إنه اشـتراني منه. تصوري ما قال: اشتراني منه.لقد سلمه جواز سفري وكل أشيائي، وأنا الآن ملكه، بل وأوضح لي بأن هذه الشـقة هي له أيضا وليسـت لعشـيقي. وأن عشـيقي هو قواد متمرس، وهو وعشيقي، محميان من قبل المافيا. هو لديه محلات للجنس، للدعارة، ولبيع الألعاب الجنسية والمجلات وما شابه، وأنه سيتركني معه لبضعة أيـام، ثـم علـي النـزول إلـى العمل. سـألته: أي عمل؟ مومـس، هذا عملك، هل تجيدين غيره؟ وقال لي إنه لا أحتاج لأي مهارة خاصة مني، سوى مهارة الإغواء وإراحة الزبون. وهكذا، وبعد مرور أيام قليلة، شبع مني، وأرسلني لزبائنه.. كانوا يأتون أول الأمر إلى الشـقة، ثم أخذني إلى شـقق أخرى، وشـيئا فشـيئا، دخلت هذا العالم. أوضح لي بأن الأشهر الستة الأولى سيقبض كل الواردات، إلى أن يسترجع ما دفعه لعشيقي السابق كثمن لي، وبعد ذلك سيعطيني خمسين بالمئة من الواردات. والأشهر الستة صارت سنة، لأنه أخبرني بأني ما زلت هاوية ولا أسـتطيع أن آتي بالزبائن كثيراً، لكن بعد سـنة صارت لي نسـبة من الأرباح، أخذ يعطيني خسين بالمئة، فاستأجرتُ لنفسي هذه الشقة. لكني أذهب يوميا من بعد الظهر وحتى منتصف الليل، وأحيانا أكثر، إلى دكان الجنس، الموجود في مارتن لوثر شتراسه. أقدم جسدي لما لا يقل عن عشرة أشخاص في اليوم. وعليّ أن أكون جاهزة، ومرحة، وأبدي تعطشي للجنس واستمتاعي بما يفعله بي الزبون. هذه أنا بكل بساطة، وبدون رتوش أخلاقية.

رسمت الراهبتان علامة الصليب على صدرهما مرات عدة، وكأنما أرادتا أن تتطهرا مما سـمعتا من هذه الخاطئة التي تحمل صليبها الناري أنى اتجهت. سـاد صمت ثقيل

للحظـات. كانـت إيفـا أومسـك قـد روت حكايتها بلا أي إنفعـال واضح. كانت وكأنما آلة تسجيل تروي حكاية ما بكل حيادية. وكأنها تروي كيف ذهبت إلى السوق، أو إلى العيادة، أو تتحدث عن الغسيل.

كانت إيفا أومسك تنظر بقلق إلى الراهبتين، ثم إلى حواء المؤمن التي وكأنما الآن انتبهت لوجودها طوال سردها لهذه الإعترافات. لقد كانت صادقة في كل ما قالت، إذ حاولت جاهدة أن ترسم الخطوط العريضة لعثراتها في وادي الظلمات التي قادتها إلى هنا، ولا تعرف لماذا روت كل ذلك. كان بإمكانها ألا تروي أي شـيء، لكنها أحسـت بشـيء مـن الراحـة حينمـا عـرّت ذاتها أمـام الراهبتين وبحضور حواء المؤمن. أحسـت بالنشـوة وهي تذل نفسـها بهذه الصورة المرعبة. ظلت الراهبتان صامتتين، مثلما ظلت حواء المؤمن صامتة. لم تعلق على اعترافاتها بشيء، بل أخرجت كل منهما من جيب ثوبها الكنسي سبحة، وأخذتا تتمتمان بأدعية وصلوات غير مسموعة.

كانـت إيفـا أومسـك تنتظـر منهمـا أي رد فعـل على إعترافاتها، لكنها لـم تسـمع أي تعليق. نظرت إلى أفق بعيد خارج جدران الشقة، أفق لا يحده البصر، أفق في الأعماق السحيقة لنفسها، وتابعت هذه المرة بصوت حزين:

– أحيانا أسترجع ما جرى لي في حياتي، لاسيما حينما أرجع في آخر الليل، أرى كل شيء، لكنني لا أستطيع أن أصدق أن كل هذا جرى لي أنا، بالرغم من أني أعـرف جيـداً أن هـذا قـد جـرى لـي فعلاً. أفكر أحيانا، أية حيـاة هذه. أنا جبانة، ليسـت لدي قدرة على الإنتحار. لذا أسـتمر بالحياة لأني جبانة، لأني أخاف أن أموت. أريد الحياة حتى ولو في أسفل درك من الحضيض. في قاع القاع. أليس هذا جبنا. أتدرون لماذا أخاف الإنتحار؟

نظرت الراهبتان إليها بعيون جاحظة مفتوحة، وهما تتمتمان بالصلوات، فاستمرت إيفا أومسك بالكلام:

– لأني مؤمنة. أنا أعرف أن الله يحرم قتل النفس. ومن ينتحر يذهب إلى الجحيم. وبالرغم من أني أعيش في بؤرة الرذيلة، لكني أشعر أن الله سيرحمني، أكثر مما لو أني انتحرت. ربما أنا نعجة ضالة، لكني لسـت مجرمة ولا قاتلة. الله وحده يعـرف كـم أتعـذب. اللـه وحـده يعرف أني إنسـانة تؤمن به، وتحبـه، وأنا أحمل صليبي الثقيل وحدي. وأن كل دمعة أذرفها ندماً، وألماً، وحسـرة، كل ليلة هي أشـبه بالصلاة. وبالمناسـبة، أنا أذهب أحياناً إلى الكنيسـة الخاصة بالمسـيحيين الأرثوذوكـس وأشـعل شـمعة للعـذراء هنـاك. هـل تصدقيـن لو قلت لـك، إنني

سجدت ذات مرة أمام صورة للعذراء وهي تحمل يسوع الصغير، وبكيت، ونحت، وشكوت ضعفي وقلة حيلتي من أجل الخروج مما أنا فيه، فرأيت دمعتين نزلتا من مقلتي العذراء. حينها عرفت أنها تسامحني على ما أنا فيه

ترقرقت الدموع في عيني الراهبتين، أما حواء المؤمن فاستمرت في صمتها، لكن كانت الدموع تترقرق في عينيها، وبشكل لا إرادي مدت يدها باحثة عن يد إيفا أومسك، التي عرفت أنها تريد كفها، فمدت يدها إليها، وأحست بكف حواء المؤمن تضغط بشدة عليها، تلك الشدة التي تمنح القوة والعزيمة والتضامن والمحبة. فنزلت دمعتان من مقلتيها. ضغطت هي بدورها على كف حواء إستجابة منها لمشاعر حواء المؤمن التي لم تستطع أن تعبر عنها بالكلمات. نظرت الراهبتان لحركة حواء المؤمن فابتسمتا لبعضهما البعض وعيونهما مليئة بالحنان والتسامح. في هذه اللحظة بالذات قامت الراهبتان. وقفت إيفا أومسك أيضا. شعرت حواء المؤمن بوقوف الجميع فوقفت. توجهت الراهبتان للخروج، بينما قالت الراهبة الشابة لحواء المؤمن:

– سنمر عليك في وقت قريب أيضا. نحن نسكن هنا بالقرب منك. ليحفظكما الرب. وأنت يا إيفا، حسن فعلت بإعترافك. ستشعرين بالراحة، إنها راحة النعجة الضالة حينما تعود أخيرا إلى حظيرتها مع بقية الأغنام. نحن نعاج الرب التائهة. ليحفظك الرب، وليتقدس اسمه.

أوصلتهما إيفا أومسك إلى الباب، خرجتا. ظلت هي واقفة عند الباب. أحست بشيء غريب في هاتين الراهبتين، أرادت أن تتابعهما بنظرها، لكنهما اختفيتا فجأة من أمام نظرها. خرجت لتتابع نزولهما على درجات السلم لكنها لم تر شيئا. سمعت أصوات أقدام تهبط، لكن لم يكن هناك أحد. إستغربت ذلك، لكن ذهنها لم يذهب بعيدا في تتبع ذلك. رجعت إلى الصالة، فرأت حواء المؤمن ساهمة تنظر في اللامكان. جلست على المقعد الجلدي. أحست بشيء غير طبيعي يتفاعل في داخلها. نظرت إلى وجه حواء المؤمن الجميل، فانتبهت لمسحة الحزن الذي زاد وجهها جمالاً. فجأة إلتفتت إلى حواء المؤمن سائلة:

– من أين تعرفين هاتين الراهبتين؟

– أعرفهما منذ أن كنت في مدينتي الأولى بغرب ألمانيا.

– هما طيبتان جدا، لكن أشعر بغرابة أمرهما. لا أعرف، أحس بغرابة الأمر. كيف تمكنتا أن تدفعاني إلى الإعتراف؟

– إنك أردت أن تحكي لي قبل وصولهما أصلاً.

– هـذا صحيـح، لكنـي لـم أكـن أفكـر أن أروي كل هذه التفاصيل، فكيف مارسـتا تأثيرهما عليّ كي تدفعاني إلى الإعتراف؟ على أية حال أشعر براحة كبيرة الآن. لكني أريد ان أسألك شيئا.

– إسألي..

– هـل أنـت مؤمنـة يـا حـواء؟ أنا أعرف أنك مسـلمة، لكن ليس كل مسـلم مؤمن، مثلما ليس كل مسـيحي مؤمن، لأننا لا نختار ديانتنا، نحن نتوارثها من والدينا، فهل أنت مؤمنة؟

برقت عينا حواء المؤمن، وارتجفت شفتاها، وقالت بحزن:

– حينما ننحرف عن الطريق السـليم. الطريق الذي يقودنا إلى الله، حينما ننحرف عـن هـذا الطريـق تختفـي الملائكـة، ولا نجـد سـوى الشـياطين التـي ترصدنا، وتتربـص بنـا، وتجرنـا بغوايـة فـي كل منعطف، وزاويـة، وتقودنا بعيدا بعيدا، في دهاليز مظلمة، تقود إلى وادي الظلمات. حين نلتفت إلى الوراء نرى دائرة الضوء من بعيد، نرى الدرب من بعيد، لكننا في أكثر الأحيان نكون قد تعبنا، بل أنهكنا التعب، بل ونكون نحن قد أنهكنا أجسادنا بملذات الطريق العابرة، بحيث حينها نريد العودة لكننا لا نستطيع، فنظل في وادي الظلمات نتعثر بأخطائنا، ولا ينقذنا سـوى ما تبقى من نور في أعماقنا. نعم. نحن نولد وفي أعماقنا شـمعة مضيئة، نـور يقودنـا فـي ليـل الطريـق. لكننا حين ننحرف عن الطريـق ونتوغل في وادي الظلمات نكون في منعطف قد استنفدنا شيئا من هذا النور، وكلما ابتعدنا ذبلت الشـعلة فـي أعماقنـا، لكـن علينـا أن نحذر كل الحذر مـن إنطفاء هذه الذبالة من الشعلة المتبقية في أعماقنا، لأنها لو انطفأت، يكون الإنسان قد مات في أعماقنا، ونتحول إلى مجرد وحوش آدمية، شياطين من لحم ودم.

– لكنك لم تجيبي عن سؤالي، هل أنت مؤمنة؟ سألت إيفا أومسك ثانية.

– وكيف يمكن للإنسان أن يعيش بلا إيمان؟ أنا لا أعرف كيف يجرؤ البعض على ألا يؤمن؟ أنا لا أقصد الدين، وإنما أقصد الإيمان بالله. إن من يرى الأديان، وما يفعلة رجال الدين، بل ومعظم الناس باسم الدين فلا يجد أمامه سوى أن يكفر بكل الأديان، ويلعن الأديان جميعها. لكن الدين شيء، والإيمان بالله شيء آخر.

– خفت أن يكون ما جرى لك، قد هز إيمانك

– بلى. لقد انطفأ بصري، لكن نور الشمعة في داخلي لم يطفأ بعد، بل اشتد وهجه. لكـن أود أن تحدثينـي عـن عالمـك. أقصـد عن هذا العالم الذي تعيشـينه يوميا.

اريد أن أعرف ما هو عمل المومس، أقصد، تفاصيل عملك. كيف تشعرين وأنت تلتحمين مع رجال عديدين يومياً؟

– سأحكي لك كل شيء بالتفصيل الممل. لكن دعينا نعد لأنفسنا عشاءً، أم أنت لست جائعة؟.

– بلى. لكن لا أعرف ماذا يعجبك.

– هل تحبين أن تأكلي المشويات، أم البتزا؟

– أي شيء يعجبك أنت، فلا فرق عندي.

– دعيني أحجز بالتلفون من المطعم اللبناني القريب ليحمل لنا المشويات والمقبلات، فأنا أشتهي الليلة أن آكل شيئا لذيذاً.

نهضت وقالت أنا نسيت هاتفي في البيت، سأطلب لنا عشاءً، وآتيك. سأترك الباب مفتوحا، لأني لن أتأخر سوى دقائق.

– ولماذا لا نعد عشاءنا هنا؟

– لا.. سيأتي العشاء جاهزا. أنا أدعوك الليلة.

– ولكن أنت عندي ويفترض أنا التي أدعوك.

– لا فرق.

وقامت خارجة لتأتي بهاتفها النقال. أحست حواء المؤمن بالحرج. لكنها كانت متلهفة، تدفعها رغبة داخلية خفية لمعرفة عالم المومسات، وتفاصيل عملهن، ومشاعرهن، وكانت تنتظر عودة إيفا أومسك لتحكي لها عن هذا العالم الذي يكاد يكون منطقة مظلمة في أعماقها. وكأن هناك رغبة خفية في أن تكون مومساً، أو أنها اعتبرت نفسها مومساً منذ منحت نفسها لأب زوجها الدكتور آدم التائه ذات ظهيرة صيف لاهب.

آدم البغدادي: أعتقد أن إعترافات إيفا أومسك جنحت بالرواية إلى منطقة خطرة. فهي مكشوفة وصريحة، وفيها شيء من الفضائحية. وربما ستعرضها للنقد الجارح. لكن من ناحيتي يجب أن أكون أمينا للشخصيات وشطحاتها. ربما يمكن النظر إلى كل ما روته إيفا أومسك بإعتباره إعترافات لراهبتين، وفي الإعترافات الدينية لا يتم الحديث إلا عن الخطايا والآثام.

صحيح هناك من سيبتسم ويقول كفى هذه الألعاب الروائية، فأنت في

كل الأحوال كاتب هذه الكلمات، ولو لم تشأ لما كتبتها، لكن لا أحد سيصدق بأن الشخصيات أحيانا تتمرد على المؤلف. عموما، أنا أجد أن إعترافات إيفا أومسك شيء طبيعي لإمرأة أوربية. لقد كانت إيفا أومسك تشعر وكأنها أمام قديسة. وكان يمكن أن يكون ذلك فعلا أمام كرسي الإعتراف. ما الفرق؟ لقد كانت إيفا أومسك تعترف بخطاياها لتتخفف منها، لكنها لم تعلم بأنها لم تفعل سوى أن ألقت بحملها على قلب حساس وروح جريحة وقلقة مثل حواء المؤمن. حواء ليست كاهناً أو راهباً، أو أباً أو أختاً في كنيسة. إنها روح في البرزخ ما بين الواقع واللاواقع. سنرى ماذا سيحدث.

حينما قرأ آدم المحروم هذا الفصل ذهل من جرأة صديقه آدم البغدادي في ذكر كل هذه التفاصيل الجنسية التي تخللتها إعترافات إيفا أومسك. وحينما قرأ الهامش الذي كتبه في نهاية الفصل إبتسم مع نفسه، وفكر أن آدم البغدادي يحاول أن يجد تبريرا أدبيا لجرأته في كتابة هذه الإعترافات عن لسان إيفا أومسك، وقد أحضر الراهبتين عمدا ليصور الأمر وكأنها إعترافات أمام الرب.

أحس آدم المحروم بنفسه مزدحما بالأحلام الجنسية. تذكر أنه رأى مثل هذه المشاهد في بعض الأفلام، لكنه لا يعرف بالضبط أي الأفلام، لكنه ومن خلال تجربته، أقر ببعض هذه التفاصيل. انتبه إلى أنه لم يبق الكثير من هذه المخطوطة. وضع الأوراق التي قرأها في جانب من الحقيبة، ومابتقى في الجانب الآخر كي يستطيع سحبها بسهولة. فكر أنه مقبل على مغامرة جبارة. غدا سيسافر الآب، وسيبقى وحيدا مع حوائه.

13

تحــولات الـكـــائن الـعـجـيـبة

فْــزَ آدم المحـروم علـى صـوت إنفجارات عديـدة هزت البيت. أحس أنه لم يأخذ كفايتـه مـن النـوم. نهـض بقلـق. ألقى نظرة إلى خارج الغرفة مـن النافذة التي تطل على الحديقـة الصغيـرة، فـأدرك أن الوقـت مـا زال مبكرا جداً. وخلال تلك اللحظات سـمع دوي إنفجـارات أخـرى، لكـن يبـدو أنهـا وقعت في أماكن بعيدة متفرقة. كان الغبش بدأ يسحب شاله الفضي من سماء المدينة المحاصرة بالأحقاد التي تحرق الأرواح. كانت السماء صافية. تذكر أنه، حينما كان صغيرا بل وحتى في مراهقته، كان يصحو على زقزقة العصافير على أغصان سدرة الجيران.، وعلى نواح الحمام، وصياح الديكة. لكنه صار لا يسـمع زقزقة العصافير بل ولم يعد يراها في سـماء بغداد. سـأل نفسـه أن كان الأب قد خرج مسـافراً، إذ أنه يسـتيقظ دائما للصلاة، ولو كان موجوداً لفز على صوت هذه الإنفجارات المدوية، التي كان إثنان منها قريبين من منطقتهما.

أحس برغبة في التبول فتوجه بهدوء إلى المرافق الصحية، بعد ذلك عاد إلى الصالة. أراد أن ينام ثانية لكنه لم يستطع. ظل لدقائق يحاول النوم لكنه على عكس ذلك أخذ يصحو، وشعر بنشاط لا يتناسب مع قلة ساعات النوم التي أخذها. لبس بنطاله وقميصه. أراد أن يتمشى قليلا في الحديقة، وأحس برغبة في أن يذهب لشراء الخبز من المخبز القريب ما دام صاحيا.

ما أن هم بالخروج حتى سمع وقع خطوات خلفه، وصوت حواء الزاهد تلقي عليه تحية الصباح. إلتفت إليها فوجدها تنظر بفزع، ففهم على الفور بأنها فزت على صوت دوي الإنفجارات التي هزت صباح بغداد الشـاحب. كانت نظراتها وكأنها تسـتفهم منه سبب خروجه الآن. ودون أن تسأله قال لها:

– أردت أن أذهب إلى المخبز لشراء الخبز. لقد طار النوم من عيني بعدما استيقظت فزعا على دوي الإنفجارات. وفكرت في الذهاب لشراء الخبز..

قاطعته حواء الزاهد قائلة، بعد أن أحست بشيء من الراحة من جوابه:

– لقد اشـتريت الخبز أنا فجرا، إذ حضّرت الفطور لأبي، وعندها خرجتُ لشـراء الخبز الحار.
– هل سافر الحاج؟
– نعم
– ولماذا لم توقظاني لوداعه وتوصيله إلى الكراج؟
– لم يقبل هو ذلك. قال لندعك تنام، فأنت تحتاج للراحة.

أحـس آدم المحـروم بمشـاعر متناقضـة. أحـس بالإكبـار لموقـف الأب آدم الزاهد، وبالفـرح الخفـي لأنـه سـافر، وأنه الآن وحده مـع ابنته. أحس كلاهما بالحرج، وكأنهما كانا يفكران في هذا الأمر في اللحظة ذاتها. جلس على الكنبة. ظلت هي واقفة. كانت لا تعرف ماذا تفعل، فهي لا تريد أن تغادر الغرفة، وتريد أن تتحدث معه، لكنها لا تعرف كيف تواصل الحديث أو تجد مبرراً لوجودها معه في هذا الوقت في الصالة. سألته:

– هل تريد أن أعد لك الفطور؟
– لا أريد أن أضايقك
– أبداً، يسعدني ذلك. هل تريد أن أحمل الفطور لك إلى هنا أو إلى غرفة المكتبة؟

أحس هو أنها تشير إلى أن يذهب إلى غرفة المكتبة التي لم تطرأ على ذهنه أبداً أن يختلي بها هناك، فربما هي أرادت ذلك كي لا يفاجئنا ابنها الذي ينام معها في سريرها في الغرفة المقابلة للمطبخ. نظر إليها فأحس أنها مثارة في هذا الفجر البغدادي. لاسيما وأن طعم قبلاتهما مساء أمس ما زال يوقظ الرغبة في جسديهما. إبتسم لها إبتسامة ذات مغزى وكأنها تؤكد على ما بدأه في المشتمل مساء أمس، وقال لها:

– هناك أفضل طبعا. هل الملاك الصغير نائم؟

ارتسمت إبتسامة جذابة على وجهها الجميل، وكأنها فهمت مغزى إشارته، وقالت:

– إنه لا يستيقظ الآن، ربما بعد ساعة أو ساعتين.
– إذن. سأصعد قبلك إلى هناك.

غادرت هي الصالة مرتبكة بالرغم من أن عينيها اتقدتا بالفرح والرغبة الجارفة، بينما صعد هو إلى الأعلى بخطوات خفيفة، وكأنه لص لا يريد إيقاظ أهل الدار.

كانـت حـواء الزاهـد مرتبكـة جداً. دلفت إلى غرفـة الحمام ونظرت إلى وجهها في المرآة. وبراحة كفّها راحت تفرك وجنتيها لتحمرا قليلاً، ويصعد الدم لوجهها. شـفتاها لاتحتاجـان لأي أحمـر كـي تمنحهمـا اللـون، إذ أنهما مثل حبتـي الكرز الأحمر القاني. رجعت ثانية إلى المطبخ. كانت تستعجل النار لكي تعجّل بغلي الشاي، قبل أن ترفعه عن

عين الطباخ المتقدة. وضعت رغيف خبز ما زال يحتفظ ببعض دفئه، ووضعت صحنين للقيمر وللعسل، ووضعت كل ذلك في صينية كبيرة وأخذت تصعد الدرج بهدوء.

وقفت عند باب غرفة المكتبة مترددة. كانت تعرف أن شيئا كبيرا سيحصل بينهما، فهي لم تنس جرأته مساء أمس، حينما قبلها وداعب كل مناطقها الحساسة. أخذت ترتجف من الرغبة والخوف. أرادت أن ترجع نازلة. فأصدرت صوتا خفيا، إلتقطته أذناه اللتان كانتا تتنصتان، فقام فاتحا لها الباب، فاسحا لها الطريق كي تدخل إلى غرفة المكتبة.

لا تعرف هي بالضبط كيف جرت الأمور. ما أن دخلت حتى قبض على يديها. أخذ الصينية منها، ووضعها جانبا، وبدون أية مقدمات أخذها بين أحضانه. لم تعقه العباءة كما في الأمس، لأنها كانت في ثوب بيتي عريض فضفاض، ولا حقيبته الجلدية التي يحملها دائما. كانت هي متهيئة. كانت سهلة. أخذ يقبلها من شفتيها، ويمصهما. وينحدر إلى رقبتها، بينما يده تقبض على وسطها الأسفل. وبدون تردد ألقاها على الكنبة القصيرة في إحدى الزوايا. كانت هي تعرف أنها تنزلق إلى الهاوية. عقلها يمنعها من ذلك لكن جسدها لا يستجيب لعقلها. أخذ يقبلها من عنقها وأذنيها التي أشعلتا النار في جسدها، لم تعرف مثل هذه القبل سابقاً. كان كل شيء يجري بصمت، إذ كانا بالرغم من هيجانهما يحاولان الكتمان كي لا يوقظا الصغير. فتح هو حزام بنطاله، فارتعبت من حركته، لكنه لم يمنحها فرصة لأي فعل عقلي، إذ أراد أن يشل إرادتها. ألقى بنفسه عليها فأحست بثقله الذي بعث الخدر في أوصالها. ومد يده إلى نهديها. سحب ثوبها من أحد جانبيه ليبرز القسم الأكبر من نهدها، وليكبل يدها وكتفها وبذلك شل حركة يدها. أخذ يمص حلمتي نهديها، بينما يده تفك أزرار بنطاله، ثم تسحب ثوبها إلى الأعلى. كانت هي تشعر بأنها تغرق في طوفان اللذة التي لم تعرفها سابقاً قط. أحس بلحم فخذها الأملس الطري. فجأة أحست بيده هناك. في موضع أسرارها، في نبعها الرطب، الأملس. أحست وكأنه سيغمى عليها. ثم أحست به يفرج فخذيها ويصير هناك، بينهما، وها هي تغرق. فجأة أحست بعضوه يخترقها. كانت تهتز وترتجف من تيارات اللذة الجارفة. كانت وكأنها تشعر بطعم الرجل لأول مرة في حياتها. كان آدم المحروم يصعد وينزل فيها بعنف. كانت تشعر أنه لها، وأنها صارت ملكه هو، هو وحده، وأنها تولد من جديد. أحست أنها تودع تلك التي كانت. إنها الآن تشعر وكأنها امرأة أخرى. وفي لحظة ما، أحست به يدفعه فيها بكل قوة وعنف، بينما كان رحمها ينقبض ويرتجف من الذروات المتكررة، وأحست به يغمرها بمائه. فزت، إذ

فجأة فكرت بالحمل. لكنها طمأنت نفسها بأنها أول أمس كانت قد غسلت نفسها من الطمث. ظلت ترتجف من اللذة حتى بعد أن هدأ هو فيها.

ظل هو فيها للحظات ثم انسحب عنها. غطت نفسها مباشرة إذ سحبت الثوب للأسفل. صمت كلاهما. كانا لا يعرفان ماذا يقولان لبعضهما. مدت يدها فاحتضنها، وأجلسها على الكنبة. ألقت رأسها على صدره. وكأنها تستنجد به. كانت غير نادمة، كانت تحت تأثير النشوة التي وصلتها مراتٍ عدة خلال هذا التواصل القصير. كانت قد أطلقت كثافة من الرغبة العميقة في أعماقها للفعل الجنسي ظل حبيساً لسنوات. لذا لم تكن مرعوبة مما قامت به، لكنها بالرغم من ذلك سألته:

– هل ما قمنا به صحيح؟

– ولماذا لا يكون صحيحا؟

– أنا امرأة متزوجة؟

– ثم ماذا؟ أنت امرأة شابة متزوجة، لكنك محرومة من الزوج منذ سنوات، هل تعتبرين نفسك متزوجة؟

– نعم متزوجة، وزوجي في السجن.

– لكنك لا تحبينه

– ثم ماذا؟ هذا لا يبرر ما أفعله.

– لكنك كنت تتعذبين بدون رجل

– نعم.. هذا صحيح.. بل، وبصراحة، هذه أول مرة أعرف فيها معنى الذروة، والرعشة.

– لقد أحسست ذلك.

– لكن هذا الفعل هو زنا

– هكذا يسمى في الدين.

– وفي القانون المدني أيضا.

– لكننا نحب بعضنا.

– أنحب بعضنا حقا؟ أو أنها الشهوة التي تزين لنا ذلك فنطلق عليها اسم الحب؟

– ما هذا الذي تقولين؟

– لا تخف، أنا لا ألومك أنت، فأنا التي طاوعتك على ذلك.

– لكني أحبك..

– وهل تعتقد حقا أنك تحبني، بينما أنت لم ترني سوى مرات قليلة؟

– ماذا بك؟ هل أنت نادمة؟
– لا.. لستُ نادمة. أحس أنني صرت أخف. لكني أخشاك أنت.
– تخشينني؟!
– نعم.. فربما الأمر بالنسبة إليك لا يتعدى نزوة عابرة، وإغواء امرأة محرومة من الجنس
– أنت تسيئين فهمي يا حواء..
– أتمنى ذلك..لأنزل.. علي أن أذهب لأغتسل..

ولم تنتظر أي رد منه. خرجت وتركته في حيرة، لكنه كان في أعماقه يشعر بإسترخاء كبير وبنشوة الإنتصار. فكر مع نفسه أنه أخيرا إستطاع ترويض هذه اللبوة الشرسة التي بدت له كحصن منيع عالي الأسوار لا يمكن إقتحامه، لكنها تهاوت أمام محاولاته، أو بشكل أدق أمام شهوتها الجامحة. إلتفت إلى صينية الفطور. مد يده إلى دورق الشاي متلمساً فوجده ما زال ساخناً. أحس بجوع شديد ورغبة في الأكل، فأحاط بالصينية وأخذ يلتهم الطعام الشهي.

إنتظر لأكثر من ساعة فلم تصعد إليه. أحس بأن ثمة شيئاً غير طبيعي. نزل ببطء شديد إلى الأسفل، إذ كان مع كل خطوة يتوقف متنصتاً عسى أن يسمع شيئا، لكنه لم يسمع أي شيء. حينما وصل إلى أسفل السلم نظر إلى أعماق غرفة نومها فلم يرَ أي أثر لها، لكنه رأى الصبي غارقا في نومه البريء. توجه بخفة نحو المطبخ فلم تكن موجودة. فجأة سمع صوت انهمار الماء في غرفة الحمام التي كانت بابها ليس مغلقاً بشكل نهائي. دفع الباب قليلاً، فهاله ما رأى. كانت حواء عارية تماما، وهي تقف تحت الدش. كانت مثل لوحة لأفروديت التي شاهدها في إحدى ألبومات اللوحات الفنية الموجودة في متحف اللوفر، أو تلك اللوحة الشهيرة لحواء وآدم وهما تحت الشجرة، سوى أن حواءه ذات شعر أسود وشفاه حمراء كالكرز. ما هذا الجمال المذهل؟! إنتبهت هي لوجود خلف الباب. فوضعت دون إرادة منها يدها على أسفل بطنها ويدها الأخرى مدتها لتغطي نهديها. لم يستطع هو أن يقاوم نفسه بالإمتناع عن الدخول. فتح الباب ووقف منذهلا أمام أنوثتها الطاغية. تقدم نحوها فرفعت يدها التي كانت تغطي بها أسفل بطنها ومدتها في إشارة له بأن يتوقف. كانت هي في وسط البانيو. أوقفت إنهمار الماء بتحريك مقبض إنبوب الماء. تقدم نحوها بالرغم من إشارتها له بالتوقف. كانت هي مسلوبة الإرادة. لا تستطيع الصراخ كي لا توقظ ابنها فيأتي ليرى ما هي فيه، وفي نفس الوقت كانت تخاف من نفسها، لأنها أخذت تحس أنها تنجرف في تيار اللذة

والمتعـة المحرمـة، كمـا خافـت مـن جرأته المجنونة. وصل إلـى حافة البانيو. جثا على ركبتيه، فصار رأسه قريباً من وسطها. وبدون شعور، وبصورة مباغته ضمها من وسطها إليه دافنا رأسـه أسـفل بطنها، مقبلاً إياها. كانت هي مندهشـة من هذا التصرف العجيب من قبله. لم تكن تتصور بأن الرجل يمكن أن يقبل المرأة من ذلك الموضع. أحسـت بنشـوة تسـري في جسـدها. ضمت رأسـه بكفيها. وبصوت خافت، ومتوسـل طلبت منه أن يخـرج فربمـا يسـتيقظ ابنهـا. رجته متوسـلة، أن يخرج قبـل أن يصحو ابنها، ووعدته بأن تأتيه ما أن تنتهي، إلا أنه لم يكن يسمعها. جمد كلاهما حينما سمعا صوت الابن الصغير يناديها. رفع رأسه عن جسدها. دفعته جانبا وقفزت خارج البانيو. أخذت ثوبها العريض وارتدته مباشرة دون أن تلبس أي شيء تحته. واندفعت إلى غرفة النوم، لكنها لـم تنـسَ وهـي تخـرج مـن غرفة الحمام أن أشـارت له بـأن يبقى إلى أن تدخل هي إلى الغرفة وتنيمه ثانية. كل هذا أوضحته له بإشارات سريعة. واختفت.

دخلـت حـواء الزاهـد غرفـة نومها وأغلقت بابها بطريقة إنتبه هو لها، فخرج صاعدا إلى غرفة المكتبة كاللص، وحينما صار هناك شعر وكأنه تخلص من فخ عظيم، أحس بهـول مـا اقترفـه، ومـن جنونـه العجيب مع النسـاء. فكر أنها هائلـة الجمال حقا. أحس نحوها بحب كبير، وفكر بأنه لا بد أن يتزوجها.

صحيح هي لا تعرف أن زوجها قد مات منذ أشهر، لكنها لا بد أن تعرف ذلك بعد عودة الأب. وبعد مرور أشـهر العدة لا بد أن يفاتح أباها، وبالتأكيد سيسـألها وسـتقبل. فكر أنه لا بد له أن يستغل هذه الأيام التي يغيب فيها الأب لكي يجعلها لا تستطيع أن تبتعد عنه. فكر مع نفسـه بمكر بأنها أنثى هائلة الجمال، وهائلة في الجنس، ومتعطشـة لـه، وعليـه أن يقودهـا فـي مملكـة اللذة، عليه أن يعلمها كل الأوضاع الممكنة، ومناطق اللذة التي لم تتعرف عليها بسـبب الحياء والتقاليد الإجتماعية والتحفظ الديني. وفجأة تذكـر روايـة صديقـه الكاتـب آدم البغدادي (متاهة حواء – وادي الظلمات) والأسـاليب التـي اتبعهـا قابيـل مـع حـواء المؤمـن أو قبـل ذلك زوجها آدم اللبنانـي، وكيف صارت حـواء المؤمـن هـي التـي تلهث وراء قابيل لكي يضاجعها. نعم. وكذلك تذكر إعترافات إيفا أومسك وعلاقتها بزوج أمها المسؤول الشيوعي. نعم. عليه أن يجعلها تعيش عالماً آخر، بحيث تبقى أسيرته هو. لكن هل سيقضي اليوم كله في البيت معها؟ ألم يتفقا على أن تذهب معه لشراء أثاث للمشتمل الذي استأجره. نعم، فهناك سيكون أكثر حرية، ثم أن الأب ربما يتصل، بالرغم من أنه يشك في أنه سيتصل لأنه لا يريد أن يخبرها وهو هنـاك بمصيـر زوجهـا إلا بعـد عودتـه. وأثناء تفكيره أحس برغبـة كبيرة في أن يراها. ما

الذي يجري؟ سأل نفسه، إنه هو الذي صار لا يستطيع مفارقتها وليست هي.

أخـذ الصينيـة وخـرج بهـا نـازلاً. وبحركة واضحة لكي تنتبه أنه ينزل. حين صار في أسـفل السـلم دخـل إلـى المطبـخ ووضع الصينية هناك، ثم خرج إلـى الصالة. انتبه إلى أن قميصـه كان مبلـلاً قليـلاً نتيجـة ضمه لجسـد حواء العاري. جلـس هناك على الكنبة فـي الصالـة، وبعـد لحظات سـمع صوت فتح البـاب، وفجأة ركض الصبي الملاك إليه، فأخذه بأحضانه وأخذ يقبله ويشمه، وظهرت هي عند الفتحة التي تربط الصالة مع بقية البيت. نظرت إليه بحب. إلتفت إليها قائلاً:

– أعتقد أننا اتفقنا أن نشتري بعض الأثاث اليوم، أليس كذلك؟

– صحيح. لكن الوقت الآن مبكر. لنشرب الشاي ومن ثم نخرج جميعنا.

– أنا شخصيا فطرت.

– اشرب الشاي إذن.

– لا مانع. لكن أفطرا أنتما.

نظـرت إليـه بغنـج وقالـت جملـة لم يكن يتصور أنها سـتنطقها، إذ نظرت إليه بنظرة ذات مغزى وقالت:

– أنا أيضا فطرت، لكن أي فطور..

– كيف كان؟ سأل بخبث وهو يبتسم.

– رهيب.. لم اذق أطيب منه..

– ستفطرين عليه يوميا وفي كل وقت..

لم تقل شيئا وإنما نظرت إليه نظرة امتزج فيها الحياء بالفجور. ومضت وهي تلقي كلمتها قائلة:

– سنرى.

دخلت هي وابنها إلى المطبخ، بينما ظل هو وحيداً في الصالة. فكر مع نفسـه في تحولات الكائن العجيبة. هذه المرأة التي كانت حتى الأمس امرأة متدينة، مكبلة بقيود الديـن والتقاليـد، والخـوف الإجتماعـي، تتصرف اليوم وكأنهـا امرأة أخرى، وكأنما كل ما كان هو قناع لها ولشـخصيتها، وها هي الآن تنزعه وتظهر على حقيقتها الشـهوانية، الداعرة، المتهتكة.

14

مـمــلكـــة الـشيطــان المؤمــن

كان ذلك اليوم مكتظاً بالأشغال بالنسبة لهما. فقد خرجا مع الملاك الصغير، مروا على محل الأثاث المستعملة، واشتريا ما يحتاجه، غرفة نوم بسيطة، تتألف من سرير عريض لشخصين ظلا يتبادلان النظرات ويبتسمان إبتسامة ذات مغزى وهما يتفحصانه، وخزانة تتألف من أبواب عدة، مع عدة صغيرة من طاولات وطقم كنبات بسيط، واتفقا مع صاحب المحل على النقل والتركيب، ولم تكن غالية الثمن، كما مروا على محل الكهربائيات فاشتريا جهاز تلفزيون متوسط الحجم، وغلاية كهربائية للماء من أجل إعداد الشاي، وثلاجة، واتفقا أيضا مع صاحب المحل على نقلها، وحينما انتهيا من الشراء اتفقا على أن يذهب هو إلى المشتمل ليبقى هناك وليساعد العمال عند الضرورة بينما هي تعد الغذاء.

عملية تجهيز المشتمل قربت بينهما جداً، إذ أحست هي وكأنها زوجته، تهتم بكل كبيرة وصغيرة، بل لقد أبدت موهبة خلال التعامل على الأسعار مع صاحب محل الأثاث، بحيث أنزلت السعر إلى نصفه، وكذا الأمر مع صاحب الأدوات الكهربائية حيث أخفضت من السعر المكتوب على جهاز التلفزيون ربعه تقريبا. إنتبه كلاهما إلى أنهما كانا يتصرفان أمام أصحاب المحلات وكأنهما زوجان، وهذا ما بث الفرح في نفسيهما، وحتى حينما افترقا لإنجاز بقية الأعمال، توادعا بسهولة وبدون رسميات. وبينما كان هو في المشتمل مع العمال الذين كانوا يجهزون الغرفة ويركبونها، وبقية العمال الذين نصبوا التلفزيون وأخذوا يجربون البث، قامت هي بجولة سريعة في الأسواق التي في رأس شارعهم، ومن هناك اشترت الصحون والملاعق وكل ما يتعلق بأدوات المطبخ بأعداد قليلة لا تتعدى الأربع أو نصف درزين من كل أنواع الصحون والأقداح. لكنها لم تذهب بها إلى المشتمل بل أبقتها في بيتها، وكانت قد اشترتها من مالها دون أن يعرف. أرادت أن تقدم له هدية.

أحست حواء الزاهد منذ صباح ذلك اليوم بأنها تحب لأول مرة في حياتها، وأدركت

لماذا يتحدث الشعراء عن الحب، ولماذا يبكي العشاق من حرمان الحبيب وهجرانه. الآن أخذت الأشياء تأخذ معنى آخر بالنسبة لها. أحست أنه صار جزءا أساسيا من حياتها. لم يعذبها ضميرها كثيرا، فقد مرت سنوات على إعتقال زوجها، التي لم تشعر يوما ما نحوه بعاطفة، بل ولم يستطع أن يفجر ينابيع اللذة في جسدها، حتى كادت تنسى أنها متزوجة أصلا. الآن ليس في عالمها سوى هذا الرجل الجديد، الجريء، الذي عرف كيف يروضها، وكيف يفرض نفسه عليها، ويقتحمها، ويدخل فيها بكل قوة. لأول مرة تعرف اللذة، وهذه النشوة السماوية، والإرتعاشات الكهربائية التي تكاد يغمى عليها من قوة سريانها في جسدها. بدأت تدرك لماذا يتصارع العالم كله من أجل النساء، ولماذا قتل قابيل أخاه هابيل، ولماذا أخرج الله أبانا آدم من الجنة، ولماذا يسعى الرجال إلى السلطة، لأنها تعني المزيد من النساء، ولماذا وضعت الأديان التي أسسها الرجال الحدود للنساء، بحيث تقيد حركتهن، لأنهن أكثر إدراكا لأهمية الحب في الحياة.

أول الأمر شعرت بشيء من الخجل حينما تذكرت ما جرى صباح اليوم في الحمام، وكيف أنه قبلها من تلك المنطقة التي كانت تخفيها بيديها، وكيف شعرت أنه كاد يغمى عليها من اللذة. لكن كلما تتوغل في الإستذكار واسترجاع المشهد ينقشع عنها الخجل، وتتصاعد في أعماقها الرغبة من جديد، وترحل في تخيل مشاهد أخرى من صنع مخيلتها، لذا فهي تتمنى عودته سريعاً، لكن ماذا ستفعل مع ابنها؟ كيف يمكنها أن تعيش حياتها دون أن ينتبه هذا الصغير حتى ولو كان في الخامسة من عمره؟ إذن عليها أن تنتظر إلى الليل وبعد أن ينام الصغير.

كان الوقت مساءً حينما كانت هي مستغرقة في تخيلاتها الشبقية. في المشتمل كان العمال قد انتهوا من إنجاز كل شيء. أعطاهم بعض النقود كإكرامية لهم على جهودهم، بالرغم من أن التركيب والنقل كان ضمن السعر. وحين عاد إلى البيت كان الظلام قد حل على المدينة المنطوية على ذاتها. كان جائعا فعلاً، فوجد أنها قد أعدت له الرز مع الفاصوليا التي تعرف أنه يحبها، وعلى الرغم من أنها كانت سعيدة سعادة حقيقة بعودته إلى البيت إلا أن شيئا من القلق كان يرتسم على وجهها. أخذ هو الصغير بالأحضان والقبل. كانت عيناها تبرقان وتشعان بالفرح والإمتنان والسعادة الحقيقية، لكن ما أن تنقل نظراتها عنهما حتى تشع عينها بشيء من القلق، فسألها بود ظاهر:

– هل حدث شيء؟ هل هناك شيء؟

إرتبكت لأنه لمح قلقها، فقالت:

– لقد إتصلت بأبي لكن تليفونه كان مغلقاً.

– ربما لم يصل بعد. فالبصرة بعيدة جداً، ومن هناك عليهم أن يتجهوا إلى الفاو، ومن ثم إلى المنطقة القريبة من سجن بوكا. لذلك حتى لو كان قد وصل فأن التعب لن يترك له مزاجا لكي يتصل، وأكيد أنه سيتصل.

– ليست المشكلة أنه لم يتصل، المشكلة هو أنني إتصلت لكن هاتفه النقال كان مغلقاً.

– هوني عليك يا ح..

أراد أن يقول لها ياحبيبتي، لكنه أمسك، لأنه خاف من أن يفهما الملاك الصغير. إبتسمتْ لأنها عرفت أنه أراد أن يقول لها ياحبيبتي. نظرت إليه بعيني عاشقة. ثم قالت لصغيرها:

– إنزل يا حبيبي.. عمو تعبان.. خلينا نأكل وبعدين نلعب.

أنزلَ الصغير من حضنه وجلس على الكنبة المقابلة للشباك وأخذ الريموت كونترول فضغط على زر التشغيل فبدأ التلفزيون يبث من إحدى القنوات العراقية برنامجا توجيهيا في الشريعة وكانت إحدى النساء المنقبات تتحدث عن الحجاب، وتشدد على أن ضحكة المرأة عورة، بينما كان المذيع يسألها أن تشرح له معنى ذلك، فأخذت تؤكد بأن المرأة حينما تضحك وتثير بصوتها الرجل فكأنها قد كشفتْ عن عورة لها. لم يتحمل سماع كل هذه الشعوذات الدينية، وفكر بهذه البلاد التي تتجه إلى المجهول، فأخذ يتنقل بين القنوات، واستقر على قناة تبث أفلاما بالإنكليزية لكنها مترجمة إلى العربية. خلال ذلك ذهبت حواء الزاهد ومعها الصغير إلى المطبخ.

لا يدري آدم المحروم عن سبب الحزن الذي هاجمه فجأة، إلا أنه سمع تلك المرأة التي هي عضو في برلمان بلاده تتحدث عن ضحكة المرأة كعورة. تذكر هجمة بعض أعضاء مجلس العاصمة بالتوجه لإغلاق البارات ومحلات بيع المشروبات الروحية، وإغلاق المطاعم أو النوادي الللييلية في الفنادق، بل وتوجهوا إلى إتحاد الأدباء والكتاب العراقيين أيضا لإغلاق مطعمه وناديه الذي يرتاده بعض الشعراء والكتاب والصحافيين، وعلى الرغم من أنه لا يشرب ولا يدخن، بل أحيانا متباعدة يشرب كأسا من النبيذ، لكنه رفض ذلك بإعتبار أن هذه الإجراءات هي ضمن خطة مدروسة وممنهجة لتحويل العراق إلى أفغانستان ثانية. فكر مع نفسه، إلى أين هم يتجهون؟ ومن أي كهف خرج كل هؤلاء القادة فجأة، بينما لم يسمع أحد عنهم سابقاً؟ وكيف جاءت بهم أميركا إلى سدة الحكم، بل وتعارض أي توجه لإزاحتهم؟ أهذه هي بلاده التي خاضت معركة تحرير المرأة منذ حوالي قرن من الزمان؟ ألم يكن الزهاوي يغرد بقصيدته التي حفظها

حينما كان في الثانوية: إسفري فالحجاب يا ابنة فهر. لقد نسي عجز البيت. أهذه هي بلاده التي استمدت منها العلوم والحضارة؟ وبدون شعور، بدأ يدندن مع نفسه، لكن بصوت مسموع، قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي، وشيئا فشيئا تعالى صوته بحيث صار مسموعا لمن يكون في الغرفة، كان آدم المحروم يحس بأنه مخنوق، ومتشائم ولا يعرف لماذا كل هذه المشاعر قد هجمت عليه فجأة؟ لكنه استمر بالدندنة الغنائية، ظنا منه أن حواء الزاهد وابنها لا يسمعانه:

مُدنٌ بلا فجرٍ تنامْ

ناديتُ باسمكَ في شوارعِها، فجاوبني الظلام

وسألتُ عنكَ الريحَ وهي تَئِنّ في قلبِ السكون

ورأيتُ وجهَكَ في المرايا والعيون

وفي زجاجِ نوافذِ الفجرِ البعيدْ

وفي بطاقاتِ البريدْ

مُدُنٌ بلا فجرٍ يُغطّيها الجليد

هجرتْ كنائسَهَا عصافيرُ الربيعْ

فَلِمَنْ تُغَنِّي؟ والمقاهي أوصدتْ أبوابَهَا

وَلِمَنْ تُصَلِّي؟ أيها القلبُ الصَّدِيع

والليلُ ماتْ

والمركبات

عادتْ بلا خيلٍ يُغَطِّيهَا الصَّقِيع

وسائقوها ميتون

أهكذا تمضي السنون؟

ونحنُ مِنْ مَنْفَى إلى مَنْفَى ومن باب لبابْ

نَذْوِي كَمَا تَذْوِي الزَّنَابِقُ في التُّرَابْ

فُقَرَاء، يا قَمَري، نَمُوت

وقطارُنا أبداً يَفُوت

كانت حواء الزاهد تهّم بالدخول عليه حاملة صينية الطعام حينما بدأ صوته الشجي يتعالى ويُسمع فوقفت عند الباب تستمع إليه. لا تدري لماذا أحست وكأن قلبها يهبط من مكانها في صدرها؟ أحست بحشرجة الحزن تخنقها. لم تسمع كلمات عذبة وحزينة وألماً يصاحبها بهذا الشكل. رجعت إلى المطبخ مسرعة، أراد ابنها أن يذهب إلى الصالة فمسكته وهمست في أذنه ألا يذهب حاليا. خرجت من المطبخ ووقفت عند المدخل إلى الصالة وهي تتنصت إليه وهو يغني، لكن ما تسمعه ليس غناءً وإنما لواعج حزن، عن مدن بلا فجر تنام.. وعن العمر الذي يذوي، وعن العربات التي تمضي وسائقيها الميتين. عن الموت فقرا، وعن القطارات التي تمضي ولا نلحق بها. ياه.. من أين يأتي بكل هذه الأشياء الساحرة والأفكار الجريئة؟ ولماذا هو حزين لهذه الدرجة؟ كم تتمنى أن تسعده وتبعد عنه كل هذا الحزن. ستسعى هذه الليلة بكل تأكيد. رجعت إلى المطبخ وأعطت لصغيرها قطعة النايلون فركض بها إلى الصالة.

دخل الصبي وبيده قطعة النايلون التي تمد على الأرض، ثم دخلت حواء الزاهد وهي تحمل الصينية التي فيها الطعام. جلس آدم المحروم على الأرض ليأكل وأحب الصغير أن يأكل معه، بينما ادعت هي بأنها قد أخذت وجبة الغذاء قبل فترة طويلة. غادرت هي الصالة كي لا تربكه حين يأكل. أعدت الشاي في المطبخ، بقيت هناك لفترة قدرت فيها أنه ربما انتهى من طعامه، وحين دخلت الصالة ثانية كان هو فعلا قد انتهى من الأكل، أما الصبي فقد كان يعبث بالملعقة في صحن الطعام. ما أن دخلت حتى أثنى على طبخها وطعمه اللذيذ. همّ آدم المحروم بحمل الصينية فلم تدعه يفعل ذلك، إذ حملت الصينية، بينما حمل الصغير قطعة النايلون. جلس على الكنبة المواجهة للنافذة، بينما جلست هي على الكنبة المقابلة له. فجأة وبدون أي رابط للوضع قال الصبي بصوته البريء:

– ماما كانت تبكي عندما كنتَ تغني.

أحست الأم وكأنه كشف سرها، فهي لم تشأ أن تحدثه عن ذلك أصلاً، وإنما تسعى لعلاج روحها الحزينة. نظر إليها نظرة استفهام واستفسار، لم يسألها بالقول لأنه نفسه كان مندهشا بأنها سمعته، فقالت بصوت مرتبك:

– لا ابداً.. استوحشتُ غياب والدي، فهو دائما معنا ولم يغب عنا منذ أن خرج من السجن.

– لماذا كل هذا القلق.. هل أنت خائفة لعدم وجوده؟

– لا أبداً.. على العكس.. لكن بصراحة سمعت صوتك.. أنت حزين والكلمات

حزينة جداً، وحتى طريقة الغناء أو اللحن كما يقال حزين جداً.

– هذه قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي.. هل تعرفينه؟

– سمعت به.. كانت له قصيدة في كتاب النصوص الأدبية بالمتوسطة..

– هذا شاعر عراقي جميل.. إلى جانب طبعاً بقية شعراء آخرين.. هل تحبين الشعر؟

– نعم.. قرأت معظم الدواوين الموجودة في مكتبة أبي.

– أوه.. هذا يعني أنك ضليعة بالتراث

– ليس لهذه الدرجة.. لكني أحببت شعراء الغزل والحكمة..وأحيانا أحب المراثي..

– المراثي..؟

– نعم المراثي، وأحفظ أبياتاً من بعضها كمرثية مالك بن الريب ومرثية أبي ذؤيب الهذلي التي رثى بها أولاده، والتي يقول فيها:

أَمِنَ المنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ ... والدهرُ ليس بمعتبٍ مَنْ يجزعُ

قالت أميمةُ ما لجسمكَ شاحباً ... منذ ابتذلتَ ومثلُ مالِكَ ينفَعُ

أمْ ما لجنبكَ لا يُلائِمُ مضجعاً ... إلاَّ أَقَضُّ عليكَ ذاكَ المضجعُ

فأجبتُها أن مّا لجسمي أنهُ ... أودى بنيَّ من البلاد وودَّعُوا

أودى بنيَّ وأعقبوني حسرةً ... بعد الرُّقادِ وعبرةً لا تُقلعُ

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

كان ينظر إليها مندهشاً، إذن فهي ليست تلك المرأة الساذجة التي ربما لا تفهم كل ما يقوله، فقال وعلى وجهه إبتسامة حزينة، لكن عينيه برقتا بفرح خفي:

– إذن.. ما رأيك بطرفة بن العبد؟

– أحب أبياته التي يتحدث فيها عن نفسه، وفهمه للحياة، على الرغم من أني لا أتفق معه فيها، لكن يعجبني حينما يقول: أرى الدهر كنزا ناقصا كل ليلة..... وما تنقص الأيام والدهر ينفد.

وقد اندهشت حينما قرأت بأنه قُتل وهو في بداية العشرين من عمره.

– وماذا يعجبك أيضا؟

– ماذا.. هل تمتحنني بالأدب؟ قالت باسمة.

– لا أبداً.. لكن وكأني أكتشفك من جديد

– ألم تكتشفني بعد؟

– لا.. كل ساعة بل وكل دقيقة أكتشف فيك شيئا مدهشاً.

كانت سعيدة بهذا النقاش بالرغم من أنها كانت تتهيب أن تخوض فيه معه، لكنها حاولت أن تكشف عن معارفها، فعادت للإجابة على سؤاله:

– لا أعرف بالضبط ماذا يعجبني. أحياناً أحب أبياتاً قليلة من قصيدة طويلة جداً، ولا تهمني شهرة الشاعر. فمثلاً أحب الأبيات التالية لقصيدة بن الوردي التي يقول فيها:

لا تقـل: أصـلي وفَصـلي أبـداً إنـمـا أصـلُ الفـتى ما قـد حـصـلْ

ليسَ يخلـو المـرء مـن ضـدًّ وإنْ حـاول العُـزلـةَ في رأس الجبلْ

نظرت إليه محاولةً أن تَرى تأثير ما قرأته عليه، ثم واصلت:

– أحيانا أفكر في نفسي وفي ضدي الذي في داخلي. كثيرا ما أفكر في معنى الضد، لكني وجدت في نفسي شخصاً آخر ضدي، شخص يرفض كل ما أنا عليه، لكن الشخص الآخر هو أنا أيضا.

أحس آدم المحروم أن حواء بدأت تعي تناقضها، أو أنها في توق شديد للتحرر من معتقداتها التي تعيق شخصيتها الأخرى. أحس أنه يحبها، بل يعشقها، فهي إلى جانب جمالها الهائل وشبقها العنيف روح متمردة ومشاعر متقدة. نظر إليها وقال لها بهدوء:

– لكن أتدرين أن الضد الآخر، الشخص الآخر في داخلنا ليس بالضرورة جيدا، لكنه يبقى الوجه الآخر لنا. أتعرفين أن أبا العلاء المعري قد قال في إحدى لزومياته:

مهجتي ضد يحاربني، أنا، مني، كيف أحترس.

– الله.. كم جميل هذا الذي يقوله المعري.

– المعري لديه أيضا قصائد، أو كما تقولين أنت أبيات رائعة.

كان الصبي قد ضاق بحوارهما الذي لا يفهمه. كان يخرج من الصالة ويذهب إلى داخل البيت ويأتي فلا ينتبه إليه أحد فيذهب ثانية، لكن هذه المرة عاد وبيده قطعة كبيرة من الشكولاته. رأته الأم فقامت وهي تبتسم:

– لقد نسيت الشاي على الطباخ.

غادرت الغرفة، وبعد لحظات عادت وهي تحمل صينية صغيرة وفيها استكانان مليئان بالشاي. جلست قبالته. كان الصبي قد أخذ يلعب داخل غرفة النوم. قالت له بحياء:

– اليوم اشتريت لك كل ما تحتاجه من صحون وأدوات مطبخ.
– لكني لم أعطك أي نقود! كم بلغ سعر هذه الأشياء؟
فقالت بإستحياء:
– إنها هدية مني لك.
– هدية منك؟
– نعم.. مني.. ألا يحق لي أن أهديك شيئا؟
– بلى.. أقصد طبعاً. ولكن أنت لا تعملين.. وبالتالي..
– أرجو ألا تعتبرني غريبة.. لأني أحس وكأن هذا من واجبي.. ثم..
أحست بالإرتباك لتكمل جملتها، فسألت عن شيء آخر، قائلة:
– هل أنجز العمال كل شيء؟ أقصد غرفة النوم والأفرشة..والتلفزيون؟
– نعم.. غرفة النوم الآن جاهزة..
كان ينظر إليها بحب ورغبة حينما قال جملته الأخيرة. إرتبكتْ. نظرت إلى الأرض وعلى وجهها إبتسامة من أدرك مغزى الجملة، فقالت:
– أتمنى أن لا تتركنا الآن وتذهب لتنام هناك
إبتسم لها، وقال بشكل أكثر جرأة:
– كيف أتركك الآن؟ هذا بيتي وهناك بيتك أيضا. الآن لدينا مكان خاص بنا..لكن ما دمت وحدك سأكون معك، بعدها سأكون هناك، لكن سيكون هو مكانك أيضا.
صمت كلاهما. الجو بينهما أصبح مكشوفا، ومتوترا بالرغبة والشبق الذي يجتاح أعماقهما، قال لها:
– أين سأنام الليلة. هنا أم في غرفة المكتبة؟
– لا أدري..مثلما تحب.
– أليس من الأفضل أن أنام الليلة في المكتبة؟
– مثلما تحب.. طبعاً سيكون أفضل.
– طيب متى ينام الملاك الصغير؟
– بعد قليل. سأذهب معه إلى الفراش.
– أنا سأصعد إلى غرفة المكتبة، وحينما ينام سنواصل النقاش هناك.
– طيب..
– لكن لا تتأخري
– لا.. لا أتاخر.

قامت لتغادر الصالة، وقبل أن تختفي، قال لها بصوت خافت:

– أنا سأفرش على الأرض كما في كل ليلة، لكني سأصعد إلى غرفة المكتبة، فلربما يأتي الصغير إلى الصالة..

نظرت إليه وابتسمت وقالت:

– أنت تخطط لكل شيء. وتضع كل الإحتمالات.

خرجت. فكر هو مع نفسه، وابتسم إبتسامة داخلية في أعماقه قائلا لنفسه:

– لو تدرين كم خططت لكي أحصل عليك؟.

مرت أكثر من ساعة وهو في غرفة المكتبة، لا يهدأ له بال. متهيجاً، لكن لا يعرف ماذا يفعل، إذ عليه إلتزام الصمت كي لا يثير شك أحد، لاسيما الطفل الملاك، فهو الشاهد البريء على كل ما يدور بينه وبين أمه. وبينما كان هو يتصفح ديوان المعري، سمع وقع خطوات سريعة على السلم. ولمحها تدلف إلى الغرفة. كانت في ثوبها الأسود العريض من الكتفين. لم يتبادلا أي كلام بل ألقت نفسها في أحضانه، فأخذها مباشرة ضاماً إياها إلى صدره، ورفع وجهها بين يديه وأخذ يقبل شفتيها. كانت تلهث، لكنها فجأة قالت له:

– انتظر.. علينا أن نفرش على الأرض..

قالت ذلك وخرجت من الغرفة وفتحت بهدوء غرفة أبيها، ومن هناك حملت بعض الأفرشة التي كانت تستخدم للضيوف. فرشتها على الأرض، فأخذها مباشرة. أجلسها على الفراش، ثم أخذ ينزع قميصه. أحست بالخجل وطلبت منه أن يطفئ الضوء، فقال لها بأنه يريد أن يراها عارية، يريد أن يرى مفاتنها، فقالت لنترك الباب مفتوحا فيضيء ضوء السلم الغرفة أيضا. نزع عنها ثوبها، كما نزع هو بنطاله. لم تكن ترتدي شيئا تحت ثوبها الذي نزعه عنها، فبدت وكأنها تمثال من المرمر ينبض بالحياة والرغبات. أخذ يقبلها من شفتيها. وأذنيها، ورقبتها. فجأة ابتعدت عنه وأوقفته وهي تقول بتردد:

– أنا أشعر بالذنب والخوف.

– لماذا تشعرين بالذنب؟

– لا أدري. لكن ما نفعله خطأ.

– إسمعي يا حواء. أنت امرأة فاضلة، عفيفة، صبورة، وأم رائعة، وابنة مطيعة. لم تفعلي بحياتك شيئا يسيء لأي أحد. وحتى هذا الأمر أنت لست مسؤولة عنه، إذ وجدت نفسك في وضع صعب، وأمام غواية مهلكة. أنت بريئة مما تفعلين، أنت لم تؤذي أحد، ولا أحد يعرف ما تقومين به، أنت امرأة عاشقة، أمرأة تحب

رجلاً ما، وهي تمنح نفسها له باسم الحب وليس باسم أي شيء آخر. أنت امرأة رائعة الجمال، لم أجد في حياتي أجمل منك، بل وها أنا أراك عارية أمامي، لم أجد في كل لوحات العالم، ولوحات الفنانين العظام من رسم جسداً أجمل من جسدك. من نهديك. (رفع ذراعيها وأخذ يداعب نهديها) ولا أجمل من ساقيك (مدت ساقيها لتنظر هي معه إليها) ولا أجمل وأرق من بطنك (وأخذ يمد يده ليداعب بطنها) ولا أجمل من دلتا فينوس الذي لديك (وفرج فخذيها لينظر إلى ما بينهما)، أنت امرأة قامت بكل ما عليها من واجبات، ومن حقها أن تتلمس ولو لحظات نفسها. أنت امرأة فاضلة، بل أنت الفضيلة تمشي على قدمين. يجب أن لا يراودك شعور بأنك تقومين بشيء خاطئ. أنت إنسانة عظيمة، وأنا أحببتك لطهرك، ولصبرك، ولجمالك المذهل.

كان كلامه يمنحها اللذة، ويدفع عنها الشعور بالإثم، بل كانت تشعر وهي تمنحه جسدها وكأنها قديسة تقوم بتقديم أضحية ما. أخذته بين أحضانها راضية ومقتنعة بأن فضيلتها لا تُخدش بهذا الفعل.

لأول مرة أحست بجسده العاري على جسدها العاري، فأخذ يهبط بقبلاته إلى نهديها وبطنها، كانت لا تستطيع السيطرة على نفسها من فرط الرغبة، وبدون أن تتوقع ذلك، فتح فخذيها ودخل برأسه إلى هناك. قبلها و وراح يمرر لسانه على زهرتها الوردية الملساء جداً. لم تسيطر على نفسها فجلست لتسحبه إليها، فأحس أنها جاهزة، فسألها أن كانت تريد منه أن يدخله فيها، فأومأت برأسها إن نعم، لكنه أراد أن يمارس سلطته الذكورية عليها فقال لها: أريد أن أسمعك تقولين ذلك. كانت مترددة، ولم تكن تستطيع أن تقول ذلك. أراد أن يعذبها من خلال إثارتها أكثر دون أن يلبي رغبتها. أصر أن تقول ذلك بنفسها، لكنها لم تكن تستطيع أن تصبر، فقالت بصوت خافت: أدخله. فقال لها: أريدك أن تقوليها بصوت أعلى، فلم تستطع الصبر أكثر، فقالت بصوت مسموع: أدخله، لا أستطيع أن أصبر أكثر. أدخله أرجوك، فأولجه فيها. كانت هي تلهث بصوت مسموع، وترتجف، وكان هو يتفنن في مضاجعتها، فقال لها مرة أخرى ممارساً سلطته عليها، بأن تخبره أن كان يعجبها هذا، فأخذت تهمس بصوت مسموع: يعجني.. يجنني.. أموت عليك.. موتني. وأخذت تلهث وتردد الكلمات الشبقية. أخذها بعنف وبتفنن، فصارت تصرخ به: أنا عبدتك. أفعل بي ما تشاء.. أنا مجنونة بك..ماذا فعلت لي؟ هل سحرتني؟ أنا الآن مجنونة بك، أنا زوجتك أنت، حبيتك أنت، عشيقتك أنت، عبدتك أنت. أحس أنها في ذرى نشوتها، فهمس في أذنها الملتهبة: هل أنت عبدتي؟ فقالت مؤكدة: نعم

أنـا عبدتـك. فقـال لهـا: هـل أفعل بك ما أشـاء؟. قالت وهي تلهث شـهوة: أفعل بي ما تشاء، فقال لها وهو يلهث أيضا: ومن أين ما أشاء؟ فصمتت لبرهة، وفهمت ما يقصده، فقالت: ومن أين ما تشاء. فقال لها: أريد أن أفجر اللذة في كل زوايا جسدك، فتمتمت: فجرها يا حبيبي. أنا كلي لك. فقال لها وهو يلهث شـبقا: عليك أن تجربي كل شـيء. فقالت وهي تلهث: معك سأجرب كل شيء، كل شيء. قال لها: أعرف بعض الأشياء ربما تكون غريبة عليك، لكنك يجب أن تجربيها كلها ومن ثم تختارين أفضلها وأمتعها لك، فقالت وهي ترتجف تحته: سـأجرب كل شـيء معك، كل شـيء معك ممتع. أخذ يدفعـه فيهـا بقـوة ويقـول: أريـد أن تجربي من ثقبك الآخر أيضا. صمتت للحظة وقالت بخفوت: سنجرب، لكن ليس الآن، أرجوك. فقال:لا. أريدك الآن.. كانت هي ترتعش من اللذة، وكانت قد تعرضت لتيار اللذة مرات متكررة. كانت تمني نفسـها بأن يسـتمر هذا طوال الليل كله، لكنها فهمت أنه يريدها من الخلف، وهذا شيء كريه بالنسبة لها، فقالت متوسـلة وهي تلهث: أتوسـل إليك، لنؤجل هذا إلى المرة القادمة. لا أسـتطيع تخيل الأمر، لكنني سأجربه معك في المرة القادمة.

أحس هو بأنه انتصر عليها بالكامل. أخذ يمارس معها كل فنون الجماع وأوضاعه التي أعجبها منه ثلاثة فقط، أخبرته بها لاحقاً.

مرت ثلاث ساعات وهما في حمى الشبق الجنسي، إلى أن تعبا ولم يعد يقدر هو على المواصلة، بينما كانت هي ما زالت تهتز من أي لمسة وتستيقظ فيها الرغبة. وأخيرا تمددا على الفراش، وهو يحضنها ويده تقبض على واديها من الأسفل.

بينما هما مسـتلقيان بإسـترخاء على الفراش سـمعا صوت باب غرفتها في الأسـفل يُفتـح، وصـوت الطفـل الصغيـر يناديها. قفزت مباشـرة وارتدت ثوبها بسـرعة. أشـعلت الضـوء فـي غرفـة المكتبـة. ونزلت مسـرعة إليـه. كان الصغير ما زال في حالة النوم، أي أنه لم يستيقظ بالكامل وإنما كان قد تفقد مكان أمه فلم يجدها، فنهض مناديا لها. لم يطـرأ فـي ذهنـه البـريء أيـن كانت في تلك السـاعة. المهم أنها جـاءت إليه واحتضنته، وذهبت به إلى الغرفة وأغلقت الباب.

لبس آدم المحروم ملابسه على عجل، وحينما أحس بأنها دخلت معه الغرفة ثانية، طـوى الأفرشـة وحملهـا بسـرعة إلـى غرفـة الأب، ونزل إلى الصالـة. كان الوقت مبكرا بالنسـبة له لكي ينام، ولـم يكن بمقدوره أن يواصل معها فقد أنهكته. تمدد على فراشـه مسترخيا. فكر للحظة بسحر التملق والمديح الذي يمكن أن يغوي الرجل به أية امرأة مهما كانت، سـواء كانت قديسـة أم نبية، زعيمة، ملكة، سـجانة، قاتلة، ملكة جمال، أو

حتى الساحرات الشريرات، فالتملق والمديح هو السلاح الذي تعجز المرأة عن مقاومته.

مد يده إلى الحقيبة الجلدية ليواصل قراءة رواية صديقه القتيل آدم البغدادي. سحب الأوراق المتبقية، وقرأ عنوان الفصل: مملكة اللذة المظلمة.

مملكة اللذة المظلمة

مر أسبوع على زيارة إيفا أومسك لجارتها حواء المؤمن، بينما كانت شيرين تأتي يومياً، مؤدية دوامها الرسمي، بالرغم من أنها كانت تبقى معها لساعات أطول مما يحدده الدوام المقرر. كانت لا تعتبر نفسها تعمل في وظيفة إلا أمام الجهات الرسمية الألمانية، إذ تعمقت علاقتها مع حواء المؤمن، وأحست برغبة صادقة في مساعدتها لتيسير تفاصيل حياتها اليومية، وأنها قررت مع نفسها الإستمرار في ذلك، حتى لو تم تسريحها من هذه الوظيفة.

كانت تأتي ما بين الثامنة والتاسعة صباحا. تفتح باب الشقة بنفسها، إذ لديها نسخة من المفتاح. تقوم بإعداد الشاي والفطور الصباحي، الذي أما أن يكون جبناً أو بيضاً، وأحيانا يكون لحماً بالعجينة، تشتريه من المحلات اللبنانية أو التركية المنتشرة في المنطقة. بعد ذلك تقوم بتحضير ما تريده لفترة الغذاء كتنظيف الرز ووضعه في دورق مع بعض الماء بعد غسله، وإخراج اللحم من الثلاجة كي يذوب ويكون أكثر طراوة حين تقبل على إعداد وجبة الغذاء. وكثيرا ما كانت تعد في بيتها بعض الأكلات العراقية الشهيرة كالدولمة وكبة البرغل، والكبة المصلاوية. يحصل أحيانا أن تستيقظ حواء المؤمن مبكرة نتيجة أرق أو سبب ما، فتجدها جالسة في الصالون وهي تنتظرها ناظرة إلى اللامكان.

لقد عرفت الكثير من تفاصيل حياة حواء المؤمن العامة. إذ كانتا تتحدثان خلال الأيام الماضية عن تفاصيل كثيرة في الحياة، لكنها شخصياً لم تتحدث عن نفسها، لأن حواء لم تسألها عن ذلك، بالرغم من أنها أحبت أن تسألها، بل تضايقت في بعض اللحظات من عدم رغبة حواء المؤمن بالتعرف على حياتها وتفاصيلها، واعتبرت ذلك يكشف عن لا إهتمامها بها وبحياتها، لكنها سرعان ما مسحت هذه الأفكار وبررت ذلك بأن حواء المؤمن لديها ما يكفيها من الأحزان، وربما هي لا تريد أن تضايقها بالسؤال وتبدو في نظرها امرأة فضولية، أو أنها تود سماع كل شيء عنها لكنها تخجل من أن تسألها عن حياتها الشخصية فربما هناك أشياء محرجة لا تود البوح بها.

راق شيرين استنتاجها الأخير فقررت أن تبادر هي بإيجاد طريقة ما لتحدثها عن نفسها، فهي تحس بنفسها تكاد تنفجر إذا كتمت كل ماتعانيه في داخلها، ولا تجد من تشكو له وضعها وهمومها. إنها تحتاج لمن تشكو له ذلك. صحيح أنها تتمنى أن تجد رجلاً تشكو له معاناتها، بحيث يخفف عنها ويأخذها إلى صدره أو تضع رأسها على كتفه، لكن لا ضير أن لم يتواجد الرجل أن تكون هناك امرأة، فبالتأكيد أنها مهما أرادت أن تتحدث للرجل عن حياتها فأنها لا تستطيع أن تتوغل كثيرا في الشؤون الأنثوية بينما تستطيع ذلك لو تحدثت لإمرأة.

لم تستطع شيرين أن تنام ليلتها. بعد رجوعها في حدود الثامنة والنصف إلى بيتها، الذي يبعد عن شقة حواء المؤمن محطتين بمترو الأنفاق، وبحدود نصف الساعة مشيا على الأقدام، لم تجد ابنها الذي يبلغ السادسة عشر من العمر في البيت، بل وجدت ورقة كتب فيها بأنه خرج مع أصحابه إلى الديسكو وربما سيتأخر. إنقبض قلبها حينما قرأت تلك الأسطر. إنها لا تحب أن يخرج ابنها مساءً يوم السبت ليسهر في الديسكو، فهي لا تأمن للشوارع ليلاً، لاسيما وأنها تسمع عن شجارات بين الشبيبة الألمانية المعادية للأجانب والشبيبة الأجنبية، يصل الأمر أحيانا إلى الطعن بالسكاكين. وعلى الرغم من أن هذه الأحداث نادرة، لكنها تحصل، ومعظمها يحصل ليالي السبت بعد الخروج من الحانات والديسكو، لذا فهي تشعر بالقلق عندما يخرج مع أصدقائه، لكن تفكر أيضا أنها لا تستطيع أن تمنعه، فهو شاب مراهق ولا يمكنها أن تبقيه في البيت، لاسيما في يوم عطلة.

حينما كان صغيرا كانت تمني نفسها بأنه سيكبر وسيعتمد على نفسه، وها هو الآن شاب في السادسة عشر من عمره ولا يحتاج لرعايتها الشخصية، لكنها صارت تقلق عليه أكثر مما عندما كان صغيرا. كثيراً ما تسأل نفسها ماذا ستفعل لو حصل له مكروه؟ ما أن تتخيل ذلك حتى تنهار، وتنهمر الدموع من عينيها، وتبدأ بالدعاء لكي يحفظ الله ابنها. إنها لا تطلب منه شيئا سوى أن يحفظ إبنها من أي مكروه.

ظلت شيرين تنتظر ابنها ساهرة حتى الواحدة بعد منتصف الليل. لقد اتصلت به عشرات المرات لكنه لم يرد على إتصالاتها. أرسلت له رسائل الكترونية لكنه لم يجبها أيضا. كانت تغلي من الغضب والرعب والعجز، وكانت قد أقسمت مع نفسها أن تحاسبه حساباً عسيراً إذا ما رجع، لكنها ما أن سمعت حركة المفتاح في الباب، ورأته داخلاً، حتى أحست وكأنما ثمة أمطار أطفأت كل نار غضبها. وبالرغم من ذلك لم تشأ أن يمر هذا الأمر بدون حساب، فبدأت توبخه على عدم الإجابة على إتصالاتها ورسائلها،

فاعتـذر بأنـه قـد أعّـد الجهاز على وضع الصامت، ولم ينتبه لأي إتصال. أخذت تصرخ به وتتهمه ببلادة الإحسـاس وعدم التفكير في أمه التي يعرف أنها لن تنام إذا ما تأخر، وتوتر الجو بينهما، ومضى كل منهما إلى غرفته. ظلت هي سهرانة حتى ساعات متأخرة بعد منتصف الليل. وحينما بدأت النوم هجمت عليها الكوابيس. هربت من النوم، كي لا ترى كوابيسَ. ظلت جالسة في الصالة. تمددت على الصوفا الطويلة وأخذت الريموت كونترول فضغطته، وبدأت تقلب التلفزيون، فتوقفت عند محطة تبث أفلام توم وجيري الكارتونية. توقفت عندها لتتابع هذه القصص التي ترسم البسمة على الشفاه ولا تحتاج إلى اللغة. ألغت الصوت بالضغط على الريموت كونترول، واستمرت بالمشاهدة. كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد منتصف الليل. ولا تدري كيف صحت عند السادسة. كان توم وجيري مستمرين في مطاردة بعضهما البعض. حاولت أن تنام ثانية لكنها لم تستطع. قامـت إلـى المطبـخ. فتحـت الثلاجة فرأت أن البيض والجبـن والحليب كلها موجودة، فاطمأنت إلى أن ابنها سيصحو وحده ويجد كل شيء. وبالرغم من أنها أرادت أن ألا تخرج قبل أن تتصالح معه، لكنها فكرت بأن اليوم هو الأحد وليس لديه مدرسة لذا فأنها تستطيع أن تراه لاحقاً. لتتركه يشبع من النوم الهنيء. نزلت إلى المخبز التركي القريب. إشترت منه خبزا حارا وست قطع من اللحم بالعجين، واتجهتْ إلى شقة حواء المؤمن.

صارت حواء المؤمن بالنسبة لها شيئا مهما وأساسيا في حياتها، ليس الأمر متعلقاً بأن في خدمتها يكمن مصدر رزقها الذي تتقاضاه من دائرة العمل، وإنما لأن هذا المرأة التي اسمها حواء المؤمن هي كائن مليء بالألغاز والغموض، وهي تحب أن تحل لغز هذا الكائن. صارت متعلقة بها، وتتمنى أن تعيش معها ليل نهار. بالرغم من أنها عمياء، وقليلة الكلام، لكنها امرأة مثيرة، جميلة، وطيبة، بل إنها امرأة مؤمنة، صالحة، فيها شيء من سمو القديسات.

جاءت هذا اليوم مبكرة. كانت تتوقع أن ترى حواء جالسة في الصالة. حينما دخلت الشقة لم تجد أحداً ينتظر، فأحست بشيء من الإحباط. فكرت أن توقظها لتفطرا معا، ما دامت قطع اللحم بالعجين ساخنة، لكنها فكرت أن تدعها تنام لبعض الوقت، بينما قامـت هـي بإعـداد الشـاي. حينمـا أعدت كل شـيء، واتجهت إلـى الصالة، رأت حواء تخرج من غرفتها. ألقت عليها تحية الصباح بمرح واسـتعجلتها كي تفطرا معا قبل أن تبرد قطع اللحم بالعجين اللذيذة.

انتهتـا مـن الفطـور. بقيـت قطعتـان من اللحم بالعجين لم يمسسـهما أحد، لأن كلا منهما أكلت قطعتين. حملت شيرين بقايا الطعام والصحون إلى المطبخ. رتبت الأشياء

هنـاك وقامـت بتنظيـف المطبـخ، ثم بدأت بتنظيف الشـقة والغرف بالمكنسـة الكهربائية التـي تعالـى هديرهـا. كانـت فـي الغرفـة الثانية التي تركت للضيـوف، بالرغم من أنه لم يحصل أن جاء ضيف قط. فجأة توقف الهدير المنبعث من المكنسـة، وجاءت شـيرين إلى الصالة وبيدها ملف متوسـط الضخامة فيه رزمة من الأوراق، ومعنون عليها بخط عريض (**نشيد المتاهة**). توجهت إلى حواء المؤمن وهي تقول:

– هل هذه الرزمة من الأوراق تعود إليك؟

– أية رزمة؟

قالت حواء المؤمن متفاجئة.

– لا أعرف.. مكتوب عليها (نشيد المتاهة).

– لا أعرف عنها شيئا. لكن انتظري، ربما هي للمرحوم زوجي، فقد كان ينوي أن يكتب رواية.

– لا أعرف ماذا أقول لك.. فهي لا تحمل أي اسم على صفحتها الأولى.

– هل لك أن تقرأي لي منها؟

– بكل سرور.

جلست على الصوفا القريبة، فتحت الرزمة، وأخذت تقرأ لها بصوت محايد.

نشيد المتاهة

الإهداء

إلى التائهة حواء وهي تسير مثلي في هذه المتاهة

آدم.

القسم الأول

أنا آدم. أنا الإنسان المارق. جئت هذه البلاد هربا من متاهة الخيبة والدم المسفوح هدراً. هربت من تجار الحروب، وسماسـرة الأديان، وملوك الطوائف، ومن العاهرات المثقفـات اللاتـي يتحدثـن عـن ماركس ولينين وجيفارا والحركة النسـوية وعبد الحليم حافظ، والقوادين الذين يتحدثون عن الثورة العالمية وتروتسـكي الثورة العربية. هربت من بلاد اللعنة والخيبة والأحلام مكسورة الجمجمة.

لقـد عرفـتُ ثـواراً قديسـين دخلـوا مغارات الفكر ولم يخرجـوا منها إلى النور أبداً.

عرفت مناضلين لم يعرفوا الحب يوماً، وحينما أحبوا في خريف العمر كانوا ينطقون كلمات الحب بنبرة حقودة. عرفتُ قادة حزبيين كانوا يتحدثون عن بطولات عجزوا عنها. عرفتُ الكثير الكثير عن حقارات البشر، رجالا ونساء. أنا لستُ ملاكا. أنا حقير مثلهم، أو مثل الكثيرين من أبناء هذا الزمان. قلبي مليء بالقيح منهم. إنه بالون أصفر مليء بالصديد. أنا وغدٌ جبان مسكون بالشياطين. بل بشيطان واحد. شيطان قادر على غواية الجميع. شيطان حكيم، نعم إنه شيطان حكيم لا رجيم، إنه يغويني، ثم يسخر مني، إذ يبين لي تفاهة وحقارة ما قمت به. أأظلم نفسي حينما أتحدث عنها هكذا؟ لا أعتقد.

أنا أكره التواضع المزيف، فهو قناع لكبرياء شخصيات مريضة لا تملك الشجاعة أن تكشف عن نفسها فتلبس قناع التواضع الأحمق. التاريخ تفاهة، وكتّابه سماسرة الدم والرذيلة. ديوثون بملابس مهرجين حمقى. أكره القادة، بكل أصنافهم ومجالاتهم، لاسيما القادة العسكريين والسياسيين، لأنهم يستمدون مجدهم التافه وخلودهم المقيت من موت الملايين. ملايين النكرات، ملايين البشر اللاشيء. الملايين الذين يمثلون الشعب. أكره الشعب لأنه لاشيء، لأنه غبي، وتافه، ولا يتعظ من كتاب التاريخ الدموي، فيعيد الحماقات واحدة بعد أخرى.

أكره أن ألعب دور الضحية. صحيح أن هناك من يعشق تمثيل دور الضحية طوال حياته، حتى يتلبسه الدور، فيعتقد أنه ضحية حقاً، فيبكي بحرقة لأنه يشعر بأن هناك من ظلمه وغدر به حقاً، بينما هو في الواقع يقوم بأحط أنواع الغدر والمكر والتزييف، مبرراً لنفسه كل الأعمال القذرة لا لشيء فقط لأنه يشعر بأنه ضحية. هؤلاء يحبون المنخفضات والمناطق الواطئة، وسيبقون واطئين مهما ارتقوا من مواقع. الحياة علمتني بأنه الصراحة حماقة، لكن التملق طريق النجاة للوضيعين.

هل تعرفون معنى أن نتوه عن الطريق؟ معنى ذلك أن تختفي الملائكة الرحيمة، ولا تجد سوى الشياطين التي تحيطنا وتتربص بنا في كل زاوية ومنعطف! هل تعرف ماذا تحس حينما تجد نفسك في مستنقعات رخوة تبتلعك؟

هكذا كانت حياتي. كابوساً مرعباً طويلاً طويلاً. أحيانا أشعر أني كالذئب محكوم عليّ بالركض والهرب، الهرب إلى اللا أين. نعم. إلى اللامكان،إلى اللاإتجاه. أركض وأركض وأركض، وحينما أجد ثمة شجرة أجلس تحت ظلها، لكنني، انتبه، فجأة، إلى أن ثعباناً يلتف على غصنها المتدلي نحوي. ثعبان ينظر إليّ، لكنه لا يهجم عليّ، وإنما ينتظر اللحظة المناسبة له لينقض عليّ. أشعر وكأنيّ ميت في كل لحظة. الرعب يشلني. الحر والرطوبة وهجير الصحراء. هكذا هي الحياة. صحراء على مد البصر، وغابات

كثيفة ملتفة الأغصان، ودوامات مظلمة مخيفة.

أنا آدم، سيد العزلة. لا.. الله هو الأعزل العظيم. أحيانا أفكر بهول العزلة وقسوتها، وثقلها الذي يسحق القلب والعظام والوجود، وأفكر في الله. أفكر في عزلته. وحده. ياه. وحده في عزلته المطلقة. كم كان أعزلَ قبل خلق الكون، ربما خلق الكون ليذهب عن نفسه وحشة العزلة، لا أدري.

إلتهمتُ الكتب وألفتُ المكتبات. أنا مجموعة كتب تمشي. لم يكن لدي ما أشتري به الكتب الغالية، فكنت أشتريها من بعض الشبيبة العراقيين الذين كانوا معنا في معسكرات المقاومة، وحينما تركوا المقاومة جاءوا إلى بيروت، لكنهم عاطلون، لذا كانوا يعتاشون من سرقة الكتب. هم يسرقونها من المكتبات ويبيعونها بنصف السعر أو بربعه أحيانا. وأحيانا كانوا يسألونني إن كنت أحتاج لكتاب معين، فكنت أذهب معهم إلى المكتبات وأشير إلى الكتب التي أريدها، فكانوا يأخذونها بكل سهولة ويضعونها تحت قمصانهم أو بلوزاتهم، ويتصرفون بكل تلقائية تبعد عنهم أي شك، بينما كنت أنا الذي لا أقوم بذلك أرتجف ويشحب وجهي. إلى أن صرت أنا أيضا سارقاً للكتب. بل وصل الأمر بي إلى أن أسرقها ثم أبيعها بعد أن أقرأها. أنا لص الكتب. هذا ما تعلمته من الثورة والمقاومة. وأعتقد أنه درس عظيم. غيري تعلم زراعة الحشيش وبيع المخدرات، والبعض تحول إلى قاتل محترف. إذن أنا خرجت رومانسيا، فلو كنت قد سرقت البيوت التي سافر أهلها، أو سطوت على محلات المجوهرات أو البنوك، لكنت الآن في أحسن حال، وربما كنت قد رشحت نفسي لمجلس بلدي أو نيابي

أذكر أول محاولاتي في كتابة الأشعار والمقالات الصحافية. حينما رجعت إلى بيروت من مواقعنا في أقصى الجنوب، من النبطية، بدأت أنشر في الصحافة الفلسطينية واللبنانية. أذكر أني كتبتُ مقالاً عن كتاب (ربيع أسود) لهنري ميلر، وعدني محرر الصفحة الثقافية بنشره، إلا أن رئيس التحرير إعترض على المقال. هذا ما أخبرني به محرر الصفحة الثقافية، وحينما سألته عن السبب، قال لي إن رئيس التحرير علق بالنص قائلاً: شو ها المئاله عن هالمنيك؟ يقصد أن هنري ميلر منيوك ومأفون. فلنسبح للثورات. فلنسبح لحرية الفكر. فلنسبح للإنتليجنسيا الثورية. هَلِلوّيا للثورات. هَلِلّويا.

رأيت الخياناتِ أمامي. الخيانات بكل أنواعها. الخيانات الأدبية، الخيانات السياسية، الخيانات الوطنية، الخيانات الجنسية، الخيانات الأخلاقية، لا.. طز بالأخلاق.

رأيت القتلةَ في إجتماعات سرية مع قادة الثورات. رأيتُ الليلَ يزحف على المدينة بعيون غاضبة. كنت أحب الشمس وهي تنزل ببطء على أفق البحر. كنت أحب الروشة،

وصخرتها العظيمة. أحب بيروت ست الدنيا. وكنت أحزن لمصابها الأليم. لا ليست القدس من أدخلوا كل زناة العالم إلى حجرتها كما يقول العراقي مظفر النواب، وإنما بيروت. بيروت التي اجتمع عليها كل قوّاديي العالم للمتاجرة بها في مواخير السياسة. هذا زمن القوادين.

رأيت الذئابَ تنهش يوسف، وهو يستنجد بإخوته العاجزين. رأيت شيوخاً لم يعرفوا من الإسلام سوى حق الزواج بأربع وما ملكت أيمانهم. رأيت أخوةً يجربون الجنس مع أخواتهم المحرومات الشبقات. رأيت أبناءً اتخذوا من زوجات آبائهم عشيقات لهم. رأيتُ ثورياتٍ يبدلن العشاق مثلما يبدلن سراويلهن الداخلية. رأيت أبناء مراهقين يغتصبون أمهاتهم. ورأيت ما رأيت. رأيت قائداً عسكرياً يطلب من جنوده أن يفعلوا به وإلا سيحيلهم لمحكمة ثورية. و رأيتُ عشاقاً للحلم وللثورة المستحيلة، فلم يجدوا حياة أفضل من أن يصيروا شهداءَ. هَلِلّويا للشهداء المغدورين. للشهداء الحالمين بعالم نظيف يليق بالبشر. يليق بي أنا آدم.

قرأت في نشيد الإنشاد إن أجعلني كخاتم على قلبكَ، كخاتم على ساعدكَ. لأنَّ المحبةَ قويةٌ كالموتِ. الغيرةُ قاسيةٌ كالهاوية. لَهيبُها لَهيبُ نار لظىً الرب. وقد جربتُ المحبة فوجدتُها قوية كالموتِ، وكذلك جربتُ الغيرة فوجدتها قاسية كالهاوية.

لقد أردتُ أن أجرّبَ قوة نفسي. لكنني كنتُ قبل ذلك مهوساً بالضعف البشري. رأيتُ جارتي المحجبة. جارتي الجميلة. جارتي التي لم تكن محجبة لكنها ذات يوم رأيتها قد تحجبت. فعرفت أنها قاومت محاسن الدنيا وفكرت بما بعد الموت. أردت أن أختبر قوة إيمانها، فبدأت بمغازلتها بعينيّ، ثم بلساني، فارتبكت مثل غزال أحس بالنمر المختفي في الأكمة، وهو عند نبع الماء. كنتُ أعتقد أنني الخاسر، فهي متزوجة، وليست محرومة، وزوجها رجل نبيل، ووسيم. كنت يائسا من إيماني بأن جميع البشر ضعفاء، لكن المرأة المؤمنة والمحجبة، ما أن مسستها حتى انهارت. كانت ضعيفة وسهلة. لم تكن سوى بركان يضع حجابا. وأحببتها محبة قوية كالموت، لكن أخي وصديقي قابيل كرر لعبتي القديمة معها، ومنحته كل شيء بدون سبب، رأيت ذلك. نهشتني الغيرة، والغيرة كانت قاسية كالهاوية.

أنا أيوب قد كرهتُ نفسي.أسيّبُ شكواي. أتكلمُ في مرارة عن نفسي، قائلاً للهِ لا تستذنبني، فهمّني لماذا تخاصمُني.ألكَ عينا بشر أمْ كنظرِ الإنسان تنظرُ. أأيامُكَ كأيامِ الإنسانِ أمْ سنواتك كأيام الرجلِ حتى تبحثُ عنْ إثمي وتَفتشُ على خطيئتي.

أنا أيوب يا ربي. ألم يخاطبكَ أيوبك في الإصحاح العاشر مثلما أخاطبُك الآن.

لماذ أخرجتني من الرحم. كنتُ قدْ أسلمتُ الروحَ ولم ترني عينٌ، فكنتُ كأني لم أكنْ. أليستْ أيامي قليلةٌ؟ أتُركْ. كفَّ عني قليلاً قبل أن أذهبَ ولا أعود إلى أرضِ ظُلمةٍ وظلِ الموتِ. أرضِ ظلام مثل دُجى ظُلِ الموتِ وبلا ترتيبٍ وإشراقُها كالدُجى.

أنا آدم. نَبي اليأْس. المبشر بالخراب، المبشر باللايقين. أنا آدم. أقول لكم، إن في أعماق الإنسان مستنقعات من الرجس، وغابات تلتف على أغصانها أفاعي الخيانة. أنا آدم. جئت لأكشف عن وجوهكم أقنعة الغدر الزاهية. هَلِلّويا للإنسان الغادر.

أنـا آدم، وقابيـل ابنـي، لكنـه هنـا فـي هذا الفصل من المسـرحية صديقي. وعشـيق زوجتـي. عفـوا، زوجـة جـاري المؤمنـة والمحجبـة التـي لا تهـدأ إلا إذا اخترقها رجل. هذه المرأة الساحرة، أم ابني المسخ. زوجة خائنة. هَلِلوّيا للخائنات. هَلِلوّيا لأبناء الزنا.

قابيلُ كان ثورياً، ومقاتلاً كان في المقاومة مثلي. في ليلة ما، وعند الفجر، تسـلل إلى موضع رفيقة لنا، زوجة أحد المقاتلين الذين كانوا قد خرجوا في مهمة، تسلل إلى حيث تنام، وكتم أنفاسها، واضعا الحربة، على عنقها إن همست أو صرخت. وأجبرها علـى أن تنـزع بنطالهـا، وتفـك حزامـه هو أيضا، وتنزعه عنه للأسـفل، وأن تأخذ لسـانه السـفلي لتضعـه فـي فمهـا الأسـفل، في مكانه الحقيقي بين فخذيهـا. وحينما انتهى منها لـم تدعه يذهب، راقها أن تُغتصب. ظل يأتيها كلما سنحت له الظروف، وأحيانا كانت تزوره لموقع حراسته في ساعات الفجر الأولى ليضاجعها. هَلِلوّيا للمغتصبات، للواتي يعشقن الإغتصاب.

وحينما حَمَلتْ، وبدأ الكلام المسـموم ينتشـر في المعسـكر، كيف تحمل وزوجها غائب، فهي ليست مريم العذراء. هرب إلى بيروت، ومنها إلى تركيا، وهو الآن، يعيش على تأريخه الثوري، ويبيع المخدرات، ويتعامل مع المافيا التركية والروسية والشيشانية. ويبالغ في إغواء زوجتي، التي صارت تتظاهر بمضايقتها منه، لكنها تلهث وراءه ككلبة الصيد السلوقية. هَلِلوّيا للثوريين بائعي المخدرات. هَلِلوّيا للمغتصبين والمغتصبات.

كنـت أنـوي أن أكتـب روايـة. روايـة عـن حبيبتـي ابنـة أبـي العبد بائـع الترمس في الفاكهانـي. عـن أم نبيـل صاحبـة المقهـى المثيرة. عن مطعـم التوليدو. عن حلويات أبو علي. عن الجامعة العربية التي تبيع الشـهادات بالليرات. عن جسـر الكولا. عن صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة. عن الأوزاعي، وكورنيش المزرعة والرملة البيضا. عن البربير، وفردان. عن شارع الحمرا. وما أدراك ما شارع الحمرا!!

أردت أن أكتـب روايـة عـن الأصدقـاء العراقييـن الذيـن تـم إغتيالهـم علـى أرصفة بيـروت الغربيـة. عـن المقاومـة الفلسـطينية وشـعراء الرصيف.عـن سـينما التياترو التي

كانت تعرض الأفلام الجنسية عند خط التماس. السينما التي كانت تمتلئ بالفدائيين وبعض الشيوعيين. السينما التي كانت رائحة المني تزكم الأنفاس من جراء ممارسة العادة السرية أثناء مشاهدة الأفلام فيها. هَلِلوّيا للعادة السرية. للعادةالمكشوفة للعلن منذ خروجي من الفردوس.

كنت أنوي كتابة رواية. كنت أنوي أن أتكلم عن مرارة نفسي. لكن نفسي كرهتْ حياتي. لذا كرهتُ أن أكتب الرواية. ولأني مثل الجامعة، قد وجهتُ قلبي لمعرفة الحكمةِ ولمعرفةِ الحماقةِ والجهل. فعرفتُ حينذاك أنَّ هذا أيضا قبضُ الريح. لأنَّ في كثرةِ الحكمةِ كثرةُ الغم والذي يزيدُ عِلماً يزيدُ حُزناً. كما علمت، مثل الجَامعة، أنَّ لكل شيء زمانٌ ولكلِ أَمرٍ تحتَ السماواتِ وقتٌ. للولادةِ وقتٌ وللموتِ وقتٌ. للغرسِ وقتٌ ولقلع المغروسِ وقتٌ. للقتلِ وقتٌ وللشفاءِ وقتٌ. للهدم وقتٌ وللبناءِ وقتٌ. للبكاءِ وقتٌ وللضحكِ وقتٌ. للنوحِ وقتٌ وللرقصِ وقتٌ. لتفريقِ الحجارةِ وقتٌ ولجمعِ الحجارة وقتٌ. للمعانقة وقتٌ وللإنفصالِ عنِ المعانقة وقتٌ. للكسبِ وقتٌ وللخسارةِ وقت. للصيانةِ وقتٌ وللطرح وقتٌ. للتمزيقِ وقتٌ وللتخييطِ وقتٌ. للسكوت وقتٌ وللتكلم وقتٌ. للحبِ وقتٌ وللبغضةِ وقتٌ. للحربِ وقتٌ وللصلح وقتٌ. فأيُّ منفعةٍ لمَن يتعبُ مما يتعبُ بهِ. لأن ما يحدثُ لبني البشر يحدثُ للبهيمةِ وحادثةٌ واحدةٌ لهم. موتُ هذا كموتِ ذاكَ ونسمةٌ واحدةٌ للكلِ فليسَ للإنسانِ مزيةٌ على البهيمةِ لأنَّ كليهما باطلٌ. يذهب كلاهمُا إلى مكانٍ واحد. كان كلاهما من الترابِ وإلى التراب يعود كلاهما. كلُ ما تجدهُ يدُكَ لتفعلهُ فأفعلهُ بقوتكَ لأنهُ ليس من عملٍ ولا اختراعٍ ولا معرفةٍ ولا حكمةٍ في الهاويةِ التي أنتَ ذاهبٌ إليها. هَلِلوّيا للهاوية التي ستبتلعنا جميعا.

القسم الثاني:

ما أن همّتْ شيرين بقراءة القسم الثاني حتى رأت إشارة التوقف من يد حواء المؤمن التي كانت شاحبةً جداً، والتي تمتمت بهدوء وبصوت مختنق: كفى.

إستغربتْ شيرين رد فعل حواء المؤمن، لأنها لم تفهم ما كتبه آدم اللبناني. أحست أنها هلوسات شخص مجنون، لكنها عرفت أن حواء المؤمن تأثرت جداً بما قرأته لها.

لقد أدركت حواء المؤمن بأن زوجها آدم اللبناني كان يعرف بطبيعة علاقتها بصديقه قابيل، ومنه عرفت أنه كان يبيع المخدرات. كما عرفت أنه يائس جداً، وشعرت بتمزقه لأنه أدرك كم هي تافهة، وكم هي خائنة، وكأن الخيانة تسري في دمها، فقد خانت زوجها العراقي الدكتور آدم التائه معه، وخانته هو زوجها الثاني مع صديقه قابيل،

وربما لو استمرا في الحياة لخانته هو أيضا مع شخص ثالث، أهذه هي حقاً؟ عاهرة مبتذلة تتنقل من رجل إلى آخر لاهثة وراء قطعة من اللحم تدخل فيها؟ تأثرت جدا لكثافة الألم والتمزق الذي كان يعانيه، تألمت لأنها لم تستطع أن تفهمه، أو تحس به، لماذا لم تجد هذا الرزمة من الأوراق حينما كان هو حياً، وحينما كانت هي بصيرة؟.

طلبت من شيرين أن ترزم الأوراق من جديد وتضعها في غرفتها. تحت وسادتها. فقامت شيرين بذلك بكل سرور. فجأة سُمع رنين الجرس. خرجت شيرين مسرعة من غرفة نوم حواء المؤمن واتجهت نحو الباب الخارجية. فتحتها، فمرقت إيفا أومسك داخلة وهي تلقي تحية الصباح عليهما، ثم انحنت على حواء المؤمن وقبلتها من جبينها. إبتسمت حواء المؤمن لها وهي تحاول أن تكتم حزنها، قائلة:

– أكيد أنك لم تفطري بعد

– هذا صحيح..

– إذن جئت في الوقت المناسب، لدينا لحم بالعجين. كانت شيرين قد اشترت ست قطع، أكلنا أربع وبقيت أثنتان.

– هذا شيءٌ شهي حقا.

وبدون أي إشارة أو توجيه قامت شيرين بحمل القطعتين المتبقيتين في صحن إلى إيفا أومسك التي شكرتها على ذلك. جاءت لها شيرين بكوب من الشاي أيضا، فأحست إيفا بالدفء والصداقة، وتجلى ذلك في الفرح الذي كان يشع من عينيها.

رن جهاز الهاتف النقال الخاص بشيرين. نظرت إلى الرقم، وقالت لهما:

– إنه ابني ..

إنزوت جانبا لتجيبه. توجهت إلى المطبخ كي لا تزعج الآخرين لأنه صوتها صار يعلو وكأنها كانت تتشاجر معه. كانت تتكلم بالكوردية التي لم تفهما منها شيئا. حينما عادت من المطبخ كانت عصبية المزاج، وقالت لحواء المؤمن بنبرة فيها رجاء:

– سأذهب إلى البيت لساعة من الزمان. فحضرة جناب ابني الموقر الذي جاء في الواحدة بعد منتصف الليل. يتصل الآن بي لأنه لا يعرف أن يطهي لنفسه بيضاً في الدهن، وهو لا يريد ذلك أصلا، ولا يستطيع كي قميصه الذي غسلته له أمس، ويريدني أن آتي له ببعض الحلوى التركية من المحل التركي، ولفة شاورما.

إبتسمت لها حواء المؤمن قائلة وهي تواسيها:

– هوني عليك يا شيرين.. هو شاب، كما أعتقد أنك السبب في كل تصرفاته هذه، لأنك ربيته على الدلال والإعتماد الكامل عليك، لذا نشأ كسولا لايعرف

أن يعمل لنفسه أي شيء. لكن هوني عليك.. كل شيء سيكون على ما يرام. ويمكنك أن تبقي هناك إلى أي وقت تشائين. أنا لا أحتاج إلى أي شيء، وإذا احتجت لشيء فهذه إيفا موجودة.

إنحنت شيرين عليها وقبلت رأسها، وألقت التحية على إيفا أومسك وخرجت، لكنها أكدت أنها سترجع بعد ساعة أو أكثر بقليل.

بقيتا وحدهما. كانت إيفا أومسك تدرك بأنها وعدت حواء المؤمن بأن تشرح لها طبيعة عملها، وربما هي تنتظر منها أن تقوم بذلك. نظرت إليها، واستغربت، كما في كل مرة تنظر إليها، كيف أنها لا تستطيع الإبصار. فملامحها، وحيوية نظراتها، وطبيعة حركة جفنيها لا تشيان بذلك. مدت يدها وأمسكت بكف حواء المؤمن التي وضعت كفها على كف إيفا أومسك أيضا. إبتسمت لها قائلة:

– اليوم أراك مبكرة.

– لا أدري يا صديقتي العزيزة حواء. أشعر بأني خفيفة جداً منذ أن اعترفت للراهبتين. أود اليوم أن أذهب إلى الكنيسة. اليوم الأحد، وسيقام القداس في حدود الحادية عشرة والثانية عشرة. أريد أن أذهب اليوم وأشعل شمعة للعذراء.

إبتسمت حواء المؤمن لها بطيبة، وقالت لها:

– كم أتمنى لو أني أستطيع أن آتي معك. وبالرغم من أني لستُ مسيحية لكن بودي أن أشعل شمعة للعذراء.

– ولماذا لا تأتين معي اليوم؟

– لا. ليس اليوم، في المرة المقبلة. أحس أني غير مهيئة لذلك اليوم.

– مثلما تحبين.

– ظننتك لا ترغبين بالعمل أكثر في هذا المجال.

نظرت إيفا أومسك إليها نظرة تأمل وكأنها تفكر بماذا يجب عليها أن تقول قبل أن تجيبها، فقالت:

– أتدرين يا حواء.. سأتحدث بلغة بسيطة حتى تفهميني أسرع. منذ اليوم الأول لي في هذا العمل، أي منذ أن أخذني القواد الذي اشتراني من عشيقي، كنت أحلم، ولمدة أربع سنوات، أن يأتي اليوم الذي أتخلص فيه من هذا العمل. كنتُ أفكر أول الأمر بأنه ما أن تنتهي فترة الأشهر الستة، التي قال لي القواد صاحب العمل بأنها ستكون كافية لتسديد المبلغ الذي اشتراني به، حتى يمكنني بعدها أن أترك العمل نهائيا. ولكن هذا الحقير، صاحب العمل، مدد فترة العقد، الذي أعمل

وفقاً له لمدة ستة أشهر مجانا كي أسترد حريتي ويعطيني جوازي، لمدة ستة أشهر أخرى بحجة أني لم أكن أعمل جيدا، ولم يستطع هو جمع المبلغ الذي اشتراني به. لكن الغريب، بعد انتهاء المدة، وحصولي على جوازي وأوراقي، لم أترك هذا العمل

– لماذا؟

سألت حواء المؤمن.

– القلق النفسي اليومي والمستمر خلال سنة من الزمان.، والتهيج العصبي الدائم، والهواء المحبوس في تلك الأماكن الخافتة الضوء وكأن الإنسان يعيش في كهف، كل ذلك هدم روحي، ولم أجد وسيلة لنسيان كل هذا سوى العودة مرة أخرى والإنغماس في هذا العمل، حتى لا يعد لدي وقت للتفكير. الغريب أيضا، أنه اتسعت دائرة أصحابي، أو لأكن أكثر دقة، دائرة عشاقي.

– عشاقك؟

– نعم. عشاقي. هل تعرفين أننا معشر المومسات لدينا عشاق أيضا، ونقصد بهم هؤلاء الرواد الذين يأتون إلى الماخور، أو المكان الذي نعمل فيه، لكي يضاجعوا واحدة محددة من المومسات، التي تعودوا أن يكونوا معها؟ ثم بدأت أتعرف على هذا العالم من زاوية أخرى، إذ أخذت أعمل لحسابي، أي صاحب المحل يأخذ مني خمسين بالمئة ويعطيني خمسين بالمائة. ثم أخذت أعمل في أماكن عدة.

– كيف؟

سألت حواء المؤمن وهي تتنصت بإهتمام شديد وشغف.

– في برلين هناك أربع شركات كبرى مختصة بالدعارة. شركات تنتج الأفلام الجنسية، وتطبع المجلات، وتبيع أجهزة الجنس المطاطية ومستلزماته، وأيضا تعرض الأفلام، وكذلك الأجساد العارية من خلال الكابينات، وأيضا لديها بيوت خاصة للدعارة، ممتازة، حيث يمكن هناك الدخول في إحدى الغرف مع أي واحدة يختارها الزبون. وهناك تقنيات كمبيوترية لتنظيم هذا العمل وكتلوكات، وألبومات صور توزع على الزبائن، فيها صورة العاملات في هذا المجال مع معلومات عنهن وأسعارهن. ولهذه الشركات فروع في أكثر من مئتين وخمسين مدينة بألمانيا.

– لكنك لست إنسانة خلقت لهذا الشيء فأنت كنت طالبة جامعية. ثم ماذا يقول الناس عنك من الذين يعرفونك بأنك تعملين في هذا المجال؟.

هل تقصدين تلك المبادئ حول الفضيلة والعفة وما شابه؟ من يهمه ذلك؟ أتدرين أن النساء أمثالي لديهن الحظوة في الكثير من الدوائر الإجتماعية المغلقة؟ بل دعيني أقل لك شيئا. نحن اللاتي نعمل بشكل رسمي، وندفع الضرائب على عملنا، لا تمانع الدولة أن تسجلنا كمرافقات إجتماعيات، أو عاملات خدمة، بينما الدولة تعرف جيدا ما معنى ذلك، وأي عمل يُمارس تحت ذلك التوصيف. المهم لدى الدولة نسبة الضرائب التي تستحصلها منا، وهي نسبة عالية، إذا ما نظرنا للدخل اليومي، ولعدد العاملات في هذا المجال. أتدرين أنه يوجد هناك ربما أكثر من ثلاثة أضعاف رقمنا الرسمي من النساء اللاتي يمارسن عملنا نفسه، لكنهن إما ربات بيوت، وإما موظفات، أو فتيات لا يكفيهن مرتبهن؟ إنهن يعملن بالتليفون، بمعنى توجد صورهن في بيوت الدعارة الرسمية، وأرقام هواتفهن، فإذا ما رغب أحد بواحدة منهن، يتصل بالمكتب الذي ينظم كل شيء، حيث يتصل بالسيدة المعنية والتي تم إختيارها، فتذهب إما على عنوان الزبون وإما يتم الإتفاق بأن يأتي الزبون والمرأة المختارة إلى إحدى البيوت الخاصة بالدعارة. طبعاً يتم كل شيء سرا. وإذا ما التقيتِ بواحدة منهن صدفة، فربما ترينها مع زوجها أو صديقها أو ابنتها أو ابنها، ولا يمكنك أو أي أحد أن يتصور أنها مومس حالها حالي. بينما أنا أعمل بشكل يومي، وهي تعمل حسب الطلب. وطبعا أنا أحصل أكثر. بعض أولئك النساء يلجأن إلى هذا العمل لأنهن في حاجة دائمة إلى المال، لأنهن يفتقدنه لشراء حاجاتهن التي لا يسمح مصروفهن أو مرتبهن لشرائها. بعضهن، وهذا يحصل أحيانا أيضا، لا يحتجن للمال، لكنهن يمارسن هذا الشيء أحياناً لإشباع حاجتهن الجنسية، ولأنهن لا يردن علاقة عاطفية مع رجل محدد، لأن ذلك يسبب لهن حرجاً إجتماعيا، فهن يردن المتعة، المتعة الجنسية فقط، وليست العاطفة، لذا يأتين تحت أسماء وهمية ليتمتعن ويذهبن.

– غريب!

– ما هو الغريب؟

– نساء يأتين ليصبحن مومسات مجهولات الإسم فقط من أجل الجنس؟

– نعم..لماذا تستغربين ذلك؟ بعض النساء يأتين ليمارسن أشياء جنسية، أوضاع وممارسات، لا يستطعن ممارستها مع أزواجهن. أنا أعرف قصصا غريبة جداً. حتى أنا الروسية المتحررة والتي أعمل مومسا أستغربها.

– مثلا؟

– بعض الرجال يأتون إلينا من أجل أن نضربهم ونجلدهم. بعضهم يدفع لنا

الكثير من أجل أن يمارس معنا من الخلف لأنه لا يستطيع أن يمارس ذلك مع زوجته المصون. بعضهم يأتي ليتحدث معنا لا أكثر. يدفع المال من أجل أن يجد من يستمع لقصصه عن نفسه وطفولته. الناس هنا يعيشون في عزلة رهيبة يا حواء. إنهم يتبادلون الزوجات أحيانا. بل أنا أعرف أن أحد الرجال يأتي بزوجته لشخص أفريقي. يتركها لديه أسبوعاً كاملاً، يمارس معها ليل نهار، وبعد أسبوع يأتي زوجها ليأخذها. يحدث ذلك كل ثلاثة أو أربعة أشهر، وطبعاً يدفع مبلغاً كبيرا للأفريقي. وهذه المرأة موظفة، وزوجها موظف كبير في شركة. لكنه عاجز جنسيا، ولأنه يحب زوجته، ولا يريد أن ينفصل عنها، وهي تحبه أيضا، ولأنها لا تريد أن تتخذ عشيقاً، لذلك اتفقا على أن يأتي بها لكي تستمتع لمدة أسبوع بكل أنواع الممارسة الجنسية. نحن المومسات أيضا لدينا عالمنا. أحيانا نسمح لمن يعجبنا بأن يتجاوز الفترة الزمنية بقليل، أو نؤدي له بعض الخدمات الجنسية غير العادية.

– لا أفهم؟

– يعني المتفق عليه هو عشرين دقيقة للممارسة العادية، ومن الأمام والموضع الطبيعي طبعاً، وبدون قُبلات أو أي شيء آخر من الخدمات. وإذا زادت الفترة إلى نصف ساعة أو ساعة، فلكل فترة سعرها. القواد الذي يتعامل معنا يأخذ نسبته على الممارسة الإعتيادية، لكن يحدث أن يأتي زبون ويريد أن يقبلنا من الفم، وهذا ما لا نسمح به، لأن قبلة الفم في عرف المومسات لا نمنحها إلا لمن نحبه. أو أن يطلب منا أن نأخذ عضوه بفمنا، أو أن يأتينا من الخلف، وكل هذه الأشياء تعتبر خدمات إضافية عليه أن يدفع مقابلها، لكن يحدث أحيانا أن نتعود على شخص ما من كثرة تردده علينا فتصبح بيننا علاقة أشبه بالصداقة، فنسمح له بهذه الخدمة أو تلك مجاناً. يعني هناك اشياء في هذا العالم الخاص لا يعرفها إلا الذين يعيشون فيه.

– لدي سؤال.. لكني لا أعرف كيف أسأله.

– اسألي ولا تتحرجي.

– هل تستمتعين بذلك، أقصد كم مرة يحصل لك في اليوم، وهل تستمتعين بذلك؟

– لا. لا أستمتع. لكني أصطنع الإستمتاع. نحن المومسات نقوم ببعض الحركات والتأوهات وكأن هذا الزبون هو البطل الوحيد الذي يثيرنا. هذا الأمر يعجب الرجال. لذا يعاود المجيء ثانية، لأننا لو منحنا جسدنا ببرود فأنه من المحتمل

لـن يختارنـي، بـل سـيذهب لواحدة أخرى تمنحه الشـعور برجولته القوية، مهما كان هو ضعيفا.

– لكن أنت.. أنت امرأة شابة وتحتاجين ذلك؟.

– نعم أحتاجه لكن مع شخص أحبه. لذلك إذا أردت أن أمارس الجنس فسيكون مع رجل لا يقايض جسدي بالمال. لكن في عملنا لا نسمح لنفسنا بالوقوع في الحب. وكثير من الفتيات كن عشيقات للقوادين، مثلما أنا تنازلت لعشيقي بأن يسـتخدمني، وحصل الذي حصل. هل تصدقين أننا نمتع أنفسـنا بأنفسـنا أحيانا. وبعضنا اخترن أن يمارسـن حياتهن الجنسـية مع نسـاء أخريات. وبعضنا أصابتها لوثة العشق، فتحب أحد زبائنها، فتعطيه كل ما تحصل عليه. نحن نساء معذبات.

– ألا تحنين للإستقرار وتكوين عائلة؟

– بلى.. أنا امرأة. أفكر بترك العمل. لقد جمعت مبلغا محترما ربا سـأفتح لنفسـي مشروعا تجاريا. لا تستغربي فالكثير من سيدات المجتمع كن مومسات سابقات. أتمنى أن تولد في أعماقي مشـاعر الحب تجاه رجل. أتمنى أن يخفق قلبي له. لكن ذلك لم يحصل لي، بعد أن دخلت مملكة اللذة المظلمة.

ما أن إنتهت إيفا أومسك من سرد تفاصيل عالمها حتى انتبهت إلى أن حواء كانت في حالة غير طبيعية. إذ كان وجهها شـاحبا يميل إلى الخضرة، وكانت ثمة تشـنجات تظهـر وتختفـي علـى عضـلات وجههـا، خدهـا وجبينها، وكانت ثمـة رجفة على طرفي فمها. ارتعبت إيفا أومسك، فمسكت يدها وسألتها بخوف:

– ماذا بك يا جارتي؟

كانت يد حواء المؤمن ترتجف، بل كل جسدها كان يرتعش. تحركت حواء وكأنها تريد أن تتمدد على الصوفا، وقالت بصوت متعب:

– أريـد أن أرتـاح قليـلاً. أحـس وكأن قلبـي قـد هبط من صدري بين ضلوعي، وأن جسدي لا يقوى على المقاومة. أريد أن أتمدد قليلاً. لا تخافي يا إيفا. يحدث هذا معي منذ فترة، أي ما بعد الحادث. تمر الحالة لدقائق وتمضي.

– سأتصل بالطوارئ. لا بد من نقلك إلى المستشفى، فربما هذه ذبحة صدرية

– لا داعـي يـا عزيزتـي. أنـا بخيـر. سـتمضي هذه الحالة بعـد دقائق. فقط لا تقلقي أرجوك.

– هذا كله بسببي. أنا رويت لك عن هذه العوالم التي تقبض على القلب وتعصره عصرا.

– لا أبداً يا إيفا. هذا الأمر يحصل لي للمرة الرابعة. سيمر بعد دقائق.

نهضت إيفا أومسك من مكانها واتجهت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة الماء. صبت الماء في كأس وجاءت بها إلى حواء المؤمن، جلست إلى جانبها. أسندت رأسها بحضنها ووضعت الكأس على شفتيها. ارتشفت حواء المؤمن بعض رشفات من الماء. بينما وضعت إيفا الكأس على الطاولة الزجاجية، وأخذت تفرك كفي حواء، ثم تمسد جبينها. وبعد دقائق عادت حواء المؤمن إلى حالتها الطبيعية. إبتسمت لتراها إيفا أومسك قد عادت لوضعها الطبيعي. قالت لها إيفا بخوف واضح في النبرة:

– لقد ارتعبت من أن يحصل لك ما يعرض حياتك للخطر

– لا عليك. كم الساعة الآن؟

– في حدود العاشرة.

– لقد قررت أن آتي معك إلى الكنيسة. أحس أني مهيئة الآن لذلك. أريد أن أشعل شموعاً عدة للسيدة العذراء. أنا أحبها بالرغم من أني لستُ مسيحية. أحس أنها عانت كثيراً. عانت من رجال زمانها، من أقاويلهم وإشاعاتهم. أحس أنها قريبة من كل المظلومين والتعساء في هذا العالم.

نظرت إليها إيفا أومسك بحنان والدمع يترقرق في عينيها، وقالت:

– إنها كذلك. إنها شفيعة كل التعساء والمظلومين والمذلين والمهانين في هذا العالم. لكن ماذا عن شيرين؟

– ماذا بها؟

– ماذا لو جاءت ولم تجدنا؟

– لا تخافي ستنتظرنا.

– هل أنت متأكدة من أنك تريدين أن تأتي معي؟

– سآتي معك.

– إذن، سأكون في غاية السرور. وستسر العذراء أيضا بوجودك. إذن علينا أن نذهب قبل وقت القداس، ليتسنى لنا أن نشعل الشموع.

كان وجه حواء المؤمن شاحباً، لكنه كان يتألق بحزن شفيف. كانت وكأنها تنتظر شيئا خارقاً سيحدث.

آدم البغدادي: أحس أنه يجب العودة إلى نشيد المتاهة لآدم اللبناني. يجب تكملة قراءته. هل تشعر حواء المؤمن بقرب النهاية؟ لا أدري.

شعر آدم المحروم بالخوف من تطور أحداث الرواية بهذا الإتجاه، واستغرب سعة معرفة صديقه الكاتب بعالم الدعارة في ألمانيا. فكر مع نفسه، لمن تشبه حواء الزاهد بين كل هذه الشخصيات؟. وضع رزمة أوراق المخطوطة جانباً.

ظل يحدق في سقف الغرفة وهو مستلق على فراشه، فكر أن ينهض ليطفئ الضوء وينام، وما أن هم بذلك حتى رأى حواء الزاهد واقفة تنظر إليه. فوجئ بوجودها، فسألها بصوت خافت:

– هذه أنت؟ منذ متى تقفين هنا؟

– منذ عشر دقائق. كنت أنظر إليك وأنت تقرأ في الأوراق التي لديك ومستغرقاً في القراءة فلم أشأ أن أزعجك، ثم أني كنتُ مستمتعة فعلاً وأنا أراك تقرأ، وكنت أتوقع أن تنتبه لوجودي. لكنك لم تنتبه.

– صحيح. كنت مستغرقا في قراءة رواية صديقي القتيل آدم البغدادي. لكن لماذا تقفين هكذا؟

لم تجبه وإنما توجهت مباشرة إلى حيث زر الكهرباء فأطفأت النور، ثم مشت إلى حيث يتمدد فتمددت إلى جانبه. مد هو الغطاء عليهما فصارا تحت الغطاء ولم يبرز منهما سوى رأسيهما. كانا يشعران بالحميمية في العلاقة. كانت هي سعيدة بمغامرة الحب هذه. احتضنها. مد يده إلى تحت ثوبها وأخذ يمرر كفه على فخذيها الملساوين. وشيئاً فشيئاً رفع كفه إلى الأعلى. فتحت هي ساقيها لتسهل له مداعبتها. أخذ هو بدوره كفها ووضعها على عضوه. شعرت بالخجل فسحبت يدها، لكنه أصر في الظلمة أن تمسكه. مسكته، وشيئا فشيئا أخذت تداعبه. قالت له وهي مثارة، وفي نبرات صوتها فحيح رغبة تتصاعد:

– أنت جريء. بل وفاسق. يبدو أن لديك تجارب كثيرة مع النساء، أليس كذلك؟

أحس أنها سترجع لطبيعتها الأنثوية بالنبش في تجربته مع النساء وتأريخ علاقاته، لكنه أحس من أنه يمكنه الإستفادة من هذا السؤال، فقال لها:

– لقد تعلمت من النساء الكثير. هناك أشياء تمارسها النساء مع الرجل، تعلمته منهن.

– مثلاً؟ أي شيء تفعله النساء الأخريات؟

– أتريدين أن تعرفي فقط أم أن تفعلي أيضا؟

– أنا لا أعرف أصلاً ما هو ذلك الشيء حتى أقرر.

وبـدون كلام نـزع عنـه كل مـا كان يلبسـه. صـار عاريـاً تحت الغطـاء. كان متهيجاً. أحسـت به، لكنها تفاجأت به وهي يأخذ رأسـها ويسـحبه إلى الأسـفل، إلى حيث كفها تمسك في الأسفل. وقال لها بصوت متهيج:

– أدخليه بفمك.

فجاءه صوتها متهيجا لكنه متردد:

– لا أستطيع ذلك.

– قلت لك جربيه أولاً، بعدها ستعرفين إن كنت تستطيعين أم لا؟

أحس بها وهي تتلمسه بشفتيها، لكنها رفعت رأسها تحت الغطاء وتمتمت:

– لا أستطيع.

– واصلي..

أخذتـه فـي فمهـا. أحـس بها مترددة في أول الأمر، لكنها شـيئا فشـيئا أخذت تتفنن في ما تقوم به. وأخيرا أزاحت الغطاء، وقامت بكامل جسـدها، ومدت إحدى سـاقيها حول جسده، وجلست هناك بالضبط. كانت متهيجة، وكان هو في أعماقها، بل وأعمق أعماقها. كانت هي ترتجف وتهتز من تيارات اللذة التي هجمت عليها. ومن شدة تهيجها تضاعفت رغبته، فبالرغم من أنه كان متعبا، إلا أنه تحرك بكامل جسده، ثم التف عليها وطواها تحته، رافعا ساقيها. كانت هي مبتلة بكثافة. وبحركة مباغتة وغير متوقعة قلبها على بطنها. ومد جسده فوقها.

كانت الظلمة شاهدة على رغباتهما المشتعلة. بينما بدأ الغبش يرش حليبه شيئا فشيئا على سماء الحديقة. مرت ساعة ونصف عليهما. كان جسداهما متعرقين. جلست هي على الفراش. أخذت ثوبها ولبسته. وقالت له:

– سأتركك ترتاح ياحبيبي.

– هل ارتحتِ؟

– جداً، وأنتَ هل ارتحت؟

– نعم. هل أعجبتك الأشياء الجديدة؟

– سأذهب الآن.

– تصبحين على خير

– وأنت من أهله.

واختفت في العتمة، في تلك الفتحة التي تفصل بين الصالة وأعماق البيت، وكأنما غابت في الظلام. بينما أغمض هو عينيه ولم يعرف كيف جاء النوم إلى جفننيه.

15

شمعة للشفيعة العذراء.. شمعة لقبر حواء

أرض منبسطة تشرف على الفراغ. حيث في الأسفل ينبسط الساحل الرملي الغارق الآن بالضباب، وحيث البحر الذي لا يبدو منه غير أفق حليبي وضباب كثيف. وجد آدم المحروم نفسه في ملابس بيضاء، وحذاء أبيض. إنه يقف على حافة القطع ينظر إلى الساحل. لمح قطعة سوداء هناك. لم يتبين ما هي. فجأة، وجد نفسه يمشي على الساحل الرملي. توجه حافي القدمين على الرمل المبتل من حركة المد والجزر نحو الكتلة السوداء التي اتضح له إنها بيانو رويال سوداء، من الخشب الصاج. تقدم نحوها فتحولت البيانو إلى باب خشبي أسود.

دفع الباب فوجد نفسه في قصر أبيض، ينفتح على البحر من خلال شرفة زجاجية كبيرة. الصالة بيضاء. جدرانها مطلية باللون الأبيض. أثاثها كله باللون الأبيض. الشموع التي تتقد على الطاولات الفضية بيض. إنتبه إلى أنه الآن يلبس حذاء أبيض. دخل غرفة جانبية فرأى غرفة بيضاء. تتوسطها مرآة صافية زئبقية البياض. توجه إلى المرآة. نظر إلى نفسه في المرآة فلم يرَ شيئا. مد يده إلى المرآة فأحس أنها طرية. مد يده فدخلت في المرآة. سحب يده بسرعة. سمع هسيسا في الصالة. أراد أن يعرف مصدر الصوت. فتح الباب فوجد الصالة تشتعل بالنيران. النيران تتصاعد لكن دونما دخان. النيران في كل جوانب الصالة، حتى في المواضع التي لا توجد فيها شموع. لكن النار كانت باردة ولاَ تبعث أية حرارة في المكان. أغلق الباب وعاد لينظر في المرآة فرأى صورة للنار في المرآة. لم ير نفسه. ثم فجأة وكأنما لوحة تتبدل. صارت المرآة صافية. ولم ير سوى الضباب. دم ينزل من أعلى المرآة إلى أسفلها ومن جانبها اليمن إلى الأيسر. مد أصبعة إلى الدم ليتأكد منه، فلم يمس أصبعه شيئا. قرّب وجهه من المرآة فلم ير شيئا، فجأة أمتدت قبضة يد فضية خرجت من المرآة. قبضت على ياقته وسحبته بسهولة إلى داخل المرآة.

فزّ آدم المحروم من نومه. نظر نحو النافذة فعرف أنه لم ينم سوى دقائق قليلة. أحس

بالخوف من الحلم الذي أمسك بخناقه في النوم. لا لم يكن حلماً بل كابوس. لكن الذي أثار إنتباهه أنه لم يشعر بالنعاس وغابت رغبته في النوم. أحس بنشاط مفاجئ. حاول أن يضغط على نفسه لكي ينام، لكنه لم يستطع. قام بهدوء وضغط على الزر الكهربائي فأنار الغرفة. أراد أن يسترجع ما رآه في النوم، فلم يستطع سوى إستعادة بعض تفاصيله. أراد أن يجد تفسيرا لذلك فلم يستطع. ما الذي عليه أن يفعله الآن؟ فكر أن حواء ربما تحتاج لساعتين أو ثلاث على الأقل لتستيقظ ثانية. مد يده إلى حيث وضع ما تبقى من رزمة المخطوطة وأخذها ليقرأ. توقف مفكرا مرة أخرى بالكابوس الذي رآه، لكنه لم يجد له أي تأويل. وليهرب من قلقه أخذ يقرأ في رواية (متاهة حواء) من حيث توقف قبل أن تأتيه حواء لتمنحه كل مفاتيحها ومغاراتها وكنوزها.

شمعة للشفيعة العذراء

جلست حواء المؤمن في مقدمة السيارة إلى جانب إيفا أومسك التي كانت خلف المقود. كانت إيفا أومسك تنظر بإعجاب إلى هذه المرأة المسلمة التي تود الذهاب إلى الكنيسة من أجل إيقاد شمعة للعذراء. وجه حواء المؤمن كان مليئاً بالترقب. كانت صامتة. فكرت بأن العذراء أم المسيح من المؤكد ستتفهم خطاياها التي ارتكبتها طوال حياتها. أحست بشيء من العزاء الروحي لهذه الفكرة. أدارتْ إيفا أومسك محرك السيارة، وقبل أن تنطلق قالت لحواء المؤمن شارحة:

– بالنسبة لنا، نحن المسيحيين الأرثودوكس لدينا عدد من الكنائس في برلين، لكن لنا نحن الروس خمس من بينها، والبقية للأغريق والصرب والبلغار وغيرهم، ومن بين هذه الكنائس أنا شخصيا أزور الكنيسة الواقعة في هوهن سولرندام. هناك أحس بالراحة أكثر. لا أعرف لماذا. ربما لأني صرت أعرف الوجوه هناك أكثر. لنذهب إذن.

– لا ضير.. كلها بيوت الله.. ولدينا في القرآن آية تؤكد بأن الإنسان أنى اتجه فثمة وجه الله.

علقت حواء المؤمن على كلامها.

– هذا صحيح.

تمتمت إيفا أومسك. وانطلقت السيارة نحو الكنيسة. قاطعة طرق برلين الهادئة نوعا ما أيام الأحد. وفي الطريق التفت إيفا أومسك إلى حواء المؤمن قائلة وكأنها

تدلي بإستنتاج مهم:

– أتدرين يا حواء أنك إنسانة طيّبة جداً وذات قلب كريم. وأنا شخصياً أحتاج لأصدقاء ذوي قلوب كريمة. من ينظر إليك يعرف أنك عانيت كثيرا، وعرفت آلاماً رهيبة. وبالرغم من أن الآلام تدفع الناس إلى الشر والحقد والكراهية، لكنك بقيت ذات قلب طيب.، بل إنك من معدن هؤلاء البشر الذين كلما مروا بالآلام أكثر تطهروا أكثر وبان وجههم الإنساني أكثر. مثل المعادن النفيسة كلما إزداد إوار النار تخلصت من الشوائب والخبث العالق.

– أنا إنسانة عادية جداً.

علقت حواء المؤمن بتواضع، بالرغم من أن عينيها تألقتا حينما سمعت إيفا أومسك تتحدث عنها. وبدون أن تلفت إلى أية جهة، قالت لإيفا أومسك:

– أنت أفضل مني.

– أنا؟ أنا المومس؟

– نعم أنت. أنت تألمت كثيرا أيضا. أنا تألمت كثيرا حقا. هذا صحيح. لكني لم أمر بالجحيم الذي مررت خلاله أنت.

– أنا ما زلت في الجحيم يا حواء..

– لكنك ما زلت طاهرة القلب. أنت من طيبة قلبك، ومن كبرياء قلبك الكريم، تعتبرين نفسك آثمة، وخاطئة، ودنسة، بينما هناك الكثيرون ممن يعيشون في بيئة أخرى نظيفة، ويلبسون الثياب الأنيقة والغالية، ويتبوّؤون المناصب الإدارية الرفيعة، لكنهم من القذارة والوساخة أن نعالك أطهر منهم. وبالرغم من ذلك فأنت لا تحرصين على نفسك ولا على شخصك.

ترقرقت الدموع في عيني إيفا أومسك عندما سمعت كلمات حواء المؤمن، ثم قالت:

– لقد كنت، منذ لحظة إغتصابي من من قبل زوج أمي أرى نهايتي المخيفة، لكني واصلت الطريق، وكنت كلما أقترب من المصير المحتوم لواحدة مشت في ذلك الطريق الآثم، كنت أتوقع أن تتغير النهاية، أن يأتي البطل المنقذ، الذي ينقذني من هذه النهاية. أشعر دائما بانقباض في صدري وتمتلئ نفسي بالخوف والقلق حينما أنظر لما أنا فيه. حينما أكون وحدي أضطرب كثيرا. أبكي. أفكر بالإنتحار لكني سرعان ما أستبعد الفكرة. أشعر أني جبانة للقيام بتلك المحاولة. نعم. أشعر بأني آثمة. أتدرين يا حواء شيئا؟

– ما هو..؟
– صحيح أني عاشرت زوج أمي. ومنحت ثقتي لرجل باعني لقواد. وصحيح أني صبرت على القواد لأيام عدة وهو يتلذذ من جسدي. لكن حينما أخذني هذا القوّاد لأول مرة للعمل. وأدخلني بيت الدعارة، وفتح لي غرفتي، وأجبرني على لبس أزياء المومسات في ذلك المكان، وأخبرني بأن الزبون الأول سيدخل على بعد دقائق، أتدرين ماذا حصل لي؟ كنتُ أرتجف من الخوف، فلأول مرة أنا أبيع جسدي مقابل النقود. كل ما مضى معي سابقاً كان شهوة مني ورغبة في أن أكون مع رجل، بهذا الشكل أو ذاك، لكني الآن أعمل، أقوم بعمل مقابل المال. كنت أرتجف. الغريب، أن الرجل الأول لم ينتبه لذلك. بل وكان لطيفا. فبهدوء، لاطفني أول الأمر، ثم أخذني برفق. حينها استسهلت الأمر. فليس الأمر صعبا إلى هذه الدرجة، فكثيرا ما كان زوج أمي يأخذني، وبدون رغبتي، بعنف أكبر. بعد ذلك دخل عشرات بل مئات، وصاروا عبر السنين آلافاً، لكني ما زلت أذكر الرجل الأول الذي دفع لي. بل صار يأتيني مرات عدة. حتى حينما انتقلت وغيرت أماكني كان يزورني. كأنه كان يعرفني، فأحيانا كثيرة كان يأتي ليس لرغبة في وإنما ليحدثني عن مشاكله ومصاعبه في العمل والحياة العامة، وعائلته أيضا.
– هل أحببته؟
– لا أعتقد. ربما نشأت بيننا صداقة ما. إنه كان يدفع حتى في المرات التي لم يفعل فيها معي شيئا، يدفع مبلغ ساعة من الزمان ونجلس لنتحدث، أي حديث مدفوع الثمن. كان يجلس ليحدثني عن مشاكله فقط، فهو لم يسألني أبداً عن مشاكلي. ولم يطرأ في ذهنه يوما أن يدعوني لمكان ما، بل فكرت ذات مرة أن أدير الحديث عن حياتي، فلم يتجاوب معي. أعتقد أنه صار يعرفني جداً بحيث كان يعرف كيف يهوي علي بالضربة القاضية إذا أراد. لذلك بدأت أدرب نفسي على سحق عواطفي ومشاعري تجاه الآخرين.
– أنت إنسانة طيبة، بل وتعيسة أيضا.
– الناس الطيبون لا يصلحون لشيء. بداية الأمر كنت أفكر أنه متعلق بي، وربما ستتفتح هذه العلاقة عن شيء ما، لاحقاً، لكني أدركت أنه صار يأتيني بحكم العادة، وأنه ربما لم يجد من يتحدث له عن مشاكله غيري، بالرغم من أنه يدفع لذلك. فحتى بعض المومسات يرفضن أن يأتي الزبون ولا يفعل شيئا، حتى وأن كان قد دفع ما عليه من مبلغ مقرر، لأنهن لا طاقة لهن لسماع مشاكل الآخرين،

فيكفيهن ما لديهن من مشـاكل وآلآم نفسـية، إلى جانب أن البعض الآخر منهن يفسـرن ذلـك بأنهـن غيـر جذابات ولا يسـتحقن عناء مضاجعتهـن، وهذا يجرح كبرياءهن. تصوري هذا هو كبرياء المومسات.

– القبول بالمهانة والذل يحتاج لقوة نفسية كبيرة أحيانا.

بعد نصف سـاعة وصلتا إلى المكان المقصود. كانت الكنيسـة تقع في وسـط مكان مسيج ومحاط بالأشجار، وكانت هناك مساحة كبيرة خصصت كموقف لسيارات زوار الكنيسة. ركنت إيفا أومسك السيارة هناك، و حينما نزلت شبكت ذراعها مع ذراع حواء المؤمن وسـارتا نحو الكنيسـة. حين همتا بالدخول إلى الكنيسـة أحسـت حواء المؤمن بشيء من الرهبة. لم تشعر بالتردد ولا بالخوف ولم تفكر بأنها تعمل شيئا ضد إرادتها أو قناعاتها، على العكس، وإنما كانت تشعر بالرهبة والخشوع.

حيـن دخلـت باحـة الكنيسـة أحسـت أنها فارقت العالـم ودخلت إلى موضع خارج إيقـاع الحيـاة اليوميـة. احتضنـت إيفا أومسـك يدها كي لا ترتبك عند المشـي، لأنها لم تأخذ معها عصاها. كان هناك عدد كبير من النساء الروسيات المسنات، وبعض الشابات، وعدد من الرجال المسنين، وعدد قليل جداً من الرجال متوسطي العمر. وكانت النساء المسنات يضعن الفوطة على الرأس، بل والكثير من الشابات أيضا، حتى إيفا أومسك أخرجت من حقيبتها شالاً خفيفا وضعته على رأسها وكتفيها كاحترام للمكان ولقدسيته.

إزدحمت النسـاء عند المذبح وأمام أيقونات القديسـين والحواريين المتراصفة جنبا إلـى جنـب، تتوسـطها أيقونـة يطغـى عليها اللون الذهبي، مستنسـخة عن أيقونة شـهيرة لفنان الأيقونات الروسي المعروف أندريه ربيلوف. النساء وقفن في صف طويل تقريباً من أجل أن يشـعلن الشـموع أمام أيقونة العذراء، وحينما اقتربت إيفا أومسـك وحواء المؤمن، همست إيفا في اذنها أن تنوي وتطلب ما تشاء في سرها، لأن الأم المقدسة، السيدة العذراء، ستشفع لها من أجل تحقيقه.

رائحة البخور المخدرة والشـمع الذائب، يرافقه تصاعد موسـيقى الأرغن، قد مس شغاف قلب حواء المؤمن التي تقدمت بصحبة إيفا أومسك، التي أمسكت يدها لتشعل الشـمعة ولتضعهـا فـي الأماكـن المخصصـة لهـا. بعض النسـاء انتبهن لمـا قامت به إيفا أومسك، وسألنها بالروسية، بخفوت وتعاطف واضح:

– ماذا.. ألا تستطيع هذه الشابة أن ترى؟

– لا، إنها لا تبصر، كما أنها ليست مسيحية، لكنها جاءت لتشعل شمعة للعذراء..

– لتسـاعدها العذراء، أمنا المقدسـة، ولتفتح لها قلبها وتعيد لها بصرها، ولتشـفع

لها لتحقيق أمنيتها.

علقت أمرأة امرأة بالروسية وبصوت مسموع، لكن حواء لم تعرف أن الحديث يدور عنها.

– يا للخسارة.. هذا الجمال كله ولا ترى

علقت أخرى.

– اسكتوا.. دعوا المرأة في الهم الذي هي فيه.. صلوا من أجلها.. لتشفي العذراء بصرها وتحقق لها طلباتها. علقت امرأة اخرى.

أخذت إيفا أومسك بيد حواء المؤمن وتوجهتا إلى المقاعد الخلفية، حيث يجلس رعايا الكنيسة، للإستماع لموعظة الأب راعي الكنيسة وليشاركوا في طقوس القداس. سرت همهمة بين بعض النساء في الصفوف الخلفية عن الشابة المسلمة التي جاءت لتشعل شمعة للعذراء أم المسيح. بعضهن التفتن نحو الخلف يبحثن عنها، ولم تكن هي تعرف ما يدور، لكن إيفا أومسك كانت منتبهة لكل شيء.

حينما بدأت مراسم القداس وقف الجميع. وقفت حواء المؤمن أيضا بإشارة من إيفا أومسك التي كانت تمسك بذراعها. ولأول مرة تمنت هي لو كانت ترى بعينيها الآن ما يجري، فهي، منذ الحادث، لم تتأسف على فقدانها البصر وتقبلته كعقاب إلهي، لكنها الآن تمنت لو أنها ترى ما يدور حولها. أرادت أن ترى ما يدور هنا هل هو مثل الأضرحة المقدسة في العراق، والتي كانت تزورها سنويا تقريباً؟. وبالرغم من أنها لم تفهم اللغة الروسية التي كانت ترافق مراسيم القداس، لكنها أحست بالقشعريرة تسري في جسدها، من طريقة تلاوة الأدعية والصلوات. مالت برأسها على إيفا أومسك وسألتها بخفوت:

– ماذا يقول؟

– إنه يسبح لله وللروح المقدسة. إنه يقوم بمراسيم الصلاة والقداس. همست إيفا أومسك.

إنتهت مراسيم القداس. وبدأ رعايا الكنيسة يمضون في صف بإتجاه الأب راعي الكنيسة الذي يضع قطعة صغيرة من الخبز الخفيف جدا في فم كل منهم. أخذتا مكانهما في الصف الطويل، وقبل أن تصلا إلى الأب راعي الكنيسة همست إيفا أومسك في أذن حواء المؤمن بأنه يجب أن تفتح فمها حينما يصلان إلى الأب المقدس ليضع قطعة من خبز القداس في فمها. لم تفهم حواء معنى ذلك ولم تستطع أن تسأل عن تفاصيل هذا الأمر، كما أن إيفا أومسك فاتها أن تشرح لها تفاصيل الطقس والقداس. حين وصلتا

إلـى حيـث يقـف الأب المقـدس، فتحـت إيفـا فمها فوضع نيافته قطعـة صغيرة من خبز القـداس فـي فمهـا وتحركـت جانبـا لكـي تكون حواء المؤمن أمامـه. ضغطت هي على ذراع حواء المؤمن كي تفتح فمها. نظر الأب المقدس إلى إيفا أومسك، فبدا لها وكأنه عرف أنها لا ترى، فهزت هي رأسها له بالإيجاب. وضع الأب قطعة خبز القداس في فمهـا. وتحركتـا. نظـر الأب إليهمـا وهما تتحركان. كانت عيناه مليئتين بالحنان والطيبة. كانت حواء المؤمن تعيش مشـاعر روحية عميقة. مشـاعر تتجاوز الأديان والمعتقدات بين البشر. أحست أن الله واحد وهو لجميع البشر، ولكل دينه. لكن الهدف هو نفسه.

حيـن خرجتـا مـن حرم الكنيسـة، أحسـت حـواء المؤمن إنها خفيفـة، وكأنها قد تم تخفيف أثقالها النفسـية، لكنها في نفس الوقت أحسـت انها لا تنتمي لهذه الحياة بعد الآن. شعور غريب راودها وهما تتجهان إلى السيارة.

في السـيارة، وهما في طريق الرجوع إلى البيت، كانت حواء المؤمن صامتة. كان ثمة سـكون وسـلام داخلي يغمرها. حاولت إيفا أومسـك أن تحدثها أول الأمر، لكنها انتبهت إلى أنها غارقة في عالمها الداخلي فلم تشأ أن تزعجها. فجأة شحب وجه حواء المؤمن، انتبهت إيفا أومسك لذلك فلم تجد إلا أن تسأل:

– ماذا بك؟ هل حصل شيء؟ هل تشكين من شيء؟

– لا أبدا، لا أشكو من شيء. لدي شعور بأني سأغادر هذا العالم قريبا.

– ماذا تقولين؟ هل تحسين بشيء بعارض صحي أم مجرد تفكير؟

– إنها رؤيا. هاجس. شعور داخلي.

– هل تريدين أن نذهب إلى المستشفى؟

– لا.لا. أية مستشفى؟ أريد أن أصل إلى البيت فقط.

لم تتبادلا الحديث أكثر. لكن إيفا أومسـك ظلت تنظر إليها بين فترة وأخرى، إلى أن وصلتا إلى البيت.

شـمعـة لقـبـر حــواء

حينما دخلتا إلى الشـقة كانت شـيرين جالسـة وهي في حالة نفسـية صعبة. ما أن سـمعت الباب وهو يُفتح حتى قفزت إليهما، هي تتكلم بما يشـبه الصراخ، لكن بنبرة في توسل:

– قولا لي ماذا أفعل بهذه المصيبة؟ قولا لي ماذا أفعل؟

لم تفهما ماذا تقصد، وما الذي حدث لها، لذا سألتها إيفا أومسك، بقلق:
– ماذا حصل قولي لنا؟ ماذا حصل؟
– ابني.. ابني سيضيع مني..
– ماذا به ابنك؟ هل حصل له شيء؟
– لا..
– إذن ما حصل؟
– إجلسا أولا.. وسأحكي لكما مصيبتي.
جلستا مباشرة، وبقلق تنتظران منها أن تشرح الموقف. نظرت إليهما. أحست أنها أقلقتهما بهذا الإستقبال، فقالت:
– إعذراني لأني استقبلتكما هكذا. لكني مضطرة. أنا أم.. ابني وبعض من أصدقائه تشاجرا مع بعض الشباب الشيشان. وتحدت كل مجموعة المجموعة الأخرى. واتفقت المجموعتان أن تلتقيا اليوم للمواجهة بينهما. وابني ذهب مع مجموعته إلى هناك.
صمت الجميع عند سماع هذا الخبر. تفهمتا قلقها. سألتها حواء بصوت هادئ لايتناسب مع شدة إنفعال ولهفة شيرين:
– ألم تستطيعي أن تمنعيه من أن يخرج؟
– حاولت لكنه لم يمتنع وقال لي إن لم أذهب فسأظل في أعين أصدقائي جباناً. ولا أستطيع بعدها النظر في عيونهم. سأذهب مهما كانت النتائج.
– هل تعرفين العنوان، أقصد أين سيلتقون؟ سألت إيفا أومسك
– لا.. لم يقل لي أين سيلتقون؟
– لو كنا نعرف لأخبرنا الشرطة بالهاتف وشرحنا القضية فربما كانوا يتخذون بعض الإجراءات التي تمنع حدوث أي مكروه.
– ماذا سأفعل.. قولا لي ماذا سأفعل؟
ظلتا صامتتين. كانت إيفا أومسك تنظر إلى شيرين بقلق واضح. بينما قالت حواء بهدوء وبالعربية:
– ليس أمامك سوى الإنتظار والصبر. والإتصال الدائم به. كل خمس دقائق إتصلي به لتعرفي الوضع. لا تقلقي.. هؤلاء الشباب لا يجلبون لأمهاتهم سوى القلق. إذكري الله، فبذكر الله تطمئن القلوب.
قامت شيرين مباشرة إلى الغرفة الثانية وأخذت تتصل به، وسمعتا صوتها وهو

يتعالى بالكوردية. ثم أقبلت عليهما، وهي عصبية، لكنها أهدأ قليلاً وليست خائفة كما كانت حين استقبلتهما، وقالت:

– يقـول إنـه مع أصدقائه يجلسـون الآن فـي المقهى، والمجموعة الأخرى لم تأت حسب الموعد المقرر. وسيعود إلى البيت بعد ساعة من الآن.

– الحمد لله.

قالت إيفا أومسك بالألمانية:

– الحمد لله الذي طمأن قلبك.

قالت شيرين بالعربية. ولم تجد شيرين أمامها إلا أن تقوم وتقبلهما.

ظلت شيرين قلقة. بالرغم من أنها اطمأنت من أن أي شجار بين المجموعتين لن يحـدث، لكنهـا ظلـت شـاردة البـال، إلا أن حـواء المؤمن قدرت الحالـة التي هي فيها، فقالت لها:

– يمكنـك الذهـاب يـا شـيرين. أنا اعرف أنك لـن ترتاحي إلى أن يعود إلى البيت. إذهبي الآن، وربما ستصلان البيت معاً. أنا أعرف أنك سوف تنتظرينه على نار حارقة..إذهبي وانتظريه في البيت. لا تقلقي.

كانت شيرين محرجة على مغادرتها لكنها تعرف أن حواء المؤمن سوف تدفعها دفعا للذهاب لملاقاة ابنها. بقيت إيفا أومسـك معها، ولكي تقضي وقتا أطول مع صديقتها البصيرة قامت لتعد لنفسـيهما شـيئا من الطعام فلم تجد سـوى أن تعد سندويتشـين لهما كما أعدت الشـاي. حواء المؤمن ظلت صامتة طوال الوقت. أكلتا وشـربتا الشـاي بعد ذلـك. كانـت إيفـا أومسـك قـد بدأت تحس بالحرج من صمت حواء المؤمن المسـتمر فأرادت أن تخفف عنهما ثقل هذا الصمت، فسألتها عن زيارة الكنيسة وانطباعاتها عنها:

– ماذا تشـعرين اليوم بعد زيارتك للكنيسـة، وإشـعالك شـمعة ليسوع المسيح وأمه العذراء؟

– أحسست بالهدوء والطمأنينة..

– لكن أما أحسست بشيء من التردد وأنت امرأة مسلمة؟ ألا يخالف ذلك تعاليمكم الدينية؟

– لا أعـرف الكثيـر فـي علـوم الديـن، لكني أعرف أننـا جميعا نصلي لله خالق هذا الكون. وأن الطرق إلى الله متعددة بعدد البشر. كل إنسان له طريقه للوصول إلى اللـه. ولا ضيـر مـا دام الهـدف هـو الوصول إلى الله فأنا أعتقد أن طقوس جميع الأديان واحدة. واليوم أحسسـت بالطمأنينة والسـلام النفسـي، وكأنما كنت أرى

مريم العذراء حينما أوقدت الشمعة، بالرغم من أني عمياء لا أرى، بل والأكثر من ذلك لقد إبتسمت لي.

– صحيح؟

– نعم.. هكذا تصورت، فكما تعرفين أنا عمياء.

– أنا أيضا شاهدتها ذات مرة، وكنت في حالة يائسة، كانت تذرف الدمع شفقة ورأفة بي.

صمتتا ثانية. وعلى غير توقع سألت حواء المؤمن سؤالاً غريبا، إذ قالت:

– هل أنت جميلة؟

– ماذا؟ لا.. أعرف ماذا أقول عن نفسي، لكن يقال لي دائما إني جميلة، لماذا؟

– لا شيء.. الجمال لغز!

– أنت تتحدثين مثل دستويفسكي

– مثل مَن؟

– دستويفسكي. كاتب روسي، عاش في مدينتنا التي أحمل اسمها. فهو أيضا كتب ذات مرة بأن الجمال لغز. وأن الجمال يمكن أن ينقذ العالم.

– ويمكن أن يدمر العالم ويجره إلى المآسي أيضا. أنت مثلاً. لولا جمالك لما اغتصبك زوج أمك، بل ولما أستمر معك. ولما أخذك صديقك في الطيارة إلى شقته، ولما اشتراك الآخر.

– لكن هذا هو الجمال الخارجي، المهم الجمال الروحي..

– ومن يرى الجمال الروحي؟ الناس تنظر لجسدك ولمظهرك الجميل وجسدك المثير، أما الجمال الروحي فلا ينفع مع القباحة، بل ومن يلهث وراء الجمال الخارجي ليس لديه الوقت للتفكير والبحث عن الجمال الروحي كما تقولين. ذلك الجمال يأتي من خلال العشرة، والعيش المشترك، فربما يمكن أن يكتشف الإنسان جمال الشخص الآخر الذي يعيش معه بمرور الوقت، بحيث حتى إذا زال الجمال الخارجي فالجمال الروحي هو الضمان.

– إسمعي، أنا لم أعرف أنك فيلسوفة أيضا. ما تتحدثين عنه أحيانا صادفته في كتب الفن والفلسفة التي قرأتها.

– لست فيلسوفة ولا تلك القارئة النهمة. أنا تلميذة الحياة والآلام والتجارب القاسية. ومنها تعلمت ذلك.

كانتا تتبادلا مثل هذا الحوارحينما اتصلت شيرين بإيفا أومسك، التي تبادلت معها

أرقام الهاتف، فأخبرتها بأن كل شيء تمام، فقد عاد ابنها إلى البيت وهي تعد له الطعام. كانت حواء المؤمن تسمع كلام إيفا أومسك التي كانت تردد ما تقوله شيرين كي تسمعه. وبعد إنتهاء المكالمة أرادت أن تخبر حواء بمضونها فابتسمت وقالت:

– لقد سمعت كل شيء. وفهمت أن ابنها عاد إلى البيت وهي تعد له الطعام.

ظلت أيفا أومسك عند حواء المؤمن إلى المساء، وقبل أن تنهي زيارتها اليومية طلبت إيفا أومسك طعاماً من أحد المطاعم بالهاتف وطلبت بيتزا لها ونصف دجاجة مشوية لحواء المؤمن. بعد نصف ساعة تقريبا كان الطعام على الطاولة الممتدة في المطبخ. بعد ذلك ذهبت إيفا أومسك إلى شقتها لترتاح، لكن قبل أن تخرج قالت حواء المؤمن لها:

– تعال كي أقبلك فربما لا أراك بعد اليوم.

فوجئت إيفا أومسك بكلامها وقالت بقلق:

– ما هذا الذي تقولينه؟ لا. أنا أزعل من هذا الكلام

ثم حاولت أن تكسر هاذ الجو المتوتر والمفاجئ، فقالت بإبتسام ومرح:

– كيف تتركيني وحدي؟

إبتسمت حواء المؤمن وقالت بنبرة ملغزة:

– لن أتركك. فحتى لو رحلت عن هذا العالم فلن أتخلى عنك. والآن قبليني.

لم تعلق إيفا أومسك شيئا فقد ماتت الكلمات على شفتيها. إنحنت عليها وشدتها لصدرها وقبلتها من خديها وجبينها. ترقرقت الدموع في عينيها. نظرت إلى حواء المؤمن نظرة متأملة وخرجت.

لا تدري حواء المؤمن ما الذي أصابها، فهي منذ لحظة خروجها من الكنيسة يراودها شعور بأنها سترحل عن هذا العالم قريباً جداً. ثمة ارتجافات وانقباضات في القلب والصدر والظهر، في الجهة المقابلة للقلب، وثمة تدفق هائل من الذكريات التي لم تفكر أن تستعيدها سابقاً تستيقظ اليوم في ذاكرتها. ظلت بعد خروج إيفا أومسك جاالسة لساعات عدة. كانت تشعر بأن شيئا خارقا ما سيحدث الليلة.

قامت من مكانها في الصالة وتوجهت ببطء شديد إلى غرفة نومها. هناك جلست على سريرها. ظلت جالسة على السرير لفترة طويلة. جالسة كالتمثال. مدت يدها بصورة لا إرادية إلى تحت الوسادة فسحبت رزمة الأوراق التي كانت تحتها. وضعتها في حجرها. إنها تعرف بأن في هذه الأوراق ما خطته أنامل زوجها الثاني آدم اللبناني، وأنها منذ البارحة تحس بتمزق كبير بعد أن قرأت لها شيرين القسم الأول مما كتب.

اغرورقت عيناها بالدموع. انقبض قلبها، وتعرق جبينها. راودها شعور بأنها تنهار جسدياً، لكنها ظلت على جلستها دون أن تتحرك. وفجأة، أحست من خلل الدموع ببصيص ضوء يبرق. أحست بأنه ليس الضوء الذي يضيء في ذاكرتها وإنما هو ضوء حقيقي. وشيئا فشيئا بدأ المشهد يتكشف لها.

حين مدت يدها لتمسح الدمع المتجمع في عينيها رأت ظل يدها تمتد وتمسح جفنيها. بدأت الأشياء مشوشة خلال الثواني الأولى فقط، لكن كل شيء إتضح بشكل صاف بعد لحظات. إذن حصلت المعجزة وعاد إليها البصر.

ظلت حواء المؤمن جامدة في مكانها. تصورت أول الأمر أنها ربما تحلم بأن معجزة ستحصل، وأنها ستبصر، لكنها الآن تأكدت من ذلك حينما ألقت نظرة على الأوراق التي تمسك بها، فقرأت الصفحة الأولى التي كتب العنوان عليها بخط عريض: نشيد المتاهة. إذن عاد إليها البصر. حصلت معجزة السيدة العذراء.

لم تكن تعرف ماذا ستفعل. هل تذهب لجارتها أولاً. لا.لا. ليس الآن. فما يجري شيء غير طبيعي. شيء معجزة، شيء له علاقة بكل هذا الشعور الذي راودها منذ الخروج من الكنيسة. عليها أن تتريث. عليها أن تفكر في ما جرى أولاً.

فجأة انتبهت إلى الأوراق التي بين يديها. إنها تستطيع قرأتها الآن بوضوح. قرأت الإهداء. القسم الأول الذي سمعته. تلفتت فرأت معالم غرفتها. فكرت مع نفسها ربما هي إشراقة الموت التي تدفع بالأجساد البشرية إلى التألق والتوهج قبل الإنطفاء النهائي. وضعت رزمة الأوراق جانباً. قامت بهدوء متوجهة إلى الصالة. وقفت عند الباب. نظرت إلى الأشياء كلها وكأنها تحييها بنظرتها أو تودعها لآخر مرة. توجهت إلى المطبخ فرأت كل شيء. إلتفتت إلى جهة الصالة فوقع بصرها على النافذة. مشت إليها بهدوء وألقت نظرة على المقبرة المقابلة. فجأة فزت وتراجعت خطوة عن النافذة إلى الوراء. كانت الراهبتان تقفان في الجهة المقابلة للنافذة وتنظران إليها. كانت كل منهما تحمل شمعة كبيرة بيدها، واليد الأخرى يرفعانها ويحركانها بالتحية لها.

نظرت مرة أخرى فرأتهما ما تزالان في موقفهما مقابل النافذة على الرصيف من جانب المقبرة. عادت إلى غرفتها. أخذت رزمة الأوراق التي تحمل عنوان نشيد المتاهة. وضعت أوراق القسم الأول على جهة إذ كانت قد سمعت ما دونه آدم اللبناني من شيرين حينما قرأته لها. نظرت إلى الأوراق المتبقية وكانت قليلة جداً. فبدأت تقرأ:

نشيد المتاهة

القسم الثاني

أنا آدم الأحمق. جمجمتي تطن بالذكريات المجنونة. ذبلت زهرة الأمل في المزهرية وتعفنت بل وانبعثت منها عفونة اليأس. أنا أكثر فتوة من الألم نفسه لكنني في أعماقي عجوز هرم. رغبتي أشد بريقاً من عين نسر محنط في متحف للكواسر والخراتيت والماموثات الوحشية. ذكرياتي الحزينة تقودني من أنفي مثل دب حزين ألبسوه ثياب مهرج. أنا الذي أواجه المجهول مثل نحت شامخ وبارز في مقدمة سفينة مهجورة.

إننا أموات. كلنا أموات، ونحاول أن نتظاهر بأننا أحياء. أنا آدم، ملاك رجيم يطل على حافة الجحيم. أنا المنسي من الرب مثل ظلال منسية في خرائب ضائعة. أصمتُ عن خيانات حواء وكأننا شركاء في جريمة.

أليس من الحماقة أن أكتب عن كل هذا الألم والتعاسة؟ كلانا، أنا وهي، ناجيان من زلزال مدينة دفنت تحت الرماد. خطواتنا العمياء تقودنا إلى نفق مظلم لا نرى آخره. نسمع خشخشة الفئران وأصوات مياه مظلمة، وسقوف يقطر منها الماء أو الدم، لا نعرف. خطواتنا كما يبدو تقودنا إلى الهاوية المرعبة.

أمسك الهواء الخانق من عنقه وأخنقه بقبضتي الحقودة. غير أن الريح تأتي لتلقي بنفسها عليّ وتلوي ذراعي وتكبلني مثل مجرم قبل أن تتلو علي حقوقي في الصمت.

ظلي يتجول سكرانَ في الطرقات بينما أنا الأعمى أرى أيامي تسير في النوم بعينين مغمضتين. في غرفتي الوحيدة التي تتوسط الصحراء أرى برابرة في سريري. ألم نكن كلنا بإنتظار البرابرة؟

دائماً، دائماً أفتشُ عن مفاتيحي الضائعة. مفاتيحي التي سقطت مني في بئر النسيان. لأعود بعدها إلى البيت لأجد الخيانة في إنتظاري. أسمع أنفاسها التي تشبه فحيح الأفعى. ترنمي أيتها العاقِرُ التي لم تلدْ. أشِيدي بالتَّرنُم أيتُها التي لم تَمْخضْ لأن بني المستوحِشةِ أكثرُ من بني ذات البعلِ قال الرب لأشعيا فَي الإصحاح الرابع والخمسين. لا تخافي ولا تخجلي لأنكِ لا تستحَينَ فإنكِ تنسينَ خزي صباكِ وعار ترمُلكِ لا تذكُرينهُ بعدُ لأن بعَلكِ هو أنا آدم المجنون.

ثمة رائحة للكاري ورائحة للقرنفل والفانيلا. في حالة وجدي وشطحي للعدم أحرق ما حملته من بخور وأعشاب من جزر الخيبة. وأقول للوجود: طز فيك يا وجود. ما الذي قوس ظهرك يا روحي؟ لماذا أنت حدباء يا روحي؟ وفوق كل هذه العاهات

يسألونني عنك. فأقول إنك ابنة العدم العظيم. فلنسبح للعدم العظيم.

أيـة معجـزة يمكنهـا أن تمنحنـي الأمل؟ كيـف لي أن أعزف وأصابعي مقطوعة؟ أية أوهام تعصف بذاكرة التمثال؟

لستُ شمعة، لا ولا قلب الظلام أنا. كيف لي أن أجعل الذئب يكف عن الركض في الوهاد؟.

هـل أفتـح القبـور كـي يخرج الموتى إلى مقاهي المدينـة ويتجولوا بقاطرات المترو متصفحين جرائد المساء؟.

أريد أن أصرخٍ لكن الصرخة تموت عند حدود شفاهي الجريحة. من يهتم لصرختي، من يهتم بي أصلاً؟ لا أحد.

إذن طز فيكم.

طز في الرجل الذي يموت وحيدا بعد أن هجرته زوجته العجوز مع أبنائها.

طز في المرأة العجوز وأبنائها أيضا.

طز في الأنهار التي تجري ولا يعرف أي أحد عنها شيئا.

طز لليأس الذي ترك لونه الأصفر وصار أزرق.

طز في الأيديولوجيات الثورية وغير الثورية.

طز في بيكاسو وإيلوار.

طز بالمتنبي، ذلك المتزلف الأحمق الذي لا يصلح لإدارة قرية عميان في صحراء.

طز بالتاريخ الأعور.

طز للقراء جميعاً.

طز لي أيضا.

نشيد المتاهة

القسم الثالث:

أنا آدم، أنا الملاح الأعمى، عليّ أن أضغط على أعصابي. أحاول أن أتناسـى إلى أي حد زعزعت خيبة الأمل ثقتي بنفسي. لقد تأكدت من شيء واحد، وهو أن العقائد كلها فاسـدة، خرائط السـماء خاطئة، وتقارير الأنبياء والحواريين، بإكتشـاف الفردوس عند السماء السابعة غير صحيحة، بل وجميع معلوماتي وتجاربي، وجميع ما أنزل من فلسفات، كلها قائمة على خطأ. لماذا تفخر بالشر أيها الملاح الأعمى؟!

لا بـد أن تكـون الأفـكار المزعجـة قـد إنتابتكم مما أقول. ولا بد أن تكون الدنيا قد

أسودت في أعينكم غضباً من هذا المارق المجدف بالمقدسات. لكني أرى ساحل الزمن أمامي قاتماً، عارياً، قاحلاُ يوما بعد يوم. أرى سماء الفكر تزداد عبوساً. فقد أنطفأ النور الأبيض الساطع من جنوب القلب. والغيوم الكالحة تتلبد بها السماء الزرقاء. واختفت الغابات الكثيفة التي كانت تداعب سفن الأحلام المقتربة من الساحل بنسماتها المنعشة. إن عينيّ لا تقعان الآن إلا على طيور الحسد كريهة المنظر، وعلى أفاعي الدين ذات القرن والأحداق الحمراء، ولا ترى على شاطئ الأيام أثراً لكائن حي، لإنسان، على مدى البصر، كأن كل شعلة للحياة والروح قد انطفأت في تلك الفيافي المجهولة. آه يا نفسي. آه يا الله إغفر لي صلافتي في مواجهتك.

القسم الرابع

الصمت

قرأت كتب التنزيل كلها. قرأت كتاب الموتى الفرعوني، قرأت ريغ فيدا والأوبانيشادات، وقرأت لاو تزو، والأفيستا، والتوراة قرأتُ والأناجيل والقرآن، وقرأت ما قرأت. قرأت الباب بهاء الدين. وقرأت لماركس وأنجلز ولينين. وقرأت.. وقرأت.. وقرأت.. لكنني لم أجدها تنفع مع الإنسان. الإنسان ليس أفعى، الإنسان عقدة من الأفاعي ملتفة على بعضها وتبلع أحداها الأخرى في حركة مرعبة. كل هذه الكتب والفلسفة والأفكار لم تستطع أن تبعد الشك عني. اللهم باسمكَ خلصني من شكي وبقوتك احكم لي. اسمع يا الله صلاتي وأصغ إلى تجديفي.

يتحدثون عن الفردوس وكأنه متنزه أو حديقة في وسط المدينة. وكذا يتحدثون عن الجحيم وكأنهم من زبانيته وتقاعدوا عن العمل فيه. يتحدثون عن عذاب القبر وعن الأفاعي والوحوش المرعبة التي تدخل فيه، وكأنهم ليسوا أتقياء وإنما هم أبالسة الجحيم. وكأن القبر سيرك وليس حفرة يطمر فيها الجسد ويهال عليه التراب وماذا عن هنودك وهم يحرقون الجثث، ويذرون رماداً في النهر المقدس؟

إسمعني يا الله.. أنا أشك حتى في نفسي، أشك حتى في شكي.

الموت.. الموت.. الموت هو هدف الحياة ونهاية دورتها العبثية، فلماذا جئنا إذا كان الرحيل هو الهدف؟ أية لعبة تلعبها معنا أيها الخالق؟ لماذا جئنا ولماذا نرحل، ندور وندور مثل فأر في قفص دوار يركض والقفص يدور، لكن ما جدوى السؤال عن معنى الأشياء إذا كنا لا نحظى بالجواب منك نفسك أيها الخالق، وإنما من بعض البشر الذين نصبوا أنفسهم لينطقوا باسمك.

ربما النساء هن الأقرب إلى الخالق من الرجال، لكن لماذا لم نعرف نبيات وإنما أنبياء فقط؟ النساء.. النساء هن الأقرب إلى اللامتناهي، الأقرب إلى روح العدم.

ربما سيأتي من سيقرأ هذه الأوراق، وسيدرك كم هو ساذج أو أحمق، فالكلام فضيحة، الكلام هروب من العزلة. الصمت، الصمت وحده مليء بالأسرار والمفاجآت. الصمت بطولة.

في الصمت وحده أعيش حريتي لذا لن أكتب شيئا. الصمت هو اللانهائي.

إنتهت الصفحات المكتوبة بيد حواء المؤمن، بالرغم من وجود عدد من الأوراق البيض الأخرى ضمن الرزمة التي مسكتها للقراءة. أحست بالخوف من هذه الوريقات التي بين يديها. لم تفهم شيئا واضحا مما قرأت، أكان آدم اللبناني مؤمنا بالخالق أم ملحدا؟

أحست بنغصات في قلبها. راودها إحساس، في لحظة، بأنها مذنبة تجاهه، وأنها لم تفهمه. تصورته رجلاً مستهتراً. يحب النساء والجنس. إنتهازيا. تزوجها من أجل الحصول على الإقامة. ربما كل ما عرفته عنه من خلال سلوكه معها أو مع الآخرين، لكنها لم تفهم وحشته، ولم تفهم أنه كان يعيش معها ومع الآخرين حياة، ومع نفسه يعيش كل هذه اليأس والشك والمرارة واللاثقة.

إزدات التشنجات في صدرها وظهرها وكفيها. نهضت بهدوء وبيدها الأوراق المكتوبة التي تحمل اسم: نشيد المتاهة. خرجت إلى الصالة وهي تخطو ببطء وصعوبة واضحة. توجهت إلى المطبخ. وقفت أمام حوض الماء. أخذت الولاعة وبدأت بحرق الأوراق ورقة بعد أخرى. فتحت حنفية الماء على الورق المحروق، ثم حملته بيدها ووضعته في جردل النفايات. غسلت يديها، ثم أخرجت من أحد الدواليب شمعتين. أشعلتهما. أطفأت النور. خرجت إلى الصالة فأطفأت النور أيضا. إقتربت من النافذة وبيدها شمعتها. ألقت نظرة إلى الشارع، فرأت الراهبتين ما زالتا تقفان على رصيف المقبرة المقابل. وبدون شعور رفعت هي الشمعتين إلى الأعلى إشارة منها لتحيتهما، فرفعت كل راهبة منهما الشمعة التي بيدها رداً لتحيتها.

أحست حواء المؤمن بأنها سترحل عن هذا العالم. صارت على يقين من ذلك. أخذت تستعد بهدوء لهذا الرحيل. دخلت غرفتها. وضعت شمعة على كل جانب من السرير. تمددت على السرير تمتمت مع نفسها بصوت مسموع:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

أغمضت حواء المؤمن عينيها. أحست ببرودة تسري في جسدها بدأت تصعد من قدميها. صارت متأكدة من أنها لن تستطيع الحركة والمشي. وكلما تصعد البرودة تحس أن الجزء الذي تتخطاه يصير وكأنه ليس منها فلا تشعر به.

في تلك اللحظات القليلة مرت * حياتها كشريط سينمائي سريع أمام عيني ذاكرتها. رأت طفولتها. أمها المسكينة رأت نفسها وهي تلعب مع بقية الفتيات ألعاب ذاك الزمان. رأت أول يوم لها وهي تطمث. رأت أول صلاة لها. رأت أول صوم لها. رأت كيف الزمان يتجسد في مشاهد. كل مرحلة من عمرها تجسدت في لقطة صغيرة. لقطة متحركة، ملونة، لكنها صامتة. رأت مشهد أول قبلة لها، وأول فعل جنسي، رأت يوم ضربها أخوها لأن ابن عمها رآها مع صديقها. رأت وجه أم صديقها وهي تغادر البيت وتتركهما وحدهما. رأت ليلة زفافها على ابن عمها. رأت يوم طلاقها. رأت مشهد لقائها مع صديقها بعد الطلاق. رأت يوم زواجها الثاني من الدكتور آدم التائه، رأت تلك الظهيرة التي دخل والد زوجها عليها في غرفتها. رأت وجهه الآن وهو يقبلها.رأت زوجها وهو يناقشها حول روايته. رأت الجني في غرفة النوم. رأت نفسها في المشهد الذي دخل زوجها فرآها مع آدم اللبناني. رأت نفسها تلتقي بالراهبتين في المستشفى. رأت نفسها وهي تبكي في غرفة العناية المركزة. رأت الراهبتين وهما تدخلان عليها في شقتها هذه ببرلين، رأت لحظة انقلاب السيارة من الجسر إلى الأرض. رأت نفسها

في المستشفى. فجأة رأت نفسها اليوم في الكنيسة. رأت كل شيء. رأت الأيقونات. رأت الذين حضروا القداس. رأت وجه شيرين. رأت وجه إيفا أومسك. بالرغم من أنها لم ترهما أبداً. أحست بالدمع ينساب من جانبي عينيها.

خلال هذه اللحظة سمعت، فجأة، حركة ما في الصالة. راودها إحساس بضرورة فتح عينيها. بصعوبة حركت رأسها تجاه باب الغرفة قليلاً، أدهشها دخول الراهبتين عليها. إبتسمت، أو حاولت الإبتسام. لأنها أحست أن شفتيها لا تطاوعانها بالحركة. وقفت الراهبة الشابة عند جهة القدمين بينما وقفت الراهبة المسنة عند أحد الجانبين. نظرت إليهما نظرات شاكرة مليئة بالحب والعرفان والصداقة.

عرفتا أن بصرها عاد إليها. والغريب أنهما اعتبرتا ذلك الأمر طبيعياً. تحركت الراهبة الشابة وجلست على جانب السرير وجلست الراهبة المسنة من الجانب الآخر. كل منهما أمسكت بكف لها بين كفيهما. وهما تبتسمان لها إبتسامة تعزية، وتمتمت لها الراهبة المسنة بصوت حنون:

– لا تخافي يا ابنتي. نحن هنا معك. وستكونين قريبا معنا. لا تخافي. إنه عالم النور والصفاء والصمت الأبيض. لا تخافي.

أحست حواء المؤمن بالبرودة تصعد شيئا فشيئا إلى صدرها وبدأت تصعد إلى عنقها ورأسها. فجأة أزيح شيئا ما أمام عينيها وكأنما ستارة ما كانت تحجب عنها الرؤية. ها هي ترى ضبابا أبيض. صمت أبيض. صمت لانهائي. بياض لا نهائي. ولم تعد ترى شيئا. لم تعد هي موجودة.

قبر حواء

في صباح اليوم الذي تلى تلك الليلة دخلت شيرين بمزاج رائق ومعنويات عالية، وهي تحمل طبقا من الدولمة العراقية الشهية، وكيسا نايلونيا فيه بعض المخلل العراقي. إستغربت حين لم تجد حواء المؤمن في الصالة، إذ أنها تأخرت هذا اليوم، فالساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل. وضعت ما جاءت به في المطبخ واتجهت إلى غرفة حواء المؤمن.

ما أن دخلت شيرين إلى الغرفة حتى جمدت في مكانها. انتبهت إلى طريقة نوم حواء المؤمن. فقد استلقت على الأفرشة والشراشف. كان الحجاب حول رأسها. وقد شبكت يديها، كفا على كف على بطنها قريبا من الصدر، وكان وجهها جامداً لكنه،

برغم شحوبه، تحيطه هالة من القداسة، وكأنها قد أغمضت عينيها لتفكر بشيء عظيم. إستغربت وجود شمعتين على كل جهة من السرير.

أدركت شيرين بأن أمراً جللاً قد حدث. إقتربت بتوجس من السرير. نادت بصوت مبحوح بالكاد يُسمع:

– أخت حواء.. أخت حواء

لم تر أي رد فعل يصدر عنها. نظرت إلى صدرها فوجدته جامدا لا يشي بأي حركةٍ للتنفس. بتوجس أكبر مدت يدها إليها لتمسها من جانب ذراعها وهي تهزها وتناديها بصوت أقرب للصراخ:

– أخت حواء.. أخت حواء.

وحين لم تجبها. مدت كفها لتلمس كفها. لتوقظها. ارتعبت حينما مست يداً باردة كالثلج. من رعبها أخذت تهزها من جانب جسدها بقوة، فلم يصدر منها صوت بل كان الجسد بارداً. نظرت إلى وجه حواء المؤمن فرأته وكأنه يبتسم يخاطبها بصمت قائلاً لها ألا تخاف.

هرولت شيرين إلى الصالة ومنها مباشرة إلى الباب الخارجي، فتحت الباب وأخذت تطرق باب شقة إيفا أومسك المقابلة. فتحت إيفا أومسك الباب قلقة من الطرق المتواصل المجنون. فتحت الباب خائفة، بالرغم من أنها كما يبدو من مكياجها كانت مستعدة للخروج إلى مكان ما، فلم تسمع سوى صراخ شيرين المتقطع والخائف:

– حواء.. حواء.. أعتقد أنها ماتت.

وبدون أي تفكير قفزت إيفا أومسك معها ودخلتا إلى الشقة. كانت إيفا أومسك أكثر ثباتاً من شيرين، إذ أخذت كف حواء المؤمن لتجس نبضها، لكن ليس هناك أي أثر للحياة. اتصلت مباشرة بالمستشفى التي أرسلت سيارة إسعاف فورية. لا تدريان كيف أخذتا بالبكاء على حواء المؤمن. أحستا أنهما فقدتا إنساناً غاليا وعزيزا. جلستا في الصالة وهما تنتحبان. وبين لحظة وأخرى تقوم واحدة منهما لتذهب باكية إلى غرفة نوم حواء وترجع وهي أكثر انتحاباً.

بعد ربع ساعة كان رجال الإسعاف في الشقة. حاولتا أن تكونا أكثر تماسكا فقد أحستا بأن واجبهما الآن تجاه صديقتهما أن تكونا متماسكتين. قام الطبيب بفحصها مع مساعديه، أكد للجميع بأن حواء المؤمن قد فارقت الحياة فجر ذلك اليوم. في حدود الساعة الثالثة فجراً.

إتصلـت شـيرين بدائـرة الأجانـب لإعلامهـم بالأمـر، فأرسـلوا ممثـلاً عنهـم إلـى المستشـفى ليتفاهـم مـع إدارة المستشـفى ويسـتعلم منهـم عـن سـبب الوفـاة. جـاءت الباحثة الإجتماعية إلى الشقة فرأت شيرين وإيفا أومسك. استعلمت الباحثة الإجتماعية من شـيرين عن إيفا أومسـك وعلاقتها بحواء المؤمن فأخبرتها بإنها جارتها وصديقتها المقربة، ثم سألتهما إن كان لدى حواء المؤمن أي اقارب في برلين أو ألمانيا أو حتى العـراق. فأجابتـا بأنهـا امـرأة وحيـدة. ليس لديها أي قريـب في ألمانيا، وليس لديها أي صلة بأي شخص في بلادها.

وبالرغـم مـن حـزن المصـاب إلا أن الأمـور الإداريـة أكثـر تعقيـدا عنـد الوفـاة. والبيروقراطية أكثر جمودا في تلك الحالات. تباحثت معهما عن مسألة الدفن، وسألتهما حول هذا الأمر. أجابت شيرين بأنه إكراما لها بإعتبارها امرأة مسلمة يفضل أن تدفن في مقابر المسلمين، إذ هناك مقبرة للمسلمين قريبة من السكن، في كلومبيا دام على امتداد دودن شتراسه. اتصلت إيفا أومسك بجمعية إسلامية تقوم بأعمال الدفن في منطقة نوي كولن، وسألت عن تفاصيل الدفن فأكدوا لها بأن الأمر يختلف قليلا مع المرأة، وعلى كل حـال عليهـم دفـع مبلـغ حدده صاحـب الجمعية. نقلت هي ما عرفته عن الدفن إلى شيرين والباحثة الإجتماعية، التي أكدت بأن دائرة العمل لا تدفع هذا المبلغ لأنه كبير جداً، وبينما هما في هذا الحديث دخلت الراهبتان إلى الصالة. رحبت بهما إيفا أومسك لأنها تعرفهما وقدمتهما إلى البقية بإعتبارهما من أصدقاء المرحومة.

كانت الراهبتان هادئتين. أبدتا على الفور عن إستعدادهما الكامل على إيجاد قبر لها في المقبرة المحصورة بين كارل ماركس شتراسه وهيرمان شتراسه حيث تعيش، أي في المقبرة التي كانت حواء تطل عليها من النافذة. كما أبدتا إسـتعدادهما إلى تحمل كافة النفقات، لكن شيرين أصرت على دفنها في مقبرة المسلمين التي أيضا ليست بعيدة عن ذلك المكان، والتي تقع في كولومبيا دام. نظرت الراهبتان لبعضهما، ووافقتا أيضا على ذلك إحتراماً لصديقتهما وأيضا أكدتا إستعدادهما لتحمل كافة النفقات.

وبينما كان الجميع يتناقشون عن طريقة ومكان دفنها، كانت جثة حواء المؤمن ملقاة، وحيدة، عارية، لكنها مغطاة بشرشف أبيض، على مصطبة حجرية، في قاعة باردة تفوح منها روائح المواد المعقمة، بالمستشفى التي نُقلت إليه.

فـي تلـك اللحظـة بالـذات فتحـت جثـة حواء المؤمن عينيها فرأت نفسـها تنظر إلى نفسـها مـن فـوق سـقف القاعـة. كانت حـواء المؤمن تعرف أن تلـك، التي ترقد وحيدة في هذه القاعة، إنما هي نفسها. لكن من هي إذن هذه التي تنظر من علٍ؟ أهي الروح

التي تبقى حية بعد أن تتحرر من قفص الجسد؟

رأت كم كانت هي وحيدة ومعزولة في هذا العالم القاسي. ها هي الآن قد أنهت رحلتها الغريبة في الحياة، وحيدة، لا أهل ولا وطن. فهل عليها أن تأسف على مغادرة هذا العالم؟ لا.. لكنها أشفقت على نفسها، على جثة حواء المؤمن الغريبة، الوحيدة، المعزولة، التي لم تعرف سوى العذاب في حياتها، فانحدرت دمعتان، لكن من عيني الجثة النائمة.

كانت حواء المؤمن تسمع وترى، وهي في قاعة التشريح الباردة، هناك في المستشفى الذي يبعد عن شقتها كثيرا، النقاشات التي كانت تدور بين الباحثة الإجتماعية وشيرين وإيفا أومسك حول مسألة دفن جثتها. فرحت حينما رأت الراهبتين تدخلان إلى صالة شقتها، وانحدرت دمعتان من عيني الجثة الملقاة في المستشفى، حينما قالت الراهبتان بأنهما ستتحملان كل النفقات التي تتعلق بدفن الجثمان. أحست أنها تفهمهما جداً الآن، وأنها سعيدة لصداقتها معهما. ومن الآن فصاعداً ستلتقيهما بحرية أكبر.

إرتسمت إبتسامة حزينة على وجه حواء المؤمن الروح، حينما سمعت الحوار عنها بإعتبارها الآن صارت جثة عليهم دفنها والتخلص منها. بل إنهم الآن يستعجلون الخلاص منها من مسألة الدفن، فقد أرادت كل من شيرين وإيفا أومسك أن تعبرا عن حبهما وإخلاصهما لها من خلال إكرام جثمانها والقيام بدفنها بطريقة لائقة. أهذا هو الإنسان؟

فكرت روح حواء المؤمن لحظتها بالفراعنة فالموت كان شاغلهم الأكبر في الحياة، بل ولحظة الموت هي الشاغل الأكبر. ليكن فهذه هي سنة الحياة، فما أن يعلن أنه ميت فلن يتم الحديث عنه سوى كراحل عن هذه الدنيا.

وبينما روح حواء كانت تنظر لجثتها الراقدة، من مكانها العالي القريب من سقف القاعة، لاحظت دخول الراهبتين إلى القاعة وتوجههما إلى حيث ترقد على المصطبة الحجرية. رفعت إحداهما جانب الشرشف الأبيض الذي يغطي وجهها، وسحبته إلى صدرها. ظلتا واقفتين بهدوء وهما تطبقان كفيهما على بعضهما وتضعانها في وضع يشبه وضع الهنود واليابانيين حين يحيون الآخرين. بينما شفتاهما تتمتمان بالصلاة. استمر الحال لدقائق قليلة، ثم رفعتا رأسيهما إلى السقف، نحوها وكأنهما كانتا تعرفان أنها تنظر من الأعلى، من سقف القاعة إليهما. إبتسمتا فابتسمت لهما. ثم غادرتا القاعة.

بعـد يوميـن مـن مـوت حـواء المؤمن تمت مراسـيم الدفن في مقبرة المسـلمين في كولومبيـا دام ببرليـن. جـاء شـيخ عربـي فقـرأ القرآن عند قبرها، كمـا جاء بعض العرب والأتـراك الذيـن كانـوا يـزورون موتاهـم فـي ذلـك اليوم حيـث يُدفن جثمانهـا، وقامت شـيرين مع إيفا أومسـك والباحثة الإجتماعية بالقيام بكل الإجراءات الرسـمية المتعلقة بالدفن وتبعاته الإدارية.

وفي نفس يوم الدفن اتفقت شـيرين مع دائرة العمل على الإنتقال إلى الشـقة، وقد وافقت الجهات الرسمية على نقل العقد باسمها. أما إيفا أومسك فقد أخذت إجازة من عملها متذرعة بموت أختها، وبقيت في شـقتها ببرلين وحيدة تفكر بلغز حواء المؤمن التي رأت فيها قديسـة ورائية هجسـت أنها سـتموت وودعتها في آخر لحظة، وهذا أمر لا يحدث إلا للناس المباركين من الرب.

لم يمض على دفن حواء المؤمن سوى أيام قليلة حتى انتشرت شائعة بين الأوساط التركية، والعربية، والأجنبية المسـلمة بشـكل عام، بأن هناك امرأة مباركة قد دفنت في تلك المقبرة. وأن حارس المقبرة يرى كل ليلة امرأتين تأتيان إلى قبرها فتوقدان شمعتين من تلك الشـموع التي أشـبه ما تكون وكأنها في قارورة زجاجية حتى لا يمكن للريح أن تطفئ لهيبهما. امرأتان لا يعرف حارس المقبرة كيف دخلتا، لأنه يقفل باب سـياج المقبـرة ليـلاً، وقـد انتبـه لذلـك، أول مرة، من ضوء الشـمعتين في هذه المقبرة المظلمة ليلاً. وحينما قرر ذات ليلة تتبع المرأتين، أضاع أثرهما بين الأشجار هناك. حينما تحدث مـع الشـيخ التركـي وبعـض المقربيـن منه، قرروا جميعاً أن يسـهروا وأن يتبعا المرأتين، وقـد قامـا بذلـك فعـلاً، لكنهم فقدوا أثرهمـا عندما رأوا أنهما تدخلان إلى مقبرة أخرى قريبة من مقبرتهما، مقبرة تقع ما بين هيرمان شتراسه، حيث كانت تعيش حواء المؤمن، وكارل ماركس شتراسـه. لم يمض سـوى شـهر واحد حتى قامت النسـاء التركيات بدفع وتحريض أزواجهن وأخوتهن وآبائهن ببناء قبة إسلامية الطراز، متواضعة الحجم، على قبر حواء المؤمن، وتحويله إلى ضريح مزار مبارك.

بعد مرور ثلاثة أشـهر تحول قبر حواء المؤمن إلى مزار للنسـاء المسـلمات وغير المسلمات، للنساء اليائسات، والغريبات، والمفجوعات برجالهن أو أبنائهن أو أهاليهن أو حتى بحبهن، اللاتي يأتين للتبرك منها، ويذرفن الدموع على هذه الغريبة التي ماتت بالغربـة، لكـن روحهـا تكـرم كل ليلـة. تحـول قبـر حواء المؤمن إلى واحـد من المعالم الغريبة في برلين.

آدم البغدادي: لا أدري كيف كتبت ما كتبت! كنت أكتب مأخوذاً بفكرة الخلاص، وفكرة الروح، وسرها ومسألة الروح والجسد. لكن كيف نفسر هذا التحول عند حواء المؤمن؟ ولماذا لم تبرز على آدم اللبناني هذه القدحات والشطحات الفكرية أثناء حياته اليومية مع حواء المؤمن؟ ولماذا لم يكتب اسمه على نشيد المتاهة؟ ألم يتوقع أنه سيموت بهذه السرعة وبهذه الطريقة العبثية؟ ولماذا أحرقت حواء المؤمن مخطوطة نشيد المتاهة؟ هل وجدت فيه شيئا مسيئاً؟

لكن لماذا أتحدث عنهما وكأنهما ليسا من نتاج خيالي، وأنا أضع على لسانهما كل ما يقولانه؟ وهل أنا يا تُرى مؤمن بكل ما قاله آدم اللبناني في نشيد المتاهة؟ أم أنا أؤمن بما تؤمن به حواء المؤمن يا تُرى؟

ما الذي أردت أن أقوله في متاهة حواء؟ وما هو مصير زوجها الدكتور آدم التائه؟ لماذا أقصيته عن مسار الأحداث اللاحقة؟ أتُرى ساعود إليه لاحقاً في رواية أخرى؟ ماذا سيحصل لشيرين وابنها؟ ماذا سيكون مصير إيفا أومسك؟ هل ستستمر الراهبتان بالمجيء إلى إيفا أومسك لتساعداها بالإعتراف والتخفيف عن روحها الغارقة في الخطيئة؟ أم أنها ستقرر بعد موت صديقتها حواء المؤمن بتغيير مسار حياتها؟ ولماذا لم أدع أحداً يعرف بمعجزة عودة البصر إلى عينيها قبل موتها؟ لا أدري.. ربما علي كتابة فصول أخرى، أو رواية أخرى أتابع فيها بقية المصائر والأرواح المعذبة. على الأرجح سأكتب رواية أخرى عن مصائر إيفا أومسك وشيرين وابنها.

حين انتهى آدم المحروم من قراءة بقية المخطوطة، وقرأ تعليق آدم البغدادي، راودته ذات الأسئلة التي طرحها آدم البغدادي على نفسه. لكنه أيضا فكر في المسؤول عن كل هذه المآسي؟ سواء التي تحصل للعراقيين أو لشعوب الأرض قاطبة؟ هل عليه أن يعطي المخطوطة لحوائه أن تقرأها أيضا؟ لكن الشيء المهم الذي فكر فيه آدم المحروم هو أنه لا يستطيع أن يفصل الواقع عن اللاواقع، لأنه لا يستطيع أن يقول الواقع والوهم، من حيث أن الراهبتين تتجليان في كل مكان واقعي في الحياة؟ من تراهما هاتان الراهبتان؟ ولماذا اختار راهبتين؟

فكر مع نفسه ربما هناك مخطوطات أخرى لم يحملها هو معه في هذه

الحقيبة. انتبه آدم المحروم إلى أن الفجر كان قد حل، لكن معه بدأ دوي الإنفجارات التي صارات من طقوس الصباحات البغدادية.

بـدا دوي الإنفجـارات مختلفـا فـي شـدته لقربه وبعده عـن البيت. عّد آدم المحروم حينهـا أربعـة إنفجـارات متتاليـة بينهـا دقائق لا أكثر. فكر مع نفسـه عـن هذه اللعنة التي حلت بوادي الظلمات هذا. حينما طوى المخطوطة، دوى إنفجار إهتز له البيت كله.

16

يقــظة حـــواء

لم ينته آدم المحروم بعد من وضع المخطوطة في حقيبته حين دخلت حواء وابنها مرعوبين إلى الصالة. رأت آدم المحروم مستيقظا ومتوجساً. سألت مباشرة دون أن تلقي التحية من صدمة الإنفجار:

– ماذا هذا؟ إنه قريب جداً؟ الله يستر.

إلتفت إليها وعلى وجهه علامات غضب مكتوم:

– الإنفجار قريب جداً. وقد حصلت عدة إنفجارات هذا الصباح. إنفجارات متلاحقة. والله لا نعرف إن كانت هذه تسمى حياة. منذ الإحتلال ولحد اليوم جرت آلآف الإنفجارات ومات الآلاف في هذه الإنفجارات لكنا ما سمعنا أن إنفجارا وقع في المنطقة الخضراء. إنهم يعيشون وينامون آمنين بينما الناس يقتلون كالذباب هنا في شوارع بغداد. ومن يفتح فمه يلقموه رصاصة أو يلقوا به في السجون بتهمة الإرهاب.

لم تعلق حواء على كلامه. كانت خائفة وغاضبة، ولم تكن تفكر بمعارضة الحكام بهذه الطريقة، وإنما كانت تحقد على الإرهابيين، فقالت:

– هؤلاء الإرهابيون هم أصل البلاء.

إلتفت إليها وقال بغضب مكتوم:

– لا خلاف إن الذين يقومون بهذا هم الإرهابيون، لكن هؤلاء الحكام إذا كانوا عاجزين عن مواجهتهم فليتنحوا عن الحكم. مرت سنوات على سقوط الصنم بينما البلاد تعيش في الظلمة. الدكتاتور المقبور أنتج الكهرباء بجهود ذاتية بعد ستة أشهر من إنتهاء حرب الكويت وأعاد بناء الجسور، بينما هؤلاء لم يفعلوا شيئا سوى السرقات والتصفيات الجسدية. السجون مليئة بالإرهابيين وأكثر منهم الأبرياء. البطالة، ونقص الخدمات، وعدم وجود كهرباء وهذا الوضع الأمني، ولنكن صريحين، هذه الطائفية التي يعاد بناء الدولة على أساسها، تدفع بالكثيرين

إلى الإصطفاف ضد الحكم. وليصطفوا لأن هؤلاء مجموعة من الأوغاد.

– هذا كلام الشيوعيين.. أبي دائما كان يعلق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون بمثل كلامك بأن هؤلاء يساريون أو شيوعيون أو علمانيون.

– أنا لستُ شيوعيا، ربما أن أفكاري يسارية، لكن هل قول الحقيقة صار عنواناً لليسار والشيوعيين والعلمانيين فقط؟ هذا شرف كبير لهم. إن ما يجري لدينا لو جرى بإية دولة في العالم لتم تقديم كل رئاسة الحكومة وكل طاقمها للمحاكمة. لكن هذا بلد للظلمات. بلد للمقهورين والمظلومين والتائهين وإلا لما كانت شلة تجمع النقيضين تبقى في الحكم. دعم إيران وأميركا في وقت واحد

إنتبه إلى أنها قد صُدمت من كلامه، فقال لها بطريقة توضيحية وهادئه:

– إسمعيني يا حواء. أنت إنسانة مخلصة لأبيك وللفكر الذي تعذب من أجله وسجن لسنوات. أعرف ذلك. وأن جماعة أبيك هم الآن يحكمون، لكن إخلاصك يحملك على الولاء لأناس لا يستحقون الولاء. صدقيني هؤلاء الناس أساءوا للفكر الذي تعذب من أجله ومات الآلاف. هؤلاء عار تاريخي على أولئك الأبطال الذين قارعوا الدكتاتورية. لقد عم الفساد في البلاد. إننا نستنشق الفساد في الهواء. إننا نعيش في مستنقع.

نظرت بتوجس وقالت بنبرة فيها الكثير من عدم الرضى والعتاب:

– لكن هؤلاء أيضا ناضلوا.. وتشردوا.. وبعضهم كان في السجن.

نظر إليها كأنه يريد أن يقول إنها واهمة، وقال:

– هؤلاء الذين تعتقدين أنهم ناضلوا وتشردوا، تحولوا إلى عملاء. إنهم مقرفون. إن الشيء المحير فعلاً هو ماضيهم الذي يتاجرون به. إنهم باعوا هذا الشرف منذ سنوات حينما كانوا في المنفى. هؤلاء الذين يحكمون البلاد. من مختلف القوميات والطوائف لا يصلحون أن يكونوا موظفين بسيطين في بلدان أخرى. هؤلاء دفعوا الناس إلى الترحم على الدكتاتور، والبعض بدأ يفاضل بين الزمنين ياحواء. هناك آلاف من الناس الشرفاء يتحلون بالنقاء والطيبة ويمنحون هذه العصابة الولاء، بالرغم من أنهم يعيشون في مستنقع آسن ونتن.

– أنا أخاف عليك. لا تقل مثل هذا الكلام أمام أحد. حتى ولا أمام أبي.

– لقد تحدثت مع أبيك بمثل هذا الكلام. وهو يعرف رأيي في هؤلاء الأوغاد الذين يتجارون بالدين. وأزيدك علماً أنه يتفق معي في الكثير من آرائي. إنظري إليه وفكري، ماذا حصل منهم وهو الرجل المناضل؟ لم يحصد منهم سوى النفور

والكراهيـة، بـل أراد البعـض إتهامـه بالعمالة لنظام الدكتاتور. ولولا تدخل البقية الباقية من الطيبين، لكان أبوك الآن في بوكا، أو تحت التراب.

فوجئت هي بهذه المعلومات عن أبيها، فهي لم تدرك قط بأنه واجه أعضاء الحزب الدينـي الـذي كان ينتمـي إليـه بهذه الصراحة، ولا تعـرف بمحاولاتهم إلصاق التهم إليه لإسـكاته أو التخلص منه. إنه لم يتحدث قط عن سـبب إعتكافه في زاوية لبيع الشـاي بينما أصحابه صاروا وزراء ومستشـارين وأصحاب نفوذ ومال وسـطوة لكن من يقول إن هذا الذي يقوله آدم المحروم هو الصحيح؟

أحست بالخوف من هذا الكلام، وفي نفس الوقت أدركت بأن هناك الكثير مما لا تعرفه، وأن هناك الكثير من الأسـئلة التي لم تطرحها على نفسـها، لاسـيما ذلك السـؤال الذي حيرها فعلاً: كيف توافق أميركا على تسـليم الحكم لأشـخاص هم تربوا وعاشـوا وتـم دعمهـم طـوال هروبهـم مـن البـلاد مـن قبل إيـران، كيف يمكن لأميركا أن تسـلم الحكم في العراق بعد الدكتاتور إلى سياسيين هم أقل ما يقال عنهم إنهم إيرانيو الهوى والمصير، بل وهم لا يخفون ذلك؟

كان دوي صفارات الإسعاف يصم الآذان، بالرغم من إختلاف شدتها، فإذا صمتت الصفـارات القريبـة جـاء صفيـر البعيـدة. كان الصغير يمسـك بسـاق أمـه وينظر إلى آدم المحروم بعينين متسائلتين، إذ هو لم يفهم لماذا هو غاضب، ولـم يعرف معنى كل هذا الكلام. فجأة انتبه آدم المحروم له. أحس بشعور الذنب، لأنه ربما أرعب الصغير بغضبه الواضح. ابتسم له ومد ذراعيه مرحبا به، فترك الصغير أمه وألقى بنفسه في حضنه باسماً. كان منظر آدم المحروم وهو يحتضن ابنها يملؤها سعادة، وكانت تحس أنها وابنها صارا جزءا من حياته، وهو صار أساس حياتها. إبتسم آدم المحروم للملاك الصغير سائلا:

– أنت لا تخاف الإنفجارات وصوت سيارات الإسعاف أليس كذلك يا حبيبي؟

– أي.. أنا لا أخاف..

– طيب حبيبي خلينا نفطر الآن..ناكل قيمر وخبز وشاي وعسل.. زين؟

– زين..

إبتسمت هي لهما، وانتبهت أنها لم تسلم عليه، فقالت معتذرة:

– الخوف لم يتركني أن ألقي تحية الصباح عليك..فاعذرني.

– لا عليك.. المهم.. سـنرى بعد قليل بالتلفزيون عاجل الأخبار.. ودائما يكذبون ويخففون من الخسائر.

– سأحضر الفطور.

– هل تحتاجين لمساعدة؟
– لا.. المطبخ للنساء..
– ومن قال ذلك؟
– الرجل لا يدخل المطبخ، خاصة إذا كانت لديه..
لم تكمل كلامها وإنما إبتسمت، فابتسم هو بدوره وسأل:
– إذا كانت لديه ماذا؟
– إذا كانت هناك امرأة في البيت..
– ما هذه الأفكار؟ أنا لا أؤمن بها.. يمكن للرجل أن يتعاون مع المرأة بغض النظر إن كانت أمه أو أخته أو زوجته أو حبيبته.
– إنك متحرر أكثر من اللزوم.. وهذا كلام العلمانيين..
– هل تعتقدين أن هذا الأمر خطأ؟
– لا.. إنه ليسعد المرأة حينما تجد رجلاً يساعدها. هذا من إحترامه لها.. ولا أعتقد ان ذلك يقلل من قيمة الرجل..
– يا عيني على المتحررة..
إبتسمت له بحب وقالت:
– أنا في داخلي إنسانة متحررة، لكني لم أجد من يشجعني على التعبير عن أفكاري ونفسي..
فقال مبتسما، وبنبرة فيها ألغاز:
– أنت لست متحررة فقط، وإنما متحررة جداً..
إنتبهت لما يرمي إليه، وقالت مبتسمة وهي تشاكسه:
– ماذا تقصد؟ ألم يعجبك تحرري؟
– بلى.. لكنني لم أصدق أنك تمارسين حريتك بهذه السرعة، فالكثير من الناس يخافون الحرية ويهربون منها!
– وماذا فعلت؟. قالت بدلال وبمشاكسة.
– فعلت الأهوال أيتها السيدة!
– ألم يعجبك ذلك؟
– أعجبني جداً.. وأنت؟
– أنا أيضا أعجبني، ولم أصدق أنني أستطيع أن أفعل كل هذه الأشياء أبداً، لكن ماذا أفعل إذا كان معلمي إستاذا في هذه الأمور.

ضحك مقهقهاً، وقال بطريقة مشاكسة:

– أنا أخاف أن تتحولي أنت إلى الأستاذة. عندها لا أجد ما أعلمك به

ضحكت هي بحب وقالت:

– عندها أنا سأقوم بتعليمك أشياء، لم تخطر على بالك.

قهقها كلاهما، بينما كان الملاك الصغير مبتهجا لأنه يراهما فرحين. وقبل أن تذهب إلى المطبخ قال لها:

– لم أستطع النوم، بقيت صاحيا إلى الآن.

نظرت إليه نظرة مستفسرة، لكنها لم تشأ أن تسأل شيئا بوضوح كي لا يفهم الصغير شيئا، فقالت:

– لماذ؟ هل حصل شيء؟

– لا أبداً.. بعد أن.. بعد أن.. بعد أن بقيت وحدي، رأيت حلما مرعباً.

– خيرا يارب؟

– الحقيقة لم يكن حلماً وإنما كابوس. رأيت نفسي وحيداً، على حافة قطع جبلي حاد. ثم رأيت بيانو عند الساحل الرملي..ثم تحول البيانو إلى باب خشبي، فُتح على قصر، كل شيء فيه أبيض، ثم رأيت شموعاً في قاعة. دخلت غرفة ليس فيها سوى مرآة كبيرة زئبقية. نزل دم من المرآة. مسسته بيدي فلم أجد دماً. سمعت هسيسا في الصالة، وحين ذهبت، رأيتُ القاعة تشتعل من جميع جوانبها. عدت إلى حيث المرآة فخرجت منها يد سحبتني إلى داخلها.

أحستْ حواء الزاهد بالخوف من هذه الرؤيا. سرت قشعريرة داخل جمجمتها وبأن إنكماشا سرى في جلدة رأسها. راودها حدس بأن ثمة شيئاً سيئاً قد يحدث، فهنا خسائر من كل الجهات. حريق في القاعة. دم في المرآة. قبضة تأخذه إلى أعماق المرآة. لكنها لم تشأ أن توصل له خوفها وهواجسها، فقالت:

– هذه كوابيس، ربما جاءتك من الكتاب الذي تقرأه. وعلى أية حال يمكنك اليوم ألا تخرج إلى أي مكان وتبقى في البيت.

– ممكن.. فلا شيء عندي يستوجب الخروج. ثم أني انتهيت من قراءة مخطوطة الرواية، وهناك مخطوطتان أخريتان، لكن بودي أن تقرأي هذه المخطوطة، فصديقي هذا مجنون. لا يضع حداً بين الواقع واللاواقع.

– إذن أعطني إياها لأقرأها اليوم، قبل أن يصل أبي، فأنت تعرف أنه يتحسس من قراءة الكتب غير الدينية.

- هذا صحيح. يجب ألا يراك وأنت تقرأينها، لأنه ربما سيأخذها منك لقراءتها وفي هذه الرواية الكثير من الأشياء التي لا يستطيع رجل مثله أن يتقبلها.
- ماذا تقصد؟
- أقصد فيها الكثير من الكشف عن الوجه الحقيقي للإنسان. الوجه الذي هو في أعماقه، وليس الوجه المقنع الذي نرتديه يومياً، ناهيك أنه كشف عن رغباتنا الخفية بكل صراحة. عن تلك اللغة التي نتحدث بها في أعظم لحظاتنا حميمية لكننا نخجل حتى من ترديدها في حياتنا العادية. لغة ومفردات نتلفظها بكل لذة في لحظات معينة. لكنها تفقد معناها خارج تلك اللحظات. مفردات ولغة يستنكف الأدب أن يقترب منها، إلا البعض القليل والنادر من الكتاب الملعونين.
- لقد شوقتني لقراءتها.
- بلا شك.

مضت هي إلى المطبخ بينما ضغط على الريموت كونترول، وأخذ يتنقل بين المحطات، وتوقف عند محطة تبث من خارج البلاد، والتي تصلها الأخبار قبل أن تبث القنوات العاملة داخل البلاد. تحدثت الأخبار في الشريط العاجل عن عشرة إنفجارات وقعت في أوقات متقاربة في بغداد وحدها، وخمسة إنفجارات في محيطها.

حين دخلت وهي تحمل الصينية التي فيها فطور الصباح، أشار لها بأن تقرأ الخبر العاجل. بدا الخوف والدهشة على وجهها الجميل. لم تعلق شيئا. غادرت الغرفة ثم عادت وبيدها صينية صغيرة فيها دورق الشاي وعدته الكاملة، وفي اليد الأخرى قطعة النايلون الصغيرة. نزل الصبي عن حجر آدم المحروم وأخذ قطعة النايلون وفرشها على الأرض. وضعت هي صينية الفطور عليها، وكذلك صينية الشاي. جلس هو والصغير على الأرض، إلتفت إليها قائلاً:
- ألا تجلسي معنا؟
- لا. أنا أفطر في المطبخ.

نظرت إليه وإلى الطفل الملاك، ففهم أنها تتجنب ذلك. لم يقل شيئا. غادرت حواء الزاهد بينما بدأ آدم المحروم والصغير فطورهما.

إنتهى الفطور. ظل هو في البيت. يلعب مع الصغير في الصالة. كانت هي تعد وجبة الظهر. كانت الساعة قد قاربت العاشرة صباحا. وبالرغم من الجو العائلي الحميم. أحس برغبة خفية عارمة في أن يخرج ليتمشى قليلاً. فكر أن يذهب إلى السوق القريب، استيقظت في نفسه رغبة في أن يبعث الفرح في نفسها، لذا سيشتري لها باقة من الورد.

حين دخلت هي إلى الصالة ثانية رأته يهم بالخروج. إستغربت ذلك، فقد اتفقا على أن يبقى في البيت، أحس هو بالحرج، كان الملاك الصغير يقف وفي عينيه رغبة بأن يأخذه معه وفي جولته. قال لها موضحاً قبل أن تفتح فمها بشيء، ففي نظراتها كانت هي قد سألته:

– أحس برغبة في التمشي قليلاً. ربما أذهب إلى السوق القريب. سأرجع بعد قليل.

إلتفت إلى الملاك الصغير مبتسماً وأضاف:

– وسآخذ الملاك الجميل معي أيضا، أليس كذلك يا بطل؟

إبتسم الصغير وألقى بنفسه في أحضانه، فتلقفه بين ذراعيه. عجزت عن قول كل شيء، وأحست بالفرح، فكلما ترى حبيبها وهو يحتضن ابنها بكل هذا الحنان تشعر أنها أسعد مخلوق على الأرض. لم تقل شيئا سوى أنها علقت:

– سأكون أنا بإنتظاركما. أرجو أن لا تتأخر، فأنا هنا وحدي.

نظر إليها بحنان وفرح خفي، وقال:

– وهل نستطيع أن نتركك وحدك؟ سنعود بعد قليل. الحقيبة هنا وفيها المخطوطات. تستطيعين أن تقرأي منها ما تشائين. هناك وادي الظلمات – متاهة حواء، وهي الرواية التي انتهيت منها فجراً، وكذلك مخطوطة رواية أخرى بعنوان عميان بغداد. ورواية ثالثة بعنوان نساء رينوار.

– سأحاول أن أبدأ بواحدة منها. وسأحاول قرأتها جميعاً قبل وصول أبي.

– على أي حال. أستودع الله في بغداد لي قمرا.. في الكرخ

قاطعته قبل أن ينهي البيت الشهير لإبن زريق البغدادي، معلقة:

– نحن في الرصافة يا شاعري..

– لا ضير.. المهم في بغداد.

إبتسما لبعضهما. ظلت هي واقفة أمام الباب الذي يفضي إلى الحديقة وهي تراه يمشي حاملاً الملاك الصغير في حضنه. حين وصل إلى الباب الخارجي نظر إليها فأحس بالفخر في أن هذا الجمال المهيب وهذه المرأة الشامخة هي حبيبته.

ظلت هي للحظات واقفة في مكانها حتى بعد اختفائهما من أمام نظرها. تمنت لو أنه قال ذلك قبل أن تبدأ بالطهو، لكانت قد خرجت معهما.

دخلتْ ثانية إلى الصالة. جلستْ على إحدى الكنبات. أخذتْ الريموت كونترول وبدأتْ تتنقل بين القنوات. كانت معظم المحطات العراقية تنقل الأخبار العاجلة عن التفجيرات الإرهابية التي جرت صباحاً. توقفت عند محطات لم تتوقف عندها سابقا،

فهـي نـادرا مـا تفتـح التلفزيون حينما تكـون وحدها. في الأيام الأعتيادية، أو أيام ذكرى الأئمـة وأيـام عاشـوراء ورمضـان، تتوقف عنـد القنوات الدينية فقط، لكنها الآن تريد أن تخرج من هذه الشـرنقة، فانتقلت إلى محطات عربية ولبنانية. كانت إحدى المحطات الخليجية تعيد مسلسلاً تركياً. أعجبها شكل الممثلة التركية التي كان واضحا أنها بطلة المسلسـل لتتابع المشـاهد المتعلقة بدورها. اسـتمرت بمتابعة المسلسل، وكانت تتحرك ما بين الصالة والمطبخ.

لأول مـرة تحـس بالإسـترخاء وهـي تتابـع مسلسـلاً أجنبيـا عـن العشـق والهـوى والصراعات الأسـرية. كان المسلسـل يتحدث عن فتاة جميلة جداً، أرملة كما فهمت، ولديها طفل صغير بعمر ابنها. ولأنها لـم تكن قد تابعت المسلسـل سـابقاً، فأنها فهمت بـأن هنـاك مـن يحـب هـذه الفتـاة وهناك من يحـاول أن يضع العراقيـل بينها وبين رجل وسيم يبدو هو حبيبها البطل.

شيئا فشيئا اندمجت هي في أحداث المسلسل. إنشدت للأحداث، لاسيما وأن توترا بدا بين البطلة وحبيبها، وبين صديقه وشـريكه في الشـركة وحبيبته التي تعمل مهندسـة فـي الشـركة، وصـارت حـواء لا تتحـرك من أمام الشاشـة إلا في فتـرة الإعلان فتركض إلـى المطبـخ لتتابـع الطبـخ، وتسـرع أحيانا لتتأكد من أن المسلسـل لـم يبدأ بعد فترجع راكضة إلى المطبخ، وما أن تنتبه لانتهاء الفاصل الإعلاني حتى تترك كل شـيء وتأتي إلى الصالة لمتابعة المسلسل.

بعد انتهاء المسلسل عرفت من خلال الإعلان عن الحلقة القادمة وأوقات عرضها بأن الحلقة التي شاهدتها قبل قليل كانت الحلقة الثامنة والخمسين. حفظت في ذاكرتها تاريخ البث والإعادة وانتبهت لإسم القناة الخليجية، إذ قررت مع نفسها متابعة المسلسل يوميـا. حمـدت اللـه مـع نفسـها أن أوقـات الإعـادة هي الأوقات التـي لا يتواجد الأب خلالها في البيت.

فجأة انتبهت إلى أنها لم تفكر في أبيها بكثرة كعادتها اليومية وهو في بغداد، بل هو الآن مسافر بينما في أعماقها رغبة عميقة لا واعية في أن يؤخر عودته.أحست بالإرتباك من هذا التحول، وانتقدت نفسها لأن هذا الأمر جديد عليها، ومرتبط بعلاقتها الجديدة والآثمة مع آدم المحروم.

تخيلت أباها الطيب، النحيل، وملامح التعب والإنهاك بادية عليه خلال سفرته هذه. أحست بالذنب. ذهبت إلى غرفة النوم. أخذت الهاتف النقال الذي كانت قد وضعته في الشـاحن على المنضدة قرب السـرير، وضغطت على رقم هاتف والدها. ظلت ممسـكة

بالهاتف إلا أن الهاتف كان لا يرن، وكان صوت مندوبة شركة الموبايل يكرر بأن الهاتف المطلوب حاليا إما مغلق وإما خارج نطاق الخدمة. يرجى الإتصال مرة أخرى لاحقاً.

لم ترتح لهذا الوضع، فليس من المعقول أن يغلق هاتفه لمدة يومين كاملين، بل ولم يبادر هو للإتصال والسؤال عنهما. إنها تعرف كم يحبها ويحترم مشاعرها، وكم حريص هو على ذلك، فليس من المعقول أنه يتركها لهذا القلق الذي هي فيه، ثم أنه لا يستطيع أن يبتعد عن حفيده، فكيف به وهو الآن على سفر ولا يشتاق لسماع صوته. أحست بأن ثمة شيئاً ما غير مريح في هذا الأمر. فجأة. تذكرت الكابوس الذي رآه آدم المحروم فجر هذا اليوم. تشاءمت من ربط هذا الكابوس مع بُعد والدها. أحست بوخزة في صدرها. راودها قلق قوي ومفاجئ.

إنتبهتْ فجأة إلى أنها لم تسأل والدها عن تفاصيل سفرته، بل كانت، من شدة فرحها لسفره كي تخلو مع آدم المحروم، تستعجل سفره فوراً، وكانت مترددة في فتح سيرة السفر كي لا يستصعب سفره ويؤجل السفر أو يعتذر من أخي زوجها. ما الذي دهاها بحيث أنها لم تفكر سوى بنفسها وبمشاعرها؟ وها هي الآن يأكلها الندم على ذلك، بل وتتمنى الآن أن تسمع صوته الحنون فقط.

إنتبهت لنفسها مستغربة أيضا بأنهما يسافران لمقابلة زوجها السجين بناء على طلب أخيه صاحب المطعم، ولم تسأله عن سبب هذه الزيارة، ولماذا يذهب هو إذا كانت الزيارة فقط لرؤيته؟ بل استغربت أنها لم تفكر خلال كل تفكيرها بالسفر وبأبيها، أنها لم تفكر بزوجها قط؛ هل لأنها لا تحبه؟ استغربت من نفسها أنها لم تسأل نفسها هذا السؤال ابداً، إلا بعد اللقاء بآدم المحروم.

هي الآن تعرف جيداً أنها لا تحبه ولا تريد العيش معه، بل إن حياتها معه لم تكن سعيدة أبداً، لكنها لا تريد أن تفكر فيه بشكل سلبي ومضاد لأنه الآن في السجن، وليس لها سوى أن تدعو له بالسلامة، والخروج من السجن، فهو في كل الأحوال والد ابنها. لكن الغريب أنها لم تسأل والدها أي سؤال عنه حينما قال لها بأنهما سيزورانه في السجن، بل تذكرت الآن أنها لم تطلب منه أن يبلغه سلامها؛ هل انتبه والدها لهذا الأمر؟ ربما نعم وربما لا. لأن والدها نفسه كان غريبا في تصرفاته، إذ كان لا يرغب بالحديث عن سفرته هذه؟.

تذكرت أنه في المرة السابقة قبل ستة أشهر ذهب مع الصغير إلى الأستوديو لأخذ صورة لحفيده كي يهديها لأبيه في سجن بوكا، لكنه هذه المرة لم يطلب ذلك. سألت نفسها حائرة: لماذا؟.

مـرة أخـرى حاولـت الإتصـال به، وكالمرة السـابقة جاء صوت مندوبة الشـركة: إن الهاتف المطلوب مغلق حالياً أو خارج نطاق الخدمة. حاول الإتصال في وقت لاحق.

حملـت هاتفهـا معهـا واتجهـت إلـى الصالة، وظلت تطلـب الرقم لأكثر من خمس مـرات، وكأنهـا تجـد مواسـاة وتخفيـف لقلقها كلما طلبت رقمـه. فجأة تذكرت أن رقم آدم المحروم لديها، فلماذا لا تتصل به لتطمئن عليه وعلى ابنها؟ حركت الهاتف النقال على جهة الأسـماء، وضغطت على الهاتف. أحسـت بالقلق حينما جاء صوت مندوبة الشـركة وهـي تكـرر بـأن الهاتـف المطلوب حاليـا إما مغلق وإما خـارج نطاق الخدمة. يرجى الاتصال مرة أخرى لاحقا.

لـم تسـتطع أن تجلـس فـي مكانهـا، كانـت تتنقل ما بين المطبـخ والغرفة والصالة. وبعـد أن تأكـدت مـن أن الطعـام جاهـز، أطفأت الطباخ. ظلت تـدور ما بين غرفة النوم والصالة. جاءت فكرة مفاجئة في أن تصعد إلى السـطح. صعدت السـلم. فتحت باب غرفة المكتبة. تذكرت أول لقاء جسـدي بينها وبين آدم المحروم. إنتبهت إلى أنه أنهى رغبتـه فيهـا، وكان مـاؤه غزيـرا وبـذوره وفيرة. أحسـت بالرعب من أنها ربما سـتحمل. فكـرت بأنهـا فـي المرحلـة الأمينـة مـن الناحيـة البايولوجيـة، لكن ليس الأمـر مضموناً دائمـاً. إنتبهـت إلـى أنها تفتح على نفسـها أبـواب القلق. دخلت الغرفة المقابلة ونظرت إلـى سـرير أبيهـا. خرجـت إلى السـطح، وبدأت تعيد الإتصال به مـرة، و بآدم المحروم مرة تالية، وعلى كلا الرقمين يأتيها إشـعار الشـركة بأن الهاتفين إما مغلقان وإما خارج نطاق الخدمة حاليا.

فجـأة سـمعت حركـة خارجيـة تأتـي مـن الصالة، وقبل أن تهبط السـلم كان صوت ابنها يأتي منادياً:

– ماما.. ماما.. نحن هنا.

أخـذت تقفـز السـلم قافـزة كل درجتيـن فـي الخطـوة، حتـى أنها كادت مـن لهفتها وفرحها بمجيئهم تتعثر على السـلم. اسـتقبلت ابنها بالحضن وهي ما تزال على السـلم، ونزلت وهي تحضنه.

حيـن دخلـت الصالـة كادت تلقـي بنفسـها عليه من الشـوق واللهفـة والقلق. إلا أن وجود ابنها في حجرها حال بينها وبين نفسها من أن تقوم بهذه الحركة. لم تقل شيئا، إذ كانـت لغـة العيـون كافيـة لإيصـال مـا أرادت قولـه بالكلمات وربمـا أكثر بلاغة. كان هـو واقفـا بمواجهتهـا وإحـدى يديـه خلف ظهره. وضعت ابنها على الأرض وهي تقول بعتاب وغضب مكتوم:

– أين كنتما؟ لقد اتصلت بكما على رقم هاتفك لكنه كان مغلقاً. لقد قلقت عليكما جداً.

نظر إليها بحب وقال بهدوء:

– لماذا قلقت؟ لقد قلت لك إني سأتجول قليلاً في السوق القريبة.

– لكن الهاتف كان مغلقا وأردت أن أخبركما بأن الغذاء جاهز.. فلا تتأخرا.

إبتسم لها وسأل:

– هل كان هذا هو السبب الرئيسي حقا؟

– نعم.. الحقيقة أنا إتصلت بأبي فلم أنجح بالإتصال إذ كان هاتفه مغلقاً. إتصلت بك فكان هاتفك مغلقا أيضا. والحقيقة لأني تذكرت الكابوس الذي رأيته فجراً. تشاءمت منه كثيرا. لذا أخذت أتصل وأتصل.

فجأة وبدون أن يقول شيئا، سحب يده من خلف ظهرة فإذا به يحمل باقة ورد جميلة، مجموعة مختلفة الآلوان من زهرة الروز. وقدمها لها. كان الطفل الصغير يتنقل بنظره ما بين وجه أمه وباقة الورد. شعت السعادة من عينيها، واسترخت ملامحها وأشرق وجهها الجميل عن إبتسامة شكر ساحرة. مدت يدها بتردد، وهي تقول:

– هذه الورود لي؟ يا لجمالها! إنها باقة جميلة جداً. شكراً لك.

– أعجبتك؟

– كيف لا تعجبني وهي منك؟ لكن ليست لدينا في البيت أية مزهرية! أين سنضعها الآن؟

– أوه.. هذه مشكلة فعلاً. هل لديكم قناني فارغة؟

– قناني فارغة؟!

– نعم، قناني فارغة، إذ يمكننا أن نضع كل وردة أو وردتين في القنينة ونوزعها في الغرفة.

– فكرة لطيفة..

قالت ذلك وخرجت مبتهجة. أحست أنها أسعد امرأة في الدنيا، ونسيت قلقها على أبيها للحظات. ذهبت إلى المطبخ تفتش عن قناني زجاجية وبلاستيكية فارغة. تبعها ابنها. وزعت باقة الزهور على أربع قناني وضعت فيها ما بين زهرتين إلى ثلاث. حملت قنينتين منها وحمل الصغير قنينة. ووضعت الرابعة في غرفة نومها. أخرجت لابنها حلويات كان جده قد اشتراها له، كما أخرجت له لعبه لينشغل بها في غرفة النوم.

كان هو يتابعها بنظراته صامتاً وهي تدخل الصالة يتبعها ابنها ثم تخرج، ثم تعود،

ثم تخرج. رأى في وجهها إنعكاساً لانفعالات متداخلة. كانت مشغولة مع نفسها. أما هي فقد كانت تفكر فعلاً في بادرته الجميلة، وكان عدم وجود مزهرية لحفظ الورد قد أيقظ فيها أسئلة عن خواء حياتها من أي لمسة للجمال.لم يهدها أحد ما ورداً بل ولم تلمس الورد إلا حينما كانت صغيرة وتذهب إلى حديقة الزوراء، أو كانت تراه في محلات الزهور، لكن لم يفكر أحد من المحيطين بها أن يشتري لها أو لهم بشكل عام أية باقة ورد. فجأة ظهر والدها في مخيلتها. ماذا لو عاد أبوها ووجد هذه الزهور؟. كيف ستبرر هدية آدم المحروم لها؟ وعاد إليها قلقها على أبيها الذي لم تعرف عنه أي شيء منذ يومين. لا بد أن تتصل به مرة أخرى عسى أن يجيبها.

حين عادت إلى الصالة وجلست على المقعد المقابل له أحس أنها تريد أن تقول شيئا. لكنها ظلت صامتة. بادر هو إلى دفعها لتقول ما لديها، فسألها:

– هل هناك شيء حواء؟ هل أخطأتُ بإهدائك باقة الورد؟

نظرت إليه بمحبة، وشعرت بالأسى لأنها كسرت خاطره بينما أراد هو أن يفرحها بهذه الهدية الجميلة التي بلا شك قد كلفته مالاً أيضا. لكن أرادت أن ترتاح من هذه الضغوط النفسية التي تشوش عليها فرحتها، فقالت:

– أنا آسفة إذ خيبت أملك. أنا فرحة جداً بباقة الورد، لكني حزينة في الوقت نفسه، لأنها كشفت لي عن جفاف حياتي. دفعتني إلى أن التفتَ إلى حياتي السابقة والحالية بعينين مفتوحتين على آخرهما. تصور أنا خائفة من أن يأتي أبي ويسألني عن باقة الورد هذه فأنا لم أشتر وردة في حياتي، ولم يهدني أحد وردة ذات يوم. حتى في زفافي كان الورد إصطناعيا من القماش والورق والبلاستك. بدأت أفكر بحياتي الحالية، إنها حياة سطحية وتافهة. اليوم شاهدت لأول مرة مسلسلاً تركياً. أنا لا أتابع غير القنوات الدينية. أبي يتابع الأخبار، أما أنا فأتابع المحاضرات الدينية وأحياناً المسلسلات الدينية الإيرانية إن وجدت وتم عرضها على القنوات العراقية الدينية، وما أكثرها ما شاء الله. المسلسل نقلني إلى عالم آخر. بدأت أتفهم غضبك من الوضع الذي نعيشه. أبي يحاول أن يعوضني بحبه عن هذا الحصارالذي أعيشه، والدوامة التي أنا فيها. ربما من غير اللائق أن أقول هذا، لكني أريد أن أصرخ، أن أعبر عن نفسي. هل تدري أنني أتمنى أن يتأخر أبي في سفره لأيام أخرى؟ اتدري لماذا؟

– لماذا؟

كان آدم المحروم منذهلاً في أعماقه من إنفجار غضبها، بل وتفتق وعيها لذاتها.

فكر في ثوان سريعة عن السبب الذي دفعها لفتح هذه البوابة، أمن المعقول أن تكون باقة الورد وحدها هي السبب؟ أم علاقتها الجسدية بي؟ إنتظر أن تفسر له هذه الرغبة الغريبة. عاد إلى التواصل معها حينما سمعها تقول:

– لأني ببساطة أريد أن أكون أنا. أريد أن أستمتع بوجود هذه الورود في بيتي. أريد أن أجد الطريقة لكي يتعود أبي على وجود الورود في البيت أيضا. انظر إلى حديقتنا الصغيرة. ليس فيها ورد، عشب محروق. لأن أبي قضى أكثر من ثلاث عشرة سنة في السجن، وحينما خرج كان لا يستطيع أن يتواصل مع الحياة. فالطفلة التي تركها وجدها متزوجة. وهو لا يعرفها جيداً. صلته بالحياة كانت من خلال أمي التي ماتت بعد خروجه بسنة. واليوم. اليوم فقط عرفت منك لماذا اختار العزلة، وتجنب رفاق الأمس. إنه لم يتحدث معي بمثل هذه الأمور. يبدي عدم رضاه عما يجري لكنه لا يتذمر، ولكي يعوضني عن وفاة أمي وغياب زوجي في السجن، صار يداري مشاعري، ويحاول جهد الإمكان أن يشرح لي بعض الكتب، ويناقشني عن التراث والشعر. ومن الناحية المادية يبذل جهده كي لا نشعر بالحاجة إلى شيء، حتى خطوط الكهرباء فقد اشترك بمبلغ كبير، إلى جانب شراء مولدة الكهرباء التي لا تدعنا نشعر بالظلام. أنا في حيرة من نفسي.

إنتبه هو إلى طريقة حديثها عن نفسها. كانت تمتلك قدرة على التوقف عند أمور بسيطة لتمنحها بعداً فكريا أو تبني عليها موقفها، إذ لم يطرأ في ذهنه أبداً أن إهداءها باقة ورد بسيطة سوف تدفعها للنظر إلى حياتها، وتثير لديها كل هذه الأسئلة. أحس أن عليه ألا يتركها في دوامتها هذه وأن يقف إلى جانبها، فقال لها بنبرة هادئه ونبرة من يريد مخلصاً أن يتفهم الذي هي فيه:

– لماذا أنت محتارة يا حواء؟. أنا أعتقد أنك تعين ذاتك بشكل جيد، وتعين الوضع الذي أنت فيه. ليس بمقدور الكثيرات أن يصلن إلى هذا الوعي بالأشياء كما أنت الآن. لكن عليك كما أعتقد أن تواجهي أفكارك ومشاعرك بشكل صحيح وواضح.

نظرت إليه وكأنها تبحث عن تأثير كلامها فيه. إنتبهت إلى أنه تفهم ما قالته، وسرها أنه يحاول مساعدتها مخلصاً، فقالت له:

– دعنا من ذلك الآن. لقد أزعجتك بكلامي. لنتناول وجبة الغذاء، فهو جاهز.

– سنتحدث لاحقاً.. إهدأي الآن ولا تضغطي على نفسك كثيرا. سنتحدث بهدوء

عن كل شيء. هل إتصلت بالوالد؟

أحست وكأنه ذكرها بقضية أخرى مهمة، إذ تحولت إلى تلك البنت القلقة الخائفة من كل شيء، ومن لأقدار العنيفة العمياء التي تعصف بالبشر فجأة، فقالت له:

– لا. حاولت مرات عديدة لكن هاتفه مغلق أو خارج نطاق الخدمة. بدأت أقلق جداً. أنت تعرف أن هذه السفرة غريبة جداً !!

– كيف؟

أراد أن يعرف إن كانت قد علمت شيئا عن هدف هذه السفرة، لكنه سرعان ما استبعد معرفتها لأي شيء ما دام أنها لم تتصل بوالدها، فسر بأن والدها قد أغلق هاتفه النقال متقصداً كي لا يضعف ويخبرها بما جرى لزوجها في السجن، وكي يجنب نفسه الكذب عليها بالإدعاء بأنه رآه أو قابله أو أي شيء من هذا القبيل. فسرت له استغرابها من هذه السفرة قائلة:

– كل مرة حينما يسافر أبي إلى البصرة ليقابل زوجي، وهي عادة تجري كل ستة أشهر، فأنه يصور له ابني، وياخذ صورته معه ليريها لأبيه. لكنه لم يفعل في هذه المرة. كما أنه كان يتصل في كل موقف لسيارتهم بي. فحين يصلون إلى مفرق الكوت تتوقف السيارات التي تلتف متجهة إلى البصرة هناك ليستريح الركاب أو ليأكلوا أو يشربوا، وحينما يصلون إلى العمارة كان يتصل أيضا، وحين يصل إلى البصرة يتصل لحظة وصوله، وحينما يصل إلى الفاو قبل التوجه إلى السجن يتصل، وفي الرجوع أيضا. هذه المرة لم يفعل أي شيء من هذه الأشياء. لذا فأني قلقة فعلاً من سفرته هذه.

– لا تقلقي أكيد أن هناك عائقا لا يسمح له بالإتصال. ر بما عطل هاتفه النقال مثلاً.

– كان يمكنه أن يشتري واحداً آخر من النوع الرخيص. لا. لا. هناك سر في هذه السفرة.

– هل الصغير هنا؟

إنتبهت هي إلى أنه طرح سؤالاً غريبا، فمن الطبيعي أن ابنها في البيت. إلا أنها فهمت إلى أنه يتهرب من شيء، أو من الحوار في هذا الموضع أصلاً. فكرت مع نفسها ربما هو يعرف شيئا أنا لا أعرفه، وربما هو لم يسافر إلى البصرة أصلاً، وإنما إلى مكان آخر.. وقفت، وقبل أن تذهب إلى المطبخ لتأتي بالطعام، نظرت إلى عينيه بشكل مباشر وسألته بمودة وعطف:

– هل تعرف شيئا ما عن هذه السفرة. هل هو سافر إلى البصرة حقاً؟ من المؤكد

أنك تعرف كل التفاصيل عن هذه السفرة؟

إرتبك هو لثانية وحاول تجنب النظر إليها، وهو يجيبها:

– أنا لا أعرف عن هذا أكثر مما تعرفين.

صمتت وهي تنظر إلى وجهه الذي ارتبك لثانية ثم استعاد براءته. لم تقل شيئا، لكنها كانت متأكدة من أن ثمة شيئاً وراء هذه السفرة، ووراء هذا الصمت المريب من قبل والدها.

إنتهوا من وجبة الغذاء. كانت هذه المرة قد تجرأت بالجلوس على الأرض وتناولت طعامها معهما. وبرغم عادية وطبيعية مثل هذا الحدث الإنساني اليومي إلا أنه كان بالنسبة لكليهما يحمل دلالات كبيرة، خاصة بالنسبة لها. لقد كانت تدرك بأن تغييراً ما حدث في كيانها النفسي وفي طريقة تفكيرها وفي نظرتها للأشياء، وتكشفت لها تفاصيل أخرى لم تنتبه إليها سابقا في حياتها اليومية، سواء من خلال تجربتها الجسدية والعاطفية مع آدم المحروم أم من خلال الأحاديث التي جرت بينهما.

بالنسبة لآدم المحروم كانت هذه الخطوة بالجلوس معه تحمل معنيين، أولهما أنه صار قريبا منها جداً ولا تتعامل معه كضيف أو غريب، وثانيا أنه خطوة بإتجاه الوعي الذاتي وتحدي الواقع المحيط وتجاوز للأفكار السابقة التي كانت تقيد شخصيتها.

حينما بدأت بحمل الصحون وبقايا الطعام نهض آدم المحروم ليساعدها فلم تعترض كالسابق إذ وجدت في هذا التصرف شيئا من اللطف والرقة العاطفية نحوها. كان الطفل الصغير مستغربا ينظر إلى آدم المحروم وهو يحمل صحنين، فهو لم ير جده يفعل ذلك، لكنه لصغر سنه لم يفسر الأمر تفسيراً مريباً. وبينما ركض الطفل إلى الصالة ليأتي بما تبقى، إقترب هو منها في المطبخ، قائلا بصوت حنون ومليء بالحب والشبق:

– أحبك..

إرتسمت على وجهها ابتسامة مغناج وقالت له:

– وأنا أحبك أيضا. لكن انتبه فالصغير قادم.. أمامنا الليل بطوله. إذهب الآن إلى الصالة. سأعد الشاي وآتي إليك.

صار وجود الصغير في حضورهما يشكل مصدراً مريباً يجب الإنتباه إليه. صحيح أنه ما زال صغيرا، ولا يفهم في طبيعة علاقة الرجل بالمرأة، وصحيح أنه يحب آدم المحروم جداً لأنه يعوضه عن حنان الأب الغائب الذي لا يعرفه، إلا أنهما كانا يخافان براءته. يخافان أن يتكلم بشكل عفوي عندما يرجع الأب فيقول أشياء لا يعرفان ما سيكون وقعها على الأب، وماذا سيستشف الأب من خلالها. فأخذا يتحدثان حديثا مشفراً،

ظل الصغير يقلب النظر بينهما لأنه لا يفهم شيئا. ولكي تلهيه الأم وتبعد تركيزه عنهما قامت إلى الغرفة الثانية وجاءت بلعبه إليه وببعض الشكولاته التي يوفرها جده له دائما.

أخذ الصغير آدم لعبه وجلس بعيدا نوعا ما عنهما بينما كانا هما يشربان الشاي ويتحاوران. سألته سؤالاً كان مفاجئا بالنسبة له ولم يتوقعه:

– لا أريد أن أكون فضولية ولكن لدي سؤال يحيرني: لماذا لم تتزوج لحد الآن؟ مثلك يفترض أنهم قد تزوجوا وخلفوا، فأنت كما أخمن قد تجاوزت الخامسة والثلاثين كما انتبهت لما مكتوب في هويتك حينما أردنا تسجيل عقد إيجار المشتمل.

لم يجد ما يقوله لأول وهلة، فالسؤال كان مباغتا له. صمت لحظات كي يجد الجواب المناسب، وقال:

– سؤالك وجيه، لكن وأقولها لك بصراحة، لم أجد الإنسانة التي تفهمني، وتشاركني فوضاي وهوسي بالفن والفكر، إلى جانب أنا لا أجد ما أستطيع أن أعيش به بشكل كريم فكيف أتحمل معيشة امرأة أخرى ونفقاتها في مثل هذا الوضع الصعب، ناهيك أننا في وضع سياسي صعب جداً.

– لكن هذا لا يعني أنك كنت بلا علاقات نسوية ومغامرات عاطفية، لأنك وكما عرفت لديك تجربة كبيرة في التعامل مع المرأة جسديا وعاطفيا

إنتبه إلى أنها تسوق الحديث بدوافع غيرة نسوية، وهي تريد أن تعرف عنه أكثر، لاسيما في هذا الجانب. نظر إليها وكأنه يقرأ أفكارها، وقال:

– أنت تقودين الحوار لتعرفي تجربتي العاطفية أليس كذلك؟

إبتسمت هي بإرتباك، وقالت:

– ليس هذا بالضبط، ولكن ليكن هذا الجانب من ضمنها أيضا. نعم.

– اسمعيني يا حواء. أنا قبل أن أراك كنت ضائعا. كنت أبحث عن امرأة ما في ذهني، لكني حين رأيتُك أحببتك. ربما أول نظرتي إليك كانت إعجابي بجمالك وشكلك وجسدك الذي أثارني جداً، لكن يوما بعد يوم بدأت أتعرف عليك أكثر وعلى شخصيتك الرائعة، فأحببتك أكثر، وبعد ما أقتربنا أكثر والتحمنا، صرت لا أستطيع تصور الحياة بدونك.

كانت عيناها تتألقان وهي تسمعه، لكنها سرعان ما صار وجهها جديا، وقالت بنبرة فيها تساؤل وشك:

– لكنني لستُ بمستواك الثقافي، وأنا لا أشاركك أفكارك وهوسك وفوضاك بعد،

لأني ببساطة لا أفهم كثيرا في هذه الأمور، إلى جانب أنني متزوجة، ولدي طفل.

– لا يهمني هذا.. أنا أحبك وأحب الملاك الصغير آدم أيضا.

– لكنني متزوجة!

– أعرف.. لكني أريدك، وأريد أن أتزوجك. ولا بد أن أتزوجك.

نظرت إليه وكأنها لا تفهم شيئا من هذا الكلام، فقالت له:

– أقول لك إني متزوجة فتقول لي لا بد أن أتزوجك، هل لك أن تفهمني معنى هذا الكلام؟ هل تقصد أن أطلب الطلاق من زوجي وأتزوجك؟ هل تدرك معنى ما تقول؟ بدأت أخاف منك.

أحس آدم المحروم أنه تسرع في الكشف عما يقصده، وخاف أن تنتبه لما وراء هذا القول، إذ أنه كان يعرف بأن زوجها قد مات في السجن، وأنه بعد مرور أشهر العدة ربما سيتقدم لها ويطلبها من أبيها، الذي يعتقد بأنه لن يمانع، لكنه لا يستطيع الآن أن يقول لها ذلك، فقد اتفق مع أبيها بأنه هو الذي سيتصرف ويخبرها بوفاة زوجها.

كانت هي تنظر إليه بإمعان محاولة أن تعرف بماذا يفكر. إنتبه هو إلى ذلك فقرر تهدئة الحوار، فقال:

– أنا أدرك ما أقول. أنا أحبك. لا أستطيع العيش بدونك. ولا أريد أن أتزوج غيرك. وبما أنك متزوجة، فأني لن أتزوج.

– هذا كلام يقوله الرجال ليسلبوا به عقول النساء.

– هذا غير صحيح. ألا تؤمنين بالحب؟

– بالحب؟

– نعم بالحب

فكرت لحظة، ثم قالت:

– أنا لم أجرب الحب سابقاً، ولم أعرفه، ربما كنت أحب الحب نفسه، ولكن لا أحب شخصاً بعينه. حين تقدم زوجي لطلب يدي أخبرت أمي بأني لا أعرفه ولا أحبه، لكنها قالت لي بأنها أيضا لم تكن تحب أبي، لكن الحب جاء بعد الزواج، وحينما رأيت زوجي في الخطوبة لم أحبه أيضا، إذ لم يعجبني كرجل، لكني كنت أقنع نفسي بأن الحب يأتي بعد الزواج. وبعد الزواج لم يأت الحب. حاولت أن أحب زوجي بحكم الدين والتقاليد، لأني لا أعرف غيره من الرجال، لكني وجدت أني لا أتقدم خطوة في طريق الحب، على العكس كنتُ قبل الزواج أطير مع أحلامي، لكني بعد الزواج أصبح هذا الأمر بمثابة خطيئة، ولا أتجرأ

على الإقدام على الحلم بالحب. إلى أن ولدت ابني الحبيب، الذي منح حياتي معنى. لا أدري أين يكمن السبب؟ ربما صحيح، يحدث أن يأتي الحب بعد الزواج، لكنه في حالتي لم يأت بل حول حياتي إلى جحيم. بعد تعرفي عليك، وما جرى بيننا بدأت أفكر بأن الأمر، ربما، له علاقة بالتوافق الجنسي، أو المعرفة الجنسية. فلو كان زوجي يعرف أن يتعامل معي ومع جسدي، فلربما نشأ بيننا نوع من الحب، لكنه كان يأخذني دون أن يفكر بمشاعري، بل ولا يعرف سوى وضع أو وضعين للتعامل معي، لا أدري ماذا أقول؟ لكني أعتقد بأن الحب ينشأ حينما الجسد يتوق إلى الآخر، وألا فأن التجاوب لا ينشأ حتى لو كانت هناك علاقة جسدية. هل تتفق معي أم لا؟

كان آدم المحروم يصغي إليها مستغرباً هذا التحليل العميق منها، وكأنها قد قرأت عشرات الكتب لفرويد ويونغ وغيره من علماء النفس الذين انتبهوا لدور العامل الجنسي في حياة البشر. فكر مع نفسه بأنها قد توصلتْ إلى كل هذا لإنها إنسانة مخلصة وصادقة مع نفسها. نظر إليها قائلاً:

– أنا مندهش فعلاً من تحليلك العميق هذا. هل قرأت لفرويد، يونغ وهربرت ماركوزه؟

– من هؤلاء؟ لم أسمع بهم إلا الآن منك. من هؤلاء؟

– هؤلاء يا سيدتي، ببساطة شديدة وبدون تعقيد نظري، علماء في التحليل النفسي، يعتقدون، لاسيما المؤسس لهذا العلم سيجموند فرويد، بأن للجنس الدور الأساس والمهم والموجه للكثير من تصرفات وأفعال الإنسان السلوكية، ووضعوا تصوراتهم للحياة الجنسية السليمة، والمنحرفة، ودور الإشباع الجنسي في تنظيم وتطوير الشخصية، وتوقفوا عند الكبت الجنسي، وحللوا آثاره السلبية على شخصية الإنسان وتعقيداته، ووضعه النفسي والعصبي. وحينما سمعتك تتحدثين عن علاقة الحب بالجنس والإشباع الجنسي ظننتك قد قرأت لهم شيئا في هذا المجال.

نظرت إليه وهو يشرح، وابتسمت، ثم قالت:

– هل اكتشفت كم أنا بعيدة عن عالمك؟ وأني ساذجة قياساً إليك، وأني أيضا لست التي يمكن أن تفهمك

– لا أبداً. إنك إنسانة مخلصة وصادقة مع نفسك، وتمتلكين الشجاعة للنظر إلى الأشياء، وأن ظروفك ربما هي السبب، وألا لو كان قد توفرت لك مصادر أخرى

للمعرفة فربما كنت شيئا آخر.

– أنا أحس بأنني مخنوقة. معك بدأت أتنفس. وكم أتمنى أن أكون معك دائما. لقد فتحت ذهني على أشياء جديدة، منك سمعت بأسماء ومصطلحات لم أسمعها، بل دفعتني لطرح الأسئلة على نفسي، لكني أعرف بأني ضيعت الكثير من عمري بقراءة أشياء أغلقت علي أفق التفكير. كما لم أقابل من أستطيع أن أناقشه أو على الأقل يحترم رأيي. حتى أبي لا يأخذني بمأخذ جاد، فأنا ما زلت بالنسبة له ابنته الصغيرة، وهو لا يريد أن أتفتح أكثر، لأنه يخاف علي لاسيما وأن زوجي في السجن، ولا يريد أن أقع في إغراءات الروايات وعالم الفن والأدب، لذا ليس أمامي سوى تلك الكتب التي شاهدتها.. أنا أختنق، ولولاك ربما كنت سأجن دون أن أحس.

– أنت معي.. ستكونين معي دائما.

نظرت إليه بقلق وتساؤل وقالت:

– إنك إنسان غريب. لاأعرف كيف تفكر.. ولا أدري ما الذي تقصده بهذا الكلام؟

في هذه اللحظة بالذات سمعا طرقا على الباب الخارجي. وقف آدم المحروم ليرى من النافذة فرأى صاحبة المشتمل. خرجت حواء الزاهد إليها مرحبة، بينما ركض الملاك الصغير إلى الخارج أيضا. وحين دخلت إلى الصالة سلمت على آدم المحروم، وهي تبرر مجيئها:

– لقد احتجت بعض الأشياء من البيت، فمررت فلم أجد أحداً، ففكرت بأنك من المؤكد ستكون هنا.

إرتبك آدم المحروم قليلا، وتمنى لو كان حقا في البيت، لأنه انتبه لنبرة خفية تمسه وتمس حواء في كلامها. فقال لها:

– لقد كنت في البيت طوال الوقت، ولم آت إلى هنا إلا قبل نصف ساعة. لم أخرج طوال اليوم من البيت.

أحست المرأة بأنها ربما تسرعت في الكلام، فقالت لتصحح ما غمزت به في ما صدر منها قبل ذلك:

– والله صحيح. اليوم الإنفجارات هزت بغداد منذ الصباح. الله يستر علينا جميعاً.

– الله يلعن الإرهابيين. علقت حواء أم الملاك.

– الله يلعن الذي يسمح لهم بأن يمروا دون حساب. كل مائة متر تجدين نقطة للتفتيش. إذاً كيف تمر كل هذه السيارات الملغومة. يا أختي هذه دولة اللصوص

والحرامية. هناك أناس منهم وفيهم، أقصد من الحكومة، هم يريدون هذه الفوضى لكي تبقى الناس دائخة بالقتلى والجرحى، وبهمومها ولا تفكر سوى بنجاتها من هذا الموت.. يقولون القاعدة.. يا أختي اللعنة يجب أن تنصب على هذه الحكومة التي لا تعبأ بأرواح الناس وإنما يتاجرون بدمائهم..

قالت صاحبة المشتمل ذلك وهي تنظر إليهما، بالرغم من معرفتها بالإختلاف الطائفي بينهما. آدم المحروم أكد ما قالته، فقال:

– كلامك صحيح. لولا وجود هؤلاء اللصوص في الحكومة، وهذه النفوس الضعيفة التي تسهل مرور السيارات من أجل المال، ولولا ضعف إدارة البلاد لوجود أناس لا تهمهم حياة العالم وإنما التفكير بالنهب والسلب لما جرى الذي جرى بنا، والقادم أشد وألعن.

– الله هو الساتر. علقت حواء.

– على أية حال حاولت أن آخذ بعض الأشياء، فهل يمكنني ذلك؟

– طبعا. أكد آدم المحروم.

– أما تتفضل معي؟ أفضل أن أدخل بوجودك.

وبينما هم هو بالقيام، قالت لها حواء الزاهد:

– إشربي الشاي أولا. فهو جاهز، ثم نذهب جميعاً، لأننا نريد أن نحمل أواني المطبخ والصحون أيضا.

لم تجد صاحبة المشتمل سوى أن تنتظر، لتشرب الشاي، وكأنها انتبهت إلى أن حواء الزاهد تعرف غايتها، لا تريدها أن تنفرد به.

17

المواجهة

بالرغم من مرور أيام ستة على سفر الأب آدم الزاهد إلا أن ابنته حواء لم تفلح في مكالمته. هاتفه النقال كان مغلقا أو خارج نطاق الخدمة، هكذا كان يأتيها صوت فتاة البدالة المسجل. إيقاع الحياة هو ذاته. تقارب جسدي وسفر في أقليم اللذة وإكتشاف للقارات المخفية والمحرمة، وحميمية روحية تحت ظلال الرومانسية، وحوارات فكرية ونظرية تتجه نحو اليسار بشكل واضح.

لم تخرج خلال تلك الأيام إلا لشراء الخبز من المخبز القريب أو الخضروات، أو الذهاب لترتيب المشتمل، أو لمجرد تغيير الجو، حيث كانت تترك الصغير يلعب في الصالة، وتدخل إلى غرفة النوم مع آدم المحروم. لكن بالرغم من ذلك فقد كانت حواء الزاهد متوترة جداً من صمت والدها المريب، لذا كانت تلوذ إلى الجنس للتخلص من هذا التوتر.

أحست حواء أنها، خلال هذه الأيام الستة، قد تغيرت. أحست أنها لم تعد تلك المرأة الخجولة والبسيطة التي يمكن أن تضيع ولا تجد الطريق إلى البيت بسهولة إذا ما ابتعدت عنه كيلو مترا واحداً، وإنما صارت تعرف الكثير عن جغرافيا العالم والشعوب، وصارت تعرف بشكل مبسط عن الفلسفة واتجاهاتها. المادية والمثالية، وسمعت لأول مرة باسم ماركس وأنجلز ولينين وفهد وسلام عادل، بل وتعرفت بشكل أوسع على دستويفسكي وتولستوي وستندال وفلوبير. عرفت أصل الملكية والعائلة والدولة. صارت تفهم معنى اليمين ومعنى اليسار، ومن أين جاءت التسمية، فقد كان لديها مرشد فكري متحرر وموهوب في تكثيف الأفكار وتبسيط أعقدها، مثل آدم المحروم.

لم تعد تنظر إلى الواقع الذي تعيشه البلاد كما كانت تنظر إليه سابقا، حيث كانت القطة العمياء، لا ترى شيئا، ولايمكنها ذلك حتى لو أرادت. أحست بالشفقة والغبن لأمثال آدم المحروم من اليساريين، أن يكون بلا حول أو قوة، وأنهم تائهون في هذه الفوضى المريبة.

إنتبهت إلى أن توترها المستمر تسرب جزء منه إلى نفس آدم المحروم أيضا. شعرت باستغرابه الصامت لغياب الأب طوال هذه الفترة. لم يكن كذلك خلال الأيام الثلاثة الأولى، لكنها وبعد اليوم الرابع لمحت استغرابه ثم توتره الذي يسعى لإخفائه. مرت ستة أيام وها هم الآن في الليل. وسيدخلون اليوم السابع.

حاول آدم المحروم الإتصال به لمرات عديدة، خلال الأيام الماضية دون علمها في معظم الأحيان، لكن بدون جدوى. كان قلقاً لكنه كان لا يحاول ألا يكشف قلقه بشكل واضح أمامها.

أحس آدم المحروم أن حواء ابنة آدم الزاهد تكشف عن قمة قلقها في اللقاء الجسدي الليلي، حين تزحف ببطء إلى فراشه بعد أن ينام صغيرها، حينها كانت تبدأ بحديثها القلق عن سبب صمت والدها وإغلاقه للهاتف النقال، ثم ما أن يحاول تهدأتها ويلتصق بها حتى تشتعل، فيتفجر بركان جسدها، ومعه يتفجر كل توترها النفسي. أحس أنها كلما كانت قلقة كانت كثافة اللذة لديها عالية، بل انتبه لحالتها النفسية بالتلذذ بالمعاناة والألم. وانتبه إلى أنها هي التي صارت تبادر إلى الحركة والتفاعل، وليس كما كان حالها في الأيام الأولى حيث كان هو يقودها إلى آخر الشوط.

آدم المحروم هذه الليلة ليس على عادته. كان مستلقيا بهدوء. ترك نفسه وجسده بين يديها، بدأت هي بإثارته، لم يستجب أول الأمر فأخذت تقوم بأشياء لم يكن يتوقع أن تقوم بها بهذه السرعة، فأثارته حقاً. لم يجد أمامه سوى أن يفجر عنف رغبته معها، وكأنه كان أيضا يهرب من توتره النفسي وقلقه، فانتبه إلى أنها تستمتع بالعنف معها أيضا. وصلا إلى ذرى اللذة. وحينما همد الجسد، إنسحبت بسرعة لتذهب إلى الحمام كي تغتسل.

حين رجعت من الحمام لم تستلق إلى جواره في الفراش. جلست على الكنبة المقابلة للنافذة. إستغرب هو ذلك، لكنه عرف بأنها تود أن تتحدث. في ظلمة الصالة سألته بصوت ثابت، محاولة أن تخفضه جهد الإمكان:

– ماذا بك؟ هل بدأت تضجر مني؟

إستغرب سؤالها، إذ كان يعتقد بأن لديها شيئا تود قوله. أجاب على سؤالها بسؤال:

– ماذا بك؟ من أين جاءتك هذه الفكرة اللعينة؟

– منك. فأنت لم تكن راغبا فيّ، لولا ما قمت أنا به لإثارتك.

إبتسم، لكنها لم تكن ترى ابتسامته وإنما عرفت من نبرة صوته أنه يقول ذلك مرحا، إذ جاء جوابه:

– يا ليتك تستمرين هكذا، فقد كنت هائلة.

– لا تتهرب من الموضوع بهذا الكلام. لم تكن معي. ماذا بك؟

صمت آدم المحروم للحظات، ثم فجأة أحس برغبة في أن يتخلص من توتره وقلقه، فقد تعب، وعليه أن يكشف لها جانبا من الحقيقة، فقال بعد صمت لدقيقة تقريباً:

– عليّ غداً أن أذهب إلى أهل زوجك، أقصد إلى من يقوم مقام أخي زوجك في المطعم وأسأله عنهما. لماذا تأخرا إلى هذا الحد. لم يكن اتفاقنا هذا. كان عليهم أن يرجعا بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

إنتبهت لكل كلمة صدرت منه، فسألته بشكل مباغت:

– إتفقت مع من؟

إرتبك قليلا، لكنها لم ترَ ارتباكه، فقال بعد لحظة:

– لقد اتفقت مع أبيك ألا يطوّل سفرته، فأكد لي بأنها لن تستمر لأكثر من ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع سيكونان هنا في أقصى الأحوال. بينما غدا سيكون قد مضى أسبوع على سفرهما. لذا لا بد من التأكد من سلامتهما.

– هل هناك شيء تخبئه يا آدم؟

أحس أن الظلمة قناع يساعده جدا في إخفاء ارتباكه، وفي مواصلة الحوار، لذلك حاول التماسك أمام هذا الذكاء الحاد الذي لم يتوقعه من حواء أم الملاك. فقال لها:

– ما الذي يمكن أن أخبئه عنك؟

لم تجبه. نهضت فأضاءت المصباح الكهربائي، ورجعت لتجلس في مكانها وهي تقول:

– إنك لا تستطيع أن تكذب. حين لا تقول شيئا صحيحا، أو لا تريد أن تفصح عن شيء فأنت غير ماهر فيه لأن وجهك يفضحك مباشرة. ربما هذا الأمر جيد لأنك إنسان طيب ومستقيم ولا تعرف الكذب، لكن من ناحية أخرى يدفعك لأن ترتبك حينما تريد إخفاء شيء..لذا أريد أن أرى ذلك على وجهك وأنا أسألك السؤال نفسه مرة أخرى: هل هناك شيء تخفيه عني؟ أجبني لكن انظر في وجهي رجاءً.

فكر آدم المحروم سريعا بما يجب أن يقوله لها، بينما هو يراها تتعذب قلقا على أبيها، لكن ماذا يقول لها؟ ثمة قوة داخلية تدفعه إلى ألا يفقدها لعدم قوله الحقيقة. فكر بأن يقول لها وليكن ما يكون، لكن عليه أن يكسب بعض الوقت ليفكر بما سيقوله، ليحاول تأجيل ذلك إلى الصبح على الأقل كي يتجنب ردود فعلها، فهو لا يعرف كيف ستتصرف إذا ما سمعت بالقصة كاملة، بأن زوجها قد مات، لذا نظر إليها وقال لها:

– إسـمعيني جيداً يا حواء. ربما ما ستسـمعينه مني يزعجك. أنا أعرف شـيئا، وقد أخبرني به أبوك قبل سفره، ودفعني للقسم بأغلظ الإيمان ألا أخبرك مهما حصلت مـن أمـور إلـى أن يأتـي هـو خـلال ثلاثة أيام أو أربعة ليخبرك بنفسـه. لكنه تأخر وها نحن قد دخلنا فجر اليوم السـابع. وعلي أن أذهب غداً لأستفسـر، فأن لم يأت غداً سأخبرك. لكن اعطني مهلة إلى الغد فربما سيأتي غداً ويخبرك بنفسه.

أحس أنها كانت تسـمع ليس بأذنيها فقط وإنما بكل حواسـها ما قاله كلمة فكلمة. نظرت إليه وسألته سؤالاً واضحا:

– ماذا تعرف يا آدم؟ ولماذا لم يخبرني أبي بما لديه؟

– لا أعـرف. أراد هـو بنفسـه أن يخبرك.قلـت لـه ليخبـرك قبل أن يسـافر، فقال: لا سأخبرها أنا حينما أرجع. وأنت تعرفين علاقتي بأبيك، فأنا أحترمه جداً، وحين طلب مني ألا أخبرك، وأجبرني على القسم، فلم يكن أمامي أن أخالفه؛ لذا أرجو أن تفهمي وضعي. إذن، إلى العصر، إذا لم يأت سأخبرك. إتفقنا.

صمتت لحظات ثم قالت وهي تنهض متجهة إلى غرفة نومها:

– إتفقنا.. لكن لحد العصر.. بعدها عليك أن تخبرني وأنا بنفسي سأشرح لوالدي بأني ضغطت عليك جداً من أجل أن تقول لي..

– إتفقنا.

– إذن تصبح على خير..

– وأنت من أهله..تصبحين على خير.

وقبـل أن تغادرالصالـة أطفـأت المصبـاح. فغرقـت الصالة فـي الظلام ثانية. ظل آدم المحروم يفكر في الوضع الذي وجد نفسه فيه، والورطة التي هو فيها، كيف سيخبرها بذلك؟ لكن في الوقت نفسـه كان قلقا بشـكل حقيقي بسـبب تأخر الأب آدم الزاهد، إذ لم يجد أي تفسـير يمكن أن يبرر هذا الغياب. ظل يفكر في الطريقة التي يمكنه أن يخبر حواء عبرها. وأخذ يضع الإحتمالات حول ردود فعلها. لم يسـتطع أن ينام تلك حتى اقترب الفجر.

حين دخلت هي غرفتها وألقت نفسها على السرير إلى جانب ابنها الغارق في نومه البريء أخذت تفكر في المعلومات التي يعرفها آدم المحروم ولا تعلمها هي، وسألت نفسـها كيف أن والدها قد أبلغه أشـياء تخص حياته وحياتها بينما لم يخبرها هي عن أي شـيء لماذا يا تُرى؟ ولماذا بدا لها هو قلقاً جداً لغياب أبيها؟ ولماذا قرر الإنتظار لحين العصر؟ ما معنى ذلك؟

ظلت الأسئلة تنهال عليها وتنبعث من منطقة مجهولة في أعماقها إلى أن تعبتْ من التفكير، وغفت دون رغبة في النوم.

نهضت حواء الزاهد مرعوبة من نومها على صرخات ابنها وهو يقول لها بقلق بريء:

– ماما.. إنهضي.. عمو ما موجود في البيت.

– ماذا؟

نهضت من السرير مسرعة. كانت منهكة من الأسئلة والتفكير المستمر وأحست أنها لم تنم كفاية. مضت مسرعة إلى الصالة، فوجدت الفراش مطوياً.

داهمها حزن مفاجئ لرؤية المكان خاليا. أحست بتأنيب ضمير مباشرة، وفكرت ربما أنها ضغطت عليه كثيرا ليلة الأمس أو بالأحرى فجراً، ووجد نفسه محرجاً أمامها فقرر الإختفاء عن الأنظار، لكن إلى متى؟ هل سيختفي بشكل نهائي؟ لكن كان عليه أيضا أن يتفهم دوافعها من وراء كل ذلك الضغط، أن يتفهم قلقها على أبيها؟ لم تجد تفسيرا منطقياً لمغادرته البيت في هذا الوقت المبكر دون أن يقول شيئا، ودون أن يشرب الشاي ويأكل لقمة على الأقل.

نظرت إلى الساعة الحائطية فوجدتها تشير إلى التاسعة صباحاً. ربما نهض مبكراً، ولما وجد أنها ما تزال نائمة خرج دون أن يزعج أحدا. ليس أمامها سوى الإنتظار. فكرت أن تتصل به تليفونياً. رجعت إلى غرفة النوم وأخذت هاتفها النقال وبدأت تطلب رقمه. سمعت صوت فتاة البدالة يؤكد بأن الهاتف مغلق أو خارج نطاق الخدمة. أحست بحنق خفي لأنه قد أغلق هاتفه.

مضت إلى المطبخ وأعدت الفطور لابنها. أحسْت بإنقباض في صدرها. أحست أنها لو استمرت هكذا فستصاب بصداع قاتل، لذا فكرت بأن أفضل طريقة للتخلص من هذا الوضع هو النوم.

مضت إلى غرفة نومها وألقت بنفسها على السرير، لكنها لم تستطع النوم. أرادت أن تنام قليلاً لتستريح من عناء هذا القلق الذي أخذ ينمو بسرعة مزعجة. لكنها لم تستطع أن تنام ولو لدقائق بالرغم من رغبتها الحقيقية في النوم.

وبينما هي غارقة في لجة أفكارها القلقة، رن هاتفها النقال. نهضت مسرعة فقرأت اسمه على شاشة الهاتف الصغيرة، أحست بنشاط مفاجئ ودفق من القوة النفسية واليقظة، وردت بما يشبه الصياح:

– آلو..

فجاء صوته حنوناً عبر الهاتف مشوباً بشيء من التوتر:

- صباح الخير حبيبتي..
- صباح الخير.. أين انت؟ لماذا تفعل هذا بي؟

إنتبه لنبرة القلق والحنان والعتاب الذي يشي بقوة الحب في صوتها، فقال لها بما يشبه الإعتذار:

- الحقيقة لم أستطع النوم، بقيت صاحياً إلى الصباح، ولم أرد أن أوقظك لأني أحسست أنك لم تأخذي كفايتك من النوم، لليال متعددة. لذا فكرت بأن أخرج دون أن أوقظك. لقد جئت إلى المطعم حيث يعمل والدك لأسأل هنا إن كانوا يعرفون شيئا عن سفر صاحب المطعم، فوجدت أن المطعم مغلق أساساً.
- ولماذا ذهبت إلى المطعم؟ لا أعتقد أن بقية الأخوة سيفتحون المطعم بغياب أخيهم الأكبر صاحب المطعم، اللهم إلا إذا طلب منهم ذلك.
- على أية حال سأرجع بعد الغذاء، ساذهب لزيارة بعض الأصدقاء وأعود.
- تعال إلى الغذاء في البيت سأعد لك ما تحب، لا تأكل خارج البيت. إتفقنا.
- لا داعي لذلك، يمكنني أن آكل أي شيء في المطاعم المنتشرة هنا.
- لا.. سأزعل أن فعلت ذلك
- لا.. لا.. لا أتحمل زعلك سأكون على الغذاء.
- إنتبه لحالك فالوضع غير آمن.
- لا تخافي.. سأنتبه.
- سأكون بالإنتظار
- إلى اللقاء إذن.. مع السلامة حالياً.

حين أغلقت جهاز الهاتف النقال. أحستْ بتدفق تيارات الحنان والدفء في أعماقها. التفت إلى ابنها الذي كان ينظر إليها وكأنه ينتظر أن تشرح له مضمون الإتصال. لم تجد أمامها سوى أن تحمله محتضنة إياه إلى صدرها، غامرة وجهه وعينيه بالقبل الدافئة والحنونة، بينما كان الملاك الصغير يطلق كركراته البريئة.

فكر آدم المحروم أن يعود إلى البيت في فترة الغذاء مباشرة. تجول في شارع السعدون. دخل إلى إحدى المكتبات. أخذ يتصفح العناوين الجديدة. تجول في أقسام الشعر والرواية، والفلسفة، والعلوم السياسية. أراد كتبا مفيدة ومتنوعة ومبسطة لحبيبته، لكنه احتار في الشراء، لأنه يعرف أن والدها لا يقبل أن تقرأ الروايات. فكر أن يشتري تلك الكتب ويتركها في مكتبته، وهي تأتي لتقرأها عنده، ما دام البيت قريبا جداً. أخذ مجموعة من الكتب: فصول من تاريخ الإسلام السياسي لهادي العلوي، اليمين واليسار

في الإسـلام لأحمد عباس صالح، تاريخ الحركات السـرية في الإسـلام لبندلي جوزي، شـخصيات قلقة في الإسـلام لعبد الرحمن بدوي، وروايتي آنا كارنينا لتولسـتوي ومدام بوفاري لفلوبير. وحين وصل إلى البيت كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر.

حواء كانت حانقة لتأخره، وأحست أنه يتعمد التأخر، لكنها ما أن رأته وهو يحمل كيس الكتب حتى أحست بأن كل شيء من حنقها قد تلاشى. فكرت مع نفسها للحظة: كم أحب هذا الإنسان، كيف أعيش بدونه؟ ماذا لو خرج زوجي من السجن؟ ما الذي يجـري معـي؟ أحـس أنـه ملكـي، مـاذا لـو تخلى هو عنـي؟ لا. هذا غير ممكن، أحسـه يحبني جداً.

حيـن دخـل الصالـة ووضـع كيـس الكتب جانبا، أخـذ الصغير إلـى أحضانه وقبله. جلست قبالته هي وكأنها تنتظر أن يخبرها. عرف هو ما تنتظره، فبدأ يسحب الكتب من الكيس كتاباً كتاباً. ومع كل كتاب كان يتحدث قليلاً معرفاً بالمؤلف وبموضوع الكتاب. إنبهرتْ بالكتب، فكل كتاب كانت له فرحته الخاصة ولهفة القراءة، إلا أنه قال لها:

– لا أدري ماذا سيكون موقف الوالد حينما سيرى هذه الكتب؟ أنا متأكد من أنه لن يقبل أن تقرأيها، لأنها كتب تنسف كل ما بنى هو عقيدته أو ذاكرته التاريخية عليه.

– وماذا سأفعل؟ كيف سأقرأها إذن؟ قالت هي تسأل.

– ستكون هذه الكتب محفوظة عندي. ستأتين عندي لقراءتها كتاباً كتاباً. لأنه سينتبه لوبقيت كلها لديك. وحتى الكتاب الذي تأخذيه للقراءة يجب الإحتفاظ به في غرفتك بحيث لا تقع عينه عليه، بل ويمكنك أن تقرأي كل هذه الكتب عندي. ثم لا تنسـي بأن لديك الآن مخطوطة (متاهة آدم) وهي رواية صديقي المغدور آدم البغـدادي. بالنسـبة لـي سـأقرأ بقيـة المخطوطات، ويمكـن بعد أن تنتهي من قراءة المخطوطة أن تواصلي قراءة بقية المخطوطات.

– ربما سيكون من الأفضل، إذن، أن تكون جميع الكتب لديك، إلى أن أنتهي من قراءة المخطوطات.

– سيكون هذا أفضل.

إنتبه هو إلى أنه لم يحمل معه شيئا للصغير الذي كان ينتظر أن يخرج آدم المحروم شـيئا من الكيس ليقدمه له، فكل شـيء كان للأم. التفت هو إلى الصغير وقال باسـما وكأنه يعتذر:

– حبيبي.. بعد الغذاء.. عند العصر سـآخذك لأشـتري لك ما تشـتهيه من السـوق القريـب، هـذه الكتـب لأمـك الحبيبـة. لكن بعد الغذاء سـنذهب أنـا وانت فقط

لأشتري لك ما تشاء. اتفقنا.

هز الطفل رأسه مبتسماً ومستبشرا.

بعد أن انتهوا من وجبة الغذاء سعى هو جاهدا للخروج مع الصغير وفي نفسه أن يكسب بعض الوقت كي لا يخبرها بما وعدها أن يخبرها به عصر هذا اليوم، فعسى أن يصل الأب ويجنبه هذا الموقف، بينما كانت هي تتمنى أن يمضي الوقت سريعا كي يصير العصر ويتحتم عليه الإدلاء بما يعرفه عن هذه السفرة الغامضة لأبيها.

ما أن انتهوا من شرب الشاي حتى نهض آدم المحروم مشيرا إلى الصغير بأن يذهب معه، قال له بحب:

- قم يا حبيبي. دعنا نذهب إلى السوق معاً لأشتري لك ما تحب.

نظرت هي إليه نظرة إستفهام ممزوج بالرضى، فهي تشعر بسعادة خفية حينما تراه يغمر ابنها بالحنان الأبوي المفقود، لكن بالرغم من ذلك كانت تتمنى لو اقترح أن تذهب معهما أيضا، فهي حينما تكون معه مع ابنها تشعر وكأنهم عائلة، وأنه زوجها، وهي تخصه هو لا غيره. لكنه لم يدعها لأنه يتجنب الحديث معها الآن، لاسيما وأن الوقت يمضي سريعا.

خرجا من البيت. ظلت هي وحدها مع نفسها. جلست على الكنبة في الصالة وأخذت تقلب الكتب التي أهداها هو لها. لم تكن تعرف بأي الكتب تبدأ لاسيما وهو قد طلب منها قراءة المخطوطة. فتحت حقيبته الجلدية وأخرجت مخطوطة (متاهة حواء - وادي الظلمات) منها. قرأت في الصفحة الرئيسة والمقدمة:

متاهة حواء

وادي الظلمات

«إني أفضّلُ الحيوان على الأحمق، وأفضّلُ الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وأفضل المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضل السذاجة على التصنع، وأفضل القسوة على التملق، وأفضل بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة. فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلى بها الجميع. فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس»

ستندال من كتاب (حياة روسيني)

فكرت مع نفسها عن معنى (روسيني). ماذا يعني (حياة روسيني). لقد حدثها آدم المحروم عن هذا الكاتب ستندال. أعجبت بالنص الذي استشهد به المؤلف. فهي فعلاً تفضل الرجل رقيق الشعور على الرجل مرهف العقل. كما أنها فعلاً تضع الطيبة فوق جميع الفضائل. الطيبة هي ينبوع الرحمة. وخلال ثوان وبلا إرادة منها فكرت في آدم المحروم، وقالت في نفسها إنه رقيق الشعور وفي نفس الوقت مرهف العقل وهو طيب جداً. وبدأت بقراءة (متاهة حواء – وادي الظلمات) للكاتب القتيل آدم البغدادي.

إندمجت في القراءة بلهفة كبيرة. هي لم تقرأ في حياتها اية رواية حديثة في كتاب، لذا أعجبتها القصة والوصف الدقيق والتفصيلي للأشياء، فكأنها ترى الأشياء بعين عقلها، ومن شدة إندماجها لم تنتبه لمرور الوقت، بل ولم يطرأ غيابهما على بالها.

مرت أكثر من ساعتين على خروج آدم المحروم والصغير، وكانت قد قرأت في حدود نصف المخطوطة. انتبهت لمرور الوقت حينما بدأ الظلام يزحف على الصالة من النافذة، وحينما سمعت المولد الكهربائي الذي يغطي بيوت المنطقة بدأ بالهدير، قامت بهدوء فأضاءت الغرفة بنور المصباح الكهربائي. إنتبهت إلى أنهما قد تأخرا، لكنها عادت لتواصل القراءة. أعجبتها الرواية وأحست أن هذه المرأة تائهة في عالم غريب بالنسبة لها. تأسفت أنها لم تعرف ما كان في (متاهة آدم) لأن هناك ملاحظات من قبل المؤلف تشير إلى أن هذه الرواية (متاهة حواء) هي إمتداد لرواية أخرى هي (متاهة آدم) والتي ستسأل آدم المحروم عنها.

فجأة، اهتزت الدار والمنطقة كلها من شدة إنفجار هائل، قريب جداً. وبعد لحظات بدأ صوت إطلاق الرصاص يدوي، وبعد دقائق بدأت صافرات إنذار سيارات الإسعاف تسمع من بعيد.

أحست بإنكماش في قلبها. وضعت أوراق المخطوطة جانباً. أرادت أن تنهض وتخرج إلى حيث الباب الخارجي لتعرف شيئا من السابلة عن مصدر الإنفجارات، لكنها أحست بتشنج في عضلات فخذيها، بحيث لم تستطع الوقوف بشكل مباشر وإنما احتاجت لبعض الوقت كي تنهض بشكل كامل وتبدأ بالحركة. داهمها رعب مفاجئ على ابنها وعلى آدم المحروم، وأخذت تسأل نفسها بقلق حارق: أين هما الآن؟

حين وصلت الباب الخارجي أطلت من فتحته قليلا ونظرت باتجاه السوق. تعالى صوت صافرات الإنذار التي تطلقها سيارات الإسعاف، فعرفت بأن السيارات قد وصلت إلى مكان الإنفجار. رأت بعض نساء الجيران يتجهن إلى مكان الإنفجار. سمعت إحدى النساء وهي تولول مرعوبة، وتقول:

– يمه.. أولادي.. كلهم خارج البيت. كلهم..ثلاثتهم.. أولادي.. أولادي..

كانت المرأة تولول بالرغم من أنها لم تكن متأكدة من أي شيء قد حدث لأبنائها، إلا أن معرفتها بأن أولادها يجلسـون في المقهى القريب الموجود عند رأس الشـارع، وأن الإنفجار حدث هناك تقريبا جعلها مرعوبة على حياة أبنائها.

لا تعرف حواء الزاهد كيف وجدت نفسـها، لا شـعورياً، ترجع بسـرعة إلى داخل الدار لتضع عباءتها السوداء على رأسها وتخرج مثل بقية نساء الشارع اللاتي كن يسرعن الخطى مرعوبات إلى السوق القريب.

18

ليـــل بهـيــم

حين وصلت حواء الزاهد إلى منطقة الإنفجار رأت المكان مزدحماً بالنساء والرجال الباحثيـن عـن أفـراد عوائلهـم، أحبتهم، ومواطني منطقتهـم، ممن يتوقعون وجودهم في المـكان. كان المـكان مسـلخاً بشـرياً كارثيـاً. هنـا حيث رائحة الدخـان الخانقة ممتزجة برائحة المطاط المحترق والذائب، ورائحة حديد السيارات المحترقة وأصباغها ممتزجا برائحة المقاعد الصوفية المحترقة، ورائحة المواد الكيمياوية والغازات المتستخدمة في إطفاء الحرائق ممتزجا برائحة عفونة المجاري التي تفجرت بفعل قوة الإنفجار.

رائحة اللحم البشري المحترق نتنة. رائحة الأجساد التي احترقت داخل السيارات تطلق عفونة مريعة. رأت سـيارة تشـتعل ما زالت تشـتعل ورجال الإطفاء يطلقون الغاز عليهـا. حـاول أحدهـم أن يسـحب الشـخص الجالـس خلف المقعد فلم يسـتطع، وكاد يسقط لأن ذراع الشخص المتفحم داخل السيارة انخلعت عن الجسد بيده، ففزع الرجل المنقذ وألقى بالذراع المحترقة وهرول هارباً. الجثة التي في السيارة انفجرت وتداعت رماداً على بعضها وفي مكانها. ثمة جثة متفحمة قرب إحدى السيارات يبدو أنها لإمرأة تحضن طفلاً متفحماً معها أيضا.

رائحة الدم الزنخة تزكم الأنوف والنفوس وتبعث على الغثيان. الأعضاء البشـرية المتمزقة متناثرة في أرجاء المكان بشكل فوضوي، أرجل مهشمة، أكف ممزقة، سيقان كاملة تنزف دما بالرغم من أنها تلبس الأحذية.

رأت حواء أم الملاك كيف أن هذا المكان لم يعد شـارعاً عاما، وملتقى للمطاعم والمقاهي وسـوقا عامة على الرصيف، وإنما هو الآن مسـلخ بشـري حقيقي أسـوأ من مسـالخ الإبـل، فهنـاك بقايـا جلدة وجه إنسـان مسـلوخة عن الجمجمـة، وهناك فروات رأس، جلد وعليه بقايا شعر، منزوعة عن رؤوس أصحابها، هنا تتناثر الأحشاء البشرية التي اختلط برازها بدمها وشحمها المهروس، وبقايا الأدمغة المسحوقة والمتناثرة مثل مخاط أو قيء، وبقايا الوجوه والرؤوس والجماجم المهروسة والفارغة، وبقايا الأجساد

البشرية، وأنصاف الأجساد البشرية التي بدون أطراف أو بدون رؤوس.

كانت حـواء تنظـر بعينيـن مفتوحتيـن على آخرهمـا. رأت خليطا عجيبـاً من حطام المخـازن، والدكاكيـن، والمقاهـي، ومحـلات العطـور، وبسـطيات بائعـي القمصـان، وكاسـيتات الفيديو المستنسـخة، والعطور الرخيصة. كل هذه الفوضى امتزجت بصراخ الجرحى، وصفارات سـيارات الإسـعاف وعويل بعض النسـاء، وصراخ رجال الحرس الوطني، ورجال الإسعاف، ورجال إطفاء الحرائق، مع الضوضاء التي تصدر عن تزاحم الناس الذين صار هذا المشهد جزءاً من حياتهم اليومية.

لم تشهد حواء في حياتها مشهداً حياً ومباشراً للخراب الإنساني، وإنفلات العنف الوحشي مثل هذا المشهد.

راودها هاجس بأن تحصي عدد الجثث، لكنها لم تسـتطع لأن سـيارات الإسـعاف وسـيارات الحمولة أيضاً كانت تنقل الجثث والجرحى. كل شـيء كان يجري سـريعا. بعض سيارات الإسعاف كانت قد مدت خراطيمها لتطفئ النيران وتغسل الدماء، وكأنها تريد أن تخفي معالم الجريمة أو تخفف من هولها للناظر.

أحسـت بإنقبـاض فـي صدرهـا وارتجاف في قلبها. وبـدون إرادة منها بدأت تبحث عـن ابنهـا وعـن حبيبهـا آدم المحـروم. لم تكن تعرف بـأن الكثير من الجثث والجرحى كان قد تم نقلها إلى المستشفيات القريبة. أخذت تحدق في بقايا الجثث التي كان من بينها جثث لأطفال. التفت إلى جهة ما، فرأت بعض رجال الإسعاف يجمعون في كيس نايلون أسود بقايا الأدمغة المتناثرة والأحشاء المنتزعة، والأكف أو الأصابع، أو الأقدام المقطوعة، لينظفوا المكان منها.

رأت بعـض النسـاء اللواتـي افترشـن الأرض وبـدأن بالندب والنـواح والدعاء على الظالـم، وعلى الحكومة والإرهابيين معاً. فتشت في المكان عن أي أثر يشي بوجود ابنها وآدم المحروم فلم تجد، وفتشت في وجوه الموجودين فلم تعثر عليهما. أين هما إذن؟

وكلما استمر وجودها في المكان أكثر، إزداد قلقها وإحساسها بالإنهيار الجسدي. كانت هي تتمنى ألا تراهما في هذا المكان، لأنه لا أحد كان في هذا المكان ونجا.

حيـن تعبـت مـن البحـث، وبـدأ المـكان يخلـو من الزحـام، حيث ذهبت سـيارات الأسـعاف بالجرحـى وبالجثـث وبقايـا الجثـث، وانسـحبت سـيارات الشـرطة والأمن، ووصلت سـيارات تابعة للحكومة بنقل حطام السـيارات، ظلت هي واقفة كالصنم في مكانها الذي كانت تحدق منه إلى الخراب.

كانت تنظر إلى من تبقى من ذلك الحشد. انتبهت لوجود بعض الشباب المراهقين

الذيـن أخـذ أحدهـم يتحـدث عـن الإنفجار وكأنـه كان في تلك اللحظة قرب السـيارة. وبالرغم من أنها مع نفسها لم تصدق روايته للإنفجار إلا أن هاجساً راودها كي تسأله إن كان قد شاهد رجلاً وطفلاً كانا في السوق عندما حدث الإنفجار.

حيـن همـت بالعـودة إلى البيت أحسـت بتشـنج وألم في عضـلات فخذيها. كان ما يشـبه الشـلل قد أعاقها، وحين تحركت شـعرت بألم في أعصاب فخذها، لكنها ما أن استمرت قليلاً في المشي حتى تلاشى الألم.

مشـت بهـدوء وكأنهـا مريضـة، وكان الغـم يقبـض على صدرهـا. كانت كل خطوة تؤذيها، لكنها كانت تشعر بشيء من التحسن كلما ابتعدت عن المكان، وكأن كل شيء صار خلفها. حين وصلت البيت وأغلقت الباب، انتبهت إلى أنها لم تأخذ جهاز هاتفها النقال حينما خرجت، لذا ما أن دخلت الصالة حتى هرعت مسرعة إلى الهاتف النقال، لكن الخيبة واجهتها حينما لم تجد أي مكالمة فائتة.

أخذت الهاتف النقال وبدأت تطلب رقم هاتف آدم المحروم. استبشرت حينما بدأ الهاتـف يـرن. ظـل الهاتـف يـرن وما من جواب، إلـى أن انتهت الفترة المخصصة لرنين المكالمة. إتصلت دون إنقطاع تقريبا، لكن لا أحد يجيب، فازداد قلقها وتوترها.

جلسـت على إحدى الكنبات وأخذت الريموت كونترول فبدأت شاشـة التلفزيون تبث الصور، فأخذت تتنقل بين القنوات الفضائية، فقرأت الشريط العاجل عن الإنفجار على شاشات معظم الفضائيات العراقية، لكنها استغربت بأن القنوات تختلف في تقدير أعداد الضحايا، منهما من ذكرت أن الشهداء خمسون والجرحى ثمانون، وأخرى ذكرت بـأن الضحايـا مـن الشـهداء والجرحـى بلغـوا الأربعين، أما قناة الجكومـة فلم تذكر أي شـيء عـن الإنفجـار، وإنمـا كانـت تعيـد بث لقاء مع رجل ديـن يتحدث فيه عن الكتب في مكتبته. وبلا وعي إنتقلت إلى القناة التي شـاهدت فيها تلك الحلقة من المسلسـل التركي، فانتبهت إلى أن المسلسل قد بدأت للتو. لم تستطع أن تشاهد المسلسل. أحست أنها تكاد تختنق بالكامل، ولا تسـتطيع التنفس، فخرجت إلى الحديقة، لكن الجو كان خانقا جداً، فرائحة الحرائق كانت قد عمت المنطقة كلها.

لم تستطع أن تبقى طويلاً في الحديقة. مشت إلى الباب الخارجي وأطلت برأسها إلى الشارع تتلفت إلى جانبيه عسى أن تراهما مقبلين. لكن دون جدوى.

لم تكن تعرف ماذا تفعل. فجأة، استيقظت في أعماقها مشاعر التأنيب، إذ أحست بأنهـا السـبب الـذي دفعـه للخـروج من البيت. أخذت تفكـر بأبيها مرة أخرى، فحاولت الإتصال به لكن هاتفه كان مغلقاً.

وفـي فوضـى مشـاعرها وأفكارهـا برقت في ذهنها فكـرة أقلقتها جداً، فماذا لو كان والدها قد ذهب إلى البصرة ليصحب زوجها الذي سـيخرج، فربما كان يحتاج لكفيل أو أي شيء من هذا القبيل، وأنه أراد أن يفاجئها بدخوله مع زوجها؟.

لأول مرة بدأت تواجه نفسها وتحدق بعيونها الداخلية للوضع الذي هي فيه. بدأت تقارن بين زوجها وبين آدم المحروم. أحسـت بالرعب لمجرد التفكير في ذلك، فماذا لو أن زوجها فعلاً في طريقه إلى البيت؟ كيف ستقرر، وماذا تختار، وكيف ستتصرف؟ ألـن ينتبـه زوجهـا لعلاقتهـا بآدم المحروم؟ كيف سـتعيش مع زوجها؟ هل ستسـتمر في علاقتها مع آدم المحروم؟ كيف سيكون رد فعله إذا ما عرف بتواجده في البيت، ومبيته عندهم، ألا يشـك؟ هل ستسـتمر معه في علاقة جسـدية وهي قد عرفت معنى الجنس والمتعة واللذة مع آم المحروم؟ هل ستطلب الطلاق؟. عند فكرة الطلاق أحست بأنها ترتجف من الخوف، وثمة ارتعاشـة تسـري في جسـدها وخفقان قلبها بدأ يعلو نبضه، حتى وكأنها صارت تسمع دقاته. وبالرغم من أنها تعرف بأن زوجها أتهم ظلماً، وأنها تتمنى له أن يخرج من ذلك السجن المقيت والمرعب، إلا أنها أحست بأمنية آثمة، في أن لا يتحقق ذلك الآن على الأقل.

مـرت سـاعة أخـرى، تصاعـد خلالهـا توتر حـواء أم الملاك النفسـي كثيراً. صارت عصبية. وجهها توتر ونظراتها لا تسـتقر على شـيء محدد. كانت تحس نفسـها عدوانية مثـل لبـوة شرسـة فـي قفـص، لاتـدري ماذا تفعـل ولا إلى أين تتجه. كانت شـبه منهارة من الغضب والعصبية. فجأة، انتبهت من خلال النافذة المطلة على الحديقة بأن الباب الخارجـي يُفتـح ويدخـل آدم المحـروم حاملاً الملاك الصغيـر على صدره، والذي كان يغـط فـي النـوم. قفـزت من مكانها وفتحت الباب الداخلـي. تفجر غضبها. كانت عنيفة جداً. وبالرغم من أنها حاولت السـيطرة على نفسـها إلا أنها لـم تسـتطع إيقاف غضبها العارم وإنفجاره في وجهه حين قالت له:

– أين كنتما؟ لماذا تفعل هذا بي؟ كم أنت قاس؟

نظر هو إليها بعتاب لهذا الإستقبال الذي قابلته به. دخل إلى الصالة دون أن يقول شيئا. صرخت به بعصبية:

– يجب أن تجيبني. أنا أتحدث معك. أين كنتما؟ لماذا لم تتصل بي؟

لم يجبها أيضا، وإنما توجه إلى غرفة نومها مع الصغير ووضع الصغير على السرير العريض. وخرج إلى الصالة. تبعته. كانت تعرف أنها قد تجاوزت حدود علاقتهما عند صراخها في وجهه بهذا العنف، لكنها أحست بأنه من غير الممكن أن تتراجع. فانتقلت

غاضبة إلى موضوع آخر، إذ سألته:

– لقد وعدتني أن تخبرني لماذا سافر والدي لكنك تهربت

إلتفت إليها غاضبا. وقال لها بصوت جاف:

– أتريدين أن تعرفي؟ إذن إسمعي السبب: أبوك سافر لأن زوجك مات في السجن

ما أن نطق آدم المحروم بهذه الجملة حتى أحس بأنه أخطأ. لم يكن عليه أن يقول لها، وليس بهذه الطريقة اللئيمة في كل الأحوال. في نفس الوقت استغرب ردة فعلها التي لم يكن يتوقعها، إذ قالت بغضب:

– ماذا تقول؟ أي إنسان أنت؟ مضت أيام وأنت تعرف ذلك، وخلال كل هذه الأيام تنام معي ولا تقول لي أي كلمة عن ذلك!!!

وبدون أن تعرف من أين هطلت عيناها بالدمع. أحست بشعور بشع، أحست بالعار. كيف لم تفهم هذا الأمر؟. صمتت للحظات ثم رفعت رأسها إليه وفي عينيها غضب هائل. قالت وفي صوتها نبرة حنق ظاهر:

– أرجوك أخرج من هنا. عليك أن تنام في المشتمل الليلة.

نظر إليها للحظات، ودون أن يقول شيئا غادر الصالة. ظلت هي واقفة لا تعرف كيف قالت له ذلك. أحست أنها اقترفت أكبر خطأ في حياتها. سمعت اصطفاق الباب وهو يخرج. ركضت مسرعة ودخلت إلى غرفة الحمام. أغلقت الباب على نفسها ووقفت تحت دوش الماء بكامل ملابسها وفتحته على آخره. لم تكن تستطيع البكاء والنحيب بصوت عال، كي لا توقظ ابنها النائم.

كانت تبكي بصمت. وتضرب على وجهها بيديها. أخذت تفكر في نفسها وتطلق الشتائم على نفسها بصمت، فكرت كم هي فاسقة داعرة، بينما كان زوجها يعذب في السجن كانت هي تزني وتمارس الجنس بشكل داعر. كم هي متهتكة وفاسقة، وكم كان هو فاسق وعديم الأخلاق. كيف تجرأ على ذلك. لو لم يكن يعرف شيئا لغفرت له كل ما فعله معها، لكن أن يعرف أن زوجها مات تحت التعذيب في سجن بوكا، وأن أباها سافر إلى هناك مع أخي زوجها لإحضار الجثة، بينما كان هو يمارس معها مستغلاً تعطشها للحب وجوعها للجنس.

ظلت ساعات تحت الماء. جلست في البانيو. نزعت عنها ثيابها. ظلت تبكي لفترة طويلة، إلى أن تعبت من البكاء. انتبهت إلى أن ثيابها سدت مجرى نزول الماء فامتلأ البانيو بالماء. حركت مقبض الدش فتوقف الماء. ظلت جالسة في الماء الدافئ. هدأت أعصابها. فهمت الآن لماذا لا يجيبها والدها؟ ولماذا أغلق التليفون؟ خلال جلستها

تلك في البانيو راجعت مسيرة حياتها. فجأة راودها أحساس بأن تخففت من شيء كان يجثم على صدرها، لم تشأ أن تفكر في أن ذلك الشيء هو زوجها، لكن هذا الإحساس راودها بالرغم من ذلك.

راودتها أحاسيس متضاربة، هل ترى كان طردها لآدم المحروم من البيت صحيحاً، أو أنها استعجلت ذلك؟ لماذا كانت قاسية معه هكذا؟ إنه يحبها وهي متأكدة من ذلك، وهي تحبه أيضا. بل إنها ربما تحبه أكثر مما هو يحبها. كما أن ابنها يحبه أيضا وهو يحب ابنها الصغير، فلماذا تصرفت معه هكذا؟ إنتبهت إلى أنها تفكر فيه بينما سمعت لتوها خبر موت زوجها، هل هي إنسانة سيئة لهذه الدرجة؟

لم تكن تعرف ماذا تفعل. ظلت جالسة في البانيو لساعات حتى أحست بأن الماء صار بارداً. كان رأسها يضج بالأفكار. كانت متعبة من البكاء وجسدها مسترخياً من المتعة. نهضت بهدوء عارية، وفتحت الماء الدافئ على نفسها. بسملت تحت الماء ثلاث مرات. وخرجت من البانيو. رفعت الثياب المتدكسة فيه فانساب الماء من فتحة في طرفه. وبهدوء فتحت الباب متجهة لغرفة النوم المظلمة. توجهت للخزانة وأخرجت ثوباً طويلا، وسروالا، وبلوزة سوداء.

بعد أن ارتدت ثيابها، أشعلت مصباحاً صغيرا على جانب السرير، فأضاءت الغرفة بضوء شاحب. أخذت سجادة الصلاة عن الطاولة في جانب الغرفة، وأخذت تصلي لروح زوجها. إنتبهت أنها منذ أن بدأت علاقتها مع آدم المحروم، تركت الصلاة. في الأيام الأولى كانت تقيمها ثم تقلصت، ومنذ أن قبلها أول مرة أحست أنها ضائعة، ولا فائدة من ذلك، ثم تركت الصلاة. لكنها الآن تحس برغبة قوية في أن تصلي لروح زوجها.

أثناء صلاتها كانت الأفكار تتقاذفها هنا وهناك. لماذا تأخر والدها؟ أين سيكون الدفن؟ وأين ستكون الفاتحة؟ هل ستكون هنا في هذا البيت أم عند أهله وأخوته؟ ولماذا لم يأت أي من أهل زوجها إليها ليخبرها بذلك؟ وكيف عرفوا بالخبر بينما هي زوجته لم يبلغها أحد؟ وفي كل مرة كانت تتوه في عدد الركعات؟

ظلت تصلي لروح زوجها حتى الساعات الأولى من الفجر. وأخيراً استلقت على السرير محتضنة ابنها، مغرورقة العينين بالدمع على مصير هذا الطفل الصغير الذي لم يعرف أباه وتيتم وهو في صغره. شعرت بشفقة عارمة قبضت على قلبها وهي تفكر في صغيرها، وقررت مع نفسها بألا تشعره بأي شيء. لكن الأفكار لم تنقطع تعذبها حول مصير ابنها الوحيد، تُرى أي مصير سينتظره؟ كيف ستربيه؟ الى متى سيبقى أبوها

الرجل المسن على قيد الحياة؟. كيف ستواجه الحياة وحدها؟ وجدت نفسها في متاهة لم تفكر بها سابقاً.

في صباح اليوم الثاني نهض الصغير كمعادته مرحاً، وركض إلى الصالة فلما لم يجد آدم المحروم، ركض إلى أمه يخبرها بذلك، فقالت له بأن عمو سافر. وبقيا في البيت. شعرت وكأنها عادت إلى إيقاع حياتها السابقة، لكنها أحست أنها لم تعد تطيق هذه الحياة الساكنة التي كانت قبل علاقتها بآدم المحروم تعيشها. كانت لا تعرف كيف تقضي وقتها. كانت تتصل طوال الوقت بأبيها لكن دون جدوى. أرادت أن تتصل بآدم المحروم، لكنها ضغطت على نفسها ألا تفعل ذلك، فهي على الأقل في أيام العدة الواجبة فلا يجوز لها أن تكلم شخصاً غريباً. وكانت تضغط على نفسها أن لا ينتبه ابنها إلى أي شيء، وهذا ما كان صعباً عليها لأن ابنها كان يلعب بكل براءة ويريدها أن تلعب معه. فأحيانا كانت تستجيب له وأحياناً أخرى تراوغ كي لا تشاركه ضحكه وكركراته الطفولية.

مر يومان على ذلك المساء الذي أخبر فيه آدم المحروم حواء الزاهد عن سبب سفر أبيها إلى البصرة. لكنه ما زال متأثرا جداً من ردة فعلها المهينة بالنسبة له، حيث فهم وكأنها طردته، بالرغم من أنها كانت قبل أن يخبرها بلحظات تلهث تحته وتؤكد له أنها ملكه.

أحس أنه لم يفهمها جيداً، أو أنها شخصية مزدوجة، فما معنى كل هذا التحرر في العلاقة معه، بينما تتصرف وكأنها امرأة عفيفة؟! أحس أنه فقدها، لكنه بالرغم من ذلك يحبها فعلاً، وكان يعتقد بأنها ستصطدم يالخبر، وتتأثر قليلاً، لكنها في النهاية ستطمئن إلى أنهما سيعيشان معاً ويتزوجها بعد مرور العدة بفترة قصيرة. وكان مطمئنا إلى أن والدها لن يعترض عليه، بل وربما سيسهل هو الأمر. لقد كان يعذبه طريقتها في حذفه بهذه السهولة من حياتها.

لقد كان يود أن يساعدها في تقبل الأمر، والتفكير بشكل هادئ بكل التفاصيل، وكيف سيواجهان كل الإحتمالات، لكنها لم تدع له أي مجال للتواصل. وها قد مر يومان على ذلك دون أن يسمع عنها أي شيء. لقد اتصل مرات عدة بالهاتف النقال لوالدها لكن الهاتف كما يبدو مغلق. لم يفهم سر ذلك. كما أنه لا يستطيع أن يتصل بها بعد ما جرى بينهما.

فكر مع نفسه بأن والدها لو كان قد رجع فمن المؤكد كان سيمر عليه. لكن لا أحد قد اتصل به. كان قلقاً عليها، وعلى الصغير، ولا يدري كيف كان وضعها خلال

هذيـن اليوميـن. فكـر آدم المحـروم أن يخـرج إلـى الشـارع ويمر من أمـام الدار ليعرف الحال على الأقل.

كان الشـارع مظلماً وفارغاً. ليسـت هناك سـوى بعض الأضواء الكهربائية التي تأتي من نهاية الشارع العام. مر بهدوء من أمام الدار. تلفت حوله إن كان هناك من يراقبه في الشارع. لم يكن ثمة أحد في الشارع في مثل هذا الوقت. نظر إلى الدار فاستغرب عدم إضـاءة الردهـة. لقـد كان حينمـا يأتـي مع والدها ليلاً، يرى الصالة مضاءة، فيعرفان بأنها تنتظرهمـا. لكـن مـا الـذي جـرى؟ هل هي في غرفة نومها؟. أراد أن يطرق الباب عليها، لكنه تردد في ذلك. أخرج الهاتف النقال من جيبه، أراد أن يتصل بها، لكنه تردد. تقدم من الباب الحديدي الخارجي، وبهدوء شديد أراد دفعها، لكنه كان مغلقا من الداخل. فجأة انتبه إلى دخول سيارة إلى زقاقهم. فابتعد عن الباب وواصل طريقه بإتجاه الشارع العام. حين مرت السيارة من جانبه، نظر إلى من كان داخلها، فرأى ثلاثة رجال يلبسون الأسود، أو هكذا ترآى له، إذ كانت السيارة مضاءة بمصباح داخلي شاحب الضوء.

حين ابتعد ما يقارب الثلاثين متراً إلتفت إلى الخلف فوجد أن السـيارة واقفة أمام الدار لكن في منتصف الشـارع. ظل هو واقفا أيضا ليرى ماذا سـيحدث؟ ومن هؤلاء، فلربما قد وصل الأب؟ لكن لا أحد نزل من السيارة، ثم تحركت السيارة مواصلة سيرها. اسـتغرب آدم المحروم الأمر، ولم يجد له تفسـيرا. ولا يدري أي شـعور دفعه ليلتفت ثانيـة إلـى الخلـف نحـو السـيارة، فوجد أنها وقفت أمام المشـتمل أيضا، لكن للحظات قليلة ثم واصلت السير. فكر مع نفسه، ربما هم ضيوف على أحد ما لكنهم لا يعرفون الدار بالضبط. واصل سيره نحو الشارع العام.

فـي ذلـك الوقـت بالضبط سـمعت حواء الزاهد صوت سـيارة وقفـت قرب الباب، ظنـت أن والدهـا قـد وصـل. وقفـت في الصالة المظلمـة تنظر إلى الباب، لكن لم يجئ أي شـخص. إذ بعـد قليـل تحركـت السـيارة مـن أمام الباب، وانتبهـت أنها توقفت على مبعدة قليلة. ظنت ربما أراد والدها أن يذهب إلى آدم المحروم قبل أن يأتي إليها، لكن السيارة تحركت بعد لحظات. وبالرغم من ذلك ظلت واقفة في الصالة المظلمة لساعة تقريبا دون أن يظهر أي شيء، لكنها انتبهت لوجود رجل وقف عند الباب قليلاً ومضى. راودها إحسـاس داخلي إلى أنه آدم المحروم، لكن هذا يعني أن من كان في السـيارة ليـس أباهـا، بـل ربمـا أشـخاص غرباء كانوا في زيارة لأحـد معارفهم في الزقاق. كانت علـى يقيـن بـأن الشـخص الـذي بدا في العتمة قرب البـاب الخارجي هو آدم المحروم، لكنهـا لـم تذهـب لتفتـح لـه، لأنـه لم يطرق الباب كي تكون مضطرة لفتحه له، لكن هل

كانـت سـتذهب لتفتـح البـاب حتـى لو كان قد طرقها؟. لـم تجد أي إجابة لكنها غريزيا كانـت تتمنـى لـو أنـه كان قـد طرق الباب. ظلت هي واقفـة أمام النافذة غارقة في ظلمة الصالة، تنظر إلى العتمة والظلام في الخارج.

حين تحركت السـيارة نحو الزقاق من الطرف الآخر، لم يسـتمر آدم المحروم في تجوالـه كثيـرا، إذ عـاد بعـد قليـل راجعا إلى بيته، لكنه قبل أن يصل بيته توقف عند باب بيت آدم الزاهد. أراد أن يطرق الباب إلا أنه لم يفعل، وإنما توجه لمنزله.

لـم يكـن يعـرف مـاذا يفعـل. كان متضايقا جداً. توجه لغرفة نومه، أشـعل المصباح الكهربائـي. تمـدد علـى سـريره. نظر إلى الكتب التي اشـتراها لهـا واحتفظ بها لديه كي تأتي لتقرأها عنده. أخذ يتصفحها دون أيما رغبة في القراءة.

كان يحـس بالإختنـاق. تذكـر أنـه ترك حقيبته الجلدية عندها في البيت. فجأة راوده شـعور بأن أيام اللذة والنشـوة الجنسـية قد انتهت، وأن عليه ألا يفقد حواء الزاهد، فهو يحبها جداً. أحس أنه لا يسـتطيع تصور الحياة بدونها. وبدون أيما تفكير أخذ الهاتف النقال وكتب لها رسالة من كلمة واحدة: أحبك.

أحـس بالذعـر مـن تصرفـه هـذا. ظـل ينتظر ردها. كان قلبه يخفـق بقوة في صدره. انتظر طويلاً دون أن يصله أي رد. فكر مع نفسه في أي رد، مهما كان سيئا، هو بمثابة تواصل معها، لكن ألا ترد يعني أنها رفضته، أو أنها ما زالت غاضبة منه. لا يعرف آدم المحروم كيف نام.

19

فجر أسود

فـز آدم المحـروم علـى طرقـات خفيفـة على باب المشـتمل الداخلـي. مَن تراه جاء ليطرق الباب عليه في مثل هذا الفجر؟ كان قد نام عاريا إلا من سرواله الداخلي. لبس البنطلون الذي كان عند قدميه، ولبس قميصه أيضا، وخرج ليرى من الطارق؟

لم يتح له باب المشـتمل الخشـبي من رؤية من خلف الباب، كما أن النافذة التي تطل على الباب الخارجي لم يكشف الطارق لأن باب الصالة كان جانبياً. أحس برجفة تسـري في جسـده، لكنه فكر ربما هي حواء أم الملاك جاءته، فسـأل بهدوء محاولاً ألا يظهر التوجس والخوف في نبرته:

– من هناك؟

لم يسمع جواباً وإنما جاء الرد بطرق آخر على الباب. خمّن ربما هي ولا تريد أن يسمع صوتها أحد، لكنه للإحتياط سأل مرة أخرى:

– من هناك؟

فجاء صوت رجالي، محاولاً أن يكون هادئاً:

– إفتح.. نحن من طرف آدم الزاهد.

مـا أن سـمع ذلـك حتـى أحـس بقلبـه يرتجف وتـزداد نبضاته، ففتح الباب سـريعاً، متوقعاً بأن شيئاً ما قد حدث.

مـا أن فُتـح البـاب حتـى دخـل أربعـة رجـال ملتحون بلحى خفيفة، وبوجوه سـمر، وملامح خشنة متجهمة. تفاجأ آدم المحروم بهذا العدد وتوجس شراً. فجأة باغته أثنان مـن الرجـال مـن الخلـف وقبضـا عليه بإحكام، وبينما أراد هـو أن يصرخ طالبا النجدة، أخرج أحدهم شريطا لاصقا، يبدو أنه كان قد أعده في جيبه، ولصقه على فمه مباشرة كـي لا يتـرك لـه فرصـة للصـراخ والإسـتغاثة. وبـدون أن يضيع هـؤلاء الوقت، بل ولم يتركوا له فرصة أن يسـتوعب المشـهد الذي هو فيه، سـحبوه إلى أعماق البيت، فانتبهوا إلى غرفة النوم. كانت الغرفة معتمة. ضغط أحدهم على زر الكهرباء ليضيء المصباح

إلا أنـه لـم يكـن هنـاك أي تيـار كهربائـي. كان آدم المحروم فزعاً، لم يسـتطع أن يتحرك لأن الآخرين قد شلوا حركته، لم يظهر منه سوى الفزع الهائل في عينيه.

ألقـوا بـه علـى السـرير العريض. وبسـرعة اللصـوص المرتبكين مدوه على السـرير فجلس أحدهم على سـاقيه ليشـل حركته، ومسـك رجلان بذراعيه كلا من جهته، بينما جلـس الرابـع علـى صـدره، حيث أخرج سـكينا كبيراً من سـكاكين المطبـخ، وبينما هو يقربهـا مـن عنـق آدم المحـروم، حـاول الأخيـر أن يطلـق ما لديه من قـوة حينما أراد أن ينطح الذي يجلس على صدره فنجح في إزاحة السكين قليلاً من يد المهاجم فجرحته جرحـاً بسـيطا. لـذا وبـدون أي كلام، وبسـرعة خاطفـة، مـرر القاتـل نصل سـكينه على عنـق آدم المحـروم، فطفـر الـدم علـى الحائط وعلى وجه القاتل، حاول أن يرفس إلا أن الآخريـن كانـوا قـد أحكمـوا علـى أطرافه بكل قوتهم. ولم تمض إلا دقائق حتى أسـلم الروح. امتلأت الوسادة والشرشف بالدم. تلوث السرير من جهة الرأس. تركوه ملطخاً بدمه، وغادروا الغرفة والمنزل بسرعة.

فزت حواء الزاهد على طرقات قوية على الباب الداخلي للصالة. مدت يدها، في عتمة الغرفة، إلى المصباح الصغير إلى جانبها على طرف السرير. أضاءت الغرفة بنور المصباح الشاحب. أول ما طرأ في ذهنها أنه والدها. لكن، وخلال ثانية أجابت نفسها بـأن والدهـا لديـه مفتـاح البـاب الداخلـي ولا يحتاج إلى أن يطرق الباب بهذا الشـكل. فكرت ربما يكون آدم المحروم، لكنها أيضا أجابت نفسها بأنه لا يتجرأ أن يفعل ذلك. قفـزت، وهـي فـي خضـم هذه الأسـئلة والأجوبة، إلى خـارج الغرفة وحينما صارت في وسـط الصالة ألقت نظرة من النافذة جانبيا إلى الطريق،فعرفتْ إثنين من أخوة زوجها، وشـخصين آخرين معهما. أحسـت برعب شـديد، فهؤلاء لا يعرفون الطريق إلى بيتها، فكيف وصلوا إليها؟ ولماذا؟ ولماذا في مثل هذا الوقت؟.

عـادت مسـرعة إلـى غرفـة نومهـا، وأخذت العباءة السـوداء، تلفحت بها، ثم عادت ففتحـت البـاب. إندفـع الأخـوان إلـى الداخل ووجهاهما مرتعبـان. والتفتا إلى الآخرين وناداهما:

– إدخلا.

دخل الرجلان الآخران أيضا. كانت حواء الزاهد مذهولة من طريقة دخولهما إليها مع غرباء، لاسيما وأنها المرة الأولى التي يأتيان فيها إلى هذا البيت، واختيارهما لهذا الوقت بالذات، فالشمس لم تشرق بعد، وأيضا لهذه الطريقة الغريبة من التعامل الخشن.

إنتبهت إلى نظرات الأخوين المليئة بالتساؤل والغموض والفزع. لم يسلما عليها.

توزع الرجال جالسين على المقاعد الموجود في الصالة. إنتبهت إلى أنهم فزعون جداً، وكأنهم مطاردون، إذ كانوا جميعهم ينظرون بتوجس إلى الباب الخارجي. إنتبهت إلى أن أحدهم مجروح اليد، وإلى آخر بدا قميصه ملوثاً بالدم. وعلى وجه أحد الأخوين قطرات دم. نظر إليها أحدهم شزراً وقال لها:

– إذهبي إلى مكانك هناك، واسمعي ما سنقوله لك.

وأشار بيده إلى جهة المطبخ وداخل البيت. لم تفهم هي ما وراء هذا الكلام، لكنها بالرغم من ذلك توجهت إلى هناك حيث صارت بعيدة عن أنظارهم، وجاء صوت الأخ الكبير حاسماً وقاسيا، مع نبرة تجعله مرتجفاً:

– إسمعي يا بنت الناس. أخونا، الذي هو زوجك، مات تحت التعذيب في سجن بوكا. وأخونا الكبير سافر مع أبيك إلى هناك. لكنهما لم يصلا، حيث تم اختطافهما عند مدينة الصويرة، على الطريق العام، وتم ذبحهما وإلقاء جثتهما على الشارع مع بقية ركاب الباص الذي كانا فيه. الشرطة قبل يومين جاءت بهويتيهما. كانا مقطوعي الرأس. جئنا نخبرك لكنا لم نستطع لأنا رأينا شخصا غريبا خرج من البيت. أنت الآن وحيدة. لقد قمنا بما يمليه علينا شرفنا، وإذا تأكدنا بأنك أسأت لنا ولشرفنا فسيكون جزاءك قاسيا. سنأخذ ابن أخينا وسنعاقبك.

غادروا مسرعين، ولم تسمع سوى ضجة، واصطفاق باب الردهة، وأصوات هرولة، وبعد لحظات ارتفع صوت محرك سيارة، وصوت سيارة تنطلق بسرعة.

منذ سماع حواء أم الملاك، للجمل الأولى التي إنطلقت من فم الأخ الكبير، أدركت أن كارثة قد حلت بالجميع. وحينما سمعت ما جرى لوالدها أحست بنزول البول منها لا إراديا. أمسكت فمها بكفها كي لا تنطلق صرختها. وما تحدثوا عن الشخص الغريب حتى عرفت بأنهم هم الذين كانوا هنا مساء أمس. وربما كانوا هنا قبل ذلك ولمحوا آدم المحروم. وحين سمعت ما قالوه عمّا أملاه عليهم شرفهم، تذكرت القميص الملوث بالدم، وجرح كف أحدهم، ونقاط الدم على وجه الأخ الكبير. أحست بنفسها تنهار، وكاد تنفسها ينقطع، ولم تعد رجلاها قادرتين على حملها فأقعت على الأرض دون إرادة منها.

أحست بفراغ كبير يجتاحها. فراغ هائل ليس له قرار. لم تكن تقوى على التركيز في ما سمعت. كانت مشوشة. خائفة. تحس بأنها ليست هي نفسها. لم تكن تعرف بأي شيء مما سمعت عليها التركيز، بزوجها الذي مات؟ بأبيها الذي ذُبح وقُطعتْ

رأسـه بحبيبهـا التـي صـارت متأكـدة الآن أنـه تعرض لأذى كبير، لكنهـا تخاف أن تفكر بنوع الأذى الذي تعرض له.

فجأة إنطلقت منها صرخة هائلة جسدت كل ألمها ويأسها وعجزها وهول مصابها.

إنتبهت لبكاء ابنها الذي فز فزعا على صرخة أمه المخيفة. أحس بشعوره الطفولي بوقوع خطر ما لأمه. حين خرج الصغير من الغرفة رأى أمه ملقاة على الأرض. جالسة بإنهيار. مادة سـاقيها إلى الأمام باستسـلام، ومتكئة على جدار الغرفة عند بداية السـلم. أخذ الطفل يبكي بصوت عال. رفعت عينيها إليه واحتضنته باكية أكثر. إزداد فزع الطفل الصغير، واحتضن أمه باكيا. ظلت الأم والطفل يبكيان. كانت هي تبكي، وتعرف لماذا تبكي، بينما آدم الملاك الصغير، كان يبكي لبكائها فقط. ظلا هكذا لوقت طويل، إلى أن أحست بالإنهاك. انتبهت لإنهيار ابنها تقريبا، إذ ان نظراته كانت مرعوبة وملامح وجهه تعكس خوفاً مجهولاً، فخافت أن يمسه شيء بسبب المشهد المفزع الذي هما فيه.

أحست بهدوء مفاجئ وغريب بحيث لا يتناسب مع الحالة التي هي فيها. أحست وكأن المشـهد قـد اتضـح أمامهـا. فأخـوة زوجها ربما راقبوها فعـلا، وانتبها لوجود آدم المحروم في بيتهم حتى بعد سفر والدها، وربما فعلا أن ما جرى لأبيها كان قبل أيام، وأنهمـا جـاءوا لإخبارهـا فانتبهـا لوجود آدم المحـروم، لدخوله وخروجه، لذا انتقما منه في هذه الفجر وجاءا لينذروها. ما أن تذكرت آدم المحروم حتى أحست بهول الكارثة التي حلت بها. راودها إحساس أشبه باليقين بأنه آذوه، نعم..هل ذبحوه؟

أحست بقلبها ينهار، وجسدها يرتعش بالرغم من أنها جالسة على الأرض. قررت مـع نفسـها بـأن تذهـب إليـه لتتأكـد من وضعه، بالرغـم من تحذيراتهم لهـا، التي كانت واضحة الإشـارة بمعرفتهم بعلاقتها به. لكن أليس الأولى بها الآن أن تتأكد من قضية والدها؟ وأن تعرف تفاصيل ذلك؟ وكل ما له علاقة بمقتله؟ ودفنه، وإقامة الفاتحة؟ لمن تذهب وهي وحيدة لا أهل ولا أقارب؟ هل هم سـيقيمون الفاتحة له مع أخيهم الذي قتل معه؟ لقد أحسـت بأن أكثر ما آلمها في مقتل والدها هو تلك الطريقة البشـعة في قتله، ذبحه وقطع رأسه، وهو ذلك الرجل المسن، المسالم؟ ماذا فكر في تلك اللحظات التي كان نصل السـكين يحز وريده؟. كانت تضرب رأسـها بالحائط وهي تتخيل مشـهد أبيها وهو يذبح. وكان الصغير يبكي وهو يراها تفعل ذلك.

ما أن كفت عن النحيب حتى كف الطفل أيضا عن البكاء. تعب الطفل فغفا سريعا في حجرها. نظرت إليه بألم كبير، وهي تشـفق عليه من الأيام التي تنتظره بدون جده، أمـا هـي فأحسـت بأنهـا تنتمـي لآدم المحروم أكثر مما تنتمـي إلى هؤلاء الذين اقتحموا

عليها عالمها في هذا الفجر البغدادي الغامض.

أحست أن عليها أن تكون قوية، ليس من أجلها فقط، وإنما من أجل هذا الملاك الصغير الذي ليس له من الدنيا سواها الآن. أحست وهي في جلستها تلك بأنها بدأت تتصلب، وبأن قلبها بدأ يتحجر، وأنها تقبلت كل ما جرى وكأنه مصير متوقع، وأن عليها الآن أن تواجه الحياة بقوة، فلا مجال للدموع والنحيب. عليها أن تفكر بشكل يحميها، وفي نفس الوقت لا تسمح لهؤلاء بأن يدمروا حياتها بأخذ صغيرها منها، كما هددوها فجر اليوم..

قامت بهدوء محتضنة ابنها. فوضعته على السرير، إلا أنه فز حينما أرادت أن تفك ذراعيهاعنه. بكى، فانحنت عليه وقبلته. إطمأن الصغير وسكت. ذهبت هي إلى المطبخ لتعد له طعامه. كان وجهها متجهما. غاضبا. ويكشف عن إرادة سوداء.

ما أن انتهت حواء الزاهد من إطعام ابنها الصغير الذي عاد لهدوءه وبراءته، حتى تعالى دوي الإنفجارات في أنحاء مختلفة من بغداد، تبعها دوي صفارت الإسعاف التي تقبض على القلب. أحد الإنفجارات كان قريباً من منطقتهم، هكذا أحست حينما رافق الانفجار إطلاق رصاص سمعته.

بعد أن هدأت قليلاً قررت أن تتصل بآدم المحروم. صحيح أنها استلمت منه ليلة أمس رسالة كتب فيها: أحبك. إلا أنها لم تشأ أن ترد عليه. وربما حسناً فعلت، لأنها لو كانت قد استجابت له فربما كانا قد تصالحا وربما جاء لينام عندهم، ولو كان قد حدث ذلك، لكانت فضيحة ما بعدها فضيحة أمام أخوة زوجها. وبالرغم من أن لديها إحساساً يقبض على نفسها إلا أنها تحاول الآن ألا تفقد أملها نهائيا.

إتصلت به مرات عدة. كان الهاتف النقال يرن لكنه لا يجيب. أرادت أن تقنع نفسها بأنه ربما في الحمام. إنتظرت لعشر دقائق واتصلت مرة أخرى. كان الهاتف يرن لكن أيضا بدون إجابة. فكرت في أن تكتب له رسالة، وفعلاً كتبت: إجبني بسرعة. حدثت كارثة. قتل أبي. لا أعرف ماذا أفعل؟ أجبني أرجوك.

مضت أكثر من نصف ساعة على إرسالها الرسالة، وكررت إتصالها به مرات أخرى، إلى أن أحست بأن عليها أن تذهب إلى المشتمل بنفسها، لأنها أحست باستنفاد كل ذرائعها مع نفسها كي لا تصل إلى يقينها الأول بأنه تعرض لمكروه على يد أخوي زوجها ومن كان معهما.

ارتدت عباءتها وقالت لابنها الصغير، محاولة أن تجنبه أي مكروه غير متوقع، بلهجة أمومية حنونة:

– حبيبي آدم.. آني رايحة هنا..خمس دقايق وأرجع..أنت أجلس بغرفة النوم والعب هناك..

أخذته من يده إلى غرفة النوم، وأخرجت لعبه له، ففرح الصغير بها، وحينما همت بالخروج، فكرت أنه من الأفضل لها أن تأخذه معها. فأخذت بيده الصغيرة وقالت له:

– تعال معي.. بعد ذلك تستطيع اللعب.

خرجت من الصالة. كانت تحس بخفقان قلبها يتصاعد مع كل خطوة. خرجت إلى الشارع. تلفتت يميناً ويساراً فلربما أخوا زوجها ومن كان معهما ما زالوا هنا يراقبونها.

كانت الشمس قد بدأت ترسل أولى أشعتها. مشت إلى منزل آدم المحروم كمن يساق إلى المشنقة. كان الصغير لاهيا، مستكيناً، مطمئناً لأنه مع أمه.

حين وصلت حواء أم الملاك مع ابنها إلى المنزل انتبهت إلى أن الباب الخارجي مفتوح. دخلت وفي قلبها انقباض وانبساط وتصاعد في النبض بحيث أخذت تشعر بالإختناق. حين ولجت البيت، واتجهت إلى أعماق المنزل، انتبهت إلى الباب الداخلي مفتوح على مصراعيه، ورائحة زنخة تأتي من أعماق المنزل. وقفت عند باب الصالة ونادت:

– آدم.. أستاذ آدم..

لم يجبها أحد. دخلت مرعوبة. نظرت في الصالة فلم تجد ما يشي بأي شيء غير طبيعي. نظرت لصغيرها الذي أراد أن يدخل معها، أرادت أن تقول له بألا يدخل معها إلى الصالة إلا أن الكلمات ماتت على شفتيها من الخوف، فأشارت له أن يبقى خارجاً.

دخلت إلى أعماق المنزل. أرادت أن تناديه لكن الكلمات لم تطاوعها. حينما اقتربت من غرفة النوم وجدت ثمة عتمة على السرير. اقتربت أكثر برعب. دخلت الغرفة فهالها المنظر. كان آدم المحروم مذبوحاً على سريره، غارقاً في دمه الذي أغرق الفراش ولوث الجدار بل وسال على الأرض. فجأة أحست بالتقيؤ. أمسكت فمها بيدها وهرعت هاربة من المنزل.

ما أن خرجت من الصالة حتى أخذت ابنها وهربت من المشتمل. حين صارت في الزقاق لمحت أحد أبناء زقاقهم وهو يحاول أن يصعد سيارته. أشارت إليه بيدها. فانتبه لها. ظل واقفاً عن باب السيارة ولم يدخل إليها. حين وصلت إليه، كانت شاحبة كالموتى، وبالكاد كانت الكلمات تخرج من فمها، كانت تشير بيدها إلى المشتمل، والدموع تنزل دون بكاء من عينيها، وهي تقول كلمات متقطعة:

– ذبحوه.. الكلاب ذبحوه..!!!

لم يفهم الرجل ما تقول، لكنه فهم بأن ثمة أمراً جللاً قد حدثت، فسأل:

– ذبحوه.. مَن ذبح مَن؟

فأشارت إلى المشتمل. في تلك اللحظة مر رجل آخر وامرأة، فأشار الرجل إليهما، قائلا:

– الأخت تقول ثمة رجل مذبوح في تلك الدار.

انتبه الرجل وزوجته لهما وقال الرجل متحمساً، وبشهامة العراقيين، لاسيما وأنه مع زوجته:

– تعال لنرى..

كانت زوجته تلكزه وهي تهمس له:

– لماذا تورط نفسك في المشاكل، ما لنا وله؟

– فنظر زوجها إليها شزراً قائلاً:

– ماذا؟ ألم تبق رحمة في قلوب الناس، حينما يسمعون بشخص مذبوح ويخافون الإقتراب؟

توجه الرجلان تتقدمهم حواء أم الملاك وهي تمسك بيد ابنها، وكذلك المرأة زوجة الرجل الآخر. دخلوا المشتمل.

بعد دقائق خرجوا جميعاً. إتصل أحد الرجلين بالشرطة. وبينما كانوا ينتظرون الشرطة، سألها الرجل الأول:

– هل تعرفينه؟

– نعم.. إنه ابن عمي.

– وهل تعرفين من ذبحه؟

– نعم.. أخوا زوجي ورجلان آخران كانا معهما.

– آها.. وكيف عرفت ذلك؟

– لأنهم جاءوا صباحا عندي، وكان قميص أحدهم ملوثاً بالدم، ويد أحدهم مجروحة، وعلى وجه أحدهم نقاط دم. وهددوني..

– لا تخافي.. قولي كل ما تعرفين للشرطة..

– سأقول كل شيء. أنا لا أخافهم بعد الآن.

في تلك اللحظات جاءت سيارة الإسعاف مع سيارتين للشرطة. إنشغلوا جميعا بالحدث. جاء المخططون، والمحققون، وأخيرا حملوا الجثة. واتفق المحققون معها

على أن يتم استجوابها في بيتها أول الأمر.

فتحت لهم باب صالة بيتها. وخلال كل ذلك الوقت، كانت هي في أعماقها قد قررت أن تنتقم من أخوي زوجها ومن كان معهما بأي شكل، حتى لو تطلب ذلك أن تبالغ في الأشياء. جلست هي وجلس إثنان من المحققين معها. وبينما كان صغيرها في حجرها أخذت تتحدث هي عن أخوي زوجها، وما جرى خلال هذا الفجر البغدادي الأسود.

شكر وتقدير لا بد منه

يسرني، بل من واجبي، أن أتوجه بالشكر إلى صديقي الشاعر والروائي المتميز حميد العقابي على متابعه كتابة هذه الرواية منذ فصلها الأول، وتدقيقه للمخطوطة وتصويبه لما جاء فيها، ولاقتراحاته المفيدة والجميلة. فله مني كل المحبة والشكر والعرفان.

بُرهان شاوي